

المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

إيتالو زفقيشو وعى دزينو

ترجمة: مروة عبد المنعم عبد الرؤوف

مراجعة: سوزان بديع إسكندر

1661



سلسلة
الإبداع
القصصى



Istituto
Italiano
di
Cultura

وعی دزینو

**المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور**

— سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1661
- وعى دزينو
- إيتالو زقيقو
- مروة عبد المنعم عبد الرؤوف
- سوزان بديع إسكندر
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:

La Coscienza di Zeno

Italo Saevo

**Questa opera e' stata pubblicata con il contributo del
Ministero degli Affari Esteri Italiano.**

تم نشر هذا العمل بمساهمة من وزارة الخارجية الإيطالية



حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا — الجزيرة — القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ — ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

وعى دزینو

تألیف: إیتالو زقیفو
ترجمة: مروة عبد المنعم عبد الرؤوف
مراجعة: سوزان بدیع إسکندر



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

زقيشو؛ إيتالو
وعى دزينو؛ تأليف؛ إيتالو زقيشو؛ ترجمة؛ مروة عبد المنعم عبد الرؤوف؛
مراجعة؛ سوزان بديع إسكندر
ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٦٤٤ ص: ٢٠ سم
١ - القصص الإيطالية.
(أ) عبد الرؤوف، مروة عبد المنعم (مترجم)
(ب) إسكندر، سوزان بديع (مراجع)
(ج) العنوان

٨٥٣

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٦٦٧٣
الترقيم الدولى 1-978-977-704-258-1 I.S.B.N.
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى
تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة
عن رأى المركز.

المحتويات

7 مقدمة
9 تمهيد
13 التدخين
49 وفاة والدى
93 قصة زواجى
233 زوجتى والعشيقه
401 قصة شركة تجارية
587 التحليل النفسى

مقدمة

أنا الطبيب الذى يتحدثون عنه أحياناً فى هذه القصة بكلماتٍ غير مشجعة، فمن يكن خبيراً بالتحليل النفسى يعرف كيف يقدر البُغض الذى يُكنّه له المريض.

ولن أتحدث عن التحليل النفسى؛ لأنهم سيتحدثون عنه بقدرٍ كافٍ هنا بالداخل. وينبغى أن أطلب المَعذرة عن حثِّ مريضى على سرد سيرته الذاتية، وسوف يشيح الباحثون فى التحليل النفسى بوجوههم، عن مثل هذا الأمر الجديد. ولكنه كان عجوزاً، وأملت أن يحيا ماضيه من جديد فى هذه الاستعادة، وأن تكون سيرته الذاتية بمثابة تمهيد جيد للتحليل النفسى. وإلى يومنا هذا أرى فكرتى طيبة؛ لأنها حققت لى نتائج ما كنت أمل فيها، وكانت ستصبح أفضل من ذلك لو أن المريض لم يهرب من العلاج فى اللحظة الحاسمة، ويسلب منى ثمرة تحليلى المتأنى الصبور لهذه الذكريات.

أنشرها بروح الانتقام وأمل أن تزعجه، بل وليعلم أنى مستعد لأن أقاسمه المكافآت السخية التى سأنالها من هذا النشر، شريطة أن

يستأنف العلاج. كان يبدو أنه مشغوف بمعرفة نفسه! لو يعرف كم من المفاجآت يمكن أن تتجلى له من التعقيب على الحقائق والأكاذيب العديدة التي جمعها هو هنا!

"س"

الدكتور S.

تمهيد

أيلزم أن أرى طفولتي؟ إن أكثر من خمسة عقود تفصلني عنها، وربما تصل إليها عيناى اللتان تعانيان طول النظر إن كان الضوء الذى لا يزال ينيرهما لا تمنعه عقبات من كل نوع، بل جبال حقيقية شاهقة: سنوات عمرى وبضع ساعات.

أوصانى الطبيب ألا أتمادى فى النظر إلى بعيد؛ فالأمور الحديثة نفيسة فى ذاتها وخاصة خيالات وأحلام الليلة المنقضية. لكن ينبغى أن يكون هناك شىء من النظام، ولكى أنطلق من البداية فما إن انصرفت من عند الطبيب الذى ترك مدينة "تريستى" فى هذه الأيام ولدة طويلة؛ ولكى أيسر عليه الأمر فقط اشتريت كتاباً عن التحليل النفسى وقرأته، إنه ليس معقداً فى فهمه، ولكنه ممل إلى حد كبير.

وبعد أن تناولت وجبة الغداء، استرخيت فى هدوء على أريكة، ممسكاً فى يدي بقلم وورقة، وجبهتى منبسطة؛ لأننى أخليت ذهنى من أى جهد، ويبدو أن أفكارى كانت فى معزلٍ عني، إننى أراها ترتفع وتنخفض... ولكن هذا هو نشاطها الوحيد، ولكى أذكر ذهنى أنها أفكارى وأن عليها

أن تتجلى، أقبض على القلم. هاهو ذا جبينى مقطب؛ لأن كل لفظ يتكون من حروف كثيرة، ويحيى الحاضر بغلبته، ويبقى الماضى فى الظل.

غاليت بالأمس، واستغرقت فى الذكريات، ولكن انتهت بى التجربة إلى نُعاس عميق، لم أخرج منه إلا براحة نفسية وشعور غريب لما رأيته فى أثناء النعاس من أشياء هامة، ولكنى نسيتها، وتلاشت إلى الأبد.

وأنا اليوم ما زلت يقظاً، ويرجع الفضل فى ذلك إلى قلمى الذى أمسكه بيدى، أرى وأتخيل صوراً غريبة، لا يمكن أن تكون لها صلة بماضٍ. قاطرة تتير دخاناً فوق مطلع، وهى تجر عربات لا حصر لها، من يدرى من أين تأتى، وإلى أين تذهب، ولماذا جاءت إلى هنا فى هذا الوقت.

وبين اليقظة والنوم أتذكر أن هذا الكتاب يؤكد أنه بهذا الأسلوب يمكننى أن أصل إلى تذكر طفولتى الأولى، أى منذ ولادتى. وعلى الفور أرى رضيعاً بلفافته، ولكن لماذا ينبغى أن يكون أنا ذلك الطفل؟ إنه لا يشبهنى على الإطلاق، بل أظن أنه ولد منذ بضعة أسابيع، وضعته أخت زوجتى، وأرونا إياه على أنه معجزة؛ لأن يديه صغيرتان وعينييه واسعتان للغاية. ياله من طفل مسكين! نعم بالتأكيد يجب أن أتذكر طفولتى! ولا أجد حتى الوسيلة التى بها أخطرک، وأنت تعيش الآن طفولتك، عن أهمية استعادتها لما فيه صالح عقلك وصحتك. متى ستدرك أنه جيد أن تعرف كيف تحفظ عن ظهر قلب قصة حياتك، حتى ذلك الجزء الكبير منها الذى ينفرك؟ وفى تلك الأثناء وفى اللاوعى تأخذ فى البحث عن المتعة فى جسدك الصغير،

وستقودك اكتشافاتك اللذيذة إلى الألم والمرض، وسيدفعك إليهما أيضاً أولئك الذين لا يرغبون فى ذلك.

ما العمل؟ من المحال حماية مَهْدك، وفى داخلك - أيها الطفل الصغير - تأخذ تركيبة خفية فى التكوين. وكل لحظة تمر تلقى فيه بمادة رادة للفعل. هناك احتمالات عديدة للمرض بالنسبة لك؛ لأنه يمكن أن تكون كل لحظاتك نقية. ثم إنك - أيها الصغير - من نفس دم أشخاص أعرفهم. واللحظات التى تمر بها الآن يمكنها أن تكون لحظات نقاء أيضاً، ولكنها ليست كذلك بالتأكيد كل الدهور التى عملت على إعدادك.

ها أنا ذا أبعد بما يكفى عن الخيالات التى تخالط النوم، وسأعيد المحاولة غداً.

التدخين

طلب منى الطبيب الذى تحدثت عنه أن أبدأ عملى بتحليل تاريخى
لميلى إلى التدخين قائلاً:

- اكتب! اكتب! سترى كيف ستصل إلى اكتشاف نفسك بالكامل.

أظن أنه يمكننى أن أكتب عن التدخين هنا على مكتبى، دون أن
أمضى إلى أحلامى على تلك الأريكة. لا أعرف كيف أبدأ، وألتمس
المساعدة من السجائر التى تتشابه جميعها تماماً مع تلك التى
أمسكها بيدي.

اليوم، أكتشف فى سرعة بعض الأشياء التى لم أكن أتذكرها قط.
فالسجائر الأولى التى دخنتها لم تعد موجودة فى الأسواق. وفى
السبعينيات كانت توجد فى النمسا، وكانت تباع فى علب من الكرتون
مدموغة بعلامة النسر ذى الرأسين^(١)، وهكذا: حول إحدى تلك العلب،
يتجمع على الفور عدة أشخاص ببعض من ملامحهم التى تكفى لتوحى

(١) نسبة إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية التى كانت مدينة تريستي تحت سيادتها.

لى بأسمائهم، ولكنها ليست بكافية لى تحرك مشاعرى للقائهم غير المتوقع. أجتهد أن أبلغ أكثر من هذا وأمضى إلى الأريكة: الأشخاص تتلاشى، ويحل محلهم مهرجون يسخرون منى. أعود يائساً إلى المائدة.

وكان وجه جوزيبى من بين تلك الوجوه وهو شاب من سنى نفسه وصوته أجش بعض الشيء، أما الآخر فكان وجه أخى الذى كان يصغرنى بعام، ووافته المنية منذ عدة سنوات. ويبدو أن جوزيبى كان يحصل من والده على مال كثير، ويهدى إلينا تلك السجائر. ولكنى على يقين أنه كان يهدى الأكثر منها إلى أخى؛ لذا رأيت نفسى مضطراً إلى الحصول على المزيد منها. وهكذا، حدث أنى سرقت، فى الصيف، كان والدى يترك فوق مقعد فى حجرة المعيشة سترته، وفى جيبها الداخلى كانت توجد دائماً قطع نقود صغيرة: كنت أحصل على العشر قطع اللازمة لشراء اللعبة الثمينة، وأدخن العشر سجائر التى تحتوى عليها، الواحدة تلو الأخرى حتى لا أحتفظ طويلاً بثمرة سرقتى المثيرة للشبهة.

كل هذا كان كامناً فى وعيى وفى متناول يدى. يظهر الآن فقط؛ لأننى لم أكن أعرف من قبل أنه ذو أهمية. ها أنا ذا قد سجلت بداية العادة الدنيئة و (من يعرف؟) ربما أكون قد شفيت منها. ولهذا، ولكى أختبر نفسى، أشعل آخر سيجارة، وقد ألقيتها بعيداً فى الحال وأنا مستاء.

ثم أذكر أن والدى فاجأنى يوماً والسترة فى يده. وأنا فى سفاهة لم تعد لدى الآن، ولا تزال تثير استيائى (من يعرف أن هذا الاستياء له أهمية كبيرة فى علاجى) قلت له إن فضولى دفعنى لأعد أزراره. وضحك

والدى لىولى للرياضيات أو الحياكة، ولم يدرك أنى وضعت أصابعى فى جيب سترته، وأقول إن تلك الضحكة الموجهة إلى براءتى حينما لم يعد لها وجود، كانت كافية لمنعى من السرقة نهائياً، وهذا يعنى... أننى كنت لا أزال أسرق، ولكن دون علمى بذلك، وكان والدى يترك فى المنزل أنصاف سيجار فيرجينيا على حواف الموائد والأطباق، كنت أظن أنها طريقته فى إلقائها، وكنت أظن أيضاً أنى أعرف أن خادمتنا العجوز كاتينا كانت ستلقى بها، كنت أذهب لأدخنها خلسة، وفى اللحظة التى كنت أستولى فيها عليها كانت تنتابنى بالفعل قشعريرة نفور، وأنا أعلم أى توعك ستجلبه على صحتى، ثم كنت أدخنها حتى يتسبب جبينى عرقاً بارداً وتتلوى معدتى، وهذا لا يعنى أنى كنت منك القوى فى طفولتى.

أعرف تماماً كيف أبرأنى والدى من تلك العادة، ذات يوم فى فصل الصيف عدت إلى المنزل من رحلة مدرسية وكنت متعباً وأتسبب عرقاً، ساعدتنى أمى فى خلع ملابسى، وبعد أن تلففت فى منزرى شرعت فى النوم على أريكة جلست عليها وهى مشغولة فى شىء من الحياكة، كنت قريباً من النوم، إلا أن عيني كانتا - مع ذلك - مليئتين بضياء الشمس وتأخرت فى فقد حواسى، العذوبة التى تصاحب الراحة فى تلك المرحلة من العمر فى أعقاب إرهاق شديد، تتجسد لى الآن على شكل بعينه، وفى وضوح، وكأنتى الآن هناك إلى جانب ذلك الجسد الحبيب الذى لم يعد له وجود.

أتذكر الحجرة الكبيرة ذات الجو المنعش، حيث كنا نلعب ونحن أطفال، التي انقسمت الآن إلى شطرين في هذه الأزمنة التي تفتقر إلى الفراغ. في ذلك المشهد لا يظهر أخى، وهذا ما يدهشنى؛ ظناً منى أنه كان ينبغى أن يكون حاضراً في تلك النزهة ثم يشاركنى في الراحة. أكون نائماً هو أيضاً على الجانب الآخر من تلك الأريكة الكبيرة؟ أنظر إلى ذلك المكان ولكنه يبدو لى شاغراً. لا أرى سوى ولذة الراحة ووالدى، ثم والدى الذى أسمع صدى كلماته. كان قد دخل ولم يلمحنى فى الحال؛ لأنه نادى بصوتٍ عالٍ:

– ماريا!

وبحركة مصحوبة بصوتٍ خافت أشارت أمى إلى وكانت تظن أنى غارق فى النوم، بيد أنى كنت أسبح عليه وأنا فى كامل وعيى. وكان يسرنى كثيراً أن أبى يبدى اهتماماً بى فلم أتحرك. تذمر والدى بصوتٍ خفيض:

– أرى أنى سأسباب بالجنون. إننى على يقين من أنى تركت منذ نصف الساعة على ذلك الصوان نصف سيجارة و الآن لا أجده. حالتى أسوأ من المعتاد. الأشياء تفلت منى.

وبصوت خفيض أيضاً، ولكن يشى بضحكة كتمتها من الخوف فقط أن توقظنى أجابت والدى:

– ومع ذلك لم يدخل تلك الحجرة أحد بعد تناول الغداء.

همهم والدى:

- واما اناى اعرف ذلك اىضاً، ييدو اناى جننت.

استدار وخرج.

فتحت نصف عينى وشاهدت اُمى. عادت الى عملها واستمرت تبتسم. من المؤكد انها لم تظن ان والدى كاد يفقد عقله حتى تضحك هكذا من مخاوفه. ظلت تلك الابتسامة مطبوعة فى خيالى، حتى اناى تذكرتها فى الحال عندما وجدتها ذات يوم على شفتى زوجتى.

ثم ان نقص المال لم يكن عائقاً امام اشباع تلك الرذيلة، وإنما هى النواهى التى كانت تعمل على إثارتها. اذكر اناى دخنت كثيراً وأنا مختبئ فى جميع الأماكن الممكنة. ولأنه كان يلاحقنى شعور شديد بالتقرز اذكر اناى مكثت لنصف الساعة فى قبو مظلم مع اثنين من الصبية، لا أجد فى ذاكرتى شيئاً عنهما سوى ملابسهما الطفولية: زوجان من السراويل يشرفان على أقدام، لأن بداخلهما جسداً أنهكه الزمن. كان لدينا سجائر كثيرة، وكنا نود أن نرى مَنْ منا يستطيع أن يحرق منها أكثر، فى وقتٍ وجيز. لقد فزت، وببطولة أخفيت الوعة الصحية التى أصابتنى من هذا التدريب الغريب. بعد ذلك خرجنا الى النور والهواء. كان ينبغى أن أغمض عينى حتى لا أسقط مغشياً على. استعدت وعيى وتفاخرت بالانتصار. حينذاك، قال لى أحد الصبيين:

- لا أبالى بانى خسرت؛ لانى لا أدخن إلا قدر اللازم. أتذكر الكلمة الصحيحة وليس الوجه الصغير السليم أيضاً بالتاكيد الذى كان يلتفت

بالضرورة إلى في تلك اللحظة. ولكنني في ذلك الحين لم أكن أعرف ما إذا كنت أحب أم أكره السيجارة ومذاقها والحالة التي يحدثها لي النيكوتين. وعندما أدركت أنني أبغض كل هذا، ازداد الأمر سوءاً. وعرفت ذلك في سن العشرين من عمري تقريباً. في ذلك الحين عانيت لعدة أسابيع من التهاب شديد في الحلق مصحوب بحمى. فرض على الطبيب الراحة في السرير والامتناع المطلق عن التدخين. أذكر هذه الكلمة: المطلق! أذنتي وأضفت الحمى عليها لوناً: فراغ شاسع ولا شيء يقاوم الضغط الهائل الذي سرعان ما ينشأ حول الفراغ.

عندما تركني الطبيب، ظل والدي (توفيت والدتي منذ عدة سنوات) بجوارى لبعض الوقت و بفمه سيجار كبير. وفي أثناء انصرافه وبعد أن مسح يده برفق على جبينى الملتهب، قال لى:

– لا تدخن، أسمع!

انتابنى قلق شديد. فكرت: "بما أنه يؤذيني، لن أدخن أبداً، ولكن قبل ذلك أود أن أدخن للمرة الأخيرة". أشعلت سيجارة وعلى الفور شعرت بالتححرر من القلق، على الرغم من أن الحمى ربما كانت تزداد، وعلى الرغم من أنني كنت أشعر مع كل استنشاق للدخان باحتقان فى اللوزتين، كأنما لامستهما جمرة محترقة. انتهيت من تدخين السيجارة كلها بالعناية نفسها التى يقوم بها من يوفى نذراً. ومع استمرار ألمى بصورة مفرغة، دخنت سجائر أخرى كثيرة، فى أثناء فترة المرض. كان والدى يذهب ويجىء بسيجاره فى فمه قائلاً:

- أحسنت! بضعة أيام أخرى من الامتناع عن التدخين وستشفى.
كانت هذه الجملة تكفى لى تجعلنى أرغب فى انصرافه فوراً، حتى
أسرع إلى السجارة المرغوبة. كنت أظهار أيضاً بالنوم لى أدفعه أن
ينأى بعيداً.

جلب لى ذلك المرض ثانى متاعبى: وهو الاجتهاد فى التخلص من
المشكلة الأولى. أصبحت أيامى مليئة بالسجائر وبالعزم على عدم العودة
إلى التدخين، ولى أذكر على الفور كل شىء، فمن حين إلى آخر ما زالت
أيامى كما هى. ودوار السجائر الأخيرة الذى أصابنى فى العشرين من
عمرى، ما زال مع ذلك يدور. فالعزم أقل شدة والضعف يجد تسامحاً
أكبر فى نفسى العجوز. فعندما يتقدم بنا السن نبتسم من الحياة ومن
كل ماتحويه. بل أستطيع القول إنه منذ فترة من الوقت وأنا أدخن العديد
من السجائر... وهى ليست بالأخيرة.

على غلاف قاموس أجد عبارة سجلتها بخط جميل وبشئ من
الزخرفة:

«اليوم، ٢ فبراير ١٨٨٦، أنتقل من دراسة القانون إلى دراسة
الكيمياء. السجارة الأخيرة!».

كانت سجارة أخيرة ذات أهمية كبيرة. أذكر الآمال جميعها التى
صاحبته. انتابنى غضب من القانون الكئسى الذى بدا لى بعيداً تماماً
عن الحياة، وأسرعت فى اتجاه العلم؛ فهو الحياة بعينها على الرغم من

أنه ينتهى بها المطاف إلى قارورة من القوارير. كانت تلك السيجارة تعنى لى الرغبة فى النشاط (الحركة اليدوية أيضاً) والفكر الواضح، المعتدل والراسخ.

ولكى أبتعد عن تركيبات الكربون التى لا أؤمن بها، عدت إلى القانون. مع الأسف! كان خطأ سجلته أيضاً سيجارة أخيرة وجدت تاريخها مدوناً على كتاب من كتبى. كانت هذه هامة أيضاً، وأذعنت إلى العودة إلى تعقيداتي وتعقيداتك وتعقيداته، بعزم أفضل، وأنا أذيب أخيراً مجموعات الكربون. ووجدت أنى غير مؤهل للكيمياء أيضاً بسبب عدم كفاءة ملكاتي اليدوية. كيف كان يمكن أن أتحصل عليها مادمت كنت مستمرا فى التدخين كالتركي؟

الآن وأنا هنا لأحل نفسى، ينتابنى الشك: ألعنى أحببت السيجارة أكثر من أن أستطيع صب مسئولية عجزى عليها؟ من يعرف إذا ما كنت أقلعت عن التدخين أكنت أصبح الرجل المثالى الذى كنت أنتظر؟ ربما كان ذلك الشك هو ما قيدنى برذيلتى لأنها وسيلة مريحة فى عيش ما نعتقد أنه مكنون فينا من عظمة. أتقدم بهذا الافتراض كى أفسر ضعفى وأنا شاب، ولكن دون اقتناع أكيد. الآن وقد صرت عجوزاً ولا يحتاج أحد شيئاً منى، فإننى أنتقل على أية حال من السيجارة إلى القرار ومن القرار إلى السيجارة. ماذا تعنى اليوم تلك القرارات؟ أو مثل طبيب الصحة العجوز الذى وصفه "جولدوني"، هل أريد أن أموت سليماً بعد أن عشت مريضاً طوال حياتى؟ ذات مرة، عندما غيرت مسكنى وأنا طالب،

كان على أن أغطي جدران الغرفة على نفقتي؛ لأنني كنت قد كسوتها بالتواريخ. ولعلني تركت تلك الحجرة لأنها صارت بالتحديد مقبرة لنياتي الحسنة، واعتقدت أنه لم يعد بالإمكان تسجيل المزيد منها في ذلك المكان.

أرى أن للسيجارة مذاقاً أكثر قوة عندما تكون الأخيرة. والأخريات لها أيضاً مذاق خاص، ولكن أقل شدة. فالأخيرة تكتسب نكهتها من الشعور بالانتصار على الذات والأمل في مستقبل قريب من القوة والصحة. والأخرى التالية لها أهمية؛ لأن في إشعالها احتجاجاً لحرية المرء ومستقبل من القوة والصحة يدوم، بل يبتعد أكثر قليلاً.

كانت التواريخ مطبوعة على جدران الحجرة بألوان عديدة وبالزيت أيضاً. فالقرار المتخذ عن إيمان أكثر صدقاً كان يجد تعبيراً متسقاً في قوة اللون الذي كان عليه أن يمحو اللون المستخدم في القرار الأسبق. كانت هناك تواريخ مفضلة لدى لتوافق الأرقام. أتذكر تاريخاً من القرن الماضي خيل لي أنه لابد أن يغلق إلى الأبد ذلك الصندوق الذي وددت أن أدفن فيه رذيلتي: «اليوم التاسع من الشهر التاسع عام ١٨٩٩». له دلالة، أليس كذلك؟ ثم أتى إلى القرن الجديد بتواريخ موسيقية بشكل آخر: «اليوم الأول للشهر الأول عام ١٩٠٦». وما زال يبدو لي أنه لو أمكن إعادة ذلك التاريخ لأمكنني بداية حياة جديدة.

ولكن التقويم لا تنقصه التواريخ، وبشيء من التخيل يمكن أن يتوافق كل تاريخ منها مع قرار جيد. وبدا لي كما لو أنه يتضمن أمراً

علوياً حاسماً، أذكر منها هذا القرار: «اليوم الثالث للشهر السادس عام ١٩١٢ الساعة الرابعة والعشرون». كما لو أن إيقاعه يوحى بأرقام تتضاعف في مراهنة.

سبب لي عام ١٩١٣ لحظة تردد. لم يكن للشهر الثالث عشر وجود حتى يتوافق مع العام، وإنما علينا ألا نتوهم ضرورة وجود تآلف في أرقام تاريخ ما لكي نعطي أهمية للسيجارة الأخيرة. والتواريخ التي أجدها مدونة على كتب أو لوحات مفضلة لدى كثيراً ما تلفت النظر بعدم تناسقها. على سبيل المثال، اليوم الثالث من الشهر الثاني عام ١٩٠٥ الساعة السادسة! له إيقاعه الخاص إذا ما فكرنا فيه؛ حيث إن كل رقم ينكر ما قبله. أحداث كثيرة، بل جميعها، منذ وفاة بيو التاسع إلى ميلاد ابني، بدت لي جديرة بالاحتفال، من خلال ذلك القرار الحاسم المعتاد. في العائلة كثيرون ممن ينبهرون بتذكرى لمناسباتنا السعيدة والحزينة، ويظنون أنني طيب جداً!

حاولت أن أعطي مغري، فلسفياً لمرض السجارة الأخيرة لكي أخفف من ظهوره الأحمق. يقال، بناء على موقف رائع جداً: «قط، مطلقاً». ولكن أين يتجه هذا الموقف إذا ما حفظ الوعد؟ فالموقف لا يمكن الوصول إليه إلا إذا جدد العزم. ثم إن الزمن ليس بالنسبة لي ذلك الشيء المحال الذي لا يتوقف أبداً. بالنسبة لي، لي أنا فقط، يعود.

المرض اقتناع وأنا ولدت بذلك الاقتناع. وما كنت لأذكر الكثير عن المرض الذي أصابني في سن العشرين، لو لم أصفه للطبيب في ذلك

الحين. أتعجب كيف نذكر ما يقال من كلمات أكثر من المشاعر التي لم تصل إلى تحريك الهواء.

ذهبت إلى ذاك الطبيب لأنه قيل لى إنه يعالج الأمراض العصبية بالكهرباء. ظننت أنه باستطاعتي أن أحصل من الكهرباء على القوة اللازمة للإقلاع عن التدخين.

كان الطبيب بطن كبير وكانت أنفاسه الثقيلة من الربو تصاحب دقات الآلة الكهربائية التي وضعها لتعمل، على الفور، فى الجلسة الأولى التي خيبت أملى؛ لأننى كنت أنتظر أن يفحصنى الطبيب، ليكتشف السم الذى لوث دمى. لكنه أفاد، على عكس ذلك، بأننى سليم البنية، ولما شكوت من سوء الهضم والنوم افترض نقص بعض أحماض فى معدتى، وأن حركة تقلص الأمعاء (كرر تلك الكلمة مرات عديدة حتى أننى ما نسيته قط) أقل نشاطاً. وأعطانى أيضاً حامضاً أتى على، فمنذ ذلك الوقت وأنا أعانى من زيادة نسبة الحموضة.

عندما أدركت أنه لن يتوصل أبداً بمفرده لاكتشاف مادة النيكوتين فى دمى، وددت مساعدته، وعبرت عن ارتيابى فى أن وعكتى ترجع إلى مادة النيكوتين. وبعناء رفع منكبيه العريضين قائلاً:

حركة تقلص الأمعاء... حمض... لا شأن للنيكوتين!

بلغت الجلسات الكهربائية السبعين ولاستمرت لو لم أراكتفائى بذلك القدر. دون توقُّع لمعجزات، كنت أسرع إلى تلك الجلسات أملاً فى

إقناع الطبيب بمنعى من التدخين. من يدري كيف كانت ستسير الأمور، لو أن تحريماً كهذا شد أزرى فى قراراتى.

ها هو ذا وصف أعراض مرضى كما وصفته للطبيب: «لا يمكننى استذكار دروسى، وحتى فى المرات النادرة التى أذهب فيها إلى فراشى لبعض الوقت ينصرف عني النعاس، حتى دقائق أجراس الساعة الأولى؛ لذا فإننى أتأرجح بين القانون والكيمياء لأن كليهما يحتاج إلى عمل يبدأ فى ساعة ثابتة، وأنا لا أعرف أبداً فى أية ساعة أستيقظ من نومى».

- الكهرياء تعالج أى نوع من الأرق، هكذا أصدر اسكولابيو حكمه، وعيناه موجهتان دائماً إلى وجه الساعة بدلاً من المريض.

واصلت الحديث معه كما لو كان قادراً على فهم التحليل النفسى الذى عرفته، بشكل متواضع، قبله. قصصت عليه شقائى مع النساء. فواحدة لا تكفينى ولا الكثير منهن أيضاً. أرغبهن جميعاً! إثارتنى فى الطريق مفرطة: فمتى عبرن الطريق، فكلهن لى. كنت أحدى إليهن بوقاحة رغبة منى فى الإحساس بالحيوانية. كنت أجردهن فى خيالى من ملابسهن وأترك لكل واحدة منهن حذاءها البوت الطويل، وأخذهن جميعاً بين ذراعى ثم أتركهن فقط عندما أتأكد تماماً من أنى عرفتهن كلهن.

كانت صراحتى وكلامى مهديرين! كان الطبيب يلهث فى صعوبة:

- أتمنى ألا يبرئك العلاج بالجلسات الكهربائية من هذا المرض. لا يتقصنا غير هذا! لن أمس أبداً رامكورف، إن كان يُخشى منه تأثير كهذا.

قص على نادرة كان يراها ممتعة للغاية. مريض له علّتى نفسها ذهب إلى طبيب ذائع الصيت ورجاه أن يبرئه، وبعد أن أفلح الطبيب فى ذلك تماماً، اضطر لأن يهاجر؛ لأنه لو لم يفعل ذلك لقضى الآخر عليه.

- إثارتى هذه ليست الإثارة المناسبة، هكذا صرخت. إنها ناتجة عن السم الذى يُلهب عروقى!

همهم الطبيب ووجهه متألم:

- لا يرضى أحد أبداً بنصيبه.

وكان لى أقنعه أنى فعلت كل ما لم يرد فعله هو، وبحثت فى مرضى وأنا أجمع عنه كل أعراضه: شرود ذهنى! كان ذلك أيضاً سبباً يحول دون المذاكرة. كنت أستعد للسفر إلى جامعة فى جراتز بالنمسا لأؤدى أول امتحان عام، وباهتمام شديد دونت للتذكرة المواد جميعها التى أحتاج إليها حتى آخر امتحان. وانتهى بى الأمر إلى أن أدركت، قبل أيام قليلة من الامتحان، أنى استذكرت مواد لن أحتاج إليها إلا بعد بضع سنوات؛ لذا كان على أن أرجى تأدية الامتحان. وحقاً أننى استذكرت قليلاً من تلك المواد الأخرى بسبب فتاة أحد الجيران، لم تسمح لى إلا بمجرد دلال به شىء من جرأة. عندما كانت تُطل من النافذة كنت أكف عن رؤية كتابى. أليس من يشغل نفسه بمثل هذا الفعل أحق؟ أتذكر وجه الفتاة الصغير، أبيض البشرة، عند النافذة: بيضاوى الشكل تحيط به خصلات الشعر المجعدة، المهدلة، الحمراء المصفرة. كنت

أنظر إليها وأحلم بأن أضم ذلك البياض وذلك اللون الأصفر المائل إلى الحمرة على وسادتي.

تمتم اسكولابيو:

- دائماً ما يكون هناك شيء طيب وراء الدلال والمغازلة. وعندما تصلون إلى عمري هذا لن تغازلوا أبداً.

أنا اليوم على يقين من أنه ما كان يعرف شيئاً عن المغازلة. لقد أتممت السابعة والخمسين وأنا واثق بأنني إن لم أقلع عن التدخين أو إن لم يُبرئني التحليل النفسي، فإن نظرتي الأخيرة على فراش موتي ستكون تعبيراً عن رغبتى فى ممرضتى، إذا لم تصبح هذه الأخيرة زوجتى، وإذا ما سمحت زوجتى أن تكون حسناء!

كنت صريحاً كما لو أنني على كرسى الاعتراف: لم تكن المرأة تُعجبني بكاملها، بل... أجزاء منها! أحب فى النساء جميعهن القدمين الصغيرتين إذا ما اكتستا بحذاء أنيق، وأحب فى كثير منهن العنق النحيل، بل الممتلئ أيضاً، والصدر إذا ما كان ناهداً، ناهداً. أخذت أواصل عد الأجزاء التشريحية النسائية، لكن الطبيب قاطعنى قائلاً:

- هذه الأجزاء تجعل من المرأة امرأة كاملة.

قلت حينئذ كلمة هامة:

- الحب السليم هو احتواء امرأة واحدة وكاملة بخصالها وذكائها.

والى ذلك الحين لم أكن بالتأكيد أعرف مثل ذلك الحب، وحتى عندما صادفنى لم يهب لى الصحة، لكن الأمر الهام بالنسبة لى هو أنتى أذكر أنتى اقتفيت أثر المرض حينما كان الطبيب يرى الصحة، وأن تشخيصى هذا قد تحقق بعد ذلك.

وجدت فى شخص صديق لى، ليس طبيباً، من يفهمنى أفضل ويدرك حقيقة مرضى. لم أنل منه فائدة كبيرة، بل علامة جديدة فى حياتى، بقى صداها حتى الآن.

كان صديقى هذا رجلاً ثرياً يجمّل أوقات فراغه بالدراسات والأعمال الأدبية. كان يتحدث أفضل بكثير مما يكتب؛ ولذا لم يعرف العالم أى أديب جيد كان. كان سميناً بديناً، وعندما تعرفت عليه كان يتابع فى نشاط كبير علاجاً لإنقاص الوزن. وفى أيام قليلة توصل إلى نتائج كبيرة، لدرجة أن الجميع فى الطريق كانوا يدنون منه أملاً فى أن يشعروا بالتفوق عليه بصحتهم، وهو المريض. كنت أحسده؛ لأنه كان يستطيع أن يفعل كل ما يريد ولازمته طيلة فترة علاجه. كان يسمح لى أن ألمس بطنه الذى كان ينقص كل يوم وأنا، فى حقد وحسد، كنت أود أن أقلل من عزمته، فقلت له:

– ولكن، بعد أن تتم العلاج، ماذا تفعل سيادتك بهذا الجلد كله؟

وفى هدوء شديد يجعل وجهه النحيل مضحكاً، أجاب:

– خلال يومين من الآن، سيبدأ العلاج بالتدليك.

كان علاجه معداً بكل التفاصيل، وكان من المؤكد أنه سيحرص على كل مواعيده.

كان لذلك أثره في ثقتي الكبيرة به، حتى أنني شرحت له قصة مرضى. أتذكر أيضاً هذا الوصف. قلت له إنه من الأسهل على ألا أتناول الطعام ثلاث مرات يومياً على أن أمتنع عن تدخين العديد من السجائر التي كانت تستوجب اتخاذ القرار ذاته، في كل لحظة. ولما كان مثل هذا القرار يشغل ذهني، فليس هناك متسع من الوقت لعمل شيء آخر؛ لأن يوليس قيصر هو الوحيد الذي كان يستطيع القيام بأمور كثيرة في اللحظة نفسها. كان شيئاً طيباً أنه لم يطالبني أحد بالعمل مادام أوليقي مدير أعمال ما زال حياً، ولكن كيف يحدث ألا يعرف رجل مثلي أن يعمل شيئاً في هذه الدنيا سوى أن يحلم أو يُسئ العزف على آلة الكمان التي يفتقر لما تتطلبه من ملكة؟

لم يف الرجل البدين الذي أصبح نحيفاً بإجابته على الفور. كان رجلاً ذا منهج. وفي البداية، فكر ملياً، ثم بلهجة الخبير اللائقة به نظراً لتفوقه الكبير في هذا المجال، فسر لي أن حقيقة مرضى تكمن في العزيمة وليس في السيجارة. كان على أن أحاول نبذ تلك الرذيلة دون عقد النية لذلك. لقد أخذ - حسبما يرى - يتكون بداخلي في خلال السنوات الماضية، شخصان أحدهما يفرض سلطته والآخر ما هو إلا عبد، ويتحين لحظة أن تخف المراقبة عليه حتى يخالف إرادة سيده، حباً في الحرية؛ لذا كان ينبغي أن نمنحه الحرية المطلقة، وكان لزاماً على في

الوقت ذاته، أن أنظر إلى رذيلتي كما لو أنها وجه جديد، لم أراه قط. كان الأمر يقتضى ألاّ نقاومه بل نتجاهله وننسى بطريقة ما، الاستسلام له، وأن نتحول عنه فى عدم الاكتراث باعتباره صُحبة غير جديرة فى حد ذاتها باهتمامنا. الأمر يسير، أليس كذلك؟

بالفعل بدا لى الأمر هيناً. وبعد أن أفلحت حقيقةً بعناء شديد فى القضاء على أية عزيمة بداخل نفسى، استطعت أن أقلع عن التدخين لساعات عديدة. ولكن عندما عاد فمى نظيفاً، شعرت بمذاق قد يماثل ما يشعر به الطفل الرضيع، وانتابتنى الرغبة فى سيجارة واحدة، وعندما دختها أحسست بالندم وجددت العزيمة التى كان يجب أن ألغيتها. كان الطريق أكثر طولاً، ولكنه يوصل المرء إلى النهاية نفسها.

ذات يوم، أشار لى أوليفى ذلك الوجد بفكرة: أن أشد من عزيمنى بنوع من الرهان.

أظن أنه كانت لأوليفى الهيئة نفسها التى أراه عليها الآن. رأيتة دائماً هكذا: مائل للانحناء قليلاً لكن قوى البنية، بدا لى دائماً عجوزاً، كما أراه اليوم وقد بلغ من العمر ثمانين عاماً، عمل وما زال يعمل بدلاً منى، أنا لا أحبه؛ لأننى أشعر أنه منعى من العمل الذى يقوم به.

وتراهننا! من يدخن أولاً سيدفع للآخر، ثم يسترد كلا الاثنين حريتهما. وهكذا استغلنى مدير أعمالى الذى فرضوه على لى بمنعى من تبديد تركة والدى، وحاول أن ينقص من ميراث والدتى الذى كنت أديره بحرية تامة!

اتضح لى أنه رهان مؤذٍ للغاية. لم أعد سيّداً بالتناوب، بل عبداً فقط لأوليقي ذاك الذى كنت لا أحبه! دخلت فى الحال، ثم ظننت أنّى أخدعه وأنا أستمر فى التدخين خلسة. لكن لماذا إذن قمت بتلك المراهنة؟ لجأت للبحث حينئذ عن تاريخ له علاقة أكيدة بتاريخ المراهنة لأدخن سيجارة أخيرة، وبهذا النحو كنت أتخيل أن أوليقى قد سجله بنفسه. إلا أن التمرد كان يستمر وكنت أصل إلى حد ضيق التنفس من كثرة التدخين. ولكى أتخلص من ذلك العبء ذهبت إلى أوليقى، واعترفت له.

أخذ العجوز المال وهو يبتسم، وفى الحال أخرج من جيبه سيجاراً ضخماً أشعله وقام بتدخينه فى لذة كبيرة. لم أرتب قط فى أنه لم يحافظ على الرهان، فمن المفهوم أن الآخرين يختلفون عني.

كان ابنى قد أتم الثالثة من عمره عندما لاحت لزوجتى فكرة جيدة. نصحتنى كى أخلع عني تلك الرذيلة، أن أحبس نفسى لبعض الوقت فى مصحة للأمراض العصبية. قبلت على الفور، وكنت أود قبل كل شيء أنه متى بلغ ابنى السن الذى يتمكن فيه من الحكم علىّ يجدنى مترزناً، هادئاً. فضلاً عن سبب آخر أكثر إلحاحاً وهو أن أوليقى كانت حالته سيئة ويهدد بتركى؛ ولهذا كنت سأرغم على أن أحل محله من حين لآخر، وكنت أرى نفسى غير جدير بالقيام بمهام كبيرة وبجسمى هذا الكم من النيكوتين.

فكرنا بادئ الأمر، فى الذهاب إلى سويسرا، أشهر بلد معروف بدور علاج الأمراض النفسية، ثم علمنا أنه يوجد بمدينة تريستى طبيب

يُدعى مولى، كان قد افتتح مستشفى خاصاً للعلاج النفسى. أوكلت إلى زوجتى مهمة أن تذهب إليه، فعرض عليها أن يخصص لى جناحاً ساكون فيه تحت مراقبة إحدى الممرضات ومعها معاونون آخرون. وعندما أخبرتنى زوجتى بذلك، كانت تبسم تارة وتارة أخرى تضحك بصورة صاخبة. كانت فكرة أن أدعهم يحتجزوننى تضحكها وكنت أضحك معها من ذلك، من قلبى. كانت أول مرة تشاركنى فيها محاولتى للشفاء، وحتى ذلك الحين لم تأخذ قط مرضى بجدية، وكانت تقول إن التدخين ليس إلا أسلوباً غريباً بعض الشيء فى الحياة وليس باعثاً على القلق المفرط، أعتقد أنها بعد زواجى منها قد اندهشت بما يرضيها؛ لأنها لم تسمعنى قط أسف على حرىتنى، وقد كنت منشغلاً بالحسرة على أشياء أخرى.

ذهبنا إلى المصحة النفسية فى اليوم الذى قال لى فيه أولىقى إنه تحت أية ظروف لن يمكث عندى أكثر من شهر. أعددنا بعض الملابس فى صندوق سفر، وفى الحال ذهبنا فى المساء إلى الطبيب مولى.

كان فى استقبالنا بشخصه عند الباب. كان حينئذ شاباً وسيماً، كان الصيف فى تمامه، وكان هو صغير الحجم، عصبى المزاج، وجهه لطيف، أسبغت عليه الشمس سُمرتها، وتلمع فيه عيانان براقَتان سوداوان. كان مثالاً للأناقة فى رداءه الأبيض الذى يكسوه من الياقة حتى حذائه. أثار إعجابى، بل كان واضحاً أننى كنت أيضاً محل إعجابه.

فى شىء من الارتباك وقد فهمت سبب دهشته، قلت له:

- نعم، سيادتك لا تثق باحتياجى للعلاج، ولا بجديتى فى التأهب له.

بابتسامة خفيفة، لكنها هزنتى أجاب الطبيب:

- لماذا؟ ربما كان ضرر السيجارة عليك يفوق حقًا ما نُقرّه نحن الأطباء. لا أفهم فقط لماذا لم تكتفِ بتقليل عدد السجائر التى تدخنها بدلاً من الإقلاع عن التدخين مرة واحدة. يمكن للإنسان أن يدخن، ولكن لا ينبغى أن يفرط.

فى الحقيقة، لم أفكر قط فى إمكانية تدخين عدد أقل من السجائر لشدة رغبتى فى الإقلاع عنه نهائياً. ولكن وقد وصلت الآن إلى أنه لن تفعل تلك النصيحة شيئاً غير أن تضعف عزيمتى. قلت فى كلمة حاسمة:

- قُضى الأمر؛ لذا فاترك التجربة لهذا العلاج.

- تجربة؟ وضحك الطبيب فى استعلاء. متى تهيأت لهذا العلاج، فلا بد وأن ينجح. وإن لم ترغب فى استخدام قوتك البدنية مع جوقانا المسكينة، فلن تتمكن من الخروج من هنا. إن الإجراءات المألوفة لخلاصك ربما طالت لدرجة أنك قد تنسى رذيلتك.

دخلنا الجناح الذى خصصوه لى، وقد وصلنا إليه عائدين إلى الدور الأرضى بعد أن صعدنا إلى الطابق الثانى.

- أترى سيادتك؟ ذلك الباب الموصد بالمزلاج يعوق الاتصال
بالجانب الآخر من الدور الأرضي وبه بوابة الخروج. حتى جوفانًا ليست
لديها مفاتيحه، وهي نفسها لكي تصل إلى الخارج ينبغي أن تصعد إلى
الطابق الثاني ومعها فقط مفاتيح ذلك الباب الذي فُتح لنا، المطل على تلك
الاستراحة. هذا وتوجد دائماً مراقبة على الطابق الثاني. لا بأس حقاً
بوجودها بمستشفى مخصص للأطفال والنساء النفساء.

وأخذ يضحك، ربما من فكرة احتجازي بين الأطفال.

نادى جوفانًا وقدمها إليّ. كانت سيدة صغيرة الحجم لا يسهل
تحديد عمرها الذي كان يتراوح ما بين الأربعين والستين، كانت عيناها
صغيرتين تلمعان في حيوية أسفل الشعر الرمادي اللون. قال الطبيب:

- ها هو ذا السيد الذي ينبغي أن تستعدى لتسديد اللكمات له.

رمقتني وهي تتفحصني، احمرّ وجهها بشدة وصاحت بصوت حاد:

- سأقوم بواجبي، ولكنى لن أستطيع بالتأكيد أن أتعارك مع
سيادتك. إذا بدر منك ما يهدد، سأستدعى الممرض وهو رجل قوى
البنية، وإذا لم يحضر على الفور، سأترك سيادتك تذهب حيثما تشاء؛
لأنى لا أود بالتأكيد أن أخاطر بحياتى!

علمت بعد ذلك أن الطبيب قد عهد إليها بتلك المهمة مع وعده إياها
بمكافأة سخية، مما ساهم في إخافتها. أثارت كلماتها حينئذ سخطى.
وقد زججت بنفسى ويارادتى في موقف سخيف!

ويا لها من مخاطرة بالحياة! صحت فيها: من سيتعرض لحياتك؟
توجهت إلى الطبيب: أرغب في أن تنبه هذه السيدة ألا تضايقني! لقد
أحضرت معي بعض الكتب، وأود أن تتركني وشأني.

تدخل الطبيب ببعض كلمات التحذير لچوقائنا، أما هي فلكي تلتمس
لنفسها العذر، استمرت في مهاجمتها لي:

- عندي ابنتان صغيرتان، وينبغي أن أعيش لهما.

- ربما وجدت نفسي غير جدير بقتلك. أجبتها بنبرة لم تكن
بالتأكيد لتطمئن تلك المسكينة.

أبعدها الطبيب وهو يكلفها بالذهاب لإحضار شيء من الطابق
الأعلى واقترح علي أن يستبدل بها أخرى؛ لكي يعيد الطمأنينة لنفسي،
وأضاف قائلاً:

- إنها ليست امرأة سيئة، وعندما سأوصيها بأن تكون أكثر تعقلاً،
لن تسبب لك ما تشكو منه.

ورغبة مني في ألا أظهر أية أهمية للشخص المكلف بملاحظتي،
صرحت بموافقتي على تحملها. شعرت بالحاجة إلى تهدئة نفسي،
أخرجت من جيبي السيجارة قبل الأخيرة ودخنتها بشراهة. شرحت
للطبيب أنني أخذت اثنتين فقط معي، وأني أود أن أقلع عن التدخين عند
منتصف الليل بالضبط.

انصرفت زوجتى مع الطبيب وقالت لى وهى تبتسم:

- مادمتم قررت ذلك، كن قوياً.

ابتسامتها التى كنت أحبها جدا بدت لى استهزاءً بى. وفى تلك اللحظة ذاتها تولد فى نفسى شعور جديد من شأنه أن يحبط فى الحال وبصورة مؤسفة ما أقدمت عليه من محاولة بجديّة شديدة. شعرت فى الحال بالألم، ولكنى عرفت ماذا يعذبنى، فقط عندما تركونى وحدى. جنون، وغيره قاسية من الطبيب الشاب، إنه جميل، طليق! مشهور شهرة فينوس عائلة ميديتشى. لم لا تُغرم به زوجتى؟ عندما كان يتبعها عند انصرافهما رمق بعينه قدميها داخل حذاءها الأنيق. إنها المرة الأولى التى شعرت فيها بالغيرة منذ أن تزوجت، يا لها من كآبة! صاحبت بالتأكيد حالة سجنى الذليل! تعاركت مع نفسى! كانت ابتسامه زوجتى هى المعتادة، ولم تكن سخرية من إزاحتى من المنزل. إنها عملت بالتأكيد على أن يحتجزونى على الرغم من أنها لم تكن تعباً برذيلتى تلك؛ ولكنها فعلت ذلك بالتأكيد إرضاءً لى. ثم ألا أتذكر أنه ليس من السهل أن يقع أحد فى غرام زوجتى؟ إذا كان الطبيب قد تأمل قدميها، هذا لأنه كان ينظر بالتأكيد إلى أى حذاء ينبغى أن يشتري لمحبوّيته. لكنى دخنت على الفور السيجارة الأخيرة، ولم يأت منتصف الليل بعد، ولكنها كانت الثالثة والعشرين، ساعة غير مناسبة لتدخين سيجارة أخيرة.

فتحت كتاباً. كنت أقرأ نون أن أعى ما أقرأ لدرجة أنى رأيت الخيالات، فالصفحة التى كنت أأدق فيها ببصرى كانت تحجبها صورة الدكتور

مولى، فى عظمة جماله وأناقته. لم أستطع الصبر! استدعيت چوڤاناً؛
لعل ثورتى تهدأ بالحديث معها.

جاءت وحملت فىّ على الفور بنظرة ارتياب. صاحت بصوتها
الحاد:

– لا تنتظر منى أن أحيد عن تأدية واجبى.

وعلى ذلك، ولكى أطمئنّها كذبت عليها، وشرحت لها أنى لم أفكر فى
ذلك قط، وأنى لا أرغب بعد فى القراءة، بل أفضل تبادل الحديث معها.

أجلستها أمامى. كانت حقاً تنفرنى بشكلها العجوز ذاك وعينيها
الشائبتين الشبيهتين بعيون جميع الحيوانات الضعيفة. كنت أشفق على
نفسى من صُحبة كنتك! حقاً أننى حتى وأنا حر لا أعرف كيف أتخير
الرفاق الذين يتواءمون معى؛ لأنهم عادةً ما يختاروننى هم، كما فعلت
زوجتى.

رجوت چوڤاناً أن تسرى عن نفسى ولما صارحتنى بأنها لا تعرف
شيئاً يستدعى انتباهى، طلبت منها أن تحكى لى عن أسرتها وأردفت أن
الجميع تقريباً فى هذا العالم لهم أسر.

وهكذا وافقت وبدأت تقص علىّ أنها أرغمت على إيداع ابنتيها فى
مؤسسة لرعاية المحتاجين.

بدأت أنصت إلى قصتها باهتمام؛ لأن فكرة شهور الحمل الثمانية
عشر تلك التى انتهت إلى مثل هذه العجالة، كانت فكرة تثير ضحكى.

إلا أنها كانت تميل للجدل الشديد، ولم أستطع الإنصات إليها عندما أرادت فى بادئ الأمر أن تثبت لى أنه ما كان باستطاعتها أن تفعل غير ذلك لضالة راتبها، وأن الطبيب كان مخطئاً عندما صرح لها قبل أيام قليلة بأن اثنتين من الكورونات فى اليوم كافيتان منذ أن تكفلت مؤسسة رعاية الفقراء بأسرتها بكاملها. أخذت تصرخ:

- وماذا عن الباقي؟ أن تحصلا على المأكل والملبس، لا يعنى بالتأكد أن لديهما كل ما تحتاجان إليه! وها هى ذى سلسلة من الأشياء التى يجب أن توفرها لابنتيها اللتين لم أعد أتذكرهما، وحفاظاً على حاسة السمع لدى من صوتهما الحاد، تعمدت أن أشغل تفكيرى بشيء آخر. ولكنه أصابنى على الرغم من ذلك بالضرر، وبدأ لى أن من حقى طلب تعويض، قلت:

- ألا يمكن الحصول على سيجارة واحدة فقط؟ سأدفع لك عشرة كورونات، لكن فى الغد؛ لأنه ليست معى أية نقود.

أصيبت جوفاناً بفزع شديد من عرضى هذا الذى عرضته عليها. أخذت تصرخ، كانت تريد استدعاء الممرض فنهضت من مكانها لتخرج. عدلت فى الحال عن اقتراحى لأسكتها، ودون تفكير، ولكى أتحديث فحسب فى شيء آخر وأخفى ارتباكى، سألتها:

- أليس فى هذا السجن شيء نشربه على الأقل؟

كانت إجابة چوڤانا سريعة، ومع دهشتي جاءت في لهجة محادثة عادية ودون صياح:

– بالتأكيد! سلّمني الطبيب زجاجة الكونياك هذه قبل أن ينصرف. هاهي ذي ما زالت مغلقة. كما ترى، لم يمسه أحد.

وجدت نفسي في حالة لم أر لها مخرجاً آخر سوى الشكر. ذاك هو ما قادتنى إليه ثقّتي بزوجتي.

في تلك اللحظة بدا لي أن عادة التدخين السيئة لا تستحق كل هذا العناء الذي انتهيت إليه. لم أدخن منذ نصف الساعة، وما كنت أفكر فيه قط؛ حيث كنت مشغولاً بالتفكير في زوجتي والدكتور مولي. إذن، لقد شفيت تماماً، ولكني مضحك بدرجة لا علاج لها!

نزعت سدادة الزجاجاة، وسكبت من السائل الأصفر في كأس صغيرة. أخذت چوڤانا ترمقني وقد فغرت فاهها، لكنني ترددت أن أقدم لها شيئاً منه.

– أيمكنني الحصول على المزيد منه عندما أفرغ هذه الزجاجاة؟ طمأنتني چوڤانا بنبرة ازدادت لطفاً: كل ما تطلبه سيادتك! واستجابة لطلباتك فإنه يجب أن تنصرف السيدة التي تدير المخزن عند منتصف الليل!

لم أحتمل البخل قط؛ لذا حصلت چوڤانا في الحال على كأسها الصغيرة المملوءة إلى حافتها. وبمجرد أن انتهت من تقديم الشكر لي،

أفرغت الكأس فى جوفها، ووجهت على الفور عينيها اللامعتين تجاه الزجاجة؛ لذا كانت هى نفسها التى أوجت لى بأن أسكرها. لكنه لم يكن حقاً بالأمر الهين!

قد لا يكون بوسعى أن أكرّر بالضبط ما قالت لى بلهجتها الخاصة الخاصة بمدينة تريستى، بعد أن احتسيت كنؤساً عديدة، لكن أحسست أنى إنسان جدير بأن أستمع إليه عن طيب خاطر، لو لم أكن شاردًا مستغرقًا فى أفكارى.

أسرت إلى فى بادئ الأمر أنه بهذا الأسلوب يروق لها العمل. ففى هذا العالم يحق للناس جميعهم أن يمضوا ساعتين يوميًا على أريكة مريحة للغاية، أمام زجاجة بها مشروب طيب، من النوع الذى لا يضر.

حاولت أن أحادثها، أنا أيضًا. سألتها عما إذا كانت تنظم عملها بذلك الأسلوب ذاته، عندما كان زوجها على قيد الحياة.

أخذت تضحك. كان زوجها فى حياته يضربها أكثر مما يقبلها، ومقارنة بما كانت عليه من اضطراب للعمل من أجله، فكل شىء يمكن أن يبدو لها الآن راحة حتى قبل مجيئى إلى تلك الدار من أجل العلاج.

ثم استغرقت چوقانًا فى التفكير، وسألتنى إذا ما كنت أومن بأن الأموات يرون ما يصنع الأحياء. أومأت برأسى فى إيجاز. لكنها كانت تريد معرفة ما إذا كان الموتى لدى وصولهم إلى الدار الآخرة، سيعلمون بكل ما حدث هنا على الأرض حينما كانوا أحياء.

استرعى السؤال انتباهي، واستوقفني هنيهة من الوقت. ثم إنها أثارت بصوت كان يزداد همساً؛ ذلك لأن جوفاناً قد خفضته لكي لا يسمعها الأموات.

قمت إذن بخيانة زوجك، هكذا أجبتها.

طلبت مني ألا أرفع صوتي ثم اعترفت لي بأنها خائفة، لكن في المشهور الأولى فقط من زواجهما. ثم اعتادت بعد ذلك على اللطمات وأحبت زوجها.

ولكي أبقى على حيوية الحديث، سألتها:

- يرجع إذن، وجود ابنتكم الأولى إلى الرجل الآخر؟

أقرت بصوت أبقت خافتاً أنها تعتقد ذلك؛ لاسيما مع وجود بعض تشابه بينهما. كانت تؤلمها كثيراً خيانتها لزوجها. كانت تقول ذلك، لكن وهي تواصل الضحك؛ لأنها أمور يضحك الناس منها حتى عندما تؤلمهم.

إنما ذلك فقط منذ وفاة زوجها؛ لأنه لم يكن أمراً له أهمية قبل ذلك، فما كان الزوج يعلم به.

انتابني شعور بالتعاطف الأخوي معها، وحاولت أن أخفف ألمها، وقلت لها إنني أظن أن الموتى يعرفون كل شيء، لكن هناك أموراً لا يكثرثون بها.

– الأحياء فقط هم الذين يعانون منها! هكذا صحتُ وأنا أضرب بقبضة يدي على المائدة.

أصببت بكدمة في يدي، وليس هناك أفضل من الألم الجسدي لإيقاظ أفكار جديدة. جال بخاطري حين كان يعتصرني الألم من الشك في أن زوجتي تنتهز فترة انعزالي لتخونني، أنه ربما لا يكون الطبيب قد برح المستشفى، وفي هذه الحالة يجب على أن أعود إلى طمأنينتي. رجوت جوثاناً أن تذهب لتري، وقلت لها إنني أشعر بالحاجة إلى إخبار الطبيب بشيء ووعدتها بالزجاجة كاملة، مكافأة لها. أعلنت اعتراضها؛ لأنها لا تحب الإفراط في الشرب، لكنها عملت على الفور على إرضائي، وسمعتها تتسلق الدرج الخشبي وهي تترنح حتى الطابق الثاني لتخرج من تلك الحبسة التي كنا فيها. ثم نزلت ثانية، ولكنها انزلت محدثة جلبة كبيرة، وأخذت تصرخ:

– فلتذهب إلى الجحيم! همهمت في حماس: لو دق عنقها، لصار وضعي أكثر بساطة.

على عكس ذلك، أتت إليّ وهي تبتسم؛ لأنها كانت في تلك الحالة التي تخف فيها حدة الألم. قصت عليّ أنها تحدثت مع الممرض الذي كان ذاهباً إلى فراشه، ولكنه سيظل رهن إشارتها، في حالة إذا ما بدر مني ما يسئ.

رفعت يدها وهي تشير بالسبابة، وصاحبت كلماتها بحركة تهديد خففت ابتسامتها من وطأته. ثم أضافت بنبرة أكثر جفاءً أن الطبيب لم

يعد منذ أن خرج مع زوجتى. منذ ذلك الحين بالضبط! بل ظل الممرض لبعض الوقت فى انتظار عودته؛ لأن هناك مريضاً كان فى حاجة لملاحظته. والآن فقد الأمل فى ذلك.

نظرت إليها وأنا أتحرى ما إذا كانت الابتسامة التى كانت ترتسم على وجهها معتادة أو أنها جديدة تماماً، ويرجع وجودها إلى أن الطبيب كان موجوداً مع زوجتى بدلاً منى، وأنا مريضه. اعترانى غضب أدار رأسى. ينبغى أن أعترف أن شخصين كانا يتصارعان كالمعتاد بداخلى، كان أحدهما وهو الأكثر حكمة يقول لى: «يا أحمق! لماذا تظن أن زوجتك تخونك؟ إنها ليست بحاجة إلى أن تحبسك لتواتيها الفرصة». أما الآخر، وهو بالتأكيد الذى كان لديه الرغبة فى التدخين، فكان ينعتنى هو الآخر بالأحمق، ولكنه كان يصيح: «ألا تلتفت إلى حالة التحرر التى تأتى من غياب الزوج؟ ومع الطبيب الذى تدفع له أنت!»،

قالت چوفاً وهى مازالت تشرب:

- نسيت أن أغلق باب الطابق الثانى. لكنى لا أرغب فى صعود ونزول ذينك الطابقين. توجد الآن بأعلى كثرة من الناس ويا لموقفك إذا ما حاولت الهرب.

- معك حق! قلت فى نفاق كان قليله كافياً لخداع تلك المسكينة. ثم احتسيت أنا أيضاً الكونياك، وشرحت لها أنه مادام لدى الكثير من ذلك الشراب تحت تصرفى، فلم تعد للسجائر أهمية عندى. صدقتنى فى الحال،

وحينئذ قصصت لها أنى لم أكن فى الحقيقة أود التخلص من عادة التدخين، كانت زوجتى تريد ذلك، ولابد أنها كانت تعرف أنى عندما أتمكن من تدخين عشر سجائر أتحول إلى رجل فظيع، وفى هذه الحالة إن وقعت أية سيدة فى نطاق مرمى، فإنها تعرض نفسها للخطر.

أخذت چوڤانا تضحك بصخب وهى مسترخية على الأريكة:

- وهل هى زوجتك التى كانت تمنعك من تدخين السجائر العشر اللازمة؟

- كان ذلك بالضبط! كانت على الأقل تمنعنى من ذلك.

لم تكن چوڤانا حتمًا بالبلهاء عندما شربت كثيرًا من الكونياك، انتابتها عاصفة من الضحك كادت توقعها من على الأريكة، لكن عندما استعادت أنفاسها، رسمت بكلمات متقطعة خطأ بيانياً رائعاً استوحته من قصة مرضى: عشر سجائر... نصف الساعة... يضبط المنبه... وبعد ذلك...

صححت لها:

- أحتاج إلى ساعة تقريباً لتدخين عشر سجائر، يلزم بعد ذلك ساعة أخرى تقريباً للحصول على التأثير الكامل، ساعة قد تزيد أو تقل عن عشر دقائق...

فجأة انشغل بال چوڤانا، ونهضت دون عناء كبير من على الأريكة، قالت إنها ستخلد للنوم؛ لأنها تشعر بشيء من الألم فى رأسها، عرضت

عليها أن تأخذ معها الزجاجة لأننى سئمت ذلك المشروب. وفى خداع قلت
إننى أود فى اليوم التالى أن يحضروا لى نبيذاً طيباً.

لكنها لم تكن تفكر فى النبىذ. وقبل أن تنصرف والزجاجة تحت
ذراعها رنت إلى بنظرة شريرة أفرعتنى.

كانت قد تركت الباب مفتوحاً وبعد لحظات سقطت فى وسط
الحجرة علبة التقطتها فى الحال: كانت تحتوى على إحدى عشرة
سيجارة. أرادت المسكينة چوئاناً أن تزيد عددها. كانت سجائر عادية
هتغارية. لكن السيجارة الأولى التى أشعلتها كان مذاقها طيباً للغاية.
شعرت بارتياح كبير. رأيت فى بادئ الأمر أننى وجدت لذة لأننى انتصرت
فى تلك الدار التى كانت صالحة لاحتجاز الأطفال وليس لأمثالى. ثم
اكتشفت أننى انتصرت أيضاً على زوجتى، وخيل إلى أننى أعددت لها
الثمن وبالعلة ذاتها؛ لأنه، لو كان الأمر خلاف ذلك، أكانت غيرتى تتحول
إلى فضول يمكن احتماله؟ مكثت هادئاً فى ذلك المكان، وأنا أدخن تلك
السجائر الباعثة على الغثيان.

بعد حوالى نصف الساعة تقريباً، تذكرت أننى بحاجة إلى الهروب
من تلك الدار، حيث كانت چوئاناً تتربص مكافأتها. خلعت حذائى
وخرجت إلى الدهليز. كان باب حجرة چوئاناً موارباً وبدت لى نائمة؛
نظراً لأنفاسها المسموعة والمنتظمة. صعدت بحذر شديد إلى الطابق
الثانى، وخلف ذلك الباب - حيث مفخرة الدكتور مولى - لبست حذائى.

وخرجت إلى بسطة، ثم أخذت أهبط درجات السلم على مهل حتى لا
أثير الشكوك.

وصلت إلى بسطة الطابق الأول، وعندما رأتنى أنسة ترتدى فى
تأنيق رداء الممرضات، تابعتنى لتسألنى بلطف:

- أتبحث سيادتك عن أحد؟

كانت حسناء، ولم يكن ليثير استيائى أن أدخن السجائر العشر
بجوارها. ابتسمت لها فى شىء من الحدة:

- أليس الطبيب مولى بالدار؟

حملقت فى دهشة:

- فى هذه الساعة لا يوجد أبداً هنا.

- ألا تعرفين أين يمكن أن أجده فى هذه الساعة؟ لدى مريض فى
البيت بحاجة إليه.

وبرقة أعطتني عنوان الطبيب، ورددته عدة مرات لكى أقنعها أننى
أود أن أتذكره. لم أكن بالفعل أتعجل الانصراف، ولكنها استدارت عني
متضجرة. انطلقت مباشرة خارج السجن الذى وضعونى فيه.

كانت فى أسفل الدار، سيدة متأهبة لتفتح لى الباب. لم تكن معى
نقود وهمهمت:

- سأعطيك الإكرامية مرة أخرى.

لا يمكن أبداً معرفة ما سوف يحدث. أما بالنسبة لى فالأمور تتكرر: لم يكن من المستبعد أن أمر من جديد من هناك.

كانت الليلة مضيئة وحارة. خلعت القبعة لأتنسم نسيم الحرية. تأملت النجوم فى دهشة كائناتى اكتشفتها منذ قليل. وفى اليوم التالى، بعيداً عن المصحة، كنت ساقطع عن التدخين. وفى تلك الأثناء، كان هناك مقهى لا يزال مفتوحاً، فحصلت على سجائر من النوع الجيد؛ لأنه لم يكن من الممكن أن أنهى حياتى كمدخن بسيجارة من سجائر المسكينة جوقانا. كان نادل المقهى الذى أعطانى إياها بضمانه يعرفنى.

وصلت إلى الفيلا، وقمت بدق جرس الباب فى عنف. ظهرت الخادمة أولاً فى الشرفة ثم، بعد وقت غير وجيز، ظهرت زوجتى. ترقبتها وأنا أفكر فى برود تام:

- قد يبدو أن الدكتور مولى موجود، ولكن ما إن تحققت زوجتى منى دوى بالطريق الخالى صدى ضحكاتها الصافية بدرجة كانت تكفى لمحو أية شكوك.

تباطأت عند دخولى المنزل فى القيام بتقصٌ للحقيقة. وعدت زوجتى بأن أقص عليها فى اليوم التالى مغامراتى التى كانت تظن أنها تعرفها، ولكنها سألتنى:

- لم لا تخذ للنوم؟

لكى أجد عذراً، قلت لها:

- يُخيل إلى أنك انتهزتِ فرصة غيابي وغيّرتِ موضع الصوان.

حقاً أتخيل أن أماكن الأشياء تتغير دائماً في المنزل، وحقيقةً أيضاً أنه كثيراً ما تنقلها زوجتي، ولكنني في تلك اللحظة كنت أراقب كل ركن صغير؛ لكي أرى ما إذا كان الدكتور مولى مختبئاً به بجسمه الصغير الأنيق.

زفت إلى زوجتي خبراً سعيداً. لقد تصادف وهي عائدة من المستشفى أن قابلت ابن السيد أوليقي، الذي حكى لها أن والده العجوز قد تحسنت صحته كثيراً، بعد ما تناول الدواء الذي وصفه له طبيبه الجديد.

وأدركت، وأنا أستسلم للنعاس، أنني أحسنت عندما تركت الدار؛ إذ أصبح لدى الوقت لأعتني بنفسى في تمهل. حتى ابني الذي كان يرقد بالغرفة المجاورة لم يتهياً بعد للحكم على أو لمحاكاته. لم يكن هناك داع للعجلة على الإطلاق.

وفاة والدى

رحل الطبيب، ولا أدري حقاً ما إن كانت هناك ضرورة لسرد قصة حياة أبى. إذا وصفت والدى وصفاً دقيقاً، فربما أدى ذلك إلى أنه لى أصل إلى شفائى كان من الضرورى أن أبحث فى شخصه هو أولاً، وبذلك يمكن التوصل إلى العدول عن الفكرة. سأقدم بشجاعة؛ لأنى أدرك أن والدى إن كان قد احتاج إلى العلاج نفسه، فإن ذلك لمرض يختلف تماماً عن مرضى. على أية حال، لى لا أضيع الوقت سأحدث عنه بالقدر الذى يساعدنى فقط على إنعاش ذكرياتى.

«١٥-٤-١٨٩٠ الساعة $\frac{1}{4}$ ٤ مات والدى. U.S.»

ولن ليس له علم بهذين الحرفين فإنهما لا يعنيان الولايات المتحدة، بل سيجارة أخيرة. إنها العبارة التى أجدها مدونة على جزء من أجزاء كتاب لأوستوالد^(١) فى الفلسفة الوضعية، كنت أمضى ساعات عديدة فى قراءته، وأنا أفيض أملاً، ولكنى لم أفهمه قط. قد لا يصدق أحد ذلك،

(١) ويليام أوستوالد (١٨٣٥-١٩٢٢) الحائز على جائزة نوبل فى الكيمياء (١٩٠٩).

لكن على الرغم من تلك الصيغة، فإن تلك العبارة تسجل أكثر الأحداث أهمية فى حياتى.

توفيت والدتى ولم أكن أتممت بعد الخامسة عشرة. ألفت أشعاراً لتكريمها، الأمر الذى لا يعادل البكاء عليها على الإطلاق، منذ تلك اللحظة ظل يصاحبنى فى ألامى ذلك الإحساس بأن هناك حياة جادة ومفعمة بالعمل تنتظرنى. وكان الألم نفسه يشير إلى حياة أكثر عمقاً، ثم إن شعوراً دينياً حياً قد سكن ولطف من الفاجعة الجسيمة. كانت أُمى لا تزال حية على الرغم من بعدها عني، ويمكنها أيضاً أن تسعد بالنجاحات التى كنت أتأهب للوصول إليها. شعور جميل بالارتياح! أتذكر تماماً حالتى فى ذلك الحين. وبسبب وفاة والدتى وما ولدته عندى من مشاعر صحية، أخذ كل شىء عندى يتحسن.

أما موت والدى فقد كان كارثة حقيقية وكبيرة. فلم يعد هناك وجود للجنة بعد ذلك، وأنا فى الثلاثين من عمرى، أصبحت رجلاً منتهياً. أنا أيضاً! أدركت للمرة الأولى أن أهم جزء فى حياتى وأكبرها حسماً خلفته ورأى على نحو لا يعوض. لم يكن ألى أنانياً فقط كما قد يبدو فى هذه الكلمات. الأمر مختلف تماماً! كنت أبكيه وأبكي نفسى، وأبكي نفسى فقط لأنه مات. وحتى ذلك الحين، كنت أنتقل من سيجارة إلى سيجارة، ومن كلية بالجامعة إلى الأخرى، وبثقة فى قدراتى لا تهتز. غير أننى أعتقد أن تلك الثقة التى كانت تيسر لى حياتى كثيراً، ربما كانت لتستمر حتى اليوم، لو أن أبى لم يقض نحبه. بعد أن توفى لم يعد هناك غد أراه مكاناً لمقاصدى.

لمرات عديدة وعندما أفكر فى الأمر، أندesh من غرابة هذا اليأس من نفسى، وكيف أنه نتج عن موت والدى وليس قبله. إنها أمور فى مجملها حديثة العهد، ولكى أتذكر ألامى الجسيمة وتفاصيل تلك الكارثة لست بالتأكد بحاجة إلى أن أحلم كما يشاء السادة الخبراء فى التحليل النفسى. أذكر كل شىء، لكنى لا أعى شيئاً. أنا لم أعش من أجل والدى حتى لحظة وفاته. لم أبذل أى جهد لأقترب منه، وعندما وانتنى الفرصة لعمل ذلك دون الإساءة إليه، امتنعت عن القيام به. كان الجميع بالجامعة يعرفونه بالكنية التى أطلققتها عليه وهى سيلفا العجوز راسل المال. كان لا بد من المرض حتى أرتبط به، المرض الذى تحول على الفور إلى موت، لأنه كان مرضاً خاطفاً، ولأن الطبيب اعتبره على الفور حالة ميئوساً منها. وعندما كنت بمدينة تريستى كنا نتقابل لما يقرب من الساعة يومياً. وما طال لقائى به وما كثر بقدر ما هو عليه فى بكائى. ليتنى اعتنيت به أكثر ويكيتة أقل! كان من الصعب أيضاً أن نتجالس؛ لأنه لم يكن بيننا على المستوى الفكرى شىء مشترك. عندما كان ينظر أحداً إلى الآخر، كانت تعترى كلينا ابتسامة إشفاق واحدة، كانت عنده أكثر مرارة تمتزج بقلق الأب الصادق على مستقبلى. أما ابتسامتى أنا فكانت متسامحة؛ لأننى كنت على يقين من أن أخطاءه تلك لا آثار لها، وكنت أعزو حقيقة البعض منها إلى تقدم السن. كان أول من ارتاب فى طاقاتى، - كما يبدو لى -، فى وقت مبكر جداً. غير أننى أشك فى أنه، ودون الاستناد إلى إثبات علمى، كان لا يثق بى؛ ذلك لأننى أتيت منه، وعمل ذلك - وهنا ييقن علمى مؤكد - على زيادة عدم اطمئنانى له.

لكن والدى كان يتمتع بشهرة التاجر القدير، غير أنى كنت أعلم أن أعماله كان يديرها أوليفى منذ سنوات طويلة. كان هناك تشابه بيننا فيما يتعلق بعدم القدرة على أعمال التجارة، لكن لم تكن هناك أوجه تشابه أخرى؛ أستطيع القول إنه فيما بيننا كنت أمثل القوة وهو الضعف. نعم كل ما سجلته فى هذه الصفحات يدل على إنه يوجد وكان يوجد دائماً بداخلى - وربما كان ذلك سبب تعاستى البالغة - ميل جارف نحو الأفضل. إن أحلامى بالتوازن والقوة جميعها لم تكن لتفسر بطريقة أخرى. لم يكن أبى يعرف شيئاً عن ذلك كله. كان يعيش فى توافق تام مع الأسلوب الذى تبنى عليه، وعلى أن أقر بأنه لم يبذل قط أى جهد نحو الأفضل. كان يدحرّ نوال اليوم وأيضاً بالليل عندما كان يجافيه النوم بعد وفاة والدتى. كان يشرب أيضاً بشكل معتدل، حسبما يليق بالجنّلمان، كان يشرب فى المساء، فى أثناء العشاء ليضمن أن يحظى بالنوم بمجرد أن يضع رأسه على الوسادة، غير أنه كان يعتبر التدخين والكحول أدوية جيدة.

وفىما يتعلق بالنساء، علمت من أقاربى أن والدتى كان لديها بعض أسباب للغيرة، بل يبدو أن السيدة الوديدة اضطرت لأن تتدخل بعنف لكى تكبح جماح زوجها. كان يترك نفسه للانقياد لها؛ لأنه كان يحبها ويحترمها. لكن يبدو أنها لم تتمكن قط من الحصول منه على الاعتراف بأية خيانة؛ ولذلك ماتت وهى على يقين من أنها كانت مخطئة فى حقه. ومع ذلك يحكى الأقارب الطيبون أنها وجدتته متلبساً تقريباً بفعلته عند

مصممة أزيائها. أفرط أبى تقديم المبررات لكى يموه الأمر، وأصر بشدة على موقفه مما جعلها تصدقه. لم تكن هناك عواقب لذلك الفعل سوى عدم ذهاب أمى وأبى كذلك إلى تلك الخياطة. أعتقد أننى لو كنت مكانه لانتهى بى الأمر إلى الاعتراف، ولما كان باستطاعتى أن أهجر بعد ذلك مصممة الأزياء؛ ذلك لأننى أمد جذورى حيث أجد لها مكاناً.

كان والدى قادراً على الحفاظ على هدوئه كما يليق برب أسرة حق. كان يتمتع بهذا الهدوء فى بيته وبداخل نفسه. لم يقرأ من الكتب سوى التافه منها أو ما يتناول الفضيلة. لم يكن رياءً منه، بل اقتناعاً فى أصدق درجاته: أعتقد أنه كان يشعر بإحساس عميق بالحقيقة التى تتضمنها تلك المواعظ الأخلاقية، وأن سكينه ضميره كانت ترجع إلى ميوله الصادقة نحو الفضيلة. الآن والسن يتقدم بى وأقرب من هيئة رب الأسرة التقليدى، أشعر أنا أيضاً أن اللا أخلاقية الموعظة تستحق العقاب أكثر من الفعل اللاأخلاقى ذاته. قد يصل الأمر إلى الاغتيال بدافع الحب أو الكراهية، وإلى ترويج القتل بدافع الشر فقط.

كانت بيننا أشياء مشتركة، حتى أنه صرح لى بأنه يعدنى قلماً بين الأشخاص الذين يسببون له أكبر القلق فى هذا العالم. قد دفعتنى رغبتى فى صحة جيدة إلى دراسة جسم الإنسان. وعلى العكس من ذلك، عرف والدى، كيف يمحو من ذاكرته أية فكرة عن تلك الآلة المخيفة. بالنسبة له، القلب لا ينبض، وليست هناك ضرورة لذكر الصمائم والأوردة والتمثيل الغذائى لتفسير كيف يعيش جسمه. لا توجد أية حركة؛

لأن التجربة كانت تفيد بأن كل ما يتحرك ينتهي به الأمر إلى التوقف. والأرض كانت أيضاً بالنسبة له ثابتة وتقوم على قاعدة صلبة. لم يفصح بالطبع عن ذلك قط، لكنه كان يعاني لو قالوا له شيئاً لا يتطابق مع ذلك المفهوم. ذات يوم، قاطعني في تقرر عندما حدثته عن البلدان الواقعة في المنطقة المقابلة لمنطقتنا، على الجانب الآخر من الأرض. كان التفكير في أولئك الناس ذوي الرؤوس المتجهة إلى أسفل يثير الاضطراب في معدته.

كان يستنكر مني شيئين آخرين: شرود ذهني وميلى إلى السخرية من أكثر الأشياء جدية. أما في مسألة شرود الذهن فقد كان يختلف عني؛ لأنه كان يدون كل شيء يريد أن يتذكره في كتيب، وكان يراجعه أكثر من مرة خلال اليوم. وهكذا كان يظن أنه تغلب على مرضه ولم يعد يعاني منه. فرض على أنا أيضاً ذلك الكتيب، لكنني لم أسجل به سوى أخبار بعض سجائر أخيرة.

وبالنسبة لآزدرائي الأشياء الجادة، أرى من بين عيوبه أنه كان يعتبر أشياء كثيرة في هذا العالم أشياء جادة. على سبيل المثال: بعد ما انتقلت من دراسة الحقوق إلى الكيمياء، وعدت من جديد، بعد الحصول على إذن منه، إلى دراسة الحقوق، قال لي في طيبة: ولكن يظل جلياً أنك مجنون.

لم أشعر بالإهانة من ذلك على وجه الإطلاق، وشعرت بالامتنان له؛ إذ وافق على طلبى، ووددت إضحাকে مكافأة له. ذهبت إلى الطبيب

كانيستريتى ليفحصنى وأحصل منه على شهادة طبية. لم يكن الأمر سهلاً؛ لأنه كان على أن أخضع لفحوصات طويلة ودقيقة. وبعد أن حصلت على الشهادة، أحضرتها بنشوة الانتصار إلى والدى، لكنه لم يستطع الضحك، وبنبرة أسى عميق والدموع فى عينيه صاح: - أه! حقاً إنك لمجنون!

وهذا كان جزاء التمثيلية المضنية غير الضارة التى قمت بها. لم يغفرها لى قط؛ ولذلك لم يضحك منها مطلقاً. أيمكن الذهاب إلى طبيب للفحص، على سبيل المزاح؟ أيطلب تحرير شهادة للدعابة مزودة بالأختام بغرض المزاح؟ إنها أمور مجانين!

ومن ثم فأنا، مقارنة به، كنت أمثل القوة، وأتذكر أحياناً أن فقدان ذلك الوهن الذى كان يسمو بى، إنما كنت أشعر به وكأته نقصان بى.

أذكر كيف تعرض وهنه للمعاناة عندما حمله ذلك الوغد، أوليفى، على كتابة الوصية. كانت تلح على أوليفى فكرة تلك الوصية التى كانت تخضع بموجبها إدارة كل شئونى لوصايته، ويبدو أنه عمل طويلاً ذلك العجوز على إقناع والدى بذلك العمل المؤسف للغاية. وفى نهاية الأمر رضخ أبى لكن وجهه العريض الهادئ اكفهر. كان يفكر فى الموت بصورة ملحة كأنه تعامل معه بذاك الفعل من خلال ذلك الإجراء.

وذات مساء سألتنى: - هل تعتقد أنه سيتوقف كل شئء عندما نلقى حتفنا؟

أفكر فى أسرار الموت كل يوم، لكننى ما كنت لأقدر على إعطائه المعلومات التى كان يطلبها. ولكى أدخل السرور فى نفسه ابتدعت أكبر الأفكار يقيناً ببهجة مستقبلنا.

- أعتقد أن السعادة ستخلد؛ لأن الألم لن تبقى له ضرورة. إن التحلل يمكن أن يُذكر باللذة الجنسية. ومن المؤكد أنه سيكون مصحوباً بالشعور بالسعادة والراحة نظراً لأن إعادة البنية شاقة للغاية. لابد وأن يكون التحلل هو مكافأة الحياة!

لم تجد فكرتى أى صدى. كنا لا نزال أمام المائدة بعدما تناولنا وجبة العشاء. نهض من على المقعد دون إجابة، أفرغ كوباً آخر وقال:
- إنها ليست ساعة التفلسف وخاصة معك!

وانصرف. اتبعته وأنا مفتّم وخطر لى أن أبقى معه حتى ينصرف عن تلك الأفكار المحزنة. أبعدنى وقال لى إننى أذكّره بالموت ولذاته.
لم يستطع نسيان تلك الوصية إلى أن أبلغنى بها. كان يتذكرها كلما رآنى. وذات مساء انفجر قائلاً:

- ينبغى أن أخبرك أننى كتبت وصيتى.

ولكى أبعده عن كابوسه ذاك، تقلبت على الفور على المفاجأة التى سببها إخباره لى بها وقلت له:

- لن يصيبنى أبداً هذا الإنزعاج؛ لأننى أمل أن يموت جميع ورثتى قبلى!

سرعان ما استاء من استهزائي من أمر غاية في الجدية كهذا، وتملكته رغبة كبيرة في إنزال العقاب بي؛ لذا كان من السهل عليه أن يقص على قصة تلك الضربة القاضية التي صوبها نحوي حين وضعني تحت وصاية السيد أوليفي.

ينبغي أن أذكر ذلك: ظهرت بمظهر الفتى الطيب: امتنعت عن إبداء أية معارضة لكي أنتزعه من ذلك التفكير الذي كان يعذبه. وقررت أنه مهما كانت وصيته الأخيرة فسأتواءم معها.

- ولعلني ربما - إضافة لذلك - أستطيع التصرف بطريقة تحملك على تغيير رغباتك الأخيرة.

لقد سر من ذلك؛ لأنه كان يرى أيضاً أنني أتوسم فيه طول العمر، بل عظم امتداده. وعلى الرغم من ذلك، أراد أن أقسم له اليمين على ألا أحاول أبداً تقليص قدرات السيد أوليفي، إن لم يغير هو في الوضع القائم. أقسمت، بما أنه لم يرغب في الاكتفاء بكلمة شرف وعده بها. كنت وديعاً جداً في ذلك الحين، لدرجة أنني أستعيد دائماً بذاكرتي ذلك المشهد كلما عذبنى الندم على أنني لم أحبه بقدر كافٍ قبل رحيله. وحتى أكون صادقاً ينبغي القول إن الإذعان لإرادته كان يسيراً علي؛ لأنه كانت تروق لي حينئذ فكرة إرغامى على عدم القيام بعمل.

ذات مرة منذ حوالي عام قبل وفاته، استطعت التدخل بحزم كافٍ لصالح صحته. أسر لي أنه يشعر بالمرض، وأرغمته على الذهاب إلى

أحد الأطباء، واصطحبته أيضاً إلى هناك، كتب له ذاك الطبيب بعض العقاقير، وطلب منا أن نعود إليه بعد بضعة أسابيع. لكن والدى لم يرغب فى ذلك، وأفصح عن أنه يمقت الأطباء مثلهم مثل حفارى القبور، وحتى الدواء الذى وصفه له لم يتناوله؛ لأنه يذكره أيضاً بالأطباء وحفارى القبور. ظل ساعتين دون تدخين، وتناول وجبة واحدة دون نبيذ. شعر بتحسن كبير؛ لأنه استطاع أن يتخلص من العلاج، وعندما رأته أكثر مرحاً، لم أعد أفكر فى الدواء.

ثم كنت أراه أحياناً حزيناً، كانت الدهشة تصيبنى لو رأته مبتهجاً، وهو هكذا عجوز وحيد.

ذات مساء فى أواخر شهر مارس عدت إلى المنزل متأخراً قليلاً عن المعتاد. لا بأس: كنت قد وقعت أسيراً فى أيدي صديق مثقف، أراد أن يُسر لى ببعض أفكاره حول أصول المسيحية. كانت المرة الأولى التى يطلب فيها منى أن أفكر فى تلك الأصول، ورغم ذلك تكيفت مع تلك المحاضرة الطويلة مجاملةً للصديق. كانت السماء تمطر مطراً خفيفاً والجو بارداً. كان كل شىء مقيتاً ومشوشاً بما فى ذلك اليونانيون واليهود الذين كان يحدثنى عنهم صديقى. ومع ذلك تكيفت مع العذاب ذاك ساعتين كاملتين، إنه ضعفى المعتاد! أراهن على أننى ما زلت حتى اليوم غير قادر على المقاومة، حتى أنه لو وجد شخص ما فى طلبه بإمكانه أن يدفعنى إلى دراسة علم الفلك لبعض الوقت.

دخلت الحديقة التي تحيط بثيلتنا، وكان يؤدي إليها طريق مختصر تسير به العربات. كانت ماريا، خادمتنا، تنتظرني بالنافذة، وعندما سمعتني وأنا أقترب، صاحت في ظلمة الليل:

- سيد تزينو؟

كانت ماريا خادمة من نوع لم يعد له وجود الآن. كانت تعمل لدينا منذ خمسة عشر عاماً، تضع شهرياً جزءاً من مرتبها في صندوق التوفير تحسباً لسنوات شيخوختها، لكن مدخراتها لم تنفعها؛ لأنها فارقت الحياة في منزلنا بعد وقت قليل من زواجي، وكانت لاتزال تعمل.

أبلغتني أن والدي عاد إلى المنزل منذ بضع ساعات، غير أنه أراد أن ينتظرني لتناول العشاء. وحينما ألفت أن يأكل في تلك الأثناء، طردها بأسلوب يفتقر إلى اللطف. ثم سأل عني العديد من المرات وكان قلقاً ومضطرباً. أفهمتني ماريا أنها ترى أن والدي لم يكن على ما يرام. كانت تراه يتلفظ بصعوبة وأنفاسه متقطعة. على أن أقول إنها كانت دائماً بمفردها معه؛ لذا كانت فكرة أنه مريض مرسخة غالباً في عقلها. كانت أمام السيدة المسكينة أشياء قليلة لتلاحظها في المنزل المنعزل، وبعد التجربة التي خاضتها مع والدتي كانت تتوقع أنه على الجميع أن يلقوا حتفهم قبلها.

أسرعت إلى حجرة الطعام بشيء من الفضول ولم أكن بعد قلقاً. نهض والدي في الحال من الأريكة التي كان مسترخياً عليها واستقبلني

بفرحة غامرة لم تستطع أن تؤثر فى؛ لأننى لمحت فيها أول الأمر شيئاً من التائب. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تلك الحفاوة كافية لتدخل الاطمئنان فى قلبى؛ لأن الفرحة بدت لى علامة شفاء. لم أجد به أثراً لذلك التلعثم أو ضيق التنفس الذى حدثتى عنه ماريًا. لكنه، بدلاً من أن يويخنى، قدم اعتذاره لتشيبته بالرأى.

– ماذا تريد أن نصنع؟ سألنى بطيبة قلب – نحن اثنين نعيش بمفردنا فى هذا العالم، وكنت أود أن أراك قبل أن أذهب لفراشى.

ليتنى تصرفت بتلقائية وأخذت أبى العزيز بين ذراعى، أبى الذى أصبح وديعاً ودوداً بعد مرضه! على عكس ذلك، أخذت أشخص الأعراض التى أمامى فى برود: العجز سيلفاً أصبح أكثر لطفاً؟ أكون مريضاً؟ حملت فيه بارتياب، ولم أجد شيئاً أفضل من أن أوجه إليه بعض اللوم:

– لماذا انتظرت طوال هذا الوقت حتى تأكل؟ كان بإمكانك أن تتناول الطعام، ثم تنتظرنى!
ضحك بحيوية كبيرة:

– يأكل المرء بشهية عندما يكون مع آخر.

ربما كانت هذه البهجة أيضاً علامة لشهية جيدة. اطمأنت وأخذت أتناول الطعام. وبخفّ المنزلى وفى خطوات مهتزة، اقترب من المائدة وشغل مكانه المعتاد. ثم أخذ يرمقنى كيف أكل، فى حين لم يتناول هو،

طعاماً آخر بعد أن أكل ملعقتين غير ممتلئتين، وأبعد أيضاً عنه الطبق الذى كان يقرّزه. لكن الابتسامة كانت مستمرة على وجهه العجوز. أتذكر فقط، كما لو أن الأمر قد حدث بالأمس، أننى نظرت مرتين فى عينيه، وهو يبعد نظراته عنى. يقال إن هذه علامة الرياء، لكنى أعرف الآن أنها علامة المرض. فالحيوان العليل لا يترك الفرصة للنظر فى عينيه اللتين ربما توحيان بالمرض والضعف.

ظل ينتظر أن يسمع منى كيف قضيت تلك الساعات الطويلة التى انتظرنى فيها. ولما رأيتَه مصراً على ذلك كثيراً، توقفت للحظة عن الطعام وحكيت له بجفاء، أننى حتى تلك الساعة كنت أناقش أصول المسيحية.

حذق فى ريبة وحيرة:

– أتفكر أنت أيضاً، الآن، فى الدين؟

كان واضحاً أننى سأرضيه كثيراً إذا ما قبلت التحدث معه فى الدين. لكن على عكس ذلك، فأنا الذى كنت أشعر أننى محارب عندما كان على قيد الحياة (الآن لم أعد كذلك) أجبت بإحدى الجمل المعتادة التى نتداولها كل يوم فى المقاهى المنشأة بجوار الجامعات:

– الدين بالنسبة لى ليس إلا ظاهرة كغيرها ينبغى دراستها.

– ظاهرة؟ سألنى وهو مرتبك. بحث عن إجابة حاضرة وفتح فمه لكى يتلفظ بها. ثم تردد ونظر إلى الطبق الثانى، الذى قدمته له مارياً فى

تلك اللحظة ذاتها، والذي لم يلمسه؛ لذا، كى يسد فاه بطريقة أفضل،
دس به عقب سيجار أشعله وتركه على الفور ينطفئ. هكذا أتاح لنفسه
وقفة للتأمل فى هدوء. لبعض الوقت نظر إلى بحزم:

– ألا تريد أن تسخر من الدين؟

وأنا، ذلك الطالب المثالى الذى كنته، ويفهم ممثلى، أجبته:

– أية سخرية! إننى أدرسه!

سكت ونظر طويلاً إلى عقب السيجار الذى كان قد تركه على أحد
الأطباق. أفهم الآن لماذا قال لى ذلك. أفهم الآن ما الذى كان يدور
بذهنه المشوش، وأندهش كيف لم أدرك منه شيئاً فى ذلك الحين. أعتقد
أنه فى تلك الفترة كان ينقصنى الحب الذى يوضح أشياء كثيرة. ثم يسر
لى الأمر بدرجة كبيرة! كان يتحاشى مواجهة تشكى: كانت معركة
شاقة جداً بالنسبة له فى ذلك الوقت؛ لكنه كان يرى أن بإمكانه أن
يواجهها بهدوء مثلاً يتناسب مع مريض. أذكر أنه عندما تحدث، كانت
أنفاسه تشق عليه وتتباطأ كلماته. إن الاستعداد لخوض المعارك يتطلب
جهداً كبيراً، غير أننى ظننت أنه لن يستسلم للنوم دون أن يوفينى حقى
وتأهبت لمناقشات لم تحدث. –

– أنا – قالها وهو لا يزال ينظر إلى عقب سيجاره الذى أصبح
مطفأً – أشعر كم هى عظيمة خبرتى ومعرفتى للحياة. لا تذهب سنوات
العمر الطويلة هباءً. أعرف أشياء كثيرة – ويؤسفنى ألا أستطيع أن
أعلمك إياها كما أحب.

أه، كم أود ذلك! إنني أرى ما بداخل الأشياء، وأرى أيضاً ما هو صحيح وحقيقي، وما هو على عكس ذلك أيضاً.

لم يكن هناك شيء للمجادلة. هممت وأنا غير مقتنع وكنت أتناول الطعام:

- نعم! يا أبي!

لم أكن أريد أن أسىء إليه.

- وصلت للأسف متأخراً جداً. كنت من قبل أقل تعباً وبإمكاني أن أخبرك بأشياء عديدة.

ظننت أنه مازال يريد أن يؤنبني؛ لأنني أتيت متأخراً واقترحت عليه أن نترك تلك المناقشة لليوم التالي.

- ليس الأمر مجرد مناقشة، أجاب وهو شارد الذهن، ولكن المسألة شيء آخر. أمر لا يمكن مناقشته، وستعلم أنت أيضاً ذلك بمجرد أن أخبرك به. لكن الصعوبة في النطق به!

هنا انتابني الشك:

- أتشعر بالأم؟

- لا يمكن القول إنني أشعر بالأم، لكنني متعب تعباً شديداً وسأذهب فوراً للنوم.

دق الجرس وفي الوقت نفسه نادى بصوته ماريًا. عندما جاءت،
سألها عما إذا كان كل شيء معداً بحجرتي. ثم أخذ يسير وهو يجر
الخُف على الأرض. بعدما وصل بجانبى، أحنى رأسه لى يقدم لى خده
لقبلة المساء.

وعندما رأيته يتحرك وهو مهتز، راودنى الشك من جديد أنه يشعر
بآلم، وسألته عن ذلك. كرر كالأنا الكلمات نفسها لأكثر من مرة، وأكد لى
أنه يشعر بالتعب وليس مريضاً. ثم أضاف:

- سأفكر الآن فى الكلمات التى سأقولها لك غداً. سترى أنها
تقنعك.

- أبى - صحت وقد تحركت مشاعرى - سوف أسعد بالاستماع
إليك.

وعندما وجدنى على أتم الاستعداد للإذعان لخبرته، تردد أن
يتركنى: كان ينبغي أن يفتتم لحظة كهذه موائمة للقاية! مسح بكفه على
جبينه، وجلس على المقعد الذى كان قد ارتكز عليه ليقدم لى خده للقبلة.
كان يلهث قليلاً.

- شيء غريب! قال. لا أجد شيئاً أقوله لك، لا شيء على الإطلاق.

جال بنظره فيما حوله، كأنه يحاول أن يبحث بالخارج عما لم
يستطع أن يتوصل إليه بداخله.

– وعلى الرغم من ذلك فأننا أعرف أشياء كثيرة، بل الأشياء جميعها أعرفها. لابد أن يكون ذلك ناتجاً عن خبرتي الواسعة.

كان لا يعاني كثيراً لعدم تمكنه من توضيح فكرته؛ لأنه كان يبتسم لما لديه من قوته وعظمته.

لا أدري لماذا لم أستدع الطبيب في الحال. على أن أقر في ألم وندم: أنني حسبت كلمات والدي تعبيراً يمليه عليه غروره الذي لمسته فيه أكثر من مرة. إلا أنه لم يكن ليفوتني وضوح ضعف صحته؛ ولهذا فقط لم أتم المناقشة. كان يسرني أن أراه سعيداً بوهمه أنه يتمتع بصحة جيدة في حين أنه كان شديد الوهن. خدعني بعد ذلك الود الذي أظهره لي وهو يبدي رغبته في أن يسلم لي ذلك العلم الذي كان يعتقد أنه تحصله، على الرغم من أنني كنت مقتنعاً بعدم قدرتي على تعلم أي شيء منه. ولكي أجامله وأهدئ من روعه طلبت منه ألا يبذل جهداً في العثور السريع على الكلمات التي كانت تهرب منه، ففي حالات معقدة مشابهة يستودع أكبر العلماء الأشياء المفرطة في أي ركن من أركان المخ لكي تتبسط من تلقاء نفسها.

أجاب والدي:

– إن ما أبحث عنه ليس معقداً على الإطلاق. بل يتعلق الأمر بالبحث عن كلمة، كلمة واحدة وسأعثر عليها! ولكن ليس هذه الليلة؛ لأنني سأنام نوماً عميقاً، ودون أي تفكير.

لكنه لم ينهض من المقعد. قال لى، فى تردد وهو يتفحص وجهى
للحظة:

- أخشى ألا أتمكن من إخبارك بكل ما أفكر فيه، ليس إلا لأنك
تعتقد السخرية من كل شىء.

ابتسم لى كأنه يريد أن يرجونى ألا أغضب من كلماته، نهض من
على الأريكة وقدم لى خده للمرة الثانية. عدلت عن المجادلة وإقناعه بأن
هناك أموراً كثيرة فى هذا العالم يمكن الاستهزاء بها وتستوجب ذلك
وأردت أن أطمئنه فعانقته بقوة. وربما كانت حركتى تلك أقوى من اللازم؛
حيث إنه انسحب من بين ذراعى أكثر إجهاداً عما قبل، لكن من المؤكد
أنه أدرك شعورى نحوه؛ لأنه صافحنى بحب صادق.

- لنذهب إلى الفراش! قالها بفرحة وخرج وتبعته ماريًا.

وعندما بقيت بمفردى (غريب هذا أيضاً) لم أنشغل بصحة والدى،
لكنى، فى غمرة تأثرى - وأستطيع قول ذلك - ومع الاحترام الواجب من
الابن، تأسفت لعقل مثل عقله يتطلع إلى غايات سامية، لم تُواته الفرصة
لثقافة أفضل. اليوم وأنا أكتب، وقد اقتربت من عمر والدى، أعرف عن
يقين أن الإنسان يمكن أن يمتلكه الإحساس بفطنته الثاقبة التى لا تترك
من علامة تدل على وجودها سوى ذلك الإحساس القوى. وها هو ذا: يستتشق
نفساً عميقاً ويتقبل ويتأمل الطبيعة كلها كما هى وكما أعطيت لنا غير
قابلة للتغيير: وبهذا تتجلى الفطنة نفسها التى أرادت الخليقة بكاملها.

وبالنسبة لحالة والدي، فمن المؤكد أنه في آخر لحظات يقظته الذهنية، انتابه إحساس بالفطنة مرجعه نزعة دينية حاضرة، حتى إنه اندفع ليحدثني عنها بما أنني كنت قد قصصت عليه أنني شُغلت بأصول المسيحية. لكنني الآن أعرف أيضاً أن ذلك الإحساس كان المؤشر الأول لوجود جلطة في المخ.

جاءت ماريًا لترفع الأطباق عن المائدة، وتخبرني أن والدي قد نام في الحال؛ لذا ذهبت إلى مخدعي وأنا أيضاً هادئ تماماً. كانت الرياح بالخارج تهب وتعصف. كنت أسمعها من فراشي الدافئ مثل تهويدة، كانت تبتعد عني شيئاً فشيئاً؛ لأنني قد غرقت في النعاس.

لا أدري كم من الوقت نمته. أيقظتني ماريًا. يبدو أنها جاءت قبل ذلك أكثر من مرة إلى حجرتي لكي تتنادى عليّ ثم خرجت مسرعة. وإذا كنت في نومي العميق أحسست في يادي الأمر بشيء من الاضطراب، ثم لمحت العجوز تهرع في الحجرة وفي نهاية الأمر فهمت. كانت تريد إيقاظي، لكن عندما نجحت في ذلك، كانت قد تركت حجرتي. واصلت الغناء حتى أنام وأنا، لكي أكون صادقاً، عليّ أن أعترف أنني ذهبت إلى حجرة والدي وأنا أتألم أنهم انتزعوني من النوم كرهاً. كنت أعرف أن ماريًا كانت ترى دائماً والدي في حالة خطر. الويل لها إن يكن مريضاً هذه المرة!

كانت حجرة والدي ليست كبيرة ومزدحمة بعض الشيء بقطع الأثاث. بعد وفاة والدتي، ولكي ينسى بطريقة أفضل، انتقل إلى حجرة أخرى،

وحمل معه فى هذه الحجرة الجديدة الأقل اتساعاً، كل ما أراده من أثاث. كان يضيئها إضاءة خافتة: مصباح على منضدة منخفضة للغاية، كان الضوء المعتم يخيم على كل شىء. كانت ماريًا تسند والدى وهو مُسْتَلَقٍ على ظهره، ويرى جزء من صدره خارج الأغطية. كان وجه والدى يتصبب عرقاً ويكتسب لونه الأحمر من الضوء الذى كان قريباً منه. كان رأسه يستند إلى صدر ماريًا الوفى. وكان يزأر من الألم وفمه غير قادر على الحركة حتى كان اللعاب يسيل منه حتى الذقن. كان ينظر بلا حراك إلى الحائط الذى أمامه، ولم يلتفت إلى حينما دخلت.

حكى لى ماريًا أنها سمعت تأوّه، ووصلت فى الوقت المناسب لتسعه لى لا يسقط من الفراش، فى بادئ الأمر – هكذا أكدت ماريًا – كان مضطرباً بصورة أكبر، بعد ذلك بدا لها أنه هدأ إلى حد ما، لكنها لم تخاطر بتركه بمفرده. ربما أرادت بذلك أن تعتذر لى لأنها استدعتنى، فى حين أننى أدركت بالفعل أنها أحسنت عندما أيقظتني. كانت تبكى وهى تتحدث إلى، لكنى لم أبك معها، بل طلبت منها أن تسكت وألاّ تزيد بنواحيها من فزع تلك الساعة. لم أكن قد أدركت بعد الأمر كله. بذلت تلك المسكينة ما فى وسعها كى تهدئ من لوعتها.

اقتربت من أذن والدى وصحت:

– لماذا تتأوه يا أبى؟ هل تشعر بالألم؟

أعتقد أنه سمعنى؛ لأن أنينه أخذ يخفت وصرف نظره عن الحائط المواجه له، كأنه قد حاول أن ينظر إلى؛ ولكنه لم يتمكن.

صحت أكثر من مرة فى أذنه بالسؤال نفسه وحصلت على النتيجة نفسها. وتبدد فى الحال وقارى الرجولى فى تلك اللحظة، كان أبى يدنو من الموت أكثر من قربه منى؛ لأن صراخى لم يعد يصل إليه، انتابنى فزع كبير وتذكرت بادئ ذى بدء الكلمات التى تبادلناها الليلة الماضية. كانت ساعات قليلة تحرك بعدها لكى يرى أى منّا كان محقاً. شىء غريب! كان الندم يلزم شعورى بالألم. خبأت رأسى فى وسادة والذى نفسها، وبكيت بشدة، وكان نواحى يفوق ما أخذته على ماريًا قبل قليل.

كان عليها فى تلك اللحظة أن تهدئ من روعى، لكنها قامت بذلك بطريقة تثير العجب. كانت تحثنى على الهدوء وهى تحدثنى عن والدى، الذى كان بدوره يئنّ وعيناه شاخصتان كأنهما لميت.

- ياله من مسكين! قالت - أيموت هكذا! ومع كل هذا الشعر الغزير الجميل. كانت تداعبه. حقيقة كان يتوج رأس والدى شعر غزير أبيض اللون مجعد، فى حين كان الشعر يخف فى رأسى وأنا فى الثلاثين من عمرى.

لا أتذكر أن فى هذا العالم أطباء، ومن المفترض أن يأتوا أحياناً بأطواق النجاة. كنت قد رأيت الموت على ذلك الوجه الذى أجهدته الألم وفقدت الأمل. كانت ماريًا هى أول من تحدثت عن الطبيب، وذهبت بعد ذلك لتوقظ فلاح المزرعة حتى ترسله إلى المدينة.

ظللت بمفردى أسند والدى لدقائق معدودة بدت لى كأنها الدهر. أذكر أنى حاولت أن أضع فى يدى التى كانت تلامس جسده المنهك،

كل مشاعر المحبة التي ملأت فؤادى، لم تكن تصل إلى سمعه الكلمات.
ماذا كان بوسعى أن أفعل لأخبره أنى أحبه كثيراً؟

عندما أتى المزارع، ذهبت إلى حجرتى لأكتب رسالة موجزة، وكان شاقاً على أن أجمع تلك الكلمات القليلة التي كان من شأنها أن تعطى للطبيب فكرة عن الحالة. وحتى يمكنه أن يسرع أيضاً بإحضار بعض العقاقير. لم يفارقنى الإحساس بالموت الأكيد المحدث بوالدى، وكنت أتساءل:

«ماذا سأفعل الآن فى هذا العالم؟»

ثم تبع ذلك ساعات ترقبٌ مديدة. بذاكرتى تسجيل دقيق بما يكفى لتلك الساعات. مرت الساعة الأولى، ولم تعد هناك حاجة إلى إسناد رأس والدى الذى كان يرقد جسداً فاقد الحس فى فراشه. توقف أنينه، بل فقد وعيه بشكل مطلق. كانت أنفاسه سريعة لدرجة أنى كنت أحاكيه دون قصد. ثم أصبح يشق على أن أتنفس طويلاً حسب ذلك الإيقاع، وكنت أوفق أنفاسى على وقفات المريض أملاً فى أن أجذب معى والدى أيضاً إلى الراحة. لكنه كان يعدو إلى الأمام ولا يبالي بالتعب. حاولنا عبثاً أن نعطيه ملعقة شاي. كان غياب وعيه يقل عندما كان يقاوم تدخلنا. فى حسم أطبق أسنانه. لم يتخل حتى فى اللاوعى عن عناده الجامح. قبل بزوغ الفجر بكثير تغير نظام تنفسه. أخذت أنفاسه تشكل مراحل كانت تبدأ بعمليات شهيق وزفير بطيئة تبدو كما لو كانت لإنسان سليم، وتتبعها أنفاس سريعة تتوقف وقفة طويلة، مروعة، كانت تبدو لمارياً ولى

إشارة للموت. لكن تلك المرحلة كانت تتكرر تقريباً على منوال واحد، أشبه بفقرة موسيقية تعزف لحن حزن لانهائى، انعدمت فيه الألوان. عملية التنفس تلك التى لم تكن دائماً متشابهة، وإن استمر صوتها عالياً، صارت جزءاً من تلك الحجرة. ومنذ ذلك الحين سكنت هناك دائماً، لفترة من الزمن طويلة، طويلة!

قضيت ساعات مستلقياً على أريكة، فى حين كانت مارياً تجلس بجانب الفراش. على تلك الأريكة ذرفت دموعاً حارقة. فالبكاء يحجب الخطايا، ويسمح باتهام القدر دون التماس لعذر. كنت أبكى لأننى فقدت والدى الذى عشت له طوال الوقت. لا أهمية لأننى لم أرافقه إلا قليلاً. جهودى التى بذلتها لأتحسن ألم تكن من أجل إرضائه؟ والنجاح الذى كنت أطمح إليه لم يكن إلا فخراً أمامه، وهو الذى كان يرتاب دائماً فى قدراتى، بل كان أيضاً يسعده. أما فى تلك اللحظة فما كان يستطيع أن ينتظرنى ورحل وهو مقتنع بضعف قدراتى الذى لا سبيل للشفاء منه. كانت دموعى شديدة المرارة.

وفى أثناء كتابتى، بل وأنا أخط على الورق هذه الذكريات الأليمة، اكتشفت أن الصورة التى تسلطت على تفكيرى فى محاولتى الأولى وأنا أنقب فى ماضى، صورة تلك القاطرة التى تجر سلسلة من العربات على منحدر وعير، تراءت لى للمرة الأولى وأنا أنصت إلى أنفاس والدى من تلك الأريكة. هكذا تسير القاطرات التى تجر أثقالاً ضخمة: تصدر نفثات منتظمة ثم تأخذ فى الإسراع، وينتهى بها الأمر إلى التوقف، تلك الوقفة

أيضاً تهدد بالخطر؛ لأن من ينصت يخشى أن يرى القاطرة والعربات التي تجرها تنجرف نحو هوة سحيقة بالوادي. حقاً! إن أول جهد بذلته في استعادة ذكرياتي حملني من جديد إلى تلك الليلة، إلى أهم اللحظات في حياتي.

حضر الطبيب كوبروسيش إلى الفيلا والفجر لم يبرح بعد، يرافقه ممرض يحمل صندوقاً صغيراً به بعض العقاقير. واضطر أن يأتي سيراً على الأقدام؛ لأنه لم يجد عربة تقله مع تلك العاصفة الهوجاء.

لاقيته وأنا أبكي، فتعامل معي بلطف شديد وهو يدفعني أيضاً إلى الأمل. وعلى الرغم من ذلك فإن عليّ أن أقول على الفور، حتى بعد لقائنا ذاك، إنهم قليلون في هذا العالم أولئك الذين يثيرون بداخلي مثل ذاك النور القوي الذي كنت أشعر به تجاه الطبيب كوبروسيش. إنه مازال على قيد الحياة، أصبح هرمًا ويحظى بتقدير في المدينة بأسرها. وحتى الآن كلما رأيته، وقد وهن العظم منه، ويتعثّر في مشيته في الطريق سعياً لممارسة بعض نشاط، أو بحثاً عن الهواء الطلق، يتجدد العداء بداخلي.

ربما كان الطبيب قد تجاوز في ذلك الحين الأربعين من عمره. كان يخصص الكثير من جهده للطب الشرعي، وعلى الرغم من أنه كان يعرف بصفته إيطالياً شديد الانتماء، فقد كانت سلطات الإمبراطورية النمساوية تعهد إليه بالتقارير باللغة الألمانية. كان رجلاً نحيفاً، عصبي المزاج، وجهه غير معبر، ويتميز باتخاذ الصلع فيه شكل الجبين العريض.

وهناك مظهر آخر للضعف عنده كان يكسبه أهمية: عندما كان يرفع نظارته (وكان يفعل ذلك دائماً عندما يرغب في التفكير) كانت عيناه الواهنتان تحملقان إلى جانب أو أعلى المتحدث إليه، وكانتا تتخذان شكل عيون التماثيل غير الملونة، تلك العيون المتوعدة، أو ربما، الساخرة. كانتا إذن عينين لا تروقان لى. وعندما كان يريد أن يقول شيئاً حتى ولو كلمة واحدة كان يضع النظارة على أنفه وما هي عيناه تعودان لتأخذ شكل عيني البرجوازي الأصيل، حينما يفحص الأشياء التي يتحدث عنها بعناية ودقة.

جلس في غرفة الانتظار، واستراح لبعض الدقائق. طلب منى أن أقص عليه بالضبط كل ما حدث، منذ أول إنذار بالخطر حتى وصوله. رفع نظارته وحدق بعينيه العجيبتين في الحائط الخلفى الذى أجلس أمامه.

حاولت أن أكون معتدلاً، وكان ذلك شاقاً على نظراً للحالة التي أصابتنى. تذكرت أيضاً أن الطبيب كوبروسيش لم يكن يطيق الأشخاص الذين ليس لهم معرفة بالطب، ثم يستخدمون المصطلحات الطبية ويتخذون من يلم بأشياء في هذه المادة. وعندما وصلت إلى الحديث عما بدا لى "تنفس تلقائى" وضع نظارته ليقول لى: "تمهل فى استخدام المصطلحات. سنرى فيما بعد فيما يتعلق الأمر". كنت قد تحدثت أيضاً عن تصرف والدى المثير للدهشة، عن اشتياقه لرؤيتى، وعن تعجله فى الذهاب إلى فراشه. لم أبلغه بأحاديث والدى الغريبة: ربما خشيت أن

أرغم على ذكر شيء من إجاباتي التي كنت أقدمها له في ذلك الحين. بل حكيت أن أبى لم يتمكن من التعبير عن أفكاره بصورة واضحة، وكان يبدو أنه كان يمعن التفكير في شيء ما كان يدور برأسه لم يستطع صياغته. صاح الطبيب بنشوة الانتصار، وهو يضع النظارة على أنفه:

- أعرف ماذا كان يدور برأسه!

كنت أعرف ذلك، أنا أيضاً، لكنني لم أنطق به لكى لا أثير غضب الدكتور كوبروسيش: إنه استسقاء قد أصاب المخ.

ذهبنا إلى فراش المريض. وبمعاونة الممرض أدار وأدار ذلك الجسد المسكين الهامد لفترة من الوقت خلتها طويلة جداً. أنصت له وتفحصه. تلمس معاونة المريض نفسه، لكن دون جدوى.

- كفى! قالها في لحظة بعينها. اقترب منى ونظارتها في يده وهو يحمل في أرضية الحجرة ويتنهد، قال لى:

- تشجع! الحالة بالغة الخطورة.

ذهبنا إلى حجرتي حيث غسل أيضاً وجهه.

كان ذلك دون نظارته وعندما رفع وجهه ليجففه، بدا رأسه الصغير المبلل كرأس تميمة صنعتها يد ليست لها خبرة. ذكر لى أننا التقينا منذ بضعة شهور وأبدى دهشته من أننا لم نرجع إليه بعد ذلك. بل إنه ظن أننا تركناه وذهبنا إلى طبيب آخر؛ كان حينئذ قد شرح لنا فى وضوح

تام أن والدي يحتاج إلى علاج. وعندما كان يوجّه اللوم، بهذا الشكل دون نظارته، كان مروّعاً. رفع صوته وأراد التفسيرات لتصرفنا. وكانت عيناه تبحثان عنها في كل مكان.

كان بلا ريب على حق وكنت أستحق اللوم. هنا ينبغي القول، إنني على يقين من أنني لا أمقت الطبيب كوبروسيش بسبب تلك الكلمات. اعتذرت وأنا أقص عليه عداء والدي للأطباء والعقاقير؛ كنت أتحدث وأنا أذرف الدمع وهو يحاول، بطيبة فياضة، أن يطمئنني، وقال إنه حتى لو لجأنا إليه مبكراً، لتمثل ما يستطيعه علمه في تأجيل الكارثة، على أكثر تقدير، الكارثة التي كنا نشهدها آنذاك، وليس منعها من الحدوث.

ولكن، ما إن أخذ في البحث في الأعراض السابقة للمرض، حتى أصبح لديه موضوعات جديدة لتوجيه اللوم لي. كان يريد معرفة ما إذا كان والدي في تلك الشهور الأخيرة يشكو من حالته الصحية، من شهيته أو من نومه. لم أستطع أن أخبره بشيء محدد؛ ولا حتى إذا ما كان والدي أكل كثيراً أو قليلاً على تلك المائدة التي كنا نجلس معاً حولها كل يوم. كان وضوح ذنبي يروعي، لكن الطبيب لم يصبر مطلقاً على أسئلته. وعلم مني أن ماريًا كانت لا تكف عن أن تراه مشرفاً على الموت؛ ولذا كنت أستهزئ بها.

كان ينظف أذنيه، قال وهو يحملق إلى أعلى: من المحتمل أن يسترد وعيه خلال ساعتين بشكل نسبي على الأقل.

– إذن هناك أمل؟ صحت.

- إطلاقاً! أجب بحدة. - لكن العلق لا يخفق أبداً في هذه الحالة. سيسقرد بالتأكد جزءاً من وعيه، ربما ليذهب عقله.

رفع منكبيه ووضع المنشقة في مكانها. حركة أكتافه تلك كانت تعنى تماماً أنه غير واثق فيما يقوم هو نفسه بعمله، وحثنى ذلك على الحديث. كانت ترعنى فكرة قيام والدى من رقدته ليرى نفسه مشرفاً على الموت، لكن دون حركة الأكتاف تلك ما كنت أملك الشجاعة لقول ذلك.

- دكتور! أما ترى الضرر فى عملية إعادة وعيه؟

انفجرت فى البكاء. كانت رغبتى فى البكاء تلازم أعصابى المهتزة، ولكنى استسلمت لها دون مقاومة لكى أظهر دموعى؛ حتى يغفر لى الطبيب ذلك الحكم الذى تجرأت وأطلقتته على عمله ذاك.

وبطية قلب كبيرة قال لى:

- هيا، اهدأ. وعى المريض لن يكون أبداً بالدرجة التى تجعله يدرك حالته. إنه ليس طبيباً. يكفى ألا نخبره أنه يحتضر، ولن يعرف ذلك. على العكس يمكن أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك: هذا يعنى أنه قد يصاب بالجنون. لكنى أحضرت معى القميص الذى نستخدمه للمرضى النفسانيين، وسيبقى المريض هنا.

كنت مرتاعاً أكثر من أى وقت مضى، ورجوته ألا يلصق العلق فى علاج والدى. فى تلك اللحظة، أخبرنى أن الممرض قد استخدمه بالفعل، لأنه أعطاه الأمر بذلك قبل أن يغادر حجرة والدى؛ لذا تملكى الغضب.

ثم كان هناك ما هو أسوأ من العمل على استعادة مريض لوعيه، دون أدنى أمل فى شفاؤه، وتعريضه فقط لليأس، أو المخاطرة بتحمل قميص المجانين - ومع تلك المعاناة الشديدة!؟ وبانفعال شديد، ومازال يصاحب كلماتي ذلك النحيب الذى لا يؤاخذ عليه، أبدت رأى بأنها قسوة فائقة ألا يترك من هو محكوم عليه بالموت لكى يمضى فى سلام.

إننى أبغض ذلك الرجل؛ لأنه غضب منى تلك اللحظة. الأمر الذى لم أستطع أن أغفره له. ثار ثورته لدرجة أنه نسى أن يضع نظارته على عينيه، ومع ذلك اكتشف الموضع الذى به رأسى لكى يحدد فيه بعينه المريعتين.

قال لى إنه يرى أننى أريد محو ذلك البصيص من الأمل الذى كان موجوداً. قال لى ذلك بالضبط، وبقسوة.

كدنا ندخل فى عراق. عارضته وسط بكائى وصراخى؛ لأنه منذ دقائق قليلة مضت استبعد هو بنفسه أى أمل فى شفاء المريض. إن بيتى ومن يعيشون فيه لا يجب أن يصبحوا حقلاً لتجارب لها أماكن أخرى فى هذا العالم!

فى لهجة شديدة الجدية وثبات جعلها أقرب إلى الوعيد، أجاب:
- شرحت لسيادتك ما يقوله العلم فى تلك اللحظة. وعلى الرغم من ذلك من يستطيع التنبؤ بما يمكن أن يحدث خلال نصف ساعة أو حتى فى الغد؟ حيث أعمل على إبقاء والدك على قيد الحياة أكون قد تركت الطريق مفتوحاً لكل الاحتمالات.

وضع نظارته على عينيه، وبهيئته التي كانت أشبه بهيئة الموظف المتعنت، أخذ يضيف بعض مبررات لا تنتهى، حول أهمية تدخل الطبيب المعالج فى مستقبل اقتصاديات أى أسرة. وإن نصف ساعة من التنفس تزداد للإنسان قد تقرر مصير ثروة من الثروات.

وواصلت بكائى وقتئذ رثاءً أيضاً لنفسى؛ حيث كنت مضطراً إلى الاستماع إلى تلك الأمور فى لحظة كنتك. كنت منهكاً فسكت عن المجادلة. والعلق قد تم بالفعل استخدامه!

الطبيب سلطة عندما يكون عند فراش أحد المرضى وقد تصرفت بكل اعتبار مع الطبيب كوبروسيش. ولا بد أن يكون ذلك الاعتبار هو السبب الذى من أجله لم أجروا على طلب استشارة مجموعة من الأطباء، الأمر الذى لمت نفسى من أجله لسنوات طويلة. الآن، حتى ذلك الشعور باللوم قد دفن مع جميع المشاعر الأخرى التى أتحدث عنها هنا ببرود يمكن أن أحكى به أحداثاً وقعت لشخص غريب عني. ولم يتبق فى فؤادى، من تلك الأيام، سوى كراهيتى لذلك الطبيب الذى يصر على أن يعيش.

عدنا فيما بعد مرة أخرى إلى فراش والدى، وجدناه ينام هادئاً على جانبه الأيمن. وضعوا على صدغه منديلاً كبيراً ليغطي الجروح التى سببها العلق. أراد الطبيب أن يجرب على الفور إذا ما كان وعيه قد ازداد فصاح فى أذنيه. ولم يستجب المريض على الإطلاق.

- هذا من الأفضل! قلت بحماس شديد، وأنا أبكى.

- لا يمكن ألا يتحقق الأثر المتوقع! هكذا رد الطبيب - ألا ترى أن التنفس قد تحسن بالفعل؟

حقاً، فالتنفس كان سريعاً وشاقاً ولكنه لم يأخذ تلك المراحل التي أفزعتنى من قبل.

قال الممرض شيئاً للطبيب فأوماً بالموافقة. كان الأمر يتعلق بتجربة استخدام قميص المجانين مع المريض. استخرجوا تلك الأداة من الحقيبة وأيقظوا والدى وأجبروه على الجلوس فى فراشه. فى تلك اللحظة فتح المريض عينيه: كانتا معتمتين، لم تفتحا بعد للضوء. تملكنى البكاء؛ خشية أن تبصرا فى الحال وتريا كل شىء حولهما. على عكس ذلك، عندما عادت رأس المريض إلى الوسادة، أغمضت العينان وكأتهما عينا دمية من الدميات.

شعر الطبيب بالانتصار:

- هذا شىء مختلف تماماً! هكذا همهم.

نعم: كان شيئاً آخر! لم يكن بالنسبة لى سوى إنذار خطير. وحرارة قبلت والدى على جبينه وتمنيت له فى ذهنى:
- أه، نم! نم مستريحاً حتى تبلغ نومك الأبدى!

وهكذا تمنيت الموت لوالدى، لكن الطبيب لم يفهم ذلك؛ لأنه قال لى بصفاء نية:

- أنت أيضاً يسعدك الآن أن تراه يستعيد وعيه!

رحل الطبيب عند مطلع الفجر. كان فجراً قاتماً يتعثر في مجيئه. بدت لي الريح التي كانت لا تزال تعصف أقل شدة على الرغم من أنها كانت تذرّي الجليد البارد.

اصطحبت الطبيب إلى الحديقة. بالغت في مجاملته حتى لا يتنبه إلى كراهيتي له. كان لا يبدو على وجهي سوى الاحترام والتوقير. سمحت لنفسى بحركة استياء خفقت من عنائي، فقط عندما رأيته يبتعد في المشى الذي يؤدي إلى باب الخروج من القिला. رأيته صغيراً وأسود اللون وسط الجليد، كان يترنح ويتوقف عند كل هبة ريح لكي يتماسك جيداً. لم تكفني تلك الامتعاضة، وشعرت بالحاجة إلى حركات أخرى أشد قسوة، بعد كل ذلك الجهد الذي بذلته. مشيت لبضع دقائق في الطريق مع برودة الجو ورأسي مكشوف، وأنا أدبّ بقدمي ساخطاً في الجليد المرتفع. لكنني لا أدري إذا ما كان كل هذا السخط الصبباني موجهاً إلى الطبيب أم إلى نفسي على وجه الخصوص. كان سخطى موجهاً لي أنا أولاً؛ إذ كنت أريد أن يرحل والدي إلى الأبد ولم أجرو أن أتقوه بذلك. إن صمتي قد بدل رغبتى تلك المستوحاة من أظهر حب ابن لوالده، إلى جريمة حقيقية أخذت تثقل عليّ بصورة مروعة.

كان المريض نائماً بصورة مستمرة. قال فقط كلمتين لم أفهمهما، لكنه قالهما بأهدأ نبرة من نبرات الحديث، كانت غريبة للغاية؛ لأنها

قطعت تنفسه الذى ظل سريعاً وبعيداً كل البعد عن أى نوع من الهدوء.
هل كان يدنو من الوعي أم من اليأس؟

فى ذلك الوقت كانت ماريًا تجلس مع الممرض بجوار الفراش.
أوحى لى ذلك الرجل بالثقة، وما كان لا يعجبني فيه هو الدقة فى العمل
التي كان يبالغ فيها. اعترض على فكرة ماريًا بإعطاء المريض ملعقة من
الحساء. كانت تظنه دواءً مفيداً له. لم يكن الطبيب قد تحدث عن أى
حساء، وأراد الممرض أن ينتظر عودته كي يعطى قراره فى حدث كهذا
بالغ الأهمية. تحدث باستعلاء يفوق ما كان يستحقه الأمر. لم تلح ماريًا
المسكينة وأنا كذلك. لكنى عبرت بحركة استياء أخرى.

دفعوا بى إلى الفراش لأنام؛ لأنه كان على أن أمضى الليل مع
الممرض لخدمة المريض، حيث كنا نكفى نحن الاثنان لرعايته؛ وكان
أحدنا يستطيع أن يستريح على الأريكة. اضطجعت فى الفراش
واستغرقت فى النوم على الفور، وفقدت وعيى بشكل تام، صاف لم يشبه
- وأنا على يقين من ذلك - أى بصيص لحلم ما.

على عكس ذلك كانت الليلة الماضية، فبعد أن أمضيت جزءاً من
النهار فى جمع ذكرياتى هذه، جاءنى حلم شديد الوضوح حملنى معه
فى وثبة كبيرة، عبر الزمان، إلى تلك الأيام الماضية. تراءت لى نفسى
من جديد مع الطبيب فى الحجرة نفسها، حيث تجادلنا حول العلق
وقمصان المجانين، فى تلك الغرفة التي لها الآن شكل يختلف تماماً؛

لأنها أصبحت غرفة نومى وزوجتى. كنت أصف له كيفية معالجة والدى وشفائه، فى حين كان هو (لم يكن عجوزاً أو واهناً على صورته الحالية، بل قوياً وعصبى المزاج كما كان سالفاً) بحنق شديد، والنظارة فى يده وعيناه زائفتان، يصيح أنه ما من شىء يستحق العناء للقيام بأشياء كثيرة.

كان يقول بالضبط: "ربما يعيده العلق إلى الحياة وإلى الألم، ولسنا فى حاجة لاستخدامه معه!". أما أنا فكنت أضرب بقبضة يدي على كتاب فى الطب وأصرخ: "العلق! أريد العلق! وقميص المجانين أيضاً!".

يبدو أن حلمى كان صاخباً، حتى إن زوجتى قطعتة وهى توقظنى. ظلال بعيدة! لكى نكشف ما تحويه نحتاج إلى معين بصرى يستطيع أن يقلب وضعها.

إن نومى الهادئ هو آخر ما أذكره من ذلك اليوم. توالى بعد ذلك أيام طويلة كانت كل لحظة فيها تشبه الأخرى. كان الجو قد تحسن؛ وقالوا إن حالة أبى الصحية قد تحسنت هى الأخرى. كان يتحرك بحرية فى الغرفة وأخذ يمشى بحثاً عن الهواء الطلق، بين الفراش والمقعد. من خلال النوافذ المغلقة كان ينظر لبضع دقائق إلى الحديقة وقد غطاها الجليد الذى يخطف الأبصار تحت شعاع الشمس. وفى كل مرة دخلت تلك الحجرة كنت أتأهب لكى أجادل وأشوش على ذلك الوعى الذى كان الطبيب كوبروسيش ينتظره. وعلى العكس كان والدى يظهر كل يوم

قدرته على السمع والإحساس بصورة أفضل، لكن ذلك الوعى كان لا يزال بعيد المنال.

للأسف ينبغي أن أعترف أنه عندما كان والدى على فراش الموت كنت أحمل فى نفسى عداءً شديداً تغلب بصورة غريبة على ألامى وشوئها. هذا الحق كان موجهاً فى المقام الأول إلى السيد كوبروسيش، وقد زاد منه ذلك الجهد الذى بذلته فى إخفائه عنه. ثم تملكنى الشعور ذاته تجاه نفسى؛ لأننى لم أستطع استئناف النقاش مع ذلك الأخير لكى أقول له فى وضوح إننى لا أثق قيد أنملة فى علمه، وكنت أتمنى لأبى أن يموت حتى أحول بينه وبين الألم.

وانتهى بى الأمر إلى السخط على المريض أيضاً. فمن خاض تجربة أن يكون غير مؤهل للقيام بدور المريض، ويصبح مشاهداً سلبيًا لكل ما يفعله الآخرون، سيدرك ماذا يعنى البقاء لأيام وأسابيع بجوار مريض مضطرب. كنت بعد ذلك فى حاجة إلى الراحة لكى أستوضح ما بنفسى وأتألف، وربما أستطعم ذلك الألم بالنسبة لأبى ولى. إلا أنه كان على أن أتعارك لكى أرغمه على ابتلاع الدواء تارة وتارة أخرى لكى أمنعه من الخروج من الغرفة.

ذات مساء دعانى المريض كارلو ليطلعنى على تقدم جديد فى صحة والدى. أسرعت منزعجاً من فكرة أن يستطيع العجوز أن يدرك حقيقة مرضه ويلومنى على ذلك.

كان أبى واقفاً وسط الغرفة، يرتدى ملابسه الداخلية فقط وفوق رأسه قبعة النوم المصنوعة من الحرير الأحمر. وعلى الرغم من أن لهات أنفاسه كان لا يزال شديداً، فقد كان يتفوه من حين لآخر ببعض الكلمات القصيرة ذات المعنى. عندما دخلت الغرفة، قال لكارلو:

- افتح!

كان يرغب فى أن يفتح النافذة. أجابه كارلو بأنه لا يستطيع لشدة برودة الجو. ونسى والدى سؤاله لبعض الوقت. ذهب ليجلس على أريكة بجانب النافذة واسترخى عليها باحثاً عن الراحة. وعندما رآنى، ابتسم وسألنى:

- هل نمت؟

لا أعتقد أن إجابتى وصلتته. لم يكن ذلك هو الوعى الذى كنت أخشاه كثيراً. فعندما يحتضر الإنسان يكون لديه ما يشغله عن التفكير فى الموت. انصرف جسده بكامله إلى عملية التنفس.

وبدلاً من أن يستمع إلى صاح من جديد فى وجه كارلو:

- افتح!

لم يذق طعم الراحة. كان يترك الأريكة ليقوم واقفاً. ثم بعناء شديد وبمساعدة الممرض يذهب للفراش ويسترخى عليه لوقت قصير على جانبه الأيسر، ثم يستدير على الفور على الجانب الأيمن الذى كان يتحمله

لبضع دقائق. طلب من جديد مساعدة الممرض لكي يقف على قدميه،
وعاد مرة أخرى إلى الأريكة حيث كان يجلس أحياناً لفترات أطول.

فى ذلك اليوم، وبينما كان يمر بين الفراش والأريكة، توقف أمام
المرآة متأملاً نفسه، وهمهم:

- أبدو مكسيكياً!

لكى يهرب فى ذلك اليوم من رتابة جريه المفزعة بين الفراش
والأريكة، أعتقد أنه حاول أن يدخن.

تمكن من أن يملأ فمه بنفس واحد من الدخان أطلقه على الفور
وهو يعانى.

دعانى كارلو لى أشاهد لحظة من وعى جلى بلغها المريض:

- أمرض أنا، إذن، بدرجة خطيرة؟ هكذا سأل بمرارة.

هذا الوعى، بهذه الدرجة لم يعد مرة أخرى. بل بعد قليل انتابته
لحظة هذيان. نهض من الفراش، وظن أنه استيقظ بعد أن قضى الليل
فى أحد فنادق فينا. لابد أنه كان يحلم بفينا لرغبته فى ترطيب جفاف
فمه وهو يتذكر الماء العذب والمثلج بتلك المدينة. تحدث مباشرة عن الماء
العذب الذى ينتظره عند تلك العين القريبة.

كان على أية حال مريضاً مضطرباً، لكنه كان معتدلاً. كنت أتحايل
عليه؛ لأننى كنت أخشى دائماً عليه من الحسرة لو أدرك حقيقة حالته؛

ولذا لم تتمكن وداعته من التخفيف من جهدى الكبير، مع أنه كان يتقبل وهو راضخ أى عرض يعرض عليه؛ لأنه كان يتوقع من كل العروض إمكانية النجاة مما هو فيه من ضيق. عرض عليه الممرض أن يذهب ليحضر له كوباً من اللبن ووافق بفرحة كبيرة. وبالشغف ذاته الذى انتظر به الحصول على ذلك اللبن، أراد أن يتخلص على الفور منه، بعد أن رشف منه رشفة صغيرة ولم يستسغه ولما لم يُستجب إلى طلبه، ترك الكوب يسقط على الأرض.

لم يبد الطبيب قط أى خيبة أمل من الحال التى كان عليها المريض. كان يستشعر كل يوم بعض التحسن، لكنه كان يرى الكارثة وشيكة. ذات يوم أتى بعربة وتعجل بالانصراف. أوصانى أن أدفع بالمريض إلى النوم لأطول مدة ممكنة؛ لأن الوضع الأفقى أفضل بالنسبة للدورة الدموية. وأوصى بذلك والذى هو الآخر الذى أدرك وبنظرة فطنة حادة وعده بذلك، لكنه ظل واقفاً فى وسط الحجرة وعاد مباشرة إلى شرود ذهنه، أو عاد بالأحرى كما كنت أقول إلى التأمل فى آلامه.

وفى غضون الليلة التالية، تملكنى الفزع للمرة الأخيرة من رؤية استيقاظ ذلك الوعى الذى كنت أخافه كثيراً. كان جالساً على الأريكة بجانب النافذة، ينظر عبر الزجاج، وكانت السماء صافية تملؤها النجوم. كان تنفسه لا يزال عسيراً، وعلى الرغم من ذلك لم يبدو أنه يعانى منه إذ كان مستغرقاً فى النظر إلى أعلى. وربما كان لضيق تنفسه، أثر فى أن رأسه كان يبدو وكأنه يقوم بإيماءات توحى بالموافقة.

فكرت وأنا مرتاع: "ها هو ذا يستغرق فى المشاكل التى تحاشاها دائماً". حاولت أن أكتشف بالتحديد الموضع الذى كان يحملق فيه فى السماء.

كان ينظر، وهو مستقيم بنصفه العلوى، وفى جدية من يراقب من خلال فتحة شاهقة العلو. ظننت أنه ينظر إلى الثريا. ربما طوال حياته لم يتأمل هكذا طويلاً مسافة بعيدة كل هذا البعد. وفجأة التفت إلى، وهو لا يزال مستقيماً بنصفه العلوى:

- انظرا! انظرا! قالها بشكل صارم ينم عن التحذير. وعلى الفور عاد ليحملق فى السماء، ثم التفت ثانيةً إلى وقال:

- رأييت؟ رأييت؟

حاول أن يعود بنظره إلى النجوم، لكنه لم يقدر: استرخى وهو منهك على مسند الأريكة، وعندما سألته ماذا كان يريد أن يرينى إياه، لم يصغ إلى ولم يتذكر أنه رأى شيئاً أراد أن يرينى إياه. فالكلمة التى بحث عنها طويلاً لى يودعنى إياها، قد فرّت منه إلى الأبد.

كانت الليلة طويلة، لكنها، وعلى أن أقر بذلك، لم تكن شاقة على وعلى الممرض فقط. تركنا المريض وشأنه يفعل ما يريد، وكان يسير فى الغرفة فى ثيابه الغريبة، وهو لا يدرك تماماً أنه ينتظر قدوم الموت. حاول مرة أن يخرج فى المشى، حيث كان الجو شديد البرودة. منعتة من ذلك واستجاب لى فى الحال. مرة أخرى، على العكس من ذلك، أراد الممرض

أن يمنعه من القيام من فراشه، اتباعاً لتوصية الطبيب، لكن والدى ثار عليه فى تلك اللحظة. خرج من زهوله، ونهض وهو يبكى ويسب، وتمكنت أنا من أن أعطى له الحرية الكاملة ليتحرك كيفما يشاء. اطمأن فى الحال وعاد إلى حياته الصامتة وإلى جريه العابث سعيًا وراء الراحة.

عندما عاد الطبيب، تركه يفحصه فى هدوء، وحاول أيضاً أن يتنفس من أعماق رئتيه، مثلما كان يطلب منه. ثم التفت إلى:

– ماذا يقول؟

تركنى لحظة، لكنه عاد إلى على الفور يسألنى:

– متى يمكنك أن أخرج؟

وبعد أن تحمس الطبيب من هدوئه الشديد ذاك حثنى على أن أقول له أن يلزم الفراش لفترة أطول. كان والدى ينصت فقط إلى الأصوات المألوفة له، مثل صوتى أنا وصوت ماريًا والممرض. لم أكن أؤمن بتلك النصائح، لكننى على الرغم من ذلك كنت أوصيه بها وأنا أضع فى صوتى نبرة تهديد.

– نعم، نعم. وعد والدى، وفى اللحظة نفسها نهض وذهب إلى الأريكة.

نظر إليه الطبيب وهمس فى استسلام:

– من الواضح أن تغيير المكان يمنحه شيئاً من الراحة.

بعد قليل كنت في فراشى، لكن لم يغمض لى جفن. أخذت أنظر إلى المستقبل وأنا أنقب فيه حتى أعثر عما وعمن يجدر بى استمرارى فى بذل الجهد من أجله لكى أتحسن وأتقدم. بكيت كثيراً، لكنه كان رثاءً لنفسى على وجه الخصوص أكثر منه على ذلك البائس الذى كان يجرى بون هوادة فى حجرته.

عندما استيقظت، ذهبت مارياً إلى مضجعتها، وبقيت مع الممرض بجوار والدى. كنت مكتئباً ومتعباً؛ وكان والدى منزعجاً أكثر من أى وقت مضى.

حدث حينئذ ذلك المشهد المروع الذى لن أنساه أبداً والذى رمى بظلاله بعيداً بعيداً، حتى ثبط عزيمتى وأطفأ فرحتى. ولكى أتناسى ألم تلك اللحظة، كان لابد من أن تضعف السنون من قوة مشاعرى. قال الممرض لى:

– ليتنا نستطيع أن نلزمه الفراش. الطبيب يعطى أهمية كبيرة لذلك!

كنت مسترخياً على الأريكة حتى تلك اللحظة. نهضت وذهبت إلى الفراش حيث كان يرقد المريض، وكان يلهث حينئذ أكثر من أى وقت مضى. اتخذت قرارى: سأجبر والدى على البقاء فى الفراش على الأقل لنصف ساعة وكان ذلك مطلب الطبيب. ألم يكن هذا من واجبى؟

حاول والدى مباشرةً أن ينقلب تجاه حافة السرير كي يتخلص من ضغطى عليه وينهض. ويبدى قوة وضعتها على كتفه، منعتة أن يفعل ذلك، وفى الوقت ذاته أمرته بصوتٍ عالٍ وحاسم ألا يتحرك. ولفترة قصيرة امتثل للأمر وهو مرتاع. ثم صاح:

– أنا أموت!

هَبْ واقفًا. وارتعت أنا بدورى فى الحال من صراخه، خففت من ضغط يدي عليه. وهكذا استطاع أن يجلس على حافة السرير فى مواجهتى بالضبط. يبدو لى أن ما زاد من غضبه فى تلك اللحظة هو أنه وجد نفسه – وإن كان مجرد لحظة واحدة – فى وضع يحظر عليه الحركة، واعتقد أنى أريد أن أمنع عنه الهواء الذى كان فى حاجة إليه، وأحجب كذلك عنه الضوء وأنا أقف فى مواجهته وهو جالس. وبعناء شديد جداً تمكن من الوقوف على قدميه، ورفع كفه إلى أقصى ما أمكنه عالياً، كما لو أنه كان يدرك أنه لا يمكنه أن يمدّها بقوة تفوق وزنها، ثم تركها تسقط على خدى. ثم انزلق على الفراش ومنه إلى أرضية الحجرة. سقط ميتاً!

لم أدرك أنه مات، لكن قلبى اعتصر من ألم العقاب الذى أراد أن ينزله بى، وهو يحتضر. وبمساعدة كارلو رفعتة ووضعتة على الفراش. وأخذت أبكى، تماماً مثل طفل معاقب، وصحت فى أذنه:

– لم يكن ذنبى! إنه ذلك الطبيب اللعين الذى أراد أن يلزمك الفراش!

كانت كذبة كذبتها. ثم وعدته ألا أفعل ذلك مرة أخرى، ومثل الطفل قلت له:

- سأتركك تتحرك كيفما تشاء.

قال الممرض:

- لقد مات.

كان عليهم أن يبعدوني بقوة شديدة عن تلك الغرفة. مات وما عاد باستطاعتي أن أثبت له براءتي!

في وحدتي حاولت أن أعود إلى رُشدي. أخذت أفكر: كان من المستبعد أن يكون والدي، وهو من ظل غائب الوعي، قد استطاع أن يقرر معاقبتي وتوجيه كفه بدقة شديدة ليصيب خدي.

كيف كان يمكن التأكد من صحة استنتاجي ذاك؟ فكرت أن ألبأ إلى كوبروسيش. لعله يتمكن، بصفته طبيباً، من أن يخبرني شيئاً عن إمكانات اتخاذ القرار والتصرف لدى المحتضر. ربما كنت أيضاً ضحية حركة ناتجة عن محاولة لتيسير عملية التنفس! لكنني لم أتحدث مع الدكتور كوبروسيش. كان من غير الممكن أن أذهب لاكشف له كيف ودعني والدي. أخبره، وهو الذي قد وجه لي من قبل أصابع الاتهام بالتقصير في حق والدي!

كانت ضربة أخرى شديدة تلقيتها عندما سمعت كارلو، الممرض، في المطبخ، في المساء، يحكي لماريّا: - رفع الوالد يده عالياً وبأخر حركة له ضرب ابنه. كان يعرف الأمر؛ ولهذا كان كوبروسيش سيعلم به.

عندما ذهبت إلى حجرة المتوفى، وجدتهم وقد ألبسوا الجثمان ثيابه، وكان على الممرض أيضاً أن يهندم شعره الجميل وقد علاه الشيب.

كان الموت قد صلب ذلك الجسد المتفطرس والمتوعد. كانت يداه الكبيرتان القويتان، حسنتا البنية، شاحبتين، لكنهما ترقدان بشكل طبيعي جداً، حتى بدتا متأهبتين للقبض والعقاب. ما وددت، وما استطعت رؤيته ثانية.

بعد ذلك، فى أثناء تشييع الجنازة، تمكنت من تذكر والدى الواهن والطيب كما عرفتة دائماً بعد طفولتى، وأقنعت نفسى أن الصفعة التى أنزلها بى وهو يحتضر، لم تكن بإرادته. أصبحت طيباً، طيباً وأخذت ذكرى والدى تلازمى وتزداد عذوبة. كانت كحلم لذيذ: أصبحنا منذ زمن متفقين تماماً، صرت أنا الأضعف، ويات هو الأقوى.

عدت وظللت لفترة طويلة مخلصاً للمبادئ الدينية التى تعلمتها فى طفولتى. كنت إخال والدى يسمعنى ويمكننى أن أخبره أن الذنب ليس ذنبى، لكنها جريرة الطبيب. فالكذب لم يعد له أهمية لأنه، صار يعرف كل شىء وأنا أيضاً. ولوقت طويل استمر حديثى مع أبى حلواً رقيقاً وخفياً، مثله مثل علاقة حب غير مشروعة؛ لأننى لم أتوقف عن السخرية، أمام الجميع من كل ممارسة دينية، فى حين فى الحقيقة – وهنا أود أن أعترف بها – أن هناك من توجهت له، فى حرارة، كل يوم لأوصيه نفس وصية والدى. فالديانة الصادقة هى التى لا يلزم اتباعها بصوت عالٍ لكى ننال فيها التعزية التى لا يمكن الاستغناء عنها – أحياناً – بل يندر ذلك.

٥- قصة زواجى

يقترن مفهوم حياة الإنسان فى ذهن أى شاب من عائلة برجوازية بمفهوم السلك الوظيفى، وفى مرحلة الصبا تتمثل الوظيفة فيما قام به نابليون الأول. ولكن دون أن يحلم الشاب بأن يصبح إمبراطوراً؛ لأنه يمكنه أن يشابه نابليون على أن يظل أقل منه بكثير وكثير. ومهما كانت الحياة زاخرة فإن خلاصة قصتها تأتى من أول الأصوات وأقدمها، صوت موج البحر، الذى، ما إن يبدأ حتى يأخذ فى التغيير لحظة بعد لحظة إلى أن يموت! على هذا النحو كنت أتوقع أن أصبح وأختفى مثل نابليون أو موجة البحر.

ما كان بإمكان حياتى أن تصدر سوى نغمة واحدة دون أدنى اختلاف، نغمة عالية لحد كبير، كان البعض يحسدنى عليها، مع أنها باعثة على الملل بصورة مخيفة. ظل أصدقائى طيلة حياتى يكونون لى التقدير نفسه، وأظن أنه ولا حتى أنا قد غيرت كثيراً من ذلك المفهوم الذى كونه عن نفسى، منذ أن بلغت سن الرشد.

وربما لهذا لاحت لى فكرة الزواج؛ ذلك لتعبى من إصدار تلك النغمة والاستماع إليها. يظن من لم يخض التجربة بعد أن الزواج أكثر أهمية

مما هو عليه. سوف تقوم الرفيقة التي نختارها بالتجديد، سواء للأسوأ أو للأفضل، في النسل، لكن الطبيعة الأم التي تريد ذلك أو ربما لا تستطيع أن توجهنا إليه بطريق مباشر؛ ذلك لأنه في تلك اللحظة لا نفكر بالأبناء على الإطلاق، فهي توحى لنا أن هناك تجديداً لأنفسنا ينشأ أيضاً من الزوجة، وهو إيهام غريب لم يرد في أى نص. وبالفعل يعيش الواحد منا بجانب الآخر، لا نتغير، باستثناء شعور بالنفور يتولد من شخص يختلف عنا تماماً، أو شعور بالحسد تجاه من هو أعلى منا منزلة.

الطريف أن مغامرة زواجى بدأت بتعارفى على صهر المستقبل وبالصدقة والإعجاب الذى شعرت به نحوه، قبل أن أعرف أنه أب لفتيات فى سن الزواج؛ ولهذا فمن الواضح أنه لم يكن قرارى ذلك الذى دفع بى نحو الهدف الذى كنت أجهله. أهملت فتاة كنت أرى لفترة من الوقت أنها تهتم بى، وظللت مرتبطاً بصهر المستقبل. تكاد تراودنى الرغبة فى الإيمان حتى بالقدر.

رغبتى فى الجديد التى كانت تكمن بداخل نفسى أشبعها جوفانى مالفنتى، الذى كان يختلف كثيراً عني وعن كل الأشخاص الذين بحثت عن رفقتهم وصادقتهم. كنت على درجة كافية من الثقافة، حيث التحقت بكليتين بالجامعة فضلاً عن وضع الخمول الطويل الذى عشته وأرى أنني تعلمت منه الكثير. على النقيض مني تماماً، كان مالفنتى تاجراً كبيراً، جاهلاً ونشيطاً. بل إن قوته وصفاء نفسه نشأت من جهله، كان النظر إليه يثير إعجابي، وحسدي.

كان يبلغ آنذاك من العمر حوالى الخمسين، صحته من حديد، ضخمة البنية، طويل وعريض يصل وزنه إلى قنطار أو أكثر. والأفكار القليلة التى كانت تدور برأسه الضخم كان يديرها بوضوح تام، يدرسها ويفحصها بدأب شديد، ويطبّقها فى الأعمال الكثيرة المتجددة كل يوم، حتى صارت جزءاً منه، كما لو أنها أعضاؤه، شخصيته. كنت أفقر إلى تلك الأفكار، ولازمته حتى أستزيد منه.

كنت قد ذهبت إلى ترچيستيو^(١)، وقد أشار أوليفى علىّ بذلك وكان يقول لى إنها بداية جيدة لنشاطى التجارى أن أتردد على البورصة، وإننى سأتمكن أيضاً من إمداده بأخبار مفيدة من ذلك المكان.

جلست إلى تلك الطاولة التى كان يجلس إليها صهر المستقبل جلسة الملك على عرشه، ومن هناك لم أتحرك قط، وخيل إلى إننى توصلت إلى المنصب التجارى الحقيقى الذى كنت أبحث عنه منذ زمن بعيد.

لم يلبث أن أدرك إعجابى به، وبادل شعورى ذاك بصداقة بدت لى فى الحال صداقة أبوية. هل ياترى علم لساعته كيف ستسير الأمور فيما بعد؟ فعندما، صرحت ذات ليلة، وقد حمسنى نموذج نشاطه العظيم، برغبتي فى التخلص من أوليفى وإدارة أعمالى بنفسى، نصحنى بالأفعل ذلك، وبدأ عليه أيضاً الانزعاج من اقتراحى ذاك. باستطاعتى أن

(١) ترچيستيو: قصر بوسط المدينة، وهو مقر بورصة تداول الأوراق المالية.

أهتم بأعمال التجارة، ولكن على أن أظل مرتبطاً ارتباطاً قوياً بأوليفي.
الذي كان يعرفه.

كان على استعداد تام لتعليمي، حتى إنه دون بيده في مفكرتي
ثلاثة أمور كان يعدّها تكفي لازدهار أية شركة:

١- معرفة العمل ليست ضرورية، لكن من لا يعرف تشغيل
الآخرين يموت.

٢- ليس هناك إلا ندم واحد كبير، وهو عدم تحقيق المصلحة
الخاصة.

٣- النظرية مجدية للغاية في المشاريع التجارية، لكنها تستخدم
فقط عندما يتم تصفية المشروع.

إنني أعرف هذه النظريات والكثير غيرها عن ظهر قلب، لكنني لم
أستفد منها.

عندما أعجب بشخص ما، أحاول في الحال أن أحاكيه. تشبّعت
أيضاً بمالفتتي، وددت أن أصبح داهية، وشعرت أنني كذلك إلى حد كبير.
بل حلمت ذات مرة أنني أكثر دهاءً منه. ظننت أنني اكتشفت خطأ في
تنظيم أعماله التجارية: أردت أن أخبره به حتى أفوز بتقديره لي. ذات
يوم استوقفته ونحن حول منضدة ترچيستيو عندما كنا نتناقش حول
صفقة من الصفقات ونعت المتحدث معه بالحيوان. لفت نظره إلى أنني

أراه يخطئ عندما يظهر دهاءه للجميع. فالداهية الحقيقي، فى مجال التجارة، من وجهة نظرى هو من يتصنع البلاهة.

سخر منى. إن شهرة الإنسان بالمركر تفيده للغاية. ومع ذلك كان الجميع يأتون إليه طلباً لنصائحه ويمدونه بأخبار حديثة، فى حين يزودهم هو بنصائح مجدية تؤكد لها خبرة جناها من العصور الوسطى فصاعداً. أحياناً، كانت تسنح له الفرصة ليحصل على الأخبار الحديثة ويبيع أيضاً بعض البضائع. وفى النهاية - وهنا أخذ يصيح لأنه رأى أنه عثر أخيراً على الموضوع الذى يمكن أن يقنعنى به - يلجأ الجميع إلى الأكثر دهاءً فى البيع أو الشراء بطريقة مربحة. أما عن الأبله فلا يمكنهم أن يأملوا فى أكثر من دفعه إلى التضحية بأى ربح له، ومع ذلك قبضاعته أغلى دائماً من بضاعة الماكر؛ لأنهم احتالوا عليه وقت شرائها.

كنت أهم الأشخاص بالنسبة له حول تلك المنضدة. أباح لى بأسرار تجارته التى لم أخنها قط. كانت ثقته فى محلها تماماً، حتى إنه استطاع حقيقة أن يخدعنى مرتين، وقد أصبحت حينئذ زوج ابنته. حقاً كلفتنى فطنته مالا مرة الأولى، لكن أوليفى هو الذى وقع فريسة له؛ ولهذا لم أتألم كثيراً. كان أوليفى قد أرسلنى إليه لأحصل منه بلباقة على بعض المعلومات. حصل عليها حتى إنه لم يغفرها لى قط، وعندما كنت أفتح فمى لأخبره بأية معلومة، كان يسألنى:

- «ممن حصلت عليها؟ من حميك؟». ولكى أبرئ ساحتى كان على أن أدافع عن جوثانى، وانتهى بى الأمر إلى الشعور بأننى المخادع وليس المخدوع. إنه شعور ممتع للغاية.

إلا أنني لعبت مرة أخرى دور الأحمق، لكنى لم أستطع حتى فى ذلك الوقت أن أشعر بالحق تجاه والد زوجتى. كان يثير بداخلى شعوراً بالحسد تارة وبالمزح تارة أخرى، كنت أجد فى بلىتى التطبيق المضبوط لمبادئه التى شرحها لى أنفأ باستفاضة. بل إنه وجد فيها مادة للضحك معى، ولم يعترف قط بأنه خدعنى وهو يؤكد بأنه يلزم السخرية من الجانب المضحك بالكارثة التى لحقت بى. وما هى إلا مرة واحدة فقط، تلك التى اعترف فيها بأنه صوب إلى تلك الضربة المؤذية، كانت ليلة زفاف ابنته أدا ذلك بعد أن ثمل من الشمبانيا التى هزت ذلك الجسد الضخم الذى اعتاد أن يرتوى بالماء الخالص.

روى فى تلك اللحظة ما فعله، وهو يصيح حتى يتغلب على ضحكه الذى كان يعوق كلماته:

- وهكذا وقع ذلك القرار! أخذت وأنا مثبط الهمة أحسب كم يكلفنى الأمر. وفى تلك اللحظة ها هو ذا يدخل زوج ابنتى. يصرح لى أنه يرغب فى الاشتغال بالتجارة. أقول له: «إنها فرصة عظيمة». يندفع إلى الوثيقة ليوقع عليها خشية أن يصل أوليقى فى الميعاد ويمنعه من ذلك وتمت الصفقة. - ثم يوجه لى المدح ويغمرنى به: - يعرف الكلاسيكيون عن ظهر قلب. يعرف من قال هذا ومن قال ذاك. لكنه لا يجيد قراءة الجريدة!

حقاً كان الأمر كذلك! لو أنني لمحت ذلك المرسوم الذى نشر فى مكان غير واضح فى الجرائد الخمس التى أقرأها كل يوم، لما وقعت فى

تلك المصيدة. كان على أيضاً أن أفهم على الفور ذلك القرار وأرى ما به من تداعيات، الأمر الذى لم يكن هيناً؛ حيث إنه يقضى بتخفيض نسبة إحدى الضرائب، وبناء عليه فإن البضاعة التى تتعلق بتلك الصفقة يجب أن ينخفض سعرها.

وفى اليوم التالى نفى صهرى اعترافاته. فالصفقة اتخذت على لسانه ذلك الشكل الذى كانت عليه قبل ليلة العشاء تلك. التبيذ يكذب، هكذا أخذ يقول فى هدوء، وظل يصر على أن القرار الذى أتحدث عنه قد نُشر بعد يومين من إتمام تلك الصفقة، ولم يفترض قط أنه لو أنى رأيت ذلك القرار لأمكن أن أسىء الظن به. وضعت فيه ثقتى، لكنه لم يعمل على توفير جهدى كرمًا منه، بل لأنه كان يظن أن الجميع يفكرون فى مصالحهم وهم يقرءون الجرائد. أنا على العكس منهم، عندما أقرأ جريدة، أشعر بأننى صرت مع رأى العام، وعندما أرى انخفاض الرسوم أتذكر كوبدين^(١) ومذهب الحرية. إنه تفكير تفوق أهميته أن يترك لى مجالاً حتى أتذكر بضاعتى.

غير أنه ذات مرة قدر لى أن أنال إعجابه وبى أنا بالذات، وأنا على هذه الحالة الخاملة، بل ومن أجل خصالى السيئة بالتحديد. كنا نمتلك أنا وهو منذ فترة أسهماً لمصنع للسكر كانوا ينتظرون منه المعجزات.

(١) رجل اقتصادى ورجل سياسى إنجليزى، ريتشارد كوبدين: (١٨٠٤-١٨٦٥) كان مؤيداً لحرية تداول البضائع بين البلاد.

إلا أن قيمة الأسهم أخذت تتخفض بشكل طفيف، ولكن يوماً بعد يوم. وچوثنى، الذى لم تكن لديه النية فى السباحة ضد التيار، تخلص من أسهمه، وأقنعنى ببيع أسهمى. اتفقت معه تماماً فى الفكرة، نويت أن أعطى أمراً بالبيع لوكيل أعمالى، ودونت ذلك للتذكرة فى كتيب عدت فى ذلك الوقت لاستخدامه.

لكن من المعروف أن المرء لا يرى ما فى جيبه طوال النهار، وهكذا فوجئت لأمسيات عديدة بالعثور فى جيبى على تلك الملاحظة وأنا أوى إلى الفراش بعد فوات الأوان حتى أستفيد منها.

ذات مرة صرخت من الحسرة، ولكى لا أضطر إلى إعطاء تفسيرات كثيرة لزوجتى قلت لها إنى عضضت لسانى. مرة أخرى، وقد راعتنى غفلتى الكبيرة، عضضت يدي. «انتبه الآن، إلى قدميك!» هكذا قالت زوجتى وهى تضحك. بعد ذلك لم تعد هناك كوارث أخرى؛ لأنى اعتدت عليها. كنت أنظر وأنا متبلد الحس إلى ذلك الكتيب اللعين الصغير بالدرجة التى لا أشعر بها بضغطه فى أثناء النهار، ولا أتذكره حتى مساء اليوم التالى.

ذات يوم دفعتنى المطر الشديد المفاجئ إلى الاحتماء بمقر ترفيستير. وهناك وجدت عن طريق المصادفة وكيل أعمالى، الذى حكى لى أن سعر الأسهم فى الأيام الثمانية الأخيرة قد وصل تقريباً إلى الضعف.

– وأنا سأبيع الآن! صحت بنشوة الانتصار.

أسرعت إلى والد زوجتي، الذي كان قد علم بارتفاع سعر تلك الأسهم، وكان يتألم لأنه باع أسهمه، وكان أمله أقل قليلاً لما دفعني إليه من بيع أسهمي.

– صبراً! قال لي وهو يضحك – إنها المرة الأولى التي تخسر فيها؛ لأنك اتبعت نصيحتي.

الصفقة الأخرى لم تكن نتيجة نصيحتي؛ بل بناء على اقتراح منه، الأمر الذي كان، بالنسبة له، مختلفاً كثيراً. أخذت أضحك باستمتاع.

– لكني لم أتبع تلك النصيحة! لم يكفني تحالف الحظ معي، وحاولت أن أنسب الفضل في ذلك إلى نفسي. قصصت عليه أن الأسهم ستباع فقط في اليوم التالي، وبهيئة الرجل المهم التي اتخذتها، أردت أن أجعله يصدق أنني حصلت على أخبار نسيت أن أطلعها عليها، وأنها دفعتني إلى عدم أخذ نصيحتي بعين الاعتبار.

وفي تجهم واستياء خاطبني دون النظر في وجهي.

– عندما يكون للمرء عقل مثل عقلك لا يجب أن يشتغل بالتجارة. وعندما يتصادف أن يرتكب فعل خبيث كهذا، لا يجب الاعتراف به. عليك أن تتعلم أشياء كثيرة أخرى.

ساعنى أنى أغضبته، كانت المتعة أكبر بكثير عندما كان يتسبب فى أذيتى، حكيت له صراحة كيف سارت الأمور.

- كما ترى فإن من له حقاً عقل مثل عقلى ينبغى أن يهتم بالشئون التجارية،

هدأ على الفور من ثورته، وضحك معى:

- ليس ربحاً ما حصلت عليه من هذه الصفقة؛ إنه تعويض، رأسك هذه كلفتك الكثير، فيما سبق، ومن الصواب أن تسترد جزءاً من خسارتك!

لا أدري لماذا أتوقف كثيراً لأحكى عن الخلافات بينى وبينه التى لم تكن كثيرة. حقيقة كنت أحبه، حتى إنى كنت أبحث عن رفقته، على الرغم من أنه كان يعتاد الصراخ لى يتجلى تفكيره، واستطاعت طبله أذننى أن تتحمل صراخه. لو أنه صاح بها بدرجة أقل، نظرياته اللاأخلاقية تلك لكانت أكثر قسوة، ولو كان مهذباً بشكل أفضل، لاتخذت قوته مظهراً أقل أهمية. وعلى الرغم من أنى كنت أختلف عنه كثيراً، فإننى أعتقد أنه بادلنى الحب بحب مماثل له، وقد كان يمكن التأكيد من ذلك بصورة أفضل لو أنه لم يلق حتفه قبل الأوان. أخذ فى دأب يعطينى دروساً بعد زواجى، وكثيراً ما كان يضيف لها الصراخ والإهانات التى كنت أتقبلها وأنا مقتنع بأنى أستحقها.

تزوجت ابنته، الطبيعة الأم المكتتفة بالأسرار وجهتني لذلك وسنرى،
بأى عنف أمر فعلت، والآن أتفحص أحياناً وجوه أبنائي، وأبحث عما إذا
كان بجانب ذقنى الرفيع، وهو دليل الضعف، أو بجانب عيني الحالمتين،
التي ورثتهما لهم، لعلنى أجد على الأقل بعض ملامح القوة الشرسة التي
كانت لذلك الجدّ الذي اخترته لهم.

بكيت على مقبرة صهرى على الرغم من أن وداعه الأخير لى لم
يتسم بالعواطف الغامرة، قال لى وهو على فراش الموت إنه كان معجباً
بحظى المتبجح الذى يسمح لى بالتحرك بحرية فى حين أنه مقيد كالمصلوب
على ذلك السرير. اندهشت، وسألته ماذا فعلت له حتى يتمنى أن يرانى
طريح الفراش، فأجابنى على هذا النحو:

– لو استطعت أن أتخلص من مرضى بإعطائه لك، لأعطيتك إياه
فى الحال، وربما مضاعفاً! ليس لدى هوس حب الخير للإنسان ذلك
الذى لديك!

لم يكن هناك ما يدعو للشعور بالإهانة: لو استطاع لرغب فى أن
يكرر تلك الصفقة التى تمكن بها من أن يحملنى بضاعة خاسرة، ثم إنه
كان هناك أيضاً شىء من الود؛ لأننى لم أستاذ من رؤية اعتبار ضعفى
نوعاً من الإنسانية المفرطة، يصفنى بها.

على مقبرته ذرفت الدمع كما ذرفته على كل المقابر الأخرى، وتألّت
أيضاً على جزء من نفسى مدفون هناك. أى نقصان ذلك الذى أصابنى

وقد حرمت من أبى الثانى، ذلك العادى، الجاهل، المصارع الشرس الذى كان يكشف ضعفى، وثقافتى وخجلى. إنها الحقيقة: أنا بالفعل خجول! لم أكن لأكتشف ذلك لو لم أقم هنا^(١) بدراسة تحليلية لجوفاى. من يدرى كيف كنت سأتعرف على نفسى بصورة أفضل، لو استمر هو بالبقاء بجانبى!

سرعان ما أدركت أنه حول منضدة ترچيستيو، حيث كان چوفاى يتمتع بأن يظهر حقيقة نفسه كما كانت عليه وأسوأ من ذلك قليلاً، كان كذلك يلزم نفسه بتحفظ محدد: لم يكن يتحدث قط عن بيته، وعندما كان يضطر فقط لذلك، كان يتكلم باحتشام وبصوت ألطف بعض الشيء عن المؤلف. كان يكن احتراماً كبيراً لعائلته، وربما كان يرى أنه ليس كل من يجلس حول تلك المنضدة جديراً بمعرفة شيء عن بيته. هناك علمت فقط أن أسماء بناته الأربع تبدأ بحرف الألف، كان شيئاً عملياً للغاية، بالنسبة له؛ وذلك لأن الأشياء التى يكتب عليها ذلك الحرف بمثابة علامة كان يمكن أن تنتقل من واحدة إلى الأخرى، دون أن تطرأ عليها تغيرات. كانت بناته تسمى (حفظت على الفور تلك الأسماء فى ذاكرتى) آدا وأجوستا وألبرتا وأنا. قيل أيضاً حول تلك المنضدة إن البنات الأربع كن جميلات. شد انتباهى ذلك الحرف الأول، ربما أكثر مما كان يستحق. حلمت بتلك البنات الأربع وقد ربطهن اسمهن بشكل وثيق، كما

(١) يقصد بها اليوميات التى يعدّها تزينو للطبيب S.

لو كن للتسليم فى حُزمة واحدة. كان الحرف الأول ينمّ أيضاً عن شيء آخر. أنا أدعى تزينو؛ ولذا كان لدى شعور بأننى على وشك أن أتخذ زوجة بعيداً عن بلدى.

ربما كانت مصادفة أننى تخلصت قبل أن أتقدم إلى بيت مالفنتى، من علاقة قديمة بما يكفى مع سيدة لعلها كانت تستحق منى معاملة أفضل. لكنها مصادفة جديدة بالتفكير. كان قرار الانفصال الذى اتخذته لسبب تافه للغاية. ظننت المسكينة أنه من البراعة أن تثير غيرتى حتى تربطنى بها. وكان الشك، على العكس من ذلك، كافياً كى يدفعنى لهجرها نهائياً. لم يكن بإمكانها أن تعرف أن فكرة الزواج كانت تسيطر علىّ آنذاك، وأننى كنت أعتقد أنه لا يمكننى أن أقترن بها بالزواج، لمجرد أن التجديد معها لن يكون كبيراً بحد كافٍ. والشك الذى زرعت بهى عمداً كان برهاناً على سمو حياة الزواج التى لا ينبغى أن تنشأ فيها مثل هذه الشكوك. عندما تبدد ذلك الشك الذى سرعان ما شعرت بعدم مصداقيته، تذكرت أيضاً أنها تكبدت الكثير. اليوم، وبعد أربعة وعشرين عاماً من الزواج المضبوط، لم أعد أتبع ذاك الرأى.

كان ذلك من حسن حظها حقاً، لأنها تزوجت، بعد بضعة شهور، من رجل ثرى وحظت قبلى بالتغيير المأمول. وما إن تزوجت حتى وجدتها فى المنزل؛ لأن زوجها كان صديقاً لصهرى. تقابلنا فى كثير من الأحيان، بل ولأعوام كثيرة، طيلة أيام شبابنا، وكان يسود بيننا الاحترام

الكامل ولم تنوه قط إلى الماضي. فى يوم ليس ببعيد سألتنى فجأة،
بوجهها الذى يُتَوَجَّه الشعر الرمادى وتصبغه حمرة الشباب:

- لماذا هجرتنى؟

كنت صريحاً؛ لأننى لم أملك الوقت الكافى لإعداد كذبة:

- لم أعد أدرى، لكنى أجهل أشياء أخرى كثيرة فى حياتى.

- يؤسفنى ذلك!، قالت وقد سارعت بانحناءة رداً على مجاملتها
الواعدة. أراك فى الشيخوخة رجلاً مسلياً للغاية. استقمت بعناء. لم يعد
هناك ما يستدعى تقديم الشكر.

علمت ذات يوم أن عائلة مالفنتى قد عادت إلى المدينة من رحلة
للاستمتاع طالت لحد ما بعد إقامة صيفية فى الريف. لم أقم بعمل أية
خطوة لكى يدخلونى ذلك البيت؛ لأن المبادرة قام بها چوثنائى.

أطلعنى على رسالة لصديق حميم له كان يسأل عن أخبارى: كان
من رفقاءى منذ أيام الدراسة، وكنت أحبه كثيراً، حتى إننى ظننت أنه
مؤهل لأن يصبح كيميائياً عظيماً. فى ذلك الحين كنت، على العكس، لا أبالى
به فى شىء لأنه تحول إلى تاجر كبير للسجاد، وأنا لم أرغب قط فى
معرفة وهو على ذلك الوضع. دعانى چوثنائى فى بيته؛ لأننى كنت بالتحديد
صديقاً لصديقه، ومن المفهوم أننى لم أعترض على الإطلاق.

تلك الزيارة الأولى أتذكرها كما لو أننى قمت بها بالأمس. كان
الجو ما بعد الظهيرة معتماً وبارداً فى فصل الخريف؛ وأتذكر حتى تلك

الراحة التي شعرت بها عندما تخلصت من معطفي بدفء ذلك البيت. كنت بالفعل على وشك الوصول إلى مرساي. مازلت إلى الآن أتعجب من ذلك العمى الشديد الذي كان يبدو لي حينئذ وضوحاً في الرؤية. كنت ألث وراء الصحة، ووراء الشرعية. لا بأس في أن يتضمن ذلك الحرف الأول أربع فتيات، لكن ثلاثة منهن سيتم استبعادهن على الفور، أما الرابعة فستخوض امتحاناً قاسياً. ربما لزم على أن أكون قاضياً بالغ القسوة. لكن في تلك الأثناء ما كنت لأعرف اسم الصفات التي أطلبها منها وتلك التي أنفر منها.

في حجرة "الصالون" الأنيق الفسيح والمؤثث بأثاث من طرازين مختلفين، أحدهما طراز لويس الرابع عشر والآخر طراز فينيسيا الملئ بالذهب المطبوع أيضاً على الجلد، ويقسمان الحجرة إلى جزعين، كما كان المعتاد في ذلك الوقت، حيث وجدت أوجوستا وحدها تقرأ بجانب إحدى النوافذ. مدت إلي يدها لتصافحني، كانت تعرف اسمي وقالت لي إنهم كانوا ينتظرونني؛ لأن أباها أخبر بزيارتي. ثم خرجت مسرعة لتنادي أمها.

هاهي ذي تنتهي بالنسبة لي واحدة من الفتيات الأربع ذات الحرف الأول ذاته. كيف أمكنهم أن يحسبوها حسناً؟ حينما أعود للتفكير فيها بعد مرور زمن لم أرها فيه، أتذكر أول شيء لاحظته وهو الحول الشديد الذي يميزها. فضلاً عن ذلك، لم يكن شعرها بالغزارة الشديدة، كان أشقر لكن لونه باهت يفتقد إلى البريق ولم يكن شكلها العام سيئاً،

حتى وإن كانت بدينة بعض الشيء بالنسبة لعمرها. وفي اللحظات القليلة التي مكثت فيها بمفردي أخذت أفكر: "ماذا لو شابهت الثلاثة الأخريات أختهن هذه!"

بعد قليل انخفض عدد الفتيات إلى اثنتين. دخلت واحدة منهن مع أمها، وكانت لا تبلغ من العمر إلا ثمانية أعوام. كانت جميلة تلك الطفلة ذات الشعر الملتف في حلقات، اللامع، الطويل والمسترسل على كتفها! كانت تبدو بوجهها الممتلئ والهادئ كملاك صغير مستغرق في التأمل (ما دامت صامتة)، كما لو صورها رفايللوسانتسيو.

حماتي... أى نعم! أشعر أنا أيضاً بأنه من اللائق ألا أبالغ في حرية الحديث عنها. منذ سنوات عديدة وأنا أحبها لأنها أُمى، لكنى أقص الآن قصة قديمة لن تظهر فيها بمظهر الصديقة لى ولا حتى فى هذا الملف، الذى لن تراه أبداً، وأعتزم ألا أوجه إليها ألفاظاً لا تحمل الاحترام. كما أن تدخلها كان وجيزاً، لدرجة أنه كان باستطاعتي أيضاً أن أنساه: ضربة صغيرة فى اللحظة المناسبة، لم تكن أقوى مما يلزم لى أفقد اتزانى الضعيف. ربما كنت سأفقده أيضاً دون تدخلها، ثم من يدرى ألعها أرادت ما حدث بالضبط؟ كانت مهذبة بدرجة كبيرة، حتى لا يمكن أن يحدث لها مثلما وقع لزوجها، وأن تشرب كثيراً حتى تكشف لى شئونى. بالفعل لم يحدث لها قط شئ من هذا القبيل؛ ولهذا فإنى أحكى قصة لا أعرفها جيداً؛ بمعنى أتنى لا أدرى إن كان لدهائها أم لحماقتى يرجع السبب فى زواجى بتلك التى لم أكن أريدها من بين بناتها.

على كلّ يمكننى القول بأنه فى الوقت الذى قمت فيه بزيارتى الأولى تلك كانت حماتى امرأة لا تزال تحتفظ بجمالها. كانت أنيقة حتى فى أسلوب ملابسها الفاخرة الخالية من البهرجة، كان كل شىء فيها معتدلاً ومتناسقاً.

هكذا كان لدى فى والد زوجتى مثال للتوافق الاجتماعى بين الزوج وزوجته كنت أحلم به. كانا سعيدين معاً للغاية، هو يصيح دائماً وهى تبسم ابتسامة تعنى الموافقة والعطف فى الوقت ذاته. كانت تحب زوجها الضخم، ومن المؤكد أنه أسرها واحتفظ بها بكثرة صفقاته الراحبة. لم تكن المصلحة، بل إعجاب حقيقى ذلك الذى كان يربطها به، إعجاب كنت أشاركها فيه؛ ولهذا أدركته بسهولة. كان ينطلق بالنشاط فى نطاق محدود للغاية، قفص ليس به إلا بضاعة وعدوان (المتعاقدان)، حيث كانت تنشأ وتنكشف تدابير وعلاقات جديدة، كان يبعث الانتعاش فى الحياة على وجه رائع. يقص عليها كل شئونه وكانت هى على درجة عالية من الأدب، بحيث لم تعطه نصائح قط خشية أن تبعده عن الصواب. كان يشعر بالحاجة إلى تلك المعونة الصامتة ويسرع أحياناً إلى المنزل ليحدث نفسه وهو مقتنع أنه ذاهب إلى المنزل لأخذ النصيحة من زوجته.

لم تصبى المفاجأة عندما علمت أنه يخونها، وأنها على علم بذلك ولا تُكنّ له أية ضغينة. كنت قد تزوجت منذ عام عندما حكى لى چوفانى ذات يوم وهو منزعج للغاية أنه فقد رسالة كانت تهمه كثيراً، وأراد أن يراجع أوراقاً كان قد سلمها لى أملاً فى أن يعثر عليها بينها. إلا أنه

حكى لى بعد ذلك، بأيام قلائل، وهو مسرور جداً أنه عثر عليها فى حافظة أوراقه. «هل كانت من سيدة؟» سألته، فأوماً برأسه بالإيجاب، متباهياً بحظه السعيد. أعقب ذلك، أنهم اتهموني ذات يوم بضيا ع بعض الأوراق، ولكى أبرئ نفسى، قلت لزوجتى وحماتى إنه ليس باستطاعتى أن يكون لى حظ الأب الذى تعود الأوراق إليه بمفردها فى حافظة أوراقه. أخذت حماتى تضحك من الأعماق، حتى إننى لم أشك فى أن تلك الورقة لم تعد فى مكانها إلا بيدها هى. من الواضح أنه لم تكن هناك أهمية لذلك فى علاقتهما. كلُّ يحب بطريقته، وطريقتهما، كما أرى، لم تكن أكثر حماقة من غيرها.

استقبلتنى السيدة بلطف بالغ. التمسست العذر لأنه كان عليها أن تبقى الصغيرة أنا معها خلال ربع الساعة التى يتعذر فيها تركها مع آخرين. كانت الطفلة تنظر إلىّ وهى تتفحصنى بنظرات جادة. وعندما عادت أوجوستا وجلست على أريكة صغيرة أمام تلك التى كنا جالسين عليها أنا والسيدة مالفنتى، ذهبت الصغيرة لتستلقى فى حجر أختها، حيث أخذت تحدق طوال الوقت بإصرار سرنى، حتى إننى لم أعرف أى أفكار كانت تدور فى ذلك الرأس الصغير. لم يكن الحديث ممتعاً بدرجة كبيرة فى بادئ الأمر. كانت السيدة، كغيرها من الأشخاص المذهبين، باعثة على الملل إلى حد كبير فى اللقاء الأول، فضلاً عن أسئلتها الكثيرة عن أخبار ذلك الصديق الذى تظاهرت بأنه هو الذى أدخلنى ذلك البيت والذى لم أتذكر حتى اسمه فى العماد.

وأخيراً دخلت أدا وألبرتاً، تنفست الصعداء: كانتا جميلتين، وأضاءتا بحسنى تلك الحجرة التى كان ينقصها النور حتى تلك اللحظة. كانتا تتميزان بالشعر الأسود، وطول القامة والقوام المشوق، لكن إحداهما تختلف كثيراً عن الأخرى، لم يكن اختياراً صعباً ذلك الذى كان على أن أقوم به. كانت ألبرتاً فى ذلك الوقت تزيد قليلاً عن السابعة عشرة، كانت كأمها بشرتها وردية وشفافة - مع أن شعرها أسود - مما زاد من الطابع الطفولى فى شكلها، أما أدا، فقد كانت مكتملة الأنوثة بعينيها الجادتين ووجهها الذى يقارب فى بياضه نقاء الثلج وشعرها الغزير، الموج، لكنه مصفف بأناقة وبساطة.

من الصعب اكتشاف البدايات الهادئة التى كانت لذلك الشعور الذى أصبح بعد ذلك قوياً جداً، لكنى على يقين من أنه لم تنل منى ما يسمونها بصعقة الحب من أول نظرة تجاه أدا. لكن، حل محل تلك الصعقة اقتناع استحوذ على مباشرة، وهو أن تلك هى المرأة التى كنت فى حاجة إليها، وأنها لابد أن تقودنى إلى الصحة نفسياً وجسمانياً من خلال ذلك الزواج المقدس من امرأة واحدة. عندما أفكر فى ذلك الأمر أظل مندهشاً من أنه لم يكن هناك وجود لتلك الصاعقة، بل ذلك الاقتناع الذى استحوذ على. ومن المعروف أننا - معشر الرجال - لا نبحث فى الزوجة عن الخصال التى نعشقها ونزديريها فى المحبوبة. يبدو إذن أننى لم أرَ حسن أدا وجمالها كله، وأننى بدلاً من ذلك كنت مأخوذاً بالإعجاب بصفات أخرى من الوقار والحيوية نسبتها لها، أى تلك الخصال التى

كنت أحبها فى أبيها، مع شىء من النعومة. ونظراً لأنى ظننت بعد ذلك (كما مازلت أظن) أنى لم أخطئ، وأن تلك الصفات اكتسبتها أدا منذ صباها، يمكن أن أعتبر نفسى ملاحظاً جيداً، ولكن ملاحظ جيد كفيف البصر لحد ما. فى تلك المرة الأولى نظرت إلى أدا وبداخلى رغبة واحدة: أن أغرم بها حيث ينبغى أن أعبرُ ذلك الطريق لكى أتزوجها. تأهبت لذلك وأنا مزودٌ بتلك الطاقة التى أوجهها دائماً لاهتماماتى الصحية. لا أستطيع تحديد متى نجحت فيه؛ ربما حدث ذلك بالفعل فى الوقت الوجيز الذى أتاحتة تلك الزيارة الأولى.

لا بد أن جوفائى تحدث عنى كثيراً مع بناته. فضلاً عن ذلك كنّ على علم بأننى انتقلت فى دراستى من كلية الحقوق إلى كلية الكيمياء لأعود مرة أخرى - مع الأسف! - إلى الدراسة الأولى. حاولت أن أفسرُ الأمر: كان من المؤكد أنه عندما ينغلق المرء فى كلية من الكليات، يبقى الجزء الأكبر من المعارف مغطى بالجهل. وأخذت أقول:

- لو لم تضغط علىّ آنذاك جِدِية الحياة، لظللت أتنقل من كلية إلى أخرى - وأخفيت أنى شعرت بتلك الجِدِية من وقت وجيز، منذ أن قررت الزواج.

ثم، لكى أثير المرح، قلت إنه كان من المضحك أن أترك الكلية وقت تأدية الامتحانات بالضبط.

- كانت حالة فريدة: هكذا أخذت أضيف بابتسامة من يريد أن يوهم بأنه يروى أكاذيب، ولكن الحقيقة أنى غيرت دراستى فى أوقات عديدة.

وهكذا بدأت السعى للفوز بآدا، وواصلت جهدى فى أن أجعلها تسخر منى وتستهنى بى، ناسياً أنى انتقيتها من أجل جديتها. إنى غريب الأطوار قليلاً، ولكن من المؤكد أنى ظهرت لها حقيقة بمظهر مختل العقل. الذنب ليس ذنبى أنا وحدى، ويدل على ذلك أن أوجوستا وألبرتا، اللتين لم أخترهما، كان رأيهما فى مختلفاً. آدا، التى كانت فى ذلك الحين بالذات إنسانة جادة للدرجة التى تجول بها فيما حولها بعينيهما الجميلتين بحثاً عن الرجل الذى تقبله فى عشها، كانت عاجزة عن حب الإنسان الذى يضحكها، أخذت تضحك، تضحك كثيراً، أكثر مما ينبغى، وبذلك أخذت تكسو بالسخرية شخص من أضحكها. ذلك كان عيباً حقيقياً بها، وكان لابد أن يلحق بها الأذى، لكنه أضر بى أنا أولاً. لو أننى تمكنت من الصمت فى الوقت المناسب ربما أخذت الأمور مجراها بعكس ما حدث. ولعلنى تركت لها حينئذ الفرصة لكى تتكلم، وتفصح لى عن نفسها ولاستطعت أن أحتاط منها.

كانت الفتيات الأربع جالسات على الأريكة الصغيرة التى كانت تتسع لهن بصعوبة، على الرغم من أن أنا كانت تجلس على ركبتى أوجوستا. كنّ جميلات معاً على ذلك النحو. أدركت ذلك بارتياح داخلى، وقد وجدت نفسى أسير فى درب رائع نحو الإعجاب والحب. كن حقيقة حسناوات! كان لون شعر أوجوستا الباهت يعمل على إبراز لون شعر الأخريات الأسود.

كنت قد تحدثت عن الجامعة وألبرت، التي كانت تدرس بالصف قبل النهائي بالمدرسة الثانوية، حكيت عن دراستها، كانت تشكو من اللغة اللاتينية التي كانت تبدو لها صعبة للغاية. قلت إنى لا أندهش من ذلك؛ لأنها لغة لا تصلح للسيدات، حتى إنى أعتقد أنه حتى فى أيام الرومان القدماء كانت النساء تتحدث بالإيطالية. وعلى عكس ذلك بالنسبة لى - هكذا جزمت - كانت اللاتينية تمثل المادة المفضلة لدى. إلا أننى ارتكبت بعد ذلك بوقت قليل حماقة أن أستشهد بنص لاتينى اضطرت ألبرت أن تصححه لى. كان سوء حظ حقيقياً! لم أبال به ونبهت ألبرت إلى أنه متى تركت خلف ظهرها عشرات الفصول الدراسية بالجامعة، فسوف تحتسب هى أيضاً من القيام باستشهادات لاتينية.

حكيت أدا، التي كانت مؤخراً مع والدها فى إنجلترا لبضعة شهور، أن فتيات كثيرة يعرفن اللاتينية فى ذلك البلد. ثم وبصوت جاد، خال من أى نغم، خفيض أكثر مما ينتظر من إنسانة لطيفة مثلها، واصلت تقول إن السيدات فى إنجلترا يختلفن كثيراً عن أمثالهن فى إيطاليا. يجتمعن لأهداف خيرية أو دينية أو حتى اقتصادية. وانساقن أدا فى الحديث، حيث أرادت أخواتها أن يسمعن مرة أخرى تلك الأمور التي أثارت دهشة فتيات مدينتنا فى ذلك العصر. ولكى ترضيهن، أخذت تتكلم عن تلك السيدات الرئيسات، والصحفيات، والسكرتيرات والقائمات بالدعاية السياسية اللاتي كن يصعدن المنبر لمخاطبة مئات الأفراد، دون أن يحمر وجههن أو يرتبكن، إن قاطعن أحد أو إذا ما وجدن استنكاراً لموضوعاتهن.

كانت تحكى ببساطة، وينبرة هادئة، دون أية نية فى إثارة العجب أو الضحك.

كنت أحب كلماتها البسيطة، أنا، الذى كنت متى فتحت فاهى، شوهت الأشياء أو الأشخاص وإلا لما كان الحديث يبدو لى مجدياً. دون أن أكون خطيباً مفوهاً، كنت مصاباً بهوس الكلمة. كانت الكلمة بالنسبة لى لابد وأن تكون حدثاً فى حد ذاته وبناء على ذلك لا جب أن تصبح سجيئة حدث آخر.

كنت على الرغم من ذلك أكنّ بغضاً خاصاً "لألبيون"^(١) الغادرة، وكشفت عنه دون خوف من أن أغضب أدا، التى لم تكن قد أظهرت هى الأخرى كرهاً أو حباً لإنجلترا. أمضيت بها بضعة شهور، لكنى لم أتعرف على أى إنجليزى من أصل طيب؛ لأننى فقدت فى أثناء سفرى خطابات التزكية لى التى حررها رجال الأعمال من أصدقاء والدى؛ لذلك تعاملت فى لندن مع بعض العائلات الفرنسية والإيطالية فقط، وانتهى بى التفكير إلى أن كل الأشخاص الشرفاء فى تلك المدينة ترجع أصولهم إلى أوروبا. كانت معرفتى باللغة الإنجليزية محدودة للغاية. لكن بمساعدة الأصدقاء تمكنت من فهم بعض الأمور عن حياة سكان تلك الجزر، واستعلمت على وجه الخصوص عن بغضهم لكل من هو غير إنجليزى.

(١) الاسم القديم الذى كانت تعرف به بريطانيا العظمى، وقد استخدمه الإيطاليون أحياناً ربما للسخرية أو الازدراء.

وصفت للفتيات شعورى غير الطيب ولید إقامتى وسط أعداء. ربما تمكنت على الرغم من ذلك من المقاومة، حتى أتحمل إنجلترا لسته أشهر حسب إرادة والدى وأوليفى اللذين أرادا أن يسومانى العذاب لأدرس التجارة الإنجليزية (التي لم أعثر عليها قط حيث يبدو أنها كانت تتم فى الخفاء) ما لم يقع لى حادث غير مرغوب فيه. كنت قد ذهبت إلى محل كتب لأبحث عن قاموس. وهناك فى المحل، وعلى منضدة البيع، رأيت قطعاً ضخماً من نوع "الأنجوراه" الرائع مستلقياً فى استرخاء، يغرى بالفعل على مداعبة فروته الناعمة. حسناً! قمت فقط بمداعبته بلطف. هاجمنى على حين غرة، وخدشنى على نحو خطير فى يدى. ولم أعد أطيق إنجلترا منذ تلك اللحظة، وجاء اليوم التالى وأنا فى باريس.

ضحكت أوجوستا، وألبرتا وحتى السيدة مالفنتى من الأعماق. أما آدا فقد ظلت مندهشة، ظناً منها أنها أساءت الفهم. ألم يكن على الأقل بائع الكتب نفسه هو الذى تسبب فى الإساءة إلى وخدشنى؟ كان على أن أكرر القص، وفى ذلك ما يبعث على الملل؛ لأنه يتكرر بصورة سيئة.

أرادت ألبرتا، المثقفة، مساعدتى:

– القدماء أيضاً كانوا ينتقدون فى قراراتهم لحركات الحيوانات. لم أتعلم المساعدة. إن القط الإنجليزي لم يتخذ شكل الرد الذى يأتى من الآلهة. لقد تصرف كما لو أنه القدر المحتوم!

بحثت آدا، بعينها الواسعتين المحمقتين، عن استفسارات أخرى:

– وهل مثل القط بالنسبة لك الشعب الإنجليزي بأسره؟

كم كنت سيئ الحظ! وعلى الرغم من أن تلك الحادثة كانت حقيقية، فإنها بدت لي مفيدة وشائقة، كأنها اختلقت لأهداف بعينها. ألم يكن يكفي لاستيعابها أن أذكر بأنه بإيطاليا حيث أعرف الكثيرين وأحبهم، لم يكن ليبلغ سلوكك ذلك القط مثل تلك الأهمية؟ لكننى لم أقل هذا، بل قلت:

- من المؤكد أنه ليس هناك قط إيطالى، يمكنه أن يسلك ذلك السلوك.

ضحكت أدا طويلاً، أكثر مما ينبغى. حتى إن نجاحى بدا لي كبيراً يفوق الحد، حيث أننى تواضعت وقللت من شأن الواقعة بتفسيرات أخرى.

- إن الدهشة أصابت بائع الكتب نفسه، لسلوك القط الذى كان يسلك سلوكاً طيباً مع الآخرين جميعهم. إذن كانت الحادثة الفريدة من نصيبى، إما لأنى كنت أنا المتسبب فيها أو ربما لأنى إيطالى. كان حقاً مثيراً للاشمئزاز، وكان على أن أفر هارباً.

وهنا حدث أمر كان من شأنه أن ينبهنى وينقذنى. الصغيرة أنا التى كانت حتى تلك اللحظة لا تزال ساكنة، تحدق فى، أطلقت صوتها عالياً لتعبر عن شعور أدا، فصرخت:

- أهو مجنون حقيقة، مجنون تماماً؟

هددتها السيدة مالفنتى قائلة:

- ألا تصمتين؟ ألا تستحين من التدخل فى أحاديث الكبار؟

زاد التهديد الأمر سوءاً. صاحت أنا:

- إنه مجنون! يتحدث مع القطط! يجب إحضار الحبال بسرعة لتقييده!

نهضت أوجوستا، وقد احمرّ وجهها من الاستياء، وحملتها بعيداً وهي تحذرهما، وتقدم لى اعتذارها فى الوقت نفسه. ولكن عند خروجها من الباب أيضاً ظلت الحية الصغيرة تحملق فى عيني، وتوجه لى امتعاضها وتصرخ فى وجهى:

- سترى أنهم سيقيدونك!

لقد انقضت على بصورة غير متوقعة، حتى إنى لم أستطع للتو إيجاد طريقة للدفاع عن نفسى. لكنى تنفست الصُّعداء عندما أدركت أن أدا مستاءة هى أيضاً من ذلك الأسلوب فى التعبير عن شعورها. إن بذاءة لسان الصغيرة قد قاربت بيننا.

حكيت، وأنا أضحك من أعماقى، أننى أحتفظ فى بيتى بشهادة مختومة رسمياً تشهد بالفعل بسلامة قواى العقلية. وهكذا أطلعتهم على قصة الدعابة التى لعبتها من قبل مع والدى العجوز. أبديت استعدادى لعرض تلك الشهادة على الصغيرة أنوثشا.

وعندما هممت بالانصراف لم يسمح لى بذلك. كن يردن أن أنسى أولاً تلك الخدوش المؤلمة التى سببها القط. قبلت مجاملتهن، وقدمن لى فنجاناً من الشاي.

من المؤكد أنه انتابنى فى الحال شعور غامض بأتى لابد أن أكون مختلفاً قليلاً عما كنت حتى أنال استحسان أدا؛ ظننت أنه من اليسير على أن أصبح الرجل التى كانت تريده، واصلنا الحديث، وتكلمنا عن وفاة والدى، ويدا لى أن الإفصاح عن ألى العميق الذى كان لا يزال يؤثر فى، سيكون من شأنه أن يجعل أدا الوقور تشاركنى فيه. لكننى سرعان ما فقدت تلقائيتى، وأنا أحاول جاهداً أن أشابهها؛ ولهذا - كما سيتضح حالاً - بعدت عنها كل البعد. قلت إن ألى لهذه الخسارة كان شديداً لدرجة أنه لو كان لدى أبناء لبحثت عن طريقة تجعلهم لا يرتبطون بى بصورة كبيرة، حتى أجنبهم الألم الكبير عند رحيلى فيما بعد.

أصابتنى الحيرة قليلاً عندما سألتنى أى طريق سأسلكه للوصول إلى تحقيق ذلك الهدف، بالمعاملة السيئة والضرب؟ هكذا قالت ألبرت، وهى تضحك:

- إن أكثر الوسائل ضماناً قد تكون قتلهم.

كنت أرى أن هناك رغبة تدفع أدا لإرضائى؛ ولذلك كانت مترددة؛ لكن كل محاولة لها لم تساعد على التغلب على ترددها، ثم ذكرت أنها ترى أننى من قبيل الإحسان أفكر فى تدبير حياة أولادى بهذا النحو، لكنها لا ترى من الصواب أن يعيش الإنسان كى يتأهب للموت، أصررت على رأى وجزمت أن الموت هو المدير الحقيقى للحياة. كنت أفكر دائماً فى الموت؛ ولذا ما كان يملكنى إلا شعور بألم واحد: اليقين بأتنى لابد أن أموت. أما الأمور الأخرى جميعها فقد صارت على درجة قليلة جداً

من الأهمية، حتى إنى كنت لا أعبأ لها إلا بابتسامة سعيدة أو ضحكة كذلك سعيدة. أطلقت لنفسى العنان فى الحديث عن أشياء بعضها غير حقيقى، خاصة وأنى وجدت نفسى معها، فى حين أصبحت جانباً بالغ الأهمية فى حياتى. حقيقة أظن أنى تحدثت معها هكذا رغبةً منى فى إفهامها أنى رجل مرح للغاية. فالمرح غالباً ما كان يعرّز مكانتى عند النساء.

وبعد تفكير وتردد، أفصحت لى أن حالة نفسية على هذا النحو لا تروق لها. إن التقليل من قيمة الحياة، يزيد الإيحاء بتداعيتها أكثر مما أرادته الطبيعة الأم. حقيقة قالت لى إنى لست الشخص المناسب لها، لكنى تمكنت على الرغم من ذلك من وضعها فى حالة حيرة وانشغال، وكان ذلك بمثابة نجاح بالنسبة لى. استشهدت ألبرتا بفيلسوف قديم لا بد أنه كان يتفق معى فى تفسير معنى الحياة، وقالت أوجوستا إن الضحك شىء جميل وعظيم، وهو وفير كذلك عند والدها.

— لأنه يسعد بالصفقات الرباحة، هكذا قالت السيدة مالفنتى وهى تضحك.

وأخيراً أنهيت تلك الزيارة المشهودة.

ليس فى هذا العالم ما هو أصعب من الزواج كما يبغى المرء بالضبط. ويتضح ذلك من حالتى؛ حيث إن قرار زواجى سبق اختيار الخطيبة بوقت طويل. لماذا لم أذهب لرؤية الكثير والكثير من الفتيات قبل

أن أختار إحداهن؟ كلا! كان يبدو بالفعل أنني استأنت من رؤية أعداد من النساء تفوق الحد، ورأيت ألا أجهد نفسي. خلت أنه ما إن يقع الاختيار على الفتاة، بإمكانى أن أختبرها بصورة أفضل وأتأكد على الأقل من أنها على استعداد لأن تتقابل معى فى منتصف الطريق، كما هو المعتاد فى روايات الحب ذات النهاية السعيدة. اخترت على عكس ذلك، الفتاة ذات الصوت الرزين جداً والشعر المتمرد بعض الشيء والمصفف، مع ذلك، فى حزم وظننت أنها، بتلك الجدية الشديدة، لن ترفض رجلاً ذكياً، غير دميم ومن عائلة طيبة، مثلى أنا. ومع الكلمات الأولى التى تبادلناها شعرت ببعض النشاذ، لكن النشاذ هو الطريق الذى يودى إلى ألفة النغم. بل على أن أقر بأننى قلت لنفسى: «ينبغى أن تظل كما هى؛ لأنها تعجبني على هذا النحو، وسوف أغير أنا من نفسى إن أرادت هى ذلك». كنت على العموم فى غاية التواضع لأنه يسهل بالتأكيد على المرء أن يغير من نفسه عن أن يعيد تربية الآخرين.

بعد وقت وجيز أصبحت عائلة مالفنتى محور حياتى. كل مساء كنت أمضيه مع جوفائى الذى زاد من مودته وقربه لى، بعد أن أدخلنى بيته. كان هذا الودّ بالدرجة التى رفعت الكلفة بيننا. فى بادئ الأمر قمت بزيارة أسرته مرة فى الأسبوع، ثم أكثر من مرة، وانتهى بى الأمر إلى الذهاب إلى بيته كل يوم لقضاء ساعات عديدة فيما بعد الظهيرة. توافرت ذرائع جلوسى فى ذلك البيت، وقد لا أخطئ لو قلت إن هناك أيضاً من أتاحها لى. حملت أحياناً معى آلة الكمان، وقضيت بعض

الوقت فى العزف مع أوجوستا، الوحيدة التى كانت تعزف البيانو فى ذلك المنزل. كان من المؤسف أن أدا لا تعزف، ومن المؤسف أنى لا أجيد العزف على الكمان، والأسوأ من ذلك أن أوجوستا لم تكن عازفة بيانو عظيمة. كنت أضطر مع كل معزوفة إلى إلغاء بعض الجمل الموسيقية؛ لأننى أجدها بالغة الصعوبة، وأزعم أننى لم ألمس آلة الكمان منذ عهد بعيد. إن عازف البيانو غالباً ما يفوق عازف الكمان الهاوى، وكانت لدى أوجوستا مقدرة على العزف لا بأس بها، لكنى حيث، كنت أعزف أسوأ منها بكثير، لم أستطع أن أَرْضَى بذلك وأخذت أفكر: "آه لو استطعت العزف مثلها، لكان عزفى أفضل!" وبينما كنت أحسب قدر أوجوستا، كان الآخرون يبدون رأيهم فى، وكما علمت فيما بعد، كان رأياً سلبياً. ثم إنه ربما رحبت أوجوستا بالعودة إلى معزوفاتنا، لكننى أدركت أن أدا كانت تمل ذلك؛ ولذا تظاهرت لعدة مرات بأنى نسيت الكمان فى المنزل. حينئذ لم تعد أوجوستا للحديث عن ذلك مرة أخرى.

للأسف لم أكن أجلس فقط مع أدا خلال الساعات التى كنت أمضيها فى ذلك البيت. وسرعان ما أصبحت صحبتى اليوم بأكمله. كانت المرأة التى انتقيتها بنفسى، وقررت بذلك أن تكون لى، وأضيفت عليها جمال كل أحلامى، حتى يزداد جمال ما فزت به من الحياة فى مُخيلتى. زينتها، وخلتها بكل الصفات التى كنت أحتاج إليها وكانت تنقضى؛ لأنه فضلاً عن أنها ستصبح رفيقة حياتى، ستكون أيضاً أُمى الثانية التى تقودنى إلى حياة كاملة، حياة الرجولة، الحافلة بالصراعات والانتصارات.

فى أحلامى كنت أجمل أيضاً ملامحها قبل أن أسلمها إلى أحلام أخرى. حقيقة كنت ألاحق نساء كثرات فى حياتى، وكثيرات منهن كن يستسلمن. فى الحلم أدركتهن جميعاً. بالطبع لا أجملهن ولا أغير ملامحهن، لكنى أفعل ما يفعله صديق لى، وهو رسام غاية فى الرقة، عندما يرسم ملامح نساء حسناوات، ويستغرق أيضاً فى التفكير فى أشياء أخرى جميلة كالتحف الخزفية على سبيل المثال. إنه حلم له خطورته؛ لأنه يعطى سلطاناً جديداً للنساء التى حلم بهن المرء، وعندما يظهرن ثانية فى ضوء الحقيقة يحتفظن بشيء من الفاكهة أو الزهور أو الخزف الذى اكتسبن به.

يشق على أن أحكى عن مغازلتى لآدا. فضلاً عن أن هناك فترة طويلة من حياتى حاولت فيها جاهداً أن أنسى تلك المغامرة الحمقاء التى أشعرتنى حقيقة بذلك النوع من الخجل الذى يستوجب الصراخ والاحتجاج: «لم أكن أنا شديد الحماسة!». ومن كان إذن؟ لكن الاحتجاج يمنح أيضاً شيئاً من الراحة ولقد أصبرت عليه. لا بأس فى ذلك لو أننى سلكت ذلك السلوك قبل عشرة أعوام، فى العشرين من عمرى! لكن، أن ينزل بى العقاب بهذه القسوة ليس إلا لأنى اتخذت قراراً بالزواج وحسب، فهو ما يبدو لى بالفعل ظلماً. ها أنا ذا الذى جربت كل أنواع المغامرات بروح جريئة تصل إلى حد التبجح، أجد نفسى أعود فتى خجولاً يحاول أن يمس يد محبوبته، وربما نون أن تنتبه إلى ذلك، بل ويحب من جسده ذلك الطرف الذى نال شرف مثل هذه اللمسة. هذه التى كانت أظهر

مغامرة فى حياتى، أتذكرها حتى اليوم وقد صرت عجوزاً كأنها الأكثر حقارة. كان شيئاً خارج المكان والزمان، ما يشبه فتى فى العاشرة من عمره يلتصق بصدر المرضعة. ياله من شيء مقرز!

ثم كيف لى أن أفسر ترددى طويلاً فى الحديث بوضوح وتوجيه السؤال للفتاة: خذى قرارك! أتريدىنى أم لا؟ كنت أذهب إلى ذلك المنزل وأصل إليه عبر أحلامى؛ كنت أحصى عدد درجات السلم التى تؤدى إلى ذلك الطابق الأول، وأقول لنفسى إن كانت فردية فسوف يدل هذا على حبها لى وكانت دائماً فردية؛ لأن عددها كان ثلاثاً وأربعين درجة. كنت أصل عندها وأنا فى ثقة كبيرة، وينتهى بى الأمر إلى الحديث عن أشياء أخرى. لم تكن أدا قد وجدت بعد اللحظة المواتية لتعبر لى عن ازدرائها وكنت أصمت! أنا أيضاً لو كنت مكانها لاستقبلت ذلك الشاب اليافع ذى الثلاثين من عمره بركلات فى مقعدته!

من ناحية أخرى ينبغى القول إننى لم أكن أشبه تماماً الشاب العاشق ذا العشرين عاماً، الذى يظل صامتاً ينتظر أن تتعلق المحبوبة بعنقه. لم أكن أتوقع شيئاً مثل هذا. كنت مستعداً للحديث، ولكن فيما بعد. وإن لم أتقدم بخطواتى، فهذا يرجع إلى عدم ثقى بنفسى. كنت أنتظر أن أصبح أكثر نبلاً، أكثر قوة، أكثر جدارة بفتاتى الرائعة. كان يمكن أن يحدث ذلك من يوم إلى آخر. لماذا لا أنتظر؟

أشعر أيضاً بالخجل أنى لم أدرك فى الوقت المناسب أننى قد أقدمت على خيبة أمل كهذه. كان على أن أتعامل مع فتاة من أكثر

الفتيات سذاجة، ومن فرط ما حطمت بها صورها لى خيالى امرأة من أكثر المتمرسات دلالاً. وكان شعورى القوى بالبغض فى غير موضعه عندما نجحت أن تفهمنى أن أمرى لا يهمها فى شىء. لكننى كنت قد مزجت بداخل نفسى الواقع بالأحلام مزجاً شديداً، حتى إننى لم أستطع إقناع نفسى بأنها ما كانت لتقبلنى أبداً.

إن سوء فهم النساء يعد بالفعل دليلاً على قلة قيمة الرجل. فى بادئ الأمر لم أخطئ قط، وعلى أن أصدق أننى اتهمتها خطأ؛ لأننى شوهت علاقتى معها منذ البداية. اقتربت منها ليس لإغوائها بل للزواج منها، وهذا يعد طريقاً غير مألوف للحب، طريق ربح ومريح للغاية، لكنه لا يؤدى إلى الهدف على الرغم من قربه الشديد منه. إن الحب الذى يصل إليه المرء على هذا النحو يفتقر إلى خاصية أساسية: إخضاع المرأة. وعلى ذلك يتأهب الرجل لدوره بفتور كبير ربما يمتد إلى جميع حواسه، حتى إلى حواس النظر والسمع.

كنت أحمل كل يوم أزهاراً للفتيات الثلاث وأهديتهن نوادى، والأهم من ذلك أننى كنت أقص عليهن بدقة متناهية أخباراً عن حياتى كل يوم.

يحدث للجميع أن يتذكروا الماضى عندما يكتسب الحاضر أهمية كبيرة. لكننى قلت إن المشرفين على الموت، فى النزاع الأخير، تتراعى لهم حياتهم برمتها. كانت حياتى الماضية تستولى على آنذاك بقوة الوداع الأخير؛ لأنه كان يملكنى شعور بأننى أبتعد عنها كثيراً. وتحدثت دائماً عن هذا الماضى للفتيات الثلاث، وتحمست من شدة انتباه أوجوستا وألبرتا،

الذى ربما كان يحجب عدم اكتراث آدا الذى لم أؤكد منه. كانت أوجوستا، بطبيعتها الهادئة، تتأثر بسهولة، وكانت ألبرتّا تظل تستمع إلى وصفى لمغامراتى وأنا طالب جامعى وقد احمرت وجنتاها من رغبتها فى أن تمر هى أيضاً بمغامرات مثلها فى المستقبل.

وتتوالى أيام كثيرة، وتخبرنى أوجوستا بأنه ما من واحدة من الفتيات الثلاث صدقت القصص التى كنت أرويها. غير أنه بدا لأوجوستا أن لها قيمة بالغة حيث إننى اختلقتها، فهى تُنسب إلىّ حتى ولو أن القدر قد عذبنى بها. والجزء الذى لم تصدقه ألبرتّا راق لها على الرغم من ذلك؛ لأنها رأت فيه بعض الإيحاءات العظيمة. الوحيدة التى استاءت من أكاذيبى كانت آدا الوقور. وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلتها قدر لى أن أشابه الرامى البارع الذى هبّ له أنه أصاب نقطة الهدف، لكنه صوّب تجاه هدف آخر.

ومن جانب آخر كانت تلك النوادر حقيقية فى الكثير منها. لن أستطيع القول كم منها بالتحديد؛ حيث إنى قصصتها على العديد من النساء الأخريات قبل أن أقصها على بنات السيد مالفنتى، وتبدلت، دون أن أرغب فى ذلك، لكى تعبر بشكل أفضل. فهى حقيقية مادمّت لن أستطيع سردها بصورة أخرى.

واليوم لا أبالى بأن أبرهن على مصداقيتها. لا أود أن أخيب أمل أوجوستا التى تُسر بتصديق أنها من اختلاقى، وبالنسبة لآدا فأظن أنها قد بدلت رأيها وتعتبرها حقيقية.

إن فشلى التام مع آدا قد اتضح بالفعل فى اللحظة التى رأيت فيها ضرورة الحديث بوضوح معها . تلقيت الحكم فى دهشة وفى بادئ الأمر، فى ارتياب، إنها لم تتفوه بكلمة واحدة تعبر عن نفورها منى، وأنا فى تلك الأثناء أغمضت عيني حتى لا أرى تلك التصرفات الصغيرة التى كانت لا تعنى لى أهمية كبيرة. فضلاً عن أنى لم أقل بنفسى الكلمة اللازمة، وكنت أستطيع حتى تلك اللحظة أن أتوهم أن آدا لا تعرف أننى كنت مستعداً للزواج منها، وربما كانت تظن أنى - ذلك الطالب غريب الأطوار وغير السوى - أرغب فى شىء آخر.

طال عدم التفاهم بيننا بسبب نياتى الحاسمة فى الزواج. حقيقة أنى كنت أرغب حينئذ فى آدا بأكملها، التى دأب خيالى على أن يجعل وجنتيها مشرقة ويديها وقدميها صغيرتين وخصرها نحيفاً ورشيقيماً. كنت أرغب فيها زوجة وعاشقة. لكن الأسلوب الذى تتعامل المرأة به لأول مرة يظل حاسماً. حدث فى تلك الأثناء أنه لثلاث مرات متتالية فى ذلك المنزل استقبلتنى أوجوستا وألبرتا. إن غياب آدا تم تبريره فى المرة الأولى بزيارة واجبة، وفى الثانية بتوعل فى صحتها، وفى الثالثة لم يقدموا لى أية ذرائع، حتى إننى، وقد انتابنى القلق، لم أسأل عن السبب. وهكذا لم تجب أوجوستا، التى التفت إليها بالمصادفة. أجابت عنها ألبرتا التى نظرت إليها الأخرى كى تلتمس منها المساعدة: ذهبت آدا عند عمتنا.

ضاقت نفسى. كان واضحاً أن آدا تتحاشى رؤيتى. وفى اليوم السابق كنت قد تغاضيت عن غيابها، بل وأطلت زيارتى أملاً فى أن تظهر هى الأخرى فى النهاية. وفى ذلك اليوم، مكثت لبضع لحظات

أخرى، وعجزت عن فتح فمي، ثم تعللت بألم مفاجئ برأسي ونهضت للانصراف. تعجبت من أن أول شعور أصابني عندما تنبّهت لصد أدا كان شعوراً بالغليظ والازدراء. فكرت أيضاً في أن أُلجأ إلى جوفائي حتى يصلح من شأن ابنته. فالرجل الذي يرغب في الزواج قادر أيضاً على القيام بأفعال مماثلة، تكرر لما كان يفعل أسلافه.

كان لابد أن يكون لغياب أدا للمرة الثالثة مغزاه الهام. فالشواهد تدفعني لاكتشاف أنها بالمنزل، لكنها قابضة في حجرتها.

وقبل كل شيء على أن أصرح بأنه كان هناك شخص آخر لم أتمكن من استمالة: إنها الصغيرة أنا. لم تعد تهاجمني في وجود الآخرين، حيث سبق لهم أن وبخوها بقسوة. بل في بعض الأحيان كانت هي الأخرى ترافق أخواتها وتقعّد لسماع نوادرى. لكن في اللحظة التي كنت أنصرف فيها، كانت تلاحقني عند المدخل، وتطلب في رقة مني أن أُنحني إليها، فتقف على أطراف قدميها الصغيرتين، وعندما كانت توشك أن تلتصق فمها الصغير مباشرة بأذني، تقول لي بصوت خافت لكي لا يسمعها أحد غيري:

- إنك مجنون، مجنون حقيقى!

الغريب أن الماكرة كانت تخاطبني أمام الآخرين بصيغة الاحترام. وإذا كانت السيدة مالفنتى حاضرة، كانت تسرع لتحتّمى بين ذراعيها، فتداعبها قائلة:

- كم أصبحت الصغيرة أنا مهذبة! أليس حقاً؟

لم أعارض والرقيقة أنا كانت لا تزال تعتقد بأنى مجنون. كنت أتلقى حكمها بابتسامة بسيطة، ربما كانت تبدو وكأنها شكر. كنت أمل ألا تملك الطفلة الشجاعة لكى تقص هجومها على الكبار، وكان يسوعنى أن أخبر أدا بأى حكم تطلقه على الصغيرة. نجحت تلك الطفلة بالفعل فى إثارة حيرتى. فإذا تقابلت عينى مع عينها، فى أثناء حديثى مع الآخرين، كانت على الفور تجد الفرصة للنظر فى مكان آخر، وكان يصعب أن تفعل ذلك ب تلقائية. بالطبع كان يحمر وجهى. كنت أرى أن تلك البريئة بحكمها على يمكن أن تلحق بى الأذى. حملت لها الهدايا، لكنها لم تفلح فى إرضائها. إنها لابد قد أدركت قوتها وضعفى، وفى حضور الآخرين، كانت تحقق فى بوقاحة. أظن أننا جميعاً لدينا فى ضميرنا كما فى جسدنا نقاط ضعيفة مستترة لا نرغب فى التفكير فيها. ولا حتى نعرف ماهى، لكننا ندرك أنها هناك. كنت أبعد عينى عن تلك الطفلة التى كانت تريد أن تتفحصنى.

غير أننى فى ذلك اليوم الذى غادرت فيه المنزل وحيداً ومكتئباً حين لحقت بى لأنحنى لسماع مجاملتها المعتادة، دنوت منها بذلك الوجه الذى يقارب وجه مجنون حقيقى، وما إن مددت نحوها كفى وهددتها بحركة من أصابعى المقوسة كالمخالب، حتى جرت مسرعة وهى تبكى وتصرخ.

هكذا تمكنت من رؤية أدا أيضاً فى ذلك اليوم؛ لأنها هى التى تنبّهت إلى ذلك الصراخ. حكّت الصغيرة وقد ارتفع صوتها بالبكاء أننى هددتها بقسوة لأنها كانت تنعتنى بالمجنون:

– لأنه مجنون وددت أن أخبره بذلك. ما الضرر فى هذا؟

لم أمكث لسماع الطفلة، وفوجئت عندما رأيت آدا بالمنزل. إذن فقد كذبت أختها، حتى ألبرتة الوحيدة التي ألقى أوجوستا عليها بالمهمة لكي تنجو هي نفسها منها! واللحظة وجدت نفسي بالفعل على صواب، وقد أدركت كل شيء من حولي.

- يسرنى أن أراك. كنت أظن أنك عند عمك منذ ثلاثة أيام.

لم تجبني؛ لأنها كانت في أول الأمر تتحنى على الطفلة الباكية. إن التأخير في الحصول على تفسيرات يحق لي معرفتها جعل الدم يغلي في رأسي. لم أجد الكلمات. تقدمت خطوة أخرى لكي أدنو من باب الخروج، ولولا أن آدا تحدثت، لانصرفت نهائياً وبلا عودة. ورأيت في غضبي أن التخلي عن حلم استغرق وقتاً طويلاً شيء هين جداً.

لكنها في تلك الأثناء، وقد احمر وجهها، التفتت إلي وقالت إنها قد عادت منذ لحظات قليلة؛ لأنها لم تعثر على عمها في البيت.

كان ذلك كافياً لتهدئة روعي. كم كانت حانية، وهي تميل بحنان الأم على الصغيرة التي أخذت تصرخ! كان جسدها مرناً، حتى بدا وكأنه تضاعل حتى يدنو أكثر من الطفلة الصغيرة. تمهلت لكي أتأملها وأنا أعتبرها ملكي مرة ثانية.

شعرت بصفاء نفسي، حتى وددت أن أتناسى الاستياء الذي أبديته قبل قليل، وكنت غاية في الرقة مع آدا ومع أنا أيضاً. قلت وقد ارتفع صوتي بالضحك:

- إنها ترانى مختل العقل، فأردت أن أطلعها على الوجه الحقيقى والحركات التى يسلكها المجنون. سامحيني! وأنت أيضاً، أيتها المسكينة أنوتشا، لا تفزعى فأنا مجنون مسالم.

أدا أيضاً كانت غاية فى الرقة. أنبت الصغيرة التى أخذت تنوح، وطلبت منى أن أقدم لها اعتذارى. لو كان الحظ قد حالفنى وجرت أنا مسرعة وهى غاضبة، لتحدثت معها. ولنطقت بجملة ربما توجد فى بعض اللغات الأجنبية أيضاً، جملة تامة لتيسير الحياة على من لا يعرف لغة البلد الذى يقيم به: "يمكننى أن أطلب يدك من والدك؟". إنها المرة الأولى التى رغبت فيها فى الزواج؛ ولهذا وجدت نفسى فى بلد مجهول تماماً بالنسبة لى. حتى ذلك الحين كنت أتعامل بصورة أخرى مع النساء اللاتى كنت على علاقة بهن. كنت أنقض عليهن، ولكن بعد أن أتلسمهن بيدي.

وعلى الرغم من ذلك لم أتمكن من التفوه حتى بتلك الكلمات القليلة. كان لابد أن تطول لبعض الوقت! كان لابد أن يصحبها تعبير بالوجه يتسم بالرجاء، يصعب تحقيقه فور المشاجرة مع أنا وأدا أيضاً، وهامى ذى السيدة مالفنتى قد أتت من نهاية الرواق وقد استرعى انتباهها صراخ الطفلة.

صافحت أدا بيدي، وعلى الفور وضعت يدها على يدي فى ودّ وقلت لها:

- إلى أن نلتقى غداً. التمسى لى المعذرة عند السيدة مالفنتى.

لكنى ترددت كثيراً فى أن أدع يدها التى تسكن مطمئنة فى يدي.
كنت أشعر أنى، عند انصرافى فى تلك اللحظة، سأتخلى عن الفرصة
الوحيدة مع تلك الفتاة التى كانت تهتم باستخدام أساليب اللياقة معى
لكى تعوضنى عن وقاحة أختها. اتبعت الإيحاء الذى جاعنى فى تلك
اللحظة، انحنيت على يدها ولمستها بشفتى. ثم فتحت الباب وخرجت
مسرعاً بعد أن لمحت أدا، وقد تركت فى تلك اللحظة يدها اليمنى فى
حين كانت اليسرى تمسك بأنا التى كانت متعلقة بتورتها، وقد أصابتها
الدهشة وهى تنظر إلى تلك اليد الرقيقة التى لمستها شفتاى، كما لو أنها
أرادت أن ترى إن كان بها شىء مكتوب. لا أظن أن السيدة مالفنتى قد
لاحظت ما فعلت.

توقفت للحظة على درج السلم، وقد اندهشت أيضاً مما فعلت، ولم
أكن قد فكرت فيه من قبل على الإطلاق. هل كانت لا تزال هناك فرصة
للعودة إلى ذلك الباب الذى أوصدته ورائى، ولأن أقرع الجرس ولأطلب
الإذن بإخبار أدا بتلك الكلمات التى كانت تبحث عنها فى يدها بلا
جدوى؟ لا أظن ذلك! كنت سأفقد كرامتى لو أبديت تلهفى الشديد. ثم
أننى وقد جعلتها تستشعر عودتى أوحيت إليها بمقاصدى. وما كان إلا
عليها هى وحدها أن تبحث عنها، فتمنحنى الفرصة أن أمنحها لها.
وما أنا ذا قد عدلت أخيراً عن قص حكاياتى للثلاث فتيات وبدلاً من ذلك
قبلت يد واحدة منهن.

لكن بقية اليوم كانت مزعجة للغاية. كنت مضطرباً وقلقاً. أخذت أحدث نفسي عن أن هذا القلق ينتابني فقط من نفاذ صبرى لاستيضاح تلك المغامرة. كنت أتخيل إذا ما رفضتني آدا، كان بإمكانى فى هدوء شديد أن أجرى سعيًا وراء نساء أخريات. كان ارتباطى الشديد بها يرجع إلى قرار حر اتخذته، ويمكن أن يمحوه قرار آخر! لم أدرك فى ذلك الوقت أنه لم يكن هناك فى هذا العالم نساء أخريات أمامى، وأنى أحتاج إلى آدا بشدة.

الليلة التالية بدت لى أيضاً طويلة للغاية؛ قضيتها ساهراً تماماً. فبعد وفاة والدى، كنت قد تركت عادتى فى قضاء الليل فى الخارج، وفى تلك الأثناء، منذ أن قررت الزواج، كان سيبدو شيئاً غريباً أن أعود إلى ذلك؛ لهذا أويت إلى فراشى فى ساعة مبكرة رغبةً فى النعاس الذى يجرى بالوقت مسرعاً.

فى الصباح تلقيت بثقة عمياء تبريرات آدا لعدم حضورها ثلاث مرات فى حجرة الاستقبال فى الساعات التى كنت أقعدها هناك، ثقة ترجع إلى اقتناعى الشديد بأن السيدة الجادة التى اخترتها لا تعرف الكذب. لكن فى أثناء الليل تضاءلت تلك الثقة. أخذت أرتاب فى أنى قد أخبرتها بأن ألبرت - عندما رفضت أوجوستا الحديث - قد تعللت بعذر زيارتها تلك للعممة. لا أذكر جيداً الكلمات التى وجهتها إليها ورأسى مشتعل، لكننى على يقين من أننى قد أوحيت إليها بذاك العذر. يالها من خسارة! ليتنى ما فعلت ذلك، فربما اختلقت شيئاً آخر لكى تعتذر. ولو أدركت كذبها، لحصلت فى النهاية على الوضوح الذى كنت ألهث وراءه.

وقد أدركت عندئذ أيضاً أهمية أدا بالنسبة لى، ولطمأنة نفسى أخذت أقول لها إذا كانت لا ترغب فى، سأتنازل عن الزواج نهائياً. إذن كان سيغير رفضها حياتى. وبدأت أحلم وأنا أعزى نفسى أنه ربما يكون ذلك الرفض بمثابة حظ لى. أخذت أتذكر ذلك الفيلسوف اليونانى الذى كان يتنبأ بالندم لمن كان يتزوج أو لمن يظل أعزب؛ ومن ثم لم أكن قد فقدت بعد القدرة على السخرية من مغامرتى؛ كنت أفقد القدرة على النعاس وحسب.

أويت إلى الفراش وكان الفجر قد بدأت تباشيره. عندما استيقظت كان الوقت متأخراً ولم تبق إلا ساعات قليلة تبعدنى عن الزيارة التى سمحوا لى بها فى منزل مالفنتى؛ لهذا لم يكن هناك داع للخيال ولجمع دلائل أخرى توضح ما بنقس أدا، غير أنه يشق على المرء أن يوقف تفكيره عن الاهتمام بموضوع يهمله كثيراً.

فالإنسان يصبح حيواناً أكثر حظاً إذا ما تمكن من ذلك، وفى أثناء ما كنت أهتم بمظهرى الذى بالغت فيه ذلك اليوم، لم يشغل تفكيرى شيء آخر: "هل كنت على صواب عندما قبلت يد أدا، أم أخطأت لأننى لم أقبل شفيتها؟"

فى ذلك الصباح سيطرت على بالفعل فكرة أعتقد أنها أذنتى بشدة، وحرمتنى من ذلك القدر من المبادرة الجريئة الذى منحتنى إياه حالة المراهقة الغريبة التى انتابتنى. كان الشك مؤلماً: لو تزوجتنى أدا وقد أرغمها والداها على ذلك، دون أن تحبنى بل ولا تزال تنفر منى بشدة؟

حيث كان الجميع دون شك فى تلك العائلة، أى جوقانى، السيدة مالفنتى، أوجوستا وألبرتا يكتون لى محبة كبيرة؛ كنت أشك فقط فى مشاعر آدا. أخذت تتجلى فى الأفق بالفعل تلك الرواية الشعبية المعروفة، رواية للفتاة التى أجبرتها عائلتها على زواج غير مرغوب فيه. لكنى لم أكن لأسمح بذلك. هاهو ذا السبب الجديد الذى من أجله كان لابد أن أتحدث مع آدا، بل مع آدا وحدها. لم يكن ليكفى أن أوجه إليها تلك العبارة التى أعدتها من قبل. أن أسألها ما إن أنظر فى عينيها: "أحبيننى؟" وإذا أجابت بنعم، ضممتها بين ذراعى لأشعر منها بنبض الصراحة.

هكذا خيل إلى أننى تأهبت لكل شىء. فى حين كان لابد أن أدرك أننى وصلت إلى ذلك الامتحان وقد نسيت أن ألقى نظرة أخيرة على صفحات النص الذى كان من المفروض أن أتحدث فيه.

استقبلتنى السيدة مالفنتى وكانت بمفردها، فأجلستنى فى ركن الاستقبال الرحب، وفى الحال أخذت تثرثر بحمىة دون أن تعطينى الفرصة حتى للسؤال عن أخبار الفتيات؛ لهذا كنت شارد الذهن بعض الشىء، وأخذت أعيد لنفسى الدرس لى لا أنساه فى اللحظة المناسبة. ودفعت فجأة للانتباه وكأنى أسمع دويًا بوحى النداء. أخذت السيدة مالفنتى تجتهد فى عرض مقدمة من المقدمات. أخذت تؤكد لى صداقتهما هى وزوجها وحب أفراد العائلة جميعهم المتبادل، بمن فيهم الصغيرة أنا. ذكرت أننا كنا نعرف بعضنا البعض منذ فترة كبيرة. نتقابل يوميًا منذ أربعة أشهر.

- خمسة! صححت لها؛ حيث إننى حسبت تلك المدة فى أثناء الليل، وتذكرت أن الزيارة الأولى التى قمت بها كانت فى فصل الخريف، وكنا فى تلك اللحظة فى أوج فصل الربيع.

- نعم! خمسة! قالت وهى تفكر فيما قلت، كأنما أرادت أن تعيد النظر فى حساباتى. بعد ذلك، وبلهجة عتاب: - يبدو لى أنك أسأت إلى أوجوستا.

- أوجوستا؟ سألت ظناً منى أننى أخطأت السمع.

- نعم!- أكدت السيدة - تغويها وتضعها فى مأزق.

كشفت عن شعورى بسذاجة:

- لكننى لا أرى الآنسة أوجوستا أبداً.

قامت بحركة تنم عن الدهشة (أم هين لى؟) ودهشتها كانت مؤلمة.

فى تلك الأثناء كنت أحاول أن أمعن التفكير لى أتوصل سريعاً إلى تفسير الأمر الذى كان يبدو لى سوء تفاهم، لكننى أدركت أهميته على الفور. أخذت أستعيد ذاكرتى، زيارة تلو الأخرى، فى أثناء الشهور الخمس الماضية، وأنا مهتم بمراقبة آدا. كنت أعزف الموسيقى مع أوجوستا، وبالفعل، تحدثت معها كثيراً فى بعض الأحيان؛ لأنها كانت تنصت لى، ولم يحدث ذلك مع آدا، لكن كان ذلك بهدف أن تشرح لآدا حكاياتى ومعها تأييدها لى وحسب. هل كان ينبغى أن أتحدث بصراحة

مع السيدة مالفنتى وأخبرها برغبتى تجاه أدا؟ لكننى قبل حدوث ذلك بوقت قليل كنت قد عازمت على أن أتحدث مع أدا بمفردها وأن أختبر شعورها. ولو تحدثت بوضوح مع السيدة مالفنتى، فربما أخذت الأمور مجرى آخر، أى أنه متى لم أتمكن من الزواج بأدا فما كان أيضاً على أن أتزوج أوجوستا. بعد أن استسلمت للقرار الذى اتخذته قبل أن أقابل السيدة مالفنتى، وبعد سماع تلك المفاجآت التى قالتها لى، لذت بالصمت.

أخذت أمعن التفكير، لكن بشيء من الحيرة. كنت أريد أن أفهم، أخمن كل شيء وبسرعة. نحن لا نرى الأشياء بصورة واضحة عندما نحدق بأعيننا أكثر من اللازم. تراعى لى أن هناك احتمالاً لطردى خارج المنزل، ورأيت إمكانية إبعاد ذلك الاحتمال. كنت بريئاً، فلم أقم بمغازلة أوجوستا التى كانوا يريدون حمايتها. لكن ربما كانوا ينسبون إلى شيئاً من الاهتمام بأوجوستا حتى يبعدوا أدا عن دائرة شكوكهم. ولم يحمون أدا بتلك الصورة، وهى لم تعد فتاة صغيرة؟ فأتا على يقين من أننى لم أمسك بشعرها إلا فى الحلم. فى الواقع لامست بشفتى يدها وحسب. لم أكن أريد أن يحرمونى من دخول ذلك البيت؛ لأننى كنت أود أن أتحدث مع أدا قبل أن أغادره؛ لذا سألت بصوت مرتجف:

- قولى لى، يا سيدتى، ماذا بوسعى أن أصنع حتى لا أسىء لأحد؟

ترددت. كنت أفضل أن أتعامل مع چوقانى الذى يفكر وهو يصيح.
ثم حسمت أمرها، لكن حاولت جاهدة أن تبدو لطيفة وكان ذلك يظهر
واضحاً فى نبرة صوتها، وقالت:

- ينبغي أن تقلل من زياراتك لنا لبعض الوقت؛ أى يومان أو ثلاثة
فى الأسبوع، بدلاً من كل يوم.

من المؤكد أنها لو كانت قالت لى بقسوة أن أنصرف وألاً أعود
ثانية، لرجوتهم، بدافع مما أحمله من نيات، أن يسمحوا لى بزيارتهم فى
ذلك المنزل، ليوم آخر أو يومين على الأقل، حتى أوضح ما هى علاقتى
بأدا. على عكس هذا جاءت كلماتها، أكثر اعتدالاً مما كنت أخشاه،
وشجعتنى أن أعبر عن أسفى:

- إذا كنت ترغبين فى ذلك، فلن أطأ بقدمى أبداً هذا المنزل!

حدث الذى كنت أمل فيه. عارضت، وكررت الحديث عن التقدير
الذى يكنه الجميع لى، ورجتلى ألاً أغضب منها. أظهرت سعة صدرى،
وعدتها بأن أفعل كل ما طلبته منى، أى أن أبتعد عن المنزل لمدة أربعة أو
خمسة أيام، على أن أعود إليه بانتظام مرة أو مرتين كل أسبوع وبما هو
أهم، وهو ألاً أكن لها كرهاً.

بعد أن قدمت تلك الوعود، وددت فى أن أعطى الدليل على وفائى
بها فنهضت للانصراف. احتجت السيدة وهى تضحك:

- ليس هناك ما يخشى على منه؛ لذا يمكنك أن تبقى معى.

وحيث إننى رجوتها أن تأذن لى بالانصراف لارتباط لى تذكركه فقط فى تلك اللحظة، فى حين كنت فى واقع الأمر متلهفاً للانفراد بنفسى لكى أفكر جيداً فيما يجب على مواجهته، طلبت منى السيدة مالفنتى أن أبقى وهى تقول إننى بهذا سأتبىب عدم غضبى منها؛ لهذا مكثت، وقد أجبرت طويلاً وبعناء على أن أنصت إلى الثرثرة الفارغة التى استرسلت حينئذ فيها السيدة بالحديث عن الموضة النسائية التى لا تريد أن تسايرها، وعن المسرح، وأيضاً شدة جفاف الجو الذى يعلن به فصل الربيع عن قدومه.

أحسست بعد قليل بالسرور لبقائى؛ لأننى أدركت أننى كنت فى حاجة إلى زيادة من الإيضاح. قاطعت السيدة دون أى تحفظ، ولم أسمع كلامها على الإطلاق، وسألتها:

– والجميع فى العائلة سيعلمون أنك طلبت منى الابتعاد عن هذا المنزل؟

بدت فى بادئ الأمر وكأنها لا تتذكر شيئاً عن اتفاقنا، ثم أكدت:

– الابتعاد عن هذا المنزل؟ لبضعة أيام فقط، هذا أمر مفهوم. لن أقول شيئاً عن ذلك لأحد، ولا حتى لزوجى، بل وسأكون أيضاً ممنونة لك إن أردت الاحتفاظ بالسر نفسه.

وعدتها بهذا أيضاً، وعدت أيضاً بأنه إذا طلب منى تفسير لعدم مجيئى كثيراً، سأقدم أعذاراً مختلفة. فى تلك اللحظة وثقت بكلمات السيدة،

وتخيلت أن أدا يمكن أن تتتابها الدهشة والألم لغيابى المفاجئ. ياله من تخيل ممتع للغاية!

ثم مكثت لفترة أخرى، وأنا أنتظر إحياءات توحى لى وترشدنى، فى حين كانت السيدة تتحدث عن أسعار المواد الغذائية فى الآونة الأخيرة التى أصبحت باهظة للغاية.

وبدلاً من الإحياءات الجديدة، جاءت العمة روزينا، وهى أخت جوفانى، التى تكبره فى السن، لكنها تقل عنه كثيراً فى الذكاء.

لكن كانت لها بعض ملامح من أخلاقه تكفى لوصفها بأنها أخته. بادئ ذى بدء كان لديها الوعي نفسه بحقوقها وواجبات الآخرين، ذلك الوعي المضحك بعض الشيء، لأنه يفتقر إلى أية أسلحة يفرض بها نفسه، فضلاً عن العادة السيئة فى رفع الصوت فى الحال. كانت تعتقد أن لها حقوقاً كثيرة فى منزل أخيها - كما علمت فيما بعد - كانت منذ فترة بعيدة تعتبر السيدة مالفنتى إنسانة دخيلة. لم تتزوج وكانت تعيش مع خادمة واحدة تتحدث عنها دائماً كأنها عدوتها اللدود. عندما كانت على فراش الموت طلبت من زوجتى أن تراقب المنزل، إلى أن تنصرف الخادمة التى اعتنت بها. كان كل من فى منزل جوفانى يتحملونها خشية فظاظتها.

لم أنصرف. كانت العمة روزينا تؤثر أدا على بقية بنات أخيها. شعرت برغبة فى الاستحواذ على صداقتها، وبحثت عن عبارة ودود

أوجهها لها. أتذكر بصورة غير واضحة المرة الأخيرة التي رأيته فيها
(أى لمحتها، حيث إنتى لم أشعر فى تلك المرة بالحاجة إلى النظر إليها)
علقت بنات أخيها، فور انصرافها، على أن لون بشرتها ينبئ عن أنها
ليست على ما يرام. بل قالت إحداهن:

– ربما تعكرت دماؤها بسبب غضبها من الخادمة!

وجدت ما كنت أبحث عنه، نظرت بود إلى وجه السيدة المتجعد
العجوز وقلت لها:

– أراك وقد استرددت عافيتك، يا سيدتى.

ليتنى لم أنطق مطلقاً بتلك الجملة. نظرت إلى بدهشة واحتجت:

– أنا دائماً بالهيئة نفسها. منذ متى وقد استعدت قواى؟

كانت تريد أن تعرف متى رأيته المرة الأخيرة. لم أكن أتذكر
بالضبط ذلك التاريخ، وكان على أن أذكر لها أننا قضينا معاً عصر يوم
كامل، وكنا جالسين فى حجرة الاستقبال نفسها مع الفتيات الثلاث،
ولكن ليس فى الجهة التى كنا فيها فى تلك المرة، بل فى الجهة الأخرى.
كنت قد عزمت على أن أبدى اهتمامى بها، لكن التفاصيل التى كانت تلح
فى طلبها أطالت هذا الاهتمام كثيراً. كان نفاقى يثقل على، وتسبب لى
فى ألم حقيقى.

تدخلت السيدة مالفنتى وهى تبتسم:

– لكنك تقصد أن العمة روزيتا قد امتلأت بعض الشيء؟

اللعنة! كان ذلك هو سبب استياء العمة روزينا؛ حيث كانت ضخمة جداً مثل أخيها، غير أنها كانت تأمل في أن يقل وزنها.

- سمنت؟ أبدأ على الإطلاق! كنت أود أن أتحدث عن صحة السيدة الجيدة وحسب.

كنت أحاول أن أتخذ مظهر الشخص الودود، ومع ذلك كان على أن أسيطر على نفسي كي لا أتفوه بأية وقاحة.

لم يبدُ الرضا على العمة روزينا ولا حتى في تلك المرة. في الآونة الأخيرة لم تكن تشعر بالمرض على الإطلاق، ولم تكن تفهم لماذا كانت تبدو للآخرين مريضة. وافقتها السيدة مالفنتي الرأي قائلة:

- على العكس، إنها ميزة لها أن تحافظ على هيئتها. قالت وهي تلتفت إلي: أليس كذلك؟

كان يبدو لي ذلك. بل كان واضحاً. انصرفت على الفور. مددت يدي بمودة حارة إلى العمة روزينا آملاً في تهدئتها، لكنها مدت إليّ يدها وهي تنظر إلى جهة أخرى.

لم أكد أطاءً بقدمي مدخل ذلك البيت حتى تبدلت حالتي النفسية. يالها من حرية! لم يعد عليّ أن أدرس نيات السيدة مالفنتي ولا أن أجتهد في إسعاد العمة روزينا. في الحقيقة أظن أنه إن لم يحدث قدوم العمة روزينا المزعج، كانت حصافة السيدة مالفنتي ستبلغ مأربها على نحو كامل، وكنت سأبتعد عن المنزل وأنا سعيد للغاية بأنهم عاملوني

معاملة حسنة. خرجت مسرعاً وأنا أقفز على درجات السلم. كانت العمّة روزينا بمثابة نقد للسيدة مالفنتى. السيدة مالفنتى التى اقترحت على أن أبتعد عن منزلها لبعض الوقت. يالها من سيدة غالية طيبة القلب أكثر مما ينبغي! كنت سأرضيها إلى أبعد مما تتوقع، وكنت سأختفى تماماً. لقد عذبتنى هى، والعمّة وأدا أيضاً! بأى وجه حق؟ لم أردت الزواج؟ لكننى لم أعد أفكر فيه على الإطلاق! كم هى ممتعة الحرية!

جريت لمدة ربع الساعة عبر الطُّرق، وكان يغمرنى إحساس عميق. ثم شعرت بالحاجة إلى مزيد من الحرية. كان على أن أجد أسلوباً فى تسجيل قرارى ألا أطاء بقدى ثانية ذلك البيت. نبذت فكرة أن أكتب رسالة أودعهم فيها. كان الابتعاد سيصبح أكثر ازدياداً إن لم أكشف عن نياتى. كنت سأنسى ببساطة أنى رأيت چوفانى وعائلته.

وجدت التصرف الحذر واللائق، ولكنه مضحك بعض الشيء لأسجل به قرارى. أسرعت إلى بائع زهور، وانتقيت بطاقة رائعة من الأزهار أرسلتها إلى السيدة مالفنتى وبها بطاقة تحمل اسمى لم أكتب عليها سوى التاريخ. لم يلزم شىء غيره! كان تاريخاً لن أنساه أبداً وربما لن تنسيه أيضاً أدا ووالدتها: ٥ من شهر مايو، ذكرى رحيل نابليون.

حرصت على إرسال تلك البطاقة على وجه السرعة. كان ينبغي أن تصل فى اليوم ذاته.

ثم ماذا بعد؟ فعلت كل شىء، كل شىء، ولم يكن هناك شىء آخر أقوم به! كانت أدا منعزلة عنى مع بقية أفراد عائلتها، وكان على أن

أعيش دون حيلة لي أترقب أن يأتيني أحدهم للبحث عني، أو لمنحى الفرصة لفعل شيء أو لقول شيء آخر..

أسرعت إلى مكتبي للتفكير ولكي أقبع به. إن كنت قد استسلمت للهفتي التي كانت تؤلني، فقد عدت في التو إلى ذلك المنزل مجازفةً مني أن أصل إليه قبل طاقة الزهور التي أرسلتها ولن أعدم الذرائع وقتئذ. ربما أكون قد نسيت مظلتى هناك أيضاً!

لم أرد القيام بشيء مماثل. لقد اتخذت بإرسالى طاقة الزهور تلك موقفاً حاسماً كان ينبغي أن أحافظ عليه. كان لابد أن أصمد لأن الكرة التالية كانت عليهم.

إن فترة استغراقى في التأمل التي حرصت عليها في حجرة مكتبي والتي كنت أتوقع أن تجلب لي الطمأنينة، أوضحت فقط أسباب يأسى الذى تفاقم حتى الدمع. كنت أحب أدا! لم أكن أدرك بعد ما إذا كان استخدام ذلك الفعل مناسباً وأخذت أحل الأسباب. لم أكن أريدها لي وحسب، بل أريدها زوجة لي. هي، بوجهها القاسى الذى يعلو عودها الغض، هي كذلك على جديتها، ذلك أنها ما كانت لتفهم طباعى وما كنت لأنقلها لها، بل أتخلى عنها إلى الأبد حتى تعلمنى هي حياة التعقل والعمل. كنت أرغب فيها كاملةً وأريد منها كل شيء. وخلصت في النهاية إلى أن استخدام الفعل كان في موضعه هذا: كنت حقاً مغرماً بأدا.

ظننت أنني فكرت في شيء بالغ الأهمية يمكن أن يوجهنى. فلتنصرف الحيرة! لم أعد أبالى بما إذا كانت تحببني. كان على أن

أحاول الفوز بها، ولم تكن هناك ضرورة للحديث معها إن كان جوفاني يستطيع أن يقوم بذلك. كان ينبغي استيضاح كل شيء مباشرة لكي أصل سريعاً إلى السعادة، وإلا نسيت كل شيء وبرت منه. لماذا كان على أن أتعذب وقتاً طويلاً من الانتظار؟ لو علمت - وكنت أستطيع ذلك عن طريق جوفاني وحسب - أنني فقدت أدا إلى الأبد، لم يكن على الأقل هناك داع لأن أصارع الوقت الذي كان سيستمر في سيره البطيء دون أن أشعر بالحاجة إلى دفعه. فالأمر المحسوم ساكن دائماً، لأنه منفصل عن الزمن.

أسرعت في الحال بحثاً عن جوفاني. أخذت أجرى في اتجاهين. أحدهما إلى المكتب الذي يقع على ذلك الطريق الذي مازلنا نطلق عليه طريق المباني الجديدة، كما كان يفعل أسلافنا. إنها منازل شاهقة قديمة تعتم طريقاً قريباً جداً من شاطئ البحر غير مأهول في أثناء الغروب، وأستطيع عن طريقه أن أسير مسرعاً. لم أكن أفكر، وأنا أسير، إلا في إعداد موجز للجملة المناسبة التي كان ينبغي أن أقولها له. كان يكفي أن أخبره بقراري المحدد في الزواج من ابنته. لم أكن مضطراً لأن أستميله أو أقنعه. إن رجل الأعمال ذاك كان سيستنتج الإجابة للرد على بمجرد أن يصغى إلى سؤالي. وعلى الرغم من ذلك كانت تؤرقني مسألة ما إذا كان لابد أن أتحدث في مناسبة كذلك باللغة الفصحى أم بالعامية.

لكن جوفاني كان قد غادر المكتب وذهب إلى ترجستيو. توجهت إلى هناك. وعلى مهل؛ فكنت أعلم بأنني في البورصة، وعلى أن أنتظر طويلاً

حتى أستطيع الحديث إليه على انفراد. ثم، بعد أن وصلت إلى شارع كاثانا، كان على أن أبطئ، حيث كان حشد من المارة يعوق الطريق الضيق. وفي أثناء ما كنت أزاحم لكى أخترق الجمع، تراءى لى أخيراً فيما يشبه الرؤية ذلك التفسير الذى كنت أبحث عنه منذ ساعات عديدة. إن عائلة مالفنتى تود أن تزوجنى أوجوستا، وليست آدا لسبب بسيط، هو أن أوجوستا كانت مغرمة بى، أما آدا فلم تكن تهتم بى قط. على وجه الإطلاق وإلا لما كان تدخلهم للفصل بيننا. قالوا لى إننى أغوى أوجوستا، بل هى التى غامرت بحبها لى. أدركت كل شىء فى تلك اللحظة، بوضوح شامل، كأن أحدهم أخبرنى بذلك. وظننت أيضاً أن آدا كانت متفقة على إبعادى عن ذلك المنزل. كانت لا تحبى وإن تشعر بذلك الحب على الأقل مادامت أختها مغرمة بى. على طريق كاثانا المزدحم فكرت إذن بطريقة أصوب مما كان فى حجرة مكتبى المنعزل.

واليوم، عندما أستعيد بذاكرتى تلك الأيام الخمس المشهودة التى قادتنى إلى الزواج، أتعجب من نفسى التى لم تهدأ عندما علمت أن أوجوستا المسكينة كانت تحبى. كنت قد استبعدت وقتذاك عن منزل مالفنتى، وكنت غاضباً بسبب حبى لآدا. لماذا لم أرض بعدما رأيت أن السيدة مالفنتى أبعدتنى دون جدوى، فانا لم أبتعد عن ذلك البيت، بل ظللت شديد القرب من آدا، أقصد أنى كنت فى قلب أوجوستا؟ وقد كنت أرى فى دعوة السيدة مالفنتى لى بالأغوى أوجوستا، أى أن أتزوجها، إهانة جديدة لى. كنت أشعر بنفور شديد من تلك الفتاة الدميمة التى كانت تحبى، ذلك الشعور الذى ما كنت لأحتمله من أختها الجميلة التى أحبها.

مازلت أسرع خطواتي، لكنني غيرت المسار واتجهت إلى بيتي. لم تعد بي حاجة إلى الحديث مع چوڤاني، حيث كنت أدرك وقتئذ ما الذي أفعله بكل وضوح: وضوح يانس ربما يجلب على السكينة في نهاية الأمر وينأى بي عن الوقت الذي يمر ببطء شديد. كان أيضاً من الخطورة الحديث عن ذلك الأمر مع چوڤاني قليل الحياء. كانت السيدة مالفنتي قد تحدثت بأسلوب لم أدرك مغزاه إلا عندما كنت هناك في شارع كاثانا. كان الزوج قادراً على التصرف بصورة أخرى. ربما يصل به الأمر لأن يقول لي: "لم ترغب في الزواج من أدا؟ لنفكر معاً! أليس من الأفضل أن نتزوج أوجوستا؟". لأنه كان لديه حكمة كنت أتذكرها وربما كان سيتبعها في هذه الحالة: "عليك دائماً أن تفسر المسألة بوضوح لخصمك؛ لأنك فقط في تلك اللحظة ستكون على يقين من إدراكها أكثر منه". وماذا بعد؟ ربما تبع ذلك مقاطعة صريحة. وكان من الممكن في ذلك الحين فقط أن يمضي الوقت كيفما يشاء، فلن يحق لي حينئذ محاولات أخرى: ولو وصلت ساعتها إلى نقطة النهاية!

تذكرت أيضاً قاعدة أخرى قالها چوڤاني وتعلقت بها؛ لأنها كانت تمدني بآمال عظيمة. استطعت أن أنغلق بها خمسة أيام، خمسة أيام قد حولت عاطفتي إلى مرض. كان چوڤاني يعتاد القول بأنه لا ينبغي التسرع في تصفية صفقة عندما لا يمكن التوقع بالحصول على فائدة من هذه التصفية: إن كل صفقة تنتهي إن عاجلاً أم آجلاً إلى تصفية، كما يؤكد ذلك تاريخ البشرية من قديم الزمان؛ حيث إن صفقات قليلة

جداً ظلت معلقة. إن أية صفقة ما دامت لم تصل بعد إلى التصفية، فإن فرص النجاح لاتزال أمامها.

لا أتذكر إن كانت هناك مسلمات أخرى يعتمد عليها جوفاني، مخالفة في مضمونها. رأيت أن أتعلق بأي شيء. اتخذت قراراً حاسماً وهو ألا أتحرك حتى أتأكد من أن أمراً جديداً سيتم لمصالحى. وكان من أضرار ذلك أننى لم أتمسك لفترة طويلة بقرار اتخذته، مثلما تمسكت بذلك القرار.

وفور أن اتخذت القرار، وصلتني من السيدة مالفنتى رسالة. تعرفت على خطها على الظرف، وقبل أن أفتحه، توهمت أن قرارى الحاسم كان كافياً لكى تأسف على معاملتها السيئة لي ويدفعها للبحث عني. عندما وجدت أنه لا يوجد به سوى الحرفين "P, R" وهما اختصار للشكر على الزهور التي أرسلتها إليها، فقدت الأمل، وانطرحت على الفراش، وغرزت أسناني في الوسادة، كما لو أننى أتسمر بها، وأمتنع عن الإسراع إلى إيقاف قرارى. كم كانت السخرية ممزوجة بسعادتي عندما أدركت معنى الحرفين! كان إحساسى بالأمر يفوق ما عبر عنه التاريخ الذى كتبته عمداً على بطاقتي، وكان يعنى وقتئذ قراراً وربما عتاباً أيضاً. "تذكر"، قالها تشارل الأول^(١) قبل أن يطيحوا برأسه، ولا بد أنه فكر مسبقاً فى تاريخ ذلك اليوم! وأنا أيضاً قد دفعت خصمى للتذكر والشعور بالخوف!

(١) ملك إنجليزى (١٦٠٠-١٦٤٩) حكم عليه بالإعدام فى أعقاب محاولة انقلاب فى الدولة حولت إنجلترا لفترة وجيزة من الملكية إلى الجمهورية.

كانت خمسة أيام وخمس ليالٍ مريعة قضيتها وأنا أرقب الفجر والغروب اللذين يدلان على النهاية والبداية ويقربان ساعة حريتي، حرية أن أقاوم من جديد من أجل حبي.

كنت أتأهب لذلك الصراع، كنت أعلم أنذاك أن فتاتي تريدني رجلاً ناضجاً، ويسير على أن أتذكر القرارات التي اتخذتها في ذلك الحين، خاصة وأنني اتخذت مثلها منذ فترة قريبة العهد، فضلاً عن أنني دوتتها على ورقة مازلت أحتفظ بها. نويت أن أصير أكثر جدية. وهذا كان يعنى وقتها ألا أحكى تلك النكات التي كانت تضحكهم وتسبب إليّ، وجعلت أوجوستا الدميعة تقع أيضاً في حبي، ودفعت حبيبتي أدا إلى الشعور بالازدراء نحوي. ثم كان هناك قرار بالذهاب في الثامنة من كل صباح إلى مكتبي الذي لم أراه منذ فترة بعيدة، ليس لمناقشة حقوقى مع أوليقي، ولكن للعمل معه لأستطيع إدارة شئون أعمالى عندما يحين الوقت. ذلك القرار كان ينبغى أن ينفذ في فترة أكثر هدوءاً من تلك الفترة، كما كان على أيضاً أن أقلع عن التدخين فيمابعد، أى عندما أسترد حريتي، حيث كان يلزم ألا أزيد من سوء فترة الانتظار تلك المفزعة. كان يليق بأدا زوج كامل؛ لهذا كانت هناك أيضاً نيات عديدة منها الاهتمام بقراءات جادة، ثم ممارسة رياضة المشى نصف ساعة يومياً وركوب الخيل مرتين في الأسبوع. لم يكن هناك ما يكفى من ساعات اليوم الأربع والعشرين.

وفي أثناء أيام العزلة أصبحت الغيرة باللغة المرارة رفيقتى في كل لحظة. كان قراراً بطولياً أن أرغب في التخلص من أى عيب لكى أتأهب

لاستمالة قلب آدا بعد بضعة أسابيع. لكن فى تلك الأثناء؟ فى تلك الفترة التى كنت أخضع فيها لتضحية بالغة القسوة، هل كان شباب المدينة سيتحلون بضبط النفس ولن ينزعوا منى امرأتى؟ دون شك كان أحدهم لا يحتاج إلى تدريبات كثيرة ليحظى بالرضا. كنت أعلم، كنت أظن أنتى على علم بأن آدا إن عثرت على من يناسبها، سترضى مباشرة ودون انتظار بأن تغرم به. وفى أثناء تلك الأيام عندما كنت أقابل شاباً حسن المظهر، سليم البنية وصافى النفس، أبغضه، حيث كنت أراه ملائماً لآدا. فالشيء الذى أتذكره أكثر من غيره، فى تلك الأيام، كان الشعور بالغيرة التى أسبلت على حياتى كالضباب.

لا يمكن الاستخفاف بالشعور بذلك الشك الحاد فى أن يسلبوا منى آدا فى تلك الأيام، فمن المعروف من الآن فصاعداً كيف ستسير الأمور. عندما أعود لأيام العذاب تلك أشعر بإعجاب كبير بنفسى صاحبة النبوءة.

مرات عديدة، بالليل، مررت نحو نوافذ ذلك البيت. كان يبدو هناك من أعلى أنهم يتسامرون مثلما كنت أجلس معهم. فى منتصف الليل أو قبله بقليل، كانت تطفأ الأنوار فى حجرة الاستقبال. كنت أفر خشية أن يكتشفنى أحد الزائرين، وهو يغادر البيت فى تلك اللحظة.

هذا بالإضافة إلى أن كل ساعة فى تلك الأيام كانت تثير قلقى أيضاً بسبب نفاق صبرى. لم لم يسأل عنى أحد؟ لماذا لم يتحرك جوقانى؟ ألم يكن واجباً أن يندهش من عدم مجيئى للمنزل ولا لمكتب الترجستيو؟

هل كان إذاً مشاركاً لهم أيضاً فى الرأى على إبعادى عن المنزل؟ كنت أقطع رياضتى بالمشى، نهائياً وليلاً لكى أسرع إلى المنزل للتأكد من أن أحداً أتى للسؤال عني. لم أكن أستطيع الذهاب إلى الفراش وأنا فى شك، وكنت أوقظ ماريّاً المسكينة كى أسألها. كنت أمكث لساعات أترقب فى بيتى، فى المكان الذى يسهل فيه العثور على. لكن أحداً لم يسأل عني وأنا على يقين من أننى إذا لم أكن قد قررت اتخاذ البادرة بنفسى، لظللت عزباً إلى اليوم. ذات مساء ذهبت للعب فى النادي، لم أرتده منذ سنوات وفاءً لوعده عاهدت به أبى. رأيت أنه لم تعد هناك قيمة لذلك الوعد؛ حيث إن والدى لن يدرك تلك الظروف المؤلة التى كنت أمر بها وحاجتى الملحة للترويح عن نفسى. ربحت فى البداية من ضربة حظ كانت تؤلنى؛ لأننى رأيتها عوضاً عن تعاستى فى الحب. ثم أخفقت فى اللعب والمنى ذلك أيضاً؛ لأننى ظننت أنى استسلمت للعب كما أسلمت نفسى أسيراً للحب. وسرعان ما تقرزت من اللعب: لم يكن يليق بى ولا بأدا. يا لشدة ما جعلنى نقياً، ذلك الحب.

أدرك أيضاً أن أحلام الحب فى تلك الأيام قد محاها الواقع المرير. تحول الحلم إلى شىء آخر. كنت أحلم بالانتصار بدلاً من الحب. ذات مرة أسبغت زيارة لأدا جمالاً على نومى. كانت فى ملابس العرس، تزف معى حتى المذبح بالكنيسة، لكن عندما انفردنا معاً لم نمارس الحب، ولا حتى فى تلك اللحظة. كنت زوجها واتخذت لنفسى الحق فى أن أسألها: "كيف سمحت لنفسك أن تعاملينى على هذا النحو؟" ولم يلح على حق آخر.

عشرت فى درج على مُسودّات رسائل موجهة لأدا، ولجوفانى والسيدة مالفنتى. كانت تتعلق بتلك الأيام. كتبت للسيدة مالفنتى خطاباً بسيطاً أخبرها فيه بفترة تغيب لى قبل قيامى برحلة طويلة. ومع أنى لا أنكر أنى عقدت نية كنتك: لم أكن أستطيع أن أغادر المدينة وأنا أخشى أن يأتينى أحد للبحث عنى. ياله من سوء حظ إن أتوا ولم يجدونى! لم أرسل واحدة من تلك الرسائل. بل أظن أننى كتبتها لأسجل أفكارى على الورق وحسب. منذ سنوات عديدة وأنا أحسب نفسى مريضاً، لكنه مرض كان يعانى منه الآخر أكثر منى. أدركت حينئذ المرض "المؤلم"، وهو كم من الأحاسيس المادية غير المرغوب فيها التى جعلت منى شخصاً غاية فى البؤس.

بدأت على هذا النحو. فى الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً ولم يغمض لى جفن، نهضت وسرت فى ليلة جوها معتدل، حتى وصلت إلى مقهى من مقاهى الضاحية لم أذهب إليه من قبل؛ ولهذا لم أكن لأجد به أحداً يعرفنى، وكان ذلك مناسباً لى، حيث كنت أريد أن أكمل المناقشة مع السيدة مالفنتى، بدأتها فى فراشى وكنت أود ألا يتدخل أحد فيها. إن السيدة مالفنتى قد وجهت لى لوماً جديداً. قالت إننى حاولت أن "أغوى" بناتها. حتى وإن كنت حاولت شيئاً مشابهاً لفعلته دون شك مع أدا فقط. كنت أتصيب عرقاً بارداً عندما أفكر أنه ربما يثار فى منزل مالفنتى لوم مماثل. فالغائب دائماً على خطأ، وربما انتهزوا فرصة بعدى عن المنزل ليضيفوه لحسابى. وتحت الضوء الشديد الآتى من المقهى كنت

أدافع عن نفسي بصورة أفضل. فأنا على يقين من أنني حاولت في بعض الأحيان أن ألمس بقدمي قدم أدا، بل ظننت ذات مرة أنني فعلتها برضاؤها. ثم كانت النتيجة أنني ضغطت على قدم المائدة الخشبي الذي لا يمكن أن يكون قد أبلغهم بذلك.

تظاهرت بالاهتمام بلعبة البلياردو. دنا مني سيد يركز على عصاه، وجلس بجانبى مباشرة. طلب عصير ليمون، وحيث إن نادل المقهى كان ينتظر أيضاً طلباتي، أمرته وأنا شارد الذهن بإحضار عصير آخر من الليمون، على الرغم من أنني لم أكن أستسيغ مذاقه. وفي تلك الأثناء انزلقت على الأرض العصا التي كانت تركز على الأريكة التي كنا نجلس عليها، وانحنيت لالتقاطها بحركة تلقائية.

– أوه، تزينوا! صاح الأعرج المسكين، وقد تعرف على في اللحظة التي كان يود أن يوجه لي فيها الشكر.

– تولىوا! صحت وقد أدهشتني المفاجأة، ومددت له يدي للمصافحة. كنا زملاء بالمدرسة ولم ير بعضنا البعض منذ سنوات عديدة. كنت أعرف أنه، ما إن أكمل الدراسة بالمرحلة المتوسطة، حتى التحق بالعمل في أحد البنوك، حيث شغل مكاناً لا بأس به.

غير أنني كنت شاردًا، حتى إنني سألته بطريقة مفاجئة ما الذي حدث له وجعل ساقه اليمنى قصيرة بدرجة الاحتياج إلى عصا يتوكأ عليها.

وببشاشة، قص على أنه مرض منذ ستة أشهر بالآلام الروماتزمية
التي ألحقت الضرر بساقه.

أسرعت بإرشاده بنصائح عديدة، إنها الوسيلة المثلى للتظاهر
بمشاركة حية دون القيام بمجهود كبير. وكان قد فعلها جميعها؛ ومن ثم
نصحته بأخرى:

- ولم لم تذهب إلى فراشك حتى هذه الساعة؟ أرى أنه يؤذيك
التعرض للهواء ليلاً.

أخذ يمزح على نحو متسم بالود: كان يعتبر أن هواء الليل لا
يفيدني أنا أيضاً وأن من يعانى من الآلام الروماتزمية يمكنه أن يتغلب
عليها، مادام لا يزال على قيد الحياة. إن حق الذهاب إلى الفراش فى
الساعات الأولى من النهار قد أقره دستور النمسا أيضاً؛ ومن ثم فإن
الحر والبرد ليس لهما علاقة بمرض الروماتيزم، بخلاف الرأى العام.
كان قد درس طبيعة مرضه، بل لم يكن يفعل شيئاً آخر سوى تفحص
الأسباب وطرق العلاج. واحتاج إلى إجازة ممتدة من البنك لكى يتمكن
من التعمق فى تلك الدراسة أكثر من الراحة للعلاج. ثم حكى لى أنه كان
يتناول علاجاً غريباً. كان يأكل كل يوم كمية كبيرة من الليمون. التهم فى
ذلك اليوم ثلاثين ليمونة، بل كان يأمل بالتدريب أن يتمكن من تناول أكثر
من ذلك العدد. وأكد لى أن الليمون، حسب رأيه، يفيد فى أمراض أخرى
كثيرة. فمنذ أن تناوله أصبح لا يشعر بالاضطراب بسبب تدخينه الشره،
الذى كان أسيراً له هو الآخر.

انتابتنى رعشة عند رؤية تلك الكمية الكبيرة من الليمون، لكن، بعدها مباشرة، جاءتني رؤية أكثر بهجة للحياة: لا يروقني الليمون، لكنه لو منحني الحرية للقيام بكل ما على أو كل ما أبغى عمله دون أن يضرنى، بل يحررنى من كل القيود الأخرى، لالتهمت منه أنا أيضاً الكمية نفسها. إنها الحرية الكاملة أن يفعل المرء كل ما يشاء، بشرط أن يفعل أيضاً شيئاً لا يروقه كثيراً. إن العبودية الحقيقية ماهي إلا عقوبة الحرمان: تانتالوس وليس هرقل^(١).

ثم تظاهر توليو أيضاً بالقلق لمعرفة أخباري، عازمت على عدم إخباره بقصة حبي البائس، لكنني كنت في حاجة إلى الترويح عن نفسي، تحدثت بنوع من المبالغة عن آلامى (سجلتها على هذا النحو، وأنا على يقين من أنها كانت خفيفة) حتى إنني انتهيت إلى ذرف الدمع من عيني، في حين أخذ توليو يشعر بتحسن ملحوظ وقد ظن أنني مريض على نحو أخطر منه.

سألني إن كنت أعمل أم لا. الجميع في المدينة كانوا يقولون إنني كنت لا أفعل شيئاً وكنت أخشى من حسده، في حين أنني كنت في تلك اللحظة في حاجة شديدة لمن يشفق عليّ. كذبت!! أخبرته أنني كنت أعمل

(١) من ملوك الأساطير الإغريقية. عوقب الأول منهما بأن غمر إلى ذقنه في الماء وقد تدلت الأغصان المثقلة بالفاكهة قرب شفتيه، ولكن الماء أو الفاكهة كانا يرتدن بعيداً عنه كلما حاول بلوغهما، أما الثاني فهو بطل جبار اشتهر بمغامراته البطولية.

بمكتبي، ليس لفترة كبيرة، لكن على الأقل ست ساعات يوميا، بالإضافة إلى أن الأعمال المعقدة التي ورثتها عن والدي كانت تستغرق مني ساعات أخرى.

- اثنتا عشرة ساعة!- عَقَبَ توليو، وبابتسامة راضية، منحني ما كنت أطمح إليه، أي رثاءه لحالي:- أنت في وضع لا تحسد عليه!

جاءت النهاية موفقة وتأثرت كثيراً منها، حتى إنني اجتهدت ألا أترك المجال لدموعي. شعرت بالتعاسة أكثر من أي وقت مضى، وفي حالة الضعف تلك التي كنت أشعر فيها بالرثاء لنفسي، من الواضح أنني تعرضت للأذى.

استأنف توليو الحديث عن حالته المرضية التي كانت أيضاً السبب الرئيسي لشروود ذهنه. درس علم تشريح الساق والقدم. قص على ضاحكاً أنه عندما يسير المرء بخطوة سريعة، فإن الوقت الذي تستغرقه الخطوة لا يتعدى نصف الثانية وأنه في أثناء نصف الثانية تلك تتحرك ما لا يقل عن أربع وخمسين عضلة. أصابتني الدهشة وعلى الفور توجهت بفكري إلى ساقى، أبحث فيها عن تلك الآلية الهائلة. أظن أنني قد عثرت عليها. بالطبع لم أجد أربعاً وخمسين آلة، بل تعقيداً هائلاً فقد نظامه ما إن أقحمت فيه انتباهي.

خرجت من ذلك المقهى وأنا أعرج وظللت أعرج لبضعة أيام أخرى. وأصبح السير بالنسبة لي عبئاً ثقيلاً، ومؤلماً أيضاً بعض الشيء.

ويبدو أن الزيت كان يقل وقتئذ في تلك الكتلة المتشابكة من الأجهزة، وفي أثناء حركتها، كانت تتلف بعضها البعض. ومرت بضعة أيام، وأصبحت بمرض أشد خطورة خفف من آلام مرضى الأول وسأحدث عنه. ولكن حتى يومنا هذا، الذي أكتب عنه، إذا شاهدني أحد وأنا أتحرك، فإن الأربع وخمسين حركة تضطرب وأنا أوشك على السقوط.

إننى مدين بهذه العلة أيضاً إلى آدا. إن حيوانات كثيرة تقع فريسة للصيادين أو لحيوانات أخرى حينما تكون منشغلة بالحب. وقعت حينئذ فريسة للمرض وأنا على يقين من أننى إذا ما كنت قد تعرفت على تلك الآلية الضخمة في وقت آخر، لما أصابتني بأى ضرر.

وتذكرنى بعض الإشارات على ورقة احتفظت بها بمغامرة أخرى عجيبة حدثت لى فى تلك الأيام نفسها. كانت هناك محاولة لنظم قصيدة... عن ذبابة، إلى جانب تدوين لسيجارة أخيرة مصحوب بتعبير ينم عن ثقة بإمكانية الشفاء من علة الأربع وخمسين حركة. ولو لم أكن أعلم شيئاً عن تلك القصيدة، لظننت أن تلك الأبيات نظمتها أنسة دمثة الخلق تخاطب الحشرات التى تتغنى بها بصيغة "المخاطب"، لكن نظراً لأننى كتبتها بيدي، فقد أيقنت أنه مادمت مررت بذلك الطريق، فبالإمكان أن يجد أى إنسان نفسه فى أى مكان.

هاهى ذى قصة مولد تلك الأبيات. كنت قد عدت فى ساعة متأخرة من الليل إلى المنزل، وبدلاً من الذهاب إلى مخدعى توجهت إلى مكتبى وأشعلت مصباحاً يعمل بالغاز. على ضوءه أخذت تضايقنى ذبابة.

تمكنت من إصابتها بضربة، وإنما خفيفة لكي لا أتلوث. نسيبتها، لكنني بعد ذلك رأيتها تتوسط المنضدة وتستعيد قواها رويداً رويداً. كانت ثابتة، مستقيمة وتبدو أكثر طولاً عما قبل؛ لأن إحدى أرجلها تصلبت ولم تعد تستطيع ثنيها. أخذت في دأب تمسح بقدميها الخلفيتين على جناحيها. حاولت أن تتحرك، لكنها انقلبت على ظهرها. عاودت النهوض، وعادت في إصرار إلى عملها المتواصل.

في تلك اللحظة نظمت تلك الأبيات، وتعجبت وأنا أكتشف أن ذلك الجسم الضئيل الذي اجتاحه ألم شديد إنما يواجه خطأً في جهده ذلك المضمن: قبل أي شيء تبين أن الحشرة تكشف عن عدم درايتها عن أي الأعضاء يصدر الألم، وهي تمسح في عناد كبير على جناحيها السليمين؛ فضلاً عن أن مثابرتها في القيام بذلك المجهود تنم عن أن هناك إيماناً راسخاً في عقلها الضئيل بأن الصحة من حق الجميع، وأنها عندما تتركنا لابد أن تعود. إنها أخطاء يمكن أن تغتفر في حشرة لا تعيش سوى حياة من فصل واحد، وليس لديها وقت كافٍ لاكتساب الخبرة.

غير أن يوم الأحد قد أتى. انتهى اليوم الخامس منذ زيارتي الأخيرة لمنزل مالفنتي. كنت أحمل دائماً احتراماً كبيراً، وأنا الذي يعمل لفترات قصيرة جداً، ليوم العطلة الذي يقسم الحياة إلى فترتين وجيزتين، مما يجعلها أكثر احتمالاً. فضلاً عن أن هذا اليوم ينهي أسبوعاً مضمناً واستحق ما يجلبه من فرح. لم أبدل خططي على الإطلاق، لكن كان يتحتم

أن تفقد أهميتها فى ذلك اليوم الذى أرى فيه آدا، لم أكن لأفسد تلك الخطط ببعض الكلمات، لكن كان على أن أراها ثانية، ولعل القضية تسير لصالحى ويصبح حينئذ استمرارى فى العذاب خسارة كبيرة.

ومن ثم، ففى وقت الظهيرة، وبالسرعة التى كانت تسمح بها ساقاى المسكينتان، أسرعت إلى المدينة وإلى الطريق الذى كنت أعلم أن السيدة مالفنتى وبناتها لابد أن يسرن به فى أثناء عودتهن من القداس. كان يوم عيد مشرقاً، وفى أثناء سيرى، جال بخاطرى أنه ربما تنتظرنى بالمدينة تلك البشرى التى أترقبها، حب آدا!

لم يكن الأمر كذلك، لكن الأوهام لعبت بى للحظة أخرى. صادفنى الحظ بصورة لا يمكن تصديقها. تقابلت وجهاً لوجه مع آدا، مع آدا فقط. شلت خطاى وتوقفت أنفاسى. ماذا أفعل؟ كان فى نيتى أن أنتحى جانباً، وأن أدعها تمضى بتحية لائقة. لكن تشوش فكرى. وكانت هناك فى البداية نيات أخرى أتذكر واحدة منها، وهى أن أتحدث إليها بوضوح وأن أعرف مصيرى من فمها. ولم أنتح جانباً وفى اللحظة التى حيتنى فيها، وكأننا قد افترقنا منذ خمس دقائق، رافقتها.

قالت لى:

– عمت صباحاً، يا سيد كوزينى! إننى فى عُجالة من أمرى.

فقلت:

– هل تسمحى لى أن أرافقك فى الطريق؟

قبلت وهى تبتسم. لكن هل كان لى إذن أن أحدثها؟ أضافت أنها ذاهبة مباشرة إلى بيتها؛ لذا أدركت أنه ليس متاحاً لى إلا خمس دقائق للحديث معها، وكنت قد فقدت أيضاً منها جزءاً فى حساب ما إذا كان الوقت يكفى للأشياء الهامة، التى لابد أن أبلغها بها. ألا أبلغها بها خير من ألا أبلغها بها بكاملها. كان الاضطراب يسيطر أيضاً على؛ لأنهم فى مدينتنا كانوا يحسبونه حينئذ أمراً مثيراً للشبهات أن تسمح فتاة برفقة شاب لها بالطريق. إنها سمحت لى بذلك. ألم يكن فى استطاعتى أن أمتلى بالرضا؟ فى تلك الأثناء كنت أ تأملها، وأنا أحاول أن أشعر من جديد بالحب كاملاً بما يشويه من غضب وشك. أعساى على الأقل أستعيد أحلامى؟ كانت تبدو لى صغيرة وكبيرة فى الوقت نفسه، بانسجام قوامها. عاودتنى الأحلام وتدافعت حتى وأنا بجانبها، وهى حقيقة. إنه كان أسلوبى فى إشباع رغبتى وقد عدت إليه بفرحة غامرة. وأخذت تختفى من داخل نفسى أى آثار لغضب أو بغض.

لكن سمعنا من خلفنا نداءً متعلثماً:

– هل تأذنى، يا آنستى!

التفت وأنا أتميز من الغيظ. من كان يجرؤ على مقاطعة التفسيرات التى لم أكن قد بدأتها بعد؟ كان فتى لم تنبت لحيته بعد، أسود الشعر وشاحب الوجه، ينظر إليها بعينين حائرتين. ويدورى نظرت إلى أدا بأمل كاذب أن تطلب مساعدتى. كانت تكفى إشارة منها، حتى أنقض على ذلك الشخص كى أسأله عن سبب جراته. وليته كان يلح! كانت آلامى

ستشفى على الفور لوأتيح لى أن أترك العنان لنفسى فى تصرف يتميز
بالقوة والخشونة.

لكن آدا لم تبدِ أية إشارة. وبابتسامة عفوية غيرت رسم وجنتيها
وفمها بل وبريق عينيها أيضاً، صافحته باليد قائلة:

– السيد جويدو!

إن اسمه ذلك أذانى. فلقد نادتنى، منذ قليل، بلقب عائلتى.

تأملت جيداً السيد جويدو ذاك. كان يتألق فى لباس مبالغ فيه
ويمسك بيده اليمنى المكتسية بقفاز عصا بالغة الطول لها مقبض عاجى،
ما كنت لأستخدمها ولو دفعوا لى من المال عن كل كيلو متر أمشيته. لم
أؤنب نفسى على أن وصل بى الإحساس لرؤية تهديد لآدا يأتى من شخص
كهذا. هناك أشخاص من غير الموثوق بهم يرتدون أزياء أنيقة ويمسكون
أيضاً بعصى كتلك.

زجت بى ابتسامة آدا داخل أشد التعاملات الاجتماعية شيوعاً.
عرفت آدا أحدها بالآخر. وابتسمت أنا أيضاً! كانت ابتسامة آدا تذكر
باهتزاز الماء الصافى مع لمسة نسمة ناعمة. وكانت ابتسامتى أنا أيضاً
تشبه حركة معائلة، لكنها من حصاة ألقيت فى الماء.

كان يدعى جويدوسبير. وصارت ابتسامتى أكثر عفوية حيث أتيحت
لى فرصة توجيه ما يسىء له من كلام:

– هل سيادتكم المانى الجنسية؟

أجابنى بأسلوب مهذب أنه يعرف أن الجميع ربما يظنونه ألمانياً بسبب الاسم. فى حين كانت وثائق عائلته تثبت أن أصلها إيطالى منذ قرون عديدة. كان يتحدث بلهجة إقليم توسكانا بتلقائية شديدة، فى حين حكم على أنا وأدا بلهجتنا الدارجة الفجة.

كنت أحملق فيه لكى أتمكن من سماع ما يقوله بصورة أفضل. كان شاباً جميلاً جداً: كانت شفثاه منفرجتين بشكل طبيعى وتكشفتان عن أسنان ناصعة البياض ورائعة الشكل. كانت عينه نابضة ومعبرة، وعندما كشف رأسه، استطعت أن أرى شعره المجعد بعض الشيء ذا اللون الداكن، يكسو المساحة التى منحتها له الطبيعة الأم، فى حين اجتاح جبينى قسماً كبيراً من رأسى.

كنت سأمقته حتى ولو لم تكن أدا حاضرة، لكنى كنت أعانى من ذلك البغض، وحاولت أن أخفف من حدته. أخذت أفكر: - إنه يصغرها فى السن، ثم جال بخاطرى أن الود واللفظ اللذين تتعامل بهما معه ربما كانا استجابة لأمر من والدها. ربما كان شخصية ذات أهمية بالنسبة لأعمال السيد مالفنتى، وتصورت أنه من الواجب على العائلة أن تتعاون جميعها فى مثل هذه الحالات. سألته:

- هل تستقر، سيادتك فى تريستى؟

أجابنى أنه يقيم بها منذ شهر، حيث يقوم بتأسيس دار تجارية. تنفست الصعداء! ربما أصبت فى تخمينى.

أخذت أسير وأنا أعرج، لكن فى عدم اكتراث، فما من أحد، فيما رأيت، كان يلحظ ذلك. كنت أنظر إلى آدا، محاولاً أن أتناسى كل شيء بما فى ذلك الشخص الذى كان يرافقنا. فى واقع الأمر أنا رجل الحاضر ولا أفكر فى المستقبل، مادام لا يعتم الحاضر بظلال واضحة. كانت آدا تسير بيننا وقد انطبع على وجهها، تعبير غير محدد من الانشراح يكاد يصل إلى الابتسامة. تلك الفرحة كانت تبدو لى جديدة. لمن كانت توجه تلك الابتسامة؟ أليست لى فهى لم ترنى منذ وقت بعيد؟

أنصت إلى حديثهما. كانا يتحدثان عن استحضر الأرواح، وعلمت على الفور أن جويدو أدخل المائدة الناطقة فى منزل مالفنتى.

كنت أتحرق من شدة الرغبة فى التأكد من أن الابتسامة العذبة التى كانت تهيم على شفتى آدا كانت لى. وتدخلت فى موضوع حديثهما، مرتجلاً قصة عن الأرواح. ما من شاعر يستطيع أن يرتجل أفضل منى أبياتاً مقفاة عندما تتطلب الحاجة. ولما لم أكن أعرف كيف سينتهى بى أمر القصة، أخذت أعلن أنى أؤمن أنا أيضاً بالأرواح بسبب قصة حدثت لى فى اليوم السابق فى ذلك الطريق نفسه....!.... بل فى طريق مواز له كنا نراه. ثم قلت بعد ذلك إن آدا كانت تعرف هى أيضاً الأستاذ برتينى الذى وافته المنية منذ وقت ليس ببعيد فى مدينة فلورنسا، حيث كان قد استقر بها بعد إحالته إلى المعاش. علمنا بوفاته من خبر صغير نُشر فى جريدة محلية وقد نسيته، حتى إننى فى الحقيقة، عندما كنت

أفكر في الأستاذ برتينى، كنت أراه يتنزه في منطقة كاشينى^(١) في مستراحه الجدير به، ثم إنه، في اليوم السابق، وفي نقطة حددتها في الطريق الموازى للطريق الذى كنا نسير به، دنا بالقرب منى رجل يعرفنى وأنا متأكد من معرفته. كانت طريقة سيره غريبة تشبه طريقة امرأة هزيلة تتلمس خطواتها....

– بالتأكيد! ربما كان السيد برتينى! قالت آدا ضاحكة.

كانت الضحكة لى واسترسلت متحمساً:

– كنت أعرفه، لكننى لم أستطع أن أتذكره.

تحدثنا في السياسة. إنه السيد برتينى؛ لأنه تكلم عن كثير من تلك الحماقات، وبصوته ذلك الذى يشبه صوت العنزة:

– وأيضاً صوته! أخذت آدا تضحك وهى تنظر إلى فى ترقب لمعرفة نهاية القصة.

نعم! لابد وأنه كان الأستاذ برتينى، قلت متظاهراً بالفرع من ذلك الممثل العظيم الذى ضاع بداخلى. صافحنى باليد للاستئذان وانصرف وهو يمشى بخطى خفيفة. تابعتة لبضع خطوات وأنا أحاول أن استوضح الأمر. اكتشفت أنتى كنت أتحدث مع الأستاذ برتينى فقط عندما غاب عن عينى. مع السيد برتينى الذى لقي حتفه منذ عام مضى!

(١) منطقة شاسعة خضراء على ساحل نهر الأرنو، غرب فلورنسا.

بعد قليل توقفت أمام باب منزلها . صافحت جويدو باليد، وقالت له إنها تنتظره في المساء. ثم، حيتتى أنا أيضاً، وطلبت منى أن أذهب لزيارتهم في تلك الليلة لكي نحرك تلك المائدة الصغيرة إن لم يكن ذلك يصيبني بالضجر.

لم أجب ولم أشكرها . كان على أن أدرس تلك الدعوة بدقة قبل أن أقبلها. هئى لى أن كان لها نعمة المجاملة الواجبة. ها هو ذا: ربما كان يوم الإجازة يميل للانتهاء بالنسبة لى بذلك اللقاء. لكننى أردت أن أظهر لطيفاً كى أترك كل الطرق مفتوحة أمامى، حتى بقبول تلك الدعوة. سألتها عن چوڤانى الذى كان يلزم أن أتحدث معه. أجابتنى أنتى سأجده فى مكتبه حيث ذهب لأمر عاجل.

وقفت أنا وجويدو لبضع لحظات تتأمل تلك الجميلة الأنيقة وهى تختفى فى عتمة مدخل البيت. لا أدرى ما الذى كان يفكر فيه جويدو فى تلك اللحظة، وبالنسبة لى، كنت أشعر بمنتهى التعاسة؛ هل لأنها لم توجه تلك الدعوة لى أولاً ثم لجويدو؟

عدنا معاً إلى السير، فى الموضع الذى التقينا فيه مع آدا بالتقريب. كان جويدو، مهذباً ولبقاً (كانت اللباقة بالتحديد هى الشئ الذى كنت أحسد الآخرين عليها) وأخذ يتحدث عن تلك القصة التى ارتجلتها وأخذها بمحمل الجدية. لكن الشئ الحقيقى، فى تلك القصة ها هو ذا: بمدينة تريستى، وحتى بعد وفاة الأستاذ برتينى، كان يعيش إنسان يتحدث عن تلك الحماقات، يسير بطريقة يبدو وكأنه يتحرك على أطراف

قدميه وكان له أيضاً صوت غريب. كنت قد تعرفت عليه فى تلك الأيام،
والحظة، ذكرنى بالأستاذ برتينى. لم يكن يسوعنى أن جويدو أجهد فكره
لدراسة قصتى تلك المخلقة. استقر الأمر على ألا أبغضه؛ لأنه لم يكن
بالنسبة لعائلة مالفنتى أكثر من تاجر ذى أهمية؛ لكنه كان لا يروق لى
لأناقته المدرسة وعصاته. بل كنت أراه سخيلاً، حتى إننى كنت متلهفاً
للتخلص منه. سمعته وهو يبدى رأيه:

- هناك احتمال أيضاً أن يكون الشخص الذى تحدثتم معه أكثر
شباباً من السيد برتينى، يسير كالجندى القوى البنية وبصوته رجولة،
والتشابه معه ربما يقتصر على الحديث عن حماقات. قد يبدو ذلك كافياً
لتثبيت تفكيركم على السيد برتينى. لكن كى نقر هذا، ينبغى أيضاً أن
ننتبه إلى أن سيادتكم شخص يشرد ذهنه كثيراً.

لم أتمكن من تقديم المساعدة له فى محاولاته:

شارد الذهن؟ يالها من فكرة! إننى رجل أعمال. إلى أين سأنتهى
إذا ما كنت شارداً الذهن؟ ثم رأيت أننى أهدر وقتى. كنت أبغى رؤية
چوئانى. وبما أنى قابلت الابنة، يمكننى أيضاً أن أقابل الوالد الذى يقل
كثيراً عنها فى الأهمية. كان على أن أسرع ما دمت أرغب فى العثور
عليه فى مكتبه.

استرسل جويدو فى البحث عن قدر الجانب الذى يمكن أن يرجع
فى المعجزة إلى شرود ذهن من يقوم بها أو ذهن من يشاهدها. أردت أن

أستأذن بالانصراف، وأبدو على الأقل على سجيتي مثله؛ ومن هنا أتت السرعة في مقاطعته وتركه التي كانت شديدة الشبه بحركة فظة:

- أرى أن المعجزات موجودة وغير موجودة. لا ينبغي أن نعقدها بقصص كثيرة. لابد أن نؤمن بها أو لا نؤمن، وفي كلتا الحالتين فالأمور يسيرة للغاية.

لم أكن أبغى أن أشعره بنفوري، وأعتقد في الحقيقة أنني كنت أتساهل معه في الحديث؛ لأنني رجل واقعي عن اقتناع مني ولا أؤمن بالمعجزات. غير أنه تنازل عن رأيي في غير رضى.

ابتعدت وأنا أعرج بشكل أشد من أى وقت مضى، وتمنيت ألا يشعر جويدو بالرغبة في النظر إلى من خلفي.

كان من الضروري حقاً أن أتحدث مع چوڤانى. وكان مع ذلك سيعرفنى كيف أتصرف فى تلك الليلة. تلقيت الدعوة من آدا، ومن سلوك چوڤانى كنت سأتمكن من معرفة ما إذا كان ينبغي أن أقبل الدعوة أو أن أتذكر، على عكس ذلك، أن تلك الدعوة كانت تخالف الرغبة التى عبرت عنها السيدة مالفنتى. كنت أحتاج إلى الوضوح فى علاقاتى مع هؤلاء الناس، وإذا كان يوم الأحد لا يكفى لأصل إليها، فسأخصّص لذلك يوم الاثنين أيضاً. أخذت أخالف قراراتى دون أن أفطن إلى ذلك. بل ظننت أنني أنفذ قراراً اتخذته بعد خمسة أيام من التأمل. هكذا كنت أخطط لنشاطى فى تلك الأيام.

احتفى بى چوئانى بتحيةة جميلة صاخبة، طمأنتنى، ودعانى
لأخذ مكان على أريكة لصيقة بالحائط المقابل للمكتب الذى كان
يجلس إليه.

- خمس دقائق وأتفرغ لك على الفور! وبعدها مباشرة: -
ولكن أتعرج؟

احمر وجهى! لكننى كنت على استعداد للارتجال، أخبرته أننى
انزلت على الأرض وأنا أغادر المقهى، وحددت بالفعل المقهى الذى وقع
به الحادث. خشيت أن يعزو سقوطى إلى ذهاب عقلى من تأثير الكحول،
فأضفت وأنا أضحك أنه عندما سقطت كان فى رفقتى إنسان يعانى من
الآلام الروماتزمية وكان يعرج.

كان يقف بجوار مكتب چوئانى موظف وحمّالان. يبدو أنه حدث
بعض الخلل فى عملية تسليم بضائع، ودخل چوئانى فى إحدى مناقشاته
الحادة عن إدارة مخزنه الذى قلما اهتم به رغبة منه فى إفراغ ذهنه كي
يعمل فقط - كما كان يقول - ما لا يستطيع عمله أحد بدلاً منه. كان
يصيح أكثر من المؤلف، كأنما أراد أن يحفر تعليماته فى أذان تابعيه.
أعتقد أن المسألة كانت تتعلق بتحديد أسلوب التعاملات التى ينبغى أن
تتم بين المكتب والمخزن.

- هذه الورقة - أخذ چوئانى يصيح وهو ينقلها من يده اليمنى إلى
اليسرى وقد انتزعها من دفتر - ستوقع عليها وسيعطيك الموظف الذى
سيتسلمها ورقة أخرى مطابقة عليها توقيع.

كان يحدّق في وجوههم تارة عبر نظارته وتارة أخرى من فوقها،
ويختم حديثه بصياح آخر:

- هل فهمتم؟

كان يرغب في تكرار عملية الشرح من البداية، لكن الأمر كان يبدو
لي مضيعة كبيرة للوقت. كان لدى شعور غريب بأنّي إذا تعجلت فساكسب
الجملة من أجل آدا، في حين أنّي أدركت بعدها وكانت دهشتي لذلك
كبيرة أن أحداً لا ينتظرني وأنّي لا أنتظر أحداً، ولم يكن هناك شيء
ينبغي القيام به من أجلّي. ذهبت إلى جوفاني ویدی ممدودة:

- سأقوم بزيارتك هذا المساء.

دنا منّي على الفور، في حين اتخذ الآخرون جانباً.

- لم ترك منذ وقت طويل؟ سألني ببساطة.

أخذتني الدهشة حتى أربكتني. كان هذا السؤال بالفعل ما لم
توجهه آدا لي، وكنت جديراً به. ولو لم يكن هؤلاء الآخرون حاضرين،
لتحدثت معه بصراحة وقد وجه لي هذا السؤال وأثبت لي براعته من
مؤامرة كنت أشعر بها، وقد دُبرت ضدي في ذلك الحين. كان هو البريء
الوحيد الذي يستحق ثقتي.

ربما لم يُسعفني تفكيري حينئذٍ لاستوضح الأمر، ويدل على هذا
أنّي لم أصبر حتى ينصرف الموظف والعمال. ومع ذلك كنت أريد أن

أدرس بدقة قدوم جويدو الذى لم يكن فى الحسابان، وكيف أنه ربما أعاق
أدا من طرح هذا السؤال على.

لكن چوڤانى أعاق حديثى هو الآخر، وهو يبدى رغبة كبيرة فى
العودة إلى عمله.

- سنتقابل إذن هذه الليلة. ستستمع إلى عازف كمان لم تسمعه
من قبل. يقدم نفسه كعازف هاوٍ فقط لآلة الكمان، فلهذه أموال كثيرة
ويترفع عن أن يجعل من عزفه مهنة. عزم على التخصص فى مجال
التجارة. - رفع منكبيه تعبيراً عن استهائته بالفكرة - فأتا، على الرغم
من حبه للتجارة، لو كنت فى مكانه لما بعث غير الألحان. لا أدري إذا
ما كنت تعرفه. إنه يدعى جويدو سبيير.

- حقاً؟ حقاً؟ - قلت وأنا أتصنع المجاملة، وأهز رأسى وأحرك
فمى كلما أمكننى تحريكه بإرادتى. ذلك الشاب اليفع يستطيع أيضاً
العزف على آلة الكمان؟ - حقاً؟ حسن جداً؟ كنت أتمنى أن يكون
چوڤانى مازحاً وأنه يقصد بمبالغته تلك فى الثناء عليه أن جويدو ليس إلا
عازف كمان سيئ. لكنه داوم على هز رأسه معبراً عن إعجاب شديد به.
ضغطت على يده قائلاً:

- إلى اللقاء!

اتجهت وأنا أعرج صوب الباب. انتابنى الشك فتوقفت. ربما كان
من الأفضل ألا أقبل الدعوة، وفى تلك الحالة على أن أخطر چوڤانى بذلك.

التفت لأعود إليه، لكننى انتبهت حينئذ إلى أنه يرمقنى بانتباه شديد،
وقد مد جسمه إلى الأمام ليرانى عن كثب. لم أتحمل ذلك وانصرفت!

عازف كمان! إذا كان بالفعل يعزف الكمان بهذه المهارة، فأنا، ببساطة،
رجل محطم. ليتنى على الأقل لم أعزف تلك الآلة، أو لم أندفع للعزف
عليها فى بيت آل مالفنتى. هناك حملت معى آلة الكمان ليس لغزو قلوبهم
بعزفى عليها، ولكنها كانت ذريعة منى لإطالة زيارتى لذلك المنزل. كنت
أبله! ليتنى لجأت إلى أعذار كثيرة أخرى غير شائكة!

لن يستطيع أحد أن يقول إننى أستسلم للأوهام فيما يخصنى.
أدرك أننى أتمتع بإحساس مرهف بالموسيقى ولا أبحث عن الموسيقى
الأكثر تعقيداً عن تكلف، بل إن إحساسى المرهف بالموسيقى ذاته يحذرنى
وقد نبأنى منذ سنوات، أننى لن أتمكن أبداً من العزف بأسلوب يسعد
من ينصت إلىّ. وعلى الرغم من ذلك فمواصلتى للعزف ترجع إلى السبب
نفسه الذى من أجله أستمر فى العلاج. ربما استطعت أن أعزف جيداً
لو لم أكن مريضاً، وأسعى وراء صحتى حتى وأنا أسعى وراء ضبط
الأوتار الأربع. هناك شلل طفيف فى تكوينى، وينكشف كليه على آلة
الكمان؛ ولهذا يسهل الشفاء منه. فأكثر الناس جهلاً بفن العزف عندما
يعلم ما هى ثلاثيات النغم أو رباعياتها أو سداسياتها، يستطيع أن ينتقل
من الواحدة منها إلى الأخرى بإيقاع سليم، مثلما تنتقل عيناه بالنظر
من لون إلى آخر. أما عنى فعندما أعزف أحد تلك الأشكال، تتعلق بذاكرتى
ولا أتخلص منها أبداً، لدرجة أنه يندس فى الشكل التالى له ويمسحه.

وحتى أضع النغمات فى موضعها يلزمنى أن أزن الإيقاع بقدمى وبرأسى، ولكن وداعاً للتمكن، وداعاً لصفاء النفس، وداعاً للموسيقى، فالموسيقى التى تتبعث من جسم متزن ما هى إلا ذلك الإيقاع الذى تبدعه وتبعثه. وعندما أستطيع العزف على هذا النحو أكون قد شفيت.

فكرت للمرة الأولى فى أن أترك هذا المجال، أن أغادر مدينة تريستى وأذهب بحثاً عن الراحة فى مكان آخر. لم يكن هناك شىء يبعث بالأمل. فقدت أدا. كنت على يقين من ذلك! ألم أكن أعرف، أنها ستتزوج من رجل بعد أن تتفحصه وتزنه كأنما يتعلق الأمر بمنحه وساماً أكاديمياً؟ بدا لى الأمر مضحكاً؛ لأن آلة الكمان لا تدخل بالفعل بين البشر فى حساب اختيار الزوج، ولكن هذا لم ينصفنى. كنت أشعر بأهمية ذلك النغم. كانت أهميته بالغة كما هو الحال لدى الطيور المفردة.

قبعث فى حجرة مكتبى، ولم ينته بعد يوم العطلة بالنسبة للآخرين! أخرجت الكمان من الحافظة، وترددت فى أن أحطمه تحطيماً أو أعزف عليه. ثم جريت العزف عليه كأنما أردت أن ألقى عليه الوداع الأخير، وفى النهاية أخذت أتدرب على عزف كرويتزر^(١) الخالد. فى المكان ذاته الذى وقفت فيه جعلت القوس يقطع الكيلومترات الكثيرة، غير أننى فى شتات فكرى ذاك أخذت أقطع المزيد منها بصورة آلية.

(١) مؤلف موسيقى فرنسى شهير.

إن كل الذين أعطوا اهتمامهم لتلك الأوتار الأربع اللعينة يدركون أنه، ما دام المرء يعيش منعزلاً فإنه يظن أن أى مجهود ضئيل يحمل ما يقابله من تقدم. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فمن يقبل أن يضع نفسه تحت طائلة تلك الأعمال الشاقة التى لا نهاية لها، كما لو تعثر حظه وقتل شخصاً؟ وبعد فترة قصيرة بدا لى أن معركتى مع جويدو لم أخسرها بشكل حاسم. من يدري ربما اتاحت لى الفرصة لأضع نفسى بين جويدو وآدا بآلة كمان ظافرة؟

لم يكن غروراً منى، لكنه شعورى بالتفاؤل الذى لم أستطع أن أتخلص منه قط. يفرغنى فى بادئ الأمر أى تهديد بكارثة، ثم سرعان ما أنساه فى ثقة أكيدة بتمكنى من تحاشيه. ثم إن الأمر كان لا يتعدى تحسين حكمى على قدراتى فى العزف على الكمان. وبوجه عام نعلم أنه فى مجال الفنون ينشأ الحكم المؤكد من المقارنة، التى لا تتوافر فى هذا المكان. ثم إن آلة الكمان الخاصة تصدر صداها قريباً جداً من الأذن التى تعرف طريقها المختصر إلى القلب. فما إن شعرت بالتعب، حتى توقفت عن العزف وحدثت نفسى:

– أحسنت يا تزيينو، كسبت قوتك.

دون تردد ذهبت إلى عائلة مالفنتى. لقد قبلت الدعوة ولم أعد أستطيع التراجع. وجدتتها بشرى طيبة لى أن تقابلنى الخادمة بابتسامة لطيفة وأن تسألنى عما إذا كان قد حدث لى مكروه سبب عدم مجيئى لفترة طويلة.

أعطيتها بعض النقود، فعلى لسانها وجهت لى العائلة بأسرها ذلك السؤال،
فهي التي كانت تمثلها.

قادتني إلى قاعة الجلوس التي كانت شاسعة الأبعاد تحت وطأة
الظلام. ولما وصلت إليها عبر مدخل شديد الإضاءة، لم أر شيئاً لفترة
قصيرة، ولم أسمح لنفسي بالحركة. ثم لمحت أشخاصاً مختلفون يلتفون
حول منضدة صغيرة، على مسافة منى، فى مؤخرة الحجرة.

جاءتني التحية من صوت أدا الذي غمر أحاسيسي وسط الظلام.
كان باسمًا، كان لمسة ناعمة:

- استرح، فى هذا المكان ولا تزعج الأرواح! ولو استمرت على هذا
النحو، لما أزعجتهم دون شك.

ومن جانب آخر من المنضدة سمعت صدى لصوت آخر، ربما كانت
ألبرتا أو أوجوستا:

- إذا أردت أن تشارك فى عملية الاستحضار، ما زال يوجد هنا
مكان خال.

عزمت على ألا أتنحى جانباً، وتقدمت بحسم تجاه المكان الذي
أنتنى منه تحية أدا. ارتطمت ركبتى بإحدى زوايا المنضدة الفيتتسية
التي كانت مملوءة بالزوايا. تأملت منها ألماً حاداً، لكننى لم أتوقف وسقطت
على مقعد لا أدري من قدمه لى، يتوسط فتاتين، إحداهما كانت تجلس
على يمينى، حسبتها أدا والأخرى أوجوستا. وفى الحال، كى أتفادى أى

حديث مع هذه الأخيرة، اندفعت نحو الأخرى، لكن انتابني الشك فى
أننى كنت مخطئاً، فسألت التى كانت عن يمينى كى أسمع صوتها:

- هل توصلتم بالفعل إلى شىء من التعامل مع الأرواح؟ قاطعنى
جويدو، الذى يبدو أن كان جالساً فى مواجهتى.

وصاح بلهجة أمرة:

- هدوء!

ثم أضاف بنبرة أكثر اعتدالاً:

- ركزوا انتباهكم، وفكروا بإمعان فى الميت الذى تريدون أن
تستحضروا روحه.

إننى لا أكن عداء لأى نوع من المساعى لاستكشاف العالم الآخر.
لكنى اغتظت لأننى لم أدخل تلك المائدة منزل چوئانى، وقد حظت بكل
هذا النجاح، لم أشعر بالرغبة فى المثول لأوامر جويدو؛ ولهذا لم أستغرق
على الإطلاق فى التأمل، ثم لمت نفسى لوماً كبيراً؛ لأننى سمحت بأن
تسير الأمور إلى ذلك الحد دون أن أتحدث بوضوح مع آدا، فقد كانت
الفتاة بجوارى، فى تلك الظلمة المواتية، وكان بإمكانى أن أفسر كل
شىء، استوقفتنى فقط عنوبة الجلوس بجوارها بعد أن خشيت أن
أفقدّها للأبد. كنت أحس بنعومة النسيج الدافئ الذى يلامس ملابسى،
وأخذت أفكر أيضاً فى كيف أننا قرييون بهذه الصورة من بعضنا،

وتلمس قدمي قدمها الصغيرة التي كما كنت أعلم يكسوها في المساء
حذاء لامع يعلو الكاحل. كان بلا شك إحساساً يفوق الحد بعد عذاب
استمر لفترة طويلة للغاية.

استأنف جويدو الحديث قائلاً:

- أرجوكم، استغرقوا في التأمل. أَلحوا الآن في الطلب من الروح
التي تستحضرونها أن تظهر وتحرك المائدة. كان يروق لي أنه منشغل
بالمضادة. وصار واضحاً أن آدا تستسلم لتحمل قرابة ثقل كله! إن لم
تكن أحببتني، ما طاقت ذلك. حانت لحظة المصارحة. رفعت يدي اليمنى
عن المضادة، وشيئاً فشيئاً وضعت ساعدي على خصرها:

- أحبك، يا آدا! قلت بصوت خافت، ودنوت بوجهي منها حتى
أسمعها ضوتي بصورة أفضل.

لم تجب الفتاة في الحال. ثم، بصوت هامس، لكنه كان صوت
أوجوستا، سألتني:

- لم لم تأتِ منذ فترة طويلة؟

كادت المفاجأة والشعور بالاستياء توقعني من مقعدي. وأحسست
على الفور أنه إن لزم أن أبعد تلك الفتاة المزعجة عن مصيري، فعلى مع
ذلك أن أعاملها بالاحترام الذي يوليه فارس دمث الخلق مثلي، للمرأة
التي أحبته حتى وإن كانت المرأة الدميمة التي لم يخلق مثلها قط. كم
كانت تحبني! كنت أشعر بحبها وسط ألامى. كان حبها بلا شك هو الذي

أملى عليها ألا تقول لى إنها ليست آدا، بل أن توجه لى السؤال الذى انتظرتة عبثاً من آدا، فى حين كانت هى بالتاكيد قد تأهبت لتوجيهه لى مباشرة ما إن ترانى مرة أخرى.

انسقت وراء فطرتى ولم أجب عن سؤالها، لكن، بعد لحظة تردد، قلت لها:

- على الرغم من هذا يسعدنى أننى بحث لك بسرى، يا أوجوستا،
فأنا أثق فى قدر طبيبتك!

استعدت فى الحال توازنى على القوائم الثلاث. لم أحظ بالمصارحة مع آدا، لكننى مع ذلك، أفصحت عنها كاملة مع أوجوستا. وهنا لم تعد هناك مفاهيم أخرى خاطئة.

حذر جويدو مجدداً:

- إن لم ترغبوا فى السكوت، فليس هناك داعٍ لقضاء وقتنا هنا فى هذه الظلمة!

ما كان يدرى بشيء، فى حين كنت بحاجة إلى الظلام كى يعزلى ويسمح لى بأن أستجمع نفسى. اكتشفت الخطأ الذى اقترفته، والاتزان الوحيد الذى استعدته كان أن تماكنت نفسى على مقعدى.

كنت سأحدث إلى آدا، ولكن فى وضخ النور. ساورنى الشك أنها ليست على يسارى، بل البرتا. كيف كان لى أن أتأكد من ذلك؟ كاد الشك يسقطنى تماماً على يسارى، ولكن أعيد اتزانى، تساندت إلى المنضدة.

أخذ الجميع يصيحون: - إنها تتحرك، تتحرك! كانت حركتى اللاإرادية ستقودنى نحو الوضوح. من أين يأتى صوت آدا؟ لكن صوت جويدو وهو يغطى بصوته على الجميع، فرض علينا السكوت الذى رغبت بشدة فى أن أجبره هو عليه. ثم بصوت مختلف، مبتهل (ذلك الأحمق!) تحدث إلى الروح التى ظن أنها حضرت:

- أرجوك، اذكر اسمك، وحدد حروفه حسب حروفنا الهجائية!

كان يتحسب لكل شىء: يخشى أن تتذكر الروح الحروف الهجائية اليونانية.

مضيت فى تلك المسرحية وأنا أتحسس فى ظلمة المكان بحثاً عن آدا. بعد شىء من التردد جعلت المنضدة ترتفع سبع مرات حتى اكتمل حرف "ج". بدت لى الفكرة جيدة، وبالنسبة للحرف التالى "و" الذى كان يتطلب حركات عديدة، أملت اسم جويدو بالتمام والكمال. لا أشك فى أنه وأنا أملى اسمه، كانت هناك رغبة تدفعنى لإزاحته بين الأرواح.

وعندما تم اسم جويدو، تكلمت أخيراً آدا:

- أحد أسلافك؟ أشارت بذلك. كانت تجلس بجواره بالضبط. كنت أريد أن أحرك المنضدة، بحيث أدفعها تجاهها وأفرق بينهما.

- ربما! - أجاب جويدو. كان يظن أن له أسلافاً، لكنه لم يخفنى.

كان يغير صوته انفعال حقيقى غمرنى بالفرحة التى يشعر بها
المبارز عندما يدرك أن غريمه أقل خطورة مما كان يعتقد. لم تكن رباطة
جأش منه أن يقوم بتلك التجارب. كان بالفعل أحمق! كانت صور الضعف
جميعها تجد عندى الإشفاق عليها، فيما عدا ضعفه هو.

التفت بعد ذلك إلى الروح قائلاً:

- إذا كنت تدعى سببير قم بحركة واحدة. وإلا فحرك المنضدة مرتين.
وحيث إنه كان يريد له أجداداً، حركت المائدة مرتين إرضاءً له.

- جدى! همس جويدو.

ثم أخذت المحادثة مع الروح طريقها نحو الإسراع. سئلت الروح
عما إذا كانت تريد أن تدلى بأخبار. أجابت بنعم. عن أعمال أم عن أشياء
أخرى؟ عن أعمال! حظيت هذه الإجابة بالتفصيل؛ لأنه كان يكفى تحريك
المنضدة مرة واحدة فقط لإعطاء الرد. ثم سأل جويدو إذا كان الأمر
يتعلق بأخبار طيبة أم سيئة. كان ينبغى الإشارة بحركتين إذا كانت
الأخبار سيئة وكنت - هذه المرة بون أى تردد - أود أن أحرك المنضدة
مرتين. غير أن الحركة الثانية عاكستنى وكان هناك حتماً أحد بيننا فى
تلك الصحبة يرغب فى أن تكون الأخبار طيبة. ربما، كانت أدا؟ لكى
أقوم بتحريك المنضدة مرة ثانية ارتميت بالفعل عليها وفعلتها بسهولة!
وكانت الأخبار سيئة!

ولما كان من صراع، جاءت الحركة الثانية مبالغاً فيها، حتى إنها
زحزحت الصحبة بكاملها.

- هذا غريب! همس جويدو. ثم، صاح، بلهجة حاسمة:

- كفى! كفى! هناك من يلهو على حسابنا!

كان أمراً امتثل له كثيرون في آن واحد، واجتاحت الحجرة على الفور موجات من الضوء في أماكن مختلفة. رأيت جويدو شاحب الوجه! خدعت أدا نفسها في تقدير ذلك الشخص، وكان على أن أوقظها من غفلتها. فضلاً عن وجود الفتيات الثلاث في الحجرة، كانت هناك السيدة مالفنتي وامرأة أخرى أدخلت رؤيتها في نفسى الارتباك وعدم الارتياح؛ لأننى ظننتها العممة روزينا. ولأسباب مختلفة حظت السيدتان منى بتحية مترنة.

الطريف أننى ظلت بجانب المنضدة، بمفردى ويجوارى أوجوستا. وحاقت بى شبهة جديدة، لكنى لم أستطع الانسياق فى رفقة الآخرين جميعهم وهم يلتفون حول جويدو، الذى أخذ يفسر بشيء من الحدة كيف أدرك أن المنضدة لم تحركها الروح بل ماكر له شحم ولحم. لم تكن أدا، بل هو نفسه الذى حاول أن يوقف المنضدة بعد أن أحدث جلبه كبيرة. أخذ يقول:

- أمسكت بالمنضدة بكل قوى لكى أمنعها من الاهتزاز للمرة الثانية. فرأيت أنه لابد أن يرتدى شخص ما عليها كى يتغلب على مقاومتي.

جميل ذلك التواصل مع الأرواح: إن جهداً قوياً كهذا لا يمكن أن يأتى من روح!

حدقت النظر فى أوجوستا المسكينة لكى أرى الانطباع الذى أخذته
بعد أن علمت بالتصريح بحبى لأختها . كان وجهها شديد الحمرة، لكنها
أخذت تنظر إلىّ بابتسامة متسامحة. وفى تلك اللحظة فقط قررت أن
تؤكد أنها سمعت ذلك التصريح:

– لن أقول شيئاً لأحد! قالت لى بصوت خافت.

هذا ما يسعدنى كثيراً.

– أشكرك، همست لها وصافحت يدها ولم تكن صغيرة، لكنها
كاملة الجمال. شعرت بالاستعداد لأن أكون صديقاً وفيّاً لأوجوستا، فى
حين كان هذا مستحيلاً قبل ذلك؛ لأننى لا أستطيع أن أكون صديقاً
لأشخاص يتسمون بالدماة. ومع ذلك بدأت أشعر بشيء من الانجذاب
نحو خصرها الذى ضممته وأحسست به تحيلاً أكثر مما كنت أتخيل.
وجهها أيضاً كان مقبولا، لا يشوهه سوى تلك العين التى تأخذ طريقاً
مخالفاً. بالغت دون شك فى ذلك التشويه الذى اعتبرته ممقداً
حتى الفخذ.

طلبوا إحضار شراب الليمون لجويدو. دنوت من المجموعة التى
ظلت تلتف حوله وتقابلت وجهاً لوجه والسيدة مالفنتى التى كانت تبتعد
عنهم. سألتها وأنا أضحك باستمتاع:

أهو بحاجة إلى شراب منعش؟ ارتسمت على شففتيها حركة
استياء خفيفة:

– لا يبدو أنه رجل ناضج! قالت بصراحة.

توهمت أن يكون لانتصاري أهمية حاسمة. فلا يمكن أن ترى
أدا خلاف رأي والدتها. وكان للنصر تأثيره المباشر الذي لا يمكن
الآ يتوفر في رجل مثلى. ذهبت عنى كل مشاعر البغض، وما عدت
أرغب في المزيد من عذاب جويدو. لسوف يصبح العالم أقل ضراوة
لو شابهنى الكثير.

جلست بجواره، ودون النظر إلى الآخرين، قلت له:

- أرجو المعذرة، يا سيد جويدو. سمحت لنفسى بدعابة سيئة من
هذا النوع. أنا الذى دفعت المنضدة لتظهر أنها تتحرك من قبل روح
تحمل اسمكم نفسه. ما كنت لأفعل ذلك لو عرفت أن جدكم يحمل ذلك
الاسم.

خائنته ملامح وجهه، الذى أشرق، كأنما كانت محادثتى هامة
بالنسبة له. غير أنه لم يرغب فى الاعتراف بذلك وقال لى:

- إنهن سيدات طبيبات للغاية! لم أكن بحاجة قط إلى مساعدة.
فالأمر ليست له أية أهمية. وأشكركم على صراحتكم، لكننى تصورت
بالفعل أن أحداً انتحل شخصية جدى.

ضحك، بارتياح، وهو يقول لى:

- لكم بنية قوية! كان على أن أفهم أن المائدة يحركها الرجل الآخر
الوحيد فى هذه الصُحبة.

أثبت، بالفعل، أنني أشد قوةً منه، لكن سرعان ما فرض على
الإحساس بآتني أضعف منه. أخذت أدا تنظر إلى في غير ود وهاجمتني،
وقد احتقنت وجنتاها:

- يؤسفني أنكم أعطيتم لنفسكم الحق في مزاح كهذا.

شعرت بنفسى يضيق و، بلسانى يتلعثم، قلت:

- كنت أرغب في الضحك! ظننت أنه ليس بيننا من يأخذ قصة
المنضدة تلك على محمل من الجدية.

كان الألوان قد فات لى أهاجم جويدو، بل إنه لو كانت لدى أذن
مرهفة الحس، لسمعت أن الفوز لن يكون أبداً حليفى، إن دخلت فى
صراع معه. فالثورة التى كانت تشنها أدا على لها مغزاها الكبير. كيف
لم أدرك أنها قد صارت بكاملها له؟ لكنى عاندت وتمسكت برأىى فى أنه
غير أهل لها؛ لأنه ليس الرجل الذى كانت تبحث عنه بعينيها الجادتين.
ألم تشعر بذلك حتى السيدة مالفنتى ذاتها؟

انحاز الجميع إلى جانبى وزادوا من سوء موقفى. أخذت العمة
روزينا تهتز بجسمها الضخم من شدة الضحك، وهى تقول وقد بدا
عليها الإعجاب:

- رائع!

شعرت بالأسف لأن جويدو كان ودوداً معى. كان لا يهتمه شىء
سوى التأكد من أن الأخبار السيئة المستوحاة من المنضدة، لم تجلبها
الروح. قال لى:

- أراهن أنكم لم تحركوا المنضدة عن عمد في بادئ الأمر.
حركتموها في المرة الأولى بون قصد، ثم قررتم على الفور أن تحركوها
بدهاء منكم. وعلى هذا النحو قد يحتفظ الأمر بشيء من الأهمية، أي
فقط حتى اللحظة التي قررتم فيها إفساد إيجانكم.

التفتت أدا ونظرت إلى نظرة تعجب. أرادت أن تبدو لجويدو فرط
إخلاصها فتسامحني لأنه منحني عفوه. فمنعتها من ذلك:

- ليس الأمر كذلك! قلت بحسم. أرهقني انتظار تلك الأرواح التي
لا تريد أن تأتي وأخذت محلها لآلهو. استدارت أدا بكتفها عني ورفعتهما
على نحو جعلني أشعر بصفعة على وجهي. حتى خصلات شعرها الملتفة
المتدلية على عنقها كانت تبدو لي تعبيراً عن الازدراء.

وكالمعتاد دائماً، بدلاً من أن أنظر وأنصت، كنت منشغلاً تماماً
بأفكاري. كان يحزنتني أن تتورط أدا بهذا الشكل المفرع. أخذ يؤلمني ذلك
ألماً شديداً، كأنما اكتشفت خيانة امرأتى. وعلى الرغم من كل ما تظهره
من مشاعر لجويدو، فما زال في الإمكان أن تصير من قسمتي، لكنني
كنت أشعر بأنني لن أغفر أبداً لها سلوكها ذاك. هل هو تفكيرى البطيء
بالدرجة التي لا يتمكن معها من متابعة ما يجرى من أحداث بون انتظار
لأن تمحو الانطباعات التي تركتها الأحداث السابقة في عقلي؟ وعلى
الرغم من ذلك كان على أن أتحرك عبر الدرب الذي حدده لي قرارى.
كان حقاً عناداً، عناداً أعمى. ومع ذلك أردت أن أجعل قرارى أكثر قوة

بأن أسجله للمرة الثانية. ذهبت إلى أوجوستا التي كانت تنتظر إلى
فى قلق بابتسامة صادقة ومشجعة ترتسم على وجهها، وقلت لها فى
جدية وأسى:

- قد تكون هذه هى المرة الأخيرة التى أجيء فيها إلى منزلكم؛
لأننى، فى هذه الليلة ذاتها، سأعلن عن حبى لأدا.

- عليكم ألا تفعلوا، قالت لى راجية. ألا تدركون كل ما يجرى هنا؟
يؤسفنى أنكم تتألمون من ذلك.

واصلت تحول بينى وبين أدا. قلت لها كيداً:

- يجب أن أفعل ذلك. ثم لن أبالى على وجه الإطلاق بأية إجابة
تعطيها.

أخذت أعرج مرة ثانية ناحية جويدو. بعد أن وصلت إلى جواره،
أشعلت سيجارة، وأنا أنظر لنفسى فى المرأة. رأيت نفسى شاحباً للغاية
وهو الأمر الذى يدفع بى نحو مزيد من الشحوب. قاومت حتى أشعر
بتحسن وأبدو على سجيئى. وفى محاولتى تلك المزدوجة قبضت يدي
الشاردة على كوب جويدو. وما إن أمسكت به لم أجد شيئاً أفضل من
أن أفرغه.

أخذ جويدو يضحك:

- هكذا ستعرفون كل أفكارى؛ لأننى شربت منه أيضاً منذ قليل.

لم يكن مذاق الليمون سائغاً لى قط. ووصل سوء طعم ذلك الكوب إلى الحد الذى بدا لى وكأنه يحمل السم، بداية لأن شربى منه أشعرنى بأنى خضعت إلى صلة بغيضة مع جويدو، فضلاً عن تأثرى فى الوقت نفسه بتعبير نفاذ الصبر الثائر الذى ارتسم على وجه آدا. نادى الخادمة على الفور وأمرتها بإحضار كوب آخر من شراب الليمون، وأصرت على طلبها، على الرغم من تأكيد جويدو لها بعدم شعوره بالظماً.

فى تلك اللحظة أشفقت عليها حقيقةً. كانت تورط نفسها أكثر فأكثر.

- أرجو المذرة، يا آدا، قلت لها بصوت خافت وأنا أنظر إليها كأنما وجب على تقديم الإيضاحات، ما كنت أرغب فى الإساءة إليك.

ثم اجتأحنى الخوف من أن تتبلل عيناى بالدمع. أردت تفادى الضحك منى.

صرخت:

- أطلقت رذاذ الليمون فى عيناى.

غطيت عيناى بالمنديل، ولم أعد هكذا بحاجة إلى التحكم فى دموعى، وكفانى أن انتبهت لنلا أجهش بالبكاء.

لن أنسى أبداً تلك الظلمة التى كانت خلف المنديل. كنت أخبئ فيها عبراتى، بل ولحظة جنون أيضاً. أخذت أتخيل كيف سأخبرها بكل شىء، وكيف أنها ستفهمنى وستحببنى، وأننى لن أسامحها أبداً.

باعدت المنديل عن وجهي، أطلعت الجميع على عيني الدامعتين،
وبذلت جهداً لكي أضحك وأضحكهم:

– أراهن أن السيد چوقاني يرسل للبيت حمض الليمونيك لإعداد
المشروبات.

في تلك اللحظة وصل چوقاني وحيّاني بحفاوته الكبيرة المألوفة.
اغتنمت منها بشيء من الطمأنينة، التي لم تستمر طويلاً؛ لأنه أوضح أنه
أتى قبل مواعده المعتاد لرغبته في الإستماع إلى عزف جويدو. توقف عن
الكلام ليسأل عن الدموع التي تبلل عيني. حكوا له عن شكوكي حول
نوعية شراب الليمون، فضحك من ذلك.

تدنيت للغاية عندما اشتريت بحماس في التوسّلات التي كان يوجهها
چوقاني لجويدو لكي يقوم بالعزف. أخذت أتذكر: ألم أجيء إلى هناك تلك
الليلة كي أستمع إلى عزف جويدو على آلة الكمان؟ والغريب أنني أدرك
أنني رغبت في استرضاء أدا بتوسلي لجويدو. نظرت إليها آملاً في أن
أكون قد انضممت إلى صفها أخيراً وللمرة الأولى في تلك الليلة.

ياله من شيء عجيب! ألم يكن عليّ أن أتحدث إليها وألا أسامحها؟
وعلى الرغم من ذلك لم أر سوى كتفها وخصلات شعرها الساخطة
تتدلى على عنقها. سارعت لإحضار آلة الكمان من الحافظة.

طلب جويدو أن نتركه وشأنه لمدة ربع الساعة. كان يبدو متردداً.
وعلى مدى السنوات الطويلة التي عرّفته فيها فيما بعد خبرت فيه التردد

دائماً قبل أن يقوم بفعل الأشياء التي كانت تطلب منه حتى الأكثر بساطة منها. كان لا يفعل إلا الشيء الذي يروق له، وقبل أن يستجيب لأي رجاء يوجه إليه، كان يقوم بعملية تنقيب في أعماق نفسه لكي يرى فيها ما الذي يرغبه.

ثم حدث في تلك الأمسية المشهودة أن مر ربيع ساعة من أكثر الأوقات سعادة بالنسبة لي. أمتعت ثروة اختلقتها الجميع، بمن فيهم أدا. وكان ذلك يرجع بلا شك إلى فرط حماسي، بل إلى المجهود البالغ الذي بذلته للتغلب على آلة الكمان المتوعدة تلك التي كانت تدنو، وتدنو... تلك الفترة الوجيزة التي بعثت فيها المرح في الجميع، أتذكرها لحظة أنفقتها في معركة مضنية.

حكى چوقاني أنه شهد في الترام، الذي كان يستقله وهو عائد إلى المنزل، حادثة مؤلمة. نزلت منه سيدة وهو ما زال يتحرك حتى سقطت على نحو بالغ الخطورة وجرحت. أخذ چوقاني يصف بشيء من المبالغة قلقه عندما أدرك أن تلك السيدة كانت تستعد للقيام بتلك القفزة، وبطريقة كان واضحاً أنها ستطرح من جرائها أرضاً، وربما تدحرجت عليها. إنه لشيء مؤلم للغاية أن نتوقع الضرر وألا يسعفنا الوقت للنجدة.

لاحت لي فكرة. حكيت أنني اكتشفت علاجاً لذلك الدوار الذي كنت أعاني منه في الماضي. عندما كنت أشاهد لاعباً رياضياً وهو يقوم بألعابه على ارتفاع شاهق، أو عندما كنت أشاهد شخصاً عجوزاً أو غير

قادر ينزل من الترام فى أثناء سيره، كنت أتخلص من أى شعور بالقلق بأن أتمنى لهم البلاء، كنت أصل إلى حد صياغة التعبيرات التى أبتغى بها سقوطهم أو هلاكهم. الأمر الذى كان يهدئ من روع نفسى بدرجة كبيرة؛ ولهذا كنت أتمكن من أن أكون حاضراً وقد تبلدت مشاعرى تماماً أمام النذير بالكارثة. وإذا ما باءت أمنيأتى تلك بالفشل، كنت أقول فى نفسى إننى أكثر سعادة.

انبهر جويدو بفكرتى تلك التى بدت له اكتشافاً فى علم النفس. أخذ يحللها كما كان يفعل بالحقاقات جميعها، ويتلف لتجربة هذا العلاج. لكن كانت له بعض التحفظات: ألا تزيد الأمنيات المشئومة من المصائب. انضمت آدا إلى الضحك معه، ومع ذلك وجهت لى نظرة إعجاب. وأنا، كالأبله، نلت من تلك النظرة سعادة كبيرة. وعلى هذا اكتشفت أنه لم يكن صحيحاً ألا أستطيع أن أسامحها: وكان ذلك مكسباً عظيماً أيضاً.

ضحكنا معاً كثيراً، كفتيان طيبون يحب بعضنا البعض. وبعد وقت قليل كنت أجلس فى جانب من حجرة الصالون، بمفردى مع العممة روزينا. كانت لا تزال تتحدث عن المنضدة. كانت بدينة حقاً، وتجلس ساكنة على مقعدها، دون أن تنظر إلى. نجحت فى أن أفهم الآخرين أن ذلك يخرجنى، وكانوا ينظرون إلى جميعهم وهم يضحكون بحذر، دون أن تراهم العممة.

لكى أزيد من هذا المرح الصاخب فكرت فى أن أقول لها دون تمهيد:

– لكثك، يا سيدتى، استعدت صحتك كثيراً، أراك جددت شبابك.

كان لابد أن يكون هناك سبيل للضحك إن غضبت العمة. لكنها بدلاً من أن تثور أظهرت لى امتنانها وحكت لى أنها قد استعادت صحتها بالفعل بعد مرض تعرضت له من وقت قريب. تعجبت من تلك الإجابة، حتى إن وجهى لابد وأنه اتخذ شكلاً مثيراً للضحك، حيث لم تتوقف موجة المرح الصاخب الذى رغبت فيه من ذى قبل. بعد قليل تكشف لى السر فى ذلك. بمعنى أنى علمت أنها ليست العمة روزينا، بل الخالة ماريًا، أخت السيدة مالفنتى. وهكذا أبعدت من ذلك الصالون مصدراً من مصادر عدم الارتياح، ولكنه ليس أكبرها.

ثم جاءت لحظة طلب فيها جويدو آلة الكمان. واستغنى فى تلك الأمسية عن مصاحبة آلة البيانو، وهو يعزف المقطوعة الموسيقية خاكون^(١). قدمت له آدا الكمان وابتسامة شكر ترتسم على وجهها. لم ينظر إليها، لكنه كان ينظر إلى الكمان كأنما أراد أن يتفرد بنفسه وبالإيحاء. ثم وقف فى وسط الحجرة واستدار بظهره إلى عدد لا بأس به من جمهوره الصغير، لمس الأوتار بالقوس لمساة خفيفة لكى يوازن بين نغماتها، وقام أيضاً بلمس كل منها على حدة بإصبعه. توقف كى يقول وهو يتنسم:

- إنها جرأة حقاً منى، باعتبار أنى لم ألمس آلة الكمان منذ المرة الأخيرة التى عزفت عليها هنا!

(١) مؤلف موسيقى شهير لجون سيباستيان باخ (١٦٨٥-١٧٥٠).

مخادع! استدار أيضاً بظهره عن آدا. كنت أدقق النظر فيها بقلق لأرى إن كانت تعاني من ذلك. لم يبدُ الأمر كذلك! كانت تسند مرفقها على منضدة صغيرة وذقنها على كفها، وقد ركزت اهتمامها للإنصات.

بعد قليل، تجسد أمامي، الموسيقار العظيم باخ بشخصه. لم أبلغ، على وجه الإطلاق، لامن قبل ولا من بعد، هذا الإحساس بجمال تلك الموسيقى وليدة الأوتار الأربع كأنها ملاك جسده ميكيلانجيلو في كتلة رخامية. إنها وحسب حالتى النفسية الجديدة كانت هى ذاتها التى دفعتنى للنظر إلى أعلى فى نشوة، كأنما أنظر إلى شىء عجيب. وعلى الرغم من ذلك كنت أقاوم لكى أبعد تلك الموسيقى عني. لم أتوقف قط عن التفكير: «احذرا! إن الكمان "كالسيرانة"^(١)، ويمكن أن تحمل المرء على البكاء حتى ولم يكن له قلب بطل!» فتننت من تلك الموسيقى التى سلبت عقلى. شعرت بأنها تحكى مرضى وآلامى فى ترفق وهى تخفف منها بالابتسامات واللمسات العطوف. لكنه جويدو الذى كان يتحدث! وكنت أحاول أن أتهرب من تلك الموسيقى وأقول لنفسى: «كى تستطيع أن تفعل هذا، يكفى استخدام جهاز إيقاعى، ويد متمكنة وقدرة على المحاكاة؛ كلها أشياء لا أمتلكها، ذلك ما لا يمثل دونية، وإنما كارثة».

أخذت أحتج، لكن باخ أخذ يواصل فى ثبات كالمصير. كان يشدو فى ولع بالنغمات العالية وينزل بحثاً عن النغمات الخفيضة الصعبة التى

(١) كائن أسطوري من الميثولوجية الإغريقية نصفه امرأة ونصفه سمكة، كان يغرى البحارة ويطلق عليه جنية البحر.

كانت تفاجئنا على الرغم من توقع الأذن والقلب لها: كانت النغمات جميعها فى موضعها المناسب! لو تأخر لحظة أضاع الغناء دون أن يلحق به رنين النغم؛ ولو تقدم به لحظة لدهمه وخنقه. لم يحدث شيء من هذا لجويدو: كان ساعده لا يرتعش، حتى وهو يواجه باخ، وكان ذلك يمثل دونية حقة.

اليوم وأنا أسجل هذه الذكريات عندي كل الدلائل على ذلك. لا يسعدنى أنى أبصرت حينئذ كل ذلك بدقة متناهية. وعلى هذا النحو كنت مملوءاً بالبغض ولم تتمكن تلك المقطوعة الموسيقية، التى كنت أتقبلها بكل جوارحى، أن تلطف منه. ثم توالى الحياة المألوفة اليومية ومحتته دون أية مقاومة من جانبى. هذا مفهوم! فالحياة اليومية يمكنها أن تقوم بأشياء من هذا القبيل. الويل لو انتبه العباقره لذلك!

توقف جويدو عن العزف عن دراية. لم يصفق أحد سوى جوفانى، ولفترة قصيرة صمت الجميع. بعد ذلك، مع الأسف، شعرت بالحاجة إلى إبداء رأى. كيف تجرأت على فعل ذلك أمام أناس يعرفون عزفى على الكمان؟ كأنما تكلم كمانى الذى كان يلهث دون جدوى وراء النغم، ويوجه اللوم للآخر الذى تحولت عليه الموسيقى - وهذا ما لا يمكن إنكاره - إلى حياة، نور وهواء.

- رائع! قلت بنبرة تدل على شيء مسلم به وليس استحضاراً. لكننى لم أفهم لماذا أردتم، قرب النهاية، الفصل بين النغمات الموسيقية التى كتبها باخ موصولة.

كنت على دراية بنغمات الخاكون الواحدة تلو الأخرى. ومرت فترة
ظننت فيها أنتى أحسن العزف، على أن أواجه مثل هذه المقامرات،
وأضيت الوقت لشهور عديدة أتعلم جملة بعد جملة من بعض مؤلفات
باخ الموسيقية.

أحسست أنه لم يكن فى حجرة الصالون سوى الاستنكار والسخرية
منى. وعلى الرغم من ذلك أخذت أتحدث وأقاوم ذلك العداء.

- إن باخ - أضفت قائلاً - شديد التواضع فى أساليبه، حتى إنه
لا يقر مثل هذه الصنعة بالقوس.

ربما كنت على حق، لكن المؤكد أنتى ما كنت لأقدر على تحريك
القوس بهذا النحو.

سرعان ما تجاوز جويديو الصواب مثلما فعلت قبلاً. قال:

- ربما لم يكن باخ يعرف بإمكانية ذلك التعبير. وإنى أقدمه له
هدية!

سمح لنفسه بأن يقفز على كتف باخ، وعلى الرغم من ذلك لم يحتج
أحد فى ذلك المجلس، فى حين كانت السخرية منى؛ لأننى حاولت فقط أن
أقفز على كتفه هو.

فى تلك اللحظة حدث شيء ضئيل الأهمية، لكنه كان حاسماً
بالنسبة لى. سمع صدى صراخ الصغيرة أنا يأتى من حجرة على قدر

من البعد عنا. كانت قد سقطت ونزفت شفتاها، كما علمنا بعدها. هكذا وجدت نفسي بمفردي مع آدا؛ لأن الجمع انصرف مسرعاً من الصالون. سلم جويدو كمانه الثمين ليد آدا، قبل أن يتبع الآخرين.

– هل تسمحين بإعطائي هذا الكمان؟ سألتها إياه وأنا أراها تتردد في الإلحاق بالآخرين. حقاً لم أكن قد أدركت بعد أن الفرصة التي تمنيتها كثيراً قد حانت لي أخيراً.

ترددت، ثم تغلب عليها شعور غريب بالارتياح. ضمت إليها الكمان تماماً:

– لا – أجابت، لا يلزم أن أذهب معهم. لا أعتقد أن أنا قد أصابها أذى. إنها تصرخ دون سبب.

جلست ومعهما كمانها، وظننت أنها بتصرفها هذا ستدعوني إلى التحدث. ثم إنه كيف كان لي أن أعود إلى منزلي دون أن أتكلم معها؟ ما الذي كنت سأفعله بعد ذلك طوال تلك الليلة؟ كنت أراني أتقلب يمناً ويسرة في فراشي أو أهييم في الطرق أو قاعات القمار لأروح عن نفسي. لا! ما كان ينبغي أن أغادر هذا البيت قبل أن أحظى بالمصارحة والطمأنينة.

حاولت أن أتكلم ببساطة وإيجاز. وكنت أيضاً مضطراً لذلك لضيق أنفاسي. قلت لها:

– أحبك، يا آدا. لما لا تسمحين لي بالحديث مع والدك عن هذا الشأن؟

حملت في وهي مندهشة ومرتاعة. خشيت أن تبدأ في الصراخ
كما تصرخ أختها، في الخارج. كنت أعرف أن نظرتها الصافية وملامح
وجهها المحددة للغاية لا تعرف الحب، لكنني لم أرها قط، بعيدة كل البعد
عن الحب كتلك المرة. شرعت في الحديث وقالت أشياء ينبغي اعتبارها
تمهيداً. لكنني كنت أريد الوضوح: القبول أو الرفض! وربما أشعرنى
بالإهانة ما رأيته فيها من حيرة. ولكي أتعجل الإجابة وأحملها على اتخاذ
القرار، ناقشتها فيما استباحته لنفسها من وقت:

– لكن كيف لم تشعري بذلك؟ من المستحيل أن تكوني قد ظننت
أنني أغازل أوجوستا!

وددت أن أؤكد كلماتي، لكن، في اندفاعي، جاء ذلك التأكيد في غير
موضعه، وانتهى بي الأمر أن ذكرت أوجوستا المسكينة بنبرة وحركة تنم
عن الازدراء.

وعلى هذا النحو أخرجت آدا من حيرتها. فلم تكتشف شيئاً سوى
الإهانة الموجهة لأوجوستا:

– لماذا ترين نفسك أرفع منزلة من أوجوستا؟ لا أعتقد مطلقاً أن
أوجوستا تقبلك زوجاً!

على الفور تذكرت أنه ينبغي أن أعطي لها إجابة:

– أما عني أنا... فيدهشني أنها فكرت في شيء كهذا.

لابد أن هذه الجملة اللاذعة كانت ثأراً لأوجوستا. وفكرت وسط ارتباكى الشديد فى أنه حتى معنى الكلمة لا يحمل مرمى آخر؛ ولو أنها صفعتنى لترددت فى البحث عن الأسباب؛ ولهذا أخذت ألح عليها:

- فكرى بالأمر، يا أدا. إننى لست رجلاً سيئاً. لدى ثروة .. غريب الأطوار بعض الشيء، لكنه سيكون من السهل على أن أقوم بنفسى. أدا أيضاً كانت معى أكثر لطفاً، لكنها تحدثت مرة أخرى عن أوجوستا.

- فكر أنت أيضاً؛ يا تزينو: إن أوجوستا فتاة طيبة وتقدرك بالفعل حق قدرك. إننى لا أستطيع أن أتحدث نيابة عنها، لكنى أرى....

شعرت بعذوبة بالغة وأنا أسمع اسمى وهى تنطق به للمرة الأولى. ألم تكن هذه دعوة للتحدث معى بصراحة أكثر؟ ربما كنت قد فقدتها، أو ما كانت على الأقل لترضى بالزواج منى بسرعة، ومع ذلك يلزم تحاشى تورطها بصورة أكبر مع جويدو الذى كان على أن ألفت نظرها بشأنه. كنت حذراً، ويادى ذى بدء قلت لها إننى أقدر وأحترم أوجوستا، لكنى لا أود الزواج منها. قلت لها ذلك مرتين لكى تفهمنى بوضوح: «لم أكن أريد الزواج منها». وهكذا أصبح بإمكانى أن أمل فى تهدئة أدا التى ظننت من قبل أننى أريد إهانة أوجوستا.

- أوجوستا فتاة طيبة، عزيزة، حانية، لكنها لا تصلح لى.

فور ذلك اندفعت بالحديث، لأنه كانت تسمع بعض الضوضاء تأتى من الممر، وخشيت أن يتوقف كلامى من لحظة لأخرى.

- آدا! ذلك الشاب لا يناسبك. إنه أحمق! ألم تلاحظي كم تألم من إجابات المنضدة؟ هل رأيت عصاه؟ إنه يعزف جيداً على الكمان، لكن توجد أيضاً قردة تستطيع العزف عليه. إن بكل كلمة ينطق بها خداعاً، هذا الخامل...

بعد أن أنصتت إلى وعلى وجهها أمارات من يعجز عن التسليم بمغزى الكلمات الموجهة إليه، قاطعتني. انتفضت واقفة على قدميها ومعها الكمان والقوس في يديها، وغمرتني بموجة من الكلمات الجارحة. بذلت ما في وسعي كي أنساها ونجحت في ذلك. أتذكر فقط أنها أخذت تسألني بصوت عالٍ كيف استطعت التحدث عنه وعنّها على ذلك النحو! حدثت إليها من الدهشة؛ لأنني رأيت أنني تحدثت عنه فقط. لم أعد أذكر الألفاظ الحانقة العديدة التي وجهتها لي، غير أنني لا أنسى وجهها الجميل النبيل رائع القسمات الذي احمر لونه من الغضب، وازدادت قسماته تحديداً لتشابه تماثيل الممر. ذلك ما لم أنسه قط وعندما أستعيد ذكريات حبي وفترة شبابي، يتراءى لي وجه آدا الحسن البهي الصافي في اللحظة التي أزاغتني فيها عن مصيرها إلى الأبد.

عاد الجميع وهم يلتفون حول السيدة مالفنتي، التي كانت تحمل أنا على ذراعيها وهي مازالت تبكي. لم ينشغل أحد بي ولا بأدا وخرجت من حجرة الصالون، دون أن ألقى بالتحية على أحد منهم؛ أخذت قبعتي من الممر. شيء عجيب! لم يستوقفني أحد. لهذا توقفت بنفسى؛ لأنني تذكرت أنه لا ينبغي أن أخل بقواعد السلوك المهذب، ويجب لذلك أن أحيى

الجميع التحية اللائقة قبل أن أنصرف. حقاً إننى على يقين من أنه لم يمنعنى من مغادرة ذلك المنزل إلا اقتناعى بأنه سرعان ما سوف تحل على ليلة أسوأ من الليالى الخمس التى سبقتها. حينئذ وبعد أن حظيت أخيراً بالمصارحة كنت أشعر بالحاجة إلى شىء آخر: الحاجة إلى السلام الداخلى، السلام مع الآخرين. ولو استطعت إبعاد أية مرارة كانت فى علاقاتى مع آدا والجميع، لسهل على أن أخلد إلى النوم. لماذا كانت كل تلك القسوة مازالت قائمة؟ إن لم يكن بوسعى أن أصب غضبى حتى على جويدو الذى لم يكن يتمتع بأية ميزة، فمن المؤكد أنه ليس له أى ذنب فى أن فضلته آدا على!

كانت هى الشخص الوحيد الذى انتبه إلى خطواتى فى الممر، وعندما لمحتنى عائداً، نظرت إلى. أكانت تخشى ثورة غضب؟ رغبت على الفور فى تهدئتها. مررت بجوارها وهمست:

– سامحيني إذا كنت قد أسأت إليك!

أمسكت بكفى، وفى هدوء، صافحتها. شعرت براحة كبيرة. أغمضت جفنى لفترة قصيرة كي أنعزل بنفسى، وأشعر بمدى الطمأنينة التى تنبعث منها.

شاء قدرى أن أجد نفسى جالساً بجوار ألبرت، فى حين كان الجميع لا يزالون يهتمون بالطفلة. لم أكن قد رأيتها ولم أفطن إليها إلا عندما تحدثت إلى قائلة:

- لم تصب بأذى. الخطورة هي حضور أبي الذي، إذا رآها تبكي، سيكافئها مكافأة عظيمة.

توقفت عن دراسة نفسي؛ لأنني رأيت نفسي كاملاً! كان عليّ، وحتى أحظى بالطمأنينة، أن أتصرف بحيث لا يغلق هذا الصالون في وجهي على الإطلاق. نظرت إلى ألبرت! كانت تشبه أدا! تصغرها قليلاً وتظهر على جسدها ملامح واضحة من الطفولة لم تمح بعد. كثيراً ما كانت ترفع من صوتها، وكان ضحكها المفرط في كثير من الأحيان يزيد من صغر وجهها الصغير ويصبغه بالحمرة. شيء غريب! في تلك اللحظة استعدت بذاكرتي وصية والدي: "خير فتاة شابة، وسيسهل عليك أن تعلمها على طريقتك". كانت رسالة تذكير حاسمة. أخذت أحملق فيها. وأعملت خيالي لأجردها، وأعجبتني بتلك الصورة الوديدة والرقيقة التي افترضت أن تكون عليها.

قلت لها:

- اسمعي، يا ألبرت! خطرت ببالى فكرة: ألم تفكرى مطلقاً في أنك صرت في مرحلة الزواج؟

- أنا لا أفكر في الزواج! أجابت وهي تبتسم وتنظر إلى بهدوء، دون تحرج أو احمرار. بل أفكر في الاستمرار في دراستي. وأمي أيضاً ترغب في ذلك.

- تستطيعين مواصلة دراستك حتى بعد الزواج.

خَطَرْتُ بِبَالِي فِكْرَةَ بَدْتُ لِي مَرَحَةً فَقُلْتُ لَهَا فِي الْحَالِ:

- وَأَنَا أَيْضًا أَفَكِّرُ فِي الْبَدْءِ فِي الدِّرَاسَةِ بَعْدَ زَوَاجِي.

أَخَذْتُ تَقَهُّقَهُ بِالضَّحْكَ، لَكِنِّي أَدْرَكْتُ أَنِّي أَضْيِيعُ وَقْتِي؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الْفُوزُ بِزَوْجَةٍ وَبِالزَّاهَةِ عَنْ طَرِيقٍ مِثْلِ تِلْكَ الْحَمَاقَاتِ. كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْجِدِيَّةِ. ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ كَانَ هُنَاكَ هِينًا؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ احْتَفُوا بِي بِوَجْهِ مُخْتَلَفٍ تَمَامًا إِلَّا آدَا.

كُنْتُ حَقًّا جَادَا. فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَعْرِفَ زَوْجَتِي الْمُقْبِلَةَ كُلَّ شَيْءٍ. وَيَصَوْتُ يَبْدُو عَلَيْهِ الْانْفِعَالُ قُلْتُ لَهَا:

- مِنْذُ قَلِيلٍ، وَجَّهْتُ إِلَى آدَا الْاِقْتِرَاحَ نَفْسَهُ الَّذِي عَرْضْتَهُ عَلَيْكَ الْآنَ. رَفَضْتَ بَارِذِرَاءَ. يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَخِيلِي فِي أَيَّةِ حَالَةٍ أَكُونُ الْآنَ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَصَاحِبُهَا حَرَكَاتُ تَتَمُّ عَنِ الْحُزَنِ إِلَّا آخِرُ مُصَرِّعٍ لِي بِحُبِّ آدَا. اتَّخَذْتُ شَكْلًا جَادًا لِلْفَايَةِ، وَأَضْفَتُ قَائِلًا، وَأَنَا أَبْتَسِمُ:

- أَظُنُّ أَنَّكَ إِذَا قَبِلْتَ الزَّوَاجَ مِنِّي، سَأَكُونُ سَعِيدًا وَسَأَنْسِي الْجَمِيعَ وَكُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ.

اتَّخَذْتُ هِيَ الْآخَرَى مَظْهَرَ الْجِدِيَّةِ لِنَقُولَ لِي:

- لَا يَنْبَغِي أَنْ تَشْعُرَ بِالْإِهْوَانَةِ، يَا تَزِينِي؛ لِأَنَّ ذَلِكَ سَيُؤَسِفُنِي. أَكُنْ لَكَ تَقْدِيرًا كَبِيرًا. أَعْلَمُ أَنَّكَ عَفْرِيَّتُ بَارِعٍ، ثُمَّ أَنَّكَ تَعْرِفُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً،

دون أن تعلم بذلك، فى حين يدرك أساتذتى تماماً كل ما يعلمونه. لا أرغب فى الزواج. ربما استعدت ثقتى بنفسى فى المستقبل، لكن بالنسبة للوقت الراهن ليس لدى سوى هدف واحد: أود أن أصبح كاتبة. أترى مدى الثقة التى أبديها لك. لن أقول شيئاً لأحد مطلقاً وأمل ألا تخون عهدى. ومن جانبى، أعدك ألا أعرف أحداً بعرضك هذا.

– بل يمكنك أن تخبرى به الجميع! قاطعتها فى حدة. أحسست بنفسى وقد وضعت من جديد تحت التهديد بإقصائى عن ذلك الصالون وأسرعت للبحث عن ملاذ. ثم كان هناك أسلوب واحد للتخفيف من تفاخر ألبرتا لرفضى زوجاً لها، فاتخذته فور أن تيقنت له، وقلت لها:

– الآن سأقدم الطلب نفسه إلى أوجوستا، وسأخبر الجميع فيما بعد بأننى اتخذتها زوجة لى؛ لأن أختيها رفضتا الزواج منى!

أخذت أضحك فى ابتهاج زائد غمرنى إثر ما كان من غرابة فى خطواتى.

لم أحمل كلماتى بتلك الروح التى كنت أفخر بها كثيراً، وإنما حملتها لأفعالى.

تلفت حولى بحثاً عن أوجوستا. كانت قد خرجت فى الممر ومعهما صينية عليها كوب نصفه فارغ يحتوى على مسكّن لآنا. اتبعتهما مسرعاً وناديت عليها باسمها فارتكزت على الحائط تنتظرنى. توقفت أمامها وقلت لها:

– أوجوستا، اسمعى، أترغبين فى أن نتزوج؟

حقاً كان عرضى جافاً. كان على أن أتزوج منها وأن تتزوج هى
منى، وما سألتها رأيها، وما التفت إلى ما كان يجب على تقديمه من
مبررات لذلك. ما دمت لم أفعل إلا ما كان الجميع يريدونه!

رفعت عينيها وقد أذهلتها المفاجأة. وهكذا اختلف الحول كثيراً عن
المألوف. فى بادئ الأمر ازداد شحوب وجهها الناعم الأبيض، ثم احتقن
على الفور. وبصوت خافت قالت لى:
- أنت تمزح وهذا غير حسن.

خشيت أن تبكى، وجاعتنى فكرة غريبة، وهى أن أواسيها بأن
أحكى لها عن أحزاني.

- أنا لا أمزح، قلت فى جدية وحزن. - طلبت فى بادئ الأمر يد أدا
التي رفضتني فى غضب، ثم طلبت من ألبرت أن تتزوجنى وقد رفضت
هى الأخرى، بكلمات لطيفة. إنى لا أكن أى سخط لأى منهما. أشعر
فقط بأننى تعيس، وفى شدة التعاسة.

وأمام آلامى استعادت هدوءها وبدأت تنظر إلى فى تأثر، وهى
تمعن التفكير. كانت نظراتها تشبه لمسة حنو لم تسعدنى.

- على إذن أن أعرف وأتذكر أنك لا تحبنى؟ - سألتنى.

ماذا كانت تعنى هذه الجملة المبهمة؟ هل كانت تمهد إلى قبول؟
كانت تريد أن تتذكر! ألا تنسى طوال حياتها التى سوف تقضيها معى؟
شعرت بإحساس من أراد أن يقتل نفسه فوضع نفسه فى وضع خطر،

والآن هو مجبر على بذل الجهد لكي ينجو بنفسه. ألم يكن من الأفضل ألا تقبل أوجوستا هي الأخرى ويسمح لي أن أعود سليماً ومعافى إلى مكتبي الذي لم أعان فيه كثيراً ولا حتى في ذاك اليوم ذاته؟ قلت لها:

- نعم! لا أحب سوى آدا ولعلني أتزوجك أنت الآن... كدت أخبرها بأنني لا أستطيع التسليم بأن أكون غريباً عن آدا؛ ولذا ارتضيت بأن أصبح زوج أختها. ورأيت في ذلك نوعاً من المغالاة، وربما ظننت أوجوستا مرة أخرى أنني أهزأ بها؛ لذا فقلت فقط:

- لم أعد أستطيع الحياة وحيداً.

كانت لا تزال تستند إلى الحائط الذي ربما كانت تشعر بالحاجة إلى دعمه لها؛ لكنها كانت تبدو أكثر سكيناً وتحمل حينئذ الصينية بيد واحدة. هل نجوت، أي أنه هل كان ينبغي علي أن أغادر حجرة الصالون، أم يمكنني البقاء بها وأن أتزوج؟ قلت كلمات أخرى، لمجرد أنني لم أصبر وأنتظر كلماتها التي أبت أن تخرج من فمها:

- أنا عفريت طيب، وأعتقد أنه من السهل العيش معي، حتى دون أن يكون هناك حب كبير.

هذه هي الجملة التي كنت قد أعدتها خلال الأيام الطويلة السابقة من أجل آدا لكي أحثها على قبولي زوجاً لها، حتى ولو لم تشعر نحوي بحب كبير.

أخذت أنفاس أوجوستا تضطرب قليلاً وظلت صامتة. ربما كان ذلك الصمت يعنى رفضاً، خلته أرق رفض يمكن أن يكون: وكدت ألوذ بالفرار بحثاً عن قبعتي، في الوقت المناسب لأضعها على رأس حظي بالتجاة. إلا أن أوجوستا، في حسم، وبحركة تفيض وقاراً لم أنسها قط، اعتدلت وبعدت عن الحائط. وفي الممر غير الواسع اقتربت مني أكثر فأكثر وكنت أمامها. قالت لي:

- تزينو، أنت بحاجة إلى امرأة تريد أن تعيش من أجلك وترعاك. أود أن أكون هذه المرأة.

مدت إليّ يدها الممتلئة التي لثمتها في حركة شبه عفوية. من المعروف أنه ما كان هناك بديل لذلك. ثم إنه عليّ أن أعترف بأنه تملكني في تلك اللحظة شعور بالرضا أتلع صدرى. لم يكن عليّ أن أحل شيئاً؛ لأن كل شيء أصبح محلولاً. هذه كانت المصارحة الحققة.

وعلى هذا النحو تمت خطبتي. وعلى الفور احتفلوا بنا احتفالاً كبيراً. كان نجاحي يشبه النجاح الكبير الذي حققه جويدو بعزفه على الكمان، وكان الجميع يصفقون تصفيقاً حاداً. قبلني چوقانى وعلى الفور خاطبني بصورة ودية. وبتعبير يفيض بالحنو قال لي:

- كنت أشعر أنني أب لك منذ وقت بعيد، منذ أن بدأت أعطيك نصائح لتجارتك.

مدت حماتى المقبلة هى الأخرى وجنتها فقبلتها . ولم تكن لتفوتنى
تلك القبله حتى ولو تزوجت آدا .

- أترى كيف صدقت توقعاتى فى كل شىء، قالت لى بطلاقة
مذهلة، ولم تنل جزاءها مثلى؛ ذلك لأننى لم أعرف ولم أرغب فى أن
أعارضها .

ثم احتضنت أوجوستا وظهرت عظمة حبها الكبير فى نحيب أفلت
رغمًا عنها، وقطع كل مظاهر الفرحة التى كانت تبدو عليها . لم أكن أطيق
السيدة مالفنتى، لكن كى أكون نزيهاً فإن نحيبها ذاك أسبغ، على الأقل
طوال تلك الليلة، على حفل خطوبتى بريقاً من الجاذبية والأهمية.

صافحتنى ألبرتاً، بوجهها المشرق:

- أتمنى أن أصبح أختاً طيبةً لك. وقالت آدا:

- أحسنت، يا تزينو! ثم، بصوت خافض:- ليكن هذا معلوماً
لديك: ما من رجل يظن أنه قام بعمل شىء باندفاع، وتصرف أكثر
منك حكمة.

فاجأنى جويدو مفاجأة كبيرة:

- منذ هذا الصباح وقد أدركت أنكم ترغبون فى إحدى بنات
السيدة مالفنتى، لكنى لم أتوصل لمعرفة من منهن.

لم يكونا إذن على علاقة حميمة؛ إذ لم تحدثه آدا عن حبيب لها!
أحقاً تصرفت باندفاع؟

غير أنه بعد قليل، قالت لي آدا أيضاً:

- أود أن تحبني حب الأخ. ليُمح ما عدا ذلك من الذاكرة: لن أخبر جويدو بشيء على الإطلاق.

وما هو جميل، فضلاً عن ذلك، هو أنني أشعت مظاهر الفرح الغامرة في عائلة بأسرها. وما كان باستطاعتي التمتع بها كثيراً؛ ذلك فقط لأنني كنت متعباً للغاية. وغلبني النعاس أيضاً وهذا يدل على أنني تصرفت بفطنة واعية. وتوسمت في ليلتي أن تكون هادئة.

حول مائدة العشاء جلسنا أنا وأوجوستا صامتتين أمام الاحتفالات التي أعدت لنا. شعرت بالحاجة إلى طلب المعذرة لعدم قدرتها على المشاركة في محادثة الجمع:

- لا أدري ما أقول. عليكم أن تتذكروا أنني، من نصف ساعة مضت، كنت لا أعرف ما الذي يوشك أن يحدث لي.

كانت بالتأكيد تقول الحقيقة الواقعة. وجدت نفسها ما بين الضحك والبكاء، ونظرت إلى. وددت أن ألاحظها أنا أيضاً بعيني، ولا أدري إن كنت قد نجحت في ذلك.

في تلك الليلة ذاتها أصابني ضرر آخر حول تلك المائدة. أصبت بجرح أحدثه لي جويدو بالتحديد.

يبدو أنه قبل وصولي بقليل للمشاركة في جلسة الأرواح، كان جويدو قد قص عليهم أنني أعلمته في الصباح بأنني ليست شخصاً شارد الذهن.

فأعطوه مباشرةً دلائل كثيرة على كذبي، وكى يثار لنفسه، (أو ربما لكى يطلعهم على تمكنه من الرسم)، رسم لى صورتين بأسلوب الكاريكاتير. صورنى فى الأولى، وأنفى لأعلى، وأعتمد على مظلة راكزة فى الأرض. أما فى الثانية فرسم المظلة مكسورة ومقبضها نافذ فى ظهري. حققت الصورتان الهزليتان الهدف، وأضحكتا الجميع بوسيلة سهلة متواضعة رامية إلى أن الشخص الذى كان من المفترض أن يمثلنى - حقيقة لم يشبهنى البتة، وإنما كانت تميزه رأس صلعا ممتد - ظهر مطابقاً فى الرسم الأول والثانى، وعلى هذا النحو كان من السهل تصويره شاردًا للدرجة التى لم يغير معها ملامحه؛ لأن مظلة اخترقت جسده.

ضحك الجميع كثيراً، بل أكثر مما ينبغى. أملتى بشدة تلك المحاولة التى نجحت نجاحاً كبيراً فى السخرية منى. وحدث حينئذ أنه للمرة الأولى يتسلط على ألم مبرح. فى تلك الأمسية شعرت بألم فى ساعدى وفخذى. كان احتقاناً حاداً، إحساس بخدر فى الأعصاب كأنه إنذار بتصلب. انتابتنى الدهشة فوضعت يدى اليمنى على فخذى وقبضت باليسرى على ساعدى المصاب. سألتنى أوجوستا:

- ماذا بك؟

أجبتها بأنى أشعر بألم فى مكان الرضوض التى أصبت بها عند سقوطى فى المقهى، مما كنا قد تطرقنا فى الحديث عنه أيضاً فى الأمسية نفسها.

اجتهدت على الفور فى محاولة للتخلص من ذلك الألم. بدا لى أنى سائراً منه إذا ما أخذت بثأرى من تلك الإهانة التى وجهت لى. طلبت ورقة وقلماً وحاولت أن أرسم شخصاً يقاسى الضغط وقد انقلبت فوقه منضدة. ثم وضعت بجواره عصا أفلتت من يده فى أعقاب الكارثة. لم يتعرف أحد على العصا؛ لذا لم تلق الإهانة النجاح الذى ابتغيته. ولكى يتم التعارف على ذلك الشخص فيما بعد وكيف وقع فى هذا الموقف، كتبت تحت الرسم: «جويدو سبيير فى صراع مع المنضدة». غير أنه لا ترى سوى ساقى ذلك الشقى من تحت المنضدة، اللتين كانتا ربما تشبهان ساقى جويدو، لو لم أشوهما عن قصد، ولم تتدخل روح الثأر لتزيد الرسم رداءة وهو ما كان حقيقة صبيانياً للغاية فى مستواه.

دفعنى الألم المستمر للعمل بسرعة كبيرة. أبدأ لم تجتج جسدى المسكين مثل هذه الرغبة فى الإيذاء؛ ولو أمسكت بيدي سيقاً مكان القلم الذى لم أكن أتقن تحريكه، ربما لاقى علاجى نجاحاً.

ضحك جويدو وبصدق من رسمى، لكنه بعد ذلك أبدى ملاحظته بهدوء قائلاً:

– لا يبدو لى أن المنضدة أذنتى!

حقاً لم تصبه المنضدة بأذى، وهذا هو الظلم الذى كان يؤلنى.

أخذت آدا الصورتين اللتين رسمهما جويدو، وقالت إنها ترغب فى الاحتفاظ بهما. نظرت إليها كى أعبر لها عن استيائى، واضطرت

لابعاد نظرها عني. كان لدى الحق في توجيه اللوم لها؛ لأنها كانت تزيد من آلامي.

وجدت في أوجوستا نصيراً لي. أرادت أن تكتب تحت الصورة التي رسمتها تاريخ خطوبتنا حرصاً منها على الاحتفاظ أيضاً بذلك الرسم الرديء. اندفعت موجة دم ساخن تغمر عروقي حيال لمحة الحنان تلك التي سلمت للمرة الأولى بأنها بالغة الأهمية بالنسبة لي. وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف الألم، وجال بخاطري أنه لو قامت أدا بلفتة الحب هذه، لدفعت في عروقي دفق ذلك الدم الساخن حتى يخلص أعصابي من جميع النفايات التي تراكمت بها.

لم يفارقني هذا الألم قط. الآن، وقد تقدم بي السن، أعاني منه بصورة أقل؛ لأنه عندما يهاجمني، أتحملة دون كدر: «آه! أنت هنا، دليل واضح على أنني كنت شاباً؟». لكنه كان في فترة شبابي شيئاً آخر. لا أقول إنه كان مبرحاً، على الرغم من أنه كان في بعض الأحيان يعوق حريتي في الحركة أو ييقيني يقظاً ليالي طوالاً. لكنه شغل جزءاً كبيراً في حياتي. كنت أرغب في الشفاء منه! لماذا كان عليّ أن أحمل على جسدي طوال حياتي علامة المهزوم؟ أن يصل الأمر لأن أصبح الأثر المتجول الشاهد على انتصار جويديو؟ كان لابد من القضاء على هذا الألم في جسدي.

وعلى هذا النحو أخذ العلاج مجراه. لكن، بعد ذلك مباشرة، نسيت السبب الذي أدى للمرض، حتى إنني ما كنت لأعثر عليه في سهولة

وقتذاك، لم تكن المسألة غير ذلك: كانت لدى ثقة كبيرة بالأطباء الذين كانوا يعالجوننى وصدقتهم عندما أرجعوا تلك الآلام تارة إلى عملية التمثيل الغذائي، وتارة أخرى إلى خلل بالدورة الدموية، ثم إلى الإصابة بالدرن أو إلى أنواع من العدوى كان أحدها مخجلاً، ومن ثم لكى أكون صادقاً فإن كل أنواع العلاج أتاحت لى شيئاً من الراحة المؤقتة، مما كان يدفعنى فى كل مرة إلى الظن بأن التشخيص المحتمل الجديد سوف يكون مؤكداً. ثم طالت المدة أو قصرت كان يتضح أنه لم يكن بالدقة الكافية، لكنه لم يكن مخطئاً تماماً؛ حيث إنه ليست لدى بجسمى وظيفة تعمل بشكل سليم تماماً.

حدث خطأ حقيقى مرة واحدة فقط: وقعت بين يدى رجل أشبه بالأطباء البيطريين، صمم لفترة طويلة أن يهاجم عرق النسا بعقاقيره المصروفة^(١)، وانتهى الأمر إلى أن استخفت آلامى به فقفزت فجأة، فى أثناء إحدى الجلسات، من الفخذ إلى العنق، مما لم تكن له أية علاقة بعرق النسا. اشتد حنق ذاك الجراح وأخذنى إلى الباب فانصرفت - أتذكره تماماً - لم أشعر بالإهانة على وجه الإطلاق، بل تأخذنى الدهشة من أن الألم لم يتغير مطلقاً فى المكان الجديد. ظل ثائراً ومنيعاً، كما كان عندما أخذ يؤلم فخذى. شئ عجيب أن يشعر كل جزء فى جسمنا البشرى بالألم بالطريقة نفسها.

(١) من شأنها أن تحول الدم من جزء إلى آخر فى الجسم.

أما ما تم تشخيصه من علل أخرى فهو يعيش بصورة دقيقة فى جسدى ويتعارك فيما بينه للفوز بالألوية. هناك أيام أعيشها لمرض النقرس وأخرى يتم فيها قتله، أى أبرأ منه، بفعل التهاب الأوردة. لدى أدراج ممثلة بالألوية، وهى الوحيدة التى أحرص على ترتيبها بنفسى. أحب أدويتى وأعلم أننى إذا تركت واحداً منها، فسأعود إليه إن عاجلاً أو آجلاً؛ ومن ثم فلا أظن أننى أهدرت وقتى. من سوف يدرى كم من الوقت مضى وبأى مرض كنت سأموت، لو لم تكشف ألامى عن تلك الأمراض جميعها فى الوقت المناسب، وتدفعنى لعلاجها قبل أن تفترسنى.

إننى أعرف متى شعرت بهذا الألم لأول مرة، لكن دون مقدرة منى على الدخول فى طبيعته. كان يرجع إلى ذلك الرسم بالتحديد الذى كان أفضل كثيراً من الصورة التى رسمتها. وكانت القطرة التى أفاضت الوعاء! أنا على يقين من أنى لم أشعر قط بهذا الألم من قبل. أردت أن أشرح طبيعته لأحد الأطباء، لكنه لم يدرك ما أقوله. من يدرى؟ ربما يكشف التحليل النفسى عن كل ذلك الاضطراب الذى عانى جسدى منه فى تلك الأيام، وخاصةً فى تلك الساعات القلائل التى مرت بعد حفل خطوبتى.

بل لم تكن قط قليلة، تلك الساعات!

فى ساعة متأخرة، عندما انفضت الصحبة، قالت لى أوجوستا وهى سعيدة:

— إلى اللقاء فى الغدا!

سرتنى دعوتها؛ حيث إنها الدليل على بلوغ غايتى، وأن شيئاً لم ينته، وسوف يستأنف كل شيء فى اليوم التالى. حدثت فى عينى ووجدت عينى تومئان لها حتى ترضيها. هبطت درجات السلم التى لم أعد أحصيها، وأخذت أتساعل:

– من يدري هل أحبها؟

ظل هذا الشك يصاحبنى طوال حياتى، واليوم أستطيع أن أرى أن الحب الذى يشوبه ارتياب كبير هو الحب الحقيقى.

غير أنى بعد أن غادرت ذلك المنزل، لم تسنح كذلك لى الفرصة كى أعود إلى فراشى وأجنى ثمرة جهدى طوال تلك الأمسية فى نعاس عميق مجدد للنشاط. كان الجو حاراً. شعر جويدو بالحاجة إلى تناول الجيلاتى، ودعانى لرافقته فى مقهى. تعلق فى ود بذراعى وسانديته، على نحو مماثل من المودة. كان شخصية بالغة الأهمية بالنسبة لى وما كنت أتوانى فى طلب له. إن إرهابى الشديد الذى كان لابد أن يدفعنى إلى الفراش، جعلنى أكثر استسلاماً عن المؤلف.

دخلنا بالفعل إلى المقهى، حيث نقل لى المسكين توليو عدوى مرضه، وجلسنا إلى منضدة منعزلة. على الطريق عذبنى ألى كثيراً، هذا الألم الذى لم أكن أدرك بعد أى صنف من الأصدقاء الأمانة يكون، والحقظات قليلة، ظننت أنه يخف حتى تمكنت من الجلوس.

كانت صحبة جويدو مزعجة حقاً. كان يستفسر بفضول كبير عن قصة حبي لأوجوستا. هل كان يساوره الشك فى أنى أخدعها؟ قال لى دون مواراة إننى عشقت أوجوستا منذ الوهلة الأولى ما إن زرت منزل مالفنتى. جعلنى ألمى ثثاراً، حتى إننى وددت أن أصيح بصوت أعلى منه. ومع ذلك تحدثت كثيراً، ولو كان جويدو أكثر يقظة لأدرك أننى لم أكن مفرماً بأوجوستا على هذا النحو. تحدثت عن أكثر أجزاء جسم أوجوستا إثارة للاهتمام، أى تلك العين المصابة بالحول التى توهم خطأ بأن الأجزاء الأخرى فى جسدها ليست كذلك فى مكانها الصحيح. ثم أردت أن أشرح له لم لم أتقدم قبل ذلك. فربما أصابته الدهشة عند رؤيتى فى ذلك المنزل فى اللحظة الأخيرة لى أطلب الزواج. صحت:

- على كل فإن بنات السيد مالفنتى اعتدن حياة القرف الزائد، ولم أكن أعرف إن كانت ظروفى تسمح لى بمثل هذه المسئولية. ساعنى أنى على هذا النحو أتحدث أيضاً عن آدا، لكن لم يعد أمامى ما أعالج به ذلك؛ كان فى غاية الصعوبة أن أفصل أوجوستا عن آدا! واصلت كلامى فى صوت خافت حتى أتحكم فيما أقول بصورة أفضل:

- لذا كان على أن أعيد حساباتى. رأيت أن أموالى لا تكفى. وعلى ذلك أخذت أدرس إمكانية توسيع تجارتي...

ثم أضفت أننى كنت بحاجة، كى أعيد حساباتى، إلى كثير من الوقت؛ ولهذا امتنعت عن زيارة آل مالفنتى لخمسة أيام. وأخيراً وصل

لسانى الذى استرسل فى الحديث إلى شىء من الصدق. كدت أذرف
دمعى وهمست، وضغطت على فخذى:

– خمسة أيام طوال!

قال جويدو إنه سعيد؛ لأنه اكتشف فى شخصى إنساناً حريصاً.

أبدت ملاحظتى بحدة قائلاً:

– الإنسان الواعى ليس محبوباً أكثر من الطائش!

ضحك جويدو:

– غريب أن يشعر الشخص الحريص بالحاجة إلى الدفاع عن الطائش!

ثم أخبرنى فى اقتضاب، دون أية مقاطعة أخرى، أنه ينوى طلب
الزواج من آدا. هل أتى بى إلى ذلك المقهى ليكشف لى عن ذلك الاعتراف
أم أصابه السأم من واجب الاستماع إلىّ وأنا أتحدث عن نفسى لفترة
طال وقتها، فأراد أن يأخذ بثأره؟

كدت أؤكد من نجاحى فى إظهار دهشتى وسرورى البالغين، لكن
بعدها مباشرة عثرت على طريقة أوله بها ألماً شديداً:

– فهمت الآن لما أعجبت آدا كثيراً بذلك الباخ المختلف بتلك الصورة!
كان عزفاً جيداً، لكن الثمانية^(١) يمنعون التشوية فى بعض المواضع.

(١) ربما يشير الكاتب هنا إلى الساده الحضور من أفراد عائلة مالفتنى، أو إلى نظام الأمن
فى مدينة فلورنسا فى القرن الرابع عشر.

كانت الضربة قاسية فاحمرَّ وجه جويدو من الألم. كان معتدلاً في رده؛ لأنه كان في تلك اللحظة يفتقد إلى مؤازرة جمهوره الصغير المتحمس له.

- يا إلهي! - بدأ حديثه لكسب الوقت - أحياناً ينساق المرء وراء مزاجه وهو يقوم بالعزف. في تلك الغرفة كان القليل منهم يعرفون باخ، وقمت بعرضه عليهم بصورة محدثة بعض الشيء.

بدأ راضياً عما وجد من تبرير، أما أنا فكان شعوري بالارتياح مماثلاً؛ لأنني لمست فيه اعتذاراً وإذعانا.

كان ذلك كافياً لتهدئة روع نفسي، وفوق ذلك، لم أكن لأرغب بأية حال من الأحوال في أن أتنازع مع زوج أدا المقبل. صارحته بأنني نادراً ما استمعت إلى هاوٍ يعزف بهذه الدرجة من الجودة.

لم يكفه ذلك: أبدى رأيه أنه من الممكن اعتباره هاوياً، ليس إلا لأنه لا يقبل أن يظهر للناس كصاحب مهنة.

ألم يكن يرغب في شيء آخر؟ وافقته في الرأي. كان من الواضح أنه لا يمكن أن يُعتبر هاوياً من الهواة.

وهكذا عدنا من جديد صديقين مخلصين.

ثم، فجأة، أخذ يتحدث عن النساء بسوء. أصابتنى الدهشة! الآن وأنا أعرفه أكثر، أعرف أنه ينطلق في الحديث باستفاضة في كافة الاتجاهات عندما يتأكد أنه يعجب من يتحدث إليه. كنت قد بدأت الحديث،

منذ قليل، عن الحياة المترفة التي كانت تعيشها بنات السيد مالفنتي، فاستأنف هو الحديث عن ذلك حتى انتهى بذكر كل الصفات الأخرى السيئة في النساء. كان إرهافي يمنعني من مقاطعته واكتفيت بإشارات مستمرة بالموافقة، وأحسستها شاقة للغاية. وإلا، عارضته دون شك. أعلم أنه يحق لي الحديث بسوء عن النساء اللاتي يتمثلن بالنسبة لي في آدا، وأوجوستا وحماشي المقبلة؛ أما هو فلم يكن لديه أدنى حق في الهجوم على الجنس الناعم المتمثل له في آدا وحدها، التي كان مفرماً بها.

كان على درجة عالية من الثقافة، وعلى الرغم من إرهافي أخذت أصفى إليه بإعجاب. اكتشفت بعد فترة طويلة أنه اعتنق الأفكار العبقرية التي خلفها الشاب المنتحر وينينجر^(١). شعرت حينئذ أنني تحت طائلة باخ آخر. حتى إنه راودني الشك في أنه يرغب في معالجتى. وإلا لحاول أن يقنعني بأن المرأة لا تستطيع أن تكون نابغة ولا طيبة؛ رأيت أن العلاج لم يفلح؛ لأن من جرعه لي كان جويديو. لكننى حفظت تلك النظريات، وأتقنت معرفتها بقراء تيلوينينجر. غير أنها لا تؤدي أبداً إلى الشفاء، ولكنها رفقة تبعث بالراحة عندما يسعى المرء وراء النساء.

بعد أن انتهى من تناول الجيلاتى، شعر جويديو بالحاجة إلى استنشاق الهواء الطلق، ودفعنى إلى صحبته في نزهة تجاه ضواحي المدينة.

(١) أوتو وينينجر (١٨٨٠-١٩٠٢) من أصل يهودى، مؤلف نمساوى. له كتاب مشهور عنوانه "الجنس والطابع". مات منتحراً في شبابه.

أتذكر: منذ أيام كنا نتلهف، في المدينة، إلى قليل من المطر نأمل به أن يخفف من وطأة الجو الحار الذي أتى قبل أوانه. إنى لم أشعر مطلقاً بذلك الحر. في تلك الليلة بدأت السماء تفشيها سحب خفيفة، بيضاء، من تلك التي ينتظر بها العامة مطول المطر الغزير، لكن قمرًا كبيراً أخذ يتقدم في السماء شديدة الزرقة أينما كانت صافية، قمر من تلك الأقمار ذات الوجنات المثلثة التي يعتقد أيضاً العامة أنها قادرة على التهام السحب. كان بالفعل واضحاً أنه هناك حيثما يصل، كان يذيب ويصفي.

أردت أن أقاطع ثرثرة جويدو التي كانت تجبرني على الإيماء المستمر بالموافقة، وكان عذاباً لي، فأخذت أصف له القبة التي اكتشفها الشاعر تزامبوني^(١) في وجه القمر: كم كانت حلوة تلك القبة في قلب ليالينا، مقارنةً بالظلم الذي أخذ جويدو يرتكبه في حقى! في أثناء حديثي وانحناءات رأسي من النعاس وقد غلبني من كثرة إيماءاتي بالتصديق على ما يقوله، ظننت أن ألامى تخف. وكانت الجائزة التي أستحقها لأنى قاومت فتمسكت بها.

كان علي جويدو أن يساير الموقف ليدع النساء وشأنهن للحظات ويتأمل السماء. لكن لدقائق معدودة! ما إن اكتشف، في أعقاب إرشاداتي،

(١) فيليبيو تزامبوني (١٨٢٦-١٩١٠)، شاعر ومؤلف مسرحي بمدينة تريستي.

صورة امرأة شاحبة في وجه القمر، حتى عاد إلى حديثه وهو يمزح،
وضحك على ما قاله بصوت عالٍ، لكنه ضحك وحده، بالطريق الخالي:

- ترى أشياء كثيرة تلك المرأة! خسارة ألا تستطيع تذكرها
لكونها امرأة.

كانت إحدى نظرياته (أو نظريات وينينجر) أن المرأة لا يمكنها أن
تبلغ درجة النبوغ؛ لأنها لا تملك الذاكرة.

وصلنا عند حافة شارع بيلفديري. قال جويدو إن قليلاً من السير
في الطريق الصاعد مفيد لنا. ووافقته أيضاً هذه المرة. هناك بأعلى،
وبحركة تتواءم أكثر مع الفتیان الصغار، استلقى على السور المنخفض
الذي كان يحمي الشارع من الجانب المطل على الشارع الآخر بأسفل.
ظن أنه يقوم بحركة جريئة وهو يعرض نفسه للسقوط من ارتفاع مسافة
عشرة أمتار. شعرت في بادئ الأمر بالرجفة المعتادة عندما رأيته
يتعرض لخطر كبير كهذا، لكن بعدها تذكرت النظام الذي ابتدعته في
تلك الأمسية ذاتها، في انطلاقة ارتجال، ولكي أتخلص من ذلك القلق
تمنيت له وفي حرارة أن يسقط.

واصل إرشاداته ضد النساء وهو على ذلك الوضع. كان يقول
حينذاك إنهن بحاجة إلى لعب كالأطفال، على أن تكون باهظة الثمن.
تذكرت أن أدا كانت تعشق الجواهر كثيراً. هل كانت هي إذن التي
يتحدث عنها؟ خطرت حينئذ ببالى فكرة مروعة! لماذا كنت أتوانى عن

دفعه للقيام بقفزة الأمتار العشرة تلك؟ أما كان من العدل أن أقضى على من سلب منى آدا دون أن يحبها؟ فى تلك اللحظة كان يبدو لى أننى لو قتلته، لأسرعت إلى آدا لأنال منها جائزتى على الفور. فى تلك الليلة العجيبة بضوئها الغامر هين لى أنها تسمع كيف يسىء جويدو إلى سمعتها.

يجب أن أعترف بأنى تهيأت فى تلك اللحظة حقيقةً لقتل جويدو! كنت واقفاً بجواره وهو مُستترخ على السور المنخفض، وأخذت أتفحص فى برود كيف يلزم أن أمسك به، حتى أكون واثقاً من نجاح ما أفعله. ثم اكتشفت أننى لست فى حاجة إلى الإمساك به على الإطلاق. كان يرقد وذراعاها متشابكتان تحت رأسه، وتكفى دفعة قوية مفاجئة لتفقدته توازنه دون خلاص.

خطررت ببالى فكرة أخرى بدت لى هامة للغاية، حتى يمكن مقارنتها بالقمر العظيم الذى كان يسبح فى السماء وهو يبدد السحب: لقد قبلت أن أخطب أوجوستا كى أضمن خلودى للنوم تلك الليلة. كيف كان لى أن يغمض جفناى لو قتلت جويدو؟ كانت هذه الفكرة هى النجاة لى وله. فى الحال وددت أن أترك ذلك الوضع الذى كنت أسيطر فيه على جويدو ويغرينى بالقيام بتلك الفعلة. انحنيت على ركبتى، وارتعيت وكدت ألمس الأرض برأسى:

– ياله من ألم، يا للألم! صرخت.

ارتاع جويدو، قفز على قدميه ليسألنى عما أَلُمُّ بى. واصلت التأوُّه بصوت أهدأ دون إجابة. كنت على علم بما أشكو منه: لأننى أردت قتله وربما، أيضاً، لأننى لم أتمكن من ذلك. كان الألم والأنين يعفوان عن كل شيء. أعتقد أننى كنت أصرخ بأننى لم أكن أرغب فى قتل جويدو، كما هبى لى أننى صرخت بأنه لا ذنب لى إن لم أستطع القيام بذلك. كان الذنب ذنب مرضى وآلامى. إلا أننى أذكر أنه فى تلك اللحظة بعينها اختفى الألم تماماً، وبقيت تأوهاتى مجرد تمثيلية. حاولت عبثاً أن أضيف لها مضموناً بأن أستحضر الألم وأستعيد شكله؛ لكى أشعر به وأعانى منه. لكن الجهد الذى بذلته كان عبثاً؛ لأن الألم لم يعد إلا حينما أراد.

وكالمعتاد أخذ جويدو يبحث فى اتجاه الافتراضات؛ لذلك سألنى إذا كان الأمر له علاقة بالألم نفسه الذى تسبب فيه سقوطى فى المقهى. وجدت الفكرة جيدة ووافقت عليها.

أمسك بذراعى، وبمحبة صادقة، أنهضنى. ثم أنزلنى المنحدر الصغير، وهو لا يزال يسندنى بحرص شديد. عندما هبطنا إلى أسفل، أخبرته بأننى أشعر بشيء من التحسن؛ وأننى اعتقدت بأننى سأتمكن من السير بصورة أسرع وأنا مرتكز عليه. وهكذا تهيأت للذهاب أخيراً إلى مخدعى! ثم إنه كان أول شعور حقيقى وعظيم بالرضا يمنح لى فى ذلك اليوم. كان يعمل من أجلى؛ لأنه كاد أن يحملنى. كنت أنا الذى أفرض عليه إرادتى فى نهاية الأمر.

وجدنا صيدلية كانت لا تزال مفتوحة، وخطرت بباله فكرة أن يرسلنى إلى الفراش ومعى دواء مهدئ، بنى نظرية تدور كلها حول الألم والشعور المفرط به: رأى أنه يتضاعف أى ألم من جراء المبالغة التى أدى إليها هو ذاته. بدأت مجموعة أدويتى بتلك الزجاجة، وصح أن تكون من اختيار جويدو.

لكى يعطى أساساً راسخاً لنظريته، افترض أننى كنت أعانى من ذلك الألم منذ عدة أيام. أسفت لعدم استطاعتى موافقته. شرحت له أننى فى تلك الليلة، لم أشعر بأى ألم فى منزل مالفنتى. من المفهوم أنه فى اللحظة التى أتبع لى فيها تحقيق حلمى البعيد، ما كان يمكن أن أتألم.

صراحة، أردت بالفعل أن أكون مثلما أكدته من قبل وقلته لنفسى مرات عديدة: "أحب أوجوستا، لا أحب أدا. أحب أوجوستا، وفى تلك الأمسية نجحت فى تحقيق حلمى البعيد".

وهكذا أخذنا نسير فى تلك الليلة القمرية وأعتقد أن جويدو كان متعباً من ثقلى؛ لأنه عقد لسانه أخيراً. لكنه عرض على أن يرافقنى حتى الفراش. رفضت وعندما سنجت لى الفرصة أن أوصد باب المنزل ورأى، تنفست الصعداء. لكن مما لا ريب فيه أن جويدو أيضاً احتاج لالتقاط النفس ذاته.

صعدت درجات سلّم قبيلتى أربعاً فأربعاً، وبعد عشر دقائق كنت فى فراشى. سرعان ما غلبنى النوم، وفى اللحظات القليلة التى تسبق النعاس،

لم أتذكر أدا ولا أوجوستا، بل جويدو وحده، وهو على هذا القدر من الوداعة والطيبة والصبر. لم أنس بلا شك، أنني قبل قليل كنت أريد قتله، لكن ذلك لم يكن له أية أهمية، فالأشياء التي لا يعلمها أحد، والتي لم تترك لها أثراً، لا وجود لها.

توجهت في اليوم التالي إلى منزل عروسي وأنا في شيء من التردد. لم أكن على ثقة بأن ماقطعته على نفسي من التزامات في الليلة السابقة له القيمة نفسها التي كنت أظن أنني أوليته إياها. اكتشفت أن لها قيمة لدى الجميع. وأوجوستا أيضاً كانت ترى نفسها عروساً، بل بثقة أكبر مما كنت أعتقد.

كانت خطوبة مجهدة. أشعر بأنني قمت بحلها أكثر من مرة، وعدت إليها بصعوبة بالغة، وإنني أندesh لعدم ملاحظة أحد لذلك. لم أكن متأكداً قط من أنني مقدم على الزواج في حد ذاته، لكن يبدو أنني تصرفت على الرغم من ذلك كالخطيب الذي يكن قدراً من الحب. كنت بالفعل أقبل أخت أدا وأضمها إلى صدري في كل مرة كانت تسنح لي الفرصة. كانت أوجوستا تتحمل اعتداءاتي، مثلما تعتقد أنه واجب على العروس، وكنت أتصرف بصورة لائقة نسبياً، فقط لأن السيدة مالفنتي لم تتركنا تنفرد ببعضنا سوى لحظات معدودة. كان قبح عروسي أقل بكثير مما كنت أتخيل، ومكمن جمالها العظيم اكتشفته وأنا أقبلها: احمرار وجهها! رأيت أنه أينما كنت أقبلها توقد شعلة إكراماً لي فأخذت أقبلها بدافع فضول من يجري تجربة أكثر من شغف العاشق.

لكن الرغبة لم تنقصنى ولطفت بعض الشيء من وطأة تلك الفترة العصبية. الويل إذا لم تكن أوجوستا ووالدتها قد منعننى من إيقاد تلك الشعلة دفعة واحدة كما كنت أرغب فى أغلب الأحيان. كيف كان يمكننى أن أواصل حياتى فى تلك الفترة؟ على أية حال هكذا استمرت تلك الرغبة فى إثارة القلق ذاته بداخلى على درجات سلم ذلك المنزل، مثلما كنت أصعدها من قبل لى أستميل أدا إلى. كانت تبشّرنى درجات السلم الفردية بأننى فى ذلك اليوم سأظهر لأوجوستا كيف تكون الخطوبة التى تمنيتها. كنت أحلم بالقيام بفعل عنيف يعيد لى الإحساس كله بحريتى. ما كنت أرغب فى خلاف ذلك، والغريب أنه عندما أدركت أوجوستا ما كنت أريده، فسرتة على أنه حمية الحب.

تنقسم تلك الفترة فى ذاكرتى إلى مرحلتين. فى الأولى كانت السيدة مالفنتى غالباً ما تراقبنا عن طريق ألبرت، أو كانت تقحم معنا الصغيرة أنا مع معلمتها فى حجرة الاستقبال. لم تنضم إلينا أدا قط فى ذلك الوقت بأى صورة من الصور، وكنت أقول فى نفسى إنه يجب أن أسعد لذلك، وعلى الرغم من ذلك أتذكر بصورة قاتمة تلك المرة التى فكرت فيها كم ستكون سعادتى كبيرة لو تمكنت من تقبيل أوجوستا فى حضور أدا. من يدرى بأى عنف كنت سأفعل ذلك.

تبدأ المرحلة الثانية عندما خطب جويدو أدا بطريقة رسمية والسيدة مالفنتى كامرأة متمرسة بطبيعتها، جمعت بيننا جميعاً فى الصالون نفسه كى يراقب بعضنا البعض.

أعرف أنه في الفترة الأولى كانت أوجوستا تقول في نفسها إنها راضية عني رضاً تاماً. عندما كنت لا أنقض عليها، كنت أنخرط في الحديث بصورة تفوق العادة. كانت تلك اللباقة ضرورية من ضروراتي. وجدت فيها الوسيلة المناسبة وقد رسمت في رأسي فكرة أنه من الواجب أيضاً أن أقوم بتعليم أوجوستا، بما أنني سأتزوجها. كنت أدريها على الوداعة والحب والإخلاص. لا أذكر بالضبط الشكل الذي كنت أصبغه على مواعظي التي ذكرتني هي بوحدة منها لم تنسها قط. كانت تنصت إلي في انتباه وتواضع. وذات مرة، في أثناء حماسي في إلقاء تعاليمي، صرحت بأنه إذا اكتشفت خيانة مني لها، سيكون لها الحق في أن تزيقني من الكأس نفسها. ثار سخطها، واحتجت بأنها لن تقدر على خيانتني، حتى وإن سمحت بذلك، وأنه لن يترتب، على خيانتني، سوى حرقتها في البكاء.

أعتقد أن إرشاداتي تلك التي كان الهدف منها ما هو أبعد من الرغبة في الكلام، كان لها تأثير نافع على زواجي. بقي حقيقة أثرها في نفس أوجوستا. لم يوضع إخلاصها قط في التجربة لأنها لم تعلم قط شيئاً عن خياناتي، لكن حبها وعذوبتها لم يتغيرا طوال السنوات الطوال التي قضيناها معاً، ظلاً بالضبط مثلما حملتها على الوعد بهما من ذي قبل.

عندما عقد جويدو النية، بدأت المرحلة الثانية لخطوبتي بعزم حددته على هذا النحو: «ها أنا ذا قد برئت من حبي لأدائها». اعتقدت حتى تلك

اللحظة. أن احمرار وجه أوجوستا كان كافياً لشفائي، لكن من الواضح أننا لا نبرأ أبداً كما ينبغي! إن تذكر تلك الحمرة أدى إلى أن يخطر ببالى أنها ربما كانت أيضاً موجودة بين جويدو وأدا. وهذه الأخيرة، كانت تفضل بكثير تلك، فى استطاعتها القضاء على أية رغبة تجتاحنى.

وفى المرحلة الأولى يرجع اشتياقى إلى الاعتداء على أوجوستا. أما فى المرحلة الثانية فقد كانت إثارتى أقل بكثير. لم تخطئ بلا شك السيدة مالفنتى، عندما رتبت مراقبتنا على تلك الصورة بما فيها من لحظات التشتيت التى كانت تتسبب فيها.

أذكر أننى ذات مرة كنت أمزح وأخذت أقبل أوجوستا. وبدلاً من أن يمزح جويدو معى، أخذ يقبل أدا هو الآخر. ورأيتة يفتقر للحياء فيما فعل؛ لأنه كان لا يقبلها قبله بريئة مثلما فعلت مراعاة لهما، كان يقبلها فى فمها لدرجة أنه كان يمتصه. إننى على يقين من أنه فى تلك الفترة كنت قد اعتدت على اعتبار أدا أختاً لى، لكنى لم أكن مهياً لأن أراها تستغل بهذا الأسلوب. وأشك أيضاً فى أنه يروق لأخ حقيقى أن يرى أخته تعامل بمثل هذه الطريقة.

ولهذا، لم أقبل أوجوستا مرة أخرى فى أثناء وجود جويدو. أما جويدو فقد حاول، فى حضورى، أن يجذب إليه أدا ثانية، لكنها هى ذاتها التى تحاشته، ولم يعد المحاولة بعد ذلك.

وتختلط فى ذهنى ذكريات لأمسيات عديدة قضيناها معاً. فالمشهد الذى تكرر إلى ما لا نهاية، انطبع فى ذاكرتى بهذا الشكل: كنا جالسين

نحن الأربعة حول المنضدة الفينتسية رفيعة الأناقة، وكان عليها مصباح كيروسين مضاء تلتف من حوله دائرة من نسيج أخضر اللون، يلقي بظله على كل شيء، إلا أعمال التطريز التي كانت تشغل بها الأختان. كانت آدا تطرز منديلاً من الحرير يتدلى من يدها، وتمسك أوجوستا إطار شد صغيراً للتطريز. وها أنا ذا أرى جويدو يتحمس في الكلام ولعلني كنت الوحيد الذي غالباً ما أوافقه القول. ما زلت أتذكر رأس آدا بشعرها الأسود المموج تحت ذلك التأثير الغريب الذي أضفاه عليه الضوء الأصفر والأخضر.

دارت المناقشة حول ذلك الضوء وحول لون ذلك الشعر الحقيقي أيضاً. شرح لنا جويدو، وكان يتقن التصوير الزيتي أيضاً، الطريقة اللازمة لتحليل اللون. لم أنس مطلقاً درسه ومازلت إلى اليوم، عندما أريد أن أشعر بصورة أفضل بألوان منظر طبيعي، أفتح بالكاد عيني حتى تتلاشى خطوط كثيرة، ولا ترى سوى الأضواء وحدها التي تتحدد هي الأخرى في اللون الحقيقي وحده. ولكن، عندما كنت أنشغل بتحليل مماثل وفيما يشبه ردة فعل خاصة بي، كان يعود، على شبكية عيني، وبعد الصورة الحقيقية مباشرة، ذلك الضوء الأصفر والأخضر والشعر الداكن الذين علّمت بهم عيني أول مرة.

لا أستطيع نسيان أمسية من الأمسيات كانت لها أهمية خاصة بفضل تعبير عن غيرة أبدتها أوجوستا، وتلاها مباشرة أيضاً ما أنبت نفسي عليه من إفشاء للسِر. على سبيل الضحك علينا، ذهب جويدو وآدا

ليجلسا بعيداً عنا، فى الجانب الآخر من الصالون، بجوار منضدة من طراز لويس الرابع عشر، ومن ثم سرعان ما أصابنى ألم بعنقى الذى كنت أستدير به لكى أتحدث معهما. فقالت لى أوجوستا:

– دعهما! يتبادلان حقاً هناك الحب.

قلت لها، دون أدنى تفكير، وبصوت خافت إنه لا ينبغى أن تظن ذلك؛ لأن جويدو لا يحب النساء. هكذا بدا لى أنى أقدم اعتذاراً عن اقتحامى لحديث الحبيين، فى حين كانت عملية إفشاء سر دنيئة أن أخبر أوجوستا بالحديث عن النساء الذى استرسل فيه جويدو فى صحبتى، لكنه لم يتم قط فى حضور فرد آخر من عائلة عروسينا. إن ذكرى تلك الكلمات كدرت حياتى لأيام عديدة، وأستطيع القول بأنى عندما أتذكر رغبتى فى قتل جويدو لم أنزعج مطلقاً ولو لساعة. لكن القتل حتى ولو كان غدرًا، هو عمل أكثر رجولة من إلحاق الأذى بصديق بإفشاء سره.

نعم لقد أخطأت أوجوستا فى تلك اللحظة عندما شعرت بالغيرة من آدا. لم أكن أستدير بعنقى على تلك الصورة كى أنظر لآدا. كان جويدو يعيننى، بطلاقة لسانه، على قضاء تلك الفترة الطويلة. كنت بالفعل أكنُّ له المودة وأمضى معه قسمًا كبيراً من أيامى. كان يربطنى أيضاً به عرفانى له بالجميل؛ لأنه كان يكن لى احتراماً ويظهره للآخرين. حتى آدا كانت فى ذلك الوقت تستمع إلى باهتمام عندما أتحدث.

كنت كل مساء أنتظر بشيء من الشغف رنين "الجونج" ليدعونا للعشاء، وأتذكر على وجه الخصوص من تلك الدعوات ما يرتبط بها من سوء دائم للهضم. كنت أفرط في تناول الطعام كي أبقى يقظاً. حول مائدة العشاء كنت أغرق أوجوستا بكلمات الحب، بالقدر الذي كان يسمح لي به فمي الممتلئ، وما كان لدى والديها سوى انطباع واحد سيئ بأن حبي الكبير لها أضعفه التهامي المفرط للطعام. أدهشتها المفاجأة أنني لم أستعد شهيتي الكبيرة عند عودتي من شهر العسل. اختفت باختفاء حاجتي الملحة لإظهار رغبة لم أكن أشعر بها. لا يسمح بأى برود يظهر في معاملة العروس أمام والديها في أثناء الاستعداد للذهاب إلى الفراش معها! وأوجوستا تستعيد بذاكرتها خاصة تلك الكلمات الحانية التي كنت أهمس بها في أذنها حول تلك المائدة. بين لقمة وأخرى لأبد وأنى ابتدعت كلمات رائعة وتتنابنى الآن الدهشة، عندما تُذكرنى بها؛ لأنها لا تبدو أنها صدرت منى.

وصهرى نفسه، چوقانى الداهية، خدع بذلك، فطوال حياته، عندما كان يريد إعطاء مثال لمشاعر حب فياضة، ظل يستشهد بحبى لابنته، أقصد أوجوستا. وبصفته أباً كريماً بطبيعته كان يبتسم من ذلك وهو سعيد، ومع ذلك كان يضيف بداخله شعوراً بالازدراء تجاهى؛ لأنه كان يرى، أنه ليس رجلاً حقاً من يضع مصيره بين يدي امرأة ومن لا يدرك قبل كل شيء أنه توجد في هذا العالم نساء أخريات فضلاً عن امرأته. من هذا يتضح أنه لم يحكم على دائماً برأى منصف.

أما حمايتى فلم تصدق حبيبى على الرغم من أن أوجوستا ذاتها كانت تسترسل بالحديث عنه فى ثقة تامة.

ظلت تحدد فى لسنوات طوال بعين تملؤها الريبة والشك، تجاه مصير ابنتها التى كانت تؤثرها؛ لهذا السبب أيضاً يرجع اقتناعى بأنه لا بد أن قامت هى بقيادتى فى الأيام التى أدت بى إلى الخطوبة. كان من المحال خداعها هى أيضاً، وقد تعرفت بالتاكيد على نفسى أفضل من معرفتى أنا لذاتى.

وأخيراً جاء يوم زواجى، وفى ذلك اليوم بالذات انتابتنى لحظة تردد أخيرة. كان على أن أذهب إلى العروس فى الثامنة صباحاً، وعلى العكس من ذلك، كنت ما أزال حتى الثامنة إلا ربيعاً أرقد فى مخدعى وأدخن فى عصبية وأتأمل نافذة حجرتى تتلألأ عليها ضاحكة، أول شمس ظهرت فى ذلك الشتاء. كنت أفكر فى هجر أوجوستا! أخذ يتجلى أمامى ما بزواجى من عبث، بعد أن فقد البقاء إلى جوار أدا أهميته عندى. لو لم أحضر حسب ذلك الموعد لما حدثت أية أمور على هذا القدر! فضلاً عن ذلك: كانت أوجوستا عروساً حانية، لكن لم يكن من الممكن قط التكهّن بسلوكها فى اليوم التالى للزفاف، وماذا لو اهتمتنى على الفور بالحماسة لأننى استسلمت على هذا النحو؟

لحسن الحظ جاء جويدو، وأنا، رغماً عن مقاومتى، اعتذرت عن تأخيرى مؤكداً أنبنى كنت أظن أنه تم تحديد ساعة أخرى لحفل الزفاف، وبدلاً من توجيه اللوم لى، أخذ جويدو يتحدث عن نفسه وعن المرات

العديدة التى تخلف فيها، بسبب غفلة منه، عن بعض المواعيد. كان يرغب أيضاً فى التفوق علىّ فى مسألة شرود الذهن، وكان لابد ألاّ أنصت له حتى أتمكن من مغادرة البيت. وهكذا حدث أنى ذهبت إلى حفل الزفاف جرياً.

وعلى الرغم من ذلك وصلت متأخراً أكثر مما ينبغى. لم يوبخنى أحد، وارتضى الجميع فيما عدا العروس ببعض الاعتذارات التى قدمها جويدو نيابة عنى. كانت أوجوستا صاحبة الوجه حتى إن شفيتها كانتا باهتتين. حتى وإن كنت لا أستطيع القول بأنى أحبها، فمن المؤكد أننى لم أكن لأسبب لها أذى.

حاولت أن أصلح الموقف، وارتكبت حماقة أن أنسب تأخيرى إلى ثلاثة أسباب. كانت أكثر مما ينبغى وتحكى بوضوح شديد كل ما تأملته هناك فى فراشى، وأنا أنظر إلى شمس الشتاء، مما أخرج ذهابنا إلى الكنيسة، وبالتالي إتاحة الوقت لأوجوستا لكى تستعيد حيويتها.

أمام مذبح الكنيسة قلت نعم وأنا شارد الذهن؛ لأنى من إشفاقى الشديد على أوجوستا أخذت أفكر فى تبرير رابع لتأخرى رأيته أفضلها.

على العكس، عندما خرجنا من الكنيسة، لاحظت أن أوجوستا استعادت حيويتها. أصابنى شيء من السخط؛ لأن تلك الإجابة بنعم

التي نطقت بها ليست بالشئ الذي يضمن حبي لها في المستقبل. كنت على استعداد لمعاملتها بغلظة شديدة إذا كانت استعادت رباطة جأشها، حتى تتهمني بالحماقة لأنى تركت نفسي للانسحاق على هذا النحو. على عكس ذلك، فى منزلها، انتهزت لحظة أن تركونا بمفردنا، كى تقول لى وهى تبكى:

– لن أنسى أبداً أنك، على الرغم من أنك لا تحبنى، تزوجتنى.

لم أبدِ اعتراضاً؛ لأن المسألة كانت واضحة بدرجة لا يمكن إنكارها. لكنى، تأثرت بشدة، وضممتها إلى صدرى.

بعد ذلك لم نتحدث قط أنا وأوجوستا عن تلك الأمور؛ لأن الزواج مسألة أيسر بكثير من الخطبة. بمجرد أن يتزوج الإنسان يكف عن الحديث عن الحب، وعندما يشعر بالحاجة إلى الحديث عنه، سرعان ما تتدخل الحيوانية لتعيد الصمت. ربما أصبحت هذه النزعة الحيوانية إنسانية حتى تتعقد وتتريف وقد يحدث أن ينحنى المرء، على شعر امرأة وأن يبذل الجهد، فى استحضار ضوء فيه غير موجود. تغمض العينان وتصبح المرأة امرأة أخرى لتعود هى ذاتها ما إن تترك. ويوجه لها كل عرفان بالجميل ومزيداً منه إذا فلح هذا الجهد المبذول، ولهذا السبب إذا قدر لى أن أولد مرة أخرى (الطبيعة الأم قادرة على كل شئ!) فقد أقبل الزواج بأوجوستا، ولكن ليس بأن أعدها بالالتزام.

ففي المحطة مدت أداً إليّ وجنتها للقبلة الأخوية. رأيته فقط في تلك اللحظة، وقد كنت مشتتاً من وجود أناس كثيرين لرفقتنا، وخطر ببالي على الفور: «إني أنت بالذات التي زججت بي في هذا الموقف!». دنوت بشفتي على وجنتها الناعمة حريصاً حتى على ألاّ أمسها. كان أول إرضاء لنفسي في ذلك اليوم، لأنني لوهلة أحسست بمدى الفائدة التي جلبها لي زواجي: تأرت لنفسي وأنا أرفض انتهاز الفرصة الوحيدة التي منحت لي لتقبيل أدا! ثم بينما كان القطار يقطع طريقه مسرعاً، وأنا جالس بجوار أوجوستا، ارتبت في أني لم أحسن التصرف. كنت أخشى أن تتخرج صداقتي مع جويدو. لكني كنت أتألم أكثر من ذلك عندما أفكر في أن أدا ربما لم تنتبه إليّ أني لم أقبل وجنتها التي مدتني إليّ.

وقد تنبّهت إليّ ما فعلت، غير أنني لم أعلم بذلك إلا عندما رحلت، هي الأخرى، بعد شهر عديده، مع جويدو من محطة القطار ذاتها. قبلت الجميع. مدت إليّ أنا فقط يدها بمودة كبيرة. صافحتها في برود. وصل ثأرها متأخراً تماماً حيث تغيرت الظروف كاملاً. فمنذ عودتي من شهر العسل وقد نشأت بيننا علاقة أخوية، وما عاد هناك تفسير لاستبعادها لي من القبلة.

٦- زوجتى والعشيقه

كانت هناك فترات عديدة فى حياتى خلت فيها أنى أخذت طريقى نحو الصحة والسعادة. لسكنى ما أحسست قط بمثل هذا اليقين القوى، مثلما أحسسته فى الفترة التى استغرقتها رحلة شهر العسل وتلتها أسابيع بعد عودتنا إلى المنزل. بدأ ذلك الشعور باكتشاف أذهلنى: كنت أحب أوجوستا مثلما كانت مولعة بى. فى بداية الأمر انتابنى الشك، غير أنى كنت أتمتع بيومى، وأنتظر أن يليه آخر يحمل ملامح مختلفة. لكن الواحد كان يلى الآخر ويشبهه، يتلألاً، تغمره عذوبة أوجوستا - وتلك كانت المفاجأة - ورقتى أيضاً. فى كل صباح كنت ألمس فيها العاطفة الجياشة ذاتها ونفس التقدير الذى، إن لم يكن حباً، فهو يشبهه إلى حد كبير. من كان يمكنه أن يتوقع ذلك عندما كنت أتهافت على أدا وألبرتاً لكى أصل فى النهاية إلى أوجوستا؟ اكتشفت أنى لست أحمق متخبطاً يقوده الآخرون، بل رجل حكيم. وعندما رأتنى أوجوستا وقد بدت على الدهشة، أخذت تقول:

- لكن لم تندعش؟ ألم تكن تدري أن هذا هو الزواج؟ كنت أعلم بذلك على الرغم من أنى على درجة كبيرة من الجهل مقارنة بك!

لم أعد أدري إن كان قبل إحساسى بالحب أم بعده، أن تولد بداخلى
الأمل، ذلك الأمل الكبير فى أن أصبح مثل أوجوستا التى تجسدت
الصحة فى شخصها. وفى أثناء فترة الخطبة لم أستشف تلك الصحة
على الإطلاق، حيث كنت مستغرقاً فى تفحص نفسى فى المقام الأول ثم
فى دراسة آدا وجويدو. إن مصباح الكيوسين فى حجرة الاستقبال تلك
لم يصل قط إلى إلقاء الضوء على شعر أوجوستا الخفيف.

وناهيك عن احمرار وجهها خجلاً! عندما اختفى بالسهولة ذاتها
التي تختفى بها ألوان الفجر أمام ضوء الشمس الساطع. عبرت
أوجوستا فى ثقة ذلك الطريق الذى عبرت فيه أخواتها من قبل على هذه
الأرض، تلك الأخوات اللاتي يمكنهن أن يجدن كل شىء فى القانون وفى
النظام، وإلا تنازلن عن كل شىء. كنت أحب، وأعشق تلك الثقة، على
الرغم من أنى كنت أعرف أن بها قصوراً؛ لأنها كانت تعتمد على. كان لابد
أن أجاريها على الأقل مثلما حدث عندما تعلق الأمر بتحضير الأرواح.
ربما كان الأمر كذلك، كان هناك أيضاً الإيمان بالحياة.

لكنها كانت تذهلنى؛ كان يتضح من كل كلمة تقولها، ومن كل
تصرف منها أنها تؤمن حقاً بالحياة الخالدة. هذا لا يعنى أنها قالت
ذلك: اندهشت على العكس ذات مرة، حينما شعرت بالحاجة إلى أن
أذكرها بقصر الحياة، وأنا الذى ما كنت أحب الأفكار الخاطئة قبل أن
أحب أخطاءها. مطلقاً! كانت تدرك أنه لابد أن يموت الناس جميعهم،
لكن هذا لا يمنع أننا ما إن صرنا زوجين، سنظل معاً، معاً على طول المدى.

كانت تجهل إذن أنه عندما يرتبط اثنان في هذا العالم، وهذا يحدث في فترة وجيزة، وجيزة للغاية، لا يدركان كيف توصلا إلى التخابط بصيغة الأصدقاء بعد أن كانا غريبين لفترة مجهولة الحدود ويستعدان للفراق لفترة أخرى مجهولة الحدود. فهمت أخيراً ما هي صحة الإنسان السليمة عندما أدركت أن الحاضر بالنسبة لها حقيقة ملموسة، يستطيع الفرد أن يعيش بداخلها ويجد الدفء فيها. حاولت أن أكون مقبولا بها واجتهدت أن أقيم فيها، وقد عزمت ألا أستخف بنفسى وبها، حيث لم تكن هذه المحاولة سوى مرضى، وكان لابد على الأقل أن أتوخى الحذر حتى لا أصيب بالعدوى من وثق بى؛ ولهذا أيضا ، تمكنت لبعض الوقت من التحرك كإنسان سليم، وأن أبذل جهدى فى حمايتها.

كانت على دراية بجميع الأمور التى تبعث باليأس، لكنها كانت تغير طبيعتها فى يدها. حتى وإن كانت الأرض تدور فليس من الضرورة أن نشعر بدوار البحر! المسألة مختلفة تماماً: إن الأرض تدور، لكن الأشياء الأخرى جميعها تظل فى مكانها. وهذه الأشياء الثابتة كانت لها أهمية عظيمة: خاتم الزواج، الجواهر والملابس جميعها، الأخضر منها والأسود، الثوب الذى نرتديه للتنزه، ونضعه فى صوان الملابس عند عودتنا إلى المنزل وثوب المساء الذى ما كان يمكن ارتداؤه بأية حال من الأحوال نهائياً، ولا حتى عندما كنت لا أستسلم لارتداء الملابس الرسمية. ساعات الوجبات كانت محددة تحديداً صارماً وساعات النوم كذلك. كان لتلك الساعات وجود، وظلت دائماً فى مكانها.

كانت تذهب يوم الأحد إلى القُدَّاس، وكنت أصرطحبها أحياناً إلى هناك لكي أشاهد كيف كانت تتحمل صورة الألم والموت. لم يكن هناك وجود لتلك الصورة بالنسبة لها، وتلك الزيارة كانت تثير بداخلها صفاءً يبقى طوال الأسبوع. كانت تذهب إلى هناك أيضاً في بعض أيام الأعياد التي كانت تحفظها بذاكرتها. ليس أكثر من هذا، في حين لو كنت رجلاً متديناً لكفلت لنفسى السعادة الكاملة، وأنا أقضى بالكنيسة طوال اليوم.

كان هناك أيضاً عالم من المراجع تحميها على وجه هذه الأرض. سواء السلطة النمساوية أو الإيطالية كانت تكفل الأمان في الطرق والمنازل، وبذلت أنا على الدوام كل ما في وسعى لكي أشارك أيضاً في احترامها. فضلاً عن الأطباء الذين انتظموا بالدراسات لكي ينقذونا إذا ما – لا قدر الله – هاجمتنا الأمراض. كنت أستفيد كل يوم من تلك المراجع: أما هي، على العكس مني، لم تفعل ذلك قط. ولكني كنت لذلك أعرف مصيرى المروع إذا ما داهمنى مرض الموت، في حين كانت تعتقد أنه ستكتب لها النجاة في تلك اللحظة أيضاً، وهي تركز راسخة هنا وهناك.

إنني أتفحص صحتها، لكنني لا أفصح في ذلك؛ لأتني أدرك أنه، في أثناء عملية التحليل هذه، أحولها إلى مرض. ويراودنى الشك، وأنا أكتب الآن عنها، إذا ما كانت تلك الصحة وقتئذ بحاجة إلى علاج أو إرشادات للشفاء، في حين لم ينتبئ هذا الارتياب قط وأنا أعيش بجوارها لسنوات عديدة.

يا لها من أهمية نسبت إلى في عالمها الصغير ذاك! كان على أن أعبر عن رغبتى فى كل أمر، بالنسبة لاختيار الأطعمة والملابس، واختيار الأصدقاء والقراءات. كنت مرغماً على القيام نشاط كبير لم يزعجنى، كنت أتعاون فى بناء أسرة يحكمها الأب وأصبحت أنا ذلك الأب الذى كرهته فيما سبق، وأصبح يبدو لى علامة من علامات الصحة. فالأمر يختلف تماماً متى كان المرء رب أسرة، أو تحتم عليه تبجيل آخر استأثر بمثل هذه المكانة. كنت أريد الصحة لنفسى على حساب أن أحمل المرض على غير الآباء السادة، وخاصة فى أثناء السفر حين طاب لى أن أتخذ أحياناً شكل تمثال الفارس.

لكن فى أثناء الرحلة أيضاً لم تيسر لى مواصلة المحاكاة التى عزمت عليها. كانت أوجوستا ترغب فى مشاهدة كل شىء كأنما ذهبت فى رحلة تعليمية. لم يكف قط أننا قمنا بزيارة قصر بيتى^(١)، بل كان ضرورياً أن نمر بالقاعات العديدة جميعها، ونتوقف ولو للحظات أمام كل لوحة فنية. رفضت أن أترك القاعة الأولى ولم أشاهد شيئاً بعدها، وأنا أجتهد فقط فى البحث عن أسباب حالة خمولى. قضيت منتصف النهار أمام صور لمؤسسى بيت آل ميديتشى، واكتشفت أنه يوجد تشابه بينهم وبين كارنيتش وفاندربيلت. شىء رائع! كانوا مع ذلك ينحدرون من أصولى نفسها!

(١) قصر بيتى: هو أكبر قصر منذ عصر النهضة بمدينة فلورنسا، وهو قصر متاحف هامة ومجموعة مختارة من الأعمال الفنية.

لم تشاركنى أوجوستا فى انبهارى ذلك. كانت تعرف من هم اليانكينز، لكن لم تعرف بعد جيداً من أكون. وأتت لحظة خارت فيها قواها، وكان عليها أن تتنازل عن زيارة المتاحف. قصصت عليها أنه ذات مرة وأنا باللوفر، أصابنى الضجر وسط كثرة الأعمال الفنية، حتى كدت أحطم تمثال فينوس. قالت أوجوستا فى استسلام:

– لا بأس، إننا نرى المتاحف فى أثناء رحلة الزفاف ثم لن يتكرر ذلك ثانية!

فى واقع الأمر ليست بالحياة رتابة المتاحف. تمر الأيام الجديرة بالتصوير داخل الأطر، لكنها تزخر بالأصوات التى تشد الأذان للسمع والخطوط والألوان العديدة فضلاً عن أضوائها الحقيقية، تلك الأضواء التى تلمع؛ ولذا لا تبعث بالملل.

تدفع الصحة إلى النشاط وإلى تحمل الكثير من الأشياء المزعجة. فبعد أن أغلقت المتاحف، بدأت عمليات الشراء. كانت أوجوستا تعرف فيللتنا أفضل منى، وهى لم تقطن بها من قبل، وكانت تعرف أن حجرة من الحجرات تنقصها مرآة، وأنه لا توجد بأخرى سجادة، ويوجد بالثالثة مكان لموضع تمثال صغير. قامت بشراء أثاث غرفة الاستقبال جميعه، وكانت لنا من كل مدينة نقيم بها عملية الشحن على الأقل. كنت أرى أن عمليات الشراء بمدينة تريستي أنسب وأقل إزعاجاً. وما قد فرض علينا أن نتشغل بعمليات الشحن والضمان والإجراءات الجمركية.

- ألا تعلم أن البضائع جميعها يتم شحنها؟ أأست تاجرًا؟ سألتني
وضحكت.

كان لديها بعض من الحق. عارضتها قائلاً:

- البضائع تشحن للبيع والربح! فيما عدا ذلك الهدف نتركها
لحالها ونعيش في سلام!

لكن أكثر صفة كنت أحبها فيها كانت روح المبادرة.

كانت تطيب لى روح المبادرة تلك وهى على ذلك النحو من السذاجة!
ساذجة لأنه ينبغي أن نكون جهلاء بتاريخ العالم؛ كى نعتقد أننا قمنا
بصفقة عظيمة لمجرد قيامنا بعملية شراء لشيء من الأشياء؛ فعند البيع
يتم تقدير عملية الشراء.

كنت أعتقد أننى فى فترة نقاهة كاملة. فأمراضى أصبحت أقل
إيلاماً. ومنذ ذلك الحين أصبح سلوكى الثابت سلوكاً ينم على السرور.
كان بمثابة التزام عاهدت به نفسى تجاه أوجوستا فى تلك الأيام المشهودة،
وكان العهد الوحيد الذى لم أنقضه إلا لبضع لحظات، أى عندما
استخفت الحياة بى بصورة أعنف. كانت علاقتنا باسمه وظلت كذلك لأننى
كنت أسخر منها، وظننتها لا تدرى وكانت تسخر هى منى، وتعزو إلى
العلم الوفير والأخطاء الكثيرة التى - حسبما كانت تتخدد - كان عليها
إصلاحها. كنت فى الظاهر سعيداً، حتى عندما عاودنى المرض بشكل
كامل. كنت سعيداً كما لو أننى كنت أشعر بالألم وكأنه الدغدغة.

فى أثناء الجولة الكبيرة عبر أنحاء إيطاليا، وعلى الرغم من الحالة الصحية الجديدة التى كنت عليها، لم أقلت من معاناة كثيرة. رحلنا دون خطابات توصية، وبدأ لى، فى كثير من الأحيان، أن هناك أعداء وسط ذلك الجمع الفقير من الناس الغرباء، الذين تتحرك وسطهم. كان شعوراً بالخوف مثيراً للضحك، لكننى لم أستطع التغلب عليه. الخوف من أن يهاجمنى أو يسببنى أحدهم أو يفترى علىّ، ومن كنت سأحتفى به؟

كانت هناك أيضاً أزمة حقيقية نتجت عن ذلك الخوف الذى لم يعلم به أحد، لحسن الحظ، ولا حتى أوجوستا. كان من المعتاد أن أخذ جميع الجرائد تقريباً التى يعرضونها علىّ فى الطريق. ذات يوم توقفت أمام عارضة بائع جرائد، وانتابنى الشك أنه، بوازع من الكره، كان يستطيع أن يعمل على أن يقبضوا علىّ بسهولة، كما لو كنت لصاً؛ لأننى أخذت منه جريدة واحدة وحملت تحت ذراعى جرائد كثيرة اشتريتها من مكان آخر ولم أفتحها بعد. جريت بعيداً ومن ورائى أوجوستا التى لم أخبرها بسبب إسراعى بالمشى.

وطدت الصداقة مع سائق عربية ومرشد سياحى كنت فى مأمن فى صحبتهما من أن أتهم بسرقات سخيفة.

كانت بينى وبين السائق نقاط تلاقٍ واضحة. كان يحب كثيراً نبيذ منطقة كاستللى، وحكى لى أن قدميه كانتا تنتفخان من حين إلى آخر. ذهب حينئذ إلى المستشفى، وبعد أن تم شفاؤه، صرحوا له بالخروج مع توصيات كثيرة بالإقلاع عن شرب النبيذ. ولهذا عقد العزم على نية من

حديد، حسبما كان يقول، ولكي ينفذها، قام بربط عقدة في سلسلة ساعة يده المعدنية. لكنني عندما تعرفت عليه، كانت السلسلة تتدلى على سترته، دون أية عقدة. دعوته للمجيء معي إلى تريستي. وصفت له مذاق نبيذ مدينتنا، الذي يختلف كثيراً عن نبيذ مدينته، حتى أطمئنته إلى نتيجة علاجه الجذري. لكنه لم يبد اهتماماً، ورفض دعوتي ووجهه ترتسم عليه علامات الحنين إلى ما اعتاد عليه.

ارتبطت علاقتي بالدليل؛ لأنني رأيتة يفوق زملاءه. ليس من الصعب معرفة التاريخ بصورة أفضل من معرفتي به، وقد تحققت أوجوستا أيضاً بدقتها وبكتابها السياحي يبدكر من دقة الكثير من معلوماته. هذا بالإضافة إلى أنه كان شاباً، وكان السير معه حثيثاً عبر الطرق ذات التماثيل الكثيرة.

عندما فقدت هذين الصديقين، غادرت روما. بعد أن تحصل مني سائق العربة على أموال كثيرة، أراني كيف أن النبيذ كان أيضاً يصيب رأسه في بعض الأحيان، وألقى بنا في مواجهة أثر روماني قوي البنيان. أما الدليل فقد أراد ذات يوم أن يزعم أن الرومان القدامى كانوا يعرفون جيداً القوة الكهربائية، وكانوا يستخدمونها على نطاق واسع. وأنشد كذلك أبياتاً باللغة اللاتينية، من شأنها أن تؤكد صحة ذلك.

لكن في تلك الفترة اعتراني مرض آخر هين، لم أكن لأبرأ منه أبداً. كان شيئاً تافهاً جداً: الخوف من الشيخوخة وخاصة من الموت. أعتقد أن المتسبب فيه كان نوعاً خاصاً من الغيرة. كانت الشيخوخة تخيفني

فقط لأنها تقربني من الموت. ومادمت حيًا، فلن تخونني أوجوستا بلا شك، لكنني كنت أتخيل أنه فور وفاتي ودفني، وبعد أن تهتم بتجهيز كل شيء حتى تصير مقبرتي على أحسن ما يليق وتتلو الصلوات اللازمة، ستبحث في الحال بعينيها يمنةً ويسرةً عما يخلفني وتحيطه بعالم من الصحة والنظام نفسه الذي كنت أنعم به في الوقت ذاك. لا يمكن لهذه الصحة الجيدة أن تزول لأنني لاقيت حتفي. كانت ثقتي بتلك الصحة كبيرة، حتى بدا لي أنها لن تهلك إلا بتمزيق صاحبها تحت قطار كامل ينطلق مسرعًا.

أتذكر ذات مساء، بمدينة فينتسيا، ونحن نتنزه بالجندول عبر إحدى تلك القنوات التي يخيم عليها الهدوء التام الذي كانت تقطعه من لحظة إلى أخرى أضواء طريق يفتح فجأة عليها ويبيث ضوضاءه. كانت أوجوستا، كعادتها، تشاهد الأشياء وتسجلها بعناية: حديقة خضراء نضرة ترتفع فوق قاعدة داكنة انحسرت عنها المياه؛ برج ينعكس في المياه العكرة؛ طريق ضيق طويل ومعتم في نهايته نهر من الأضواء والناس. أما أنا، فكنت بإحباط شديد أشعر في الظلمة، بذات نفسي. حدثتني عن الوقت الذي ينقضي وأنها سرعان ما ستعيد رحلة شهر العسل تلك مع شخص آخر. كنت على يقين تام من ذلك، حتى بدا لي أنني أروي لها قصة حدثت بالفعل. أحسست أنه من غير المناسب أن تجهش بالبكاء لتتكرر حقيقة تلك القصة. ربما فهمت حديثي بصورة خاطئة، وظنت أنني أعزو إليها نية قتلي. كان الأمر مختلفًا تمامًا! لكي أعبر

بصورة أفضل وصفت لها ما يمكن أن تكون عليه طريقة وفاتي: ساقاي، حيث كانت بالفعل تسرى الدورة الدموية ضعيفة، ستصيبهما الفرغرينة التي ستمتد أكثر، فأكثر، إلى أن تصل إلى أى عضو آخر، لا غنى عنه كي تبقى عيناى مفتوحتين. سأغمضهما فى تلك اللحظة، ووداعاً أيها الأب! وسيكون من الضرورى إيجاد نسخة أخرى منه.

استمرت فى البكاء وبدا لى بكاؤها ذاك ذا أهمية بالغة وسط جو الكآبة الذى ساد تلك القناة. أهو القنوط الذى دفعها إليه حين تحققت من صحتها تلك المفزعة؟ ولو كان الأمر كذلك لنشجت البشرية كلها فى ذلك البكاء. وقد عرفت، فيما بعد، أنها لم تكن حتى تعرف ما هى الصحة. إن الصحة لا تقوم بتفحص ذاتها، ولا حتى أن تنظر إلى نفسها فى المرأة؛ نحن فقط المرضى نعرف بعض الأشياء عن أنفسنا.

حينئذ حكى لى أنها أحببتنى قبل أن تتعرف علىّ. أحببتنى منذ أن سمعت اسمى، الذى جاء على لسان والدها على هذا النحو: تزينو كوزينى، شاب طيب، ينتبه بدرجة كبيرة عندما يسمع حديثاً عن أى تصرف فطن فى مجال التجارة، ويسرع ليدونه ويحفظه فى دفتر إرشادات، لكنه يضيعه. ولو أننى ما تنبهت لاضطرابه عند أول لقاء لنا، لتوهمت بأننى كنت مضطرباً كذلك.

تذكرت أننى كنت شاردأ عندما رأيت أوجوستا؛ وهذا يرجع إلى دمامتها حيث كنت أتوقع أن أجد فى ذلك البيت الفتيات الأربع صاحبات الأسماء البائدة بحرف الألف وجمالهن الرائع. وها أنا ذا أعرف فى تلك

اللحظة أنها كانت تحبني منذ وقت بعيد، لكن ماذا كان يثبت ذلك؟ لم أرغب في إرضائها باستعادتي الثقة في نفسي. متى مت، ستستبدل بي آخر. بعد أن هدا بكأوها، استندت على بصورة أفضل، وفي الحال سألتني، وهي تضحك:

- أين يمكنني أن أعر على خليفة لك؟ ألا ترى كم أنا دميمة؟

حقاً، فمن المحتمل، أن يتاح لي ما يكفي من الوقت حتى أتخل في هدوء. لكن الخوف من الشيخوخة لم يعد يفارقني، الخوف الدائم من تسليم زوجتي لآخرين. لم يقل الخوف عندما خنتها، ولم يزد كذلك عند التفكير في فقدان العشيق بالأسلوب نفسه. كانت مختلفة تماماً، ليس لها أدنى شبه بالآخرى. عندما كان يداهمني الفزع من الموت، كنت ألجأ إلى أوجوستا لأجد عندها العون والسند، مثل أولئك الأطفال الذين يمدون أيديهم الصغيرة التي بها جرح إلى قبلة أمهم. كانت تجد دائماً كلمات جديدة لتهدئ من روعي.

في أثناء شهر العسل كانت تضيف إلى عمري ثلاثين عاماً أخرى من الشباب وآخرين مثلهم اليوم. في حين كنت أدرك أن أسابيع الفرح في رحلة شهر العسل تقربني من عبوس سكرات الموت المروع. كان لأوجوستا أن تقول ما تشاء، لكن اللحظة وشيقة: وكنت أدنو منها كلما مر أسبوع.

عندما لاحظت أن الألم نفسه يتشبث بي أحياناً كثيرة، تحاشيت أن أزعجها بالحديث دائماً عن الأمور نفسها، وحتى أجذب انتباهها إلى

حاجتى إلى ما يخفف عني الألم، كان يكفي أن أهمس: «كوزينى، يا لك من مسكين!» كانت تعرف حينئذ ما الذى يزعجنى بالضبط، وتسرع لتفمرنى بحبها الكبير.

وعلى هذا النحو تمكنت من الحصول على مؤازرتها، حتى عندما كنت أعانى من آلام مختلفة تمامًا. ذات يوم أعيانى الألم لأننى خنتها، وهمست خطأ: «مسكين كوزينى!». كان ما كسبته من ذلك كبيراً؛ لأن تسريتها عني فى تلك اللحظة كانت أيضاً ثمينة القدر.

عند عودتى من رحلة شهر العسل، أخذتنى الدهشة أنى لم أقطن مطلقاً فى بيت مريح ودافئ بهذه الدرجة. أدخلت أوجوستا به كل أسباب الراحة التى كانت تتوافر فى بيتها، لكن بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة ابتكرتها. فغرفة الحمام، حسبما تحفظ ذاكرة البشر، ظلت فى نهاية ممر يبعد نصف كيلو متر من حجرة نومى، اقتربت من حجرة فراشنا وتم تجهيزها بعدد أكبر من فوارات المياه. ثم كانت هناك حجرة صغيرة بجانب حجرة الطعام تحولت إلى غرفة لتناول القهوة. فرشتها بالبسط، وزينتها بمقاعد كبيرة من الجلد، وكنا نجلس بها كل يوم حوالى ساعة بعد تناول الإفطار. كان يتوافر كل ما يلزم للتدخين، ضد رغبتى. حتى حجرة مكتبى الصغيرة، على الرغم من أنى حاولت أن أحميها، طرأت عليها بعض التعديلات. كنت أخشى أن تنفرنى منها هذه التغييرات، لكن سرعان ما أدركت أنه فى تلك اللحظة فحسب أصبح من الممكن العيش بها. وضعت أوجوستا الإضاءة على نحو أستطيع معه القراءة

جالساً إلى المكتب، أو مستلقياً على مقعد أو مضطجعاً على الأريكة. حتى آلة الكمان وفرت لها حاملاً للقراءة له مصباح صغير رائع يلقي الضوء على الألحان دون أن يصيب العين. وكانت ترافقني هناك أيضاً، وضد رغبتى، جميع الأدوات اللازمة لكى أدخن فى سلام.

لهذا كانت عمليات البناء تتم كثيراً فى المنزل، ويصاحبها بعض الفوضى التى كانت تقلل من هدوئنا. بالنسبة لها، وهى من تعمل من أجل الخلود، أى لم يكن اختلالاً يسيراً ليعنى شيئاً، لكن بالنسبة لى فالمسألة تختلف. عارضتها بشدة عندما رغبت فى إنشاء مغسلة صغيرة فى حديقة منزلنا، وكان ذلك يتطلب إقامة مبنى صغير. أخذت تؤكد أن وجود المغسلة فى البيت يضمن صحة الأطفال. لكن حتى ذلك الحين لم يكن هناك أطفال، وكنت لا أرى أية ضرورة للانشغال بهم قبل مجيئهم. إلا أنها جلبت إلى بيتى القديم نزعة تأتى من الهواء الطلق، وفى لحظات الحب، كانت تشبه طائر السنونو الذى يفكر على الفور فى عُشّه.

لكننى كنت أعرف الحب أنا أيضاً، وأحمل إلى المنزل أزهاراً وجواهر. تغيرت حياتى كاملاً منذ أن تزوجت. بعد محاولة مقاومة هزيلة، تنازلت عن التصرف فى الوقت وفقاً لرغباتى، وتواءمت مع أكثر المواعيد صرامة.

وبناء على ذلك أتى تعليمى لها بنتائج رائعة. ذات يوم، فور العودة من شهر العسل، وبنية سليمة لم أذهب إلى المنزل لتناول الإفطار، وبعد أن تناولت الطعام فى أحد البارات، مكثت خارج البيت حتى حلول

المساء. عدت عندما أقبل الليل، ووجدت أن أوجوستا لم تتناول الإفطار وأنهكها الجوع. لم توجه إلى أى لوم، لكنها لم تقتنع بأنها أخطأت. وبلاطف، لكن بنبرة حاسمة، قالت إنه لو لم أخطرها من قبل، لظلت تنتظرني لتناول الإفطار حتى ساعة الغداء. لم يكن الأمر مزاحاً! مرة أخرى انسقت وراء صديق، ومكثت خارج المنزل حتى الثانية بعد منتصف الليل. وجدت أوجوستا تنتظرني وأسنانها تصطك من البرد؛ لأنها تغاضت عن تشغيل المدفأة. وتبع ذلك أيضاً وعكة خفيفة ألت بها، مما جعلنى لا أنسى ذلك الدرس الذى اقتصت به منى.

ذات يوم أردت أن أقدم لها هدية أخرى عظيمة: أن أعمل! كانت ترغب فى ذلك، وكنت أعتقد أنا نفسى أن العمل سوف يكون مفيداً لصحتى. من المفهوم أن المرء يشعر بالمرض بصورة أقل عندما لا يكون لديه وقت كافٍ له. ذهبت إلى العمل، وعلى الرغم من أننى لم أمكث به، لم يكن حقاً ذنبى. ذهبت إليه وأنا أحمل معى أحسن النيات واستعداداً صادقاً للتواضع، لم أطالب بالمشاركة فى إدارة الأعمال، ولكنى مع ذلك طلبت أن أمسك بدفتر الأستاذ. وأمام ذلك الدفتر الضخم الذى سُجلت به الحسابات المدينة والدائنة بطريقة مصفوفة على شاكلة الطرق والمنازل، شعرت باحترام يملؤنى وبدأت أسجل ویدی ترتجف.

أخذ ابن السيد أوليفى على عاتقه مهمة تعليمى، ولم أستاذ منه فى واقع الأمر، وكان شاباً يافعاً أناقته معتدلة، يضع نظارة على عينيه وعلى علم بجميع العلوم التجارية. أزعجنى بعض الشئ بعلمه فى مجال الاقتصاد

ونظرية العرض والطلب، التي كنت أرى في وضوحها ما يفوق عدم اعترافه بذلك. لكنى كنت ألس فيه نوعاً من الاحترام لصاحب العمل، وكنت أقدر فيه ذلك كثيراً، فلم يكن من المعقول أن يكون قد تعلمه من والده. إن احترام الملكية كان بلا شك جزءاً من علمه بالاقتصاد. لم يوجه لى قط اللوم على الأخطاء التي كثيراً ما كنت أرتكبها في عملية التسجيل؛ كان يميل إلى أن يرجعها إلى عدم المعرفة وحسب، ويقدم لى إيضاحات مفرطة بحق.

السيئ في الأمر أنني من فرط النظر في الصفقات التجارية، تملكنتى الرغبة في القيام بها. في وضوح شديد، تخيلت جيبي يتمثل في ذلك الدفتر عندما كنت أقوم بتسجيل الحسابات المدينة للعملاء، وقلت أنني أمسك بيدي بدلاً من القلم تلك العصا الصغيرة التي يمسك بها "الكروبييه"^(١) ليجمع التقود المتناثرة على منضدة اللعب.

كان الشاب أوليفي يطلعنى كذلك على المراسلات اليومية، وكنت أقرأها بانتباه، وينبغى القول إننى في البداية كنت أمل في فهمها بصورة أفضل من الآخرين. وذات يوم سيطر على اهتمامى المشغوف عرض مألوف للغاية. وحتى قبل أن أقرأه شعرت بشيء ما يختلج بصدرى سرعان ما تعرفت عليه في ذلك الهاجس الغامض الذي كان يأتينى أحياناً وأنا جالس إلى مائدة القمار. من الصعب وصف مثل هذا

(١) موظف مسئول عن إدارة اللعب على مناضد القمار.

الإحساس المسبق. إنه يتمثل في اتساع للرئتين يسمح باستنشاق الهواء في متعة على الرغم من أنه معبأ بالدخان. لكن لا يزال هناك المزيد: سرعان ما تدركون أنكم في تحسن متزايد إذا ضاعفتم مبلغ المقامرة. ولكن الأمر يحتاج إلى الخبرة لفهم ذلك كله. فمن الضروري الابتعاد عن مائدة القمار والجيوب فارغة والشعور بالألم لتركها؛ وعندئذ لن يزول الألم. وحينما نتركها، فلا مفر في ذلك اليوم لأن الأوراق ستأخذ بثأرها؛ ذلك لأن الأمر حول المائدة الخضراء يصبح أكثر تسامحاً لعدم الإحساس بذلك الشعور منه أمام دفتر الأستاذ ذلك الرابض على المكتب. وأنا في واقع الأمر أدركت ذلك في وضوح، وهو يصبح بداخلي:

«اشتر في الحال تلك الفاكهة الجافة!».

تحدثت عن هذا الأمر بهدوء تام إلى السيد أوليفي، بالطبع دون الإشارة إلى ذلك الإيحاء. أجاب أنه لا يقوم بتلك الصفقات إلا لصالح الآخرين، عندما يستطيع أن يحقق شيئاً من الربح؛ ومن ثم كان يستبعد من صفقاتي قدرة إيحاءاتي ويحتفظ بها للآخرين.

عند حلول الليل تأكد اقتناعي: كان الحدس إذن يكمن بداخلي. كنت أتنفس جيداً لدرجة أنني لم أغضض جفني. أحسست أوجوستا بقلقي، وكان عليّ أن أخبرها عن السبب. في الحال شعرت بإيحاءني نفسه، وأخذت تهمس في أثناء نومها:

– ألسنت أنت صاحب العمل؟

فى الحقيقة عندما أشرق الصبح، وقبل أن أأادر المنزل، قالت لى
وهى قلقة:

- لا يلىق بك أن تغضب أولىقى. أترى أن أأحدث إلى أبى فى
هذا الشأن؟

لم أرغب فى ذلك؛ لأننى كنت أعلم أن آوآانى كان لا يعطى أىضاً
أهمية كبيرة للإىحاءات.

وصلت إلى المكتب وقد عقدت النية على أن أقاوم من أجل فكرتى
حتى أثار للأرق الذى عانيت منه. استمرت المعركة حتى منتصف النهار
عندما تم النطق باللفظ المفيد لقبول العرض. ظل أولىقى ثابتاً على رأيه،
وتخلص منى بتعليقه المعتاد:

- ربما ترغب سيادتك فى التقليل من شأن مهاراتى التى رآها فى
المرحوم والدك؟

عدت فى تلك اللحظة فى شىء من الضيق إلى دفترى، وقد عزمتم
ألا أقحم نفسى بعد ذلك فى مشاريع أخرى. لكن مذاق العنب المجفف
ظل فى فمى، وكل يوم كنت أستعلم عن سعره فى البورصة. لم أنشغل
بشىء آخر غيره. كان يرتفع شيئاً، فشيئاً، كما لو أنه كان فى حاجة
لاستجماع قواه لى يقفز. ثم فى يوم واحد كانت الوثبة هائلة إلى أعلى.
كان الحصاد هزىلاً ولم ندر به إلا فى تلك اللحظة. إن الإىحاء لشىء
عجيب! إنه لم يتحسب للحصاد الضئيل بل لارتفاع السعر وحسب.

أخذت الأوراق بثأرها . وعلى ذلك لم أستطع البقاء أمام دفتر الأستاذ، وفقدت كل أنواع الاحترام لأساتذتي، حتى إن أوليفي لم تبدُ حينئذ عليه الثقة بأنه أحسن صنعا . ضحكت وسخرت؛ وكان ذلك ما يشغلني بالدرجة الأولى.

وصل عرض آخر ثمنه يكاد يبلغ الضعف. سألتني أوليفي النصيحة، لكي يهدي من روعي، فقلت بلهجة ظافرة، إنني لن أكل العنب بهذا السعر. فهمهم أوليفي، الذي شعر بالإهانة، قائلاً:

– سأتبع النظام الذي سرت عليه طوال حياتي.

وذهب سعياً وراء المشتري. عثر على راغب في كمية قليلة للغاية، وبما عرف به من نياتة الحسنة، عاد إليّ وسألتني في تردد:

– هل أضمنها، عملية البيع هذه الصغيرة؟

أجبت، ونيتي سيئة:

– لو أردت لضمنتها قبل أن أقوم بها.

انتهى أوليفي إلى أن فقد قوة اقتناعه، وترك عملية البيع بلا ضمان. واصل سعر العنب الارتفاع وتكبدنا خسارة كل ما كان يمكن أن نخسره في هذه الكمية القليلة.

لكن أوليفي غضب مني، وصرح بأنه قد غامر فقط إرضاءً لي. نسي الداهية أنني نصحته باللعب على اللون الأحمر؛ ولكي يستخف بي،

لعب هو على اللون الأسود. أصبح الخلاف بيننا لا أمل فى إصلاحه. استغاث أوليفى بحماى وأخبره أن الشركة بينى وبينه ستتدهور أوضاعها، وسينسحب هو وابنه ليخلى لى الساحة، إذا ما رغبت أسرتى فى ذلك. فى الحال بت حماى فى الأمر مراعاة لأوليفى. وقال لى:

- إن صفقة الزيب درس مفيد للغاية. أنتما رجلان لا يمكنكما أن تظلا معاً. والآن من عليه أن ينسحب؟ من لن يستطيع إتمام صفقة واحدة رابحة دون الآخر، أم من يدير بمفرده هذه الشركة منذ نصف قرن؟

حث چوڤانى ابنته أيضاً على إقناعى ألا أقحم بعد نفسى فى إدارة مشاريعى.

- يبدو أن طبيبك وحسن نيتك - هكذا قالت لى - جعلاً منك رجلاً غير مؤهل للصفقات. ابق معى فى البيت.

تخلّيت وقد اشتد حنقى على قضيتى، أو بالأحرى قبعيت فى حجرة مكتبى.

أخذت أقرأ بفتور وأعزف لبعض الوقت ، ثم شعرت برغبة فى مزاولة نشاط من الأنشطة أكثر جدية، وكدت أعود إلى دراسة الكيمياء أو القانون. فى نهاية الأمر، ولا أعرف لماذا، انشغلت لبعض الوقت فى دراسة الدين. رأيت أن أستاذف الدراسة التى ابتدأتها عند رحيل والدى. ربما كانت هذه المرة محاولة فعالة كى أدنو من أوجوستا ومن صحتها.

لم يكف أن أذهب معها إلى القديس؛ كان على أن أذهب إلى هناك، وأن أقرأ أيضاً ريتان وستراوس، أقرأ أولهما بمتعة، والثاني على مضض كأنه عقاب لى. أتحدث عن ذلك هنا فقط؛ لأكشف عن أية رغبة كبيرة جعلتني أرتبط بأوجوستا. أما هي فلم تدرك هذه الرغبة عندما رأت في يدي الإنجيل في طبعة مزودة بالشروح. كانت تفضل عدم الاكتراث بالعلم، وبناءً عليه لم تستطع تقدير أكبر دليل على الحب الذي منحتها إياه. عندما كانت تتوقف، كماداتها، خلال زينتتها أو أعمال المنزل، لتطل على باب حجرتي وتلقى على عبارة تحية، وتجذني منكباً على هذه الكتب، كانت تلوى شفيتها قائلة:

– أما زلت مشغولاً بهذا الشأن؟

إن الدين الذي كانت أوجوستا في حاجة إليه لا يتطلب وقتاً لاكتسابه أو ممارسة شعائره. فهو انحناءة ثم العودة الفورية للحياة! ليس أكثر من ذلك. كان الدين بالنسبة لى يكتسب شكلاً مختلفاً تماماً. لو كان عندي إيمان حقيقي، لما كنت أملك سواه في هذا العالم.

من جانب آخر كان الملل يصيبني أحياناً في حجرتي الصغيرة التي تم تنسيقها بصورة رائعة. كان على الأصح شعوراً بالقلق؛ لأنني كنت أحس برغبة شديدة في العمل تملكني في تلك الفترة بالتحديد، لكنني كنت أتوقع أن تفرض الحياة على بعض المهام. وفي أثناء فترة الانتظار تلك كنت أخرج بانتظام، وأقضى ساعات طوالاً بمقر التيرچيستيو أو بالمقهى.

كنت أعيش متظاهراً بمزاولة نشاط من الأنشطة. نشاط مثير
للشأن.

جاءت زيارة صديق لى من أيام الدراسة بالجامعة، واضطر أن يعود
فى عجلة كبيرة إلى بلد صغير بالتمسا ويعالج من مرض خطير، وكانت
بمثابة آلهة الثأر بالنسبة لى، على الرغم من أنها لم تتخذ مظهره.

جاءنى بعد أن لازم الفراش لمدة شهر بمدينة تريستى، وكان ذلك
كافياً لتحويل مرضه، وهو التهاب بالكلى، من الحالة الحادة إلى المزمنة
التي ربما لا أمل فى الشفاء منها. لكنه كان يعتقد أن حالته تتحسن
وكان يستعد وهو سعيد للانتقال مباشرة، فى أثناء الربيع، إلى أماكن
ذات مناخ أكثر اعتدالاً من جو مدينتنا، حيث كان يتطلع إلى استعادة
صحته كاملة. ربما أضر به بقاؤه طويلاً فى مسقط رأسه فى تلك
البيئة القاسية.

أعتبر زيارة ذلك الرجل الذى اشتد عليه المرض، لكنه سعيد
ومبتسم، زيارة باعثة للشؤم بالنسبة لى؛ لكن ربما أكون مخطئاً: إنها لا
تسجل إلا تاريخاً معيناً فى حياتى، كان لابد من اجتيازه.

اندهش صديقى، ويدعى أنريكو كوبلر، أننى لم أعلم شيئاً عن أخباره
وعن مرضه الذى كان چوفانى على علم به. لكن چوفانى، منذ أن مرض
هو الآخر، لم يكن لديه وقت لأحد ولم يخبرنى بشيء عن هذا على الرغم
من أنه كان يأتى كل يوم مشمس إلى فيلتي ليضطجع فى الهواء
الطلق لبضع ساعات.

أمضيت عصر اليوم فى غاية البهجة وسط مريضين. دار الحديث عن مرضيهما، الأمر الذى يبعث بالراحة الكبيرة للمريض، ولا يبعث حزنًا كبيراً للأصحاء الذين يجلسون للاستماع. كان هناك فارق وحيد بينهما، حيث كان چوڤانى يحتاج إلى الهواء الطلق الذى كان محرمًا على الآخر. زال الفارق عندما هبت ریح خفيفة دفعت چوڤانى أيضاً إلى البقاء معنا، فى الحجرة الصغيرة الدافئة.

حكى لنا كويلر عن مرضه الذى كان لا يؤله بل يسلب منه القوة. فى تلك اللحظة فقط التى شعر فيها بتحسّن أدرك كم كان مريضاً. تحدث عن الأدوية التى كان يتجرعها، وعندئذ بلغ اهتمامى أشده. فضلاً عن ذلك نصحه الطبيب باتّباع نظام فعال يوفر له نومًا عميقًا، دون أن يؤذيه بتناول عقاقير منومة. إنه الشئ الذى كنت فى حاجة إليه بالضبط!

ولو هلة توهم صديقى المسكين، أننى مصاب بمرضه نفسه، عندما أحس باحتياجى إلى دواء، ونصحنى أن أعرض نفسى للفحص، أن أتحدث مع طبيب، وأن أخضع للتحاليل.

أخذت أوجوستا تقهقه ضاحكة، وصرحت بأننى لست إلا مريضاً وهمياً. حينئذ مر على وجه كويلر الهزيل تعبير أشبه بالأسى. على الفور، وبشجاعة، تخلص من الإحساس بالدونية الذى بدا وكأنه يكبله، وهاجمنى بحيوية شديدة قائلاً:

- مريض وهمي؟ حسناً، أنا أفضل أن أكون مريضاً حقيقياً.
قبل كل شيء فالمرضى الوهمي يمثل تشوهاً باعثاً على السخرية، ثم إنه
لا توجد له عقاقير؛ لأنها، كما ترون بالنسبة لحالتي، لها دائماً أثرها
علينا نحن المرضى الحقيقيين!

كانت كلمته تبدو وكأنها صدرت من رجل سليم، ولكي أكون صادقاً،
تأملت منها.

انضم حمای في الحديث معه بحيوية كبيرة، لكن كلماته لم تتمكن
من الازدراء من المريض بالوهم؛ لأنها في وضوح شديد، كانت تفضي
الشعور بالحسد إزاء السليم. قال إنه لو كان يتمتع بصحة سليمة مثلي،
فبدلاً من إزعاج الآخرين بشكواه المتواصلة، كان سيسرع إلى مشاريعه
المحبة إلى نفسه والرابعة، خاصة بعد أن تمكن من إنقاص حجم بطنه.
إنه لم يكن يدرك كذلك أن نحافته لا تعد مؤشراً لصالحه.

إثر هجوم كويلر عليّ، اتخذت حقيقة مظهر المريض، بل مريض
تعرض للإساءة. شعرت أوجوستا بالحاجة إلى التدخل لمساعدتي. قالت،
وهي تداعب يدي التي أرخيتها على المائدة، إن مرضي لا يسبب إزعاجاً
لأحد، وإنها لم تقتنع مطلقاً أنني أتوهم المرض، وإلا لما شعرت بتلك
السعادة في الحياة. وهكذا عاد كويلر إلى حالة الدونية التي حكم عليه
بها. كان وحيداً تماماً في هذا العالم، وإن كان بإمكانه منازلتي في مسألة
الصحة، فما استطاع أن يواجهني بأية عاطفة حانية تشبه تلك التي

كانت أوجوستا تقمرنى بها. استسلم واعترف لى فيما بعد، حين كان بحاجة ماسة إلى ممرضة، كم كان يحقد على لهذا السبب.

وتتوالى الأيام، وتستمر المناقشة بنبرة أكثر اعتدالاً، فى حين كان جوفانى يرقد فى الحديقة. بعد أن أمعن التفكير، أخذ كويلر يؤكد حينئذ أن المريض بالوهم هو مريض حقيقى، لكن بصورة أكثر شدة وأكثر عمقاً. ففي حقيقة الأمر تكون أعصابه قد تهيأت على تحمل مرض لا وجود له، فى حين أن وظيفتها الطبيعية تكمن فى الإنذار بالألم والحث على الإسراع لمواجهته.

- نعم! أجبت. كما يحدث بالأسنان، حيث يظهر الألم فقط عندما يتكشف العصب، وينبغى إخماده حتى يحدث الشفاء.

أفضى به الأمر إلى الاتفاق معى فى رأى أن المريض الحقيقى والمريض بالوهم متساويان. إن التهاب الكلى عنده افتقر، وظل يفتقر إلى إنذار من الأعصاب، فى حين أن أعصابى، على العكس منه، ربما كانت شديدة الحساسية حتى تتذرنى بالمرض الذى سيقضى على بعد ما يقرب من عشرين عاماً. كانت إذن أعصاباً سليمة تماماً وعيبتها الوحيد هو أنها منحنتى أياماً قلائل من السعادة فى هذا العالم. شعر كويلر برضاء كامل، عندما تمكن من تصنيفى كمريض بين المرضى.

لا أدري لم كان لدى ذلك المريض المسكين هوس الحديث عن النساء، ذلك الذى كان لا يدير غيره عند غياب زوجتى. كان يزعم أن الجنس يضاف بالنسبة للمريض الحقيقى، ذلك على الأقل فى حالة الأمراض

التي كنا نعرفها، مما يشكل دفاعاً قوياً لجسم الإنسان، في حين أن المريض بالوهم الذي لا يعاني إلا من اضطراب الأعصاب المجهدة بصورة زائدة (هذا طبقاً لتشخيصنا) يكون الجنس لديه نشطاً بشكل مرضي. عضدت نظريته بخبرتي، ورثي كل منا لحال الآخر. لا أعلم لماذا لم أفكر في إخباره بأنني بعيد عن أي خلل في نظام الجسم منذ وقت مضى. كنت أستطيع على أي حال أن أقر بأنني أعد نفسي متماثلاً للشفاء إن لم أكن سليماً، لكي لا أفرط في جرح مشاعره، ولأنه يصعب القول بأننا أصحاء عندما نطلع على جميع تعقيدات جسمنا البشري.

- أترغب في جميع النساء الجميلات اللاتي تراهن؟ أخذ كويلر يواصل التحري.

- ليست جميعهن! هممت لأخبره أنني لست مريضاً إلى هذه الدرجة. ومع ذلك كنت لا أرغب في أدا التي كنت أراها كل مساء. تلك كانت بالنسبة لي، المرأة الممنوعة حقاً. إن حفيف تنوراتها لم يكن يعنى لي شيئاً، ولو سمح لي أن أحركها بيدي هاتين، لما تغير في الأمر شيء. لحسن الحظ أنني لم أتزوجها. إن عدم اهتمامي ذاك كان، أو كان يبدو لي، عرضاً من أعراض الصحة الطبيعية. ربما كانت رغبتى فيها عنيفة بالدرجة التي أدت إلى إخمادها من تلقاء نفسها. لكن عدم اكتراثي امتد أيضاً إلى ألبرتا على الرغم من أنها كانت لطيفة جداً في زيارتها المدرسي الأنيق والجاد. هل كان امتلاكي لأوجوستا كافياً لكي يسكت رغبتى لعائلة مالفتي جميعها؟ لو كان كذلك لكان أمراً أخلاقياً بحق.

ربما لم أتحدث عن أخلاقي الفاضلة؛ لأنني كنت أخون أوجوستا دائماً في خاطري، وحتى تلك اللحظة، وأنا أتحدث مع كوبلر، كنت أفكر في النساء جميعهن اللاتي كنت أتجاهلهن من أجلها. تذكرت النساء اللاتي يسرعن في الطرق، الملابس تغطيهن تماماً، ولهذا فإن أعضاءهن الأنثوية الثانوية كانت لها أهمية بالغة، في حين كانت تختفي لدى المرأة التي كنت أمتلكها، كأنما تسبب التملك منها في ضمور هذه الأعضاء. كانت الرغبة في المغامرة تتسلط عليّ دائماً؛ تلك المغامرة التي تبدأ بالإعجاب بحذاء، أو قفاز، أو تنورة، الإعجاب بكل ما يحجب ويغير الشكل. لكن هذه الرغبة لم تكن تصل إلى الخطيئة. لكن كوبلر لم يُحسِّن تحليل حالتي. إن عملية إفهام الآخر بما هو عليه، إنما هي وسيلة للسماح له بالتصرف حسبما يشاء. لكن كوبلر قام أيضاً بما هو أسوأ من ذلك، إلا أنه سواء عندما تحدث، أو تصرف، لم يستطع أن يتوقع إلى أين يسوقني.

وعلى هذا النحو تظل كلمة كوبلر ذات أهمية في ذاكرتي، وكلما تذكرتها، تستحضر كل ما يرتبط بها من أحاسيس، وأشياء وأشخاص. كنت قد رافقت صديقي إلى الحديقة، وكان عليه أن يعود إلى منزله قبل الغروب. وكانت قبيلتي تقع على تل، وتطل على الميناء والبحر، ذلك المشهد الذي تحجبه الآن مبان جديدة. وقفنا نتأمل البحر طويلاً، وكان يحركه نسيم خفيف يعكس ضوء السماء الصافية إلى أضواء حمراء لا حصر لها. كانت شبه جزيرة استريا تريح العين بلون خضرتها الهادئ الذي

يمتد على شكل قوس ضخم بالبحر كالظل الجسم. كانت أرصفة الميناء والسدود تبدو ضئيلة لا أهمية لها، وهى بأشكالها وخطوطها تلك الجافة، والماء فى الأحواض كان لونه داكناً بسبب ركوده أو ربما كان عكراً؟ تضاعل هدوء ذلك المشهد الرحب حيال الضوء الأحمر المتحرك على المياه ما إن عشتت منه أبصارنا بعد قليل، استدرنا عن البحر. وكان ظلام الليل يخيم على العكس على الفناء الصغير أمام البيت.

كان صهرى يرقد أمام الممشى، على مقعد رحب، ويغطي رأسه بقبعة ويحتمى أيضاً بياقة ترتفع من الفراء، وساقاه ملفوفتان بغطاء من الأغطية. توقفنا للنظر إليه. كان فمه مفتوحاً، وفكه السفلى يتدلى كأنه لا ينبض بالحياة، وكانت أنفاسه متلاحقة وتحدث صوتاً عالياً. وبين الحين والآخر كانت رأسه تسقط على صدره وكان يرفعها، دون أن يستيقظ. كان جفناه يتحركان فى تلك اللحظة، كأنما أراد أن يفتح عينيه ليستعيد توازنه بصورة أسهل، وكان إيقاع تنفسه يتغير. كانت لحظات ينقطع فيها للنوم حقاً.

كانت المرة الأولى التى رأيت فيها وبوضوح شديد مرض حماى الخطير، وتأملت لذلك ألماً شديداً.

قال لى كويلر بصوت خفيض:

- إنه يحتاج إلى علاج. ربما يكون مريضاً أيضاً بالتهاب الكلى. إن ما به ليس نوماً: أنا أعلم بحالته تلك. ياله من مسكين!

أنهى حديثه، ونصح باستدعاء طبيبه.

سمعنا جوفاني وفتح عينيه. بدا عليه في الحال أنه أقل مرضاً،
وأخذ يمزح مع كوبلر:

– تخاطر سيادتك بالجلوس في الهواء الطلق؟ ألن يصيبكم أذى؟

كان يظن أنه استمتع في أثناء نومه، ولم يعرف أنه تعرض للاختناق
أمام ذلك البحر الهائل الذي كان يمدده بالواقع منه! ومع ذلك كان صوته
خافتاً، ويقطع لهاث أنفاسه كلامه؛ كان وجهه شاحباً عندما نهض من
على المقعد، وكان يشعر بالبرد الشديد. كان لابد أن يحتّمى داخل البيت،
ما زلت أراه يتحرك في الفناء، والغطاء تحت ذراعه، كان يلهث وعلى
الرغم من ذلك يضحك، ويلقى علينا بالتحية كذلك.

– أترى كيف يكون المريض الحقيقي؟ قال كوبلر الذي لم يستطع
التخلص من تلك الفكرة المتسلطة عليه. إنه على وشك الموت، ولا يدرك أنه
مريض.

بدا لي أنا أيضاً أن المريض الحقيقي يتألم قليلاً. يستريح حمای
وكوبلر معاً في مدافن سانتانا منذ سنوات عديدة، غير أنني مررت يوماً
بجوار قبوريهما، وأيقنت أن تلك النظرية التي طرحها أحدهما لم تبطل مع
طول رقدتها تحت حجارة القبر.

قبل أن يترك مسكنه القديم، قام كوبلر بتصفية أعماله وهكذا،
مثلي، لم يعد لديه منها شيئاً على الإطلاق. لكنه، ما إن غادر فراشه، لم
يقف ساكناً، وبينما كان يفتقر إلى شئون خاصة يهتم بها، أخذ يهتم

بشئون الآخرين التي كانت تبدو له ذات أهمية كبيرة. كنت أسخر من ذلك آنذاك، لكن فيما بعد تحتم علىّ أنا أيضاً أن أكتشف أى مذاق مقزز تتمتع به شئون الآخرين. أخذ يهتم بأعمال الخير، ولما كان عقد العزم على العيش من أرباح ماله فقط، لم يكن بإمكانه أن ينعم بالقيام بتلك المهمة على نفقاته الخاصة فقط؛ ولهذا أخذ يجمع التبرعات ويلزم بها الأصدقاء والمعارف. كان يسجل كل شىء، كما يجدر برجل أعمال بارع مثله، وأحسست أن ذلك الدفتر كان زاده الأخير وأنى، لو كنت فى حالته، مريض محكوم علىّ بأجل قصير وليس لى عائلة مثله، لأثريت ذلك السجل على حساب مالى. لكنه كان يتوهم أنه شخص سليم، ولم يكن يمس سوى الأرباح التي كانت تخصه، ولم يتمكن من التسليم بمستقبل قصير المدى.

ذات يوم فاجأنى بطلب بضعة مئات من الكورونات لشراء بيانو صغير لفتاة فقيرة كنت أكفلها عن طريقه مع آخرين، بمرتب شهرى هزيل. كان لابد من الإسراع لاغتنام مثل تلك الفرصة المواتية. لم أستطع الامتناع، لكنى، بشىء من عدم اللياقة، عبرت عن أننى أحسن عملاً لو لم أخرج من منزلى فى ذلك اليوم. فأنا شخص تتملكه نوبات من الشح الزائد من حين إلى آخر.

أخذ كويلر المال، وانصرف بكلمة شكر وجيزة، لكن كان لكلماتى أثرها بعد مرور أيام قلائل وبلغ، مع الأسف، درجة من الأهمية. جاء ليخبرنى أن البيانو الصغير على ما يرام، وأن الأنسة كارلا چيركو

ووالدتها ترجوانى أن أذهب لزيارتهما حتى توجهنا لى الشكر. كان كويلر يخشى أن يفقد أحد عملائه، وأراد أن يربطنى به بأن يمتعنى بمذاق عمل الخير.

فى بادئ الأمر كنت أريد التخلص من ذاك الإزعاج وأكدت له أننى على اقتناع تام بأنه قدير فى القيام بأعمال الخير، لكنه أصر حتى انتهى بى الأمر إلى الموافقة:

– هل هى حسناء؟ سألتها ضاحكاً.

– رائعة الجمال – أجابنى – لكنها ليست طعاماً لأسناننا.

إنه لشيء عجيب أن يضع أسنانه وأسنانى معاً، مع خطورة أن ينقل لى عدوى تسوس أسنانه. حكى لى عن استقامة تلك العائلة المنكوبة التى فقدت عائلها منذ بضع سنوات، وأنها على الرغم من فقرها الشديد تحيا حياة شريفة على نحو صارم.

لم يكن يوماً جميلاً. هبت فيه ريح ثلجية، وكنت أحقد على كويلر؛ لأنه كان يرتدى معطفاً من الفراء. كان على أن أمسك القبعة بيدي وإلا طارت فى الهواء. لكننى كنت أشعر بالسرور، حيث أذهب لأتلقى العرفان بالجميل مقابل حبنى للآخرين. قطعنا شارع كورسيا ستاديون سيراً على الأقدام، وعبرنا الحديقة العامة. كانت ناحية من المدينة لم أرها قط. دخلنا أحد البيوت التى كانت تسمى ببيوت التأمل، التى بناها أسلافنا منذ أربعين عاماً، فى أماكن نائية عن المدينة التى سرعان ما طغت عليها؛

كان مظهرها متواضعاً مع أنها تفوق في قيمتها المنازل التي تبني في وقتنا الحاضر للأهداف نفسها. كان السلم يشغل حيزاً ضيقاً؛ ولهذا كان درجه عالي الارتفاع.

توقفنا في الطابق الأول، حيث وصلت أسرع كثيراً من صاحبي؛ لأنه كان يصعد ببطء شديد. أصابتني الدهشة عندما رأيت لافتتين مكتوباً عليهما اسم كارلا چيركو، معلقتين بمسامير على البابين الجانبيين من الأبواب الثلاثة التي كانت تطل على بسطة السلم، في حين كان الباب الثالث يحمل أيضاً لافتة لكن باسم آخر. فسّر لي كوبلر أن ما يخص عائلة چيركو هو مطبخ وحجرة نوم على اليمين، في حين لا يوجد على اليسار سوى حجرة واحدة، هي مكتب الأنسة كارلا. وقد استطاعت أن تؤجرا من الباطن جزءاً في وسط الشقة، وعلى هذا النحو أصبح الإيجار لا يكلفهما كثيراً، لكن كان يزعجهما عبور بسطة السلم للذهاب من حجرة إلى أخرى.

قرعنا الباب على الجانب الأيسر، باب حجرة المكتب وبها الأم والفتاة، اللتان كانتا على علم بزيارتنا، وفي استقبالنا. قام كوبلر بعملية التعارف بيننا. كانت السيدة إنسانة خجولاً جداً ترتدى ثوباً فقيراً أسود اللون، ورأسها يعتليه الشيب، وتحدثت معي حديثاً وجيزاً، لابد أن أعدته من قبل: كانتا تشعران بالامتنان لزيارتي، ووجهتا الشكر لي للهدية العظيمة التي قدمتها لهما. ثم لم تتفوه الأم بكلمة واحدة بعد ذلك.

كان كويلر يشاهدنا مثل معلم يجلس منصتاً في امتحان رسمي للدرس الذي قام بجهد كبير في تلقينه. راجع السيدة قائلاً إنني لم أتبرع لشراء آلة البيانو وحسب، بل كنت أساهم أيضاً في المعونة الشهرية التي كان يعمل على تجميعها لهما. كان يحب الدقة.

نهضت الأنسة كارلا من على المقعد حيث كانت تجلس بجوار البيانو،

صافحتني وقالت لي مجرد كلمة واحدة:

- أشكرك!

لم يستغرق ذلك على الأقل وقتاً طويلاً. أخذت شحنة حب الناس تثقل عليّ. كنت أنشغل أنا أيضاً بشئون الآخرين مثل أى مريض حقيقى! أى شيء كان يمكن أن تراه في تلك الفتاة الجذابة؟ قد ترى شخصاً جديراً بالاحترام ولكنه ليس رجل الأحلام! وكانت حقاً حسناء! أظن أنها أرادت أن تبدو أصغر سناً عما كانت عليه، بتنورتها تلك القصيرة جداً بالنسبة للذوق السائد في ذلك الحين، إلا إذا كانت ترتدى في المنزل تنورة من تنورات الفترة التي كان نموها لم يكتمل فيها بعد. ومع ذلك كان رأسها رأس امرأة، ترغب في إعجاب الآخرين بها لما يوحى به شعرها المصفف بصورة متكلفة بعض الشيء. اتخذت جديلتا شعرها الغزير الأسود شكلاً جميلاً يغطي أذنيها وجزءاً من عنقها. سيطر على الوقار لدرجة أنني خشيت نظرة كويلر الفاحصة، حتى إنني

فى البداية لم أمعن النظر إلى الفتاة؛ لكنى الآن أعرفها جيداً. كان صوتها يحمل شيئاً من النغم عندما تتحدث فى تصنع، اتخذ بعد ذلك سمة طبيعية. كانت تستمتع بمد مقاطع الألفاظ، كأنما أرادت أن تداعب الأصوات الصادرة فيها؛ ولهذا وفضلاً عن بعض الحروف الصائتة التى كانت تمد فى نطقها بصورة مبالغ فيها بالنسبة لمدينة تريستى، فإن لغتها كانت ما يشبه اللكنة الأجنبية. علمت بعد ذلك أن بعض المعلمين، وهم يقومون بتعليم قواعد النطق، يغيرون معيار الصوت. كانت طريقة نطقها للأصوات تختلف تماماً عن آدا. كان كل صوت تنطق به يبدو لى وكأنه صوت حب.

فى أثناء تلك الزيارة كانت الأنسة كارلا تبتسم طوال الوقت، ربما كان يخيّل إليها أنها تطبع بذاك على وجهها العرفان بالجميل. كانت ابتسامة مفتعلة بعض الشيء؛ ذاك كان الشكل الحقيقى للعرفان بالجميل. بعد ذلك، عندما أخذت أحلم بكارلا بعد مرور ساعات قليلة، هبى لى أنه كان على ذلك الوجه صراع بين السعادة والألم. ثم لم أجد فيه شيئاً من ذلك كله، ومرة أخرى تأكدت من أن جمال الأنتى يقوم بتمثيل مشاعر لى له علاقة بها. وعلى هذا التحوفان قماش اللوحة المرسوم عليها المعركة لا يتمتع بأى إحساس بطولى.

كان كويلر سعيداً بالتعارف الذى أجراه بيننا، كما لو كانت السيدتان عمليّن من أعماله. أخذ يصفهما لى: كانتا دائماً راضيتين بنصيبيهما فى الحياة وتعملان. كان يقول كلمات تبدو كما لو أنه أخذها

من كتاب مدرسى، ويبدو أنى بإيماءاتى الآلية برأسى، أردت أن أؤكد له علمى بذلك ومعرفتى بالتالى بما يمكن أن تكون عليه الفقرات الفضليات اللاتى حرمن من المال.

ثم طلب من كارلا أن تغنى لنا شيئاً. لم ترغب فى الغناء متعلقة بإصابتها بنزلة برد. واقتрحت أن تقوم بذلك فى يوم آخر. كنت أشعر بتعاطف معها أنها تخشى حكماً عليها، لكنى كنت أرغب فى إطالة الجلسة وشاركت كوبلر فى رجائه. قلت أيضاً إنى لا أدرى ما إذا كانت سترانى مرة أخرى؛ لأننى مشغول جداً. أكد كوبلر بجدية شديدة ما قلته، على الرغم من أنه يعلم أنه لم يكن لدى أى التزام فى هذا العالم. ثم فى سهولة فهمت أنه لم يكن يرغب فى أن أعود لرؤية كارلا على وجه الإطلاق.

حاولت أن تعتذر مرة أخرى، لكن كوبلر أصر على طلبه بكلمة أشبه بالأمر فإطاعته: كم كان سهلاً إرغام تلك الفتاة!

غنت أغنية "رايتى". أخذت أتابع غنائها وأنا جالس على أريكة ناعمة الملمس. انتابتنى رغبة شديدة فى أن أمتع عينى بها. كم كان يسعدنى أن أراها فى ثوب الموهبة! لكنى على العكس اندهشت عندما شعرت بأن صوتها، وهى تغنى، كان يفقد كل نغماته. كان يتبدل بالجهد الذى تبذله فى الغناء. كانت كارلا لا تجيد العزف أيضاً وأخذت مصاحبتها القاصرة تزيد فقراً على تلك الموسيقى الفقيرة. تذكرت أنى

أمام تلميذة، وتساءلت عما إذا كانت قوة الصوت كافية. كانت على العكس فائقة! أصابت بالجراح أذنى فى ذلك المكان الضيق. ولكى أتمكن من الاستمرار فى تشجيعها، رأيت أن مدرستها فقط هى السيئة. عندما توقفت، شاركت كويلر فى تصفيقه الحار المخادع. أخذ يقول:

– تتصور مدى التأثير الذى سيكون لهذا الصوت إذا ما صاحبه فرقة موسيقية جيدة.

كان هذا بلا شك حقيقياً. كانت هناك حاجة لجوقة موسيقية كاملة لمصاحبة هذا الصوت. قلت بصراحة شديدة إننى أنتظر أن أستمع إلى الأنسة مرة ثانية بعد بضعة أشهر، وحينئذ سأبدي رأى فى تقويم مدرستها. أضفت ولم أكن فى ذلك صادقاً تماماً أن ذلك الصوت كان دون شك مدرسة من الدرجة الأولى. ثم فى تبرير، أخفف به من وطأة ما قد يكون قد صدر منى فى بداية حديثى، أكدت ضرورة العثور على أرقى مدرسة، لرعاية أرقى صوت، وغطى أسلوب التفضيل كل شىء. لكن بعد ذلك، عندما مكثت بمفردى، أدهشنى شعورى بالحاجة إلى أن أكون صادقاً مع كارلا. هل أحببتها بالفعل؟ لكنى لم أكن قد رأيتها جيداً!

على درج السلم ذى الرائحة المشكوك فيها، قال كويلر مرة أخرى:

– إن صوتها قوى للغاية. إنه صوت جدير بالمسرح.

لم يكن يعرف أنني كنت حينئذ أعرف ما هو أكثر: كان ذلك الصوت ينتمي إلى محيط ضيق جداً، حيث يمكن تذوق نوع من الإحساس الغضّ بالفن والحلم بتقل الفن بداخله، أي الحياة والألم.

قال لي كوبلر وهو يغادر فيلتي، إنه سيخبرني عندما يقوم المايسترو معلم كارلا بتنظيم حفلة موسيقية عامة. كان معلماً لا يزال مغموراً في المدينة، لكنه سيحظى بالتأكيد بشهرة عظيمة في المستقبل. كان كوبلر على يقين من ذلك على الرغم من أن المايسترو كان متقدماً في السن بما يكفي. يبدو أن الشهرة كان سينالها في ذلك الوقت، بعد أن تعرف كوبلر عليه. كلاهما حالتان مشرفتان على الموت، إحداهما المعلم والأخرى كوبلر.

العجيب أنني شعرت بالحاجة إلى إخبار أوجوستا بتلك الزيارة. ربما اعتقدت أنها حكمة مني، بما أن كوبلر على علم بالأمر وترفعت عن أن أرجوه أن يكتمه. غير أنني تحدثت عنه عن طيب خاطر، وشعر براحة كبيرة في ذلك. وحتى ذلك الحين لم يكن لدى ما أخذه على نفسي سوى إخفائي الزيارة عن أوجوستا. وهكذا كنت بريئاً تماماً في تلك اللحظة.

سألتني عن أخبار الفتاة وعما إذا كانت حسناء. وجدت صعوبة في الإجابة عن أسئلتها: قلت إن الفتاة المسكينة بدت لي مصابة بفقر الدم. ثم لاحت لي فكرة جيدة:

– هل لك أن توليها بعض رعاية؟

كان لأوجوستا ما يشغلها كثيراً فى منزلها الجديد وفى منزل عائلتها القديم، حيث كانوا يستدعونها لتساعد فى رعاية أبيها المريض؛ لذا لم تنشغل بالأمر. ومع ذلك كانت فكرتى حقاً جيدة.

أما عن كوبلر فقد علم من أوجوستا أننى أخبرتها عن زيارتنا، ونسى هو أيضاً تلك الصفات التى نسبها للمريض بالوهم. أخبرنى فى حضور أوجوستا أننا سنقوم خلال وقت وجيز بزيارة أخرى لكارلا. كان يثق فى ثقة كاملة.

وعلى الرغم من حالة خمولى سرعان ما سيطرت على الرغبة فى رؤية كارلا مرة ثانية. لم أجروا على الإسراع إليها خشية أن يعلم كوبلر بذلك. لكننى لم أكن لأفتقر إلى الذرائع. كنت أستطيع الذهاب إليها لتقديم معونة كبيرة لها دون علم كوبلر، لكن كان على أن أتأكد أولاً أنها تجد كتمان الأمر فى صالحها. ماذا لو كان ذلك المريض الحقيقى صديقاً للفتاة؟ فأننا، لا أعلم شيئاً عن المرضى الحقيقيين، وربما كان صحيحاً أنهم يعتادون دفع الآخرين لتحمل نفقات حبيباتهم. وفى تلك الحالة كانت تكفى زيارة واحدة لكارلا لأعرض نفسى للخطر. لم أستطع أن أجازف باستقرار عائلتى الصغيرة؛ أو بمعنى أدق: لم أخاطر بها، إلى أن زادت رغبتى فى كارلا.

لكن الرغبة أخذت تشتد بإلحاح. كنت أعرف تلك الفتاة من قبل على نحو أفضل بكثير عما صافحتها بيدي وأنا أهم بالانصراف. كنت أتذكر على وجه الخصوص تلك الجديدة السمراء التى كانت تحجب عنقها

ناصع البياض، والتي كان ينبغي إزاحتها بالأنف لتقبيل البشرة المغطاة بها. ولإثارة رغبتى كان يكفي التفكير فى أنه على راحة السُّلم، فى المدينة الصغيرة ذاتها التى أقطن بها، توجد فتاة حسناء يمكن الوصول إليها بعد نزهة قصيرة معها! فى هذه الظروف يصبح الصراع مع الخطيئة قاسياً، حيث ينبغي تجديده فى كل ساعة وفى كل يوم، مادامت الفتاة على راحة السلم. كانت الحروف الصائتة التى تمدها كارلا تدعوننى، وربما حملتنى نبراتهما بالفعل على الاعتقاد بأنه عندما يتلاشى صمود نفسى، لن تكون هناك مقاومة أخرى على وجه الإطلاق. لكن كان واضحاً لى أننى ربما أكون واهماً، وأن كويلر يبصر الأمور بدقة أكبر؛ وكان لهذا الشك أيضاً أهميته فى إضعاف مقاومتى؛ حيث إن كارلا نفسها كان يمكن أن تنقذ أوجوستا المسكينة من خيانتى لأنها، كامرأة، تقع على عاتقها مهمة المقاومة.

لَمْ كان الخوف من تأنيب الضمير بسبب رغبتى التى ربما جاءت فى اللحظة المواتية لتحررنى من الرتابة التى كانت تهددنى فى تلك الفترة؟ لم تؤثر مطلقاً على علاقتى بأوجوستا، كان الأمر على العكس من ذلك تماماً. لم أكن أسمعها وحسب كلمات الحب الذى كنت أكنه لها دائماً، بل أسمعها أيضاً الكلمات التى أخذت تنمو بداخل نفسى تجاه الأخرى. لم تغمر بيتى قط مشاعر مماثلة فياضة بالموودة، وبدأت أوجوستا مفتونة بها. كنت دقيقاً دائماً فيما كنت أطلق عليه مواعيد العائلة. كان ضميرى حياً للغاية، حتى إنه من خلال سلوكياتى أخذ يعدنى منذ تلك الفترة للتخفيف من تأنيبى لنفسى فيما بعد.

ومما يدل على أن مقاومتي لم تضعف تماماً أنني لم أذهب عند كارلا دفعة واحدة، لكن ذهبت إليها تدريجياً. في بداية الأمر ولبضعة أيام كنت أصل إلى الحديقة العامة فقط ونيتي صادقة في أن أتمتع بالخضرة الناصعة التي تطل وسط رمادية الشوارع والمنازل المحيطة بها. ولما لم تتح لي الفرصة لمقابلتها مصادفةً، كما كنت أتمنى، كنت أخرج من الحديقة لأتمشى بالفعل تحت نوافذ منزلها. قمت بذلك في انفعال شديد كان يشبه تماماً الإحساس اللذيذ الذي يداعب الشاب وهو يحب لأول مرة. فمئذ وقت كبير وأنا لم أفقد الشعور بالحب، بل المغامرة التي تسوق إليه.

وفور أن خرجت من الحديقة تقابلت وجهاً لوجه مع حماتي. في البداية اعتراني شك غريب: كيف في تلك الساعة المبكرة من الصباح، وفي تلك الناحية التي تبعد كثيراً عن الحي الذي نسكن فيه؟ ربما كانت هي أيضاً تخون زوجها المريض. أدركت فور ذلك مباشرة أنني أخطأت في حقها؛ لأنها كانت قد ذهبت لمقابلة الطبيب لكي يطمئنها بعد أن قضت ليلة قاسية بجوار زوجها. قال لها الطبيب كلمات مطمئنة، لكنها كانت مضطربة، وسرعان ما تركتني، ونسيت أنها فوجئت بوجودي في ذلك المكان الذي عادةً ما يرتاده العجائز والأطفال بصحبة مربياتهم.

لكن رؤيتها كانت كافية لتشعرنى بقبضة العائلة. سرت نحو منزلي بخطوات حاسمة، وأخذت أدندن في همس: "أبدأ، مطلقاً!". في تلك اللحظة أيقظت في والدتي أوجوستا إحساسى بواجباتي جميعها. وكان ذلك درساً جيداً كافياً طوال ذاك اليوم.

لم تكن أوجوستا بالبیت، حیث أسرعت إلى جوار والدها، وبقيت معه طيلة النهار. قالت لی ونحن نتناول الطعام حول المائدة إنهم تناقشوا حول مسألة وجوب تأجيل زواج أدا الذى تم تحديد مواعده فى الأسبوع التالى، نظراً لحالة چوفانى الصحية. كان چوفانى آنذاك فى حالة أحسن. يبدو أنه انساق وراء شهيته وأكل أكثر، حتى أذى سوء الهضم حالته الصحية.

حكيت لها أنى سبق أن علمت بتلك الأخبار من والدتها عندما قابلتها فى الصباح فى الحديقة العامة. لم تتدهش أوجوستا هى الأخرى من نزعتى هناك، لكنى شعرت بالحاجة إلى تفسير ما حدث. وضحت لها أنى منذ وقت كنت أفضل القيام بالتنزه فى الحديقة العامة. كنت أجلس على أريكة وأقرأ الجريدة. ثم أضفت قائلاً:

- يا لذك الأوليفى! لقد أخطأ فى حقى خطأً عظيماً عندما حكم على بالخمول.

بدت على أوجوستا ملامح الألم والأسى، وقد شعرت بشيء من الذنب فى هذا الشأن. شعرت بأنى بحالة جيدة عندئذ. شعرت حقاً بحالة فى غاية الصفاء، حيث قضيت فترة الظهيرة بكاملها فى حجرة مكتبى، وخلت حقاً أنى شفيت تماماً من أية رغبة خاطئة. كنت حينئذ قد قطعت شوطاً فى قراءة سفر الرؤيا.

وعلى الرغم من أن جواز زهاى وقتذاك إلى الحديقة العامة كل صباح أصبح شيئاً مقبولاً، فإن مقاومتى للرغبة اشتدت، حتى إنى

خرجت فى اليوم التالى، وسرت فى الجهة المقابلة تماماً. ذهبت أبحث عن مؤلفات فى الموسيقى؛ لأننى كنت أرغب فى تجربة أسلوب جديد للعزف على الكمان أشاروا، به على من قبل. علمت قبل خروجى من المنزل أن حماى قد أمضى ليلة هادئة، وسيأتى لزيارتنا فى الظهيرة بسيارته. سعدت كثيراً لما سمعت ذلك، سواء من أجل جوفانى أوجويدو، الذى سيتمكن أخيراً من الزواج. كل شيء كان على مايرام: نجوت أنا ونجا أيضاً حماى.

لكن كانت الموسيقى هى التى قادتني بالفعل إلى كارلا! من بين الأساليب التى قدمها لى البائع عن طريق الخطأ وجدت أسلوباً خاصاً بفن الغناء وليس للعزف على آلة الكمان. قرأت العنوان باهتمام: «دراسة كاملة لفن الغناء (مدرسة جارشا) لأ. جارشا (الابن) تشتمل على تقرير حول الذاكرة وعلاقتها بالصوت البشرى، ألقى بأكاديمية العلوم بباريس».

تركت البائع يهتم بزبائن آخرين وأخذت أقرأ الكتاب. وينبغى القول إننى كنت أقرأ بنهم ربما شابه إثارة النهم الذى يقترب به الشاب الذى لا أخلاق له نحو الكتابات الإباحية. ها هو ذا: وجدت الطريق الذى قادنى إلى كارلا، كانت تحتاج إلى ذلك العمل، وشعرت بالجرم لو لم أطلعها عليه. اشتريته وعدت إلى البيت.

يتألف عمل جارشا من جزعين، أحدهما نظرى والآخر عملى. أخذت أقرؤه بغرض أن أستوعبه كاملاً؛ حتى أتمكن من تقديم إرشاداتى لكارلا

فيما بعد عندما أذهب لزيارتها مع كويلر، في غضون ذلك كان لدى المتسع من الوقت لأعيش أحلامي في هدوء، على الرغم من روح المغامرة التي كانت تداعب تفكيري وتنتظرنى.

لكن أوجوستا هي التي دفعت الأحداث بسرعة. قاطعت قراعتي لكي تلقى على التحية، انحنيت بالقرب مني ومست خدي بشفتيها. سألتني عما أفعله وعندما سمعت أن الأمر يتعلق بأسلوب فني جديد، ظننت أنه يخص آلة الكمان ولم تبال بتدقيق النظر فيما أقرأ. أما أنا فبعد ما تركتني، بالغت في تقدير الخطر الذي تعرضت له، ورأيت أنه من الأفضل أن أبعد هذا الكتاب عن مكتبي حرصاً على سلامتي. كان عليّ أن أحمله مباشرة إلى وجهته، وعلى هذا النحو اضطررت إلى التوجه نحو مغامرتي. لقد عثرت على أكثر من ذريعة للقيام بما كنت أرغب فيه.

لم يراودني أي نوع من أنواع التردد. وصلت إلى راحة السلم، وتوجهت مباشرة إلى الباب على الجانب الأيسر من السلم. لكنني توقفت للحظة أمام الباب للاستماع إلى غناء القطعة الموسيقية "رايتي"، التي كان صداها يهيمن على السلم. كان يبدو أن كارلا أخذت تغني المقطوعة ذاتها، طوال تلك الفترة. ابتسمت وكانت تغمرني مشاعر الحب والرغبة الصبيانية. ثم فتحت الباب بحذر دون أن أقرعه ودخلت الحجرة على أطراف قدمي. كنت أود رؤيتها سريعاً، في الحال. كان صوتها رديئاً حقاً في المحيط الضيق. كانت تغني بحماس أشد، مما كانت عليه تلك المرة التي قمت فيها بزيارتها. كانت تستلقي بالفعل على ظهر المقعد لكي

تخرج أنفاسها كلها من الرئتين. رأيت منها رأسها الصغير فقط تلتف حوله جديلتا شعرها الضخمتان، فانسحبت وقد انتابني إحساس عميق بأننى تجرأت أكثر مما ينبغى. فى تلك الأثناء كانت قد وصلت إلى النغمة الأخيرة التى لم ترغب فى أن تنتهيها، وتمكنت أنا من العودة إلى راحة السلم وإغلاق الباب ورأى دون أن تشعر بوجودى. حتى النغمة الأخيرة كانت تترنح كذلك صعوداً وهبوطاً قبل أن تثبت بصورة سليمة. كانت كارلا إذن تحس بالنغمة الصحيحة، وكان على جارشا أن يتدخل عندئذ ليعلمها كيف تعثر على تلك النغمة فى أسرع وقت ممكن.

قرعت الباب عندما شعرت بأننى أهدأ. أسرع تفتح الباب على الفور، وإن أنسى مطلقاً صورتها اللطيفة، وهى تستند إلى الباب، وتحقق فى بعينيهما الواسعتين داكنة اللون، قبل أن تتمكن من التعرف على فى العتمة.

لكننى فى تلك الأثناء شعرت بالهدوء، حتى إننى تغلبت على ما راودنى من تردد. شرعت فى خيانة أوجوستا، لكننى أخذت أفكر كيف استطعت أن أكتفى بالوصول إلى الحديقة العامة فى الأيام الماضية، وكم كان سهلاً على للغاية أن أتوقف أمام ذلك الباب، وأسلم ذلك الكتاب المتواطئ معى ولأنصرف بعد ذلك راضياً تماماً. كانت لحظة وجيزة مفعمة بالقرارات الجيدة. تذكرت أيضاً نصيحة غريبة وجهت إلى: حتى أبرأ من عادة التدخين وربما أفادت فى تلك المناسبة: يكفى فى بعض الأحيان إشعال عود ثقاب، للشعور بالرضا، ثم إلقاء السيجارة وعود الثقاب بعد ذلك بعيداً.

كان سهلاً علىّ أن أفعل أيضاً ذلك الشيء، حيث إن كارلا نفسها،
عندما تعرفت علىّ، احمرّ وجهها وفرت مسرعة؛ لأنها شعرت بالخجل -
كما عرفت بعد ذلك - لأننى وجدتتها فى ثياب منزلية بالية.

فور أن علمت بذلك، شعرت بالحاجة إلى الاعتذار، فقلت:

- أحضرت هذا الكتاب وأظنه هاماً بالنسبة لك، إن شئت،
يمكننى أن أتركه وأنصرف فى الحال.

كانت نبرة كلماتى وليس مغزاها حادة بعض الشيء - أو هكذا
بدت لى - فعلى العموم تركت لها حرية الاختيار لتقرر هى نفسها: هل
يجب أن أنصرف أم أبقى وأخون أوجوستا.

قررت على الفور، فقبضت بيدها على يدي لتستبقنى على نحو
مطمئن وأذنت لى بالدخول. غشى الانفعال على بصبرى، وأظن أن
الملامسة الناعمة لتلك اليد ليست وحدها التى أثارتها، بل الشعور بالآفة
الذى رأيته حاسماً لمصيرى ومصير أوجوستا. لهذا أعتقد أننى دخلت
ببعض التحفظ، وكما استحضرت بذاكرتى قصة أول خيانة لى، ينتابنى
إحساس بأننى ارتكبتها مدفوعاً إليها.

كان وجه كارلا الذى تكسوه الحمرة جميلاً حقاً. أدهشتنى المفاجأة
السارة عندما علمت أنها كانت تأمل أيضاً فى زيارتى، حتى ولو لم تكن
فى انتظارى. قالت لى فى مجاملة عظيمة:

- شعرتم إذن بالحاجة إلى رؤيتى مرة أخرى؟ لتروا الفتاة البائسة
التي تكن الكثير لسيادتكم؟

وبلا شك، لو شئت، لضممتها في الحال بين ذراعي، لكنني لم أفكر في ذلك على وجه الإطلاق. انشغل تفكيري به قليلاً حتى إنني لم أجب عن أسئلتها التي بدت لي محفوفة بالمخاطر، وأخذت أتحدث معها عن كتاب جارشا وعن أهميته بالنسبة لها. تحدثت في اندفاع أدنى بي إلى التلطف بكلمات ليس لها أهمية. سيعلمها جارشا الأسلوب الذي ترسخ به النغمات الموسيقية كالمعدن وتطلقها ناعمة كالهواء. سيفسر لها كيف أن النغمة لا تمثل إلا خطأ مستقيماً بل ومستوى للصوت، لكنه مستوى مصقول تماماً.

تلاشت حماستي فقط عندما قاطعتني كي تطلعني على شك يؤلمها:

– إذن غنائى لا يروق لسيادتكم؟

أدهشني سؤالها. كان نقدي فجاً، لكنني لم أشعر به واحتججت بنية سليمة خالصة. اعترضت بشدة حتى بدا لي أنني عدت إلى حبي من جديد، وأنا أتحدث عن الغناء فقط، الحب الذي انتصر وساقني إلى ذلك البيت. وجاءت كلماتي حانية حتى إنها أظهرت شيئاً من الصدق:

– كيف تظنين هذا؟ أكنت أجيء إلى هنا لو كان الأمر كذلك؟ مكثت على راحة السلم لفترة كبيرة لكي أستمتع بغنائك العذب والجميل على الرغم من سذاجته. أرى فقط أنه يلزم شيء آخر لبلوغ درجة الإتقان، فجئت لأحملة لك.

أى قوة تلك التي ملأت داخلي بالتفكير في أوجوستا، وأنا لم أكف عن الاحتجاج في إصرار بآئي لم أكن منساقاً وراء رغبتى!

أخذت كارلا تنصت إلى كلماتي المغربية التي لم تكن قادرة على معرفة مداها. لم تكن على درجة عالية من الثقافة، لكنني أدركت، والدهشة تأخذني، أنها تتمتع بالكياسة. حكّت لي أنها نفسها لديها شكوك كبيرة حول موهبتها وصوتها: كانت تشعر أنها لا تبدو أى تقدم. كثيراً ما كانت تسمح لنفسها باللهو، بعد قضاء بضع ساعات فى حجرة المكتب، وتكافئ نفسها بغناء "رايتي" على أمل أن تكتشف فى صوتها مزايا جديدة. واستمر الأمر على منوال واحد: لم يذهب إلى أسوأ مما كان، وربما اكتسب شيئاً من الجودة حسبما كان يؤكد كل من سمعوها وأنا معهم (وهنا رمقتني بعينيها الجميلتين السوداوين بنظرة استفهام هادئة تنم على حاجتها لما يطمئنها عن مدلول كلماتي التي كانت تبدو لها مشوية بالشك)، لكن لم يكن هناك تقدم حقيقى. كان المعلم يقول إنه ليس هناك تقدم بطيء فى الفن، بل قفزات كبيرة تؤدى إلى الهدف ويأتى يوم تجد نفسها فيه فنانة عظيمة.

- لكنه درب بعيد - أضافت وهى تحملق بعيداً، ولعلها كانت تستعيد ساعات الملل والألم.

يوصف بالأمانة من كان يتمتع أولاً بالصراحة، ومن وجهة نظرى فله كانت من الأمانة الحقيقية أن أنصح الفتاة المسكينة بأن تترك دراسة الغناء وتصير عشيقة لى. ولكنني ما كنت تجاوزت بعد حدود الحقيقة العامة، فضلاً عن أنني لم أكن واثقاً من حكمى فى مسألة فن الغناء، وماذا كان يمكن أن يكون خلاف ذلك. منذ فترة وأنا أنشغل انشغالاً

كبيراً بشخص واحد: كويلر المزعج ذاك الذى كان يقضى كل عيد فى فيلتي معي أنا وزوجتي. ولعلها كانت اللحظة التي أجد فيها ذريعة لأرجو الفتاة ألا تحكي لكويلر شيئاً عن زيارتي. لكنني لم أفعل، حيث لم أستطع أن أغلف طلبى وقد أحسنت، فبعد أيام قلائل مرض صديقي المسكين وقضى نحبه بعد ذلك مباشرة.

مع ذلك قلت لها إنها ستجد في جارتشا كل ما تبحث عنه ولفترة قصيرة، بل اللحظة وحسب، أخذت تترقب المعجزات في قلق من خلال هذا الكتاب. لكن سرعان ما انتابها الارتياح في فعالية السحر، وهي تجد نفسها في مواجهة كل ذلك الكلام. أخذت أقرأ نظريات جارشا باللغة الإيطالية، ثم أفسرها لها بالإيطالية وعندما لم يكن هذا كافياً، أقوم بترجمتها بلهجة تريستي، لكنها كانت لا تشعر بشيء يتحرك في حلقها وما كان يمكنها من أن تلمس أي تأثير حقيقي فقط إلا إن ظهر ذلك في ذلك الموضع بعينه. وما يسيء هو أنني أنا أيضاً، اقتنعت بعد قليل، بأن ذلك الكتاب لا يفيد بشيء وهو بين يدي. وإذا كنت أتفحص تلك الجمل لثلاث مرات ولا أعرف ماذا أعمل حيالها، كنت أنتقم لعجزى وأطلق لنفسي العنان لأنتقدها. كان جارشا يبذل وقته ووقتي ليثبت أنه ليس من العدل اعتبار الصوت البشري آلة واحدة فقط، لأنه قادر على إنتاج أصوات عديدة. وعلى هذا النحو فإن آلة الكمان أيضاً لابد أن نعتبرها تجمع آلات مع بعضها البعض. ربما أخطأت وأنا أكشف لكارلا عن نقدي هذا، لكن بالقرب من امرأة أرغب في استمالتها يشق علي أن

أتماسك وأهدر الفرصة المواتية التي أظهر لها فيها أهمية معارفي. واقع الأمر أنني أثرت إعجابها، غير أنها أبعدت بالفعل عنها ذلك الكتاب الذي كان بمثابة وسيط الفرام جاليوتو بالنسبة لنا، لكنه لم يصاحبنا حتى الخطيئة. وما كنت مستسلماً لفكرة الامتناع عنها، فأرجأت الأمر إلى زيارة أخرى. وعندما لقي كويلر حتفه لم تعد هناك حاجة لزيارة إليها. انقطعت كل صلة بين ذلك المنزل وبينى، وعلى هذا النحو فإن اندفاعى لم يكن ليوقفه إلا ضميرى.

لكننا مع ذلك أصبحنا صديقين حميمين، كانت بيننا مودة أكبر مما يمكن أن تنشأ خلال نصف الساعة نتبادل فيها الحديث. أعتقد أن الاتفاق فى رأى النقدى يوثق الألفة. انتهزت المسكينة كارلا الفرصة من تلك الألفة وأشركتنى فى أحزانها. كانت تعيش هى ووالدتها حياة متواضعة لدى مساعدة كويلر لهما، لكن لم تكن هناك أشياء كبيرة تنقصهما فى ذلك المنزل. كان الهم الأكبر الذى يثقل على هاتين البائستين هو المستقبل. كان كويلر يأتى لهما بمعونته فى تاريخ محدد، لكنه لم يسمح لنفسه بأن يحسبه بدقة؛ كان لا يريد أن يشغل باله بذلك وفضل أن تعنيا هما بالأمر. ثم إنه لم يكن يمنحهما تلك الأموال دون مقابل: فهو صاحب المنزل الحقيقى، وكان يرغب فى معرفة كل كبيرة وصغيرة. الويل لو سمحتا لنفسيهما بشراء شىء دون الرجوع إليه لطلب موافقته! منذ فترة وجيزة، كانت والدة كارلا تعاني من وعكة صحية، فأنصرفت الابنة عن الغناء لبضعة أيام لكى تعتنى بشئون البيت. عندما علم كويلر

بهذا الأمر من أستاذها، عنفهما غاضباً وانصرف وهو يقول إنه ما من جدوى إذن من إزعاج رجال كرام، وحملهم على تقديم المعونة لهما. ولبضعة أيام عاشتا في فزع خشية أن يتركهما لمواجهة مصيريهما. ثم عندما عاد، وجدد اتفاقه معها وشروطه، وفي دقة حدد لهما عدد الساعات التي لا بد أن تجلس فيها كارلا للعزف على البيانو كل يوم وعدد الساعات التي تهتم فيها بالمنزل. توعدهما أيضاً بأنه سيباغتتهما بمجيئه في أية ساعة من ساعات النهار.

- حقاً - وهكذا أنهت الفتاة حديثها قائلةً - إنه لا يريد سوى الخير لنا، لكنه يغضب كثيراً لأسباب ليست لها أية أهمية، وها هو ذا شيئاً فشيئاً، حتى إن غضبه هذا قد يحمله مرة، على أن يلقي بنا على قارعة الطريق. أما الآن وسيادتك تهتم أيضاً بشئوننا، فلم يعد هناك خطر، أليس الأمر كذلك؟

وشدت على يدي مرة أخرى، وحيث إنني لم أجب في الحال، خافت من أن أكون متضامناً مع كوبلر، فأضافت:

- السيد كوبلر أيضاً يقول إن لك قلباً كبيراً!

قالت هذه الجملة بقصد مجاملتي، لكنها كانت مجاملة لكوبلر أيضاً.

الصورة المنفرة التي رسمتها لي كارلا عنه كانت جديدة بالنسبة لي، وأثارت بداخلي بالفعل تعاطفاً معه. كنت أود أن أشبهه في حين أن

الرغبة التى دفعتنى إلى المجئ إلى ذلك المنزل تجعلنى شخصاً مختلفاً عنه كثيراً! حقاً كان يحضر إلى المرأتين أموال الآخرين، لكن كان يكرس جهده كاملاً، جزءاً من حياته الذاتية. إن ثورة الغضب التى كان يوجهها لهما، كانت بالفعل لأب تائر، لكن راودنى بعض الشك: وإذا كانت الرغبة تستحوذ عليه وتدفعه إلى تلك المهمة؟ دون تردد سألت كارلا:

– هل طلب منك كويلر قبلة من قبل؟

– مطلقاً! – أجابت كارلا بحماس – عندما كان يرضى عن أدائى، يعبر عن موافقته باقتضاب، ويصافح يدى بخفة وينصرف. مرات أخرى، عندما يثور غضبه، يرفض حتى المصافحة باليد، ولا يدرك حتى أنى أبكى أحياناً من الخوف، ولو كانت هناك قبلة، لكانت بمثابة النجاة لى فى تلك اللحظة.

تنبّهت لأنى أخذت أضحك، ففسرت كلامها بصورة أفضل:

– قد أتعبل قبلة وأنا مقرة بالجميل من رجل هَرَمَ أكنّ له الكثير!

هاهى ذى ميزة المرضى الحقيقيين؛ يبدوون مسنين أكثر مما هم عليه فى الحقيقة.

قمت بمحاولة ضعيفة أحاكى بها كويلر. فى ابتسامة حتى لا أخيف الفتاة المسكينة، قلت لها إننى كذلك عندما أهتم بشخص، يفضى بى الأمر إلى أن أصبح حازماً. على العموم كنت أرى أنا أيضاً أنه عندما يدرس المرء فناً من الفنون عليه أن يأخذه مأخذ الجد. ثم غاليت وتقمصت

دورى حتى توقفت عن الضحك تماماً. كان كويلر محقاً عندما يصبح قاسياً مع فتاة لا تستطيع أن تدرك قيمة الوقت: كان لابد أيضاً أن تتذكر كم من الأشخاص يقومون بتضحيات لتقديم يد العون لها. كنت بالفعل جاداً وحازماً.

وهكذا حانت ساعة الذهاب لتناول الغذاء، ولم أرد أن أبقى أوجوستا فى انتظارى فى ذلك اليوم خاصةً. صافحت كارلا، وعندئذ أدركت كم كانت شاحبة. رغبت فى تهدئتها:

– كوني مطمئنة، سأبذل ما فى وسعى لكى أسانذك عند كويلر والآخرين جميعهم.

وجهت الشكر لى، لكن بدا عليها الانكسار على الرغم من ذلك. ثم علمت فيما بعد أنها عندما رأتنى قادمة، كاد تخمينها يقودها إلى الحقيقة، حيث ظنت أننى مغرم بها وعلى ذلك شعرت بالرضى. فى حين أنه فيما بعد – وتحديدأ عندما تأهبت للانصراف – اعتقدت أننى أنا أيضاً عاشق للفن والغناء وحسب؛ ومن ثم فإن لم تجد الغناء وتحرز تقدماً، فسوف أتخلى عن زيارتها.

أحسست بأنها خائرة العزم. غلبت على الشفقة، ونظراً لأنه لم يكن هناك وقت آخر لإهداره، هدأت من روعها بالأسلوب الذى حددته هى نفسها على أنه هو الأمثل. كنت قد وقفت بالباب وجذبتة نحوى، أزحت بأنفى بعناية شديدة تلك الجذيلة الكبيرة من جانب عنقها، وهكذا دنوت

منه بشفتى ومسسته حتى بأسنانى. كان الأمر يبدو، مزاحاً وضحكت
هى منه أيضاً، لكن فى اللحظة التى تركتها فيها فقط. فحتى تلك اللحظة
ظلت مستسلمة ومندهشة بين ذراعى.

رافقتنى حتى راحة السلم، وعندما بدأت هبوط درج السلم، سألتنى
وهى تضحك:

- متى ستعود؟

- فى الغد أو ربما فى وقت لاحق! أجبتها فى غير تأكيد. ثم بنبرة
أكثر حسماً:

- دون شك سأتى غداً! ولهذا، ثم بدافع من رغبتى فى عدم التورط
أكثر مما ينبغى، أضفت قائلاً: - سنستأنف قراءة كتاب جارشا.

لم تغير تعبيرات وجهها فى تلك اللحظة: وافقت على أول وعد غير
موثوق به، رحبت بالوعد الثانى وهى ممتنة، ووافقت كذلك على اقتراحى
الثالث، وهى لا تزال تبتسم. إن السيدات يعرفن دائماً ما يرغبن فيه. لم
يكن هناك تردد من جانب أدا وهى ترفضنى، ولا من ناحية أوجوستا
عندما أخذتتى، ولا حتى من كارلا، التى لم تبدِ أية مقاومة.

وأنا بالطريق سرعان ما شعرت بأننى أقرب من أوجوستا عنى من
كارلا. استنشقت الهواء المنعش الطلق، وشعرت بحريتى كاملة. لم أفعل
شيئاً غير الدعابة، ولا يمكن له أن يأخذ طابعاً آخر؛ لأنه انتهى عند ذلك
العنق تحت تلك الجديدة. نهاية الأمر أن كارلا قبلت القبلة على أنها وعد
بالمودة وبتقديم المعونة على الأخص.

غير أنه بدأت بالفعل معاناتى فى ذلك اليوم، وأنا جالس إلى المائدة. كانت مغامرتى ماثلة بينى وبين أوجوستا، كظل ضخمة معتم هياً لى أنه من المستحيل ألا تراه هى أيضاً. كنت أشعر بضالة نفسى، وبذنبى ومرضى، وبالألم الذى كان بجانبى، وكأته ألم فى الأعصاب الودية يبعثه جرح عميق فى ضميرى، فى حين كنت أتناول الطعام وأنا شارد الذهن، أخذت أبحث عن راحتى فى قرار حاسم: «لن أراها أبداً - أخذت أفكر- وإن كانت هناك ضرورة أن أراها مرة أخرى، مراعاة لها، ستكون المرة الأخيرة». ثم لن يتطلب ذلك منى كثيراً: جهد واحد فقط، وهو ألا أرى كارلا ثانية.

سألتنى أوجوستا، وهى تضحك:

- هل ذهبت إلى أوليفى، إننى أراك مشغول البال جداً؟

أخذت أضحك أنا أيضاً. كانت راحتى الكبيرة تتمثل فى أن أتمكن من التحدث معها. وما كان الكلام ليقدّر على إدخال السلام الكامل إلى نفسى؛ لأننى لو قلت ذلك الكلام لاضطرت إلى الاعتراف ثم تقديم الوعود، ولما لم أستطع القيام بذلك، وجدت ضالتي فى حديث آخر. استرسلت فى الحديث، وأنا أظهر البهجة واللطف. ثم وجدت ما هو أفضل من ذلك: ذكرت حجرة غسيل الملابس التى كانت ترغب فيها كثيراً وحتى تلك اللحظة لم أوافقها عليها، وعلى الفور أذنت لها أن تبدأ فى بنائها. تأثرت كثيراً بموافقتى التى لم تلح حينئذ فى طلبها، ونهضت لتعطينى قبلة. هاهى ذى قبلة من الواضح أنها أخذت تمحو الأخرى، وشعرت بعدها على الفور بتحسن.

وهكذا أصبح لدينا حجرة للغسيل وإلى اليوم، عندما أمر أمام هذا المبنى الصغير، أتذكر رغبة أوجوستا فيه وتأيد كارلا له.

أعقبت ذلك فترة ما بعد ظهيرة ساحرة يغمرها حبنا. كان ضميرى يؤلنى بصورة كبيرة وأنا بمفردى. أما كلمات أوجوستا وحبها فقد عملا على تهدئته. خرجنا معاً. اصطحبتهما بعد ذلك عند والدتها، وأمضيت أيضاً الأمسية كلها معها.

قبل أن أستسلم للنوم، كما كان يحدث لى أحياناً كثيرة، تأملت طويلاً زوجتى وكانت غارقة فى نومها، تتنسم أنفاسها الخفيفة. حتى فى أثناء نومها كانت كاملة النظام، تصل الأغطية حتى ذقنها، وشعرها الخفيف تضمه جديلة صغيرة معقودة تتدلى عند العنق. أخذت أفكر: «لا أريد أن أسبب لها أية آلام. مطلقاً!». خلدت إلى النوم هادئاً. رأيت أن أستوضح فى اليوم التالى علاقتى بكارلا، وأجد الوسيلة لأطمئن الفتاة المسكينة على مستقبلها، ولكن دون أن أضطر إلى تقيلها.

حلمت حلماً غريباً: لم أكن أقبل عنق كارلا وحسب، لكنى كنت ألتهمه. غير أن الجروح التى كنت أحدثها برغبتى المحمومة فى ذلك العنق كانت لا تدميه؛ لذلك ظل يحتفظ ببشرته البيضاء وميلها الطفيف. كانت كارلا، وهى مستسلمة بين ذراعى، لا يبدو عليها الألم مما أفعله، فى حين أن أوجوستا التى هرعت فجأة هى التى كانت تتألم. قلت لها لأهدئ من روعها: «لن ألتهمه بـكله: سأترك لك أيضاً جزءاً منه».

اتخذ الحلم شكل الكابوس فقط عندما استيقظت في منتصف الليل،
وانقشع الضباب عن ذهني واستطعت أن أتذكره، ولم يكن هكذا قبل ذلك؛
لأنه على مدى اللحظة التي استمر فيها، لم يستطع حتى وجود أوجوستا
أن ينتزع عني شعوري بالشبع الذي كان يمنحني إياه.

ما إن أفقت، حتى أدركت تماماً قوة رغبتى والخطر الذي تمثله
بالنسبة لأوجوستا ولى أنا أيضاً. ربما كانت المرأة التي تنام إلى جوارى
تحمل حياة جديدة ساكون مسئولاً عنها. ومن يدري ما الذي ستطالبني
به كارلا لو أصبحت عشيقتي؟ كانت تبدو لى راغبة في المتعة التي كانت
تتوق إليها حتى تلك اللحظة، وكيف كان لى أن أعول عائلتين؟ كانت
أوجوستا تطلب حجرة الغسيل النافعة، وسوف تطلب كارلا أشياء أخرى،
لكنها لن تكون أقل تكلفة. تراعت لى كارلا ثانية عندما كانت تُحييني على
راحة السلم وهي تضحك بعد أن قبلتها. كانت تعرف أنفأ أنى ساقع فى
حياتها. أصابنى الفرع من ذلك وهناك، فى وحدتى فى الظلمة المعتمة،
لم أستطع أن أتمالك نفسى فتأوهت.

استيقظت زوجتى فى الحال، وسألتنى ماذا بى فأجبتها بعبارة
وجيزة، بأول عبارة وردت فى ذهني عندما استطعت أن أتمالك وأنزع عن
نفسى الخوف، وهى توجه لى سؤالاً فى لحظة خلت فيها أنى صحت
بالاعتراف:

– أفكر فى الشيخوخة الداهمة!

ضحكت وحاولت تهدئتي، لكن دون أن تقطع نُعاسها الذي كانت تتشبث به. قالت لي العبارة ذاتها التي كانت تقولها دائماً عندما ترانى مرتاعاً من الزمن الذي ينقضى:

– لا تفكر بالأمر، الآن ونحن شباب... فإن النوم مفيد للغاية!

أفادت النصيحة: توقفت عن التفكير في الأمر وعدت إلى نُعاسي.

إن الكلمة في الليل مثلها مثل شعاع من نور. يُضىء جزءاً من الواقع تتلاشى أمامه أوهام الخيال. لم ظللت أخشى كارلا المسكينة كثيراً وأنا لم أصبح عشيقها بعد؟ كان من الواضح أنني بذلت ما في وسعي كي أهدئ من حالتي. في نهاية الأمر، فإن «الطفل» الذي خطر ببالي احتمال وجوده في حضن أوجوستا لم يعطِ حتى تلك اللحظة أية إشارة بالحياة سوى بناية حجرة الغسيل.

نهضت من فراشي، وتقودني أفضل القرارات، أسرعت إلى حجرة مكتبي ووضعت بعض المال في ظرف رأيت أن أقدمه إلى كارلا في اللحظة ذاتها التي أخبرها فيها بأنني سأهجرها. وعزمت على الرغم من ذلك على أن أخبرها باستعدادي لإرسال أموال أخرى عن طريق البريد في كل مرة تسألني إياها كتابة العنوان الذي سوف أعرفها به. وفي اللحظة ذاتها التي هممت فيها بالانصراف، دعتنى أوجوستا بابتسامة رقيقة إلى اصطحابها إلى منزل أبيها. كان والد جويدو قد وصل من بوينس أيرس لحضور حفل الزفاف، وكان لابد من ذهابي للتعرف عليه.

دون شك كانت تهتم بى أكثر من اهتمامها بوالد جويدو. كانت ترغب فى تجديد الشعور بحلاوة اليوم السابق. لكن الأمر لم يعد كما كان: رأيت أنه من الصواب ألا أدع الوقت يمر بين قرارى الجيد وإمكانية تنفيذه. وبينما كنا نسير بالطريق أحدنا بجوار الآخر ونحن فى الظاهر، واثقين من حبنا، كانت تلك الأخرى قد حسبت نفسها محبوبة منى. كان ذلك سيئاً. شعرت بتلك النزهة وكأنها إكراه حقيقى.

وجدنا چوڤانى وقد تحسنت صحته بالفعل. كان لا يستطيع فقط ارتداء الحذاء لتورم قليل بقدميه لم أبال به أنا أيضاً وقتئذ. كان مع والد جويدو فى حجرة الضيوف وقدمنى له. تركتنا أوجوستا على الفور لتلحق بأمها وأختها.

رأيت فى السيد فرانشييسكو سبيير رجلاً أقل ثقافة من ابنه. كان قصير القامة عريض الأكتاف، يناهز الستين من عمره، محدود الفكر، محدود الحيوية، ربما عاد ذلك أيضاً إلى سمعه الذى أصبح ضعيفاً إثر مرض تعرض له. كان يزج ببعض الكلمات الإسبانية فى حديثه بالإيطالية:

- فى كل مرة أجيء إلى تريستى... (قالها بالأسبانية والإيطالية معاً)

أخذ الشيخان يتحدثان عن الأعمال التجارية، وكان چوڤانى ينصت باهتمام لأن تلك الأعمال تشكل أهمية بالغة بالنسبة لمستقبل آدا. ومكنت أستمع وأنا شارد الذهن. سمعت أن السيد سبيير قرر تصفية

أعماله فى الأرجنتين وتسليم أمواله جميعها إلى جويدو ليستثمرها فى تأسيس شركة بتريستى؛ ثم يعود هو إلى بوينس أيرس ليعيش مع زوجته وابنته على ريع مزرعة صغيرة سوف تبقى له. لم أع لم كان يحكى عن كل ذلك لچوڤانى فى حضورى، ولا أعرف ذلك ولا حتى اليوم.

بدا لى أنهما توقفا عن الحديث عند نقطة معينة، وهما ينظران إلى كأنهما يتوقعان منى رأياً، وحتى أبدو لطيفاً معهما، عقت قائلاً:

– أرى أن تلك المزرعة لن تكون صغيرة إن كانت تكفى لمعيشتك!

على الفور صاح چوڤانى:

– ما الذى تقوله؟ أعاد صوته الصارخ إلى ذاكرتى زمانه الجميل، لكن دون شك لو لم يصرخ هكذا، لما تنبه السيد فرانشيسكو لملاحظتى. إلا أنه شحب وجهه، وهكذا قال:

– أمل خيراً فى أن يفى جويدو بتسديد أرباح رأس المال لى.

حاول چوڤانى أن يطمئنه، وهو لا يزال يصيح:

– الفوائد يسدها بالتأكيد! وحتى ضعفها أيضاً إن احتجت إليه! أليس هو ولدك؟

رغم ذلك لم تبدُ على السيد فرانشيسكو الطمأنينة، وظل ينتظر منى أنا قولاً يريحه. أجبته فى الحال وكنت سخيماً فى الكلام؛ لأن إنصاته حينئذ أخذ يقل عما قبل.

ثم استمر الحديث بين رجلى الأعمال، لكنى تنبّهت جيداً من ألاّ أتدخل فى الحديث أكثر من ذلك. أخذ جوثانى بين الحين والآخر يحملق فى من فوق نظارته ليراقبنى، وبدأت لى أنفاسه المجهدة وعيداً، ثم استرسل فى الحديث، وعند نقطة معينة سألتنى:

– أليس كذلك؟

أومات برأسى فى حماس. لابد أن موافقتى بدت متحمسة للغاية؛ حيث كانت كل حركة من حركاتى تدفعها ثورة غضب اجتاحتنى، وأخذت حدثها فى ازدياد. ماذا كنت أفعل فى ذلك المكان تاركاً الوقت ينقضى وهو يفيدنى فى تحقيق نيّاتى الحسنة؟ يرغموننى أن أتجاهل عملاً نافعاً جداً بالنسبة لى ولأوجوستا! وبينما كنت أتأهب للاستئذان بالانصراف، اجتاحت الغرفة فى تلك اللحظة السيدات يصاحبهن جويديو. ذلك الذى فور وصول والده قدم للعروس خاتماً رائعاً، لم يلتفت إلى أحد أو يوجه لى التحية، ولا حتى الصغيرة أنا. وكان الخاتم بجوهرته المتلألئة بإصبع أدا التى كانت تريه لأبيها وهى لا تزال تسند ذراعها على كتف خطيبها. كانت السيدات ينظرن إليه كذلك فى حالة من النشوة.

حتى الخواتم لم أكن أهتم بها. ما دمت لا ألبس خاتم الزواج ذاته لأنه كان يعوق الدورة الدموية لدى! وبدون أن أحيى أحداً، ذهبت إلى باب المنزل وتأهبّ للخروج. لكن أوجوستا أدركت فرارى ولحقت بى. أدهشنى وجهها المضطرب. كانت شفّتها شاحبتين كيوم زفافنا، قبل قليل من ذهابنا إلى الكنيسة. قلت لها إن لدى أمراً عاجلاً، ثم أسعفتنى

الذاكرة، حيث أحسست بجيب الصديري بنظارة خفيفة لطول النظر كنت قد اشتريتها منذ أيام قليلة، لمجرد الرغبة فى شرائها ولم أكن قد جربتها، فقلت لها إنه لدى ميعاد مع طبيب العيون لفحص نظري الذى أظنه قد ضعف منذ فترة. ردت علىّ بأنه بإمكانى الانصراف على الفور، لكنها رحبتنى أن أتعامل بما يليق مع والد جويدو. رفعت كتفى من نفاذ صبرى، لكننى على الرغم من ذلك أرضيتها.

عدت إلى حجرة الاستقبال، فقابلنى الجميع بتحية لائقة. أما بالنسبة لى، فقد حظيت أنا أيضاً بلحظة من الرضا على الرغم من أنى كنت واثقا من أنهم سيلقون بى بعيداً فى تلك اللحظة. سألنى والد جويدو، الذى لم تكن الأشياء واضحة أمامه وسط ذلك العدد الكبير من أفراد العائلة:

– هل سنلتقى مرة أخرى قبل رحيلى إلى بوينس أيرس؟

– أوه! – أجبت – كل مرة (قلتها بالإسبانية) ستجيئون سيادتكم إلى هذا المنزل، ربما تجدوننى هنا!

ضحك الجميع وانصرف ظافراً تصاحبنى أيضاً تحية سعيدة غمرتني بها أوجوستا. انصرفت بانتظام بعد أن وفيت بالقيام بكل الشكليات المتعارف عليها، حتى تمكنت من السير فى طريقى مطمئناً. إلا أنه كان هناك سبب آخر يخلصنى من الشكوك التى كانت حينئذ تقيدنى: أسرعت بمغادرة منزل حماى حتى أبتعد عنه بقدر المستطاع،

أى حتى أصل إلى كارلا. كان يراودهم الشك فى ذلك البيت ولم تكن المرة الأولى (كما كان يبدو لى) ويظنون أنى أتاأمر بدناءة ضد جويدو. قد تحدثت بنية سليمة وفى شرود تام عن المزرعة الموجودة فى الأرجنتين، وسرعان ما فسر چوآانى حديثى كأنما فكرت فيه ملياً لأفسد العلاقة بين جويدو وأبيه. كان من السهل على أن أبرر سلوكى مع جويدو إن لزم الأمر: وأما عن چوآانى والآخرين، الذين شكوا فى ورأوا قدرتى على القيام بمكائد كتلك، فكان الثأر منهم كافياً. هذا لا يعنى أنى عزمت على الإسراع بخيانة أوجوستا. لكنى كنت أفعل كل ما أرغب فيه فى وضح النهار. إن زيارتى لكارلا لم تكن تحمل فى طياتها أية إساءة، بل إنه إذا ما تقابلت بالمصادفة مرة ثانية مع حماتى فى تلك الناحية، وإذا ما سألتنى عما أفعله هناك، لأجبتها على الفور:

- نعم، سيدتى! إننى ذاهب إلى كارلا! لأن تلك كانت المرة الوحيدة التى ذهبت فيها كارلا دون أن أبالى بأوجوستا. كم أهاننى تصرف حمائى معى!

لم أسمع صوت كارلا يتردد على راحة السلم. اعترانى الخوف للحظة: ربما خرجت؟ قرعت الباب، وعلى الفور دخلت قبل أن يأذن لى أحد. كانت كارلا موجودة بالفعل، لكنها كانت تجلس مع والدتها. كانتا تحيكان معاً فى مشاركة ربما كانت مألوفة لديهما، لكنى لم أرها من قبل. كانت كلتاها تقومان بالعمل بأطراف ملاءة كبيرة، لكن إحداهن كانت تجلس بعيدة تماماً عن الأخرى. وها أنا ذا قد أسرعرت إلى كارلا،

ووصلت عندها ووالدتها تصاحبها. كان الأمر مختلفاً تماماً. ما كان يمكن تنفيذ قرارات طيبة كانت أو سيئة، ظل كل شيء معلقاً كما كان.

نهضت كارلا فى حرارة، وفى ببطء رفعت العجوز نظارتها ووضعتها فى جرابها. إلاّ أتنى أحسست بضيق ربما كان لسبب آخر غير إعاقتى عن الإفصاح توأ عما يدور فى نفسى. ألم تكن تلك هى الساعات التى حددها كويلر من قبل للدراسة؟ حييت السيدة العجوز بتحية مهذبة، وحتى مثل هذا السلوك اللائق أحسسته يثقل علىّ. وجهت التحية أيضاً لكارلا دون الالتفات إليها. وقلت:

– جئت لأرى ما إن كان بإمكاننا أن ننظر فى هذا الكتاب، وأشارت إلى مؤلف جارتشا الذى لم يمسه أحد، وظل على المنضدة فى الموضع الذى تركناه فيه، ونخرج منه بأشياء أخرى مفيدة. جلست فى المكان الذى شغلته فى اليوم السابق وفتحت الكتاب فى الحال. حاولت كارلا فى بادئ الأمر أن تبتسم لى، لكنها عندما رأتنى لا أستجيب لملاطفتها، ورغبة منها فى إطاعتي جلست إلى جوارى، لكى تنظر إلى الكتاب. كانت متحيرة؛ لا تفهم ما تقرؤه. نظرت إليها ورأيت يرتسم على وجهها تعبير ربما كان ينم عن الاستياء والعناد. فتخيلت أنها كانت تواجه لوم كويلر لها بتلك الصورة. إلاّ أنها لم تكن قد تحققت بعد عما إذا كان لومى ذلك هو ذاته الذى كان يوجهه لها كويلر؛ حيث إنها – كما حكى لى فيما بعد – كانت ما زالت تتذكر قبلى لها فى اليوم السابق، وكانت تحسب أنها قد نجت من ثورة غضبى إلى الأبد؛ ولذلك ظلت على استعداد لتحويل ذلك

الاستياء إلى ابتسامة ودود. وهنا على أن أذكر؛ لأنه لن يكون لدى الوقت لذلك بعد الآن، أن ثقتها تلك بأنها أثرت على بشكل قاطع بتلك القبلة الوحيدة التي منحنتني إياها، لم تعجبني بحال من الأحوال: فالمرأة التي تفكر بهذا الأسلوب هي امرأة بالغة الخطورة.

لكن كانت نفسي في تلك اللحظة مثل نفس كويلر تماماً مملوءة بمشاعر اللوم والاستياء. أخذت أقرأ بصوت عالٍ الجزء ذاته الذي قرأناه من قبل في اليوم السابق، وكنت قد نقدته بنفسى وأنا أقوم معها بدور المعلم المتحذلق، ولم أضف شيئاً آخر، وأخذت ألح على بعض كلمات بدت لى معبرة بشكل أوفر.

قاطعتنى كارلا بصوت بدت عليه الرجفة:

- أظن أننا قرأنا هذا من قبل! وهكذا اضطررت أخيراً إلى أن أقول شيئاً من عندى. إن الكلمة فى حد ذاتها يمكن أيضاً أن تمنح شيئاً من الصحة. ولم يكن كلامى أكثر هدوءاً من حالتى النفسية وسلوكى وحسب، بل إنه أعادنى حتى إلى حياة رجال المجتمع:

- انظرى، يا أنستى، وصاحبت على الفور ندائى المتلطف بابتسامة يمكن أن تصدر أيضاً من شخص عاشق، أود أن أعيد النظر فى هذا الشئ قبل أن أنتقل إلى غيره. ربما حكمنا عليه بالأمس فى شئ من العجلة، وقد نصحنى صديق لى منذ وقت بأنه حتى نستوعب كل ما يقوله جارتشا ينبغى دراسته كاملاً.

أخيراً شعرت بالحاجة أيضاً إلى مراعاة وجود السيدة العجوز المسكينة التي لم تتعرض بلا شك لموقف عصيب مثل هذا طوال حياتها، مهما كان حظها منها قليلاً. ابتسمت لها ابتسامة كلفتني جهداً أكبر مما كلفتني إياه تلك التي منحتها لابنتها من قبل:

– الأمر لا يبعث على التسلية الكبيرة – قلت لها – لكن يمكن أن يشعر به في شيء من الاهتمام أيضاً حتى من لا يشتغل بالغناء.

في إصرار تابعت القراءة. من المؤكد أن كارلا كانت تشعر بتحسن، وأخذ يحوم على شففتيها الممتلئتين ما يشبه الابتسامة، في حين ظلت العجوز تبدو وكأنها حيوان مسكين يعاني الأسر وهي تجلس في تلك الحجرة لمجرد أن حياءها يمنعها من إيجاد الوسيلة التي تخرج بها منها. ثم إنني ما كنت لأخشى رغبتى إبعادها عن تلك الحجرة مهما كان الثمن. لشد ما كان يوقنني ذلك في حرج الشبهات.

كانت كارلا أكثر منى حسماً؛ رجتني باحترام بالغ أن أتوقف عن القراءة للحظة والتفتت إلى الأم، قالت لها إن بإمكانها أن تنصرف على أن تستأنفا العمل في تلك الملاءة بعد الظهر.

دنت السيدة منى وهي تمد لى يدها بحركة متعثرة. فصافحتها بحرارة وقلت لها:

– أدرك أن هذه القراءة ليست مسلية على الإطلاق.

كان يبدو وكأنني آسف لأنها تتركنا. انصرفت الأم بعد أن وضعت جانباً تلك الملاءة التي كانت حتى تلك اللحظة في حجرها وهي على المقعد. ثم لحقت بها كارلا على راحة السلم لتقول لها شيئاً ما في حين كنت أتحرق لهفةً لعودتها أخيراً بجوارى. دخلت، أغلقت الباب وراءها، وعادت إلى مكانها وهي ترسم على فمها تعبيراً جامداً يذكر بالإصرار الذي يرتسم أحياناً على وجه الأطفال. قالت:

- أستذكر دروسى كل يوم فى مثل هذه الساعة. وقد حدث لى فى تلك اللحظة بالضبط أن انشغلت بذلك العمل العاجل.

- ألا ترين أننى لا أبالى مطلقاً بغنائك؟ صحت وهاجمتها بحضن عنيف دفع بى إلى تقبيلها فى فمها أولاً ثم مباشرةً فى الموضع ذاته الذى قبلتها فيه فى اليوم السابق.

غريب! أخذت تذرف دمعاً غزيراً وابتعدت عني. قالت وهي تبكى إنها تأملت كثيراً عندما رأتنى أدخل بذاك الأسلوب.

كانت تبكى بدافع تلك الشفقة المعروفة على الذات عندما يشعر بها من يجد من يرثى لآلامه. إن العبرات لم تكن تذرف من الألم، بل من قصة حياتها. هناك من يبكى عندما يصرخ من الظلم. حقاً كان من غير العدل إرغام تلك الفتاة الحسناء على الدراسة وهي جديرة بالتقبيل.

على العموم صار الأمر أسوأ مما كنت أتخيل. كان على أن أبرر سلوكي، ولكي أسرع بذلك لم آخذ الوقت اللازم لاختلاق كذبة، وحكيت

الحقيقة الكاملة. أخبرتها بلهفتى لرؤيتها ولتقبلها. كنت قد عازمت على المجيء إليها في ساعة مبكرة؛ وأمضيت طوال الليل في اتخاذ هذا القرار. بالطبع لم أستطع إبلاغها بما كنت أنوي القيام به عندما أتى إليها، لكن لم تكن لذلك أهمية كبيرة. شعرت حقيقة باللهفة الأليمة ذاتها عندما رغبت في الذهاب إليها لإخبارها برغبتى فى هجرها إلى الأبد، وعندما أسرعرت لضمها بين ذراعى. ثم قصصت عليها ما حدث فى الصباح، وكيف أن زوجتى فرضت على الخروج معها وحملتني على زيارة والدها، وكيف أننى قبعت هناك للاستماع إلى حديث عن أعمال تجارة لا تخصنى. وتمكنت فى نهاية الأمر من الانسحاب بعناء شديد لأقطع مسافة طويلة بخطوات سريعة وماذا وجدت؟ الحجرة تغطيها بالكامل تلك الملاءة!

انفجرت كارلا فى الضحك؛ لأنها فهمت أننى لا أشبه كويلر على وجه الإطلاق. كانت الابتسامة تعلو وجهها الحسن، وكأنها هالة قوس قزح، وقبلتها مرة أخرى.

كانت لا تتجاوب مع مداعبتى لها، بل تتحملها وهى مستسلمة، كان أسلوباً أعشقه ربما لأننى أحب الجنس اللطيف كلما كان ضعيفاً. للمرة الأولى قالت لى إنها علمت من كويلر أننى أحب زوجتى كثيراً:

- لذلك لن تربط بيننا سوى صداقة قوية ولا شىء خلاف ذلك -
هكذا أضافت، ولحت على وجهها الجميل طيف قرار جاد اتخذته.

لم أصدق كثيراً ذلك القرار الحكيم جداً؛ لأن الشفاعة ذاتها التي عبرت عنه لم تستطع حتى فى تلك اللحظة أن تنسحب من قبلاى.

تحدثت كارلا طويلاً. كان من الواضح أنها رغبت فى إثارة شفقتى. أتذكر كل ما قالت له لى وصدقته فقط عندما اختفت من حياتى. ظلت أخشاه طوال المدة التى كانت فيها إلى جوارى، وكنت أرى فيها امرأة سوف تغتتم فرصة تأثيرها علىّ إن عاجلاً أو أجلاً حتى تحطمنى وتقضى على أسرتى. لم أصدقها عندما أكدت لى أنها لا تبغى سوى الاطمئنان على حياتها وحياة والدتها. الآن أنا على يقين من أنها لم تخطط قط حتى تحصل منى على أكثر مما كانت تحتاج إليه، وعندما أفكر فيها يحمر وجهى خجلاً لأنى فهمتها وأحببتها على نحو سيئ جداً. لم تنل، المسكينة شيئاً منى. كنت سأقدم لها لو أرادت كل ما تطلبه، فأنا ممن يوفون ديونهم. لكنى كنت أنتظر دائماً أن تطلب منى.

حكى لى عن حالتها البائسة التى وجدت نفسها فيها عند رحيل والدها. اضطرت هى وأُمها لشهور عديدة لأن تقوما بأعمال التطريز نهائياً وليلاً لحساب أحد التجار. كانت تعتقد ببراءتها أن المعونة ستأتىها من العناية الإلهية، حتى إنها فى الواقع ظلت أحياناً تطل من النافذة لساعات وساعات لمراقبة الطريق الذى لابد أن تأتىها منه. غير أن كوبر هو الذى جاء إليها. تعتبر نفسها حينئذ سعيدة لحالتها، لكنها كانت تقضى الليل هى ووالدتها فى قلق؛ لأن المساعدة التى يمنحهما إياها كانت مؤقتة. وإن اتضح يوماً أنها لا تملك الصوت ولا موهبة الغناء؟

كان كويلر يتركهما . ثم إنه كان يتحدث عن تقديمها على المسرح
للغناء بعد بضعة أشهر من ذلك الحين. وإن حدث وأخفقت إخفاقاً تاماً
فى ذلك؟

حكى لى، وهى لا تزال تبذل جهداً فى إثارة شفقتى، أن الكارثة
المادية التى حلت بعائلتها قضت أيضاً على حلم حبها: لقد هجرها
خطيبها.

قلت لها حيث كانت مشاعرى بعيدة عن أية شفقة:

– هل قبلك كثيراً خطيبك ذاك؟ كما أفعل أنا؟

ضحكت حيث كنت أعوقها عن الكلام. وهكذا وجدت أمامى رجلاً
رسم لى الطريق.

كان قد مضى وقت طويل على الساعة التى ينبغى أن أكون فيها
بالمنزل لتناول الطعام. وجب على الانصراف. كان ذلك كافياً يومئذ. كنت
بعيداً حقاً عن الندم الذى أبقانى يقظاً طوال الليل، وتلاشى تماماً ذلك
القلق الذى دفعنى نحو كارلا تماماً. لكنى لم أكن مطمئن النفس. ربما
قدر لى ألا أكون كذلك. لم يَنْتَبِئْنى شعور بالندم بما أن كارلا على أية
حال وعدتنى بقبلات كثيرة كنت أرغب فيها باسم الصداقة التى لا يمكن
أن تسيء إلى أوجوستا. خيل لى أنى اكتشفت سبب شعورى بعدم
الارتياح الذى عادةً ما كان يدفع بالآلام للتوغل فى جسدى. كانت كارلا
ترانى فى صورة زائفة! كان بإمكانها أن تزدرينى عندما أشتهى قبلاتها

فى الوقت الذى أحب أوجوستا! وكانت هى ذاتها التى أظهرت تقديرًا كبيرًا لى؛ لأنها كانت فى حاجة ماسة إلى!

قررت أن أكسب تقديرها لى، وتفوهت بكلمات كان لها أن تؤلنى، كما لو كنت أتذكر جريمة دنيئة، أو خيانة ارتكبتها عن محض إرادة، دون أية ضرورة أو منفعة.

كنت واقفًا بالباب على وجه التقريب وبهيئة الإنسان الهادئ الذى يعترف على مضض، قلت لكارلا:

- حكى لك كويلر عن العاطفة التى أكنها لزوجتى. حقًا قال: إننى أحترم زوجتى كثيرًا.

ثم أخذت أحكى لها جملةً وتفصيلاً قصة زواجى، وكيف أننى وقعت فى حب أخت أوجوستا الكبيرة التى كانت لا تهتم بى؛ لأنها مفرمة بآخر، ثم محاولتى للزواج من أخت أخرى لها رفضتتى هى أيضاً، وكيف تهيأت فى النهاية للزواج من أوجوستا.

سرعان ما صدقت كارلا صحة روايتى. ثم علمت أن كويلر كان على علم ببعض شئون منزلى وأخبرها ببعض تفاصيل غير صحيحة، أو تكاد، فقامت عندئذ بتصحيحها لها وتأكيدا.

- هل زوجتك جميلة؟ سألتنى وهى منشغلة البال.

- إنها مسألة أذواق، أجبتها.

كانت هناك مراكز تحذيرية لا تزال تعمل بداخلى.

قلت إننى أحترم زوجتى، ومع ذلك لم أقل إننى لا أحبها. لم أقل إنها تروق لى، وما قلت كذلك إنها ربما لا تعجبنى. فى تلك اللحظة رأيت أنى صادق جداً؛ والآن أعلم أنى بتلك العبارات خنت المرأتين معاً وخنت الحب كله، حبى أنا وحب كليهما.

واقع الأمر أن نفسى لم تكن قد هدأت بعد؛ بالفعل كان لا يزال هناك شيء ما. ورد إلى ذهنى ظرف النيات الحسنة فقدمته إلى كارلا. فتحتة وأعادته إلىّ وهى تقول إن كوبلر قد أحضر لها المعونة الشهرية منذ أيام قلائل، وإنها ليست بالفعل بحاجة إلى المال فى ذلك الوقت. ازداد شعورى بالقلق من جراء فكرة قديمة كنت أعتقد فيها وتفيد بأن النساء الخطيرات حقاً هن اللاتى لا يرضين بالمال القليل. لاحظت حرجى وفى براءة جذابة أقدرها الآن فقط وأنا أكتب عنها، طلبت منى بعض الكورونات لتشتري بها بعض الأطباق مكان تلك التى تحطمت فى حادثة وقعت بالمطبخ.

ثم حدث شيء ترك أثراً لا يمحي فى ذاكرتى. فى لحظة انصرافى قبلتها، لكنها تجاوبت هذه المرة مع قبلتى، بقوة شديدة. لقد سرى مفعول السم الذى بداخلى. وقالت فى براءة شديدة:

– أحبك لأنك طيب جداً، حتى إن ثروتك لم تفسدك.

ثم فى دهاء أضافت قائلة:

– أعرف الآن أنه لا داعى لأن أتسبب فى تأخيرك، وأنه فيما عدا

ذلك الخطر ليس هناك ما يخشى منه معك.

وعلى راحة السلم سألتني ثانية:

- أيا مكنى أن أتخلص من أستاذ الغناء والسيد كوبلر؟

قلت لها وأنا أسرع بهبوط السلم:

- سنرى!

وهذا هو ذا شيء ظل معلقاً في علاقتنا؛ أما بقية الأمور فقد تم
تحديدتها بوضوح.

ولّد ذلك في نفسى شعوراً بعدم الارتياح، حتى إننى ما أن خرجت
للواء الطلق، تحركت في تردد عكس اتجاه منزلى. كادت تتملكنى
الرغبة في العودة فوراً عند كارلا لأفسّر لها أمراً آخر: حبى لأجوستا.
كان بوسعى أن أفعل ذلك، حيث لم أقل إننى لا أحبها. نسيت فقط أن أتم
لها تلك القصة الحقيقية التى رويتها، وأقول لها إننى أحببت أجوستا بحق
في نهاية المطاف. ثم إن كارلا قد استنتجت أننى لم أكن أحبها مطلقاً؛
ولهذا السبب تجاوزت بحرارة شديدة مع قبلتى، وهى تؤكد تجاوبها ذلك
بتصريحها لى بحبها. وشعرت أنه لولا ما حدث، لما صعب علىّ تحمل
نظرة أجوستا المعبرة عن ثقتها فى. والغريب أننى شعرت بسعادة قبل
ذلك بقليل، حين حسبت أن كارلا على دراية بحبى لزوجتى، وعلى ذلك،
وبإرادتها، كانت المغامرة التى أبحث عنها تتوافر لى على شكل صداقة
تضاف إليها القبلات.

فى الحديقة العامة جلست على أريكة، وأخذت أسجل على الحصى بعصاى، وأنا شارد الذهن تاريخ ذلك اليوم. ثم ضحكت بمرارة: كنت أعلم بأن ذلك التاريخ لن يحدد نهاية خياناتى، بل، إنها على العكس من ذلك بدأت فى ذلك اليوم. كيف كان لى أن أتمالك عن العودة إلى تلك المرأة التى كانت رغبتى فيها شديدة وهى تنتظرنى؟ ثم إنى اتخذت بالفعل على عاتقى بعض الالتزامات، التزامات أمانة. فزت ببعض القبلات وفى المقابل لم يسمح لى إلا بدفع ثمن بعض الأوانى الخزفية! ما كان يربطنى بكارلا فى ذلك الحين كان حقاً حساباً لم يتم تسديده.

كان الغداء حزيناً. لم تسألنى أوجوستا عن مبررات لتأخيرى وأنا لم أعطها إياها. كنت أخشى أن أفضح نفسى، والأدهى من ذلك أننى طوال الطريق القصير ما بين الحديقة والبيت تركت خاطرى لتعبث به فكرة أن أحكى لها كل ما حدث وأن قصة خيانتى يمكن أن ترتسم على وجهى الأمين. حسبته الوسيلة الوحيدة لنجاتى. ولو حكيت لها كل شىء لوضعت نفسى تحت حمايتها ومراقبتها. ولكانت تلك حركة حاسمة بالدرجة التى أستطيع معها وقتئذ وأنا فى كامل نياتى الحسنة، أن أسجل ذلك اليوم ليكون تاريخ بداية للإخلاص ولاستعادة الصحة.

تحدثنا فى أمور شتى غير ذات أهمية. حاولت أن أكون مرحاً، لكنى لم أتمكن حتى من محاولة أن أكون ودوداً. أما هى فقد كانت تتحدث دون حماس؛ كانت تتوقع دون شك تفسيراً لم يأتها.

بعد ذلك، ذهبت لتستأنف عملها الكبير فى إعادة ترتيب ملابس الشتاء فى خزانات خاصة. كثيراً ما كنت أُلحها بعد الظهيرة، وهى منهكة فى عملها، هناك، فى نهاية الممر الطويل، وتساعدُها الخادمة. لم يكن أُلها العميق ليعوق نشاطها العفى.

وفى قلق، تنقلت كثيراً من حجرة فراشى إلى الحمام. وددت لو أنادى أوجوستا وأقول لها على الأقل إننى أحبها لأنه بالنسبة لها - المسكينة، البسيطة، طيبة القلب! - كان ذلك كافياً. لكننى على العكس أخذت أَمعن التفكير وأدخن.

بالطبع مررت بمراحل متنوعة. كانت هناك أيضاً لحظة أوقفت فيها لهفة شديدة دافع الفضيلة بداخلى، فأمام الלהفة الشديدة فى انتظار اليوم التالى أُسرعت بالذهاب إلى كارلا. ربما كانت تلك الرغبة أيضاً وليدة شىء من النيات الحسنة. واقع الأمر أن الصعوبة الكبيرة كانت تتمثل فى إمكانية، وأنا هكذا بمفردى، تعهدى والتزامى بواجباتى. الاعتراف الذى كان سيقفل لى تعاون زوجتى أصبح غير وارد؛ وعلى هذا النحو بقيت كارلا التى كنت أستطيع أن أقسم على شفقتها بقبلة أخيرة! من كانت كارلا؟ حتى الابتزاز لم يكن أكبر المخاطر التى أتعرض لها معها! كانت ستصبح عشيقتى فى اليوم التالى: من كان يدرى بتداعيات ذلك فيما بعد! تعرفت عليها فقط بقدر ما حدثنى عنها ذلك الأحمق كوپلر، وبناءً على معلومات ترد من ذلك الأخير، فإن رجلاً أكثر منى فطنة مثل أوليفى على سبيل المثال، لم يكن حتى ليقبل أبداً عقد صفقة تجارية.

كل نشاط أوجوستا الجميل، العفى بأركان بيتى بات مهدراً. وباء بالفشل ذلك العلاج الأكيد الذى لجأت إليه وهو زواجى وأنا فى خضم بحثى المضنى عن الصحة. بقيت مريضاً أكثر من أى وقت مضى ومتزوجاً على حساب نفسى وغيرى.

وبعد أن صرت بالفعل عشيقاً لكارلا، وعندما كنت أستعيد بذاكرتى فترة ما بعد تلك الظهيرة الحزينة لم أستطع أن أفهم لم لم أمنع نفسى بقرار رجولى، قبل أن أتورط أكثر من ذلك. أسفت كثيراً على خيانتى قبل أن أرتكبها، حتى إننى كنت أرى بسهولة تجنبها. هناك دائماً مجال للسخرية من الحكمة التى تأتى فيما بعد كما تثير السخرية كتلك التى تأتى فيما قبل، لأنها لا تنفع. فى ساعات المعاناة تلك سجلت حرف لـ (كارلا) بحروف كبيرة فى قاموس مفرداتى وتاريخ ذلك اليوم مع تدوين ملاحظة: "الخيانة الأخيرة". لكن الخيانة الفعلية الأولى، التى جرت وراءها خيانات أخرى، كانت تلك التى وقعت فيما بعد، فى اليوم التالى فقط.

فى ساعة متأخرة من اليوم، أخذت حماماً، حين لم أستطع القيام بما هو أفضل. كنت أشعر بما يزعجنى على جسدى وأردت الاغتسال. لكننى عندما وجدت نفسى فى الماء أخذت أفكر: «لكى أنظف نفسى على أن أنوب تماماً فى هذه المياه». ارتديت ملابسى بعد ذلك، فى تراخ، حتى إننى لم أجفف نفسى جيداً. انقضى النهار وبقيت أنا بالنافذة أنظر إلى الأوراق الخضراء التى نبتت حديثاً بأشجار حديقتى. أخذتني رجفة فظننتها الحمى ورضيت بها. لم أكن أرغب فى الموت بل فى المرض، مرض يفيدنى ذريعة لأفعل كل ما أرغب فيه، أو يمنعنى من القيام به.

بعد ما ترددت لفترة طويلة، جاءت أوجوستا عندي. عندما لمست مدى لطفها وعدم شعوري بالاستياء، زادت رجفات جسدي حتى تخبطت أسناني. ارتفعت، فأجبرتني على أن ألزم الفراش. ظلت أسناني تصطك من البرد، لكنني كنت أعلم أنني لست محمومًا ومنعتها من استدعاء الطبيب. رجوتها أن تطفئ المصباح، وتجلس إلى جوارى وألاً تتحدث. لا أدري كم من الوقت مكثنا على تلك الحالة: استعدت ما يلزمني من الدفء وكذلك شيئًا من الثقة. لكن ذهني ظل مشوشًا، حتى إنه عندما تحدثت أوجوستا مرة أخرى عن استدعاء الطبيب، قلت إنني أعلم سبب وعكسي وسأخبرها به فيما بعد. عاودني قرارى بالاعتراف لها. لم يتبق لي سبيل آخر أطرقه حتى أتخلص من شدة ضيق نفسي.

وبهذا جلسنا صامتين لفترة. فيما بعد انتبهت لأوجوستا تنهض من على المقعد وتدنو مني. شعرت بالخوف: ربما كانت تشعر بكل شيء. أمسكت بيدي وربتت عليها، ثم وضعت كفها برفق على جبينى لتعرف ما إذا كانت به سخونة، ثم قالت فى النهاية:

– كان عليك أن تتوقع ذلك! لم كل هذه الدهشة المؤلمة؟

تعجبت من تلك الكلمات الغريبة التي كانت تخرج فى الوقت ذاته بين أنفاس سريعة. كان من الواضح أنها لم تكن تشير إلى مغامرتي. كيف كان لي أن أكون على هذا النحو؟ سألتها بنبرة حادة بعض الشيء:

– ماذا تعنى بهذا القول؟ ماذا كان على أن أتوقعه؟

همهمت وهى مضطربة:

– وصول والد جويدو لزواج آدا...

وفهمت أخيراً: كانت تظن أنى أعانى من قرب زواج آدا، ورأيت أنها تتجنى على حقيقة: لم أقع فى جريمة كتلك، شعرت بأننى نقى وبرىء براءة الوليد، وأننى فى الحال تخلصت من أى نوع من أنواع الضيق، قفزت من الفراش:

– أتظنين أنى أتألم لزواج آدا؟ إنك لمجنونة! فمنذ أن تزوجنا، لم أفكر فيها مطلقاً، ولا أتذكر حتى أن السيد كادا وصل هذا اليوم!

قبلتها وأخذتها بين أحضانى برغبة شديدة، وفى حركة على درجة من الصدق خجلت معها من شكوكها فى.

وكذلك انجلى عن وجهها البرىء كل غيام، وأسرعنا لتناول العشاء معاً؛ لأننا كنا جائعين. ومثل رفيقين حميمين يقضيان إجازة، جلسنا إلى المائدة ذاتها، حيث عانينا كثيراً منذ بضع ساعات.

ذكرتنى أنى وعدتها أن أخبرها بسبب معاناتى، اختلقت مرضاً، مرض يعطينى إمكانية أن أفعل ما يروق لى دون أن أكون مذنباً، حكيت لها أننى منذ الصباح شعرت بإحباط شديد، وأنا بصحبة السيدين الشيخين. ثم ذهبت إلى طبيب العيون لأتسلم نظارتى التى نصحنى بها، ربما كان لعلامة الشيخوخة تلك أثرها الأكبر فى شعورى بالإحباط.

وأخذت أجوب شوارع المدينة لساعات وساعات. و قصصت عليها كذلك شيئاً من خيالاتي التي عذبتني كثيراً، وأتذكر أنها تضمنت أيضاً لمحات من اعتراف. ولا أدري ما هي العلاقة التي ربطت بها أيضاً بين المرض الوهمي، ودمائنا البشرية التي تحدثت عنها أيضاً والتي تدور، وتدور، حتى نستطيع أن نقف على أرجلنا، وأن نفكر ونعمل؛ ومن ثم نخطئ ونندم. إنها لم تفهم أن الأمر يتعلق بكارلا، مع أنه يبدو أنني قلت ذلك.

بعد العشاء وضعت نظارتي على عيني ولوقت طويل تظاهرت بقراءة الجريدة، لكن ذلك الزجاج كان يشوش لي الرؤية. وازداد بذلك توترى النشوان وكأنتي مخمور. قلت إنني لا أقوى على فهم ما أقرؤه. وظللت أقوم بدور المرض.

قضيت ليلتي في شبه أرق. كنت أتلّف أحضان كارلا برغبة كبيرة. كنت أرغب فيها حقاً، في تلك الصبية ذات الجداول الثرية غير السجيئة والصوت الموسيقى دون نغمات تفرض عليه. زاد من رغبتى فيها كذلك كل ما عانيت من أجلها. ظل يلح عليّ طوال الليل قرار حاسم. قررت أن أكون صادقاً مع كارلا قبل أن تكون امرأتى و أن أقول لها الحقيقة كاملة بشأن علاقتى بأوجوستا. أخذت أضحك في وحدتى: من الطريف جداً أن أذهب لاستمالة امرأة وعلى لساني تصريح بحب أخرى. ربما تعود كارلا إلى عدم مقاومتها! ومع هذا؟ حتى تلك اللحظة لم يكن هناك أى تصرف لها من شأنه أن يقلل من قدر استسلامها لي، الذي كنت أرى أنني واثق منه.

أشرق صباح اليوم التالى وأخذت أهمهم وأنا أرتدى ملابسى بالكلمات التى سأقولها لها. كان ينبغى أن تعلم كارلا، قبل أن تصبح عشيقتى، أن أوجوستا بطباعها وبصحتها أيضاً قد استطاعت أن تظفر باحترامى، بل وحبى كذلك (ربما كان يمكننى أن أسهب بالحديث عن تفسير ما أعنيه بالصحة، مما كان يفيد فى تربية كارلا أيضاً).

غرقت فى التفكير وأنا أتناول قهوتى، انشغلت بإعدادى ما سوف أقوله لها، حتى إن أوجوستا لم تحظ بأى علامة من علامات عاطفتى نحوها سوى قبلة سريعة سبقت انصرافى. أه لو كنت لها وحدها! كنت ذاهباً عند كارلا لكى أستعيد إشعال حبى لها.

فور دخولى إلى حجرة مكتب كارلا، حظيت براحة كبيرة عندما وجدتها بمفردها ومتأهبة، حتى إننى على الفور جذبتها نحوى، وأخذتها بين أحضانى بلهفة شديدة. أفزعتنى القوة التى صدتنى بها. كان عنفاً بحق!

وجدتها رافضة لى، وبقيت أنا وسط الحجرة وفمى فاغر، مع خيبة أملى الأليمة.

لكن كارلا ما إن تمالكت نفسها حتى همست:

– أما ترى أن الباب مازال مفتوحاً، وأن هناك من يهبط السلم؟

اتخذت هيئة الزائر المهذب حتى يمر ذلك المزعج. ثم أوصدنا الباب. اصفر وجهها عندما رأتنى أغلقه أيضاً بالمفتاح. وهكذا اتضح كل شىء.

ثم همست بصوت يختنق بين أحضانى: - أترغب فى هذا؟ أترغب فيه حقاً؟

تبادلت معى الحديث دون تكليف، وقد حسمت الأمر. ثم أجبتها على الفور:

- بل إننى لا أَرغب إلا فيه!

نسيت أننى كنت أريد أن أوضح لها شيئاً قبل ذلك.

كنت أَرغب بعد ذلك مباشرةً فى أن أبدأ كلامى معها عن علاقتى بأوجوستا بما أننى أغفلت ذلك قبل ذلك. لكن الأمر أصبح صعباً فى تلك اللحظة. إن الحديث مع كارلا وقتنئذ عن أشياء أخرى كان بمثابة تقليص أهمية عطائها. إن أكثر الرجال تلبداً يعلم أنه لا يمكن الإقدام على شىء كذلك؛ حيث إن الجميع يعلمون أنه ليس هناك وجه للمقارنة بين وقع اتخاذ هذا القرار قبل تنفيذه وبعده مباشرةً. إنها أكبر إهانة لامرأة، فتحت ذراعيها لأول مرة، لكى تسمع هذه الكلمات: «قبل كل شىء يجب أن أوضح لك تلك العبارات التى قلتها بالأمس...». ولكن ما شأننا بالأمس؟ فكل ما حدث فى اليوم السابق يجب أن يكون غير جدير بالذكر، وإذا ما حدث لرجل ألا يحس بذلك، فالويل له وعليه أن يسعى فى ألا ينتبه إليه أحد.

كنت بالتأكيد ذاك الرجل المهذب الذى لم يشعر بذلك؛ لأننى لم أعرف كيف أتصنع تماماً مثلما أخطأت فى الصدق. سألتها:

- كيف حدث أن اسلمتني نفسك؟ كيف كان لي أن أستحق شيئاً كهذا؟

هل كنت أريد إظهار الامتتان أم توجيه اللوم لها؟ لعلها لم تكن سوى محاولة للبدء في توضيح بعض الأمور.

في شيء من الدهشة نظرت إلى أعلى لترى تعبير وجهي:

- يبدو لي أنك أخذتني، وابتسمت ابتسامة تحمل ودأً لتثبت لي أنها لم تكن تنوي توجيه اللوم لي.

تذكرت أن السيدات يتطلبن قول الرجل برغبته فيهن. ثم أدركت بنفسها أنها أخطأت، وأن الأشياء هي التي تؤخذ، أما الأشخاص فيتفقون مع بعضهم فهمست:

- كنت أنتظرك! كنت الفارس الذي لا بد أن يأتي لفك قيدي، إنه لمؤسف حقاً أنك متزوج، ولكن لأنك لا تحب زوجتك فأنا أعلم على الأقل أن سعادتي لن تهدم سعادة أي شخص آخر.

داهمني الألم بجانبى بشدة، حتى إنني توقفت عن معانقتها. ألم أبالغ إذن في أهمية كلماتي تلك غير الجديرة بالاعتبار؟ هل حقيقة كان كنبى هو الذى دفع كارلا لتكون لي؟ وعلى هذا إن كنت قد فكرت في الحديث عن حبى لأوجوستا، فإن لكارلا الحق في أن تلومنى وتتهمنى بالمخادعة! إن عملية تصحيح المفاهيم والتفسيرات لم تعد ممكنة في تلك اللحظة.

لكن ربما أتاحت هناك الفرصة المواتية فيما بعد لكى أبرر سلوكى وأوضح الأمور. وفى انتظار أن تأتى، ها هو ذا رباط جديد ينشأ بينى وبين كارلا.

هناك إلى جوار كارلا، تولدت بداخلى لهفة شديدة نحو أوجوستا. فى تلك الأثناء لم تتنبئنى سوى رغبة واحدة: أن أسرع إلى زوجتى الحقيقية، فقط لأراها وهى مهتمة بعملها مثل النملة الدءوب؛ ترتب ملابسنا وتحفظها فى جو معبأ بالكافور والنفثالين.

لكننى التزمت بواجبى، الذى زادت أهميته بصورة بالغة من جراء واقعة أزعجتنى كثيراً فى بادئ الأمر، وبدأت لى بمثابة تهديد آخر يأتينى من خبايا ذلك المجهول الذى كنت أتعامل معه. حكى لى كارلا أنه بعد انصرافى مباشرة فى اليوم السابق، جاء أستاذ الغناء وأنها، ببساطة، قامت بطرده.

لم أستطع أن أخفى حركة تعبر عن استيائى مما فعلت. ذلك كان يعنى بالضبط إخبار كوبلر بعلاقتنا!

– ماذا سيكون رأى كوبلر فى ذلك؟ صحت.

أخذت تضحك وبمبادرة منها تلك المرة، احتمت بين ذراعى:

– ألم نقل من قبل إننا سنلقى به هو أيضاً خارج المنزل؟

كانت حسناً، لكنها لم تستطع حينئذ استمالة قلبى. اهتديت فى الحال أنا أيضاً إلى أسلوب يناسبنى، ألا وهو أسلوب المعلم؛ لأنه كان

يمنحنى كذلك إمكانية أن أفرغ ذلك السخط الذى كان عميقاً بداخلى تجاه تلك المرأة التى لم تسمح لى بالحديث عن زوجتى كما كنت أرغب. ينبغي العمل، أنسة، فى هذا العالم - قلت لها - لأنه، كما كان ينبغي أن تعلمى من قبل، عالم سيئ يصمد فيه الأكفاء فقط. وإذا فرضنا أنه لا بد أن يداهمنى الموت الآن؟ ما الذى يمكن أن يحدث لك؟ نظرت إلى احتمالية هجرى لها فيما بعد بصورة لا يمكن أن تشعر بالفعل معها بالإهانة وكان أن تأثرت حقاً. ثم قلت لها، بنية واضحة للتقليل من شأنها، إنه يكفى أن لزوجتى أية رغبة حتى أجدها تلبّيها.

- حسناً! - قالت فى استسلام - فلنرسل للأستاذ أن يعود! - ثم أخذت تحدثنى عن شعورها بالنفور تجاه ذلك المعلم. كان عليها أن تتحمل كل يوم رفقة ذلك العجوز المنقر الذى يجعلها تكرر التمارين ذاتها لمرات لا حصر لها وكانت لا تفيد بشيء، حقاً بلا جدوى. قالت إنها لا تذكر أنها قضت أياماً طيبة إلا عندما أصابه المرض، تمتت كذلك أن يموت، لكن الحظ لم يكن حليفاً.

وصلت فى نهاية الأمر إلى درجة من الحدة وهى تعبر عن شعورها باليأس. أخذت تعيد شكواها من تعاسة حظها، وتزيد: يؤس لا رجاء فيه. وعندما ذكرت لى أنها قد أحببتنى على الفور؛ لأنها فى سلوكى، وكلامى، ونظرات عيني رأت وعداً يأتى بحياة أقل قسوة، وإلزاماً، وسأماً، رأيت الدمع فى عينيها.

وهكذا سرعان ما عرفت نحيبها وقد أزعجني؛ كان بكاءها عنيفاً
هزّ ذلك الجسد النحيل وهو يسيطر عليه تماماً. هيئ لي أني في الحال
وقعت فريسة هجوم مفاجئ على جيبي وعلى حياتي. سألتها:

– أتظنين أن زوجتي لا تفعل شيئاً في هذه الدنيا؟ وإننا نتحدث
معاً الآن، أما هي فتعاني من رئتين ملوثتين بالكافور والنفثالين.
ارتفع صوت كارلا بالبكاء:

– المنزل وشئونه، والمقتنيات، والملابس... يا لشقائها!

خطرت لي وأنا أذمر فكرة أنها ترغب في أن أسرع بشراء تلك
الأشياء جميعها لها، ليس إلا لأن أوفر لها الانشغال الذي كانت ترغب
فيه. لم أبد شيئاً من ثورة غضبي، حمداً للسماء وأذعنت لصوت الواجب
الذي أخذ يهتف: «داعب الفتاة التي استسلمت لك!» فقامت بمداعبتها.
مررت يدي برفق على شعرها. انسابت دموعها التي لم تستطع إيقافها
غزيرة مثل المطر الذي يأتي بعد العاصفة.

– أنت أول عشيق في حياتي – ثم أستأنفت الحديث – وأمل أن
يستمر حبك لي!

إن تصريحها ذاك، بأنني أول رجل في حياتها، بما فيه من تحديد
يمهد المكان لآخر، لم يؤثر في كثير. جاءت المعلومة في وقت متأخر؛
حيث إننا تركنا الحديث في هذا الشأن منذ نصف الساعة تقريباً.

فضلاً عن كونه تهديداً جديداً. إن المرأة تظن أن لها كافة الحقوق لدى رجلها الأول. همست في أذنها برفق:

- وأنت أيضاً أول عشيقة لى... منذ أن تزوجت.

كانت عذوبة صوتي تحجب محاولة إظهار تعادل الجانبين.

تركتها بعد قليل؛ لأننى لم أرغب فى الوصول متأخراً على الغذاء مهما كلفنى الأمر. قبل انصرافى أخرجت للمرة الثانية من جيبى ظرفاً، مثلما كنت أسمىه، النيات الحسنة لأن قراراً حسناً قد أتى بها. أحسست بالحاجة إلى دفع الثمن حتى أشعر بحرية أكبر. بلطف أبت كارلا مرة أخرى أن تأخذ المال، وحينئذ غضبت بشدة، لكننى استطعت أن أكظم غيظي، بأن صرخت بكلمات ناعمة للغاية. كنت أصبح لكى لا أضربها، غير أن أحداً ما كان يمكنه أن يدرك الأمر. قلت إن شهوتي قد بلغت ذروتها عندما امتلكتها وإننى أريد أن أشعر بامتلاكها أكثر وأنا أتكفل بنفقاتها كاملاً؛ ولذلك كان عليها ألا تثير غضبى، وإلا عانيت كثيراً. وإذا أردت أن أنصرف مسرعاً، لخصت فى كلمات وجيزة أفكارى التى خرجت - فى صراخى - بنبرة خاطفة جداً:

- أنتِ صاحبتى؟ لذا أتكفل بالإنفاق عليك،

توقفت، وهى مرتاعة، عن المقاومة، وأخذت الظرف وهى تحملق فىّ وتبحث عن الحقيقة، وعما إذا كان صراخ السخط أم كلمة الحب هى التى منحتها كل ما كانت تتمناه. عادت إلى شىء من صفاء نفسها

عندما لامست بشفتي جبينها عند انصرافى. ساورنى الشك وأنا على درج السلم فى أنها، بعد ما حصلت على تلك النقود وسمعتنى أتعهد بمستقبلها، ستطرد كويلر أيضاً فى حالة ما إذا جاء لزيارتها بعد الظهيرة. كنت أود صعود السلم مرة ثانية لأنذرهما بالألّا تجذب الأنظار لى بمثل ذلك التصرف. لكن الوقت كان قد أزف، واضطرت أن أنصرف مسرعاً.

أخشى أن يخطر ببال الطبيب الذى سيقراً كتابى هذا أن كارلا تمثل أيضاً موضوعاً يدخل فى اهتمام التحليل النفسى. سوف يرى أن ترك نفسها لى، قبل طردها معلم الغناء، كانت حركة عاجلة للغاية. وكان يبدو لى أنا كذلك أنها كانت تتوقع منى عطاءً أوفر مقابل حبها لى. احتجت إلى شهر، بل شهر كثيرة، حتى أفهم جيداً تلك الفتاة المسكينة. من المحتمل أنها لم تبد أية مقاومة معى لكى تتخلص من وصاية كويلر التى كانت تشعرها بالقلق، ومن المؤكد أنها كانت مفاجأة مؤلة لها، أن تعرف أنها وهبت نفسها هباءً؛ ذلك لأننى واصلت مطالبتها بكل ما كان يزعجها كثيراً، ألا وهو الغناء. كانت لا تزال بين ذراعى، وعلمت أن عليها أن تستأنف دراسة الغناء. نتج عن ذلك كله سخط وألم تعجز الكلمات عن التعبير عنهما. وهكذا ولأسباب متفرقة تحدث كلانا بكلام غاية فى الغرابة. عندما أحببتنى هى، استعادت فطرتها الطبيعية التى كانت الحسابات قد انتزعتها منها. أما أنا فلم أجد سجيتى معها قط.

ورد بخاطري وأنا أسرع بالخروج: «لو علمت كم أحب زوجتي، لتصرفت على نحو آخر». وعندما علمت بذلك سلكت بالفعل سلوكاً آخر.

فى الهواء الطلق تنفست حريتي ولم أشعر بالألم من إضرارى بها. كان لا يزال هناك وقت حتى اليوم التالى، وربما وجدت علاجاً للمشكلات التى كانت تحيط بى. واثنتى أيضاً الجراءة، وأنا أسرع إلى البيت، حتى ألقيت باللوم على النظام الاجتماعى، كما لو أنه كان وراء تجاوزاتى. تصورت أنه لا بد أن يتسع النظام حتى يسمح لى بين الحين والحين (ليس دائماً) بأن أطارح الغرام، دون الخوف من تبعاته، حتى مع السيدات غير الجديرات بالحب مطلقاً. لم يكن هناك أى أثر للإحساس بالذنب بداخل نفسى؛ ولهذا فأنا أعتقد أن الإحساس بالذنب لا يتولد من الأسف على سيئة ارتكبت، بل من رؤية الإنسان لاستعدادة لاقتراف الذنب. ينحنى الجانب العلوى من الجسد البشرى لينظر إلى الجانب الآخر ويحكم عليه فيجده مشوهاً.

يشعر بالتقرز من ذلك، وهذا يسمى بالشعور بالذنب. ثم إنه فى المأساة القديمة كانت الضحية لا تعود للحياة، وعلى الرغم من ذلك كان الإحساس بالذنب يعبر. هذا يعنى أن التشويه قد تم الشفاء منه، وأن بكاء الآخرين أصبح لا أهمية له. كيف يمكن للشعور بالذنب أن يحتل مكاناً بداخلى وأنا أسرع بكل الفرحة والحب إلى زوجتى الشرعية؟ لم أكن قد شعرت منذ وقت بعيد بمثل ما كان من نقاء نفسى فى تلك اللحظة.

حول مائدة الطعام، ودون أى افتعال منى، كنت مرحاً وعاطفياً مع أوجوستا. فى ذلك اليوم لم تكن هناك أية نغمات شاذة بيننا. لم يكن هناك ما يفوق الحد: كنت كما كان يجب على أن أكون مع امرأتى الأمينة والمخلصة لى بالتاكيد. فى أحيان أخرى كان هناك إفراط من جانبى فى التعبير عن عواطفى، لكن ذلك كان فقط عندما كنت أقاوم بداخل نفسى صراعاً بين المرأتين. فكانت مبالغتى فى إظهار حبى لأوجوستا تسهل على إخفاء وجود خيال امرأة أخرى ماثل بقوته بيننا؛ لذلك يجدر بى أيضاً أن أقول إن أوجوستا كانت تفضلنى عندما لا أكون معها بكامل كيانى وصدقى المفرط.

ولقد اندهشت أنا نفسى مما أنا عليه من هدوء، وأرجعت ذلك إلى نجاحى فى إقناع كارلا بقبول ظرف النيات الحسنة. ولا يعنى هذا أنى اعتقدت بذلك سداد ما على لها. لكنى كنت أرى فيه بداية دفع قيمة مقابل ما يمنحنى من العفو. مع الأسف ظل المال يمثل اهتمامى الأساسى، طوال فترة علاقتى مع كارلا. كنت أحتفظ ببعضه كلما أمكنتنى ذلك، بعيداً فى مكان خفى فى مكتبتى، حتى أكون مستعداً لمواجهة أى احتياج مالى تحتاجه عشيقتى التى كنت أخشاها كثيراً. وعلى هذا النحو استفدت بذلك المال فى تسديد أشياء أخرى، عندما هجرتنى كارلا تاركة لى إياه.

كان لا بد أن نمضى الأمسية فى منزل والد زوجتى حول مائدة عشاء لم يدعوا إليها سوى أفراد العائلة، وكانت بديلاً عن المأدبة التقليدية، تمهيداً لحفل الزواج الذى كان ينبغى أن يتم بعد يومين من ذلك الحين.

أراد جويدو أن ينتهز فرصة تحسين صحة جوفاني ليتم زواجه؛ لأنه كان غير واثق من استمرار ذلك التحسن طويلاً.

اصطحبت زوجتي في ساعة مبكرة من بعد الظهيرة إلى منزل والدها. ذكرتها ونحن بالطريق أنها ارتابت في اليوم السابق من أنني ما زلت أعانى من أجل زواج آدا. فخجلت من ظنونها، وأخذت أتحدث أنا طويلاً عن براءتي تلك. أما عدت إلى منزلي وقد نسيت حتى ما أقيم من احتفال في تلك الأمسية ذاتها، تمهيداً لعقد ذلك الزواج؟

على الرغم من أنه لم يكن هناك مدعوون آخرون غيرنا نحن أفراد العائلة، فإن آل مالفتي أرادو أن تعد المائدة إعداداً فخماً. طلبوا من أوجوستا أن تساعدهم في تجهيز القاعة والمائدة. وأظهرت أوبرتا عدم اهتمامها بالأمر. فمئذ وقت وجيز كانت قد نالت جائزة في إحدى مسابقات مسرحيات الفصل الواحدة وتستعد بحماس في ذلك الحين لإصلاح المسرح القومي. وهكذا مكثت أنا وأوجوستا حول تلك المنضدة، تعاوننا إحدى الخادمت ولوتشانو، وكان فتى يعمل بمكتب جوفاني، وأظهر موهبته في إدارة شئون المنزل على قدر مهارته في أعمال المكتب.

وقد ساهمت أيضاً في وضع الزهور على المائدة وتنسيقها تنسيقاً جميلاً.

- انظري - قلت لأوجوستا وأنا أمزح - إنني أشارك أيضاً في سعادتهم. ولو طلبا مني أن أعد لهما حتى فراش الزواج، لفعلت بذات نفسي الصافية!

بعد ذلك توجهنا للقاء العروسين، وقد عادا حينئذ من زيارة رسمية. كانا يجلسان فى ركن منعزل من حجرة الاستقبال، وأظن أنهما كانا يتبادلان القبلات خلسة حتى وصولنا. فالعروس لم تبدل حتى ثوب النزهة الذى كانت ترتديه وكانت فائقة الحسن، وقد احمرّ وجهها من شدة الحر.

أعتقد أن العروسين، لكى يخفيا أى أثر للقبلات التى تبادلها أرادا أن يقنعانا بأنهما كانا يتناقشان فى مسألة علمية. كانت حماقة، وربما أيضاً فى غير موضعها! أكانا يريدان أن يبعدانا عن خلوتهما أم يظنان أن قبلاتهما قد تؤذى أحداً؟ إلا أن ذلك لم يغير مزاجى الحسن. أخبرنى جويدو أن أدا لا تريد أن تصدق فيما قاله فى أن أنواعاً من الدبابير تستطيع بلدغة منها أن تشل حركة حشرات أخرى، حتى الأكبر منها قوة لتحفظ بها فى حالة الشلل هذه حية وغضّة، لتطعم بها صغارها. أظن أننى تذكرت وجود مثل هذه الظواهر الوحشية فى الطبيعة، لكننى لم أرغب فى تلك اللحظة فى إرضاء جويدو والتأكيد على ما قال:

– أظننى دبوراً تتجه نحوى؟ قلت له ضاحكاً.

تركنا العروسين لنسمح لهما بالاهتمام بما يسعدهما أكثر. لكننى بدأت أشعر بثقل طول الوقت، وتمنيت أن أعود إلى المنزل لأنتظر ساعة الغداء فى حجرة مكتبى.

فى الردهة وجدنا الطبيب باولى وهو خارج من حجرة نوم حمائى. كان طبيباً شاباً لكنه استطاع أن يكتسب ثقة عدد كبير من المرضى.

كان أشقر الشعر غضّ البشرة أحمر الوجه مثل فتى يافع. غير أنه كان لعينه دور كبير في إضفاء هيئة الجدية والأهمية على كامل بنية بدنه الضخم. كان يبدو أكبر من سنه بفضل نظارته، وكانت نظارته تثبت على الأشياء وكأنها لمسة مداعبة. الآن وقد عرفته جيداً هو والطبيب "س" - المتخصص في التحليل النفسي - أرى أن عين ذلك الأخير تتفحص الأشياء عن قصد، في حين أن عين الطبيب باولى تحقق فيها في فضول لا يكلّ. حقا ينظر باولى إلى مريضه، ولكن إلى زوجة المريض أيضاً وإلى المقعد الذى تجلس عليه. يعلم ربنا أيّاً منهما كان يفضل الآخر في إتعاس مرضاه! فى أثناء مرض حمى كنت أذهب كثيراً إلى باولى لأحثه على ألا يطلع العائلة على أن الكارثة التى تهددها وشيكة الحدوث، وأذكر أنه ذات يوم، أخذ يحملق فى طويلاً بشكل ليعجبني، وقال لى مبتسماً:

– حقاً أنك تحب زوجتك حباً جماً يا سيدى!

كان يتمتع بدقة الملاحظة؛ لأننى كنت بالفعل فى تلك الفترة مولعاً بزوجتى التى كانت تتألم لمرض والدها، وكنت أخونها أنا كل يوم.

أخبرنا أن چوفانى تحسنت أيضاً صحته عن اليوم السابق. وحينئذ لم يكن لديه ما يزيد من مشاغله؛ لأن الوضع كان مناسباً جداً، ويرى أن العروسين يمكنهما الاستعداد للسفر فى اطمئنان. بالطبع - أضاف فى حذر - باستثناء حدوث ما قد يطرأ من مضاعفات. - تحققت توقعاته حيث حدثت مضاعفات للمرض لم تكن فى الحساب.

عند لحظة الانصراف ذكر أننا نعرف بلا شك كوبلر، وأنه تم استدعاؤه إلى منزله لاستشارته في اليوم ذاته. وجدته مصاباً بحالة شلل كلوى. وحكى لنا أن أعراض الشلل ظهرت بآلم مخيف أصاب الأسنان. وهنا ذكر أحد التوقعات الخطيرة، لكنه، كالمعتاد، خفف من وقع الكلام بشيء من الاحتمالات:

– يمكن أيضاً أن يكون لعمره بقية إذا رأى شمس صباح غد.

تأثرت أوجوستا، ودمعت عيناها، رجتني أن أسرع في الحال لزيارة صديقنا المسكين. بعد لحظة تردد، أذعنت لرغبتها، عن طيب خاطر؛ لأن فكرى سرعان ما استحوذت عليه كارلا بغتة. كم كنت قاسياً مع تلك الفتاة المسكينة! ها هو ذا كوبلر، عندما يختفى، وتبقى هي هناك، على راحة السلم وحيدة، ولن يكون هناك أى شيء يحرمها على وجه الإطلاق، وقد انقطعت بعالمى عن أية علاقات. كان لا بد أن أسرع إليها لأمحو الانطباع الذى تركه بالتأكد سلوكى الحاد معها فى الصباح.

لكننى، وفى حيلة منى، ذهبت أولاً لزيارة كوبلر. كان علىّ كذلك أن أخبر أوجوستا بأننى رأيته.

كنت أعرف من قبل ذلك المسكن المتواضع والمريح مع ذلك وله ذوق، حيث كان يعيش كوبلر فى كورسيا ستاديون. كان قد تنازل له رجل مسنّ متقاعد عن ثلاث من حجرات منزله الخمس. استقبلنى هذا الأخير، وكان رجلاً ضخماً البنية، تغشوا الحمرة عينيه، كان يلهث وهو يروح

ويجىء فى قلق فى ممر رواق صغير معتم، حكى لى أن الطبيب المعالج قد انصرف منذ قليل، بعد أن تحقق من أن كويلر يعانى سكرات الموت. كان العجوز يتحدث بصوت خافت، وهو لا يزال يلهث، كأنما كان يخشى أن يزعج هدوء المحتضر. فأخفضت صوتى أنا أيضاً. إنه وجه من أوجه الاحترام الذى نشعر به نحن الأحياء، فى حين لا يوجد دليل قاطع على أن المحتضر لا يرتاح لسماع أصوات جلية قوية، ترافقه فى اللحظات الأخيرة من حياته وتذكره بالحياة.

أخبرنى الرجل أن هناك راهبة تعتنى بالمحتضر. توقفت بكل إجلال لبعض الوقت أمام باب تلك الحجرة التى كان كويلر يضبط فيها وقت لحظاته الأخيرة، بإيقاع أنفاسه الرتيب. كانت تصدر من أنفاسه المحشرجة نغمتان: تتعثر الناجمة عن دخول هواء شهيقه، وتندفع تلك التى يصدرها هواء زفيره. هل كان يتعجل الموت؟ كان يلى النغمتين توقف، وتذكرت أنه عندما يطول ذلك التوقف تكون الحياة الأخرى قد بدأت. كان العجوز يريد أن أدخل تلك الحجرة، لكنى لم أرغب فى ذلك، فكثير من المحتضرين قد حملقوا فىّ بتعبير توبيخ لائم.

لم أنتظر أن يطول ذلك التوقف وأسهرت إلى كارلا. قرعت باب حجرة المكتب الذى كان موصداً بالمفتاح، لكن لم يجب أحد. بعد نفاد صبرى ركلت الباب بقدمى، وعندئذ فتح باب الشقة من خلفى. سمعت صوت والدة كارلا تسألنى:

- من الباب؟ - ثم أطلت العجوز فى حذر، وتعرفت على فى الضوء الأصفر الذى كان يأتى من المطبخ، وحينئذ تنبعت إلى الحمرة الشديدة التى كانت تكسو وجهها ويظهرها بياض شعرها الناصع. لم تكن كارلا بالبيت، فعرضت على أن تذهب لإحضار مفتاح المكتب لتستقبلنى فى تلك الحجرة التى تعدها الوحيدة اللائقة لاستقبالى. لكنى قلت لها ألا تنزعج، ودخلت المطبخ وجلست دون تردد على مقعد من الخشب. كانت تشتعل على الموقد، تحت القدر، كمية قليلة من الفحم. قلت لها ألا تشتغل عن طهى طعام العشاء بسببى. فطمأنتنى أن تفعل. كانت تطهو بعض الفاصوليا لم يكن ليزيد نضجها قط. إن فقر الطعام الذى كان يعد فى البيت الذى أصبح على أن أتكفل بنفقاته بمفردى، قد جعلنى ألىن وأسكن سخطى الذى شعرت به عندما لم أجد عشيقتى متأهبة للقائى.

ظلت السيدة واقفة على الرغم من أنى دعوتها مراراً لتجلس، ودون مقدمات حكيت لها أنى جئت لأحمل لكارلا خبراً مؤسفاً للغاية: إن كويلر يشرف على الموت.

سقطت ذراعاً العجوز، وعلى الفور شعرت بالحاجة إلى الجلوس.

- يا إلهى! - هممت - ماذا سنفعل نحن الآن؟

ثم تذكرت أن ما أصاب كويلر أسوأ مما يصيبها، وفى حزن شديد أضافت قائلة:

- سيدى المسكين! كان طيب القلب!

وسارعت دموعها تبلل وجهها. كان واضحاً، أنها لم تكن تدرى أن ذلك المسكين إن لم يمت فى الوقت المناسب لطرد من ذلك المنزل. وهذا ما طمأننى أيضاً. كم كنت محاطاً بالسرية الكاملة!

أردت تهدئتها وأخبرتها أن ما كان يصنعه كويلر من أجلهما حتى تلك اللحظة، سأقوم به بنفسى. احتجت بأنها لا تبكى لحالها، فقد كانت تعلم أنها وابنتها تحت رعاية أناس طيبين، بل كانت تبكى لمصير ولى نعمتهما الكريم.

أرادت أن تعرف من أى مرض يموت. وأنا أقص عليها كيف عرفنا بتلك الكارثة، تذكرت تلك المناقشة التى تبادلتها من قبل مع كويلر حول فائدة الألم. وقد حدث أن اضطربت أعصاب أسنانه وأخذت تستغيث لأن الكليتين، قد توقفتا عن أداء وظيفتهما، وهما على بعد متر منها. كنت غير مبال بمصير صديقى الذى كنت أسمع أنفاسه المحشرجه منذ قليل، حتى إننى واصلت التفكير مازحاً. ولو كان لا يزال يسمعنى، لقلت له إن الأعصاب لدى المريض بالوهم يمكنها أن تتألم ألماً حقيقياً لمرض ظهر على بعد الكيلو مترات.

لم يكن بينى وبين السيدة العجوز الكثير لنتبادله بالحديث، فقبلت أن أذهب إلى حجرة مكتب كارلا لانتظارها. أخذت فى يدى جارتشا، وحاولت أن أقرأ صفحات منه. لكن فن الغناء لم يكن يهمنى كثيراً.

لحقت بى العجوز ثانية. كانت قلقة لعدم وصول كارلا. قالت لى إنها ذهبت لشراء أطباق هما فى حاجة ماسة إليها.

كاد صبرى أن ينفد حقاً. سألتها فى غضب:

– أحطمتما الأطباق؟ ألم يسكنكما أن تكونا أكثر انتباهاً؟

وهكذا تخلصت من العجوز التى انصرفت وهى تتمتم:

– اثنان فقط... حطمتها وحدى...أنا...

ذلك ما جلب لى لحظة من السرور؛ لأننى كنت أعلم أن الأطباق جميعها التى بالمنزل لم تحطمها العجوز، بل كارلا بالتحديد. ثم إننى علمت أن كارلا لم تكن لطيفة قط مع أمها التى كانت لهذا السبب تخاف خوفاً كبيراً من أن تستقيض فى الحديث عن تصرفات ابنتها مع من يحسنون عليها. يبدو أنها، بسذاجة منها، حكّت ذات مرة لكوبلر عن الضيق الذى تشعر به كارلا فى أثناء دروس الغناء. استشاط كوبلر غضباً من كارلا التى انتقمت من أمها.

ومن ثم عندما أدركتنى أخيراً رفيقتى الحلوة، كان حبى لها عنيفاً وغضوباً. أخذت تهمهم، وهى مفتونة:

– وأنا التى كنت أرتاب فى حبك! أخذت الرغبة فى الانتحار تلاحقنى طوال اليوم؛ لأننى استسلمت لرجل سرعان ما عاملنى بهذا السوء!

شرحت لها أننى أصاب أحياناً بالآلام حادة فى الرأس، وأننى وجدت نفسى فى حالة، لو لم أستطع أن أقاومها بقوة، لأعادتنى إلى أوجوستا جرياً، ثم عاودت الحديث معها عن تلك الآلام، وتمكنت من السيطرة على نفسى.

كنت أستميد ضبط نفسي. مع ذلك بكينا معاً كويلر المسكين،
حقاً معاً!

فضلاً عن أن مشاعر كارلا لم تكن لتبرد أمام نهاية وليّ نعمتها
المروعة. شحب وجهها وهي تتحدث عنه:

إنّى أعرف نفسي! - هكذا قالت - سوف يملكني الخوف لوقت
طويل من أن أكون في مكان بمفردي. كان وهو حي يخيفني خوفاً
شديداً!

وللمرة الأولى، اقترحت علىّ في خجل أن أبقى معها طوال الليل. لم
أكن أفكر في ذلك على الإطلاق، ولم أكن أستطيع أن أطيل وجودي ولا
أكثر من نصف الساعة في تلك الحجرة. لكنّي، ويقصد ألاّ أكشف لتلك
الفتاة المسكينة عما بداخل نفسي وكنت أول من يتألم منه، أبدت
اعتراضى، وقلت لها إن شيئاً كهذا غير ممكن؛ لأن والدتها موجودة
أيضاً في المنزل. وفي ازدياء شديد لوت شفيتها قائلة:

- يمكننا أن ننقل الفراش هنا؛ ولن تخاطر أُمى بالتجسس علىّ.

عندئذ قصصت عليها مآدبة حفل الزفاف التي تنتظرني في المنزل،
غير أنّي بعد ذلك شعرت بالحاجة لأن أخبرها بأنه لن يكون في الإمكان
أن أقضى ليلة معها. وبالإقرار الذي اتخذته منذ قليل بأن أكون طيباً،
تمكنت من ضبط كل نبيرة تحدثت بها ولذا ظلت ودية، ورأيت أنه لو
منحتها أى شيء آخر منى أو حتى تسببت في أن تأمل فيه، فسيكون
ذلك بمثابة خيانة أخرى لأوجوستا لا أريد أن أرتكبها.

فى تلك اللحظة أدركت ما هو أقوى ارتباطاتى بكارلا: ابتغاء
العواطف ثم الأكاذيب التى ذكرتها حول علاقتى بأوجوستا والتى رويداً
رويداً، وعلى مر الأيام، كان ينبغى أن تقل وتمحى؛ لذا بدأت العمل فى
الليلة ذاتها، وبالطبع مع الحذر اللازم حيث كان تذكر الثمار التى أثمرت
عنها كذبتى سهلاً للغاية. قلت لها إن إحساسى بواجبى نحو زوجتى
قوى جداً وهى سيدة جديرة بالتقدير، تستحق دون شك أن أحبها
بصورة أفضل ولا أريد مطلقاً أن أشعرها بأننى أخونها.

أحاطتنى بذراعيها وهى تقول:

- ولهذا أحبك: أنت طيب ولطيف مثلاً أحسست بك منذ الوهلة
الأولى. لن أحاول أبداً أن أسوء إلى تلك المسكينة.

لم يسرنى أن يطلق لفظ مسكينة على أوجوستا، لكنى كنت ممتناً
لكارلا المسكينة وداعتها. كان شيئاً طيباً ألا تبغض زوجتى. أردت أن
أعبر لها عن عرفانى وتلفت يمنية ويسرة بحثاً عن دليل لحبى لها. أفضى
بى الأمر إلى العثور عليه. أهديتها هى أيضاً مغسلتها: وعدتها بالأدعو
البتة معلم الغناء.

اندفعت كارلا فى التعبير عن حبها مما أزعجنى بما يكفى، لكنى
تحملت فى قوة. أخبرتنى بعد ذلك أنها لن تترك الغناء أبداً. كانت تغنى
طوال اليوم، لكن بأسلوبها. وأكثر من ذلك أنها كانت ترغب فى أن
أستمع فى الحال إلى أغنية لها. غير أننى لم أبال بها وخرجت مسرعاً

بطريقة غير لائقة؛ ولهذا أظن أنها فكرت كذلك فى الانتحار فى الليلة ذاتها، لكننى لم أتح لها الوقت قط لتخبرنى بذلك.

عدت إلى كويلر لأنه كان على أن أحمل لأوجوستا آخر أخبار المريض لأوهمها بأننى أمضيت معه تلك الساعات جميعها. كان كويلر قد فاضت روحه منذ ساعتين تقريباً، عقب انصرافى مباشرةً. رافقتى العجوز المتقاعد الذى استمر فى قياس الممر الصغير بخطواته، ودخلت غرفة الميت. كانت الجثة ترقد، وقد ألبسوها ثيابها، على خشبة دون ملاءة. كانت تمسك بالصليب بين يديها. حكى لى العجوز بصوت منخفض أن الإجراءات قد تمت، وأن قريبة للمتوفى ستأتى لقضاء الليلة بجوار الجثة.

وبهذا كان يمكننى أن أنصرف بعد ما علمت بأنهم قد قاموا بكل ذلك الشئ القليل الذى كان يلزم لصديقى المسكين، غير أننى مكثت لبضعة دقائق أنظر إليه. كنت أود أن أشعر برققة دمة صادقة من عينى رثاءً لذلك المسكين، الذى طالما صارع المرض حتى حاول العثور على اتفاق معه. إنه شئ مؤلم! قلت فى نفسى. إن الداء الذى كانت له عقاقير كثيرة، قد تسبب فى وفاته بقسوة. بدا الأمر وكأنه سخرية. وأما دمعى فلم تأتنى. لم أر وجه كويلر النحيف شديد القوة مثلما كان عليه فى جمود الموت. كان يبدو وكأنما صنعه إزميل نحات من الرخام الملون، وما من أحد يستطيع تصور أن تحلله وشيك. ومع ذلك كانت حياة حقيقية ما كان يكشفه ذلك الوجه؛ ربما كان يوبخنى فى ازدياء،

أنا المريض بالوهم، أو ربما كارلاً أيضاً، التى كانت لا تريد الغناء.
ارتعدت للحظة وقد هبى لى أنه قد عادت إلى المتوفى أنفاسه اللاهثة.
على الفور عدت إلى هدوء الناقد عندما تنبّهت إلى أن ما بدا لى حشرة
الموت لم يكن سوى لهاث العجوز، الذى ارتفع صوته من الانفعال.

بعد ذلك رافقنى حتى الباب وأوصانى أن أبلغه إذا ما عرفت أحداً
يحتاج إلى استئجار مسكن صغير مثل ما لديه:

– كما ترى، إننى استطعت فى ظروف كهذه أن أقوم بواجبى وأكثر
منه أيضاً، أكثر منه بكثير. وللمرة الأولى رفع صوته الذى حمل فى صداه
استياء كان يوجهه دون شك للمسكين كوبر الذى ترك مسكنه خالياً دون
الإخطار اللازم. خرجت مسرعاً ووعدته بتلبية كل ما طلب.

عند وصولى إلى منزل صهرى وجدت الصحبة تلتف حول المائدة.
سألونى عن أخباره، وحتى لا أفسد بهجة تلك الوليمة، قلت إن كوبر
مازال حياً؛ ومن ثم فلا يزال هناك بصيص من الأمل.

أحسست بلمحة حزن عميق تغمر ذلك الجمع. ربما انتابنى ذاك
الشعور عندما رأيت چوئاننى وهو محكوم عليه بطبق من الحساء وكوب
من اللبن، فى حين أن الجميع من حوله يغترفون من أشهى الأطعمة. كان
لديه كل فراغ الوقت، فأخذ يستثمره فى مشاهدة ما يتناوله الآخرون.
وعندما وجد السيد فرانشيسكو مستغرقاً فى تناول المشهيات،
أخذ يهمس:

– مع أنه يكبرنى بعامين!

ثم عندما وصل السيد فرانشيسكو لكأس النبيذ الثالثة، تمت بصوت خافض:

– إنها الثالثة! فلتذهب في جوفه مريرة!

لم تكن لتزعجنى تلك الأمنية لو لم أتناول أنا أيضاً الطعام والشراب على تلك المائدة، ولو لم أكن أعرف أن أمنية التحول ذاتها يستطيع أن يتمناها أيضاً للنبيذ الذى كان يعبر شفتى؛ لهذا أخذت أتناول طعامى وشرابى خلسة. كنت أغتتم اللحظات التى كان يدس خلالها أنفه الضخم فى فنجان اللبن أو يجيب على ما يوجه له من حديث، حتى ألتهم من اللقم الكبيرة أو أتجرع كنؤساً كبيرة من النبيذ. ألبرتا، ولجرد الرغبة فى إضحاك الجميع، حذرت أوجوستا من أنى أشرب أكثر مما ينبغى. فهددتنى زوجتى بإصبعها وهى تمزح معى. لا بأس لم يكن ما يسىء فى ذلك، ولكنه أساء حيث لم تعد هناك جدوى من تناول الطعام فى الخفاء. إن چوئانى، الذى كان ناسياً وجودى حتى تلك اللحظة، حدق فى من فوق نظارته بنظرة يملؤها بغض حقيقى. قال:

– أنا لم أسرف قط فى النبيذ أو فى الطعام. من يفرط فى تناولهما ليس برجل حقيقى بل...، وكرر مرات عديدة الكلمة الأخيرة التى لم تكن تحمل بالتأكيد معنى به مجاملة.

وتحت تأثير النبيذ، تلك الكلمة الجارحة التى صاحبتهما ضحكات الجميع، أثارت فى نفسى رغبة جامحة بحق فى الانتقام. هاجمت صهرى من النقطة الأكثر ضعفاً لديه: مرضه. صحت أنه ليس رجلاً

حقيقياً من يسرف فى الطعام بل من ينساق فى سلبية وراء إرشادات الطبيب. فأتا، لو كنت مثل حالتك، لتحررت بوجه مختلف تماماً. فى حفل زفاف ابنتى - وليس إلا تعبيراً عن الحب - لن أسمح أبداً أن يمنعوا عنى الطعام والشراب.

تفحصنى چوقانى بعينيه فى سخط قائلاً:

- أود أن أراك فى مكانى!

- ألا يكفىك أن ترانى فيما أنا فيه؟ أعسانى تركت التدخين؟

كانت المرة الأولى التى تمكنت فيها من التفاخر بضعفى، وعلى الفور أشعلت سيجارة لأثبت ما قلته. ضحك الجميع، وأخبروا السيد فرانشيسكو كم كانت حياتى مليئة بالسجائر الأخيرة. لكن تلك لم تكن الأخيرة، وأحسست بنفسى قوياً ومناضلاً. غير أننى سرعان ما فقدت تأييد الآخرين عندما سكبت النبيذ لچوقانى فى كأسه الكبيرة المخصصة للماء. ارتاعوا من أن يتناول چوقانى الكأس، وصاحوا ليمنعوه أن يفعل، إلى أن نجحت السيدة مالفنتى فى أخذها وإبعادها عنه.

- أحقاً، أترغب فى قتلى؟ سألنى چوقانى فى هدوء وهو ينظر إلى فى دهشة. ما لديك أنت نبيذ سيئ! ولم يقم بمجرد حركة واحدة ليستغل النبيذ الذى قدمته له.

شعرت حقاً بالإهانة والهزيمة. كدت أرتدى عند قدمى حمى لأطلب الصفح منه. لكن ذلك أيضاً كان إيحاءً من تأثير النبيذ ولم أقم به. فطلب

الصفح يعنى أننى أقرّ بذنبى، فى حين استمرت الوليمة وكانت ستستمر بما يكفى لمنحى الفرصة المواتية لإصلاح ذلك المزاج الذى أخفق على نحو سيئ جداً. وهناك وقت لكل شىء فى هذا العالم. لا يقع السكارى جميعهم فريسة سريعة لإيحاءات النبيذ كلها. عندما أفرط فى الشراب، أفكر فى إمكاناتى، مثلما أفعل عندما أكون يقظاً وربما أنتهى إلى النتيجة ذاتها. واصلت فحص نفسى لأعنى كيف وصلت إلى ذلك التفكير السيئ فى إيذاء والد زوجتى. فأدركت أننى متعب، متعب تعباً مميتاً. لو علم الجمع كيف قضيت ذلك اليوم، لالتمسوا لى العذر. كانت بين يدي امرأة وتركتها بعنف ولرتين اثنتين، ثم عدت إلى زوجتى مرتين لى أتخلى عنها هى أيضاً لمرتين. شاء حظى فى تلك اللحظة، أن تداعت الأفكار فى ذاكرتى، وأطلت منها فجأة تلك الجثة التى حاولت عبثاً أن أبكيها، وتلاشى التفكير فى المرأتين؛ وإلا لأفضى بى الأمر إلى الحديث عن كارلا. ألم تلح على دائماً الرغبة فى الاعتراف، حتى عندما لم يزدنى فعل الخمر من سعة الصدر؟ انتهيت إلى الحديث عن كوبلر. كنت أود أن يعلم الجميع أننى فقدت صديقى العظيم فى ذلك اليوم. فربما غفروا لى سلوكى.

صحت أن كوبلر وافته المنية، مات بالفعل، وأننى لم أتحدث بشأته حتى ذلك الحين لى لا أكرر صفوفهم. يا للعجب! يا للعجب! أخيراً شعرت بتدفق الدموع فى عيني، وكان على أن أدير وجهى لأخفيها.

ضحك الجميع؛ لأنهم لم يصدقوني، وعندئذ تدخل العناد وهو أكثر سمات تأثير النبيذ وضوحاً. أخذت أصف الميت:

- كان يبدو وهو جامد على تلك الصورة، وكأن ميكل أنجلو نحتته على أقوى الأحجار صلابة.

خيم السكون على الجميع وقطعه جويدو صائحاً:

- والآن لم تعد تشعر بالحاجة إلى عدم تكديرنا؟

كانت ملاحظة سليمة. إنني لم أفِ بعهد تذكرته! أليست هناك وسيلة لإصلاح ما أفسدته؟ انطلقت أضحك بلا قيود:

- تلاعبت بكم! إنه حي يرزق، وعلى ما يرام.

حرق الجميع النظر إلى كي يتبينوا الأمر.

- إنه يتحسن، أضفت بنبرة جادة - تعرف على، حتى إنه ابتسم لي.

صدقني الجميع، لكن الشعور بالاستياء سيطر عليهم جميعاً. صاح چوئاني بأنه إن لم يكن يخشى أن يصاب بأذى جراء بذل الجهد، لقدفني بطبق على رأسى. حقاً كان خطأ لا يغتفر أن أكرر صفو الحفل باختلاق خبر كهذا. لو كان حقيقياً، لما أصبح هناك ذنب. ألم يكن من الأفضل أن أخبرهم بالحقيقة مرة أخرى؟ إن كويلر قد مات، وفور أن أكون بمفردى،

سأجد دموعي مستعدة لبكائه، تلقائية، وفيرة. كنت أبحث عن الكلمات، لكن السيدة مالفنتي، برزانة السيدة الفاضلة، قاطعتني:

— فلندع الآن ذلك المريض المسكين وشأئه. سنهتم به في الغدا!

امتثلت الأمر فوراً، حتى أن تفكيرى انفصل تماماً عن المتوفى: «وداعاً! فلتتظرنى! سأعود إليك لاحقاً على الفور!».

حانت ساعة نخب العروسين. أجاز الطبيب لجوئاني أن يتجرع في تلك الساعة كأساً من الشامبانيا. كان يراقب بانتباه شديد كيف يصبون له النبيذ، ورفض أن يحمل الكأس إلى شفتيه حتى امتلأت عن آخرها. وبعد أن عبّر عن أمنية صادقة وبدون تجميل تمنّاها لأدا وجويدو، أفرغها على مهل حتى آخر نقطة. قال لي وهو ينظر إلى شزراً إن الرشفة الأخيرة قد ارتشفها نخب صحتي، ولكي أمحو تأثير تلك الأمنية، التي كنت أعلم أنها أمنية غير طيبة، فمن تحت غطاء المنضدة جعلت من السبابة والخنصر قرنين وبكلتا اليدين(*).

ما أتذكره من بقية الأحداث في تلك الأمسية مشوش بعض الشيء. أعلم أنه بعد ذلك وبمبادرة من أوجوستا مدحوا فيّ، حول تلك الوليمة، بكلام كثير طيب، ورأوا فيّ مثال الزوج النموذجي. صفحوا عني تماماً،

(*) إعطاء شكل القرنين لأصابع اليد بمد الخنصر والسبابة وضم باقي الأصابع إلى راحة اليد وتوجيه شكل القرنين إلى أسفل، حركة تدخل في نطاق الموروث الشعبي الإيطالي من الخرافات، ويقصد بها إبعاد الشر أو إبطال مفعول العين الحاسدة. (المراجع)

حتى حمى أصبح أكثر لطفاً معي؛ لذا أضاف أنه يأمل في أن يكون زوج
آدا دمث الخلق مثلي، على أن يكون أيضاً في الوقت نفسه تاجراً جيداً
وقبل كل شيء إنساناً... وأخذ يبحث عن الكلمة. ولم يعثر عليها ولم
يطالب بها أحد من حولنا؛ ولا حتى السيد فرانشييسكو الذي رأيته للمرة
الأولى في صباح ذلك اليوم، ولم يكن يعرف عني إلا القليل. ومن جانبي
لم أشعر بالإهانة. كم يعمل الشعور بارتكاب أخطاء جسيمة ينبغي
إصلاحها على تهدئة النفس! أخذت أتقبل بسعة صدر تلك الكلمات
السفوية جميعها مادامت تصحبها مشاعر الود التي لا أستحقها. وفي
ذاكرتي، المضطربة من الإرهاق والخمر، وبصفاء نفس كامل، أخذت
أترفق بصورتي كزوج مثالي لا تقل طيبته من جراء خيانتة الزوجية.
رأيت أنه يجب أن نكون طيبين، طيبين، وفيما عدا ذلك فلا أهمية
له. أرسلت بيدي قبلة لأوجوستا التقطتها بابتسامة شاكرة.

ثم، كان هناك حول تلك المائدة من رغب في أن يغتتم حالة السكر
التي كنت فيها للسخرية، واضطرت إلى أن أقول شيئاً نخب العروسين.
انتهيت إلى قبول الأمر، حيث بدا لي حينئذ أنه من القوة أن أستطيع
اتخاذ قرارات جيدة على رءوس الأشهاد. هذا لا يعني أنني في تلك اللحظة
كنت أرتاب في نفسي، فقد كنت أشعر بنفسي حقاً مثل الصورة التي
وصفوني بها، ولكني كنت أبغى أن أكون أيضاً أفضل من ذلك، إن أكدت
أمام الجميع غايات سوف يصدقون عليها بصورة أو بأخرى.

وهكذا، تحدثت فى النخب عن نفسى وعن أوجوستا وحسب، رويت قصة زواجى للمرة الثانية فى تلك الأيام، قمت بتزييفها لكارلا وكتمت عنها حبى لزوجتى؛ وزيفتها هنا بوجه آخر؛ لأننى لم أذكر أهم شخصيتين فى قصة زواجى، أعنى آدا وألبرت. تحدثت عن حيرتى التى لم أستطع أن أجد الراحة منها؛ لأنها حرمتنى السعادة لوقت طويل، ثم، فى شهامة منى، ذكرت أن أوجوستا أيضاً عانت شيئاً من التردد، لكنها نفت ذلك وأخذت تضحك بشدة.

عثرت على خيط الحديث بصعوبة. حكيت كيف توصلنا فى نهاية الأمر إلى رحلة شهر العسل، وكيف تحايبنا فى متاحف إيطاليا جميعها، غرقت كليةً وحتى أعلى رأسى فى أكاذيبى، حتى إننى حشرت أيضاً فيها بعض التفاصيل الزائفة التى لم تفد فى أى شىء. ثم يقولون إن فى الخمر الحقيقة.

قاطعتنى أوجوستا للمرة الثانية حتى تصحح ما قلت وحكت أنها اضطرت إلى تجنب زيارة المتاحف لكى لا تعرض التحف إلى خطر بسببى. لم تدرك أنها بهذا الأسلوب لم تكشف زيف تلك الجزئية وحدها! ولو كان هناك من هو دقيق الملاحظة حول تلك المائدة، لاكتشف على الفور ما هى طبيعة ذلك الحب الذى أشرت إليه فى مكان لا مكان له فيه.

استأنفت الحديث الطويل الخالى من الرونق وتحدثت عن العودة إلى منزلنا، وكيف أننا أخذنا نجمله معاً بعمل هذا وذاك، فضلاً عن بناء حجرة الغسيل أيضاً.

قاطعتنى أوجوستا من جديد، وهى لا تزال تضحك:

- إنه ليس احتفال تكريم لنا على وجه الإطلاق، بل إنه على شرف
آدا وجويدو! فلتتحدث عنهما!

وافق الجميع فى صخب. وضحكت أنا أيضاً، عندما أدركت أن
ما قمت به قد أيقظ روح بهجة حقيقية صاخبة، كما هى العادة فى مثل
هذه المناسبات. لكن لم يعد لدى شىء أقوله. هبى لى أنى تحدثت
لساعات. ابتلعت كئوساً أخرى عديدة من النبيذ، الواحدة تلو الأخرى
وأنا أقول:

- هذه فى نخب آدا! - هممت واقفاً للحظة لأرى إذا ما كانت قد
قرنت إصبعيها تحت غطاء المائدة.

- هذا نخب جويدو! وأضفت، بعد ما شربت النبيذ دفعة واحدة:
- من أعماق قلبي! وقد نسيت أن تلك العبارة لم أذكرها عند
الكأس الأولى.

- هذا لطفلكما الأول!

وكنت سأشرب العديد من الكئوس نخب أولادهما، لو لم يمنعونى
من ذلك فى نهاية الأمر. كنت سأشرب كل النبيذ الذى كان على تلك
المائدة نخب هؤلاء الأبرياء المساكين.

ثم زاد أيضاً عدم وضوح كل شىء. ما أذكره بوضوح كان أمراً
واحداً: اهتمامى الأساسى ألا أبدو ثملاً. مكثت واقفاً ولم أتحدث كثيراً.

كنت أرتاب فى نفسى، وأنا أشعر بالحاجة إلى تحليل كل كلمة قبل أن أنطق بها. فى حين كان يتحدث الجميع، كان علىّ ألاّ أشاركهم فيه؛ لأنهم ما كانوا ليتركوا لى الفرصة لأستوضح ما بفكرى المشوش. أردت بدء حديث بنفسى فقلت لجوقانى:

– أسمعت بأن الأكستريور فقدت نقطتين؟

ذكرت شيئاً لا يمت لى بصلة على وجه الإطلاق وسمعت به فى البورصة؛ كنت أرغب فى الحديث عن الأعمال التّجارية وحسب، وهو أمر جاد لا يتذكره عادةً رجل ثمل. لكن يبدو أن الخبر كان له جانب من الأهمية لدى صهرى، حتى إنه نعتنى بغراب الأخبار السيئة. لم أكن أوفق قط فى أى مبادرة معه.

عندئذ انشغلت بالبرتا، التى كانت تجلس بالقرب منى. تحدثنا عن الحب. على المستوى النظرى كان يهمها، أما بالنسبة لى، فى تلك اللحظة، فلم يكن من الناحية العملية يشغلنى؛ لهذا كان الحديث عنه شيئاً جميلاً. سألتنى عن فكرتى عنه. وعلى الفور وردت على خاطرى فكرة تراعت لى واضحة من خلال تجربتى فى الصباح ذاته. فالمرأة عنصر تتغير قيمته أكثر من أى قيمة فى البورصة. أساعت ألبرتاهم ما قلته، وظننت أنّى كنت أعنى بالقول مفهوماً شائعاً، وهو أن المرأة حينما تبلغ من العمر قدراً معيناً، تختلف قيمتها تماماً عنها فى مرحلة أخرى. قمت بتفسير ما قلته بصورة أكثر إيضاحاً: يمكن للمرأة أن تحظى بقيمة عالية فى ساعة معينة من الصباح، ولا يكون لها أية قيمة فى الظهيرة، حتى تبلغ بعد

الظهيرة ضعف ما كانت عليه من قيمة فى الصباح، إلى أن تصل فى نهاية الأمر إلى قيمة سلبية تماماً عند المساء. قمت بتوضيح مفهوم القيمة السلبية: إن المرأة تبلغ تلك القيمة عندما يقوم الرجل بحساب القيمة التى يمكنه سدادها، حتى يصرفها بعيداً، بل بعيداً جداً عنه.

على الرغم من ذلك لم تدرك كاتبة المسرح المسكينة دقة اكتشافى هذا، فى حين كنت على يقين منه، وأنا أتذكر حركة تغيير القيمة التى عانت منها فى اليوم ذاته كارلا وأوجوستا. تدخل الخمر عندما أردت أن أفسر ما أقوله على نحو أفضل، وخرجت عن الموضوع كلياً:

- هيا، قلت لها - فلنفترض أن قيمتك فى هذه اللحظة هى "س"، واسمح لى أن أضغط بقدمى على قدمك الصغيرة، سترتفع حتماً قيمتك على الأقل بقدر "س" أخرى.

وصاحبت القول فى الحال بالفعل.

احمرّ وجهها كلياً، جذبت قدمها وأرادت أن تبدو مرحة، فقالت:

- لكنه مثال عملى وليس نظرياً. سأشكوك لأوجوستا.

ينبغى أن أقرّ بأننى أنا أيضاً شعرت بتلك القدم الصغيرة شيئاً يختلف حقيقة عن جفاء النظرية، ومع ذلك اعترضت وصحت وأنا أرسم على وجهى البراءة المتناهية: - إنها نظرية خالصة، بحتة، ومن المؤسف أنك أحسست بها من جانبك بشكل آخر.

إن خيالات النبيذ أحداث حقيقية.

لفترة طويلة لم ننس أنا وألبرت أنى لمست جزءاً من جسدها، وأنا أنبهها أنى أفعله من أجل المتعة. عبّر القول عن الفعل وجسّد الفعل القول. ظلت تقابلنى بابتسامة وحمرة بالوجه إلى أن تزوجت، ثم، تحول التعبير إلى احمرار وسخط. فالنساء خلقت على هذه الصورة. كل صباح يشرق يحمل لهن تأويلاً جديداً لما مضى. لابد أن حياتهن ليست رتيبة بدرجة كبيرة، فى حين أن تفسيرى لتلك الحركة ظل كما هو: كانت سرقة لشيء صغير لذيذ جداً ووقع العبء على ألبرت التى ظللت لفترة أذكرها بهذا الشيء، ثم جاء وقت بعد ذلك تمنيت فيه أن أدفع أى ثمن لكى أنساه تماماً.

فضلاً عن ذلك أتذكر أمراً آخر قد حدث قبل مغادرتى ذلك البيت وكانت أهميته أكبر. مكثت، لبضعة لحظات، بمفردى مع آدا. كان چوڤانى قد ذهب إلى مخدعه منذ فترة، وانصرف الآخرون وذهب جويدو ليرافق السيد فرانشيسكو إلى الفندق. تأملت آدا طويلاً وهى ترتدى ثوباً بكامله من الدانتيل الأبيض، يكشف عن كتفها وذراعيها. ظللت صامتة لفترة طويلة على الرغم من أنى كنت أشعر بالحاجة إلى الحديث إليها؛ لكنى كنت أكتم كل عبارة تأتى على شفتى، بعد أن أقوم بتحليلها. أذكر أنى أخذت أدق فى تعبيرى على الرغم من أنه كان مسموحاً لى بالكلام: «كم يسعدنى أنك تتزوجين فى النهاية وتتزوجين صديقى الحميم جويدو. الآن فقط سينتهى كل شيء بيننا». كنت أرغب فى قول كذبة حيث يعلم الجميع أن كل شيء قد انتهى بيننا منذ شهور عديدة، لكن بدت لى تلك

الأكذوبة مجاملة رائعة وامرأة ترتدى على هذا النحو، تحتاج بلا شك إلى كلمات المجاملة وتسعد بها. لكن بعد تأمل طويل لم أفعل شيئاً من هذا. كتمت تلك الكلمات؛ لأننى عثرت فى بحر الخمر الذى كنت أسبح فيه على لوح أنقذنى. فطنت إلى أننى أخطئ بالمجازفة بحب أوجوستا لكى أسعد أدا التى لم تكن تحبنى. نظرت فى شكوكى التى أزعجت تفكيرى لبضع لحظات، فضلاً عن المجهود الذى بذلته لأبعد تلك الكلمات عن ذهنى، نظرت إلى أدا نظرة جعلتها تنهض وتنصرف بعد أن التفتت لتراقبني وهى متزعجة، وربما كانت تتأهب للفرار.

حتى نظرة الإنسان ذاته يتذكرها بقدر ما يتذكر العبارة، وربما على نحو أفضل من الكلمة؛ إنها أهم من الكلمة، حيث لا توجد بقاموس اللغة مفردة تستطيع أن تجرد امرأة من ثيابها. وأنا على يقين الآن من أن نظرتى تلك قد كشفت زيف الكلمات التى كانت بخاطرى حين بسطتها. ورأت أدا فيها محاولة النفاذ إلى ما وراء ردائها وجلدها أيضاً. رأت أنها تعنى بلا شك:

«أما ترغبين فى أن تأتى معى الآن إلى الفراش؟». إن الخمر خطر كبير خاصة وأنها لا تدع الحقيقة تطفو على السطح. إنها تظهر على العكس شيئاً آخر غير الحقيقة: يزيح الستار خاصة عن حياة الفرد الماضية والمنسية وليس عن رغبته الحالية؛ تخرج فى عشوائية إلى الضوء كذلك الأفكار السريعة جميعها التى داعبت خيالنا فى فترة حديثه العهد ثم نسيناها؛ تغفل ما محوناه وتقرأ كل ما تزال تشعر به قلوبنا.

وكلنا يعلم أنه ليست هناك وسيلة لمحو أى شىء بصورة جذرية، تماماً
كما يحدث مع توقييع خاطئ على كمببالة. تاريخ حياتنا بأكمله متاح
 للقراءة والخمر تجهر به، وهو يغفل ما أضافته له الحياة لاحقاً.

استقللنا أنا وأوجوستا عربة، للعودة إلى منزلنا. فى ظلمة الليل
رأيت أنه من واجبى أن أقبل زوجتى وأعانقها؛ حيث اعتدت أن أفعل ذلك
مرات عديدة فى لقاءات مماثلة، وخشيت أنها، إن لم أقم بذلك، ربما تظن
أن هناك شيئاً قد تغير بيننا. لم يتغير شىء بيننا: كانت الخمر تعلن ذلك
أيضاً عالياً! إنها تزوجت تزينو كوزينى الذى يعيش معها، ولم يطرأ عليه
أى تغيير، ماذا يهم إذا كنت قد استحوذت فى ذلك اليوم على نساء
آخرى زاد الخمر من عددهن، لكى تسعدنى، ووضعت بينهن لم أعد
أدرى إن كانت آدا أو ألبرت؟

أتذكر أنه، عندما خلدت إلى النوم، مرت لحظة تراءى لى فيها
للمرة الثانية وجه كويلر المتصلب على فراش الموت. بدا وكأنه يطالب بالعدل،
أى الدموع التى وعدته بأن أبكيه بها. لكنه لم يحظ بها حتى فى تلك اللحظة؛
لأن النعاس أخذ يضمنى بين ذراعيه حتى غلبنى. غير أننى استسمحت
الشبح فى بادئ الأمر قائلاً: «انتظر قليلاً. سأفرغ لك فى الحال!». لم
أعد إليه، على الإطلاق؛ لأننى لم أحضر حتى ولا لتشيع جنازته. كان
لدينا الكثير للقيام به فى المنزل وعندى ما هو خارج المنزل أيضاً، فلم
يكن هناك وقت له. تحدثنا عنه فى بعض الأحيان، للضحك فقط ونحن
نتذكر الخمر التى تجرعتها، وكانت تقتله لمرات عديدة ثم تبعته من جديد.

الأدهى أن ذكره فى العائلة ظل يجرى مجرى الأمثال، فعندما كانت الجرائد تعلن خبر موت فلان أو تنفيه، كما يحدث فى أحيان كثيرة، كنا نقول: «مثل المسكين كوبلر».

فى صباح اليوم التالى استيقظت ورأسى يؤلنى قليلاً. كان يزعجنى بعض الشئ ألم بجانبى، ربما لأننى لم أشعر به مطلقاً، فى أثناء تأثير الخمر، وسرعان ما فقدت اعتيادى عليه. بيد أننى فى واقع الأمر لم أكن مكتئباً. وقد ساهمت أوجوستا فى إراحة نفسى عندما قالت لى إنه لو لم أذهب إلى عشاء حفل الزفاف، لكان أمراً مؤسفاً، فقبل وصولى إلى هناك بدا لها أنها تحضر مأتماً. إذن لم يكن هناك ما يوجب ندمى على سلوكى. ثم أحسست بشئ واحد لم يغتفر لى: نظرتى الجائرة على آدا!

عندما تقابلنا بعد الظهر، مدت لى آدا يدها بارتباك زاد من قلقى. إلا أنه ربما كان يثقل ضميرها فرارها تلك الليلة الذى لم يكن لائقاً على الإطلاق. لكن نظرتى كانت كذلك سلوكاً فى غاية القبح. كنت أتذكر جيداً حركة عينى، وأشعر كما لو أنها لم تستطع أن تنسى من تسببت فى جرحه. كان ينبغى إصلاح الموقف بأسلوب يرقى لمستوى الأخوة.

يقال إنه عندما يعانى الفرد لإفراطه فى الشراب، لا يوجد علاج أفضل من أن يتناول شراباً آخر. فى صباح اليوم ذاته، ذهبت إلى كارلا لاستعيد حيويتى. ذهبت إليها وكلّى رغبة فى لحظات من حياة أكثر عمقاً، وذلك يؤدى إلى تناول الخمر مرة أخرى، ولكنى وأنا فى طريقى إليها،

تمنيت أن تمدنى بما يختلف تماماً عن اليوم السابق من حيوية أخرى. كانت تصاحب خطواتى نيات غير حاسمة لكنها صادقة جميعها. كنت أعلم أنى لن أقوى على هجرها تَوّاً، لكنه كان بإمكانى أن أشرع فى تلك العملية الأخلاقية الكبيرة تدريجياً. وعلى ذلك نويت أن أستمّر فى الحديث معها عن زوجتى. وبدون مفاجآت ستدرك ذات يوم كيف أحب زوجتى. وكان بسترى ظرف آخر به بعض المال؛ حتى أكون مستعداً لأى ظروف.

وصلت عند كارلا، وبعد ربع الساعة وجهت لى لوماً بكلمة ظلت لصحتها ترن طويلاً فى أذنى: «كم هو خشن سلوكك، فى الحب!». لا أعى أنى كنت خشناً فى تلك اللحظة بالذات. كنت قد بدأت فى الحديث معها عن زوجتى، وكلمات الثناء التى كنت أنسبها لأوجوستا أخذت ترن فى أذن كارلا، كما لو كانت لوماً كثيراً أوجهه إليها.

ثم ما هى ذى كارلا ترد لى الإهانة. حكيت لها، لكى أمضى وقتى، كم ضقت بتلك المأدبة، خاصة فى أثناء كلمة النخب التى قلتها وجاءت فى غاية الحماسة. كانت ملاحظتها هى:

– إذا كنت تحب زوجتك لن تخطئ النخب بمائدة والدها.

وأعطتنى أيضاً قبلة تعوضنى بها عن حبى القليل الذى كنت أكنه لزوجتى.

غير أن رغبتى فى البحث عن الأعماق فى حياتى، التى جذبتنى إلى الذهاب لكارلا، كادت هى ذاتها أن تدفعنى مباشرة إلى أوجوستا،

الوحيدة التى كنت أستطيع التحدث معها عن حبى لها، إن الخمر التى شربتها كعلاج كانت أكثر مما ينبغى أو لعلنى كنت فى تلك اللحظة أرغب فى شرب خمر أخرى، لكن فى ذلك اليوم كان لابد وأن ترتقى علاقتى بكارلا، وتتوج فى النهاية بذلك الود الذى - كما علمت فيما بعد - كانت تستحقه تلك الشابة المسكينة. لقد عرضت على لمرات عديدة أن تغنى لى أغنية، وهى تتوق إلى معرفة رأيى. لكننى كنت لا أبالى بالغناء ذاك الذى لم تعد سذاجته تثير انتباهى. قلت لها إنه مادامت رفضت دراسته، فليس هناك ما يستحق العناء أن تغنى.

كانت إهانتي كبيرة حقاً وتأملت هى منها. وإذا كانت تجلس جوارى، وحتى لا تظهر لى دموعها التى تذرفها أخذت تنظر بلا حراك إلى يديها المضمومتين فى حجرها. وكررت لى لومها:

- كم تريد أن تكون قاسياً مع من لا تحب، إن كنت كذلك معى بدرجة كبيرة!

فيما أننى رجل شقى حقاً، فلقد أثارت شفقتى قطرات الدمع تلك، ورجوت كارلا أن تمزق أذنى بصوتها القوى فى تلك الغرفة الصغيرة. عندئذ أخذت تتهرب حتى كان على أن أهددها بالانصراف إن لم تستجب لرغبتى. ينبغى أن أقر بأننى اعتقدت للحظة أننى عثرت على ذريعة لاستعادة حريتى ولو على نحو مؤقت، لكن، أمام تهديدى، توجهت جاريلى المطيعة وهى خافضة العينين إلى الجلوس أمام البيانو. ثم جلست لحظة قصيرة

تستجمع أنفاسها ومسحت بيدها على وجهها كأنها تزيح عنه كل أسي.
نجحت في ذلك بسرعة أذهلتني وعاد وجهها، عندما كشفت عنه تلك اليد،
وهو لا يذكر على الإطلاق شيئاً عن ألمها السابق.

تلقيت على الفور مفاجأة كبيرة. كانت كارلا تنشد أغنيته،
وتحكيها، وما كانت تصرخ بها. إن الصياح - كما قالت لي لاحقاً -
كان يفرضه عليها معلّمها؛ وقد حان الوقت لتصرفه معه. أخذت تغني
أغنية تقول بلهجة تريستي:

أتبادل الحب وهي الحقيقة

ما العيب في ذلك

أتريدونني في السادسة عشرة

وأظل هنا كالحمقاء...

إنها أغنية أشبه بقصة أو اعتراف. كان المكر يلمع في عيني كارلا
التي كانت مع ذلك تعبر بصورة أفضل من الكلام. لم يعد هناك خوف
من أن تؤذي طبله أذني ودنوت منها، مندهشاً ومبهوراً. جلست إلى
جوارها وحينئذ قصت الأغنية لي أنا شخصياً، وهي تسدل جفنيها لكي
تخبرني بأنعم النبرات وأنقاها أن تلك السنوات الستة عشرة ترغب في
الحرية والحب.

للمرة الأولى نظرت في تدقيق إلى وجه كارلا اللطيف: نقى في
شكله البيضاي تميزه عيناها العميقتان ووجنتاها الناعمتان، ويزيد من

صفائه نقاء بياضه، إذ كانت تتجه حينئذ بوجهها نحوى ونحو الضوء، دون أى ظل يشوبه. تلك الصورة بخطوطها المرفقة فى ذلك الجسد الشفاف أو يكاد، الذى يكسو الدم والشرابين غير القادرة على الظهور ربما لضعفها الشديد، كانت صورة تبحث عن الحب والحماية.

فى تلك اللحظة شعرت بالاستعداد لمنحها الكثير من العواطف والحماية، بلا قيد ولا شرط، وفى تلك اللحظة أيضاً كان بإمكانى أن أعود إلى أوجوستا؛ لأنها لم تطلب منى حينئذ سوى الحب الأبوى، الذى كان يمكننى من أن أمنحها إياه دون أية خيانة. يا له من شعور بالرضا! بإمكانى أن أمكث هناك مع كارلا، أعطيها كل ما كان يطلبه ذلك الوجه البضاوى ولا أبعد عن أوجوستا! زاد حبى لكارلا. فمنذ ذلك الحين، عندما كنت أشعر بالحاجة إلى الصدق والنقاء، لم يكن هناك داعٍ لهجرها، بل تمكنت من البقاء هناك لأتجاذب أطراف الحديث معها.

إلام كانت ترجع تلك العذوبة الجديدة؟ هل إلى الوجه الصغير البضاوى الذى اكتشفت ملامحه فى تلك اللحظة أم إلى موهبتها الموسيقية؟ الموهبة التى لا يجب إنكارها! تنتهى الأغنية الغريبة التريستية بمقطع تصرح فيه الشابة ذاتها بأنها عجوز بائسة، وأنها لم تعد تحتاج سوى حريتها فى أن تموت. أخذت كارلا تمزج فى البيت التعس ما بين المكر والسعادة. إنه على أية حال الشباب الذى يتظاهر بالشيخوخة لكى يطالب بحقه بأسلوب أفضل، بحسب وجهة النظر تلك الجديدة.

عندما انتهت من الغناء ووجدتني شديد الإعجاب به، شعرت هي أيضاً للمرة الأولى بالود تجاهي فضلاً عن غرامها بي. كانت تدرك أن تلك الأغنية ستعجبني أكثر من الأغاني التي كان يعلمها لها أستاذها:

– إنه لأمر مؤسف – أضافت في حزن – أن من لا يريد الذهاب إلى مقاهي المغنى، لا يستطيع أن يحصل على ما يلزمه من أجل العيش.

وفى يُسر أقنعتها بأن الأمور لا تسير على هذا النحو. ففي هذا العالم هناك العديد من الفنانات الكبيرات يؤدين ولا يغنين.

طلبت مني ذكر أسماء بعضهن. غمرتها الفرحة، عندما علمت كم يمكن أن يكون لفنها من شأن عظيم.

– إنني على علم – أضافت بنبرة ساذجة – بأن هذا الغناء غاية في الصعوبة بالنسبة للأسلوب الآخر الذي يكفيه الصراخ الشديد.

ابتسمت ولم أجادلها. كان أسلوبها صعباً كذلك بلا شك، وكانت تعلم ذلك لأنه كان الأسلوب الوحيد الذي تعرفه. كلفتها تلك الأغنية دراسة طويلة جداً. كانت تنشدها وتعيد إنشادها وتصحح أداء كل لفظ، وكل نغمة. في تلك الفترة كانت تتدرب على أداء آخر، لكنها لم تتمكن منه إلا بعد بضعة أسابيع. كانت لا ترغب في إسماعه لأحد قبل ذلك.

في أعقاب ذلك جاءت لحظات ممتعة قضيناها في تلك الحجرة التي لم تحدث بها حتى ذلك الحين سوى مشاهد وضيعة. ها هي ذى المهنة التي تفتح أيضاً أبوابها أمام كارلا. المهنة التي كانت ستحررنى منها.

وتشبه كثيراً ما كان يحلم لها به كوبرا! اقترحت عليها أن أجد لها أستاذًا. ارتاعت في بادئ الأمر عند سماع تلك الكلمة، لكنها بعد ذلك اقتنعت بسهولة، عندما قلت لها إنها تستطيع أن تخوض التجربة، وإنها ستكون لها الحرية في طرده إذا ما بدا لها مثيراً للسم أو عديم الفائدة.

في ذلك اليوم كنت أيضاً على أحسن ما يكون مع أوجوستا. كنت مرتاح الفؤاد كأنما عدت من نزهة، وليس من منزل كارلا أو مثلاً كان لا بد أن يشعر به كوبرا المسكين، عندما كان يغادر في تلك الأيام ذاك البيت ولم تسبب له المرأتان أى غضب، استمتعت بذلك الشعور كأنما وصلت إلى واحة. ولو كانت علاقتي الطويلة بكارلا قد استمرت في حالة من القلق لكان لذلك خطورته البالغة على وعلى صحتي. فمئذ ذلك اليوم، ونتيجة لجمال الشكل ذاك، سارت الأمور على نحو أهدأ مع التوقفات اللازمة لتجديد حبي سواء لكارلا، أو لأوجوستا، في حين كانت كل زيارة لى لكارلا تعنى خيانة لأوجوستا، لكن سرعان ما كان يتم نسيان كل شيء في بحر من الصحة والنيات الحسنة. ثم إن هذه النيات الحسنة لم تكن عنيفة وقاسية، مثلاً كانت عندما توقفت في حلقى رغبتى في أن أخبر كارلا بأننى لن أعود لرؤيتها على وجه الإطلاق. كنت وديعاً وأبويّاً لها: ها أنا ذا أهتم من جديد بعملها. إن هجر امرأة كل يوم والسعي وراءها اليوم التالي، كان جهداً لم تكن لقلبي المسكين القدرة على احتماله. وهكذا ظلت كارلا، على العكس، في دائرة سلطاني، أوجهها تارة في طريق وتارة أخرى في طريق آخر.

توالت لأيام عديدة لم تكن لنيّاتي الحسنة القوة التي تدفعني إلى الإسراع إلى المدينة بحثاً عن المعلم المناسب لكارلا. ظللت مستسلماً لذلك القرار الحكيم، وأنا قابع في بيتي. ثم ذات يوم أفضت إلى أوجوستا أنها تستشعر أنها ستصبح أمّاً، وعندئذ كبر قراري لفترة وحظت كارلا بأستاذها.

لقد ترددت كثيراً؛ لأنه كان أيضاً واضحاً أن كارلا قد تمكنت من السير قدماً في عملها بصورة جادة حقاً، حتى دون معلم، على اتخاذ أسلوب جديد لها. كانت قادرة على أن تسمعي كل أسبوع أغنية جديدة ومدرسة دراسة دقيقة في الحركة وفي اللفظ. كانت هناك نغمات ما زالت في حاجة إلى الصقل بعض الشيء، لكن ربما كان سينتهي بها الأمر إلى التحسن من تلقاء نفسها. كان لدى دليل قاطع على أن كارلا فنانة حقيقية، وهو كيفية تحسينها المستمر لأغنياتها، دون أن تتنازل مطلقاً عن الأساليب الجيدة التي استطاعت أن تكتسبها منذ البداية. وكثيراً ما كنت أحثها على أن تعيد لي غناء أول عمل لها، وفي كل مرة أجد أنها أضافت له بعض النبرات الجديدة والمؤثرة. ونظراً لجهلها كان من الرائع أنه لم يحدث قط أن أقحمت في الأغنية نغمات زائفة أو مبالغاً فيها في أثناء جهدها الكبير في الوصول إلى تعبير قوي. وكفنانة حقيقية، كانت تضيف كل يوم حجراً صغيراً إلى المبنى الصغير، ويظل الباقي دون مساس. لم تكن الأغنية نتاج قالب معين، وإنما الوجدان هو الذي كان يملئها. وقبل أن تبدأ الغناء، كانت كارلا تمسح دائماً وجهها

بيدها، ووراء تلك اليد كانت تتهياً لحظة تركيز كافية لدفعها إلى المسرحية الصغيرة التي كان عليها أن تقوم ببنائها. إلا أنها لم تكن دائماً بالمسرحية غير الناضجة. إن المعلم الساخر:

أنت مولودة فى كوخ يا روزينا

كان يتوعد، ولكن دون إفراط فى الجدية. وكان بالمغنية فيما يبدو ما ينم على أنها تعلم قصة كل يوم. كانت كارلا تفكر على نحو مختلف، ولكن كان ينتهى بها الأمر إلى التوصل إلى النتيجة نفسها:

- أما تعاطفى فهو مع روزينا، وإلا لما استحققت أن أقوم بغناء الأغنية، هكذا كانت تقول.

فى بعض الأحيان كان يحدث أن كارلا، ودون أن تدري، تستثير حبنى لأوجوستا وندمى أيضاً. كان يحدث ذلك فى الواقع فى كل مرة كانت تسمح فيها لنفسها بالقيام بحركة مهينة تجاه المكانة الراسخة التى كانت تحتلها زوجتى. لم تخمد قط لديها تلك الرغبة فى أن تستحوذ على كلياً لليلة كاملة؛ وأفضت إلى أنها ترى أننا لسنا بحميمين بما يكفى؛ لأننا لم نستسلم قط للنوم، الواحد منا بجانب الآخر. ولرغبتى فى التعود على معاملتها على نحو أكثر لطفاً، لم أرفض إرضاءها بصفة نهائية، لكن غالباً ما كنت أفكر فى أنه لم يكن بالإمكان القيام بشيء كهذا اللهم إلا إذا استسلمت لفكرة أن أرى أوجوستا فى الصباح تطل من النافذة التى انتظرتنى بها طوال الليل. ثم إنه، أما يُعدّ ذلك خيانة

جديدة لزوجتي؟ بمعنى أنه عندما كنت أسرع أحياناً إلى كارلا وقد غمرتني الرغبة، كنت أشعر بالميل إلى إسعادها، لكن سرعان ما كنت أجد ذلك مستحيلاً وغير لائق. وعلى هذا النحو، ولوقت طويل، لم نتمكن من استبعاد تلك الغاية ولا تحقيقها. يبدو أنه كان هناك اتفاق فيما بيننا: عاجلاً أو آجلاً سنقضى معاً ليلة كاملة، ثم أتى وقت إمكانية ذلك الاقتراح في ذاك الوقت لأنني دفعت آل جيركو إلى إخلاء المستأجرين الذين كانوا يقتسمون المنزل معهم، وظفرت كارلا في نهاية الأمر بغرفة نوم خاصة بها.

حدث وقتذاك فور حفل زواج جويدو بقليل، أن الأزمة هاجمت چوڤانى وكادت تقضى عليه، ولم أتوخ الحذر وأخبرت كارلا أن زوجتي ستقضى الليلة ساهرة على والدها لتمنح حماتي قسطاً من الراحة. لم يعد هناك سبيل للامتناع: طالبتنى كارلا بأن أمضى معها الليلة ذاتها التى كانت مؤلة جداً بالنسبة لزوجتي، لم أملك الشجاعة أن أقاوم تلك النزوة، وتهيات لها وصدري ضائق.

تأهبت لتلك التضحية. لم أذهب إلى كارلا فى الصباح، ولكنى أسرعت إليها مساءً ورغبتى شديدة وأنا أحدث نفسي أيضاً بأنه صبيانى الظن أننى أخون أوجوستا بصورة أكثر خطورة؛ لأننى أقوم بخيانتها فى الوقت الذى تعانى هى فيه لأسباب أخرى. ولهذا وصل بى الأمر إلى نفاذ صبرى حين أخذت أوجوستا المسكينة تستوقفنى لتشرح لى كيف أتصرف لإعداد الأشياء اللازمة التى أحتاج إليها فى العشاء، وفى الليل بل وحتى القهوة فى صباح اليوم التالى.

احتفت بى كارلا فى حجرة المكتب. وبعد قليل قدمت لنا والدتها وخادمتها فى الوقت ذاته عشاءً شهياً، وأضفت أنا له الحلوى التى أحضرتها معى. ثم عادت العجوز لترفع الأطباق عن المائدة، وفى الحقيقة كنت أود أن أذهب على التو إلى فراشى، لكن الوقت كان لا يزال مبكراً، ودفعتنى كارلا للاستماع إلى غنائها. استعرضت كل محصلتها منه، وكان ذلك بلا شك هو أفضل ما قضيته من وقت فى تلك الساعات؛ لأن اللفة التى كنت أنتظر بها محبوبتى، زادت من العذوبة التى كان يمنحنى إياها غناء كارلا.

- سوف يغمرك الجمهور بالأزهار والتصفيق - قلت لها فى لحظة نسيت فيها أنه أمر مستحيل أن يكون جمهور بكامله فى الحالة النفسية ذاتها التى كنت أشعر بها.

فى نهاية الأمر ذهبنا لننام فى الفراش واحد فى حجرة صغيرة خالية تماماً مما يجمّلها. كانت تبدو وكأنها رواق يسده حائط. لم يغلبنى النعاس وأنا أعانى من التفكير فى أنه لو جاءنى النوم فلن أتمكن منه فى ذلك الهواء القليل من حولى.

نادت الأم كارلا بصوت خجول. فذهبت إلى الباب لكى تجيبها، وتركتها موارباً. سمعتها بصوت حاد تسأل العجوز عما تريد. قالت الأخرى فى استحياء كلمات لم أدرك مغزاها، وعندئذ صاحت كارلا قبل أن توصل الباب فى وجه أمها:

- دعينى وشائى. قلت لك من قبل إننى سأنام هذه الليلة فى هذه الناحية!

هكذا عرفت أن كارلا إذ كان الخوف يزعجها ليلاً، كانت تنام دائماً مع أمها في حجرة نومها القديمة وكان بها فراش آخر، ولما كنا لا نرقد عليه معاً كان يظل خالياً. كان لفرعها بلا شك الدور في حتى على القيام بذلك الفعل السخيف مع أوجوستا. أقرت بفرحة مأكرة لم أشاركها فيها، أنها تشعر بأمان معي أكثر منه مع أمها. جذبت تفكيرى نحو ذلك الفراش الواقع على مقربة من حجرة المكتب المنعزلة. لم أكن قد رأيته قط من قبل. أحسست بالغيرة! بعد قليل انتابنى أيضاً شعور بالازدراء من سلوك كارلا مع تلك الأم المسكينة. كانت تختلف عن أوجوستا التي تنازلت عن رفقتى لتسهر على راحة والديها. فأنا شديد الحساسية أمام التقصير في احترام الوالدين بوجه خاص، أنا، الذي تحمل فى خضوع تام نزوات أبى المسكين الحانقة.

لم تستطع كارلا أن تلاحظ غيرتى ولا استيائى. أخدمت فى نفسى مظاهر الغيرة وأنا أتذكر أنه ليس من حقى الشعور بالغيرة، حيث تمر على الأيام الكثيرة التى أمل فيها أن يأتى أحد ليصرف عنى عشيقتى. لم يعد هناك أيضاً أدنى غاية فى إظهار ازدرائى للفتاة البائسة التى كانت منذ زمن تراودنى الرغبة فى هجرها نهائياً، ومهما كان شعورى بالازدراء كبيراً للأسباب ذاتها التى كانت ستثير غيرتى قبل قليل. كان لابد أن أبتعد بأسرع وقت ممكن عن تلك الحجرة الصغيرة التى لا تتسع لأكثر من متر مكعب واحد من الهواء، فضلاً عن شدة الحرارة بها.

لم أعد أتذكر جيداً حتى العذر الذى تعللت به لكى أبتعد فى الحال. أخذت أرتدى ملابسى وأنا ألهث. تحدثت عن مفتاح نسيت أن أسلمه

لزوجتي التي لن تستطيع أن تدخل المنزل، إن احتاجت إليه. أريتها المفتاح الذي لم يكن سوى ما أضعه دائماً في جيبى، لكننى قدمته كدليل قاطع على حقيقة ما أزعم به. كذلك كارلا لم تحاول أن تمسك بى؛ ارتدت ملابسها، وصاحبتنى إلى أسفل السلم كى تنيره لى.

وفى ضوء السلم المعتم، بدا لى أنها تتفرس فى بنظرة فاحصة أزعجتنى: هل بدأت تفهمنى؟ لم يكن الأمر غاية فى اليسر، حيث كنت أتقن التخفى بطريقة جيدة جداً. ولكى أشكرها لأنها تركتني أنصرف، أخذت بين الحين والآخر ألصق شفتى بوجنتيها وأتظاهر بأنه ما زال يسيطر على الحماس ذاته الذى دفعنى إليها. لم يساورنى بعد ذلك أدنى شك فى نجاح تظاهرى بتلك الأحاسيس. قبل قليل، وبواعز من الحب، قالت لى كارلا إن اسم تزينو السيئ، الذى ألصقه والدى بى، لم يكن بلا شك الاسم الجدير بشخصى. كانت تود لو كان اسمى داريو، وفى الظلام الدامس، ودعتنى وانصرفت وهى تنادىنى بذلك الاسم. ثم انتبهت إلى أن الجو ينذر بالمطر، وعرضت على أن تحضر لى مظلة. لكننى لم أكن لأطيقها أكثر من ذلك على الإطلاق، وأسهرت بالانصراف وكنت مازلت أمسك بيدى المفتاح ذاك الذى بدأت أؤمن أنا أيضاً بمصداقيته.

كان يتخلل ظلمة الليل الدامس وميض خاطف بين الحين والحين. وكان هزيم الرعد يبدو بعيداً. والجو لا يزال ساكناً وخانقاً، مثلما كان فى حجرة كارلا الصغيرة. كذلك كانت قطرات المطر الكبيرة القليلة تتساقط دافئة. كان النذير واضحاً فى السماء، فأخذت أسرع الخطى.

حالفنى الحظ أن وجدت فى كورسيا ستاديون بوابة منزل لا تزال مفتوحة ومضائة احتميت بها فى الوقت المناسب تماماً، وعلى الفور مباشرة انقض الغيم بمائه على الطريق، قاطعت هدير الماء هبة ريح هوجاء، يبدو أنها جلبت فجأة معها الرعد أيضاً قريباً جداً، ارتجفت! ولو كنت قد صغقت وقتئذ فى كورسيا ستاديون، لانفضح أمرى! من حسن الحظ أن زوجتى تعرف أيضاً عنى أنى رجل غريب الأطوار يمكنه أن يسرع إلى هناك ليلاً، وعندئذ هناك دائماً مبرر لكل شىء، اضطررت أن أظل محتمياً بتلك البوابة لمدة تزيد على الساعة. كان يبدو أن الجو يميل إلى الاعتدال، لكنه سرعان ما كان يستعيد ثورته بأشكال أخرى، وبدأ البرد أيضاً يتساقط.

أتى حارس المنزل ليرافقنى، ووجب على أن أعطيه بعض النقود ليرجى غلق الباب. ثم دخل من البوابة رجل يرتدى ملابس بيضاء يتصبب منه ماء المطر. كان مسناً نحيفاً وجافاً، لم أره ثانية، لكنى لا أستطيع نسيانه من بريق عينيه السوداء والطاقة التى كانت تنبعث من كل جسمه الضئيل. كان يسب لأنه كان مبللاً على تلك الصورة.

أحببت دائماً أن أتحادث مع أناس لا أعرفهم. أشعر معهم بأنى معافى وآمن. إنها حقاً راحة لى. على أن أحترس حتى لا أعرج، وأصبح فى أمان.

وأخيراً عندما اعتدل الجو، لم أتوجه على الفور إلى بيتى، بل عند والد زوجتى. رأيت أنه من الواجب فى تلك اللحظة أن أثبت حضورى وأزهو بوجودى هناك.

كان جوفاني قد خلد إلى النوم، وتمكنت أوجوستا من المجيء إلى،
وقد أتت راهبة لتعاونها. قالت إنني أحسنت صنعاً بحضورى وارتمت بين
ذراعى وهى تذرف الدمع. لقد رأت والدها وهو يتألم ببشاعة.

لاحظت أننى مبلل بكاملى. أجلستنى على أريكة وغطتنى بالأغطية.
وأرادت البقاء بجوارى لبعض الوقت. كنت أشعر بإرهاق شديد، وأخذت
أهضار النوم، حتى فى الوقت الوجيز الذى استطاعت فيه الجلوس معى.
شعرت بأننى برىء بشدة، فأنا لم أكن قد خنتها لليلة كاملة فى الوقت
الذى كنت فيه بعيداً عن منزل الزوجية. كان الشعور بالبراءة شعوراً
جميلاً، حتى أننى حاولت أن أزيد منه. أخذت أتحدث بكلمات أشبه
بالاعتراف. قلت لها إننى أشعر بالضعف والذنب وما إن نظرت إلى حينئذ
نظرة تطلب فيها تفسيراً لما قلته، أخرجت كالفرخ رأسى من تحت الغطاء،
وإذ ألقيت بنفسى فى خضم الفلسفة، قلت لها إن الإحساس بالذنب لا
يفارقنى فى كل لحظة تفكير، وفى كل نفس أتنفسه.

– على هذا النحو يفكر المتدينون أيضاً، – هكذا قالت أوجوستا؛ –

من يدرى ربما نعاقب بهذه الصورة على ذنوب لا ندرى بها!

أخذت تنطق بكلمات تتناسب مع دموعها المنهمرة. رأيته لم تعى
جيداً الفارق بين ما كان يدور بخلقى ويتأمل العابدين، لكننى لم أرغب
فى مجادلته وعلى أنين الريح الرتيب التى بدأت تشتد، والشعور بالراحة
الذى منحنى إياه أيضاً إقبالى على الاعتراف، استفرقت فى نعاس
عميق مجدد للقوى.

عندما حان وقت معلم الغناء، تم تنظيم كل شيء في ساعات قليلة. كنت قد اخترته منذ وقت بعيد، ولكي أصدق القول، استوقفتني اسمه، ثم إنه قبل كل شيء كان أجره أزهد أجر في مدينة تريستي. ولكي لا أتعرض للشبهات، ذهبت كارلا بنفسها لتتحدث معه في الأمر. لم أره مطلقاً، لكن ينبغي القول إنني أعلم حالياً الكثير عنه، وهو من أكثر الأشخاص قدراً عندي في هذا العالم. من المؤكد أنه إنسان بسيط يتمتع بالصحة، وهذا أمر غريب بالنسبة لفنان يعيش لفنه، مثل فيتوريو لالي هذا؛ ومن ثم فهو رجل جدير بالحسد؛ لأنه عبقرى وسليم الصحة أيضاً.

وعلى ذلك سرعان ما سمعت صوت كارلا يلين ويصبح أكثر مرونة وثباتاً، وكنا نتخوف من أن المعلم يفرض عليها جهداً، مثلما فعل المعلم الذي اختاره كويلر من قبل. ربما أراد أن يتماشى مع رغبة كارلا، غير أنه في الحقيقة ظل ملتزماً بالأسلوب الذي كانت تؤثره. وبعد مرور شهر عديده فقط أدركت أنها ابتعدت عنه قليلاً، وهي ترقى بأسلوبها. لم تعد تغنى أغاني تريستي ولا نابولي، بل ارتقت إلى أغاني إيطالية قديمة وإلى موزارت وشوبرت. أتذكر بوجه خاص «تهويده» ينسبون لها إلى موزارت، وفي الأيام التي أشعر فيها بمرارة الحياة وأتحسر على الصبية الفضة التي كانت لي ولم أحبها، يتردد صدى هذه «التهويده» في أذني أشبه باللوم. تتراعى لي عندئذ كارلا على هيئة أم تخرج من صدرها أعذب الأصوات تستميل بها النوم لطفلها. ومع ذلك، وحتى وإن كانت لي محبوبة لا تنسى، فإنها لا تصلح لأن تكون أمّاً صالحة؛ لأنها كانت ابنة عاقه.

لكن من الواضح أن إتقان اتخاذ ثوب الأم في الغناء إنما هو خاصية تحجب كل ما عداها من خواص.

علمت من كارلا قصة معلمها، كان قد درس المعهد الموسيقى بقيينا لبضع سنين، ثم جاء إلى تريستي، حيث حالفه الحظ ليعمل لدى أكبر مؤلف موسيقى لدينا، وقد كف بصره. كان يكتب مؤلفاته التي يملئها عليه، وكان يحظى أيضاً بثقته فيه، فالمكفوفون لا بد أن يمنحوها كاملة. على هذا النحو تعرف منه على غاياته، الآراء الناضجة منها والأحلام دائمة الشباب فيها. سرعان ما تشبعت روحه بموسيقاه، حتى ذلك الأسلوب الذي كان يلزم كارلا، كما أنها وصفت لي أيضاً مظهره؛ شاب، أشقر اللون، قوى البنية إلى حد ما، لا يكثر بثيابه، يرتدى قميصاً متهدلاً لا يواظب على غسله باستمرار، رابطة عنقه كان من المفترض أن تكون سوداء اللون، وهي ضخمة غير معقودة، وقبعته رخوة حوافها في غير موضعها. كان قليل الكلام ومنكباً على ما كلف به نفسه من مسئولية - هذا ما قالت لي كارلا، ويجب أن أصدقها في ذلك؛ لأنه بعد مرور عدة شهور صار ثرثاراً معها، وسرعان ما أخبرتني هي بذلك.

وفي وقت وجيز أصابت التعقيدات أيامي، فضلاً عن الحب كنت أحمل في الصباح من عند كارلا شعوراً بغيرة مريرة، تقل مرارتها على مدار اليوم. كان يبدو لي مستحيلاً ألا يستغل ذلك الشاب اليافع تلك الفريسة الطيبة، السهلة. كانت الدهشة تعلى كارلا من أنه يمكن أن أفكر في شيء كهذا، ولكنني كنت مثلها أدهش. ألم تعد تتذكر كيف سارت الأمور بيني وبينها؟

ذات يوم وصلت عندها وقد أثارتني الغيرة، فأكدت لى على الفور
وهى مرتاعة أنها مستعدة لصرف المعلم. لا أظن أن فزعها كان يرجع
فقط إلى أنها كانت تخشى أن أحرمها من مساعداتي، فقد لمست فيها
فى تلك الفترة شيئاً من علامات الحب التى لا أستطيع أن أرتاب فيها،
والتي كانت تسعدنى أحياناً، عندما أكون فى حالة نفسية مختلفة، فى
حين كانت تزعجنى وتبدو لى تصرفات معادية لأوجوستا أرغمتُ على
المشاركة فيها، على الرغم مما كلفتنى إياه. أثار اقتراحها ارتباكى. كنت
لا أرغب فى قبول توضحية منها، سواء كنت فى لحظة حب أو فى لحظة
ندم. كان لابد أن يكون هناك اتصال بين حالتى النفسيتين وأنا لم أرغب
فى أن أنقص من ذلك القدر القليل المتاح لى من الحرية فى المرور من
حالة إلى أخرى؛ ولهذا لم يكن بإمكانى قبول اقتراح كهذا جعلنى، على
العكس، أكثر حرصاً عندما أثارتني الغيرة، وتمكنت من إخفائها. صار
حبى غضوباً بصورة أكبر، وانتهى بى الأمر إلى أن أرى فى كارلا
مخلوقاً دونياً، سواء عندما كنت أرغب فيها أو لا أرغب على الإطلاق.
لعلها كانت تخوننى، أو أن أمرها ما لم يكن يعينى فى شىء، عندما
كنت لا أكن لها بغضاً لا أتذكر أنها لا تزال هناك. فأنا أنتمى إلى مناخ
الصحة والأمانة الذى تجلس على عرشه أوجوستا التى كنت أعود إليها
بجسدى وروحي بمجرد أن تتركنى كارلا وشائى.

ولما كانت كارلا صريحة بشكل مطلق، فأنا أعرف بالضبط كم
الوقت الطويل الذى استحوذت فيه عليها، أما غيرتى المتكررة فى ذلك
الحين فما كانت إلا تعبيراً عن إحساس دفين بالعدالة. ومع ذلك،

كان لا بد أن يصيبني ما أستحقه. في بادئ الأمر وقع المعلم في غرامها. وكما رأيت فإن أول مؤشر لحبه كان يتمثل في تعبيرات منه أبلغتني بها كارلا، وهي تبدو عليها مظاهر الانتصار، حيث اعتبرت تلك الكلمات دليلاً على أول نجاح عظيم لها في الفن يستحق ثناءً من جانبى. لعله أخبرها كذلك بأنه قد أصبح مغرمًا بالقيام بواجبه كمعلم، حتى إنه سيستمر في إعطائها الدروس بلا مقابل، حتى إن لم تستطع أن تدفع له الأجر. كنت سأصفعها، لولا أن جاءت بعد ذلك لحظة تظاهرت فيها أنني أستطيع أن أستمتع بفوزها الحقيقي. ونسيت هي ما أصاب وجهي للوهلة الأولى من تشنج عضلى يشابه حالة من يقضم ليمونة بأسنانه، وتقبلت مصدقة المدح الذى جاءها متأخراً بصفاء نفس. إنه حكى لها عن شئونه الخاصة جميعها التى لم تكن كثيرة: كالموسيقى، والبؤس والعائلة. كانت أخته قد سببت له شقاءً كبيراً، واستطاع أن يبت فى كارلا بغضاً شديداً إزاء تلك المرأة التى لا تعرفها. فرأيت فى ذلك النفور ما يثير الشكوك. ثم أخذنا يغنيان معاً أغنيات كتبها هو وبت لى قليلة القيمة، تماماً مثلما كنت أحب كارلا، وبالقدر نفسه أشعر بأنها قيد من القيود. ربما كانت على النقيض من ذلك أغانى جيدة على الرغم من أنني لم أسمع بها قط. قاد بعد ذلك فرق موسيقية فى الولايات المتحدة، وربما كانوا يشدون هناك أيضاً بتلك الأغنيات.

أخبرتني ذات يوم أنه طلب منها الزواج لكنها رفضت. مرت على حينئذ نصف ساعة سيئة حقاً: فى الربيع الأول شعرت بثورة غضب شديدة تتملكنى حتى رغبت فى انتظار المعلم لكى ألقى به بعيداً بوابل

من الركلات، وفي الربع الثاني لم أعثر على الوسيلة التي أوفق بها بين إمكانية الاستمرار في علاقتي غير المشروعة، وبين ذلك الزواج وهو في حقيقة الأمر شيء جيد وأخلاقي وضمان تجعل وضعي أكثر بساطة علاوة على مهنة الغناء التي تحلم كارلا بالبدء فيها وهي في رفقتي.

لم التهبت مشاعر ذلك المعلم المبجل على هذا النحو وبهذه السرعة؟ في تلك الأثناء، وبعد مرور عام على علاقتنا، كان كل شيء قد بدأ بيني وبين كارلا، حتى العبوس الذي كان يصاحبني عندما كنت أتركها. كذلك مشاعر الندم التي كنت أشعر بها أصبحت حينئذ محتملة إلى حد كبير، وعلى الرغم من أن كارلا كان لا يزال لديها الحق في اتهامي بالفظاظة في حبي معها، كان يبدو أنها قد اعتادت عليها. لعلها تمكنت من ذلك أيضاً بسهولة؛ لأنني لم أعد قط فظاً بالصورة التي كنت عليها في الأيام الأولى لعلاقتنا وبعد أن تحملت تلك المغالاة في البداية، فما حدث بعد ذلك لا بد أنها رآته أكثر لطفاً مقارنة بما قبله.

وعلى هذا النحو أيضاً عندما أصبحت لا أبالي كثيراً بكارلا، كانت تلح على خاطري فكرة عدم ارتياحي لو ذهبت في اليوم التالي للبحث عن محبوبتي ولم أجد لها. لعله كان بالتأكيد شيئاً جميلاً أن أعود إلى أوجوستا دون ذلك التوقف المعتاد عند كارلا، وكنت أشعر حينئذ بقدرة كبيرة على فعل ذلك؛ ربما كان على القيام بالتجربة أولاً. لا بد أن قراري كان في تلك الفترة ما يقارب هذه الصيغة: «غداً سأرجوها أن تقبل طلب المعلم، لكنني سأمنعها اليوم من ذلك». وفي عناء شديد واصلت التعامل

معها كعاشق. الآن، وأنا أنظر للأمر، بعد أن قمت بتسجيل مراحل مغامرتي جميعها، ربما يبدو أنني أقوم بمحاولة تزويج عشيقتي برجل آخر وأن أحتفظ بها لنفسى، تلك هى سياسة رجل أكثر فطنةً منى وأكثر اتزاناً، وإن كان فاسداً مثلى. لكنها ليست الحقيقة: كان بمقدورها أن تتزوج المعلم، لكن كان عليها أن تقرر هذا الأمر فى اليوم التالى. ولهذا السبب وفى تلك اللحظة فقط توقف إحساسى بتلك الحالة التى كنت أصبر على وصفها بالبراءة. لم يعد ممكناً أن أغرم بكارلا لوقت وجيز من النهار، ثم أبغضها لأربع وعشرين ساعة متواصلة، وأستيقظ كل صباح وأنا جاهل مثل الوليد وأعود لأعيش يوماً يشابه كثيراً ما سبقه، حتى أفاجأ بما يحمله لى من مخاطر، كان على أن أعرفها عن ظهر قلب. ذلك لم يعد ممكناً. تراعى لى احتمال فقدان عشيقتي إلى الأبد، إن لم أستطع السيطرة على رغبتى فى التخلص منها؛ لهذا سارعت بإسكاتها!

وبناءً على هذا ففى ذلك اليوم، وبينما لم تعد كارلا تهمنى، قمت بافتعال مشهد غرام معها يشبه، فى عدم مصداقيته وعنفه، ذلك المشهد الذى اصطنعت مع أوجوستا، وقد أسكرنى النبيذ، تلك الليلة فى العربة. إلا أنه فى هذه المرة لم يكن هناك نبيذ، وأفضى بى الأمر إلى التأثير الحقيقى عند سماع رنين كلماتى. صارحتها بأننى أحبها، ولن أقوى على الحياة بدونها؛ ولذلك ظننت أنني طالبتها بأن تضحى بحياتها، فليس فى وسعى أن أقدم لها شيئاً يعادل ما عرضه عليها المعلم لالى.

كانت نعمة جديدة فى علاقتنا التى استغرقت مع ذلك ساعات طويلة من الحب العميق. أخذت كارلا تنصت إلى كلماتى فى نشوة. فيما بعد أخذت تقنعنى أنه لا داعى لأن أتألم كثيراً بسبب غرام لالى. إنها لا تفكر فيه مطلقاً!

شكرتها، وبالحماس ذاته الذى لم يفلح ساعتئذ فى تحريك مشاعرى. كنت أشعر بثقل على معدتى: من الواضح أنى تورطت أكثر من أى وقت مضى. ازداد حماسى الظاهرى بدلاً من أن يهدأ، ليس إلا ليسمح لى بالتفوه ببضع كلمات إعجاب لشخص لالى المسكين. لم أكن أريد بالطبع أن أفقده نهائياً، كنت أرغب فى الحفاظ عليه، ولكن فى اليوم التالى عندما اقتضى الأمر اتخاذ القرار فى أن نبقى أو نصرف المعلم، سرعان ما توصلنا إلى اتفاق. ثم أنى ما كنت لأرغب فى حرمانها من المهنة أيضاً فضلاً عن الزواج. وقد أقرت هى أيضاً أنها تتمسك بالمعلم: كان لديها الدليل فى كل درس على ضرورة معاونته. وأكدت لى أنى أستطيع أن أكون واثقاً ومطمئناً: إنها تحبنى ولا تحب أحداً سواى.

من الواضح أن خيانتى بعد ذلك ازدادت واتسعت. ارتبطت بعشيقتى بشعور جديد من العاطفة، أخذ يوثقنى بروابط جديدة، وأخذ يغزو مساحة كنت أخصصها حتى تلك اللحظة لحبى المشروع فقط. لكنى، عندما كنت أعود إلى منزلى، كانت تختفى تلك المشاعر وتنعكس مزدادة على أوجوستا. لم يكن لدى نحو كارلا سوى شعور عميق بعدم الثقة. من يدرى أية حقيقة كانت فى اقتراح ذاك الزواج! ما كنت لأندش إذا ما

جاءتني كارلا ذات يوم، ودون أن تتزوج ذلك الرجل، لتهبني ابناً موهوباً موهبة عظيمة في مجال الموسيقى. وعادت القرارات الحاسمة تصاحبني عند كارلا، لكي تتركني عندما أكون معها ولتراودني ثانية حينما لم أكن قد تركتها بعد. كلها أمور بلا تداعيات من أى نوع.

ولم تكن هناك عواقب أخرى سوى هذه الأخبار الجديدة. انقضى الصيف وحمل معه چوئاني. انشغلت بعد ذلك بأعمال كبيرة في شركة جويديو التجارية الجديدة، حيث عملت بها أكثر من أى مكان آخر، بما في ذلك الكليات الجامعية المختلفة التي التحقت بها. أما عن نشاطي هذا فسأتحدث عنه لاحقاً. ومضى الشتاء أيضاً، ثم ظهرت في حديقتي الأوراق الخضراء الأولى التي لم ترني قط في الإحباط الذي رأيتني به مثيلتها في العام السابق. ولدت ابنتي أنتونيا. داوم معلم كارلا التعاون معنا، لكن كارلا لم ترغب في الاهتمام به على الإطلاق وأنا أيضاً كنت مثلها.

على الرغم من ذلك وقعت عواقب وخيمة في علاقتي بكارلا بسبب أحداث ما كنت أتصور حقيقة أن لها جانباً من الأهمية. مرت دون أن يظن لها أحد تقريباً، وتكشفت فقط من الآثار التي خلفتها.

فعند حلول فصل الربيع بالتحديد، تقبلت فكرة القيام بنزهة مع كارلا في الحديقة العامة. كان الأمر يبدو لي مجازفة كبيرة، لكن كارلا كانت شديدة الرغبة في السير في دفء الشمس وهي تتعلق بذراعي، حتى إنني وافقتها في النهاية. لم يكن ينبغي أن يسمح قط بأن نعيش ولو للحظات وجيزة كزوج وزوجة، وحتى هذه المحاولة باءت بالفشل أيضاً.

جلسنا على أريكة، حتى نتمتع على نحو أفضل بذلك الدفء المفاجئ الجديد الذي تبعثه السماء، وبدت الشمس بها وقد استعادت منذ قليل سلطانها. في صباح أيام العمل، تكون الحديقة خالية وخيل إلى أنه، إن لم أتحرك، فليس هناك خطر كبير في أن يراني أحد. على العكس من ذلك، بنا منّا توليو، نو العضلات الأربع والخمسين، وهو يرتكز على عكازه بخطوات بطيئة، لكنها واسعة، وجلس إلى جوارنا بالضبط، دون أن يلتفت إلينا. ثم رفع رأسه، فتقابلت نظراتنا وألقى على التحية:

- مر وقت طويل! كيف حالك؟ أعساها قلت أخيراً مشاغلك؟

جلس إلى جوارى بالضبط، وما إن فوجئت به أخذت أتحرك حتى أمنعه من رؤية كارلا. لكنه، بعد أن صافحني بيده، سألني:

- زوجتك؟

كان ينتظر أن أعرفها به.

رضخت وقلت:

- الأنسة كارلا چيركو، إحدى صديقات زوجتي.

ثم استرسلت في الكذب وأنا أعرف من توليو نفسه أن الكذبة الثانية كانت كافية لأن تكشف له الأمر كله. وبابتسامة مفتعلة، قلت:

- الأنسة أيضاً جلست إلى جوارى على هذه الأريكة دون أن

تراني.

إن الكاذب لابد أن يعى ضرورة عدم قول سوى الأكاذيب الضرورية حتى يصدقه الآخرون. وبأسلوب أولاد البلد الطيبين، قال توليو لى عندما تقابلنا ثانية:

- شرحت أموراً كثيرة؛ ولذلك استنتجت أنك تكذب، وأن تلك الفتاة الحسنة كانت عشيقتك.

كنت حينئذ قد فقدت كارلا، وأكدت له فى مرح أنه أصاب فى تصويره، لكننى أخبرته فى أسى أنها منذ زمن هجرتنى. لم يصدقنى وشعرت له بالامتنان. ارتأيت حسن الطالع فى عدم تصديقه.

انتابت كارلا حالة سوء مزاج لم أشهدها من قبل. وأنا أعلم الآن أنها منذ ذلك الحين بدأت فى تمرد لها. لم أفطن إلى ذلك على الفور؛ لأننى أدت لها ظهري، لأستمع إلى توليو، الذى أخذ يقص على عن مرضه والعلاج الذى كان يتناوله. فيما بعد تعلمت أن المرأة لا تقبل أن ينكرها أحد على الملأ، حتى ولو كانت تتسامح أحياناً مع معاملة أقل لياقة باستثناء لحظات معينة. أبدت استياءها بوجه خاص من الأعرج المسكين بدلاً منى، ولم تجبه عندما وجه إليها الحديث. ولم أكن أنصت أنا أيضاً إلى توليو؛ لأنه لم يكن بإمكانى الاهتمام بعلاجه فى تلك اللحظة. كنت أصدق فى عينيه الصغيرتين لأتبين ما يظنه من ذلك اللقاء. كنت أعلم أنه كان متقاعداً فى ذلك الوقت، وأن لديه الوقت الكافى طوال اليوم، ويستطيع بسهولة أن يغزو بأحاديثه الثرثرة مدينتنا تريستى كلها فى ذلك الوقت بمجتمعها الصغير.

ثم بعد أن استغرقت كارلا فى التفكير، نهضت لتتركنا وهى تهمهم:

- إلى اللقاء - وانطلقت تبتعد.

كنت أعلم أنها غاضبة منى وإذ لم يَفُتْنى قَطَّ وجود توليو، حاولت أن أغتتم الوقت الملائم لأهدئ من روعها. طلبت منها أن تسمح لى بمصاحبتها، حيث كان على أن أتخذ اتجاه طريقها ذاته. كانت تحيتها الجافة تلك تعنى حقاً هجرها لى، وتلك كانت المرة الأولى التى خشيته فيها بصورة جادة. وضاعت نفسى من ذاك التهديد القاسى.

لكن كارلا لم تكن تعرف بعد إلى أين تتوجه بخطواتها الحاسمة. كانت تنفّس عن ثورة غضب سيطر عليها وقتئذ وسيذهب عنها عما قليل.

انتظرتنى ثم سارت بجانبى دون أن تتفوه بكلمة واحدة. عندما ذهبنا إلى المنزل، أخذتها نوبة بكاء لم تفرغنى؛ لأنها دفعتها إلى الاحتماء بين ذراعى. أخبرتها من هو توليو ومدى الضرر الذى كان يمكن أن يصيبنى من لسانه. عندما رأيتها تستمر فى البكاء، وهى لا تزال بين ذراعى، تجرأت على الحديث بنبرة أكثر حسماً: أكنت تريدين إذن أن تعرضينى للشبهات؟ ألم نقل دائماً إننا سنبدل ما فى وسعنا لكى نكفى تلك المرأة المسكينة آلاماً وهى على أية حال زوجتى وأم ابنتى؟

يبدو أن كارلا قد عادت إلى رُشدها، لكنها أرادت أن تمكث بمفردها لتهدأ. أسرعرت بالانصراف وأنا مسرور للغاية.

لابد أن تلك الواقعة كانت وراء ما تملكته من رغبة فى الظهور
معى أمام الناس وكأنها زوجتى. يبدو أنها، وقد رفضت الزواج من
المعلم، كانت ترغب فى أن ترغمنى على شغل جانب كبير من المكانة التى
أبت أن تمنحه إياها. أخذت تزعجنى لوقت طويل لكى أحجز مقعدين فى
المسرح، نصل إليهما من اتجاهين مختلفين لنجد أنفسنا نجلس الواحد
إلى جوار الأخرى مصادفةً. وصلت معها إلى الحديقة العامة فقط لعدة
مرات، تلك كانت حدود تجاوزاتى، التى أصبحت أصل إليها بعد ذلك من
الجانب الآخر. لم أذهب إلى أبعد من ذلك، على الإطلاق! وعلى هذا
النحو انتهى الأمر بأن تشبهنى عشيقتى بدرجة كبيرة. كانت تتشاجر
معى فى كل لحظة، فى نوبات غضب مفاجئة دون أية أسباب. وسرعان
ما كانت تعود إلى رشدها، بل كانت تلك النوبات كافية لتجعلنى طيباً ثم
فى غاية الطيبة والوداعة. كثيراً ما كنت أجدها تذرف الدموع بغزارة ولا
أتمكن قط من الحصول منها على تفسير لآلامها. ربما كان الذنب ذنبى؛
لأننى لا أصر بما يكفى لأحصل على ذلك التفسير. وعندما عرفتُها
بصورة أفضل، عندما هجرتنى، لم أعد أكن فى حاجة إلى تفسيرات
أخرى. إنها، تحت ضغط الحاجة، اندفعت فى تلك المغامرة التى لم تكن
تناسبها. لقد صارت بين ذراعى امرأة - وأحب أن أفترض ذلك -
امرأة أمينة. بالطبع على ألا يُنسب لى أى فضل فى ذلك، بل كان منى
الضرر كله.

انتابها نزوة جديدة أدهشتنى فى بادئ الأمر، ثم ما لبثت أن حركت
مشاعرى بالشفقة عليها: أرادت أن ترى زوجتى. أقسمت لى بالآ أقترُب

منها، وأن تتصرف بحيث لا تشعر بها. وعدتها بأن أخبرها، عندما أعلم بخروج زوجتى فى ساعة محددة. كان لابد أن ترى زوجتى بعيداً عن فيلتى، فهى تقع فى مكان خالٍ تسهل ملاحظة أى عابر فيه، بل فى أحد شوارع المدينة المزدهمة.

وفى تلك الأثناء أصيبت حماتى بمرض مفاجئ بعينيها، ألزمها بأن تعصبهما لعدة أيام. كان السأم يقتلها، وكانت بناتها تتبادلن السهر عليها ليدفعنها لتناول العلاج بانتظام: كانت زوجتى تأتى فى الصباح، وأدا فى الرابعة بالضبط بعد الظهر. فبقرار فورى منى قلت لكارلا إن زوجتى تترك منزل والدتها كل يوم فى الرابعة تماماً. ولا أدرى بالتحديد حتى الآن لم قدمت أدا لكارلا على أنها زوجتى. مما لا ريب فيه أنه، بعد طلب المعلم للزواج من فتاتى، صرت فى حاجة إلى أن أربطها بى برباط أوثق، وربما اعتقدت أنها كلما رأت الجمال فى زوجتى، قدّرت الرجل الذى يضحى (على سبيل القول) بامرأة كهذه من أجلها. لم تكن أوجوستا وقتذاك سوى مرضعة جيدة فى غاية الصحة. ربما كان للحيطة كذلك تأثيرها على قرارى. من المؤكد أنى كنت على حق فى أن أخشى نزوات امرأتى، ولو كانت قد انسأقت وراء أى سلوك طائش مع أدا، لما كان له أية أهمية، حيث أثبتت لى هذه الأخيرة أنها لن تحاول مطلقاً أن تشوه صورتي أمام زوجتى.

ولو كانت كارلا أخرجتنى أمام أدا، لحكيت لتلك الأخيرة القصة كلها. لكى أكون صادقاً، مع شىء من المتعة.

غير أن سياستى كانت لها فى حقيقة الأمر نتيجة غير متوقعة. بعد أن ساورنى بعض القلق، ذهبت فى صباح اليوم القالى إلى كارلا فى ساعة مبكرة على غير عادتى. وجدتھا فى حالة متغيرة تماماً عن اليوم السابق. كانت تكسو وجهها البيضاوى السامى ملامح بالغة الجدية. رغبت فى تقبيلها، لكنها دفعتنى، ثم سمحت بأن أمس وجنتيها بشفتى، لتدفعنى إلى الإنصات إليها فى هدوء. جلست أمامها فى الجانب المقابل بالمنضدة. فى مهل أخذت ورقة، كانت تكتب عليها حتى اللحظة التى وصلت فيها ووضعتها بين أوراق الموسيقى الموضوعة على المنضدة. لم أنتبه إلى تلك الورقة، ولم أعرف إلا مؤخراً أنها كانت رسالة تكتبها إلى لالى.

ومع ذلك أعرف الآن أنه حتى تلك اللحظة كانت هناك شكوك بداخل كارلا. كانت عيناها تنتظران إلى فى ثبات وتتفحصنى؛ ثم تلتفت تجاه ضوء النافذة لتنفرد بنفسها بصورة أفضل، وتمعن التفكير فيما يدور بداخلها. من يدرى! لو كنت استنتجت فى التو على نحو أفضل ما الذى كان يتشاحن فى خلدها، لتمكنت من الاحتفاظ بعشيقتى المحببة حتى الآن.

قصت على لقاءها مع آدا. كانت فى انتظارها أمام منزل حماتى، وعندما رأتها قادمة عرفتھا فى الحال.

– لم يكن هناك مجال للخطأ. إنك قمت بوصف أهم ملامحها لى.
أوه! أنت تعرفها جيداً!

سكتت اللحظة لكي تسيطر على انفعالها الذي كان يسد حلقها. ثم استأنفت قائلة:

- لا أدري ما الذي حدث بينكما، لكنني لا أرغب أبداً في خيانة تلك السيدة رائعة الجمال التي تشعر بحزن شديد! وسأكتب اليوم رسالة إلى معلم الغناء أقول له فيها إنني مستعدة للزواج منه!

- رأيتها حزينة! صحت في دهشة. لقد انخدعت، ربما كانت في تلك اللحظة تعاني من حذائها الضيق.

أدا حزينة! إذا كانت الضحكة والابتسامة لا تفارقان وجهها؛ وقد رأيت أيضاً فيها ذلك في بيتي في الصباح ذاته.

لكن كارلا كانت على علم أفضل مني:

- حذاء ضيق! كانت لها خطوات إلهة تسير على السحاب!

حكيت لي وهي تزداد انفعالاً أنها تمكنت من الحصول على كلمة منها - أوه! في غاية الرقة! كلمة من آدا، أوقعت هذه الأخيرة متديلاً، فالتقطته كارلا وقدمته لها. أثرت كلمة الشكر البسيطة على كارلا تأثيراً كبيراً، حتى إنها بكّت. ثم كان هناك المزيد من الأمور الأخرى التي وقعت بين المرأتين: أكدت كارلا أن آدا لاحظت أيضاً أنها تبكي، وأنها شاركتها وهي تبتعد بنظرة ألم وتضامن. كان كل شيء واضحاً أمام كارلا: كانت زوجتي تعلم أنني أخونها، وكانت تتألم من تلك الخيانة! فجاءت النتيجة أنها قررت ألا تلتقاني ثانية وأن تتزوج من لالي.

لم أستطع الدفاع عن نفسي! كان من السهل على أن أتحدث باستياء كبير عن آدا، ولكن ليس عن زوجتي، الموضع العفوية التي لم تكن تلحظ مطلقاً ما يدور بداخلي، وهي منكبة كعادتها على مهامها النبيلة. سألت كارلا إن كانت قد لاحظت قسوة عين آدا، وإذا ما فطنت إلى صوتها الخافض الجاف، الذي يخلو من أية عنوبة. ولكي أسرع في استعادة حب كارلا، كنت على استعداد لأن أنسب إلى زوجتي جرائم أخرى كثيرة، لكن ذلك كان مستحيلاً؛ لأنني، على ما يقرب من العام، لم أكف عن مدحها وأنا أحادث عشيقتي.

نجوت من ذلك بشكل آخر. تأثرت أنا نفسي تأثيراً شديداً، حتى تدفقت الدموع في عيني. وجدت ما يبرر تحريك مشاعري. أوقعت نفسي في مأزق، دون أن أدري، شعرت فيه بشدة التعاسة. كان ذلك الخلط بين آدا وأوجوستا أمراً لا يطاق. فالحقيقة أن زوجتي ليست رائعة الجمال، وآدا (التي كانت تُشفق كارلا عليها كثيراً) قد أخطأت في حقي خطأ كبيراً. لذا كانت كارلا حقاً ظالمة في حكمها عليّ.

هدأت كارلا عندما رأت دموعي وقالت:

– داريو الحبيب! كم تريحني دموعك! لا بد أن وقع سوء تفاهم بينكما، ويحسن أن نستوضحه الآن. لا أريد أن أكون قاسية في حكمي عليك، لكنني لن أخون أبداً طوال حياتي تلك المرأة، ولا أريد أن أكون سبباً لدموعها. أقسمت بذلك!

وعلى الرغم من ذلك القسم انتهى بها الأمر إلى خيانتها للمرة الأخيرة. كانت ترغب فى الانفصال عني بقبلة أخيرة، غير أنني تجاوبت مع تلك القبلة بأسلوب واحد، وإلا لانصرفت معتلًا من الفيض؛ ولهذا رضخت. كان كلانا يهمس:

– للمرة الأخيرة!

كانت لحظة ممتعة. كان للقرار الذى اتخذناه معاً تأثير فعال جبّ أى إحساس بالذنب. كنا بريئين وسعيدين! كان قدرى الكريم قد اخبر لى لحظة سعادة كاملة.

كنت أشعر بسعادة بالغة، حتى إننى واصلت المسرحية حتى لحظة افتراقنا. قررنا ألا نتقابل أبداً مرة أخرى. رفضت الطرف الذى كنت ما أزال أحمله فى جيبى ولم ترغب حتى فى الاحتفاظ بأية ذكرى لى.

كان يلزم أن نمحو فى حياتنا الجديدة أى أثر لهفوتنا القديمة؛ ومن ثم رضيت أن أقبلها قبلة أبوية على جبينها حسبما شاعت من قبل.

ثم مرت بى لحظة تردد، على درج السلم؛ لأن المسألة أصبحت جدية بالفعل، لكننى لو كنت أعلم أنها ستكون على العكس فى متناول يدى فى اليوم التالى، لما جاءنى التفكير فى المستقبل على هذا النحو من السرعة. من راحة السلم، كانت تنظر إلى وأنا أهبط الدرج، فصحت وأنا أضحك قليلاً:

– إلى الفد!

تراجعت فى دهشة كأنما ارتاعتُ وابتعدت قائلة:

- لن يكون أبداً!

على الرغم من ذلك شعرت بالراحة؛ لأننى تمكنت من أن أقول لها تلك الكلمة التى تمكنتى من أن أعانقها مرة أخيرة عندما تتملكنى الرغبة فى ذلك. خالٍ من الرغبة والالتزامات قضيت نهراً جميلاً مع زوجتى، ثم ذهبت إلى مكتب جويدو. يجب أن أصدق القول بأننى كنت أدنو من زوجتى وابتنتى؛ لأنه لم يكن لدى أية التزامات. تعاملت معهما بما يفوق المألوف: لم أكن معهما لطيفاً وحسب، وإنما كنت أباً حقاً يتصرف ويصدر الأوامر فى هدوء، ذهنه كله حاضراً فى شئون بيته. وأنا ذاهب إلى مخدعى قلت لنفسى وكأنه اقتراح:- ينبغى أن تُشابه أيامى هذا اليوم.

شعرت أوجوستا ، قبل أن تستسلم لنومها، بالحاجة إلى أن تأتمنى على سر خطير: أخبرتها به والدتها فى اليوم ذاته. قبل بضعة أيام فاجأت أدا جويدو عندما كان يعانق إحدى خادماتهم. عمدت أدا إلى إهانتها، لكنها لاقت بعد ذلك وقاحة من الخادمة فطردتها. أخذت حالة من القلق تنتاب الجميع لمعرفة كيف سيتقبل جويدو الأمر. لو كان قد احتج، لطلبت أدا الانفصال. لكن جويدو أخذ يضحك وكانت حُجته أن أدا لم ترَ جيداً؛ لذلك لم يكن لديه ما يعترض به على طرد تلك المرأة، التى كان يزعم أنه يشعر إزاءها بنفور شديد، حتى ولو كانت بريئة. وبدا أن الأجواء قد هدأت حينئذ.

كان يهمنى معرفة ما إذا كانت أدا أخطأت الحكم عندما فاجأت زوجها فى ذلك الوضع. هل كان لا يزال هناك احتمال للشك؟ لأنه علينا أن نتذكر أنه عندما يتعانق اثنان، فإنهما يكونان فى وضع يختلف عن ذلك الذى ينظف فيه أحدهما حذاء الآخر. كنت فى حالة مزاجية ممتازة. شعرت كذلك بحاجتى إلى أن أكون عادلاً وهادئاً فى حكمى على جويدو. شعرت أدا دون شك بالغيرة، وربما حدث أن رأت المسافات تقترب والأشخاص فى غير أماكنها.

قالت لى أوجوستا بصوت حزين إنها على يقين من أن أدا لم يغالطها النظر، وإنها من فرط عاطفتها أخطأت بعد ذلك فى حكمها. أضافت:

– كانت ستحسّن صنْعاً لو كانت تزوجتك!

وإذ ما زلت أشعر ببراءة شديدة، جاملتها بهذه العبارة:

– أتحدى أن يكون أفضل لى لو تزوجتها بدلاً منك!

ثم هممت، قبل أن يغلبنى النوم:

– وغد كبير! أيدنُس بيته بهذه الصورة!

كنت صادقاً بحق وأنا ألومه بالتحديد فى ذلك الجانب من جريوته الذى لم أكن بحاجة إلى توجيهه لذات نفسى. فى صباح اليوم التالى نهضت ورغبتى شديدة فى أن يكون مستهل ذلك النهار مشابهاً تماماً لما قبله. فمن المحتمل ألا تكون النيات الطريفة التى تعهدنا بها فى يومنا

السابق قد التزمت بها كارلا أكثر منى، فى حين كنت أشعر بتخلصى الكامل منها. كانت نيات يفوق جمالها إمكانية الالتزام بها. إن القلق بلا شك فى معرفة ما يدور فى خلد كارلا، كان يدفعنى للتعجل. لعل رغبتى كانت أن أجدها متأهبة لتقديم عهد آخر. وهكذا سوف تمر الحياة، مفعمة مع ذلك بالمتعة، بل وأيضاً بالجهود الكثيرة المبذولة نحو الأفضل، وسيخصص الجزء الأكبر من كل يوم أعيشه للخير والأصغر منه للندم. كان القلق قائماً؛ لأنه على مدار ذلك العام كله الملىء بالنسبة لى بالاهتمامات لم أكن أرى على كارلا سوى تحقيق هدف واحد: هو أن تظهر حبها لى. لقد حافظت عليه ومع شىء من الصعوبة فى الاستدلال على ذلك إن بات يسهل عليها حينئذ اتخاذ قرار جديد يوقف القديم. لم تكن كارلا بالبيت. كانت خيبة أمل كبيرة، وعضضت على أناملى من الغيظ. أدخلتنى العجوز فى المطبخ، أخبرتنى أن كارلا ستعود قبل حلول المساء. قالت لها إنها ستتناول الطعام فى الخارج؛ ولهذا لم يكن هناك على الموقد ذلك اللهب الصغير الذى كان يشتعل فى المعتاد:

– ألم تكن تعرف يا سيدى؟ – سألتنى العجوز وعيناها جاحظتان من الدهشة.

هممت، وأنا قلق وشارد الذهن:

كنت على علم بذلك بالأمس. لكننى لم أكن متأكداً من أن ما أخبرتنى سيكون اليوم بالتحديد.

انصرفت بعد أن حييتها بتحية لائقة. كنت أصرّ بأسناني، لكن خلسة. كان لابد أن يمر الوقت لكي أملك الشجاعة وأثور جهاراً. دخلت الحديقة العامة، ومشيت بها لنصف الساعة حتى أخذ الوقت لأفهم بصورة أفضل كيف تسير الأمور. وكانت في غاية الوضوح، حتى إنني لم أعد أفهم منها شيئاً. فجأة، وبدون رحمة اضطرت إلى اتخاذ مثل ذلك القرار. كنت أشعر بالهم، ألم حقيقي. أخذت أعرج، وأقاوم أيضاً شيئاً من ضيق التنفس. فأنا أعانى من ضيق النفس: نعم أتنفس بصورة جيدة لكنني أحصى كل نفس، لأنني لابد أن أخرج الواحد تلو الآخر في موضعه. فلدي إحساس بأنه إن لم أنتبه، فسأموت مختنقاً.

في تلك الأثناء كان عليّ أن أذهب لمكتبي أو من الأفضل إلى مكتب جويدو. لكنني لم أتمكن من الابتعاد عن ذلك المكان. ماذا كنت سأفعل بعد ذلك؟ كان نهراً مختلفاً تماماً عما سبقه! ليتني عرفت على الأقل عنوان ذاك المعلم اللعين الذي سلب مني فتاتي من كثرة الغناء، على نفقتي.

أفضى بي الأمر إلى أن عدت عند العجوز. ربما عثرت على كلمة أبعث بها إلى كارلا لأحثها على مقابلي مرة أخرى. بات بالفعل من أصعب الأمور عليّ أن أراها بأسرع وقت ممكن. أما ما يلي ذلك من أحداث فلم يكن ليمثل صعوبات ذات شأن.

وجدت العجوز جالسة إلى جوار نافذة بالمطبخ وهي منشغلة برفء جورب. رفعت نظارتها ووجهت إليّ في شيء من الخوف نظرة متسائلة. ترددت! ثم سألتها:

– أتعلمين أن كارلا قررت الزواج من لالي؟

أحسست كما لو أنني أحدث نفسي بهذا الخبر، قالت لي كارلا مرتين، لكنني لم أبال به في اليوم السابق، أصابت كلماتها أذني وبوضوح؛ لأنني عثرت عليهما بعدئذ، لكنها انزلت دون أن تتوغل إلى أبعد من ذلك. ها هي ذي تصل في تلك اللحظة فقط إلى أحشائي التي أخذت تتلوى من الألم. نظرت إلى العجوز مترددة هي أيضاً، من المؤكد أنها كانت تخشى أن تتلفظ بأسرار يمكن أن تلومها عليها ابنتها. ثم انفجرت قائلة، في فرحة واضحة:

– هل قالت كارلا لك هذا؟ إذا فالأمر كذلك! أعتقد أنها تحسن صنعا! ما رأيك في ذلك يا سيدي؟

أخذت تضحك من قلبها، تلك العجوز اللعينة، التي أعتقد أنها كانت مطلعة دائماً على علاقتي بكارلا. وددت لو أصفعها، لكنني بعد ذلك اكتفيت بقولي إنني ربما فضلت الانتظار حتى يتمكن المعلم من وضعه الوظيفي. ومن ثم، فإنني أرى بالمسألة تسرعاً.

في غمرة فرحتها أخذت المرأة للمرة الأولى تثرثر معي. لم توافقني الرأي. عندما يتزوج الشاب، عليه أن يحسب وضعه الوظيفي بعد الزواج. لم ينبغي عليه أن يتقدم فيه أولاً؟ وهكذا لن يكون لكارلا احتياجات كبيرة. ولن يكلفها صوتها، حينئذ، كثيراً، فسوف تجد في زوجها معلماً لها.

تلك الكلمات التي ربما كانت تعني لوماً موجهاً للقليل الذي أقدمه، أوحى لي بفكرة بدت لي رائعة، وأراحتني في تلك اللحظة. لا بد أن المبلغ

الذى كنت أحمله دائماً فى ظرف داخل جيب سترتى الداخلى قد أصبح ضخماً. أخرجته من جيبى، أغلقته، وسلمته إلى العجوز لتعطيه لكارلا. لعلنى كنت أرغب أيضاً فى نهاية الأمر أن أدفع لفتاتى بصورة لائقة، لكن رغبتى كانت أشد فى رؤيتها من جديد واستعادتها لى. لابد أن ترانى كارلا ثانياً سواء فى حالة ما إذا شاءت أن تعيد لى المال، أو إن استحسننت الاحتفاظ به؛ لأنها ستشعر حينئذ بالحاجة إلى توجيه الشكر لى. تنفست الصعداء: لم ينته بعد كل شيء إلى الأبد!

قلت للعجوز إن الظرف به بعض المال المتبقى مما سلمه لى أصدقاء كوبر المسكين من أجلهما. ثم فى هدوء تام وجهت كلمة لكارلا، أقول فيها إننى سأظل صديقها الوفى مدى الحياة وإنها، إذا احتاجت إلى مساندة، تستطيع أن تلجأ لى فى حرية تامة. وهكذا تمكنت من إعطائها عنوانى الذى كان مكتب جويدو.

انصرفت بخطى أكثر مرونة من تلك التى قادتني إلى هناك.

لكننى فى ذلك اليوم تشاجرت مع أوجوستا مشاجرة عنيفة. كانت المسألة تافهة. قلت إن ملح الحساء كثير فنفت ذلك. اعترتني نوبة غضب فائقة للحد، حيث هب لى أنها تسخر منى، فجذبت بعنف مفرش المائدة نحوى حتى طارت أوانى المائدة جميعها وسقطت على الأرض. أخذت الطفلة تصرخ وهى على ذراع المربية، مما ألقى ألى مبرحاً، كأنما كان ذلك الفم الصغير يلومنى. شحب وجه أوجوستا مثلما يحدث فى مثل تلك الحالة، أخذت الصغيرة بين ذراعيها وخرجت. بدا لى سلوكها زائداً أيضاً عن

حده: أتركتني حينئذ أكل بمفردي مثل الكلب؟ لكنها عادت على الفور، دون الطفلة، أعادت تجهيز المائدة، جلست أمام طبقها الذي حرّكت فيه الملعقة، كأنما أرادت أن تنتهياً لتناول الطعام. أما أنا، فبينى وبين نفسي أخذت أسب وألن، لكننى كنت أدرك أنى لعبة فى يد قوى الطبيعة الجامحة. فالطبيعة التى لم تجد أية صعوبة فى تجميع تلك القوى، لا تجد كذلك ما يعوق إطلاقها. كنت أوجه لعناتى فى تلك اللحظة إلى كارلا التى كانت تتظاهر بأنها لا تعمل إلا لصالح زوجتى. ها هو ذا الوضع الذى وضعتنى به!

من الأساليب التى تتركك بها أوجوستا حتى يومنا هذا، أنها عندما ترانى فى مثل هذه الحالة، لا تحتج، ولا تبكى، ولا تجادل. وعندما بدأت أطلب فى هدوء منها المذرة، أرادت أن تفسر لى شيئاً: إنها لم تضحك، بل ابتسمت فقط بالطريقة ذاتها التى كانت تروق لى مرات عديدة، وامتدحتها فيها العديد من المرات.

خجلت من نفسى خجلاً شديداً. رجوتها حتى تحضر الطفلة على الفور معنا وما إن ضممتها بين ذراعى، حتى أخذت ألاعبها طويلاً. ثم أجلستها على رأسى ومن تحت رداثها الصغير الذى كان يحجب وجهى، جففت عينى اللتين كان يغمرهما الدمع الذى لم تذرفه أوجوستا. كنت ألاعب الطفلة، وأنا على يقين من أنى بهذه الطريقة، ودون أن أتدنى بتقديم الاعتذارات، سأتقرب إلى أوجوستا، وبالفعل استمادت وجنتاهما لونهما المألوف.

ثم انقضى ذلك النهار بنهاية جميلة أيضاً، وكانت فترة ما بعد الظهيرة مشابهة لسابقتها. كان الشيء نفسه بالضبط كما لو أنني في الصباح تقابلت مع كارلا في المكان المعتاد. لم أفكر إلى التنفيس عن نفسي. طلبت المعذرة مراراً؛ لأنني كنت أريد أن أحمل أوجوستا على استعادة ابتسامتها الأمومة فيها عندما كنت أقول لها أشياء غريبة أو أقوم بفعلها. الويل لو رأيته مضطرة لافتعال ذلك الأسلوب أو لإخفاء ابتسامتها كذلك من ابتساماتها العطوف التي أعرفها، وكنت أجد فيها رضاها الكامل.

في المساء عدنا بالحديث عن جويدو. بدا أنه تصالح مع أدا صلحاً تاماً. أخذت أوجوستا الدهشة من طيبة أختها. أتى دوري لأبتسم أنا تلك المرة؛ لأنه كان من الواضح أنها نسيت طيبتها هي التي كانت عظيمة. سألتها:

– وإذا دنست أنا بيتنا، ألن تغفري لي؟

ترددت:

– إن لدينا طفلتنا، صاحبت، في حين أن أدا لا يربطها أولاد بهذا الرجل.

كانت لا تحب جويدو؛ تراودني أحياناً فكرة أنها كانت تستاء منه؛ لأنه تسبب في معاناتي.

مرت بضعة أشهر، وأهدت آدا توأمين لجويدو الذى لم يفهم قط لم كانت تهنئتي له حارة جداً. ها هو ذا وقد رزق بأطفال، وبحسب تقدير أوجوستا أيضاً، كان يمكن أن تكون له خادومات بالمنزل دون خطر عليه.

لكننى، فى صباح اليوم التالى، تنفست الصُّعداء، عندما وجدت على مكتبى ظرفاً عليه عنوانى والمرسلة كارلا. إذن فكل شىء لم ينتهِ بعد، ويمكن أن أستمّر فى حياتى مزوداً بالعناصر اللازمة جميعها. فى كلمات وجيزة أعطتني كارلا موعداً فى الحادية عشرة صباحاً بالحديقة العامة، عند المدخل المواجه لمنزلها. لن نتقابل فى حجرتها، بل فى مكان قريب جداً منها. لم أطق الانتظار فذهبت قبل الميعاد بربع الساعة. فإن لم تكن كارلا بالمكان المحدد، فسأتجه مباشرةً إلى بيتها، وسيرىحني ذلك كثيراً.

كان ذلك النهار أيضاً مترعاً بربيع جديد زكى مشرق. عندما غادرت شارع كورسيكاستاديون الصاخب ودخلت الحديقة، شعرت بسكون الريف الذى لم يكن يقطعه حفيف أوراق الشجر الناعم المتواصل وقد لامسها الندى.

بخطوة سريعة تأنبت لمغادرة الحديقة عندما جاءت كارلا نحوى. كان الظرف بيدها ودنت منى دون ابتسامة تحية، بل كان يرتسم على وجهها اللطيف الشاحب قرار حاسم. كانت ترتدى ثوباً بسيطاً من قماش سميك به خطوط زرقاء، لائقاً جداً لقوامها. كانت تبدو وكأنها هى أيضاً جزءاً من الحديقة. فيما بعد فى اللحظات التى كنت أشعر فيها

بالسخط عليها، كنت أنسب إليها العمد فى ارتداء ذلك الثوب حتى تثير
رغبتي فيها فى اللحظة ذاتها التى كانت تبعدنى فيها عنها، فى حين كان
أول أيام الربيع هو الذى يكسوها. لابد أن أذكر أيضاً أن زينة فتاتي لم
تحظ على مدار فترة حبي الخاطف الطويلة إلا بقدر ضئيل من الاهتمام.
كنت أتوجه مباشرة إلى حجرة المكتب تلك، ثم إن السيدات المتواضعات
يرتدين ثياباً بسيطة جداً عندما يمكنن بالبيت.

وضعت يدها فى يدي فصافحتها قائلاً:

– أشكرك على مجيئك!

كم كان أهلاً لى لو كنت مكثت هادئاً على هذا النحو فى أثناء
الحديث كله! كانت كارلاً تبدو منفعلة وكانت شففتاها، عندما تتحدث،
ترتوشان على نحو أشبه بتقلص عضلى. كانت رعشة شففتيها تلك تعوق
أحياناً النغمة أيضاً فى أثناء غنائها. قالت لى:

– كنت أود أن أرضيك وأتقبل منك هذا المال، لكنه ليس فى
استطاعتي، لا أقدر على الإطلاق. خذه أرجوك.

عندما رأيت عينيها وشيكة الدمع رثيت لحالها، وأخذت الظرف
الذى وجدته بعد ذلك فى يدي، بعد أن مضى وقت طويل منذ أن غادرت
ذاك المكان.

– أحقاً لا ترغبين فى رؤيتى ثانية؟

وجهت لها هذا السؤال، ولم أفكر فى إجابتها عنه فى اليوم السابق.
أكان من الممكن أن تمتنع عنى، وهى كما كنت أراها مثيرة للريبة؟

- تزينوا! - أجابت الفتاة بشىء من الدعة - ألم نتعاهد بالآ نتقابل
على الإطلاق؟ فى أعقاب العهد الذى اتخذناه معاً أخذت على عاتقى
التزامات مثل تلك التى كانت تشغلك قبل أن تعرفنى. إنها مقدسة كذلك
مثل التزاماتك. أمل أن تدرك زوجتك أنك الآن لها وحدها.

ظل إذن جمال آدا يأخذ أهمية فى تفكيرها. لو كنت على يقين من
أن آدا هى سبب هجرها لى، لوجدت الطريقة لإصلاح الوضع. كان
يمكننى أن أخبرها أن آدا ليست زوجتى، وكان من الممكن أن أريها
أوجوستا بعينها المائلة وهيئتها التى تشبه المرضعة العفية. لكن ألم
تصبح الالتزامات التى التزمت بها حينئذ أكثر أهمية؟ كان ينبغى
أن نناقشها.

حاولت أن أتحدث بهدوء فى حين كانت شفتاى أنا أيضاً ترتعشان،
ولكن من الرربة. قلت لها إنها لم تدرك بعد كم صارت ملكاً لى، وإنه ليس
لديها الحق فى التصرف فى نفسها. كان يدور فى رأسى الدليل العلمى
لما كنت أقصده، أى تجربة دارون الشهيرة تلك حول الفرس العربية،
لكن، حمداً للسماء، فائاً أكاد أكون متأكداً من أنى لم أتحدث عنها.
غير أنى لابد تحدثت عن حيوانات أخرى وعن وفائها الغريزى، فى تمتمة
بلا معنى. ثم تركت الحديث عن موضوعات بالغة الصعوبة والفهم لها
ولى فى تلك اللحظة، وقلت:

- ما الالتزامات التي تعهدت بها؟ وما أهميتها في مقابل عاطفة كالتى تربط بيننا منذ أكثر من عام؟

قبضت على يدها بشدة وأنا أشعر بالحاجة إلى إطلاق طاقة، لم أجد أية كلمة يمكن أن تتوب عنها.

نهضت بحركة انفعالية من قبضة يدي، كما لو أنني سمحت لنفسى بمثل هذا التصرف للمرة الأولى.

- مطلقاً - قالتها بلهجة من يقسم - أخذت العهد الأقدس! اتخذته مع رجل اتخذ بدوره مثيله نحوى.

لم يعد هناك مجال للشك! إن الدم الذى صبغ وجنتيها فجأة إنما دفعه شعورها بالسخط تجاه الرجل الذى لم يتعهد معها بأى التزام. ثم شرحت لى الأمر بصورة أفضل:

- بالأمس قمنا بنزهة فى الطريق، يتأبط كلانا ذراع الآخر وبصحبة والدته.

كان واضحاً أن فتاتى تنصرف عني بسرعة، بعيداً بعيداً عني. أسرع خلفها فى جنون، فى وثبات تشبه وثبات كلب يتنافس على قطعة لحم شهية. أمسكت يدها ثانية بعنف:

- حسناً، اقترحت عليها قائلاً: فلنسر على هذا النحو، ونحن نتشابك بأيدينا، فى أنحاء المدينة. فى هذا الوضع غير المألوف، لكى يرانا الجميع جيداً، سنمر بكورسيا ستادين ثم بأقواس كيوتزا، إلى

أن نعبر الكورسو حتى نصل إلى سانتاندرىا لنعود إلى حجرتنا من اتجاه آخر، حتى يرانا الناس جميعهم فى المدينة.

ها هى ذى كانت المرة الأولى التى أتخلى فيها عن أوجوستا! وخلت فى ذلك خلاصى؛ لأنها هى نفسها التى أرادت أن تبعد عني كارلا.

نزعت يدها ثانية من قبضتى، وقالت بنبرة جافة:

- سيكون الطريق نفسه تقريباً الذى سرنا فيه بالأمس!

استشطت من جديد غيظاً:

- وهو يعرف، يعرف كل شىء؟ هل يعرف أنك بالأمس أيضاً

كنت لى؟

- نعم - قالت بعزة نفس - إنه على علم بكل شىء، كل شىء.

شعرت بالضيق وفى ثورة غضبى، ومثل الكلب الذى ينهش ثياب من ينازعه، عندما لم يعد قادراً على الوصول إلى القضمة التى يلهث وراءها، صحت:

- خطيبك هذا له معدة رائعة. يهضمنى اليوم، وسيستطيع فى الغد أن يهضم كل من ترغبين فيه.

لم يكن صوت كلامى واضحاً فى أذنى. ما أعرفه هو أننى كنت أصرخ من الألم. أما هى فقد صدر عنها تعبير بالازدراء لم أكن أصدق أن عينيها السمرأوين الوديعتين كعيني الغزال قادرتان عليه:

- أتقول ذلك لى؟ ولماذا لا تملك الشجاعة لتخبره هو به؟

. استدارت عني، وبخطوة سريعة اتجهت نحو طريق الخروج. أما أنا فسرعان ما أنبني ضميري على ما قلته لها، فلشد ما تعكرت نفسي من فرط المفاجأة، حتى إنني لم أستطع إلا أن أعاملها بغلظة. ذلك ما سمرتني في مكاني. وعندما قررت أن أسرع خلفها، كانت الصورة بلونيهـا الأزرق والأبيض قد وصلت بخطواتها الوجيزة الخفيفة إلى بوابة الخروج. لم أكن أدري ما الذي سأقوله لها، لكنه كان من غير المحتمل أن نفترق على هذا النحو.

أوقفتها عند بوابة المنزل التي تقطن به، وعبرت لها فقط بصدق عن ألم تلك اللحظة الكبير:

– هل نفترق بالفعل على هذا النحو، بعد كل هذا الحب؟

واصلت سيرها إلى الأمام دون أن تجيبني، اتبعتها أيضاً على درج السلم. ثم نظرت إليّ بعينيها المتوعدة:

– إن كنتم ترغبون سيادتكم في رؤية خطيبي، فلتأت معي. ألا تسمعونه؟ إنه هو الذي يعزف على البيانو.

حينئذ فقط سمعت نغمات مقطوعة شوبيرت "التحية"، التي قام بعزفها ليسرت.

ومهما كنت منذ طفولتي لم أمسك بيدي سيفاً ولا عصاً، فأنا لست رجلاً جباناً. إن الرغبة الشديدة التي أثارتني حتى تلك اللحظة تلاشت بغتة. لم يتبق من نزعات الرجولة سوى المصارعة. لقد طلبت بغطرسة

شيئاً لا يخصنى. ولكى أقلل من شأن خطئى وجب على النزال، وإلا لكنت
ذكرى تلك المرأة التى كانت تهددنى بعقاب خطيئها لى، مروعة.

- حسناً! - قلت لها - إن أذنت لى سأتى معك.

كان قلبى يخفق ليس من الخوف، بل من خشيتى ألا أحسن
التصرف.

واصلت الصعود إلى جوارها. لكنها توقفت فجأة، استندت إلى
الجدار وأجهشت فى البكاء. بون أية كلمة. وهناك فى الطابق الأعلى
ظلت تتردد نغمات "التحية" على ذلك البيانو الذى دفعت قيمته من مالى.
إن بكاء كارلا جعل ذلك اللحن مؤثراً جداً.

- سأفعل ما تشائين! أترغبين فى أن أنصرف؟ سألتها.

- نعم، أجابت بمجرد أن شعرت بالقدرة على نطق تلك الكلمة
الوجيزة.

- الوداع! - قلت لها. - وكما تشائين، وداعاً إلى الأبد!

هبطت السلم على مهل، وأخذت أصفر أيضاً لحن شوبيرت.
لا أدري إذا كان وهماً، لكن هبى لى أنها نادتنى:

- تزينوا!

كان بإمكانها فى تلك اللحظة أن تدعونى أيضاً داريو، ذلك الاسم
الغريب الذى كانت تشعر بأنها تدالنى به ولما توقفت. تملكتنى رغبة

شديدة في الانصراف والعودة مرة أخرى، صافياً، إلى أوجوستا. والكلب أيضاً الذي يمنعونه ركلاً من الاقتراب من أنثاه، يبتعد مسرعاً بريئاً جداً، في تلك اللحظة.

عندما عاودتني في الغد الحالة التي كنت عليها وأنا أتوجه إلى الحديقة العامة، أحسست في وضوح بآثي كنت خسيساً: نادتنى حتى وإن كان بغير اسمي في الحب، وأنا لم أجبها! كان اليوم الأول للألم، وتوالت عليه أيام أخرى عديدة من الوحدة المريرة. لم أدرك بعد لم ابتعدت على هذا النحو؛ لذا عزوت الذنب إلى شعوري بالخوف من ذلك الرجل أو خشية الفضيحة. أحسست حينئذ بالاستعداد للعودة لقبول أية مجازفة، مثلما عرضتها على كارلا في تلك النزهة الطويلة في أنحاء المدينة. لقد أضعت لحظة مواتية، وكنت أعلم جيداً أن من النساء من يحظين بها لمرة واحدة. وكانت تكفي تلك المرة الوحيدة.

على الفور قررت أن أكتب لكارلا. ما كان بإمكانى أن أترك قط ولو يوماً آخر يمر دون أن أبذل أية محاولة للتقرب منها من جديد. كتبت تلك الرسالة، وأعدت لمرات كتابتها حتى أضع بكلماتها القليلة كل الدقة التي كنت أهلاً لها. أعدت كتابتها أكثر من مرة؛ لأن الكتابة كانت أيضاً راحة كبيرة لي؛ السلوى كانت متنفساً كنت في حاجة إليه. أخذت أطلب منها المعذرة عن ثورة الغضب التي صدرت عني، وشرحت لها أن حبي الكبير يحتاج إلى الوقت ليهدأ. وأضفت: «إن كل يوم يمر سيجلب لي ذرة من السكينة»، وكتبت تلك الجملة مرات عديدة وأنا زلت أصر بأسناني.

ثم قلت لها إننى لا أستطيع أن أسامح نفسى على الكلمات التى وجهتها إليها، وأشعر بالحاجة إلى طلب المَعذرة. لم أكن لأستطيع، مع الأسف، أن أقدم لها ما يقدمه لها لالى وهى جديرة به.

كنت أتخيل أن يكون للرسالة أثر كبير. وبما أن لالى يعرف كل شىء، فإن كارلا ستطلع عليه عليها، وربما رأى من صالحه أن يحظى بصديق له منزلتى. حلمت كذلك بأنه يمكننا أن نبدأ ثلاثتنا حياة حلوة، حيث كان حبنى على نحو جعلنى حينئذ أرى حظى يبتسم لى، حتى لو سمح لى بمجرد أن أغازل كارلا وحسب.

فى اليوم الثالث تسلمت منها رسالة موجزة. لم تطلق على تزينو ولا داريو على الإطلاق. قالت لى وحسب: «شكراً! أتمنى أن تسعدوا سيادتكم أيضاً وزوجكم، الجديرة بكل خير!». كانت تتحدث عن آدا، بالطبع.

لم تستمر اللحظة المواتية ولدى النساء لن تستمر أبداً ما لم يغتتمها المرء بأن يجذبهن من جدائلهن. اشتدت رغبتى فى صورة سخط تائر. ليس إزاء أوجوستا! كانت كارلا تستحوذ على نفسى، حتى إن ضميرى كان يؤنبنى على ذلك، وكان من واجبى التعامل مع أوجوستا بابتسامة بلهاء، مفتعلة كانت تراها هى طبيعية.

إلا أنه كان على أن أفعل شيئاً. لم أكن أستطع بالطبع أن أنتظر، وأتألم كل يوم على هذا النحو! لم أعد أرغب فى الكتابة إليها. فالورقة المكتوبة ليس لها أهمية كبيرة لدى النساء. كان يلزم أن أجد حلاً أفضل.

وبدون اتخاذ أى قرار محدد، اتجهت مسرعاً إلى الحديقة العامة. ثم، فى سرعة أبطأ، نحو منزل كارلا، وعندما وصلت إلى راحة السلم، قرعت باب المطبخ. ولو وانتنى الفرصة، لتحاشيت رؤية لالى، لكنه لم يكن ليسوعنى أن أعثر عليه. ولوقعت الأزمة التى كنت فى حاجة إليها.

كانت السيدة العجوز، كعادتها، أمام الموقد، وكانت عليه شعلتان كبيرتان متقدتان. أخذتها الدهشة عندما رأتنى، لكن بعدها ابتسمت بطيبتها الفطرية التى كانت عليها. وقالت لى:

- تسعدنى رؤيتكم! كنتم تعتاون على زيارتنا كل يوم، ومن الواضح أنه ليس من السهل عليكم أن تمتنعوا نهائياً.

كان من السهل على أن أدفعها للثرثرة. حكّت لى أن الحب الذى يربط بين كارلا وفيتوريو كبير. فى ذلك اليوم كان سيأتى لزيارتها هو ووالدته لتناول الغداء. أضافت ضاحكة: - سرعان ما سيدفعها إلى مصاحبته حتى فى دروس الغناء العديدة التى كان ملتزماً بها كل يوم. لا يمكنهما أن يفترقا ولو للحظات قليلة.

كانت فى أمومة تبتسم لتلك السعادة. أخبرتنى أنهما سيتزوجان بعد بضعة أسابيع.

كنت أشعر بمذاق مرير فى فمى، وكدت أتوجه للباب لأنصرف. ثم تماسكت آملاً فى أن توحى لى ثرثرة العجوز بأفكار جيدة، أو تعطينى بصيصاً من الأمل. فالخطأ الأخير، الذى اقترفته حقاً مع كارلا،

هو تعجلى بالانصراف، قبل أن أقوم بدراسة كل الإمكانيات التي قد تتاح لى.

وفجأة ظننت أيضاً أنه جاعتنى فكرة مواتية. سألت العجوز إذا كانت قد قررت حقاً أن تقوم بخدمة ابنتها حتى تتوفىها المنية. أخبرتها بأننى على علم بأن كارلا لا تعاملها بالحسنى.

أخذت تواصل عملها الدءوب إلى جوار الموقد، على الرغم من أنها كانت تستمع إلى. كانت تعاملنى بنية سليمة لم أكن لأستحقها. لامت على كارلا نفاذ صبرها لأشياء لا قيمة لها. والتمست العذر قائلة:

– بلا شك يتقدم بى السن كل يوم، وأنسى كل شىء. ليس لى ذنب فى ذلك!

لكنها تمنى أن تسير الأمور بعد ذلك على ما يرام. أن تقل تقلبات مزاج كارلا، حيث أصبحت تشعر حينئذ بالسعادة. ثم إن فيثوريو أخذ، منذ البداية، يبدى لها احتراماً كبيراً.

وأضافت أخيراً، وهى لا تزال مهتمة بصنع أشكال من خليط من العجين والفاكهة:

– واجبى يحتم على أن أبقى مع ابنتى. لا يمكننى عمل خلاف ذلك. حاولت وأنا أشعر بالقلق إقناعها. قلت لها إنها تستطيع أن تتحرر تماماً من تلك العبودية التى استمرت طويلاً. أأست موجدأ؟ وكان بإمكانى إعطاؤها المعونة الشهرية التى كنت أمنحها لكارلا حتى تلك اللحظة.

صرت أرغب فى الاحتفاظ بإحدهما! أردت أن أتمسك بالعجوز التى كنت أراها جزءاً من ابنتها.

أبدت لى العجوز امتنانها. أخذت تثنى على كرمى، لكنها ضحكت من فكرة أن يُوحى لها بترك ابنتها. كانت شيئاً لا يرد على خاطرها.

ها هى ذى عبارة قاسية خرجت لتصدم جبينى الذى انحنى! عدت إلى تلك الوحدة الكبيرة، حيث لا توجد كارلا، وما من سبيل أراه يقودنى إليها. أتذكر أنى بذلت محاولة أخيرة لأوهم نفسى بأن فى تلك الوسيلة التى أتمسها ما أهتدى به. قلت للعجوز، قبل أن أنصرف، إنه ربما فى خلال وقت قصير يتقلب مزاجها. رجوتها فى تلك الحالة أن تتذكرنى.

شعرت باستياء وسخط شديدين وأنا أُغادر البيت، كأنما عوملت حقاً معاملة سيئة بالفعل وأنا أشرع فى القيام بعمل نبيل. حقاً أهانتى تلك العجوز عندما انفجرت فى الضحك. كنت ما أزال أسمع صداه فى أذنى ولم يكن يعنى قط السخرية من اقتراحى الأخير وحسب.

لم أرغب فى الذهاب إلى أوجوستا وأنا على تلك الحالة. كنت أتوقع ما سيحدث بيننا. لو كنت قد ذهبت إليها، لعاملتها معاملة سيئة، ولأخذت هى بثأرها منى بذلك الشحوب الشديد الذى كان يؤلنى كثيراً. فضلت أن أسير فى الطريق بخطوات ذات إيقاع يستطيع أن يعيد بعض النظام لنفسى. وبالفعل أتى النظام! امتنعت عن لوم قدرى، وأبصرت ذاتى،

كأنما سلط على ضوء شديد، وأظهرنى كاملاً على بلاط الطريق الذى كنت أنظر إليه. لم أكن أطلب كارلا، وإنما كنت أرغب فى عناقها وبالأحرى عناقها الأخير. شىء مضحك! دسست أسناني فى شفتى لكى ألقى الألم، وهذا يعنى شيئاً من الجدية، على صورتى المضحكة. كنت أعرف كل شىء عن نفسى، ولم يكن هناك مبرر لكل ذلك الألم، لقد أتتني فرصة فريدة لكى أقلع عن عادة كانت تسيطر علىّ. اختفت كارلا بالفعل من حياتى، مثلما رغبت فى ذلك مرات عديدة.

ومع مثل هذا الوضوح الشديد فى نفسى، وبعد وقت وجيز، وفى طريق بعيد عن وسط المدينة، وصلت إليه دون قصد منى، ما إن أشارت إلى امرأة فى زينة صارخة، أسرعت إليها دون تردد. وصلت فى ساعة متأخرة جداً على الغداء، غير أننى كنت فى غاية اللطف مع أوجوستا التى سرعان ما أصبحت سعيدة. لكننى لم أقوَ على تقبيل طفلتى، ولم أستطع كذلك تناول الطعام لساعات طويلة. كنت أحس بأننى متسخ! لم أتصنع المرض مثلما فعلت مرات أخرى لكى أخفى جرمى وأخفف من وطأة ندمى. كنت أتصور عدم قدرتى على النسيان واتخاذ قرارات مستقبلية، وللمرة الأولى لم أشرع فى ذلك. كان لابد أن تمر ساعات طويلة حتى تعود حياتى لإيقاعها المعتاد، الذى أخذ يقودنى من الحاضر القاتم نحو مستقبل مضيء.

أدركت أوجوستا أن بى شيئاً جديداً؛ لذا ضحكت قائلة:

- لا يستطيع أحد أن يشعر بالملل معك أبداً، فأنت كل يوم رجل جديد.

نعم! تلك السيدة التى وجدتھا فى ضاحية المدينة لا تشبه أية امرأة أخرى، وقد كانت بداخلی.

قضيت أيضاً فترتی ما بعد الظهيرة والمساء مع أوجوستا. كانت فى حالة انشغال بالغ، وجلست أنا بجوارھا فى حالة خمول. هیئ إلى أن تیاراً، تیاراً من الماء الصافى، يحملنى على هذا النحو من الخمول: إنها حياة بیتى الصادقة.

استسلمت لذلك التيار الذى حملنى لكنه لم يطهرنى. فالأمر مختلف تماماً! كان يكشف عن جریرتى.

وفى الليلة الطويلة التى أعقبت ذلك وصلت بطبيعة الحال إلى قرار. كان القرار الأول الأكثر حسماً. سأتزود بسلاح أقضى به على نفسى فى الحال، إذا ما فوجئت بالتوجه إلى تلك الناحية من المدينة. استحسننت ذلك القرار الذى سکن روعى.

لم أئن مطلقاً فى فراشى، بل حاكيت تنفس أنفاس النائم المنتظمة. على هذا النحو عدت إلى الفكرة القديمة بأن أظهار بالاعتراف لزوجتى، تماماً مثلما كنت فى سبیلی لخيانتها مع كارلا، لكنه أصبح اعترافاً عسيراً للغاية، ليس لجسامة الجرم، بل للتعقيدات التى نتج عنها. فأمام قاضٍ كزوجتى، كان علىّ أيضاً أن أستشهد بظروف مخففة، وهذه الظروف ما كانت لتتضح إلا بإمكانية الإفصاح عن الأسلوب العنيف

الذى لم يكن فى الحسبان، وانقطعت به علاقتى بكارلا. لكن إذن كان يجب أن أعترف فى تلك اللحظة أيضاً بتلك الخيانة التى أصبحت قديمة. كانت خيانة أنقى من هذه، لكنها (من يدري؟) ربما كانت أكثر إهانة بالنسبة للزوجة.

توصلت لقرارات أكثر حكمة من فرط ما تفحصت نفسى. فكرت فى تجنب تكرار مثل هذه التجاوزات بالإسراع إلى إيجاد علاقة أخرى كالتى فقدتها، وكان واضحاً أنى بحاجة لها. لكن فكرة المرأة الجديدة كانت تفرزنى كذلك. كنت أخشى آلاف الأخطار تهددنى وتهدد أسرتى الصغيرة أيضاً. لم تكن هناك كارلا أخرى فى هذا العالم، وبكيبتها بدموع حارة، بكيتها هى، تلك الحُلوة، الطيبة، التى حاولت أيضاً أن تحب المرأة التى كنت أحبها ولم تفلح فى ذلك، ليس إلا لأنى وضعت أمامها امرأة أخرى لم أكن حقاً أحبها على الإطلاق!

قصة شركة تجارية

كان جويدو هو من أراد أن أعمل معه في شركته التجارية الجديدة. ومن جانبي كنت أتحرق شوقاً إلى مشاركتي، لكنني على يقين أنني لم أدعه قط يستشعر رغبتى تلك. من الواضح أن اقتراح مزاولة ذلك النشاط برفقة صديق في أثناء حالة خمولى تلك التى كنت عليها بعد زواجى، كان يروق لى. ولكن كان هناك المزيد. لم يفارقنى الأمل قط في أن أصبح تاجراً جيداً، وكنت أعتقد أنه من السهل على أن أتقدم وأنا أعلم جويدو، عن أنى أتلقى دروساً من أوليفى. فالكثيرون في هذا العالم يتعلمون فقط وهم ينصتون إلى أنفسهم أو بالآخرى لا يتقنون التعلم وهم ينصتون إلى الآخرين.

كانت لدى بواقع أخرى أيضاً في رغبتى في تلك المشاركة. وددت أن أقدم خدمات نافعة لجويدو! بادئ ذى بدء كنت أكن له حباً، وعلى الرغم من أنه أراد أن يبدو قوياً وواثقاً من نفسه، كنت أراه أعزل يحتاج إلى حماية رغبت في منحه إياها عن طيب خاطر. فضلاً عن أنه بداخلى أيضاً وليس أمام عيني أوجوستا وحسب، رأيت أنني بقدر ما أرتبط بجويدو سيتضح بالتأكيد عدم مبالاتي بأدا.

ومن ثم لم أنتظر سوى كلمة من جويدو حتى أضاع نفسي تحت تصرفه، وتلك الكلمة لم تأت من أول وهلة، فقط لأنه لم يكن يعتقد أنه لدى ميول في مجال التجارة؛ حيث إنني لم أكن أبالي بما يعرضونه علي في شركتي.

قال لي ذات يوم:

- أنهيت دراستي في المدرسة التجارية العليا، وعلى الرغم من هذا يشغلني قليلاً ضرورة تنظيم تلك التفاصيل جميعها تنظيمًا دقيقًا نضمن به التشغيل السليم للشركة التجارية. فمن الأفضل ألا يحتاج التاجر إلى أن يتعلم شيئاً؛ لأنه إن كان في حاجة إلى عمل ميزانية فسيستدعي كاتب الميزانية، وإذا احتاج إلى الشئون القانونية فسيلجأ إلى المحامي ولسك دفاتر حساباته سيتوجه إلى المحاسب. وإن كان يشق عليه كثيراً أنه عليه أن يسلم في البداية حساباته إلى غريب!

كان ذلك الحديث هو أول تلميح واضح له لنيته في إشراكي معه. لم أقم حقاً ممارسة المحاسبة إلا عندما أمسكت دفتر الأستاذ لعدة شهور نيابة عن أوليفي، لكنني كنت متأكداً من أنني المحاسب الوحيد الذي لن يكون غريباً بالنسبة لجويدو.

تحدثنا بوضوح للمرة الأولى عن احتمال وجود مشاركة بيننا عندما ذهبنا لاختيار أثاث مكتبه. وأمر بلا تردد بشراء مكتبين لحجرة الإدارة.

سألته وقد احمر وجهي:

- لم اثنان؟

أجاب:

- الآخر لك.

شعرت بامتنان كبير إزاءه، حتى كدت أعانقه.

عندما غادرنا المكتب، فسّر لي جويدو، وهو مرتبك قليلاً، أنه ليس بصدد أن يخصص لي بعد مكاناً في شركته، ترك تحت تصرفي ذلك المكان في حجرته، فقط لكي يحثني على المجيء لمرافقته كلما راق لي ذلك، لم يرغب في إرغامى على شيء، وظل هو أيضاً حراً. فإذا نجحت تجارته منحني مكاناً في إدارة شركته.

ظهرت على وجهه الخمرى الحسن ملامح من الجدية البالغة، وهو يتحدث عن تجارته، كان يبدو وكأنه قد بحث في كل العمليات التي كان يرغب في التخصص فيها، أخذ ينظر بعيداً، فوق رأسى، ووثقت كثيراً في تأملاته الجادة، حتى إنني توجهت أيضاً بالنظر إلى ما كان ينظر إليه، أى تلك العمليات التي من شأنها أن تجلب له الثروة، إنه لم يشأ أن يسير في الدرب الذى طرقه حمى بنجاح شديد، ولا أن يتتهج البساطة والثقة التي سلكها أوليقي. هؤلاء جميعهم كانوا، بالنسبة له، تجاراً على الطريقة القديمة، كان يلزم طرق درب آخر؛ ولذلك شاركنى عن طيب خاطر؛ لأنه كان يرانى ولم تفسدنى بعد طريقة التجارة القديمة.

وجدت كل ذلك حقيقة. هنأني على أول نجاح لي في مجال التجارة، واحمر وجهي من الفرحة للمرة الثانية. سارت الأمور على هذا النحو، وعرفاناً مني بالجميل إزاء التقدير الذي قدمه لي، عملت معه ولصالحه، يوماً بعد يوم وبجهد أقل، عملت لمدة عامين كاملين دون أية مكافأة سوى الفخر بذلك المكان في حجرة الإدارة. وحتى ذلك الحين كانت تلك الفترة بالتأكيد أطول فترة تفرغت فيها لعمل واحد. لكنني لا أستطيع أن أتفاخر بذلك؛ حيث إن نشاطي الذي مارسته لم يأت بثماره لي ولا لجويديو، ففي مجال التجارة - والجميع يعرفون هذا - لا يمكن إطلاق الحكم إلا على النتائج.

وثقت بنفسي في أن أبدأ بالقيام بتجارة كبيرة لمدة ثلاثة شهور تقريباً، الوقت اللازم لتأسيس تلك الشركة. أدركت أنه لا يتعين على تنظيم بعض البنود كالمكاتب والمحاسبة وحسب، بل ومراقبة الصفقات أيضاً، في حين اختص جويديو لنفسه بهيمنة كبيرة، لدرجة كادت تضر بي أيضاً، لولا حظي العظيم الذي منعها من ذلك. كانت إشارة منه تكفي لكي أسرع إليه. وهذا لا يزال يثير دهشتي إلى الآن وأنا أكتب عنه، بعد أن أتيت لي الوقت في التفكير في جزء كبير من حياتي.

وأكتب المزيد عن هذين العامين؛ لأنني أرى أن ارتباطي به له علاقة واضحة بمرضى. أي سبب كان في ارتباطي به لكي أتعلم التجارة الكبيرة وفور ذلك مباشرةً أظل بالقرب منه لأعلمه التجارة الصغيرة؟ أي سبب كان وراء ارتباطي في ذلك الوضع لمجرد أنني كنت أرى في صداقتي

العظيمة بجويدو عدم اكتراث تجاه أدا؟ من كان يطالبني بذلك كله؟ أما كان يكفي أن يبعث عدم الاهتمام المتبادل بيننا وجود كل أولئك الأطفال الذين كنا ننفق من أجلهم حياتنا؟ لم أكن أكره جويدو، لكنه لم يكن بالتأكيد ذلك الصديق الذي أختاره بمحض إرادتي. كنت ألس فى وضوح شديد عيوبه، حتى إن تفكيره كثيراً ما كان يضجرنى، متى لم أشفق على بعض نقاط ضعفه. لفترة طويلة ضحيت بحريتي، وانسقت وراءه فى مواقف مزعجة للغاية لمجرد مساعدته! كان شكلاً واضحاً من أشكال المرض أو مظهراً من مظاهر الطيبة العظيمة على حد سواء، فهما صفتان لهما علاقة حميمة فيما بينهما.

سيظل هذا حقيقياً، حتى وإن كانت قد نمت بيننا مع مرور الوقت مودة كبيرة، مثلما يحدث دائماً بين الناس الأسوياء الذين نراهم كل يوم. وكانت مودتى له عظيمة! فمئذ أن وافته المنية، ظلمت أفتقده لوقت طويل، بل بدت لى حياتى كلها خالية؛ حيث إنه كان يشغل هو وصفقاته جزءاً كبيراً منها.

يساورنى الضحك عندما أتذكر أننا، فى أول عمل لنا، وهو شراء الأثاث، أخطأنا الهدف من زاوية معينة. التزمنا بشراء الأثاث ولم نكن قد قررنا بعد تحديد موقع المكتب. كان هناك خلاف فى الرأى بينى وبين جويدو، فى مسألة اختيار المكتب، هذا ما تسبب فى تأخير تأسيسه. لاحظت من حمى وأوليئى أن يكون المكتب ملاصقاً دائماً للمتجر، لى نتاح إمكانية مراقبته. احتج جويدو على ذلك بعبوس ينم عن استياء:

- مكاتب تريستى تلك تفوح منها رائحة البكّالا والجلود! أخذ يؤكد أنه يستطيع أن يدير عملية المراقبة من مكان بعيد أيضاً، ومع ذلك لم يتخذ قراراً فى تلك المسألة. ذات يوم أنذره تاجر الأثاث بأن ينقله، وإلاّ ألقى به فى الطريق، وعندئذ أسرع فى تحديد مكان المكتب، وكان آخر ما عرض أمامه، وبدون متجر بالقرب منه، لكن بوسط المدينة تماماً؛ ولهذا فإن المتجر لم نحصل عليه على الإطلاق.

كان المكتب يتكون من غرفتين واسعتين إضاعتهما جيدة وحجرة صغيرة دون نوافذ. كانت هناك على باب تلك الحجرة غير الصالحة للسكنى لافتة ملصقة مكتوب عليها بحروف مظلمة: إدارة الحسابات، ثم على أحد البابين الآخرين اللافتة: الخزينة، وتعلو الآخر لافتة خاص ذات الطابع الإنجليزى الواضح. كان جويدو قد درس أيضاً التجارة بإنجلترا، وجلب منها مفاهيم نافعة. كانت حجرة الخزينة، كما ينبغي، مزودة بخزانة عظيمة من الحديد وبالباب الحديدى المعروف. حجرتنا الخاصة كانت فاخرة، فرشها رائع لونه بنى مخملى ومزودة بمكتبين، وأريكة ومقاعد عديدة مريحة للغاية.

ثم حان وقت شراء الدفاتر والأدوات المختلفة، وبصفتى مديراً كان دورى فى هذا الأمر لا جدال فيه. أعطى الأوامر والطلبات تصل. كنت فى الواقع أفضلّ ألاّ تنفذ أوامرى على هذا النحو من السرعة، لكن واجبى كان يحتم أن أذكر كل الأشياء اللازمة فى المكتب. ظننت حينئذ أنى اكتشفت الفارق الكبير بينى وبين جويدو. كل ما كنت أعرفه، كان يفيدنى

فى القول وىنفعه فى الفعل. وعندما كان ىصل إلى معرفة ما كنت أنا على دراية به ولىس أكثر من ذلك، كان ىقوم بعملية الشراء. حقاً أنه قرر أحياناً ألا ىفعل شيئاً فى التجارة، أى ألا ىقوم بأى من عمليتى الشراء أو البىع، لكن ذلك أيضاً كان ىبدو لى قراراً ىأتى من قبل شخص ىثق فىما ىعرفه. ولو عنتى أنا لساورنى الشك كثيراً حتى فى أثناء عدم القىام بالعمل. كنت غاية فى الحذر فى تلك المشترىات. أسرعى إلى أولىقى لمعرفة مقابىس سجلات النسخ ودفاتر الحسابات. ثم قدم لى ابن أولىقى ىد المعاونة فى فتح الدفاتر، وشرح لى أيضاً ذات مرة القىد المزدوج، إنها أمور عسىرة، لكنها تنسى بسهولة شدىدة. وكان على استعداد لشرح المىزانىة لى، عندما نصل إليها.

لم نكن نعلم بعد ما الذى كان علینا أن نقوم به فى ذلك المكتب (أنا الآن على ىقین من أن جوىدو أيضاً لم ىكن حینئذ ىعلمه)، وكنا ننتاقش فى كامل عملية تنظىم عملنا. أتذكر أننا تحدثنا طویلاً عن أين نضع الموظفین الآخرین إذا كنا فى حاجة إلیهم. اقترح جوىدو أن نضعهم فى الفراغ المتاح فى حجرة الخزینة. لكن لوتشانو الصغیر، وكان الموظف الوحید لدینا فى ذلك الوقت، أشار بأنه حیثما توجد الخزانة، لا ىجب أن ىكون هناك موظفون آخرون سوى المكلفین بالخزانة نفسها. كان حقاً قاسياً علینا أن ننتلقى درساً من معاون لدینا! ولاحت لى فكرة:

– أظن على ما أتذكر أن عملية الدفع بإنجلترا تتم عن طریق الشىكات.

ذلك ما قالوه لى بتريستى.

– أحسنت! عقب جويدو. إنى أتذكر ذلك أيضاً الآن. غريب أنه غاب

عن فكرى!

أخذ يشرح للوتشانو طويلاً وعرضاً كيف أنه لم تعد هناك حاجة إلى تداول أوراق نقدية كثيرة. فالشيكات تنتقل من شخص إلى آخر بجميع المبالغ اللازمة. كان انتصارنا انتصاراً عظيماً، ولاذ لوتشانو بالصمت.

ولقد حظى هذا الأخير بفوائد عظيمة مما تعلمه من جويدو. إن صبيانا الساعى أصبح اليوم تاجراً بتريستى له احترامه الشديد. لا يزال يلقي على بالتحية على نحو من التواضع تخفف منه ابتسامته. كان جويدو يستثمر جزءاً من اليوم فى تلقين دروس للوتشانو أولاً ، ثم إلى وبالتالي إلى الموظفة. أذكر أنه قد داعبته طويلاً فكرة الاشتغال بالتجارة على أساس العمولة كى لا يخاطر بأمواله. شرح لى ماهية تلك التجارة، وبما أنى كنت أستوعب بسرعة فائقة، وكان ذلك واضحاً، فقد أخذ يشرحها للوتشانو الذى طالما مكث للاستماع إليه بإيماءات تدل على الاهتمام الشديد، وعيناه الواسعتان تطلان فى وجهه الصغير. لا يمكننا القول إن جويدو قد بدد وقته؛ لأن لوتشانو هو الوحيد من بيننا الذى نجح فى مزاولة هذا النوع من التجارة. رغم أنه يقال إن الغلبة للعلم!

فى تلك الأثناء وصلت الأموال (البيزوس) من بوينوس آيرس. كان عملاً جاداً! بادئ ذي بدء ظننت أن المسألة هينة، فى حين أن سوق المال فى تريستى لم تكن متأهبة لتلك العملة الغريبة. احتجنا من جديد إلى الشاب أوليفى الذى علمنا كيفية تحويل الشيكات. فى أعقاب ذلك، تركنا بمفردنا فى وقت بعينه، حيث ظن أوليفى أنه أبلغنا غايتنا، ووجد جويدو نفسه لأيام عديدة وقد امتلأت جيوبه بالكورونات، حتى عثرنا على الوسيلة للوصول للمصرف الذى خفف عنا العبء الشاق، وسلمنا دفتر الشيكات، وسرعان ما تعلمنا كيفية استخدامه.

شعر جويدو بالحاجة إلى أن يخبر أوليفى بأن ييسر له ما يسمى بحساب رأس المال قائلاً:

– أؤكد لك أننى لن أدخل فى منافسة على الإطلاق مع شركة صديقى!

فأجابه الشاب الذى كان لديه مفهوم آخر فى التجارة قائلاً:

– حبذا لو دخل عدد كبير من المتعاملين فى بنود تجارتنا، فسيكون ذلك من الأفضل لنا!

ففر جويدو فاه، واستوعب بصورة فائقة كما كان يحدث له دائماً، ولازمته تلك النظرية التى كان يقدمها لكل من يرغب فيها.

على الرغم من المدرسة العليا التى التحق بها جويدو، فقد كان مفهومه فى الأصول والخصوم مفهوماً يشوبه عدم الدقة. ظل ينظر إلى

فى دهشة كيف أنشأت حساب رأسمال الشركة وكيف سجلت النفقات أيضاً. ثم أصبح كبير العلم فى إدارة الحسابات، حتى إنه عندما كانت تعرض عليه صفقة، كان يحللها فى بادئ الأمر من منظور المحاسبة. كان يعتقد بالفعل أن معرفة المحاسبة تضيف على العالم شكلاً جديداً. كان يرى وجود المدينين والدائنين فى كل شىء حتى عندما يتعارك شخصان أو يتبادلان القبلات.

يمكن القول بأنه اقتحم مجال التجارة مسلحاً بالحذر الشديد. رفض عدداً من الصفقات، بل ظل يرفضها جميعها لسته أشهر، وكانت له هيئة من يعرف أكثر من الآخرين:

- كلا! كان يقولها، وكانت تلك الكلمة ذات المقطع الواحد تبدو وكأنها نتيجة حساب دقيق، حتى عندما كان الأمر يتعلق بسلعة لم يكن قد رآها من قبل. لكن تلك الملاحظة قد تبددت عندما وجد أن الصفقة بفرض ربحها المحتمل أو الخسارة التى قد تسفر عنها كانت لابد أن تمر عبر عملية المحاسبة. كان هذا هو آخر أمر تعلمه، وأضافه إلى معلوماته جميعها.

يؤلنى أن أتحدث هكذا بصورة سيئة عن صديقى المسكين، لكن على أن أكون صادقاً أيضاً لأتفهم نفسى على نحو أفضل. أتذكر كم الذكاء الذى استثمره كى يريك مكتبنا الصغير بأضغاث أحلام أخذت تعوقنا عن مزاولة أى نشاط سليم. فى وقت محدد، بعثنا، حتى نبداً فى

العمل باستخدام العمولة، آلافاً من الخطابات الدورية عن طريق البريد.
لاحت لجويدو هذه الفكرة:

- كم من الطوابع نوَفَّرها إذا علمنا قبل أن نبعث بهذه الرسائل أيها سيصل إلى الأشخاص الذين سيأخذونها في الاعتبار، لم تكن هذه الجملة في حد ذاتها تعوق شيئاً، لكنه أعجب بها كثيراً وأخذ يطوح في الهواء بالخطابات المقفلة ليرسل فقط منها تلك التي تسقط على الجانب المدون عليه العنوان، تذكرنى هذه التجربة بشيء مماثل قمت به في الماضي، على الرغم من أننى لم أصل قط فيما أرى إلى هذا الحد، لم أجمع بالطبع ولم أرسل الدوريات التي استبعدتها، حيث لم أكن على يقين مما إذا كان هناك بالفعل إلهاماً جاداً قد أرشده لهذا الاستبعاد؛ لذا كان على ألا أبدد الطوابع التي يتعين عليه أن يدفع ثمنها.

حال حظى دون أن يقضى جويدو على، بل إن حظى ذاته منعنى أيضاً من أن أقوم بدور كبير الأهمية في إدارة أعماله. أقول ذلك بصوت عالٍ لأن بعض الناس في مدينة تريستي يعتقد أن الأمر خلاف ذلك: في أثناء الوقت الذي أمضيته معه، لم أتدخل قط بأية مقترحات، على غرار فكرة الفاكهة المجففة تلك. لم أدفعه إلى القيام بأية صفقة على الإطلاق، ولم أمنعه من إحداها مطلقاً. كنت أقوم بدور الناصح! كنت أحثه على مزاوله النشاط، وعلى اتخاذ الحذر. لكنى ما كنت لأجرؤ على طرح أمواله على طاولة اللعب.

أصبحت خاملاً جداً إلى جواره. حاولت أن أهديه سواء السبيل، وربما لم أفلح في ذلك لسليبيتي الكبيرة. وعلى أية حال، فعندما يتعاشيان اثنان معاً، فليس عليهما أن يقررا من منهما يجب أن يكون دونكيشوت ومن يلعب سانشو پانسا. كان يقوم بالصفقة وعلى غرار سانشو الحق كنت أتابعه على مهل في دفاتري، بعد أن أتفحصه وأقوم بتوجيه النقد له كما كان يجب على.

باءت التجارة على أساس العمولة بالفشل التام، لكن دون أن تلحق بنا أية أضرار. فالوحيد الذي أورد إلينا بضاعة كان وراقاً من قيينا، وكمية من الأدوات الكتابية تلك باعها لوتشانو الذي توصل رويداً رويداً إلى معرفة نسبة الربح التي تخصنا، ودفع جويدو لیتنازل له عما يقرب من غالبيتها. انتهى الأمر بجويدو إلى قبول ذلك؛ لأنها كانت أشياء قليلة الشأن، ثم إن الصفقة الأولى، وقد تم بيعها على هذا النحو، كانت لا بد أن تجلب الحظ. تركت لنا هذه الصفقة الأولى بالمخزن كمية من الأدوات المكتبية كان علينا أن ندفع قيمتها ونحتفظ بها. كان لدينا منها ما يكفي لعدة سنوات لاستهلاك محل تجاري له نشاط يفوق نشاطنا.

ذلك المكتب الصغير المضاء، بوسط المدينة، ظل لمدة شهرين ملتقى ممتعاً لنا. كنا نعمل به على نطاق ضيق حقاً (أذكر أنه تمت بالمدة كلها صفقتان لصناديق تغليف مستعملة فارغة توافقت فيها عمليتا العرض والطلب في اليوم ذاته، وحصلنا منهما على ربيع زهيد) وكانت ثرثرتنا فيه

كثيرة، كما يحق لشباب مثلنا، وكانت أيضاً مع لوتشانو ذاك الساذج،
الذي، عندما كنا نتحدث عن الصفقات، كان يهتاج ويتحمس مثل آخرين
في عمره لو سمعوا حديثاً عن النساء.

حينئذ كان يسهل على أن ألهو في براءة مع الأبرياء؛ لأنني لم
أكن قد فقدت كارلاً بعد. ويسعدني تذكر يومي بكامله في تلك الفترة.
في المساء، بالمنزل، كان لدى الكثير لأقصه على أوجوستا، وكنت
أستطيع أن أحدثها عن كل الأمور التي تخص المكتب، دون أي استثناء،
ودون أن أضيف أشياء أخرى لأزيها.

لم أهتم قط عندما صاحت أوجوستا في قلق:

– ولكن متى ستشرعون في كسب الأموال؟

أموال؟ لم نفكر قط في تلك الأموال. كنا نعلم أنه في بادئ الأمر
يتعين علينا أن نتوقف للمراقبة، لتفحص البضائع، ودراسة البلد
ومقاطعتنا هينترلاند. لا تقام قط أية شركة تجارية بلا استعداد على هذا
النحو! وكانت أوجوستا تسكت أمام تفسيراتي هذه.

فضلاً عن أننا سمحنا بضيافة ضيف كان يحدث جلبه كبيرة في
مكتبنا. كان كلب صيد يبلغ من العمر شهوراً قليلة، مضطرب الحركة
وفضولياً. كان جويديو يحبه كثيراً، ويحرص على تزويده باللبن واللحم
بانتظام. وعندما لم يكن لدى ما عمله أو أفكر في شيء، كنت أنظر إليه
أنا أيضاً عن طيب خاطر وهو يتقافز في المكتب بتلك الحركات الأربع

أو الخمس التي نعرفها عن الكلاب وتحببها لنا بدرجة كبيرة. لكنى ما كنت لأرى مكاناً له معنا، وهو على هذا القدر من الإزعاج والقذارة! إن وجود ذلك الكلب فى مكتبنا، حسبما أرى، كان الدليل الأول الذى قدمه جويدو على أنه ليس جديراً بإدارة شركة تجارية. كان ذلك يثبت الغياب المطلق لجديّة العمل. حاولت أن أشرح له أنه ليس بإمكان الكلب ترويج صفقاتنا، غير أننى لم أملك الشجاعة على الإصرار، وقد أسكتنى بردّ به استخفاف.

لذا رأيت أنى لا بد أن أهتم بنفسى بتأديب زميلى ذاك، وفى أثناء غياب جويدو سددت إليه بعض الركلات وأنا أشعر بلذة كبيرة. كان الكلب ينبع وفى البداية أخذ يعود إلى ظننا منه أنى لكمته عن طريق الخطأ، لكن ركلة ثانية كانت كفيلة بإفهامه معنى الأولى بصورة أفضل، وعندئذ كان يقبع فى مكانه. لم يكن هناك أى هدوء متى وصل جويدو إلى المكتب. بعد ذلك ندمت على معاملتى لبرىء بهذا العنف، ولكن بعد فوات الأوان. غمرت الكلب بمعاملة لطيفة، حين لم يعد يثق بى، وكانت حركته فى حضور جويدو علامة واضحة على نفوره منى.

- أمر عجيب!- قال جويدو. - لحسن الحظ أنى أعرف من أنت، وإلا لارتبت فىك. فالكلاب لا تخطئ عادةً فى نفورها.

كدت أقص على جويدو لكى أزيل شكوكه، بأية وسيلة استطعت الفوز بنفور الكلب.

سرعان ما حدث بينى وبين جويدو خلاف حول مسألة لم تكن لتهمنى كثيراً، ولما كان يهتم بإدارة الحسابات بشغف كبير، وأراد أن يضع نفقات عائلته ضمن حساب النفقات العامة، عارضته فى ذلك، بعد أن تشاورت مع أوليفى، ودافعت عن مصالح العجوز "كادا". كان من المحال حقاً أن نضع فى ذلك الحساب كل ما ينفقه جويدو، وأذا ثم نفقات التوأمين بعد أن ولدا. كانت نفقات ملزمة له بصفة شخصية، ولا تخص الشركة. ثم اقترحت، فى مقابل ذلك، مراسلة بوينوس أيرس للاتفاق على مرتب لجويدو. رفض الوالد أن يمنحه إياه معللاً أن جويدو يحصل على خمس وسبعين بالمائة من الأرباح، فى حين يتول إليه هو ما تبقى. بدا لى رداً سليماً، فى حين أخذ جويدو يرسل خطابات مطولة إلى الوالد ليناقش المسألة من وجهة نظر أعلى، حسبما كان يقول. كانت بوينوس أيرس شديدة البعد؛ ولهذا فإن المراسلة استغرقت الوقت الذى استمرت فيه شركتنا. لكننى سجلت انتصاراً! فحساب النفقات العامة ظل منفصلاً، ودون أن يختلط بنفقات جويدو الخاصة وأتى انهيار الشركة على رأس المال بكامله، بكامله حقاً دون أية استقطاعات.

أما الشخص الخامس الذى تم قبوله فى مكتبنا (مع أخذ أرجو أيضاً فى الحسبان) فقد كانت كارمن. كنت حاضراً فى أثناء تكليفها بالوظيفة. وصلت إلى المكتب عائداً من منزل كارلا، وكنت أشعر براحة شديدة، تلك الراحة التى كان يستمتع بها فى الثامنة صباحاً الأمير تاليرون^(١).

(١) تاليرون: دبلوماسى وسياسى فرنسى (١٧٥٤-١٨٣٨).

لمحت فى الرواق المعتم فتاة شابة، وقال لى لوتشانو إنها تريد التحدث مع جويدو بصفة شخصية. كان لدى ما يشغلنى، فرجوتها أن تنتظر بالخارج. دخل جويدو غرفتنا بعد وقت وجيز، وكان واضحاً أنه لم ير الفتاة، وجاء لوتشانو ليضع أمامه بطاقة التزكية التى كانت تحملها. قرأها جويدو ثم صاح:

– كلا! قالها بغلظة وهو يخلع عنه السترة؛ لأن الجو كان حاراً. لكنه تردد بعد ذلك مباشرة:

– ينبغي أن أحدثها اعتباراً لمن يوصينى بها.

دعاهما للدخول، ونظرت إليها فقط عندما رأيت جويدو يقفز بوثبة على سترته ليرتديها، ويتوجه نحو الفتاة ذات الوجه الحسن الخمرى الذى تكسوه الحمرة وتلمع فيه العينان.

أنا على يقين الآن من أنى رأيت فتيات فى مثل حُسن كارمن، ولكن ليس على ذلك الجمال الطاغى، أى شديد الوضوح للنظرة الأولى. فالمعتاد أن النساء تصطنعه فى بادئ الأمر، رغبة منهن فى ذلك، فى حين أن تلك ليست فى حاجة إلى هذه الخطوة الأولى. ابتسمت وأنا أنظر إليها وضحكت أيضاً. كانت تبدو لى مثل صاحب صناعة يجوب العالم وهو يصيح بتفوق منتجاته. أتت لتحظى بوظيفة، لكن رغبة ألفت على فى التدخل فى المناقشة لأسألها:

– أية وظيفة؟ لخدع النوم؟

رأيت وجهها خالياً من الأصباغ، لكن ألوانه كانت فى غاية الدقة، فالبياض الناصع شديد الزرقة والحمرة فيه كبيرة الشبه بلون الثمار الناضجة، لشدة ما كانت المحاكاة متقنة. كانت عيناها الواسعتان عسلية اللون تعكسان من الضوء ما يجعل لكل حركة لهما أهمية كبيرة.

أجلسها جويدو، وكانت تنظر بخجل إلى طرف مظللتها الصغيرة، أو ربما كانت على الأرجح تنظر إلى حذائها البوت الملمع. عندما تحدث إليها، رفعت عينيها بسرعة نحو وجهه ببريقيهما، حتى خار عزم رئيسى المسكين. كانت ترتدى ما هو بسيط، لكن لم يكن هذا فى صالحها؛ حيث إن كل لمسة تواضع على جسدها كانت تتلاشى. كان حذاؤها فقط فاخراً، ويذكر قليلاً بالورق شديد البياض الذى كان فيلاسكيز يضعه تحت أقدام موديلاته. وحتى لو أراد فيلاسكيز أن يظهر كارمن عما حولها، لوضعها على الأسود اللامع.

وفى حالة الصفاء التى كنت أشعر بها جلست أستمع باهتمام. سألتها جويدو إذا ما كانت على علم بالاختزال. أقرت أنها لا تعرف عنه شيئاً، لكنها أضافت أن لديها خبرة واسعة فى مجال الكتابة عن طريق الإملاء. غريب! تلك الهيئة طويلة القامة، المشوقة، حلوة التناسق، يصدر منها صوت به بحة. لم أتمكن من أن أوارى دهشتى:

– هل أصابتك نزلة برد؟ سألتها.

– كلا! أجابتنى. لم توجه لى هذا السؤال؟ واندعشت جداً لدرجة أن النظرة التى طوقتني بها جاءت أيضاً شديدة التدقيق. لم تكن تعرف

أن صوتها على تلك الدرجة من النشاز، وتحتم على أن أفترض أن أذنها الصغيرة لم تكن أيضاً مرهفة تماماً في سماعها كما كان يبدو.

سألها جويدو إن كانت تجيد الإنجليزية، أو الفرنسية أو الألمانية. ترك لها الاختيار بما أننا لم نكن نعلم بعد أى اللغات نحتاج إليها. أجابت كارمن أنها تتحدث الألمانية، ولكن قليلاً جداً.

لم يتخذ جويدو قط أى قرار دون تفكير:

- لسنا فى حاجة إلى الألمانية؛ لأننى أتقنها جيداً.

كانت تنتظر الكلمة الحاسمة التى بدت لى أنها قد ذكرت، ولكى تعجل بها، قالت إنها تسعى أيضاً فى الوظيفة الجديدة إلى إمكانية التدريب؛ ولهذا سترضى بمرتب زهيد.

إن من بين التأثيرات الأولى لجمال المرأة على الرجل أن تخلع عنه البخل. رفع جويدو منكبيه تعبيراً عن عدم اهتمامه بأمور لا قيمة لها، وحدد لها المرتب الذى قبلته فى امتتان، وأوصاها فى جدية شديدة أن تدرس الاختزال. هذه النصيحة قالها فقط مراعاةً لى، بناءً على أنه اتفق معى فيما قبل، وصرح بأن أول موظف سيرضى به يجب أن يكون متقناً للاختزال.

أخبرت زوجتى فى المساء ذاته بزميلتى الجديدة. استاءت من ذلك استياءً شديداً. وبون أن أحكى لها، ظننت فى الحال أن جويدو اتخذ تلك الفتاة للعمل عنده لتصير عاشقة له. تجادلت معها، وعلى الرغم من

إقرارى بأن جويدو كان يتصرف بفكرام بعض الشيء، أكدت لها أنه سوف يبرأ من صعقة الغرام تلك دون عواقب. فالفتاة، فى مجمل القول، تبدو فتاة جادة.

مرت أيام قلائل حظينا بزيارة أدا فى المكتب، ولا أدري إن كانت مصادفة. لم يكن جويدو قد جاء بعد، وتوقفت معى لفترة قصيرة لتسألنى متى سيأتى. ثم، بخطوة مترددة، اتجهت إلى الحجرة المجاورة التى لم يكن بها فى تلك اللحظة سوى كارمن ولوتشانو. كانت كارمن تتدرب على الآلة الكاتبة، وهى مستغرقة فى العثور على الحروف، حرفاً حرفاً. رفعت عينيها الجميلتين لتتظر إلى أدا التى كانت تحقق فيها. ياله من اختلاف بين المرأتين! كانتا متشابهتين قليلاً، لكن كارمن كانت تبدو وكأنها أدا الزائفة. جال بخاطرى كيف أن إحداهما وعلى الرغم من أنها ترتدى ثياباً أكثر فخامة، فهى مخلوقة لتكون زوجة أو أمّاً، فى حين أن الأخرى، وعلى الرغم من أنها كانت ترتدى فى تلك اللحظة مريولاً متواضعاً يقى ثوبها من الاتساخ من الآلة، فهى أنسب لدور العاشقة. لا أدري إن كان هناك فى هذا العالم علماء قادرين على تفسير لماذا تجمع عين أدا الجميلة ضوءاً أقل مما تجمعه عين كارمن، وتصبح بذلك مجرد عضو حقيقى يفيد فى رؤية الأشياء والأشخاص وليس فى إثارة فتنهم. وهكذا وفى ثبات شديد تحملت كارمن منها نظرة الاستياء تلك والفضول أيضاً؛ وربما كانت تحمل داخلها شيئاً من الحقد كذلك، أو ربما أضفته أنا إليها.

كانت تلك هى المرة الأخيرة التى رأيت فيها أدا، وهى لا تزال تتمتع بذلك الحسن الذى كانت عليه حين تمنعت علىّ. ثم جاء حملها المفزع وضرورة تدخل الطبيب الجراح لإخراج التوأمين إلى النور. وفور ذلك مباشرة أصيبت بالمرض الذى نزع عنها كل لمحة جمال؛ لهذا فأنا أتذكر جيداً تلك الزيارة. بل أتذكرها خاصة؛ لأن تعاطفى اتجه كله فى تلك اللحظة إليها هى ذات الجمال الوديع الهادئ الواقع تحت غلبة جمال الأخرى الذى يختلف عنه كثيراً. من المؤكد أنى لم أكن أحب كارمن، ولم أقدر فيها سوى العينين الرائعتين، والألوان البراقة، ثم الصوت الأبح، وفى النهاية الطريقة التى كانت بريئة منها، والتى تم من خلالها قبولها هناك داخل المكتب. غير أنى شعرت حقاً حينئذ بمودة نحو أدا، وإنه لغريب حقاً أن تشعر بالحب إزاء المرأة التى رغبنا فيها بشدة، ولم نفرز بها ثم لم نعد نبالى بها بعد ذلك. ومن ثم قد نجد أنفسنا فى الظروف ذاتها التى يمكن أن تتوافر لو حدثت واتفقت مع رغباتنا، وما يثير الدهشة أننا نكتشف مرة أخرى كم من الأمور نحيا من أجلها وهى ذات أهمية قليلة جداً.

أردت أن أخفف عنها الألم وتقدمتها إلى الحجرة الأخرى. احمر وجهه جويدو بدرجة كبيرة، ما إن دخل إلى المكتب بعد ذلك ورأى زوجته. ذكرت له أدا سبباً وجيهاً لزيارتها، لكنها سألته على الفور وهى تهم بالابتعاد:

– هل عينتم موظفة جديدة بالمكتب؟

- نعم! أجاب جويدو، و لكي يخفى ارتبাকে، لم يجد وسيلة أفضل من التوقف عن الكلام ليسألنى عما إذا جاء أحد ليسأل عنه. ثم بعد أن أجبته بالنفى، ظلت على شفتيه امتعاضة أسف، كأنما كان يأمل فى زيارة مهمة، فى حين أننى كنت أعلم أننا لم نكن ننتظر أحداً أيا كان، وعندئذ قال لآدا وهو يرسم على وجهه أمارات اللامبالاة التى نجح فى اتخاذها أخيراً:

- كنا بحاجة إلى كاتب اختزل!

ضحكت كثيراً عندما سمعته يخطئ فى جنس الشخص الذى كنا نحتاج إليه.

إن قدوم كارمن جلب معه الحيوية إلى مكتبنا. لا أقصد الحيوية التى تنبعث من عينيها، ولا شكلها اللطيف ولا الألوان التى ترسم وجهها؛ إننى أتحدث عن الصفقات فى حد ذاتها. لقد دفع وجود تلك الفتاة بجويدو إلى العمل. أراد بادئ ذى بدء أن يظهر لى وللآخرين جميعهم ضرورة وجود الموظفة الجديدة، وأخذ يخلق كل يوم أعمالاً يقوم بالمشاركة فيها هو أيضاً. ثم، ولفترة طويلة، أصبح نشاطه وسيلة لمغازلة الفتاة بصورة أكثر فعالية. وبلغ تأثيراً غير مسبوق. كان عليه أن يعلمها شكل الحروف التى كان يملئها عليها، ويصحح لها كتابة الكثير والكثير من الكلمات. كان يداوم على القيام بذلك فى رفق. وأى مقابل من جانب الفتاة لم يكن ليحتسب مجاوزاً للحدود.

وقليل من الأعمال التي كان يفتعلها باسم الحب حملت له ثماراً. ذات مرة سعى طويلاً في صفقة سلعة من السلع اتضح أنها محظورة. وفي لحظة ما وجدنا أنفسنا أمام رجل يصرخ وجهه بالألم وقد دهسنا، دون أن ندري، مسامير قدميه. كان يريد هو نفسه أن يعرف ما شأنا بتلك السلعة ظناً منه أننا متدوبون لمنافسين أقوياء من الخارج. للمرة الأولى اضطرب وكان يخشى الأسوأ. وعندما اتضحت له براعتنا، ضحك في وجوهنا، وأكد أننا لن ننجح في شيء. في نهاية الأمر كان هو على صواب، ولكن قبل أن نستعد للإدانة لم يكن قد مضى حينئذ وقت وجيز، وكانت كارمن قد كتبت خطابات كثيرة. وجدنا أن السلعة لا يمكن الحصول عليها حيث تحفها بعض العوائق. لم أذكر شيئاً عن تلك الصفقة لأوجوستا، لكنها حدثتني عنها؛ لأن جويدو قد أخبر أدا بها ليظهر لها مدى عبء الأعمال التي يقوم بها المختزل. لكن الصفقة تلك التي لم تتم، ظلت لها أهمية بالغة بالنسبة لجويدو. كان يتحدث عنها كل يوم. كان اقتناعه بأنه لن يتكرر في أية مدينة أخرى في العالم مثلها. كان المحيط التجاري الذي نعيش فيه فقيراً، وكان أي تاجر مغامر يختنق فيه. وعلى هذا النحو جاء دوره كذلك. في تلك السلسلة الفوضوية المضطربة للصفقات وقعت بين أيدينا واحدة، وأحرقتها بالفعل. لم نقم بالسعي وراءها، وإنما هي التي زجت بنا. أقحمنا بداخلها دلماسي الجنسية، يدعى تاشيك، قد عمل والده مع والد جويدو بالأرجنتين. في بادئ الأمر جاء لزيارتنا للحصول على بعض المعلومات التجارية مناً فحسب، وقد تمكنا من تزويده بها.

كان تاشيك شاباً وسيماً، بل كان فى غاية الحسن. طويل القامة، قوى البنية، وجهه خمري اللون، تمتزج فيه فى تناغم عذب العينان الزرقاوان الداكنتان، والحاجبان العريضان، والشارب القصير الغليظ بنى اللون مع بريق ذهبى؛ ومن ثم ترسم عليه تلك اللوحة التى تتناغم فيها الألوان، وقد رأيت الرجل الذى خلق ليكون رفيقاً لكارمن. وظن هو الآخر الشئ نفسه، وكان يأتى لزيارتنا كل يوم. كانت أحاديثنا تستمر كل يوم فى مكتبنا لبضعة ساعات، لكن لم تكن باعثة على الملل على الإطلاق. كان الرجلان يتنافسان لاستمالة المرأة الشابة، وكما يحدث بين الحيوانات جميعها، فباسم الحب يتفاخر كل منها بأفضل ما لديه من مزايا. تماسك جويدو قليلاً، حيث كان الدماسى يأتى أيضاً لزيارته بالمنزل، وبالتالي تعرف على آدا، لكن لم يعد هناك شئ يمكن أن يسبب له ضرراً أمام عيني كارمن؛ فأتا، الذى أعرف جيداً تلك العينين، أدركت ذلك فى الحال، فى حين فطن إليه تاشيك بعد مضى وقت طويل، وحتى يجد حجة دائمة لرؤيتها اشترى منا، بل من صاحب المصنع، كميات كبيرة من الصابون، سدد قيمتها بنسب فوائد أكثر غلواً. ثم أقحمنا، باسم الحب دائماً، فى تلك الصفقة المشنومة.

نبه والد الشاب إلى أن سلفات النحاس دائماً ما كان يعلو سعرها فى بعض المواسم، ويهبط فى مواسم أخرى، وبالتالي قرر أن يشتري منها ستين طناً ليضارب فى اللحظة المواتية فى البورصة، فى بريطانيا، تحدثنا طويلاً عن تلك الصفقة، بل تأهبنا لها، وكنا على اتصال بشركة إنجليزية.

ثم بعث الوالد برقية لابنه، يخبره فيها بأن الوقت الملائم - حسبما كان يرى - قد حان، وذكر أيضاً السعر الذى يمكنه من إغلاق الصفقة. أسرع تاشيك إلينا وهو مغرم، مثلما كان حاله دائماً، وسلم إلينا الصفقة، ونال منها جائزته، وكانت نظرة رائعة عظيمة ومداعبة من كارمن. تلقى الدماسى المسكين النظرة وهو ممتن، ولا يدري أنها كانت تعبيراً عن حب جويدو.

أذكر الطمأنينة والثقة اللتين انكب بهما جويدو على الصفقة، والتي بدت فى الواقع سهلة جداً؛ حيث كان من الممكن إرساء البضاعة بإنجلترا حتى يتم تسليمها إلى مينائنا ومنه إلى المشتري، دون أن يتم تحريكها. حدد بدقة قيمة الربح التى كان يرغب فيها، وعاونته فى تحديد السعر النهائى اللازم تقريره لثمن الشراء بالنسبة لصديقنا الإنجليزى. استعنا بالقاموس لتنسيق البرقية باللغة الإنجليزية. وبعد أن تم إرسالها، فرك جويدو يديه، وأخذ يعد الكورونات التى كانت ستنهمر على الخزينة ثمناً لمجهود بسيط ووجيز. ووجد أنه من العدل، لكى يحظى برضا الآلهة، أن يتعهد بعمولة ضئيلة لى وبالتالى، وبشئ من الدهاء، إلى كارمن أيضاً التى أسهمت بعينيها فى الصفقة. رفض كلانا، لكنه رجانا أن نتظاهر على الأقل بالقبول. كان يخشى على أية حال من أعيننا الحاسدة، فوافقته على الفور حتى أهدئ من روعه. كنت على يقين مطلق من أنه لن يأتيه منى سوى الأمنيات الطيبة، لكنى كنت أدرك أنه ربما يرتاب فى ذلك. ونحن فى هذا المكان عندما لا نكره بعضنا البعض نحب الخير للجميع، غير أن أمانينا الحارة تصاحب الأعمال التى نشارك فيها وحسب.

تم تقدير الصفقة من كل الجوانب، بل أتذكر أن جويدو أخذ بحسب عدد الشهور، والربح الذى سيتحصل عليه منها، وبالقدر الذى يمكن أن يكفل أسرته ومكتبه، أى أسرته كما كان يطلق عليهما فى بعض الأحيان، أو مكتبه كما كان يقول أحياناً أخرى عندما كان يشعر بالملل كثيراً فى بيته. تم تقدير حجم تلك الصفقة أكثر مما ينبغى، وربما لم تلق نجاحاً لهذا السبب. وصلت من لندن برقية مختصرة: خطاب مسجل ثم تحديد لسعر السلفات فى ذلك اليوم، الذى ارتفع كثيراً عن السعر المتفق عليه مع المشتري، وداعاً للصفقة. علم تاشيك بهذا الخبر، وبعد مدة قصيرة غادر تريستى.

فى تلك الفترة امتنعت عن الذهاب إلى المكتب لمدة شهر تقريباً؛ ولهذا لم يقع بين يدي خطاب كان قد وصل إلى الشركة، كان فى ظاهره خيراً، ولكنه كان يحمل فى طياته عواقب جسيمة لجويدو. لقد أكدت به تلك الشركة البريطانية برقيتها، وانتهت بإعلاننا بأنها تعد طلبنا سارياً ما لم يتم إلغاؤه. لم يفكر جويدو قط فى إلغائه، وأنا عندما عدت إلى المكتب، لم أتذكر مطلقاً تلك الصفقة. وهكذا توالى شهور عديدة، وذات مساء، أتى جويدو لبحث عني بالمنزل ومعه برقية لم يفهمها، وكان يظن أنها أرسلت إلينا عن طريق الخطأ، على الرغم من أنها تحمل بصورة واضحة عنواننا التلغرافى، الذى كنت قد كتبته بدقة بمجرد أن أقمنا فى مكتبنا. كانت البرقية تتضمن ثلاث كلمات فقط: ٦٠ طناً مدفوعاً، ففهمت فى الحال، فلم يكن من الصعب إدراك الأمر؛ حيث إن سلفات النحاس

كانت الصفقة الكبرى الوحيدة التي تفاوضنا عليها. فقلت له: من الواضح من تلك البرقية أن السعر، الذي قمنا بتحديدته لتنفيذ طلبنا، قد تحقق، وهكذا أصبحنا ملاكاً سعداء لستين طناً من سلفات النحاس.

احتج جويدو قائلاً:

– كيف لهم أن يظنوا أنني سأوافق بعد طول هذه المدة على تنفيذ هذا الطلب؟

على الفور أخذت أفكر أنه لا بد أن خطاب التصديق على البرقية الأولى موجود في مكتبنا، في حين كان جويدو لا يتذكر أننا قمنا بتسلمه. اقترح، وهو مضطرب، أن نسرع إلى المكتب في الحال لنرى إن كان هناك، وراق هذا الاقتراح لي كثيراً حيث كانت تزعجني تلك المناقشة أمام أوجوستا التي لم تكن تعلم أنني لم أذهب إلى المكتب منذ شهر.

أسرعنا إلى المكتب. كان جويدو مستاءً جداً؛ حيث وجد نفسه ملتزماً بتلك الصفقة الأولى الكبيرة، ولكي يتخلص منها، ربما تحتم عليه أن يعود إلى لندن. فتحنا المكتب؛ ثم وجدنا، ونحن نتحسس في الظلام، الطريق نحو حجرتنا، ووصلنا إلى المصباح لإنارته. حينئذ وجدنا الخطاب على الفور وكان به ما توقعته من قبل؛ إنه يخبرنا أن طلبنا السارى ما لم يتم إلغاؤه تم تنفيذه.

حذق جويدو في الخطاب وقطب جبينه، ولا أدري إن كان استياءً منه أم جهداً أراد به أن يلغى بنظرته ما تم إخطارنا به بالبرقية بكلمات بسيطة جداً.

- علماً بأنه - عقب قائلاً - كانت تكفى مجرد كلمتين موجزتين
لتجنب خسارة كهذه!

مما لا شك فيه أنه لم يكن لوماً يوجهه لى، حيث كنت متغيباً عن المكتب،
وعلى الرغم من أننى تمكنت من العثور فوراً على الخطاب لعلمى بالمكان
الذى لابد أن نجده فيه، فإننى لم أكن قد رأيته قط قبل ذلك الحين.
وحتى أبرئ نفسى كلياً من أى لوم، وبخته بنبرة حاسمة قائلاً:

- فى أثناء غيابى كان عليك أيضاً أن تقرأ بدقة الخطابات جميعها!
استرخى جبين جويدو. رفع منكبيه وهمس:
- ربما آلت تلك الصفقة أيضاً إلى الثراء.
تركنى بعد قليل فعدت إلى منزلى.

لكن تاشيك كان على صواب: ففي بعض المواسم يهبط سعر سلفات
النحاس كثيراً، وكان يهبط كل يوم أكثر فأكثر، وأتيحت لنا الفرصة
للانتباه للظاهرة بأكملها، ذلك فى تنفيذ طلبنا وعدم إمكانية التنازل عن
البضاعة بذلك السعر لآخرين. وارتفعت قيمة خسارتنا. سألتنى جويدو
النصيحة فى اليوم الأول. كان يمكن أن يبيع بخسارة قليلة مقارنةً
بالخسارة التى كان عليه أن يتكبدها فيما بعد. لم أرد أن أعطيه نصائح،
لكننى لم أغفل أن أذكره باعتقاد تاشيك الراسخ بأن انخفاض السعر
كان لابد وأن يستمر لأكثر من خمسة شهور. ضحك جويدو قائلاً:

- هذا حقاً ما كان ينقصنى، أن يوجهنى قروى فى أعمالى!

أذكر أنّى حاولت مراجعته رغم ذلك، وأن أخبره أن ذلك القروى كان يقضى وقته منذ عدة سنوات فى البلدة الدلماسية الصغيرة لدراسة سلفات النحاس، إننى لا أقوى على الإحساس بأى أسف إزاء الخسارة التى تكبدها جويدو فى تلك الصفقة، ولو أنصت إلىّ لأمن منها.

تناقشنا فيما بعد فى صفقة سلفات النحاس مع أحد العملاء: رجل بدين قصير القامة، ونو حيوية وفطنة، وقد وجّه لنا اللوم فى عملية الشراء تلك، لكن يبدو أن رأيه لم يكن موافقاً لرأى تاشيك. كان يرى أن سلفات النحاس، على الرغم من أنها كانت لها سوقها الخاصة، فهى تتأثر بتقلب أسعار المعدن، حظى جويدو ببعض الثقة من ذلك اللقاء، ورجا العميل أن يخبره بتقلبات السعر؛ كان ينتظر راغباً فى البيع دون خسارة وحسب، بل ويقليل من الربح. ضحك العميل فى وقار، ثم قال فى أثناء الحديث كلمة دوتتها؛ لأننى رأيتها غاية فى الصدق:

– من الغريب أن أناساً قليلين فى هذا العالم يستسلمون أمام خسارات صغيرة؛ فالخسارات الجسيمة فقط هى التى تدفعنا إلى الاستسلام الكبير.

لم يقم جويدو للأمر وزناً. غير أنه أدهشنى كذلك، حيث لم يقص على العميل أى طريق سلكناه للوصول إلى تلك الصفقة. أخبرته بذلك فشعر بالزهو. وقال لى إنه كان يخشى، إذا ما حكى قصة الصفقة أن نفقد سمعتنا، ونقل من قيمة بضاعتنا أيضاً.

ثم مر وقت طويل لم نعد نتحدث عن السلفات، إلى أن وصل إلينا من لندن خطاب يدعونا إلى التسديد وإعطاء التعليمات بشأن الشحن. أى تسلم ستين طناً وتخزينها! بدأ جويدو يشعر بدوار، قمنا بحساب النفقات التى تلزم للاحتفاظ بهذه البضاعة لشهور عديدة، مبلغ ضخّم! لم أتفوه بشيء، لكن الوسيط الذى كان سيترقّب وصول البضاعة إلى تريستى، حيث سوف توكل إليه عاجلاً أو أجلاً مهمة بيعها، لفت انتباه جويدو إلى أن ذلك المبلغ الذى يراه ضخماً، ليس شيئاً خطيراً إذا ترجم إلى نسب «الأرباح» من قيمة البضاعة.

أخذ جويدو يضحك؛ لأن الملاحظة بدت له غريبة:

– أنا لا أملك مائة من الكيلو جرامات من السلفات؛ لدى أطنان منها، مع الأسف!

ولولا هاجس خطر بباله آنذاك، كاد يقتنع بحسابات العميل، التى كانت سليمة بالتأكيد، حيث إن تغييراً هيناً فى اتجاه ارتفاع السعر، كان يكفى لتغطية النفقات من الفوائد. فقد لاحت له فكرة تجارية استلهمها من وحي أفكاره، وقد سيطرت عليه حتى لم يبق فى ذهنه متسع لاعتبارات أخرى. هاهى ذى فكرته: تم بيع البضاعة له معفاة من مصاريف النقل حتى تريستى، من قبل أناس عليهم أن يدفعوا نقلها من بريطانيا. فلو أنه باع حينئذ البضاعة لتجارها ذاتهم الذين سيوفرون بالتالى نفقات هذا النقل، لاستطاع أن ينتفع بسعر أفضل بكثير مما عرض عليه فى تريستى. لم يكن الأمر كذلك حقاً، لكن أحداً لم يناقشه، إرضاء له.

وارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة ما إن تم تصفية الصفقة، حيث بدا في تلك اللحظة مثل مفكر متشائم، وقال:

- لن نتحدث عنها على الإطلاق. كان الدرس غالياً بما يكفي؛ علينا الآن أن نتعلم كيف نستفيد منه.

لكنه عاد يتحدث عنها. لم يعد يتحلى بثقته القوية تلك في رفض الصفقات. وعندما أطلعت في نهاية العام على كم الأموال التي خسرتها، أخذ يهمس:

- إن سلفات النحاس اللعينة تلك تسبب لي كارثة! ما أزال أشعر بحاجة إلى أن أبرأ من تلك الخسارة!

تسبب هجر كارلا لي في غيابي عن المكتب، لم أعد أتحمّل مشاهد غرام كارمن وجويدو. كانت نظراتهما تتلاقى، وكانا يتبادلان الابتسامات في وجودي، انصرفت معبراً عن ازدرائي، وقد اتخذت قراراً في المساء في أثناء غلق المكتب دون أن أذكر لأحد عنه شيئاً. كنت أنتظر أن يسألني جويدو عن سبب هذا الابتعاد، وكنت مستعداً حينئذ لأصارحه بما كان منه. كنت قادراً على معاملته بشدة، بما أنه لم يكن يدري شيئاً على الإطلاق عن جولاتي في الحديقة العامة.

كان موقفي نوعاً من الغيرة؛ لأن كارمن كانت تبدو لي مثل كارلا بالنسبة لجويدو، كارلا أخرى أكثر وداعةً واستسلاماً. كان الحظ يحالفه أكثر مني مع المرأة الثانية أيضاً، مثلما حدث مع الأولى. ولعل ما دفعني

لأعيبه مرة أخرى، هو أن حظه ذاك كان يرجع إلى صفاته التي كنت أحسده عليها، وكنت ما أزال أراها قليلة الشأن: طلاقته التي تسرى في حياته بالتوازي مع ثقته بالعزف على الكمان. كنت على يقين في ذلك الحين من أنني تخليت عن كارلا من أجل أوجوستا. كلما كنت أذهب بعيداً بفكرى إلى هذين العامين من السعادة اللذين منحتهما لى كارلا، كان يصعب على إدراك كيف استطاعت - وهى على شخصيتها التي عرفت بها آنذاك - أن تتحملنى طوال هذا الوقت. ألم أتسبب أنا فى إهانتها كل يوم من أجل حبى لأوجوستا؟ فى حين كنت أعلم عن يقين أن جويدو يعرف كيف يستمتع بكارمن دون التفكير بأدا على الإطلاق، إن وجود امرأتين فى قلبه الطليق لا يصيبه بالتخمة. عندما كنت أقارن نفسى به، كان يبدو لى أنني برىء حقاً. لقد تزوجت من أوجوستا بلا حب، وعلى الرغم من هذا لم أقوَ على خيانتها دون أن أشعر بالألم من أجلها. ربما تزوج هو أيضاً أدا دون أن يحبها، لكننى - على الرغم من أنني لم أعد الآن أبالى بأدا على الإطلاق - كنت أتذكر الحب الذى ولّفته بداخلى، وأرى أنني لو كنت فى مكانه، وعلى قدر الحب الكبير الذى كنت أكنه لها، لكنت أكثر لطفاً تجاهها عما أنا عليه الآن.

لم يأتِ جويدو ليبحث عني. بل عدت أنا من تلقاء نفسى إلى المكتب؛ بحثاً عما يخفف عني إحساسى بملل شديد. جاء تصرفه بمقتضى شروط العقد بيننا، والتي تنص على أنني غير ملزم بمزاولة نشاط منتظم فى إدارة أعماله، وكلما تقابل معى فى البيت أو فى أى مكان آخر، كان

يظهر لى صداقته الحميمة التى اعتدتها منه، وكانت تشعرنى دائماً بالامتنان له، وبدا وكأنه نسى أنى تركت المقعد الذى اشتراه من أجلى فى ذلك المكتب شاغراً. لم يكن بيننا سوى شعور واحد بالحرص: ذلك كان من جانبى أنا. عندما عدت إلى مكانى احتفى بى، كأنما تغيب فقط ليوم واحد، عبر بحرارة عن سروره لاستعادة رفقتى مرة ثانية، وعندما سمع قرارى فى استئناف عملى، صاح:

– إذن لقد أحسنت صنعاً عندما لم أسمح لأحد أن يمس دفاترك!
وبالفعل وجدت دفتر الأستاذ والجريدة أيضاً فى المكان الذى تركتهما به.

قال لى لوتشانو:

– نأمل، وسيادتكم بيننا الآن، أن نتحرك من جديد؛ فإتنى أظن أن السيد جويدو قد وهن عزمه بسبب صفتين سعى وراءهما، وباءتا بالفشل. لا تقولوا له شيئاً عما دار بيننا، ولكن إن أردتم حاولوا أن تشدوا من أزره.

أدركت بالفعل أن العمل فى ذلك المكتب كان قليلاً؛ حيث إن الخسارة التى تكبدها من سلفات النحاس أفقدته الحياة، التى كانت تمر فيه حقاً هادئة ناعمة. وعلى الفور استخلصت من كل هذا أن جويدو لم يعد بحاجة إلى العمل لى يقود كارمن تحت إدارته، خاصة وأنه بالسرعة ذاتها، قد مضت فترة الغزل بينهما، وصارت عشيقته منذ حين.

أدهشنى احتفاء كارمن بى؛ لأنها أرادت على الفور أن تذكرنى بشىء نسيته تماماً، يبدو أنى قبل أن أغادر ذلك المكتب، جريت وراء نساء كثيرات فى تلك الأيام، حيث كان من المحال على أن أصل إلى فتاتى، وبذلك تعرضت أيضاً لكارمن. تحدثت إلى بجدية شديدة وبشىء من الارتباك: لقد أسعدتها رؤيتى ثانية؛ لأنها كانت تعتقد أنى أحب جويدو وربما كانت نصائحى مفيدة له، وكانت ترغب فى الاحتفاظ بصداقة صديقة معى، أخوية، متى وافقتها فى ذلك. قالت لى شيئاً من هذا القبيل، وصافحتنى بيمينها فى مبادرة جميلة، وعلى وجهها رائع الحسن، الذى كان يتسم بالعذوبة والوداعة، ارتسم تعبير جاد حاسم يكشف عن الأخوة المجردة بالعلاقة التى عرضتها لتوها على. فى تلك اللحظة استعدت الأحداث بذاكرتى فاحمر وجهى. ربما لو تذكرت ذلك من قبل، لما عدت إلى ذلك المكتب على الإطلاق. كان حدثاً لم يستغرق وقتاً طويلاً، وتاه وسط أحداث أخرى عديدة لها الوزن نفسه، ولو لم أتذكره حينئذ، لخل لى أنه لم يحدث قط. توالى أيام قلائل بعد هجر كارلا لى، وأخذت أتفحص الدفاتر بمساعدة كارمن شيئاً فشيئاً، ولكى أرى جيداً فى الصفحة نفسها، مررت ذراعى حول خصرها، ثم ضغطت عليه أكثر فأكثر. تخلصت كارمن منى بوثة، فغادرت عندئذ المكتب.

كان فى استطاعتى أن أدافع عن نفسى بابتسامة، وأحملها على الابتسام، فالنساء يملن كثيراً إلى الابتسام من حماقات ممائلة! كنت أستطيع أن أقول لها:

- حاولت فعل أمر لم أوفق فيه وأنا أسف عليه، ولا أحمل لك أية ضغينة، وأريد أن أكون صديقاً لك، إلى أن يروك خلاف ذلك.

أو كان من الممكن أن أجيب كذلك بجدية، وأقدم اعتذارى لها ولجويدو أيضاً:

- فلتتمسوا لى العذر، ولا تحكموا علىّ قبل أن تعلموا الحالة التى كنت عليها فى تلك اللحظة.

على عكس ذلك لقد فارقتنى الكلمات. انغلق حلقى - أعتقد ذلك - نتيجة شعور بالسخط تجمد بداخلى، ولم أستطع الكلام. هؤلاء النساء اللاتى امتنعن علىّ بحسم صبغن جميعهن حياتى حقاً بلمسة مأساوية. لم أمر مطلقاً بفترة تعسة كهذه. وبدلاً من إيجاد مخرج لم يكن بوسعى سوى أن أصرُّ بأسنانى، كان الأمر شاقاً، وكان علىّ أن أخفيه. ربما لم تسعفنى الكلمات أيضاً من الألم، عندما رأيت يئائى عنيّ، وكان علىّ أن أخفيه ذلك الأمل الذى كان مع ذلك يراودنى وعلى هذا النحو وبصورة نهائية. ينبغى الاعتراف بما يلى: لم يكن هناك أفضل من كارمن لاستبدال العشيقة التى فقدتها، تلك الفتاة التى لم تكن تشكل إلاّ خطورة بسيطة جداً، ولم تطلب منى إلا السماح لها بأن تعيش إلى جوارى إلى أن سألتنى ألاّ ترانى ثانية. إن عشيقة لاثنتين تصبح عشيقة بلا مخاطر. مما لا شك فيه أن أفكارى لم تكن واضحة لى بصورة جيدة فى ذلك الوقت، بل كنت أشعر بها فقط والآن عرفتھا. فلو كنت قد أصبحت رفيقاً لكارمن،

لأحسن صنيعةً بالنسبة لآدا، ولما ألحقت ضرراً كبيراً بأوجوستا.
ولكانت خيانتها بالتأكيد أقل عما إذا اتخذ كل منا، أنا وجويدو امرأة
كاملة له.

أعطيت إجابتي لكارمن بعد عدة أيام، لكنني إلى اليوم أخجل منها.
إن حالة الإثارة التي ألقاني فيها هجر كارلا لي كان لابد أنها أوصلتني
إلى شيء مثل ذلك. وإنني نادم على ذلك ندماً لم أشعر به على أي شيء
آخر فعلته في حياتي. فالكلمات القاسية التي تقلت منا تولدنا بشدة أكثر
من الأعمال الشائنة التي تقودنا إليها أهواؤنا. أشير بالطبع إلى
الكلمات فقط التي ليست أفعالا، لأنني على يقين من أن كلمات چاجو^(١)،
على سبيل المثال، كانت في حد ذاتها أفعالا حقيقية. لكن الأفعال، وبما
فيها كلمات چاجو، ترتكب لنحظى منها بمتعة أو منفعة، وعندئذ فإن
الجسم بكامله، بما في ذلك الجزء الذي سينصب نفسه بعد ذلك حكماً،
سيشارك فيها؛ وبالتالي سيصبح قاضياً متسامحاً بدرجة كبيرة. في
حين يتصرف اللسان الأحمق من تلقاء نفسه إرضاءً لأجزاء صغيرة في
الجسم، تشعر بدونه بالهزيمة، وتتجه نحو التظاهر بالدخول في صراع
انتهى وخسرت جولته. أريد أن يجرح أم يرغب في المداعبة، إنه يتحرك
دائماً وسط تعبيرات مجازية هائلة. وعندما تكون الكلمات حارقة فإنها
تلسع من تلفظ بها.

(١) شخصية بارزة في عطيل لشكسبير.

لاحظت أنها لم تعد تتمتع بالألوان التي عجلت بقبولها في مكتبنا .
تخيلت أنها تلاشت من جراء معاناة لم أقبل أن أتصورها، ربما كانت
جسدية، وعزوتها إلى حب جويدو؛ وذلك لأننا نحن الرجال نميل كثيراً
إلى رثاء النساء اللاتي يستجبن لآخرين. لا نرى أية فائدة يمكن أن
يجنينها منهم. ربما نستطيع أن نحب الرجل المعنى بالأمر كما حدث في
حالي - لكننا لا نريد أن ننسى كذلك كيف تنتهي في المعتاد مغامرات
الحب. شعرت إزاء كارمن بشفقة صادقة، لم أشعر قط بمثلها نحو
أوجوستا أو كارلا. قلت لها: - حيث إنك دعوتني في رقة إلى أن أكون
صديقاً لك، فهل لي بأن أقدم لك بعض النصائح؟

لم تسمح لي بذلك؛ لأنها، مثل النساء جميعهن في تلك المواقف
الحرجة، ظنت أن كل تحذير مني سيكون بمثابة اعتداء. احمرَّ وجهها
وتلعثمت قائلة: - لا أفهم! لم تقول هذا؟ وعلى الفور مباشرة، لكي
تسكتني: - عندما أكون في حاجة إلى نصائح سألجأ دون شك إلى
سيادتكم، يا سيد كوزيني.

وعلى هذا النحو لم تتح لي الفرصة أن أعظها بما أردت، وكان ذلك
خسارة بالنسبة لي. فالحديث معها عن مقصدي كان بلا شك سيوصلني
إلى درجة رفيعة من الصدق، ربما وأنا أحاول أن أخذها بين ذراعي
مرة ثانية. لم يعد صدري يضيق من رغبتني في اتخاذ مظهر المعلم
المخلص الكاذب.

أصبح جويدو لا يأتى إلى المكتب فى أيام عديدة من كل أسبوع، حيث شغف بهواية صيد البر والبحر، أما أنا، فبعد عودتى، أصبحت لبعض الوقت مداوماً عليه، وانشغلت كثيراً بتحديث الدفاتر. كثيراً ما كنت بصحبة كارمن ولوتشانو اللذين كانا يعتبراننى بمثابة رئيس عملهما. كان لا يبدو لى أن كارمن تتألم لغياب جويدو، وهى لى أنها تحبه لدرجة أنها تسعد عندما تعلم أنه يلهو. لابد أنها كانت أيضاً على علم بالأيام التى كان يتغيب فيها؛ لأنها كانت لا تخيب أى انتظار به شغف. علمت من أوجوستا أن أدا كانت فى صورة مختلفة عنها، حيث كانت تشكو بمرارة من تغيب زوجها المتكرر. بل إن تلك لم تكن شكواها الوحيدة. ومثل النساء غير المحبوبات جميعهن، كانت تشكو بنفس الانفعال أمام إهانة، كبيرة كانت أو تافهة. لم يخنها جويدو فحسب، بل كان يعزف دائماً على آلة الكمان كلما كان بالمنزل. ذاك الكمان، الذى تأملت منه كثيراً، كان أشبه بسهم أخيل لتنوع أدائه. بلغنى أنه قد مر أيضاً بالمكتب، حيث بدأ غزل كارمن بتعبيرات رائعة فى موسيقى «باربييرى»^(١). ثم غاب الكمان ثانية، حيث لم تعد هناك ضرورة له بالمكتب، وعاد إلى المنزل لينقذ جويدو من الشعور بالملل، حيث كان عليه أن يتحدث مع زوجته.

ثم لم يحدث بينى وبين كارمن شىء على الإطلاق. سرعان ما تملكنى شعور مطلق بعدم الاهتمام بها، كأنما تغيرت طبيعتها،

(١) باربييرى دى سيفيليا: ميلودراما شهيرة لروسينى (١٧٩٢-١٨٦٨).

وهو إحساس مماثل لما كنت أشعر به إزاء آدا . إحساس بشفقة متقدمة
لكلتيهما ولا شيء خلاف ذلك. كان ذاك بالتحديد!

أخذ جويدو يغمرنى بمعاملة مهذبة. أظن أنه تعلم من الشهر الذى
تركته فيه بمفرده كيف يقدرُ صحبتى. فصُحبة فتاة مثل كارمن يمكن أن
تكون محببة بين الحين والآخر، لكن لا يمكن احتمالها لأيام كاملة.
دعانى إلى الذهاب معه فى رحلات الصيد البرى والبحرى، ولأنتى أبغض
الصيد البرى رفضت بحسم أن أصاحبه إلى هناك. فى حين دفعنى الملل،
ذات مساء، إلى الذهاب معه لصيد الأسماك. ليس هناك تواصل بيننا
وبين السمك؛ ولذلك لا يستطيع أن يثير فىنا الشفقة، حتى حينما يفتح
فاه ويفلقه وهو سالم وفى مأمن تحت الماء! كما أن الموت لا يغير شكله.
فألامه، إن وجدت، توارىها تماماً قشوره. وعندما دعانى ذات يوم إلى
رحلة صيد ليلية، تذرعت بآنى سوف أرى إن أذنت لى أوجوستا بالخروج
فى ذلك المساء والبقاء خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل. قلت له
إننى أتذكر أن زورقه سينطلق من رصيف سارتوريو فى التاسعة مساءً،
وإننى متى أمكنتى الذهاب ساكون هناك، إذا ما أمكنتى ذلك؛ ومن ثم ظننت
أنه بالتاكيد قد عرف على الفور أنه لن يرانى مرة أخرى فى تلك الأمسية،
وأنتى لن أذهب إلى الميعاد كما فعلت مرات أخرى عديدة.

ولكن حدث فى ذلك المساء أن صراخ طفلى أنتونيا قد أبعدنى عن
البيت. فقد كان صراخها يزداد كلما كانت أمها تداعبها. بحثت عن أحد
أساليبي المتمثل فى الصباح بكلمات وقحة فى أذن تلك الماكرة الصغيرة

التي لا تكف عن الصراخ. وحصلت منه على نتيجة واحدة، وهي أن إيقاع صراخها قد تغير؛ لأنها أخذت تصيح من الفزع. كان على أن أبحث عن أسلوب آخر أقل شدة، لكن أوجوستا تذكرت في الوقت المناسب دعوة جويدو فاصطحبته إلى الباب، ووعدتني بأن تخذ إلى النوم بمفردها لو لم أعد إلى البيت إلا في ساعة متأخرة. بل وعدت أيضاً، لكي تصرفني بعيداً عن المنزل، بأنها سوف تتحمل تناول القهوة دون أن أكون بصحبته في صباح اليوم التالي، إذا بقيت خارجه حتى ذلك الحين. كان هناك خلاف هين بيني وبين أوجوستا - وكان الخلاف الوحيد - حول أسلوب التعامل مع الأطفال المثيرين للإزعاج: فأنا أرى أن الأم الذي يشعر به الطفل أقل أهمية من ألامنا، ويستحق أن نشعرهم به حتى نجنب الكبار إزعاجاً كبيراً، أما بالنسبة لها فيتعين علينا، بما أننا أنجبنا أطفالاً، أن نحتملهم أيضاً.

كان لدى الوقت الكافي للوصول في الموعد، فمررت على مهل بالمدينة وأنا أشاهد النساء، وفي الوقت نفسه أفكر في ابتكار آلة خاصة، من شأنها أن تمنع أي خلاف بيني وبين أوجوستا. ولكن البشرية لم تكن متحضرة بما يكفي لتحقيق آلتى تلك. كانت آلتى تصلح للمستقبل البعيد، ولم تكن لتقدر على مساعدتي إلا في أن تكشف لى لى سبب تافه كان يحدث شجار بيني وبين أوجوستا: إنه عدم وجود مجرد آلة صغيرة! إنها آلة بسيطة، أشبه بعربة ترام منزلية، مقعد صغير مزود بعجلتين وسكة حديدية تمضى طفلى عليه يومها: ثم زر كهربائى متى ضغط عليه يجرى

المقعد بعيداً والطفلة به، وهى تصرخ حتى تصل إلى أبعد مكان بالمنزل، حيث يتخافت صوتها من هذا البعد، إلى أن يبدو لنا مقبولاً. ونمكث أنا وأجوستا معاً فى راحة وتعاطف.

كانت ليلة زاخرة بالنجوم وخالية من القمر، ليلة من تلك الليالى التى نرى فيها بعيداً جداً على مرمى البصر، فهى ليلة هادئة تبعث الطمأنينة. تأملت النجوم التى شعرت أنها ما زالت تحمل أثر نظرة وداع والدى وهو يحتضر. تخيلتها تنقضى تلك الفترة المكروهة التى يتسخ فيها أطفالى ويصرخون. رأيت أنهم قد يشبهوننى، وسأحبهم بما يقتضى الواجب ودونما عناء. فى الليل البديع الرحب سكنت نفسى تماماً دون حاجة إلى عقد أية نيات.

عند زاوية رصيف سارتوريو كانت الأضواء قادمة من المدينة يقطعها منزل قديم تبرز منه الزاوية ذاتها التى تدخل فى أساساته. كان الظلام حالكاً، وكانت المياه العالية الداكنة الهادئة تبدو لى فى حالة استرخاء.

لم أعد أنظر إلى السماء ولا البحر. كانت هناك على بعد خطوات قليلة منى سيدة أثارت دهشتى بحذائنها المطلقى الذى لمع للحظة فى الظلمة الدامسة. فى ذلك الحيز الضيق من الوقت وفى ظلام الليل، خلت تلك المرأة طويلة القامة وربما الأنيقة أيضاً، فى حجرة معى. فالمغامرات الأكثر متعة ربما تُصادفها عندما لا نفكر بها كثيراً، وعندما رأيتهما فجأة تدنو عُمداً تملكنى للحظة إحساس ممتع للغاية، وسرعان ما تلاشى

عندما سمعت صوت كارمن ذا البحة. كانت ترغب في التظاهر بالسرور،
عندما علمت أنني أنضم إلى جماعتهم. لكن في دجنة الليل وبينبرة الصوت
تلك لم تكن هناك إمكانية للتظاهر.

قلت لها بجفاء:

- لقد دعاني جويدو. لكن إذا شئتم فإن لدى أشياء أخرى أقوم
بها، وأدعكم وشأنكم!

احتجت، وقالت إنها على العكس سعيدة لرؤيتي مرة ثالثة في ذلك
اليوم. أخبرتني أن أعضاء المكتب جميعهم سيلتقون في ذلك الزورق؛
حيث يأتي أيضاً لوتشانو. الويل لصفقاتنا لو غرق الزورق! قالت لي إن
لوتشانو معهم أيضاً، حتماً لتقييم الدليل على براءة اللقاء: ثم أخذت تتثرثر
بذلاقة لسانها، في بادئ الأمر قالت لي إنها المرة الأولى التي تذهب فيها
مع جويدو للصيد، ثم اعترفت أنها المرة الثانية. استرسلت لتقول إنه
يسرُّها أن تجلس في «قاع» الزورق، فأدهشني أنها تعرف ذلك المصطلح؛
ومن ثم أرادت أن تعترف لي أنها تعلمته في المرة الأولى التي خرجت
فيها للصيد مع جويدو.

- في ذلك اليوم - أضافت لكي تكشف عن البراءة التامة بالجولة
الأولى تلك - ذهبنا لصيد سمك الماكريل، ولم نصطد الدنيس. وكان ذلك
في الصباح.

أمر مؤسف أنني لم أتل الوقت الكافي لأجعلها تقصُّ أكثر من
ذلك، حتى أتمكن من معرفة كل ما يهمني، حيث ظهر زورق جويدو وسط

ظلمة منطقة ساكّتا، واندفع نحونا بسرعة. أخذ الشك يتتابنى. ألم يكن على أن أبتعد منذ اللحظة التي جاءت فيها كارمن؟ ربما لم يكن فى نية جويدو مطلقاً أن يدعو كلينا معاً؛ حيث أذكر أننى رفضت تقريباً دعوته. فى غضون ذلك رسا القارب، وبثقة شبابها حتى فى الظلام الدامس، نزلت به كارمن، وأهملت أن تستند إلى يد لوتشانو الذى كان يمدّها لها. صاح جويدو، عندما ترددت، قائلاً:

- لا تُضِعْ وقتنا!

وبوثبة قفزت أنا أيضاً داخل القارب. كادت وثبتى تكون لا إرادية: نتيجة لصراخ جويدو. كنت أنظر إلى الأرض اليابسة برغبة شديدة، لكن لحظة تردد واحدة كانت كافية لتمنعنى من النزول من القارب. أفضى بى الأمر إلى أن جلست عند مقدمة القارب الصغير. عندما اعتدت على الظلمة، رأيت فى المؤخرة، جويدو يجلس فى مواجهتى، وعند قدميه تجلس كارمن بالقاع الخشبى. كان يفصل بيننا لوتشانو، الذى كان يبحر بنا. لم أكن أشعر باطمئنان أو بارتياح كبير فى الزورق الصغير، لكن سرعان ما تعودت عليه، وتأملت النجوم التى سكّنت من روعى مرة أخرى. حقاً لم يكن جويدو ليخاطر بخيانة أدا فى حضور لوتشانو - وهو خادم وفى لأسرة أزواجنا - وبالتالي لم يكن هناك ضرر أن أبقى معهم. كانت رغبتى شديدة فى الاستمتاع بتلك السماء، وذلك البحر وبالسكون الفسيح. لو ساورنى شعور بالأسف على ذلك ومن ثم بالمعاناة، لكان الأجدر بى أن أبقى فى منزلى لأتعب من الصغيرة أنتونيا.

لقد ملأ الهواء الليلي الطلق رثتى، وأدركت أننى أستطيع أن أجد سلواى مع جويدو وكارمن، اللذين كنت حقاً أشعر نحوهما بودّ صادق.

مررنا أمام المنار، ووصلنا إلى عرض البحر. على بعد ميل منّا كانت تبرق أضواء زوارق شراعية عديدة؛ لقد كانوا ينصبون هناك فخاخاً أخرى كثيرة للسماك. ومن بانيوميليتارى - وهو بناء ضخّم قوى، أعمدته قائمة اللون - أخذنا نتحرك جيئةً وذهاباً بطول ساحل سانتاندرىا، وهو المكان الذى يؤثره الصيانون. كانت قوارب أخرى عديدة تتحرك بالقرب منّا، وبنفس طريقتنا فى هدوء. أعدّ جويدو ثلاث صنانير وطعم كل صنارة بجمبرى صغير الحجم مثبت من ذيله. أعطى كل واحد منّا صنارة وقال إن صنارتي، عند المقدمة - وهى الوحيدة المزودة بثقالة رصاصية - وسوف يفضلها السمك. فى الظلام الحالك لمحت الجمبرى بذيله الذى نفذ فيه الشص كغمد السيف وهينى إلى أنه يحرك ببطء الجزء العلوى لجسمه، ذلك الجزء الذى لم يتحول إلى جراب له. بدا لى من هذه الحركة وكأنه مغرق فى التفكير وليس متوجعاً من الألم. ربما ما يسبب الألم فى الأجسام الكبيرة يتضاؤل فى الصغيرة إلى الحد الذى يصبح فيه تجربة جديدة، حافزاً للتأمل. أنزلته فى الماء، وأخذت أنزله فيه عمق عشر أذرع كما أخبرنى جويدو. أنزل كارمن وجويدو من بعدى صنارتيهما. فى تلك اللحظة كان جويدو لديه أيضاً عند المؤخرة مجداف يدفع به القارب بالمهارة اللازمة حتى لا تتشابك الصنانير. ويبدو أن لوتشانو لم يكن معداً بعد لقيادة القارب بتلك البراعة،

فضلاً عن أنه كانت عليه مهمة الشبكة الصغيرة ليرفع السمك المعلق بالصنارة من على سطح الماء، ظلّ لوقت طويل دون أن يجد ما يعمله. كان جويدو يثرثر كثيراً، من يدرى ربما لم يولع بكارمن إلا بدافع شغفه بالتعليم وليس من دافع الحب، كنت أودُّ ألاّ أستمع إليه حتى أعاود التفكير فى الحيوان الصغير الذى أعرضه لشراسة الأسماك، وهو معلق فى الماء ليجذب نحوه السمك بصورة أفضل بإيماءات رأسه الصغير، ذلك إذا ما استمر أيضاً فى إيماءاته تحت الماء، لكن جويدو نادى على مرّات كثيرة وكان علىّ أن أستمع إلى نظريته فى الصيد. سيلمس السمك الطّعم أكثر من مرة وسنشعر به، لكن علينا أن نحذر فى جذب الصنارة إلاّ عندما يكون خيطها مشدوداً، وعندئذ علينا أن نكون مستعدين للشدة التى سوف تغرز الصنارة تماماً فى فم السمك، كان جويدو مسهباً، كعادته، فى إيضاحاته، كان يريد أن يفسّر لنا بوضوح ما ستحسه أيدينا، عندما يشم السمك الصنارة وبها الطعم. وأخذ يواصل عملية الشرح فى حين كنّا نعرف، عن خبرة سابقة، أنا وكارمن وقع الذبذبات التى تكاد تكون صوتية على اليد فى كل تعامل مع الصنارة. كان علينا أن نسحب الصنارة مرات كثيرة لتغيير الطعم. وانتهى الأمر بالحيوان الصغير المفكّر إلى أن استسلم فى شدة سمكة من الأسماك الماهرة التى تتقن تجنب الصنارة.

كان على متن القارب بعض زجاجات البيرة والسندوتشات. أخذ جويدو يُضفى على كل ذلك ثرثرته التى لا تنتهى، فى تلك الأثناء كان

يتحدث عن الثروات الضخمة التي ترقد داخل البحر، لم يكن الأمر يتعلق، مثلما اعتقد لوتشانو، بالأسماك أو بالثروات التي أغرقها فيه الإنسان. هناك الذهب في مياه البحر ذائباً، وفجأة تذكر أنني قد درست الكيمياء، فقال لي:

– وأنت أيضاً لابد أنك تعرف شيئاً عن هذا الذهب.

لم أكن أتذكر عنه الكثير، لكنني أومأت برأسي بالموافقة، وخاطرت بإبداء ملاحظة لم أكن واثقاً من مصداقيتها. أدليت بها قائلاً:

– إن تكلفة استخراج ذهب البحر هي أعلى التكاليف، وللحصول على مقدار نابليون واحد من ذلك الذهب الراقد هنا ذائباً في مياه البحر، ينبغي إنفاق قيمة خمس من تلك العملة.

بعد أن كان لوتشانو ملتفتاً إليّ في لهفة ليسمع منّي التأكيد بالثروات التي كنّا نسبح عليها، استدار عنيّ وقد خاب أمله. ما عاد يبالي بذلك الذهب. في حين صدّق جويدو على ما قلته بأن تذكر أن سعر الذهب ذاك كان يعادل بالضبط خمسة أضعاف، مثلما قلت أنا بالفعل. أخذ يمتدحني على نحو صريح مؤكداً الرأي الذي أدليت به، وكنت أعلم أنه من وحي خيالي. كان واضحاً أنه كان يشعر بأنني قليل الخطر، ولم يكن بداخله ثمة ظل من غيرة من أجل تلك المرأة التي كانت مستلقية عند قدميه. وفي لحظة فكرت في أن أضعه في حرج، فأصرّح له بأنني تذكرت حينئذ جيداً أنه يكفي ما قيمته ثلاث عملات، أو أنه يلزم ما يصل إلى عشرة لكي نستخرج من البحر نابليوناً واحداً.

واسترعت انتباهي في تلك اللحظة صنارتي التي جذبتها بغتة شدة قوية، فسارعت بشدها أنا أيضاً وصحت. جاء جويدو بوثة واحدة بالقرب مني وأخذ الصنارة من يدي. تركتها له عن طيب خاطر. أخذ يجذبها إلى أعلى، بسحبات هينة أولاً، ثم بشدات أقوى جذبها، عندما قلت المقاومة. ورأينا جسم الحيوان الفضى الضخم يتلأل في الماء الداكن. كان حينئذ يجري خلف ألامه بسرعة ودون مقاومة؛ لهذا أدركت أيضاً ألام الحيوان الصامت، التي كانت تصرخ بها تلك العجلة في جريه نحو الموت. وسرعان ما وجدته يفتح فاه ويفلقه عند قدمي. جذبه لوتشانو بالشبكة من الماء، ويعد أن انتزعه من الشبكة، ودون مراعاة له، نزع الشص من فمه.

جس لوتشانو السمكة الضخمة قائلاً:

— سمكة دنيس تزن ثلاثة كيلوجرامات!

ووسط إعجابه بها قدر الثمن المطلوب في سوق السمك حال شرائها. ثم نبهنا جويدو إلى أن المياه هادئة في تلك الساعة، وسيصعب صيد أسماك أخرى. قال إن الصيادين يرون أن السمك لا يأكل، عندما لا ترتفع مياه البحر ولا تهبط، وبالتالي لا يمكن صيده. أخذ يتفلسف حول الخطر الذي يجابهه الحيوان وينجم عن شهيته. ثم أخذ يضحك، دون انتباه منه أنه يعرض نفسه للحر، قائلاً:

— أنت الوحيد الذي استطعت أن تصطاد هذا المساء.

كانت ضحيتى لا تزال تتخبط داخل القارب، فى اللحظة التى صرخت فيها كارمن. سأل جويدو دون أن يتحرك وبرغبة شديدة فى الضحك يعبرٌ عنها صوته:

– سمكة دنيس أخرى؟

أجابت كارمن وهى مضطربة:

– كنت أعتقد هذا! لكنها قد تركت الصنارة!

أنا على يقين أنه قد قرصها، عندما تملكته منه رغبته.

عندئذ بدأت أشعر بعدم الارتياح فى ذلك القارب، لم تعد لدى رغبة فى تجهيز الصنارة، بل كنت أحركها بحيث لا تتمكن الحيوانات المسكينة من ابتلاع الطعام. صرحت بأن النعاس قد غلبنى، ورجوت جويدو أن ينزلنى بسانتاندرىا. ثم حرصت على أن أزيل عنه الشك فى أن انصرافى ينجم عن انزعاجى بما تكشف لى من صراخ كارمن، فأخبرته بالحالة التى كانت عليها طفلتى فى تلك الليلة، ورغبتى فى التأكيد أنها على ما يرام.

بدمائته المألوفة، دنا جويدو من الشاطئ. قدم لى السمكة التى اصطدتها، لكننى أبیت، واقتربت أن يهبها الحرية ثانيةً ويلقى بها فى البحر، الأمر الذى دفع لوتشانو للصياح محتجاً، فى حين قال جويدو فى هدوء:

– لو كان بإمكانى أن أعيد لها الحياة والصحة من جديد لفعلت.

لكنها المسكينة فى هذه الساعة لا تنفع إلا طعاماً فى طبق!

تابعتهما بعيني، وتمكنت من التأكد من أنهما لم يستفيدا من المساحة التي أفسحتها وأنا أترك القارب. كانا على ما يرام يجلسان متلاصقين، وانطلق القارب وقد ارتفعت مقدمته بعض الشيء بسبب زيادة الثقل بمؤخرته.

بدا لي عقاباً إلهياً عندما علمت أن الحمى قد أصابت طفلتى. ألم أتسبب فى مرضها، عندما تظاهرت أمام جويدو بقلقى على صحتها، ولم أكن أشعر به؟ لم تكن أوجوستا قد خلدت إلى نومها بعد، لكن الطبيب باولى كان بالبیت قبل وصولى بقليل، وقد طمأنها بأنه على يقين أن الحمى المفاجئة الشديدة لا تنبئ بمرض خطير. مكثنا طويلاً نتأمل أنتونيا التى كانت ترقد مسترخية فى مهدها، ووجهها الصغير وقد جفت بشرته وزادت حمرة، يطل من بين خصلات شعرها البنى المتفرقة. لم تصرخ، بل كانت تتنن بين الحين والحين، أنيناً قليلاً يقطعه نوحاس ويتغلب عليه. يا إلهى! كم قريبها الممرض منى. تمنيت أن أهبها من حياتى لأنجيتها من كرب أنفاسها. كيف أتخلص من ندمى؛ لأننى ظننت أنى قادر على ألا أحبها، فضلاً عن الوقت الذى أمضيته بعيداً عنها مع تلك الصُحبة، عندما كانت هى تعاني من الألم؟

- إنها تشبه آدا! قالت أوجوستا وهى تنخرط فى البكاء. حقاً كانت تشبهها! أدركنا ذلك للمرة الأولى فى تلك اللحظة، وأخذ التشابه يزداد وضوحاً رويداً رويداً، إلى أن كبرت أنتونيا، حتى إننى كنت أشعر أحياناً برجفة فى قلبى، عندما كنت أفكر أن مصيرها ربما يماثل مصير المسكينة التى تشبهها.

ذهبنا إلى مضجعنا، بعد أن وضعنا فراش الصغيرة بجوار أوجوستا. لكن النوم استعصى عليّ؛ لقد كان قلبي ضائقاً مثل تلك الليالي التي كانت تنعكس فيها زلاّتي التي كنت أقترفها في النهار في صورة خيالات ليلية مفعمة بالألم والندم. كان مرض طفلي يؤثر في نفسي كأنما تسببت فيه. قاومت! كنت بريئاً وأستطيع الكلام، وأن أقول كل شيء. وقد فعلت. قصصت على أوجوستا اللقاء مع كارمن، والمكان التي كانت تجلس فيه بالقرب، فضلاً عن صرختها التي تشككت في أنها كانت نتيجة لداعية عنيفة من قبل جويدو، وأنّي لم أكن على يقين من ذلك كله. لكن أوجوستا كانت واثقة منه. وإلاّ فلماذا، بعد ذلك مباشرة، تغير صوت جويدو وهو يضحك؟ حاولت أن أخفّف من اقتناعها، لكنّي بعد ذلك كنت ما أزال بحاجة إلى أن أحكي. أدليت باعتراف آخر فيما يخصني، ووصفت شعوري بالملل الذي دفع بي خارج المنزل، وندمت على عدم حب أنتونيا بصورة أفضل. في الحال أحسست بتحسن وخلدت إلى نوم عميق.

في صباح اليوم التالي، تحسنت صحة أنتونيا؛ تكاد تكون برئت من الحمى. كانت تترقد ساكنة وأنفاسها هادئة، لكنها كانت شاحبة ومتعبة، كأنما أضناها مجهود فائق على جسمها الصغير؛ كان واضحاً أنها قد عادت ظافرة من معركة قصيرة. وفي أثناء الهدوء الذي شعرت به أنا أيضاً، تذكرت وأنا أتألم أنّي قد عرضت جويدو لشبهة منفرة؛ فأردت أن أحصل على وعد من أوجوستا ألاّ تخبر أحداً بشكوكي.

اعترضت على أن الأمر يتعلق بشبهات، وإنما بما هو واضح ومؤكد،
الأمر الذى أنكرته، دون أن أفصح فى إقناعها. ثم وعدتني بكل ما رغبت
فيه، فانصرفت إلى المكتب فى اطمئنان.

لم يكن جويدو قد وصل بعد، وحكت لى كارمن أن الحظ حالفهما
بعد رحيلى؛ فاصطادا سمكتين، أقل حجماً من سمكتى، لكن وزنهما كبير.
لم أرغب فى تصديق ما قالت، وظننت أنها إنما أرادت أن تقنعنى أنهما
بعد مغادرتى القارب قد تركا ما كانا يفكران فيه ويترقبانه مادمت معهم.
ألم تكن مياه البحر ساكنة؟ إلى متى بقيا فى عرض البحر؟

دفعت كارمن، لى تقنعنى، لوتشانو ليؤكد أيضاً صيد السمكتين،
ومن تلك اللحظة انتبهت إلى أن لوتشانو قادر على عمل أى شىء
ليسترضى جويدو.

إلا أنه فى أثناء فترة الهدوء الحاملة التى سبقت صفقة سلفات
النحاس حدث أمر غريب إلى حد ما فى ذلك المكتب لا أستطيع نسيانه،
سواء لأنه يبرز اعتداد جويدو بنفسه الذى يفوق الحد، أو لأنه يضعنى
فى ضوء يصعب على فيه التعرف على نفسى.

ذات يوم كنا نحن الأربعة فى المكتب، وكان الوحيد بيننا الذى
يتحدث عن الصفقات، كعادته، هو لوتشانو. ومن كلماته طرق سمع
جويدو أشبه بلوم صعب عليه تحمله فى حضور كارمن. وكان يشق عليه
بالمثل أن يدافع عن نفسه؛ لأن لوتشانو كان لديه الأدلة على صفقة

أوصى بها قبل شهر ورفضها جويدو، وقد انتهت بتقديم أموال كثيرة لمن تكفل بها. أفضى الأمر بجويدو إلى أن صرّح بأنه يزدري التجارة، مؤكداً أنه إن لم يكن الحظ قد حالفه في مجال التجارة؛ سيعثر على الوسيلة التي تجلب له المال بمزاولة أنشطة أخرى أفضل بكثير، آلة الكمان، على سبيل المثال. كانوا جميعاً متفقين معه وأنا أيضاً، ولكن ببعض التحفظ:

– بشرط أن تدرسه دراسة مستفيضة.

استاء من تحفظي، ورد في الحال بأنه إذا كان الأمر يتعلق بالدراسة فإنه كان باستطاعته حينئذ أن يقوم بأشياء أخرى كثيرة مثل الأدب. وفي هذه المرة أيضاً وافقه الجميع، وأنا أيضاً، لكن في شيء من التردد. لم أكن أتذكر جيداً ملامح شخصيات أدبائنا العظماء، وأخذت أستحضرها، حتى أعرّضت على واحدة منها تشبه جويدو. في تلك اللحظة صاح:

– أترغبون في قصص خرافية جيدة؟ سأرتجل لكم بعضاً منها مثل إيسوبو!

ضحك الجميع، إلا هو. أخذ الآلة الكاتبة، وفي سلاسة، كأنما يمليه أحد وهو يكتب نسج القصة الأولى بحركات تفوق ما يتطلبه عمل له فائدة على الآلة. وسرعان ما مد يده بالورقة للوتشانو، لكنه عدل عن رأيه، فأخذها ثانية وأعادها إلى الآلة، وكتب قصة أخرى، لكن هذه الأخيرة

أرهقته أكثر من الأولى، حتى إنه نسي الاسترسال في حركات التظاهر بالاستلها، وكان بحاجة إلى تصحيح ما كتبه مرات عديدة. ومن ثم فأننا أعتقد أن القصة الأولى لم يؤلفها هو، في حين أن الثانية جاءت بالفعل من وحى خياله، وهي تتم عنه. كانت القصة الأولى تحكى عن طائر أدرك أن نافذة قفصه الصغيرة ظلت مفتوحة. في بادئ الأمر فكر في أن ينتهز الفرصة ليطير بعيداً، لكنه بعد ذلك بدّل رأيه خشية أن يفقد حرّيته إذا ما انغلقت النافذة في أثناء غيابه. كانت القصة الثانية تتحدث عن فيل وكانت بالفعل مثل الفيل. كان الحيوان الضخم يعاني من وهن في ساقيه، فذهب ليستشير رجلاً، وهو طبيب مشهور، فصاح ذلك الأخير عندما رأى تلك الأعضاء الهائلة: - لم أرَ في حياتي قط ساقين بمثل هذه القوة.

لم يتأثر لوتشانو بالقصتين؛ لأنه لم يفهمهما أيضاً. أخذ يضحك كثيراً، بل كان واضحاً أنه كان يرى من العبث عرض شيء كهذا للإتجار به. ثم ضحك أيضاً باستمتاع عندما فسرنا له أن الطائر كان يخشى أن يحرم من حرّيته في العودة إلى القفص، وأن الرجل كان معجباً بساقى الفيل على الرغم من ضعفهما. لكنه سأل بعد ذلك:

- كم ستربح من قصتين كهاتين؟

أجاب جويدو في ترفع:

- متعة أنني كتبتهما، فضلاً عن أموال كثيرة، إذا رغبت في تأليف العديد منها.

وقد تأثرت كارمن من شدة الانفعال. طلبت الإذن بنسخ القصتين، وشكرت جويدو، وهي ممتنة، عندما قدم لها الورقة التي كتبها هدية بعد ما وقّع عليها أيضاً بالقلم.

ماذا كان شأني بهذا؟ لم يكن لدى ما يجعلني أدخل في صراع بسبب إعجابي بكارمن التي، كما قلت، لم أكن أبالي بها. لكن وأنا أتذكر سلوكي، يجب أن أصدق أن أية امرأة يمكن أن تدفع بنا إلى الصراع حتى ولو لم تدخل في إطار رغبتنا. ألم يتقاتل بالفعل أبطال القرون الوسطى كذلك من أجل نساء لم يروهن قط؟ في ذلك اليوم حدث لي أن الآلام الواخزة في جسدي البائس احتدت فجأة، واعتقدت أنني لن أستطيع أن أسكنها إلا بالدخول في نزال مع جويدو بتألفي أيضاً لقصص خيالية على الفور.

طلبت أن يحضروا الآلة الكاتبة وبالفعل ارتجلت. الحقيقة أن القصة الأولى التي كتبتها، كانت بداخلي قبل أيام عديدة. وقد ألفت عنواناً لها: «أنشودة الحياة». ثم، بعد تأمل وجيز، كتبت أسفل منه: «حوار». بدا لي أن ترك الحيوانات تتحدث أكثر سهولة من وصفها. وعلى هذا النحو كان ميلاد أول قصة لي ذات حوار قصير:

الجمبري الصغير المفكر: الحياة جميلة، لكن ينبغي توخي الحذر في المكان الذي نجلس فيه.

سمكة الدنيس، وهي تهرول إلى طبيب الأسنان: الحياة جميلة، لكن ينبغي فيها القضاء على تلك الحيوانات الصغيرة الشريرة الخائنة، التي تخفي المعدن المسنون في لحمها اللذيذ.

فى تلك الأثناء كان على أن أكتب القصة الثانية، لكننى كنت بحاجة للحيوانات، نظرت إلى الكلب الذى كان يرقد فى ركنه وينظر إلى هو أيضاً. تذكرت شيئاً من هاتين العينين الخجولين؛ قبل أيام قلائل عاد جويدو من رحلة صيد مملوءاً بالبراغيث، وذهب إلى غرفة المخزن بمكتبنا لينظف نفسه. فى تلك اللحظة لاحظت لى القصة فى الحال وكتبتها بيسر: «يحكى أن أميراً لسعته براغيث كثيرة؛ فدعا الآلهة أن تعاقبه ببرغوث واحد، كبير وشره، لكن واحد فقط، وأن يوجهوا الباقي إلى أناس آخرين. لكن ما من برغوث قبل أن يبقى وحيداً مع ذلك الرجل الأبله، فكان عليه أن يحتفظ بها كلها».

فى تلك اللحظة حسبت قصتى رائعتين. فالأفكار التى تخرج من عقولنا محببة إلى النفس بدرجة كبيرة، وخاصةً عندما يتم تحليلها بمجرد أن تولد. حقيقة أن الحوار الذى كتبه يروق لى إلى الآن، وقد قمت بجهد كبير فى تأليفه. إن أنشودة الحياة على لسان المحتضر شيء لطيف جداً من أجل أولئك الذين ينظرون إليه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وإنه حقيقة أيضاً أن كثيراً من المحتضرين يبددون أنفاسهم الأخيرة ليقولوا ما يظنونه سبب وفاتهم، رافعين بذلك أنشودة لحياة الآخرين، الذين سيتمكنون من تجنب ذلك الحادث. فيما يخص القصة الثانية لا أرغب فى الحديث عنها، وجويدو نفسه علق عليها ببراعة وصاح ضاحكاً:

- إنها ليست قصة خرافية، بل هى أسلوب تصفنى من خلاله بالحماسة.

ضحكت معه وهدأت على الفور ألامى التى دفعت بى إلى الكتابة.
ضحك لوتشانو عندما وضحت له ما كنت أبغى قوله، ورأى أن أحداً لن
يدفع شيئاً لقصصى ولا لقصص جويدو. أما قصتى فلم تعجبا كارمن،
التى نظرت إلى نظرة سيئة متفحصة، نظرة جديدة حقاً بالنسبة لهاتين
العينين، وقد فهمتها كأنما كانت كلمة قالتها:

– أنت لا تحب جويدو!

شعرت منها بالفعل باضطراب؛ لأنها لم تخطئ دون شك فى تلك
اللحظة. رأيت أنى أخطأت حينما تصرفت كأنما لا أحب جويدو، أنا الذى
كنت أعمل من أجله دون انتظار لمنفعة. كان على أن أنتبه إلى أسلوبى
فى التصرف.

قلت لجويدو فى هدوء:

– يسعدنى الإقرار بأن قصتيك أفضل من قصتى، لكن ينبغى القول
إنهما أول ما كتبت فى حياتى.

فأجابنى فى عناد:

– ألعك تعتقد أننى ألفت غيرهما؟

هدأت نظرت كارمن، ولكى أحظى منها بنظرة أكثر رفقا،
قلت لجويدو:

– لديك، بلا شك، موهبة خاصة فى تأليف القصص الخيالية.

غير أن مجاملتي أضحكتهما، وفورهما مباشرة ضحكت أنا أيضاً،
لكن بصفاء قلب منّا جميعاً؛ حيث كان واضحاً أنّي كنت أتحدث دون
أية نية سيئة.

إن صفقة سلفات النحاس ولدت جدية كبيرة في مكتبنا؛ فلم يكن
هناك وقت للحكايات. كل الصفقات تقريباً التي كانت تُطرح علينا في تلك
الفترة كنّا نقبلها. جلب بعضها لنا أرباحاً، لكنها قليلة؛ وبعضها الآخر
جلب خسائر، لكنها كبيرة. كان عيب جويدو الرئيسى أنه كان حريصاً
بشكل غريب، مع أنه كان عظيم الكرم بعيداً عن الصفقات. عندما كانت
صفقة من الصفقات يجدها جيدة، كان يتمها في عجل، متلهفاً للحصول
على الريح الضئيل الذي يعود عليه منها. في حين كان عندما يجد نفسه
متورطاً في صفقة لا يتخذ أبداً قراراً بالانسحاب بدلاً من التأجيل إلى
الوقت الذي يضطر فيه إلى السداد من جيبه الخاص. من أجل هذا أظن
أن خسائره كانت جسيمة دائماً وأرباحه ضئيلة. إن خصال التاجر ما
هى إلا محصلة جسده كله، من أطراف شعره حتى أظافر قدميه. هناك
كلمة عند اليونان ربما تناسب جويدو: «داهية أحمق». كان حقاً مأكراً،
لكنه بالفعل كان أيضاً أبله. كانت لديه حيلة كبيرة لم تفده في شيء
سوى تشحيم المنحدر الذي كان يزداد انزلاقه إلى أسفل.

وتزامناً مع صفقة سلفات النحاس باغته ميلاد التوأمين. كان انطباعه
الأول مفاجأة بعيدة عن السعادة، لكن فور أن أبلغنى بالخبر، أطلق عبارة
فكاهية أضحكتنى كثيراً، وبناء عليه، وقد سعد بتأثير الفكاهة على،

لم يتمكن من الاحتفاظ بعبوس وجهه. كان أن ربط ميلاد الطفلين بقدر
الستين طناً من السلفات، فقال:

- حُكِمَ على أن أعمل بالجملة!

ولكى أخفف عنه قلت له إن أوجوستا تحمل طفلاً للمرة الثانية وإنها
فى الشهر السابع وإننى سرعان ما أبلغ حملته فيما يتعلق بمسألة
الأطفال. وعلى الرغم من هذا أجاب بذكاء:

- بالنسبة لمحاسب جيد مثلى، لا يبدو الشئ نفسه!

وبعد أيام قلائل ، ولفترة من الوقت قد استحوذ عليه حب كبير
للطفلين. أخبرتنى أوجوستا، التى كانت تمضى جزءاً من النهار عند أختها،
أنه كان يكرس لهما بضع ساعات كل يوم. كان يداعبهما ويهددهما،
وكانت أدا ممتنة له على ذلك كثيراً، حتى إنه بدا ازدهاراً لحب من جديد
بين الزوجين. فى تلك الأيام دفع مبلغاً من المال ضخماً بعض الشئ
لشركة تأمين، لكى يوفر لأبنائه ثروة صغيرة عندما يبلغون العشرين.
أتذكر ذلك؛ لأننى قيّدت ذلك المبلغ فى حسابه المدين.

دعيت أنا أيضاً لرؤية التوأمين؛ بل أبلغتنى أوجوستا أنى أستطيع
أن أهنى أيضاً أدا، التى لم تتمكن من مقابلتى؛ لأنها كانت تلزم الفراش
رغم مضى عشرة أيام بعد الولادة.

كان الرضيعان يرقدان فى مهدين فى حجرة صغيرة ملاصقة لغرفة
نوم الأبوين. صاحت على أدا من فراشها:

- تزينو، هل هما جميلان؟

أدهشتنى نبرة ذلك الصوت، وقد بدا لى أكثر عذوبة: كانت صرخة حقيقية؛ لأننى أحسست فيها بمجهود، لكنها بقيت عذبة للغاية. من المؤكد أن وداعة ذلك الصوت كانت صادرة من الأمومة، لكنى تأثرت بها لأننى اكتشفتها خاصة عندما وُجِّهت لى. تلك العذوبة أشعرتنى كأنما لم تدعنى أدا باسمى الأول وحسب، بل سبقتة أيضاً ببعض صفات حانية مثل «عزيزى» أو «أخى»! أحسست منه بامتتان كبير وصرت طيباً وودوداً. أجبت بسعادة:

– رائعان، غاليان، متشابهان، معجزتان، فى حين كنت أجدهما صغيرين هزيلين وشاحيين. كانا يصرخان معاً فى غير اتفاق.

سرعان ما عاد جويدو إلى حياته المعتادة. ففى أعقاب صفقة السلفات أصبح أكثر مواظبة على الحضور إلى المكتب، لكن فى يوم السبت من كل أسبوع، كان يخرج للصيد، ولا يعود إلا صباح يوم الاثنين فى وقت متأخر ليلقى بالكاد نظرة على ما يجرى فى المكتب قبل الإفطار. فى المساء كان يذهب لصيد السمك، وغالباً ما كان يقضى الليل فى عرض البحر. كانت أوجوستا تحكى لى عن استياء أدا، التى كانت تعاني منه إلى جانب شعورها بالغيرة الشديدة، وشكواها من بقائها وحيدة لساعات كثيرة طوال اليوم. كانت أوجوستا تحاول أن تسكُن من روعها، وهى تؤكد لها أنه ليست هناك نساء برحلات صيد البر أو البحر. على الرغم من هذا علمت أدا – لم ندرى ممن – بأن كارمن كانت فى بعض الأحيان تصاحب جويدو أثناء ذهابه لصيد السمك. اعترف لها

جويدو فيما بعد، وأضاف أنه ليس هناك في ضرر في مجاملة يعامل بها إحدى الوظائف التي تفيده كثيراً. ثم ألم يكن لوتشانو دائم الحضور معها؟ وانتهى به الأمر إلى أن وعدها بالأيدعوها مرة أخرى، عندما وجد أن هذا يسىء إليها. صرّح بأنه لا يعتزم التخلّى عن صيده البرى الذى كان يكلفه المال الكثير ولا عن صيد الأسماك. قال إنه كان يعمل كثيراً (وفى تلك الفترة بالفعل كانت هناك أعمال كثيرة فى مكتبنا)، ويرى أنه فى حاجة إلى قسط من الراحة. لم تكن أدا توافقه فى الرأى، وكان يبدو لها أن التسلية الكبيرة سيجدها وسط الأسرة، ولاقت فى هذا الأمر تأييداً مطلقاً من أوجوستا، فى حين كنت أراها تسلية صخب نغمها يفوق الحد.

عندئذ صاحت أوجوستا:

– وأنت، ألسنت بالبيت كل يوم كما يجب؟

كانت هذه حقيقة، وكان على أن أقرّ بوجود اختلاف كبير بينى وبين جويدو، لكننى ما أردت التفاخر بذلك. قلت لأوجوستا وأنا أداعبها:

– الفضل يرجع إليك؛ لأنك مارست أساليب حاسمة فى التربية.

من جانب آخر كانت الأمور تزداد سوءاً كل يوم بالنسبة لجويدو: فى البداية كان هناك طفلان، ومع ذلك كانت هناك مرضعة واحدة؛ حيث كان من المنتظر أن ترضع أدا أحدهما. ولكنها لم تتمكن من ذلك، وكانا بحاجة إلى مرضعة أخرى. وكلما أراد جويدو أن يضحكنى،

كان يجوب المكتب ذهاباً وإياباً وهو يدندن لحناً بهذه الكلمات: زوجة... طفلان... مرضعتان!

كان هناك شيء تمقته آدا بوجه خاص: وهو آلة كمان جويدو. كانت تتحمل صراخ طفليها، لكن كانت تعاني بصورة مفرزة من صوت الكمان. لقد قالت لأوجوستا:

– أريد لو أنبح كالكلب رداً على تلك النغمات.

غريب! على العكس منها كانت أوجوستا تشعر بالسعادة، عندما كانت تمرّ أمام حجرة مكتبي، وتسمع النغمات المضطربة التي كانت تنبعث منها.

– ومع ذلك ألم يكن زواج آدا أيضاً عن حب – قلت مندهشاً – ألم يكن الكمان هو أفضل ما كان في جويدو؟

تلاشت تلك الأحاديث عندما رأيت آدا من جديد للمرة الأولى. كنت أنا بالفعل الشخص الأول الذي لاحظ مرضها. ذات يوم من أوائل شهر نوفمبر – كان نهاره بارداً ورطباً، لم تسطع فيه شمس – غادرت المكتب بصفة استثنائية في الثالثة عصراً، وأسهرت إلى المنزل وأنا أفكر في أن أستريح وأحلم لبضع ساعات في مكتبي الدافئ. ولكي أتوجه إليه كان ينبغي المرور بممر طويل، وتوقفت أمام الحجرة التي تعمل بها أوجوستا حينما سمعت صوت آدا. ربما كانت وديعة أو مضطربة (وهو الشيء نفسه) مثل ذلك اليوم الذي توجهت فيه بالكلام إليّ. دخلت تلك الغرفة وقد

دفعنى فضول غريب لأرى كيف لصوت آدا الوديع الصافى، أن يكتسى بذلك الصوت الذى يذكّرنا بصوت ممثلة لدينا عندما كانت ترغب فى إيكائنا ولا تستطيع أن تبكى هى نفسها. كان حقاً صوتها مختلفاً، أو ربما شعرت أنا به هكذا؛ وذلك لأننى شعرت به هو ذاته لا يزال يبدو عليه الانفعال ومؤثراً بعد مرور أيام كثيرة، حتى نون أن أرى من أصدره. اعتقدت أنهما تتحدثان عن جويديو، وإلا فأى موضوع آخر يمكن أن يؤثر فى آدا إلى هذا الحد؟

على عكس ذلك كانت السيدتان تتناولان معاً فنجانى القهوة، وتتحدثان عن شئون منزلية: بياضات، خدم إلى آخر تلك الأمور. لكن كان يكفينى أن أرى آدا؛ لأدرك أن ذلك الصوت لم يكن زائفاً. كان وجهها أيضاً يثير الأسى، وكنت أول من اكتشف التغييرات التى طرأت عليه، فذلك الصوت، إن لم يكن مرتبطاً بشعور ما، كان مرآة دقيقة لكامل حالة جسد، ومن ثم كان صادقاً وحقيقياً. هذا ما شعرت به على الفور. أنا لست طبيياً؛ ولهذا لم أفكر بأى مرض، لكن حاولت أن أفسّر لنفسى التغيير الذى طرأ على شكل آدا بأنه تأثير فترة النقاهة بعد الولادة. لكن كيف يمكن تفسير عدم انتباه جويديو للتغيير الكبير الذى طرأ على زوجته؟ على كلٍّ، فأنا أحفظ عن ظهر قلب تلك العين، التى طالما خشيتها كثيراً؛ لأننى أدركت على الفور أنها تتفحص بهدوء الأشياء والأفراد لتقبلهم أو لتبذهم، تمكنت فى الحال من استنتاج التغيير الذى حدث فيها، فقد اتسعت، كأنما أجهدت محجر العين لترى جيداً. كانت تلك العين الواسعة تشذ وسط وجهه بأنس وشاحب.

صافحتنى بيدها بود كبير:

- أعلم بالفعل بذلك - قالت لى - تنتهز أية فرصة لتأتى لرؤية زوجتك وطفلتك.

كانت يدها مبتلة بالعرق، وأنا على علم أن هذا ينم عن ضعف. وخصوصاً أننى قد تخيلت أنها، بعد أن تبرأ من مرضها، ستستعيد لون بشرتها، وتعود لوجنتيها وتجويف عينيها ملامحها المحددة.

فسرت الكلمات التى وجهتها إلى على أنها لوم ملقى على جويدو، فأجبت بنية سليمة أن جويدو، بصفته مالكا للشركة، لديه مسؤوليات أكبر من مهامى تربطه بالمكتب.

نظرت إلى متفحصة؛ لكى تتحقق من أنى كنت أتحدث على نحو جاد.

- لكن على الرغم من هذا - قالت - يبدو لى أنه يستطيع إيجاد بعض الوقت لزوجته وطفليه، وغمر صوتها الدمع. ثم تداركت بابتسامة تلتمس العفو، وأضافت قائلة:

- علاوة على الأعمال هناك أيضاً صيد البر والبحر! هما، هما اللذان يهدران كثيراً من الوقت. وتحولت فى سرعة أدهشتنى لتتحدث عن الأطعمة الشهية التى يأكلانها فى أعقاب رحلات صيد جويدو البرية والبحرية.

- على الرغم من هذا يمكن أن أستغنى عنها عن طيب خاطر! -
هذا ما أضافته بين تنهد ودمعة، لكنها لم تبدُ تعسة، بل على العكس من ذلك! أخذت تحكى أنها ما عادت تستطيع أن تتخيل ألا تنجب هذين الطفلين اللذين تحبهما حباً جماً! وأضافت بشيء من المكر، وهى تبتسم، أنها أصبحت تحبهما أكثر، خاصةً بعد أن صار لكل واحد منهما مرضعته. كانت لا تنام كثيراً، لكن على الأقل عندما كان يغلبها النعاس، كان لا يزعجها أحد. وعندما سألتها إذا كانت حقاً تنام قليلاً، أخذت ملامح الجدِّية والتأثر لتخبرنى أنه مصدر انزعاجها الكبير. ثم أضافت، وهى مبتهجة:

- لكن الوضع يتحسن!

بعد قليل تركتنا لسببين؛ كان عليها أن تزور والدتها قبل حلول المساء، فضلاً عن أنها لم تكن تطيق درجة حرارة حجرات منزلنا المزودة بمدافئ كبيرة. ولما كنت أرى تلك الحرارة بالكاد مناسبة، خلت أن الشعور بأنها شديدة، إنما هو دليل على القوة:

- لا يبدو أنك ضعيفة جداً - قلت وأنا أبتسم - سترين كيف ستشعرين على وجه مخالف عندما تبلغين عمري،

راقها كثيراً أن تسمع أنها شابة صغيرة.

اصطحبناها أنا وأوجوستا حتى باحة السلم. كان يبدو أنها تشعر بحاجة كبيرة إلى صداقتنا، حيث إنها صارت تتوسطنا حتى تقوم بتلك

الخطوات القصيرة، وأمسكت أولاً بذراع أوجوستا ثم بذراعى الذى صلبته فى الحال خشية أن أستسلم لعادة من عاداتى القديمة، وهى أن أضغط على أى ذراع امرأة يقبل ملامستى. أخذت تتحدث على بسطة السلم طويلاً، وعندما تذكرت والدها، اغرورقت عيناها بالدمع من جديد، للمرة الثالثة خلال ربع الساعة. عندما انصرفرت قلت لأوجوستا إنها ليست امرأة، بل نبع مياه. وعلى الرغم من أنى رأيت ملامح مرض آدا، فإننى لم أبدِ أى اهتمام به. كانت عيناها متسعيتين بما يزيد؛ ووجهها هزياً؛ وقد تغير صوتها فضلاً عن طباعها التى تحولت إلى ذلك التعاطف ولم يكن من سماتها، لكنى عزوت ذلك كله إلى الأمومة المضاعفة ووهنها. ومن ثم فقد كنت أرى فى نفسى مراقباً رائعاً؛ حيث لاحظت كل شىء، ولكنى كنت جاهلاً عظيماً؛ لأننى لم أنطق بالكلمة الحقيقة: المرض!

فى اليوم التالى طلب طبيب النساء والتوليد، الذى كان يعالج آدا، الاستعانة بالدكتور باولى، الذى أعلن مباشرة الكلمة التى لم أستطع التفوه بها: موريوس باسيدوى. أخبرنى بها جويدو وأخذ يصف لى، بكلام علمى كبير، حقيقة المرض ويعبر عن إشفاقه على آدا التى كانت تعاني كثيراً. وبدون أية اعتبارات خبيثة منى رأيت أن حنوه وعلمه لم يكونا عميقين. كان يرتسم بمظهر الحزين عندما يتحدث عن زوجته، لكن عندما كان يملأ على كارمن الخطابات كانت تظهر عليه بهجته بالحياة والتعليم؛ ثم إنه كان يعتقد أن من أطلق اسمه على المرض هو باسيدوى الذى كان صديقاً لجوته، غير أنى عندما بحثت عن ذلك المرض بإحدى دوائر المعارف، أدركت على الفور أن المسألة تتعلق بشخص آخر.

كان مرض باسيدوى مرضاً خطيراً، وهاماً! كان بالنسبة لى فى غاية الأهمية عندما عرفته. قمت بالاطلاع عليه فى كتب عديدة، وظننت أنى اكتشفت حينئذ فقط اللغز الأساسى بجسمنا البشرى. أعتقد أنه بالنسبة لكثير مثلى تأتى فترات من الوقت تشغل فيها بعض الأفكار أذهاننا، وتزحمها وتغلقها أمام الأفكار الأخرى. لكن إذا ما حدث أيضاً الشئ ذاته بالنسبة للجميع! فإنهم يعيشون مهتمين بداروين بعدما عاشوا منشغلين برويسبير وبنايليون، فضلاً عن ليبيج أو ربما ليوباردى، إلى أن يسيطر بيسمارك على الكون كله!

لكنى عشت وحدى مهتماً بباسيدوى! هين لى أنه أخرج للنور معرفة جذور الحياة التى صنعت على هذا النحو: تتوزع الأجسام البشرية على خط، يقع على طرفه مرض باسيدوى الذى ينضوى على استهلاك القوى الحيوية على نحو مفرط طائش وبإيقاع سريع، وضربات قلب جامحة، وعلى الطرف الآخر توجد الأجسام الواهنة بسبب شح عضوى، ومآلها الموت من مرض قد يبدو وكأنه استهلاك فى حين أنه فى الواقع خمول. إن النقطة الوسط بين المرضيين تقع فى المركز، ويشار إليها بلفظ فى غير موضعه وهو الصحة، التى ليست سوى محطة. وما بين المركز وأحد الأطراف - أى أطراف الباسيدوى - يوجد جميع أولئك الذين يستमितون ويبدون حياتهم فى رغبات كثيرة، وطموحات، ومتع، وعمل أيضاً، ومن الجهة الأخرى هناك من لا يلقى على صحيفة الحياة سوى الفتات ويدخرون، وبذلك يعدون أولئك الخاملين المعمرين الذين

يمثل ظهورهم عبئاً على المجتمع. ويبدو أن هذا العبء ضرورى أيضاً. فالمجتمع يتقدم لأن الباسيديويين يدفعونه، ولا يهوى؛ لأن الآخرين يمسون به. إننى على اقتناع بأنه عند تكوين المجتمع، كان يمكن أن يكون بصورة أيسر، لكنه صنع على هذا النحو، بانتفاخ على أحد طرفيه وأودىما على الآخر، وليس هناك علاج للأمر. يوجد فى الوسط أولئك الذين لديهم بدايات التورم أو الأودىما، وعلى طول الخط فى البشرية جميعها ليست هناك صحة مطلقة.

حسب ما كانت تقوله لى أوجوستا فإن آدا لم يكن عندها تورم، لكن كانت لديها جميع أعراض المرض الأخرى. مسكينة آدا! بدت لى تجسيدا للصحة والاتزان، حتى إننى ظننت لوقت طويل أنها اختارت زوجها بالروح الباردة نفسها التى كان يختار بها والدها بضاعته، وهى ذى تصاب بمرض يجذبها نحو نظام مختلف تماماً: الانحرافات النفسية! ومع أنى أصبت معها بمرض بسيط، لكنه امتد طويلاً. هذا لأننى أخذت أفكر طويلاً فى باسيدوى. الآن أعتقد أننا ننتهى إلى العدوى به فى أى موضع نستقر عليه فى هذا الكون. ينبغى أن نتحرك، فالحياة بها سموم، لكن توجد بها أيضاً سموم أخرى تفيد فى أنها مضادة للسموم. فى حالة الإسراع فقط نستطيع أن نفلت من الأولى ونستفيد من الثانية.

كان مرضى عبارة عن فكرة مسيطرة، كان حلمًا، وخوفًا أيضاً. لابد أنه نجم عن تفكير منطقي: إن كلمة انحراف يقصد بها انحراف فى

الحالة الصحية، تلك الحالة الصحية التي لازمنا لفترة ما في حياتنا. كنت حينئذ على علم بحالة آدا الصحية. ألم يكن ممكناً أن يحملها انحراف صحتها إلى حبي، وقد رفضتني وهي سليمة؟

لا أدري كيف نما هذا الفزع (أو هذا الأمل) بداخل ذهني!

ربما لأن صوت آدا العذب والمتقطع بدا لي وكأنه حبّ عندما وجهته إليّ؟ تحولت المسكينة آدا إلى دمية بالفعل، ولم أعد قادراً على الرغبة فيها، في حين أخذت أستعيد بذاكرتي علاقتنا في الماضي، وهيئ لي أنه لو كان حبها المفاجئ لي قد استولى عليها، لوجدت نفسي في الظروف السيئة التي تُذكرُ لحد ما بظروف جويدو إزاء الصديق الإنجليزي صاحب صفقة الستين طناً من سلفات النحاس. حقاً إنه الموقف ذاته! فمِنذ بضع سنين صرّحت لها بحبي، ولم أقم بأية حركة تراجع سوى أن تزوجت بأختها. لم يحمْ آدا في هذا العقد القانون بل شهامتي. كنت أرى أنني ملتزم معها بشدة، حتى ولو وجدتُها أمامي بعد عدة سنوات فيما بعد، وقد تحسّنت في أثناء المرض بأسيدوي من التورم الشديد، لالتزمت بشروط توقيعي على عقد قراني بأختها.

لكنني أذكر أن هذا المنظور قد صبغ على تفكيري بالمودة إزاء آدا. حتى ذلك الحين عندما أخبروني بالأم آدا التي يسببها جويدو لها، لم أسعد بذلك دون شك، ولكنني وجهت اهتمامي أيضاً بشيء من الرضا نحو البيت الذي أبت آدا أن تدخله، ولم تكن به أية معاناة على الإطلاق.

فى تلك الفترة كانت الأمور قد تغيرت: آدا لم تعد هى تلك التى نبذتنى فى ازدراء، إن لم تخطئ كتب الطب التى اطلعت عليها.

إن مرض آدا كان خطيراً. فلقد نصح الدكتور باولى، بعد أيام قلائل، بإبعادها عن العائلة وإرسالها إلى مصحة بمدينة بولونيا. علمت ذلك من جويدو، لكن فيما بعد حكى لى أوجوستا أنها حتى هذه اللحظة لم تنج مما يكدر بشدة. اقترح جويدو بكل وقاحة أن يولى كارمن رعاية العائلة فى أثناء غياب زوجته. لم تملك آدا الجرأة لى تصرّح بما كانت تفكر فيه عن هذا الاقتراح، لكنها أعلنت أنها لن تتحرك من البيت إن لم تتح لها إمكانية أن تعهد إلى خالتها ماريًا بالرعاية، وبدون تردد وافق جويدو. غير أنه لم تظل تداعبه فكرة أن يجد كارمن تحت تصرفه بالنسبة للمكان الشاغر الذى تركته آدا. ذات يوم قال لكارمن إن لم يكن لديها أعمال كثيرة بالمكتب، لعهد إليها بإدارة منزله وهو مطمئن. نظرنا بعضنا إلى بعض أنا ولوتشانو، وبلا شك اكتشف كل منّا فى وجه الآخر تعبيراً مأكراً. احمرّ وجه كارمن، وهمست بأنها ما كانت لتقبل الأمر. - حقاً - قال فى سخط - من أجل تلك الاعتبارات الحمقاء السارية بالمجتمع لا يمكن أن نقوم بما يفيد كثيراً! لكنه سرعان ما صمت هو الآخر، وكانت مفاجأة أنه اختصر عظة لها كل هذه الأهمية.

اصطحب جميع أفراد العائلة آدا إلى المحطة. ورجتنى أوجوستا أن أحضر زهوراً لأختها. وصلت متأخراً قليلاً ومعى باقة من الأوركيديا

أعطيتها لأوجوستا. كانت آدا ترمقنا، وعندما قدّمت أوجوستا الزهور إليها قالت لنا:

– أشكركما من صميم قلبي!

ذاك كان يعنى أنها تقبلت الزهور منى أنا أيضاً، لكننى أحسست أن هذا تعبير عن حب أخوى، حلو وبه أيضاً شىء من الفتور. من المؤكد أن باسيدوى لم يكن له علاقة بالأمر.

كانت آدا المسكينة بتلك العينين المتسعيتين تبدو عروساً، من فرط السعادة. كان مرضها قادراً على محاكاة الانفعالات جميعها.

رحل معها جويديو لمرافقتها، على أن يعود بعد بضعة أيام. انتظرنا على الرصيف رحيل القطار. ظلت آدا مطلة من نافذة العربة التى استقلتها، وأخذت تلوح بالمنديل بقدر ما كانت تستطيع رؤيتنا.

ثم اصطحبنا السيدة مالفنتى وهى تذرف الدمع إلى البيت. وفى لحظة الافتراق، قبلت حماتى أوجوستا، وبعدها قبلتني أنا أيضاً.

– معذرة! قالت مبتسمة وسط دموعها. فعلت ذلك دون عمد، لكن إذا سمحت لى فسأعطيك قبلة أخرى.

والصغيرة أنا أيضاً أرادت أن تقبلنى، وقد بلغت من العمر وقتئذ الثانية عشرة. وألبرت، التى كانت توشك أن تترك المسرح القومى استعداداً للخطبة، وكانت عاداتها أن تكون متحفظة معى بعض الشىء، صافحتنى بحرارة فى ذاك اليوم.

كن يحبيننى؛ لأن زوجتى كانت نضرة، فى حين كن يبدین استياءهن من جويدو، الذى كانت زوجته سقيمة.

وفى ذلك الوقت تماماً تعرضت لخطر أن أصبح زوجاً غير صالح؛ حيث آلت زوجتى إيلاًماً شديداً، دون ذنب لى، بسبب حلم أشركتها ببراءة فيه.

ها هو ذا الحلم: كنّا ثلاثة، أنا وأوجوستا وآدا؛ كنّا نطلّ من إحدى النوافذ، وبالتحديد من أصغر تلك النوافذ التى كانت ببيوتنا الثلاثة، أى مسكنى ومسكن حماتى ومسكن آدا. هذا يعنى أننا كنّا بشرفة مطبخ منزل حماتى الذى كان بالفعل يطل على فناء صغير، فى حين كان فى الحلم يطلّ على طريق الكورسو. كان الحيز ضيقاً على متكأ النافذة، حتى إن آدا، التى كانت تتوسطنا وهى تستند إلى ذراعينا، كانت تميل نحوى أنا وبالتحديد. تأملتها ورأيت أن نظرة عينها عادت من جديد باردة ودقيقة، وملامح وجهها شديدة النقاء، حتى عنقها الذى رأيته مغطى بخصلات شعرها اللطيفة، تلك الخصلات التى كثيراً ما رأيته عندما كانت آدا تستدير عنى بكتفيتها. على الرغم من هذا البرود الكبير (وهذا ما كنت أراه يعكس صحتها) فقد ظلت مائلة نحوى كما اعتقدت أنها كانت كذلك فى ليلة حفل خطوبتى تلك حول المائدة الناطقة. قلت لأوجوستا فى ابتهاج (كنت بالتأكيد أبذل جهداً فى الاهتمام بها هى أيضاً): «انظرى كيف استعادت صحتها؟ لكن أين باسيدوى؟» «ألا ترين؟» سألت أوجوستا التى كانت الوحيدة من بيننا التى كان بإمكانها مشاهدة الطريق.

وبمشقة طللنا نحن أيضاً، ولحنا جمعاً غفيرا يتقدم وهو يصيح مهدداً: «لكن أين باسيدوى؟» سألت مرة أخرى، ثم رأيت. كان هو الذى يتقدم ويطارده الجمع الغفير: عجوز بائس يغطيه معطف طويل مهلهل، ولكن من نسيج البروكار الثقيل، رأسه الكبير يغطيه شعر شائب أشعث يتطاير فى الهواء، عيناه جاحظتان وكانتا تنظران فى قلق نظرة رأيتها من قبل فى الحيوانات حين يطاردونها، وتجمع بين الفرع والتهديد. وكان الحشد يصيح: «اقتلوا من ناقل العدوى!».

ثم كانت هناك لحظة من ليلٍ خالٍ، وبعد ذلك مباشرة، كنّا أنا وأدا بمفردنا على السلم الأكثر انحداراً بمنازلنا الثلاثة، وكان يؤدى إلى سقيفة فيلتي. كانت آدا تقف على بعض الدرجات فى الأعلى، لكنها كانت تلتفت إلى وأنا أقوم بالصعود، فى حين كانت تبدو وكأنها تريد الهبوط. كنت أحتضن ساقها، وكانت تنحنى نحوى لا أدري إن كان من وهنها أو لتدنو أكثر فأكثر منى. بدت لى للحظة وقد مسخها مرضها، لكن فيما بعد، وأنا أنظر إليها فى قلق، تمكنت من رؤيتها كما ظهرت لى من النافذة، فى حُسْنها وسلامة صحتها. قالت لى بصوتها المتماسك: «تقدم، سألق بك على الفور!». وإذ كنت مستعداً استدرت لأسبقها مسرعاً، لكن بما لا يكفى من سرعة حتى لا ألاحظ باب السقيفة وهو يُفتح شيئاً فشيئاً ويطل منه رأس باسيدوى ذو الشعر الأشيب وبوجهه ذاك ما بين الخوف والتهديد. رأيت منه أيضاً الساقين الواهنتين والبدن الهزيل البائس الذى لم يفلح المعطف فى إخفائه. تمكنت من الابتعاد مسرعاً، لكن لا أدري إن كان لى أسبق آدا أو للهروب منها.

يبدو أننى فى ذاك الوقت استيقظت فى أثناء الليل وأنا ألهث،
وحكيت فى أثناء غفوتى لأوجوستا كل شىء أو جزءاً من الحلم لأستعيد
بعد ذلك نوماً أكثر هدوءاً وعمقاً. أعتقد أننى بين الغفوة والوعى انسقت
بلا تبصر وراء الرغبة القديمة فى الاعتراف بزلأتى.

فى الصباح، كان واضحاً على وجه أوجوستا ذلك الشحوب
الشديد، الذى كان يصاحب المناسبات الخطيرة. كنت أتذكر الحلم بدقة،
لكن لم أتذكر بالضبط ماذا قلته لها منه. قالت لى وقد بدا عليها مظهر
الاستسلام المؤلم:

– تشعر بالحزن لأنها مرضت ورحلت؛ ولهذا تحلم بها.

دافعت عن نفسى وأنا بين الضحك والسخرية. لم تكن لأدا أهمية
بالنسبة لى، بل باسيدوى، وحكيت لها عن دراساتى والتطبيقات التى
قمت بها أيضاً. لكن لا أدرى إن كنت نجحت فى إقناعها. فعندما نؤخذ
على غرة فى الحلم يصعب أن ندافع عن أنفسنا. إنه أمر يختلف تماماً
عن العودة إلى الزوجة بعد خيانتها بوعى كامل خيانة حديثة العهد. ثم
إنه لم يكن هناك ما أفقده بسبب غيرة أوجوستا تلك؛ لأنها كانت تحب
أدا، حتى إن غيرتها من تلك الناحية لم تلقِ بأية ظلال، وفيما يخصنى،
كانت تعاملنى باحترام وبشكل أكثر وداً أيضاً، وكانت تقر لى بالجميل
كثيراً عن أى تعبير لى بحبها ولو طفيفاً.

ومرّت أيام قلائل، وعاد جويدو من بولونيا ومعه أنباء عظيمة.
أكد مدير المصحّة الشفاء التام، شرط أن تجد آدا فيما بعد فى المنزل
هدوءاً كبيراً.

نقل جويدو تشخيص الطبيب يُيسر ودون إدراك، حتى إنه لم ينتبه إلى أن ذلك الحكم كان يؤكد في عائلة مالفنتى شكوكاً كثيرة تحوم حوله. فقلت لأوجوستا:

- ها أنا ذا مهدد بقبيلات أخرى من والدتك.

يبدو أن جويدو لم يكن يشعر براحة كبيرة في المنزل تحت إدارة الخالة ماريا. في بعض الأحيان كان يسير هنا وهناك في أرجاء المكتب وهو يهمس:

- طفلان... ثلاث مريبات... ولا توجد زوجة.

كان يتغيب كذلك في كثير من الأحيان عن المكتب، حيث كان يُفرج عن ضيق نفسه وهو يهاجم الحيوانات مهاجمة عنيفة، سواء في صيد البر أو في صيد البحر. لكن قرب نهاية العام، عندما جاءنا الخبر من بولونيا أن آدا تماثلت للشفاء، وأنها تستعد للعودة إلى بيتها، لم يبدو لي أنه كان سعيداً جداً من ذلك النبأ. هل اعتاد على الخالة ماريا أم أنه قلما كان يراها حتى أصبح من السهل والميسور له أن يتحملها؟ لم يكن يظهر لي بالطبع من سوء مزاجه سوى ارتياحه من أن آدا ربما تتعجل كثيراً في مغادرة المصححة قبل أن تتأكد من عدم الوقوع في انتكاسة. الواقع أنه عندما كان عليها أن تعود إلى بولونيا، بعد وقت وجيز في أثناء فصل الشتاء ذاته، قال لي بنبرة الظافر:

- ألم أقل لك ذلك من قبل؟

لكن لا أظن أنه كان هناك فى ذلك الظفر سوى فرحته الشديدة
بقدرته على التنبؤ بشيء من الأشياء، لم يكن يتمنى السوء لآدا، لكنه
كان يروق له أن تبقى لمدة طويلة ببولونيا.

عند عودة آدا، كانت أوجوستا تلزم الفراش من أجل ميلاد طفلنا
الصغير ألفيو، وصدر منها فى تلك المناسبة ما يؤثر حقاً على المشاعر.
أرادت أن أذهب إلى المحطة ومعى بعض الزهور، وأن أقول لآدا إنها
ترغب فى رؤيتها فى اليوم ذاته. ورجتبنى أن أعود سريعاً إلى المنزل، إن
لم تستطع آدا المجيء مباشرةً من المحطة، لأصفها لها وأخبرها عما
إذا كانت قد استعادت تماماً جمالها، الذى كانوا يتباهون به كثيراً
فى العائلة.

كنّا أنا، وجويدو، وألبرتا فقط بالمحطة؛ لأن السيدة مالفنتى كانت
تقضى جزءاً كبيراً من أيامها بجوار أوجوستا. كان جويدو يحاول أن
يقنعنا بفرحته الغامرة لوصول آدا، لكن ألبرتا كانت تنصت إليه وهى
تتظاهر بأنها فى حالة شرود شديد حتى لا تجيبه، كما قالت لى فيما بعد.
أما بالنسبة لى فمئذ زمن لم يكن التصنع مع جويدو يكلفنى عناءً كبيراً.
قد اعتدتُ على التظاهر بعدم إدراكى لميوله نحو كارمن، ولم أتجرأ قط
على التنويه بأخطائه إزاء زوجته؛ ومن ثم فلم يشقَّ علىَّ أن أظهر الاهتمام
كأنما استحسن فرحته لعودة زوجته المحبوبة.

عندما دخل القطار المحطة فى موعده بمنتصف النهار، تقدم أمامنا
ليلحق بزوجته التى كانت تهبط منه. احتضنها بين ذراعيه وقبلها بحنان.

أخذت أفكر، وأنا أنظر إليه وهو يميل ليقبّل زوجته التي تقصر عنه كثيراً: «ممثّل بارع!». ثم أمسك بيد آدا، وأتى بها إلينا قائلاً:

– ها هي ذى وقد استعدناها لحبنا!

فى تلك اللحظة كشف عن حقيقة التى كان عليها، أى كونه زائفاً وممثلاً؛ لأنه لو دقق جيداً فى وجه المرأة المسكينة، لأدرك أنها عادت إلى عدم مبالأتنا وليس إلى حناننا. أعيد بناء وجه آدا على نحو سيئ حيث استعاد وجنتيه لكن بعيداً عن موضعيهما، كأنما اللحم، فى عودته، لم يتذكر أى مكان كان ينتمى إليه، واستقر نحو المنطقة السفلية أكثر مما ينبغى؛ ولهذا اتخذنا شكل انتفاخات بدلاً من وجنات. وعادت العين إلى محجرها، لكن لم يستطع أحد أن يعالج الأضرار التى سببتها عندما برزت منه. تحركت بعض خطوط ملامحها المحددة من مواضعها أو ربما دُمّرت. عندما انصرفنا خارج المحطة، لمحت تحت أشعة شمس الشتاء التى تخطف البصر أن لون وجهها كله لم يكن هو ذلك الذى أحببته كثيراً من قبل. كان شاحباً يميل للاحمرار على شكل بقع على الأجزاء المكتنزة باللحم. كان واضحاً أن الصحة لم تعد تخصّ ذلك الوجه، وأننا نجحنا فى التظاهر بعودتها إليه.

على الفور حكيت لأجوستا أن آدا كانت رائعة الجمال تماماً مثلما كانت عليه وهى فتاة يانعة وسعدت بذلك. ثم، بعدما رأتها، أكدت ذلك مرات عديدة فى دهشة منى، وكأنما كانت أكاذيبى الرحيمة حقائق واضحة. أخذت تقول:

- جميلة كما كانت وهى صغيرة، وكما ستصبح ابنتى!

من الواضح أن عين الأخت ليست ثابتة كثيراً.

لم أرَ أدا ثانيةً لوقت بعيد. فقد أصبح لديها عدد كبير من الأبناء وكذلك نحن أيضاً. على الرغم من هذا توصلت أدا وأجوستا إلى طريقة لتكونا معاً مرات عديدة فى كل أسبوع، لكن فى الساعات التى أتغيب فيها دائماً خارج المنزل.

كان وقت الميزانية قد قرب، وكان لدى الكثير ينبغى القيام به. بل كانت تلك هى الفترة التى اشتغلت فيها كثيراً فى حياتى. ظلت فى بعض الأيام جالساً إلى المكتب لعشر ساعات. عرض على جويدو أن يحضر محاسباً لتقديم المساعدة لى، لكننى لم أبالِ بالأمر. أخذت على عاتقى مهمة كان على أن أتحمّل مسئوليتها. كانت لدى نية فى تعويض جويدو عن غيابى المحزن ذاك طيلة شهر، وكان يروق لى أيضاً أن أبدى لكارمن همئى، التى لم يحتئى عليها شىء آخر سوى حبى لجويدو.

غير أننى فى أثناء قيامى بعمل الحسابات، أخذت أكتشف الخسارة الجسيمة التى تكبدناها فى تلك السنة المالية الأولى. أصابنى القلق ونهت لجويدو عنها على انفراد، لكنّه، وكان يتأهب للرحيل للصيد، لم يشأ الاستماع إلى:

- سترى أن المسألة ليست بالغة الخطورة كما تبدو لك، فضلاً

عن أن السنة لم تنته بعد.

فى الحقيقة كانت لا تزال هناك ثمانية أيام كاملة على رأس السنة.

كشفت حينئذ عمًا في نفسي لأوجوستا، في بادئ الأمر رأت الخسارة التي قد تلحق بي في تلك المسألة وحسب. فالنساء خلقن دائماً على هذه الصورة، في حين أن أوجوستا كانت تفوق العادة حتى بين النساء عندما كانت تتألم مما يخصها من خسارة. ألن ينتهي بي الأمر أنا أيضاً - حسبما سألتني - بأن أعتبر مسئولاً لحد ما عن الخسائر التي يتحملها جويدو؟ كانت ترغب في استشارة مُحامٍ على الفور، وعلى ذلك كان ينبغي أن انفصل عن جويدو وأتوقف عن الذهاب للمكتب.

لم يكن هيناً على أن أقنعها أنه لا يمكن أن أعد مسئولاً عن شيء؛ حيث إنني لست سوى موظف لدى جويدو. كانت تؤكد أن من لا يجني كسباً ثابتاً لا يمكن أن يكون موظفاً، بل هو أشبه بصاحب عمل. وعندما أصبحت مقتنعة تماماً، حقاً كان أن ظلت على رأيها؛ لأنها اكتشفت حينئذ أنني لن أخسر شيئاً إذا امتنعت عن الذهاب إلى ذلك المكتب، حيث سيفضي بي الأمر دون شك إلى تشويه سمعتي تجارياً. يا للكارثة؛ سمعتي التجارية! كنت مقتنعة أنا أيضاً بأهمية إنقاذها، وعلى الرغم من أنها كانت مخطئة فيما ساقته من أدلة، فقد حُسم الأمر بأنني لا بد أن أفعل ما أرادت. وافقت على أن أنهى عمل الميزانية بما أنني قد بدأت، ثم فيما بعد على أن أجد الوسيلة للعودة إلى حجرة مكتبي حيث لا يتم بها كسب الأموال، ولا حتى فقدها.

لكنني قمت آنذاك بتجربة غريبة على. لم أكن قادراً على ترك عملي ذاك، على الرغم مما قررته من قبل. واندعشت من ذلك! فلكي نترك الأشياء

بصورة أفضل، ينبغي أن نستفيد من الصور. تذكرت حينئذ أنه قديماً
بانجلترا كان يطبق حكم الأشغال الشاقة بتعليق المتهم أعلى دولا
التعذيب الذى يحركه اندفاع الماء، وعلى هذا النحو تُجبر الضحية على
تحريك ساقها بنظام معين، وإلا فسيتم سحقها. والإنسان عندما يقوم
بعمل ما يكون لديه إحساس بإرغام من هذا النوع، وصحيح أنه عندما لا
يقوم بعمله فالوضع هو ذاته، وأظن أنه من العدل أن أؤكد أنى وأوليفى
كناً دائماً معلقين بالأسلوب نفسه؛ غير أنى كنت على تلك الصورة
بطريقة لا تكرهنى على تحريك ساقى. فى حين أسفر موقفنا عن نتيجة
مختلفة، لكنى على يقين الآن من أن تلك النتيجة لم تستدع اللوم أو الثناء.
ومن ثم فالأمر يعتمد على الظروف إذا تم التعليق على دولا متحرك أو
ثابت. فالانفصال عنه يكون دائماً شاقاً.

لعدة أيام، بعد أن أقفلت الميزانية، استمررت فى التردد على المكتب
على الرغم من قرارى بعدم الذهاب إليه على الإطلاق. كنت أغادر المنزل
حائراً؛ وفى تردد أأخذ الاتجاه الذى كان فى أغلب الأحيان اتجاه
المكتب، وما إن أواصل السير حتى كان هذا الاتجاه يتحدد، إلى أن أجد
نفسى جالساً على المقعد المعتاد أمام جويديو. ومن حسن الحظ أنه
رجانى فى لحظة معينة ألا أغادر مكانى، ووافقته على الفور، حيث
أدركت حينئذ أنى تسمرت فيه.

أغلقت الميزانية التى قمت بها فى الخامس عشر من يناير. كانت
كارثة حقيقية! أقفلنا بخسارة نصف رأس المال. لم يكن فى نية جويديو

أن يُطلع عليها الشاب أوليفي ذا النظارة خشيةً من عدم تكتمه، لكنني أصررت أماً أنه، بخبرته الواسعة، قد يجد بها أخطاءً قد تغير الموقف برمته. ربما كانت هناك بعض المبالغ المتقولة من جانب المدين، إن كانت تخصه، إلى جانب الدائن، وبعملية تصويب يمكن الوصول إلى اختلاف مهم. وعد أوليفي الابن جويدو، وهو يبتسم، بالسرية التامة ثم عمل معي ليوم كامل. للأسف لم يعثر على أى خطأ. ينبغي القول إنني تعلمت كثيراً، من تلك المراجعة التي قمنا بها نحن الاثنين، و الآن أتقن مواجهة الميزانيات وإقفالها، حتى ولو كانت أكثر أهمية من تلك.

- وماذا ستصنعون الآن؟ - سأل الشاب نو النظارة قبل أن ينصرف. كنت أعلم أنفاً ما الذي سيوصى به. فوالدي، الذي طالما حدثني عن التجارة في أثناء طفولتي، قد علمني إياه. طبقاً للقوانين السارية، وبما أن الخسارة تكبدها نصف رأس المال، فإنه يلزم تصفية الشركة، وربما إعادة بنائها مباشرة على أسس جديدة. تركته يكرر لي النصيحة. أضاف قائلاً:

- إنها مسألة إجراءات شكلية. ثم قال مبتسماً: - قد يكلف غالياً عدم الامتثال لها!

في المساء أخذ جويدو أيضاً يراجع الميزانية التي لم يكن قد تمكّن بعد من التسليم بها. كان يقوم بالمراجعة بلا منهج محدد، وهو يتحقق من هذا المبلغ أو ذاك بلا تبصّر. أردت أن أوقف ذلك العمل عديم الجدوى، وأخبرته بنصيحة أوليفي بالتصفية الفورية، لكن بصفة شكلية، للإدارة.

حتى تلك اللحظة كان جويدو قد تقطَّب وجهه، وهو يبذل الجهد في العثور على الخطأ المنقذ: تقطيب صعد من حدته تجهُّم من يستشعر في فمه بمذاق باعث على التقزز. رفع وجهه مسترخياً لحديثي معه في محاولة للانتباه. لم يفهم في الحال، لكنه فور أن أدرك أخذ يضحك بصوت عالٍ. فسُرت تعبير وجهه كالاتي: كان متجهماً وفظاً مادام ألفي نفسه أمام تلك الأرقام التي لا يمكن تغييرها؛ مسروراً ومرتخياً عندما دفع الاقتراح المشكلة المؤلة جانباً، وسيعود عليه بالفائدة واستعادة إحساسه بأنه مالك وحاكم.

لم يتفهم الأمر. كانت تبدو له أنها نصيحة عدو. شرحت له أن نصيحة أوليفي لها قيمتها، وخاصةً فيما يتعلق بالخطر الداهم على نحو واضح على الشركة، وأنتا سنفقد أموالاً أخرى وسنفلس. إن إمكانية إشهار الإفلاس المحتمل إجراؤه ربما تكون بسبب الخطأ، بعد تلك الميزانية المسجلة حينئذ في دفاترنا، إن لم تتخذ الإجراءات التي نصحن بها أوليفي. وأضفت قائلاً:

- إن العقوبة التي تقتضيها قوانيننا بالنسبة للإفلاس بسبب الخطأ هي السجن!

اكتسى وجه جويدو باحمرار شديد، حتى خشيت أن يتعرض لالتهاب في المخ. صاح: - في هذه الحالة أوليفي ليس في حاجة ليعطيني نصائح! وفي حالة ما إذا تحقق هذا أستطيع أن أحله بنفسى!

أقنعتني قراره، وانتابني شعور بأنني أمام رجل مدرك تماماً لمسئوليّاته، خفضت نبرة صوتي. ثم اندفعت كلياً مؤيداً لرأيه، وإذ نسيت أنني كنت قد عرضت عليه نصيحة أوليفي بوصفها جديرة بأن تتخذ في الحسبان، قلت له:

– هذا ما أخذه على أوليفي، فالمسئولية تقع عليك، ولا شأن لنا بها عندما تقرر أمراً بصدد مصير الشركة التي تخصك أنت ووالدك.

حقيقة هذا ما قلته لزوجتي وليس لأوليفي، لكن على أية حال قلته بالفعل لفرد ما، في تلك اللحظة، وبعد أن سمعت قرار جويدو الجريء، كان بإمكانني أيضاً نقله لأوليفي، حيث ذلك الحزم وتلك الشجاعة كانا لا يزالان يستحوذان عليّ. وكم كنت أحب أيضاً الطلاقة في التعبير التي يمكن أن تنشأ فقط من هاتين الصفتين، وكذلك من صفات أخرى أقل منهما كثيراً.

بما أنني كنت أرغب في نقل حديثه كله لأوجوستا لأهدي من روعها، أصررت قائلاً:

– أنت تعلم أنه يقال عنّي، وربما بحق، إنني لا أملك أية موهبة في مجال التجارة، أستطيع أن أنفذ كل ما تأمرني به، لكن لا يمكنني مطلقاً أن أتحمل مسؤولية ما تفعله أنت.

وافق بشدة. كان يشعر براحة كبيرة في الدور الذي نسبته إليه، حتى إنه نسي حزنه بسبب الميزانية السيئة. وصرّح قائلاً:

– أنا المسئول الوحيد، كل شيء يحمل اسمي، ولا أقبل على الإطلاق أن يتحمل آخرون يعملون معي على عاتقهم المسئولية.

كانت المسألة تسير على ما يرام لأخبر أوجوستا، بل سارت أفضل بكثير مما كنت أنتظر. وكان ينبغي رؤية المظهر الذي اتخذه وهو يقوم بذلك التصريح: كان يبدو رائداً وليس نصف مُفلس! لقد استفاض على مهلٍ في الحديث عن ميزانيته الخاسرة؛ ومن هنا أصبح رئيسي في العمل وصاحب الأمر. في تلك المرة، مثل العديد غيرها طوال فترة حياتنا معاً، اختنقت انطلاقة حبي له من تصريحاته التي كانت تكشف عن الاعتداد الخاطيء بنفسه. إنه كان يقلب الأوضاع. نعم: ينبغي قول هذا بالفعل؛ ذلك الموسيقى العظيم كان يشذ في ألحانه!

سالته على حين غفلة:

– أتريد أن أقوم في الغد بعمل نسخة من الميزانية لوالدك؟

في لحظة كنت على وشك أن أدلى له بتصريح أكثر قسوة وإخباراً بأنني عقب إقفال الميزانية مباشرة سأمتنع عن الذهاب إلى مكتبه، لكنني لم أفعل؛ حيث كنت لا أدري كيف سأشغل الساعات العديدة الشاغرة التي ستبقى لدي. لكن سؤالي قد حل على نحو كامل تقريباً محل التصريح الذي ابتلعتته من قبل، وعلى كلٍّ فلقد ذكرت له أنه ليس صاحب الكلمة الوحيد في ذلك المكتب.

أبدى دهشته من كلامي؛ لأنه لا يتسق - كما كان يرى - مع ما قيل حتى تلك اللحظة، ومع تجاوبى الواضح تحدثنا، وبنبرة صوته السابقة قال لى:

- سأقول لك أنا كيف ينبغي أن نقوم بعمل تلك النسخة.

احتججت صائحاً. لم أصبح بشدة طيلة حياتي مثلما صحت معه، حيث كان يبدو لى فى تلك المرة أصم. أخبرته أن القانون ينص على مسئولية المحاسب، وأنى لست على استعداد أن أخادع بتقديم نسخ سليمة من كتل أرقام معقدة.

شحب وجهه وأقر بأننى على حق، لكنه أضاف أنه صاحب حق فى أن يعطى الأوامر بالألأ تسلم بيانات من دفاتره على الإطلاق. أقررت حقه فى هذا عن ارتياح، وعندئذ سكن روعه، وأعلن أنه سيكتب لوالده. بل بدا أنه يريد أن يشرع فى الكتابة توأ ، لكنه بعد ذلك عدل عن فكرته، واقترح على أن نستشق نفحة من الهواء. رغبت فى إرضائه. رأيت أنه لم يستوعب بعد جيداً مسألة الميزانية، ويريد أن يتمشى ليلقى بها فى الخارج.

ذكرتتى النزهة بليلة خطبتى، لم يبرز القمر فيها، حيث كانت هناك غيوم كثيرة تملأ السماء، وأسفل منها كان يشملنا جو تلك الليلة، فقد كنا نسير مطمئنين فى هواءٍ صافٍ. تذكر جويدو أيضاً تلك الأمسية المشهودة:

- إنها المرة الأولى التى نسير فيها معاً من جديد ليلاً. أتذكر؟
شرحت لى آنذاك أنهم كانوا يتبادلون القبلات فى القمر مثلما يجرى
على سطح الأرض. ولكنهم ما زالوا يواصلون القبلة الخالدة، أنا على
يقين من ذلك على الرغم من أن القمر لا يرى هذا المساء. أما،
هنا بأسفل...

أكان يرغب فى البدء بحديث سيئ عن آدا؟ عن السقيمة البائسة؟
قاطعته، ولكن فى هدوء، كما لو كنت أشاركه (أما صاحبتة لأساعده
على النسيان؟):

- حقاً! هنا لا يمكن مواصلة تبادل القبلات! ثم لا يوجد هناك
فى السماء سوى صورة القبلة، والقبلة حركة، قبل كل شىء.

حاولت أن أبتعد عن جميع تساؤلاته، وهذا يعنى الميزانية وآدا،
وحقيقةً أننى تمكنت فى اللحظة المناسبة أن ألغى جملة كنت على وشك
أن أنطق بها، وهى أن القبلة هناك لا تنجب توائم. لكنّه، لكى يتخلص من
التفكير فى الميزانية، لم يجد أفضل من الشكوى من مصائبه الأخرى.
وكما استشعرت، فقد تحدث بسوء عن آدا، استهل كلامه بالأسف على
شدة ما أصابه فى عام زواجه الأول. لم يتحدث عن التوأمين الغاليين
والجميلين، بل عن مرض آدا. كان يعتقد أن المرض جعلها سريعة
الغضب، غيورا، وفى الوقت نفسه أقل حناناً. أنهى حديثه وهو يصيح
بحزن شديد:

- الحياة ظالمة قاسية!

رأيت بشيء قاطع أن هناك ما يمنعني من أن أتقوه بكلمة واحدة تتضمن رأياً فيما بينه وبين أدا. لكنني شعرت بأنه على أن أقول على الرغم من ذلك شيئاً. أفضى به الأمر إلى الحديث عن الحياة، وقد وصفها بصفتين لا تحملان صفة الغرابة المفرطة. واكتشفت الأمور بصورة أفضل تماماً؛ حيث أخذت أمعن التفكير فيما ذكره من قبل. أحياناً كثيرة تقال أشياء طبقاً لصوت الكلمات التي تتألف بالمصادفة. وبعد ذلك مباشرة، نذهب لنرى إذا كان ما قيل يستحق النفس الذي استهلك فيه، وفي بعض الأحيان نكتشف أن التألف العشوائي أسفر عن فكرة ما. فقلت:

– الحياة ليست قبيحة ولا جميلة، بل غريبة الأطوار!

عندما فكرت في الأمر بدا لي أنني قلت شيئاً مهماً.

ظهرت لي الحياة، وقد سُميت على هذا النحو، جديدة حتى مكثت أتأملها كأنما رأيته للمرة الأولى بأجسامها الغازية والسائلة والصلبة. لو كنت أخبرتك بذلك أحداً لم يعتد عليه، وليس لديه بالتالي إحساسنا المشترك، لتوقفت أنفاسه أمام ذلك البناء الضخم بلا هدف، ولسألتني: «لكن كيف تحتملونها؟». وما إن يستعلم عن كل التفاصيل الدقيقة بداية من تلك الأجسام السماوية المعلقة في أعلى السماء لكي نراها ولكن لا نلمسها، إلى عالم الأسرار الذي يحيط بالموت، حتى يصيح دون شك قائلاً: «في غاية الغرابة!».

– الحياة غريبة الأطوار! قال جويدو ضاحكاً. أين قرأت هذا؟

لم أبالِ بأن أؤكد له أنني لم أقرأه فى أى مكان، وإلا لقلت أهمية حديثى بالنسبة له. لكن، كلما أمعنت التفكير فى الحياة، وجدتُها أكثر غرابة. ولا يلزم أبداً أن نأتى من عالم خارجى لنراها مركبة بأسلوب فى غاية الغرابة، يكفى أن نتذكر كل ما توقعناه نحن البشر من الحياة، حتى نراها غريبة بالدرجة التى نخلص منها إلى أن الإنسان ربما وضع بداخلها عن طريق الخطأ، وأنه لا ينتمى إليها.

ودون أن نتفق على اتجاه نزھتنا، وصلنا مثل المرة السابقة إلى مطلع طريق بيلقيديرى، عندما وجد جويدو الجدار الصغير الذى استرخى عليه تلك الليلة، صعد عليه واضطجع تماماً مثملاً فعل تلك المرة. أخذ يُدندن، ربما كان لا يزال يشعر باختناق من قلقه، ومن المؤكد أنه كان يفكر ملياً فى الأرقام الحتمية بدفاتر حساباته. أما أنا فتذكرت أنني كنت أريد قتله فى ذلك المكان، وعندما قارنت بين مشاعرى آنذاك وأحاسيسى فى تلك اللحظة، أخذت أتعجب للمرة الثانية من غرابة الحياة التى لا تقاربها غرابة. لكن تذكرت فجأة أنني منذ وقت وجيز، وفى نزوة غرور، تعاملت بقسوة مع جويدو المسكين، وهو يوم من أسوأ أيام حياته. شغلت نفسى بالبحث فى مسألة: دون الشعور بألم كبير، كنت أشاهد العذاب الذى كان يعانى منه جويدو بسبب الميزانية التى ضبطنها معاً بعناية شديدة، وخطر لى شك عجيب، ويعدّه مباشرةً ذكرى غريبة. أما الشك فكان تساؤلاً: هل كنت طيباً أم شريراً؟ وأما الذكرى، وقد أثارها على حين غفلة شك ليس بجديد؛ فهى أنني رأيتنى طفلاً أرتدى (وأنا على يقين من هذا)

مع ذلك تنورة قصيرة، وعندما كنت أرفع وجهي لأسأل والدتي الباسمة: «أطيب أنا أم شرير؟»، وحينئذ كان لابد للشك من أن يراود الطفل بسبب كثيرين قالوا له إنه طيب وآخرين كثيرين وصفوه بالشرير، وهم يمزحون. لم يكن هناك داعٍ للدهشة على الإطلاق أن يصبح الصبي حائراً بين البديلين. يالها من حياة غريبة بوجه لا يقارن! عجيب أن ذلك الشك الذي حُكم به على الصبي بصورة طفولية للغاية، لم يبدده الشخص الناضج وقد تعدى منتصف عمره.

فى الليلة الداكنة، فى ذلك المكان بالضبط، حيث رغبت فى قتله من قبل، عذبنى ذلك الشك عذاباً شديداً. من المؤكد أن الطفل عندما أحس ذلك الارتياح يراود رأسه الذى تحرر منذ قليل من غطاءه، لم يتألم كثيراً حيث يُحكى للأطفال أنه يتم الشفاء من نزعة الشر. ولأتخلص من هذا العذاب الشديد رغبت فى الإيمان بذلك من جديد، ونجحت. لو لم أتمكن من ذلك، لبكيت من أجل نفسى، ومن أجل جويديو ومن أجل حياتنا البائسة. وها هو ذا قرارى الذى جدد الشعور بالوهم! إنه عزمى على الوقوف بجانب جويديو والتعاون معه لإنجاح تجارته التى تكفل معيشته هو وعائلته، ويدون مقابل. تراءت لى إمكانية أن أسارع، وأجتهد وأبحث من أجله، ولكى أقدم له يد المساعدة، سلّمت بإمكانية أن أصبح تاجراً عظيماً، مغامراً، وعبقرياً. وعلى هذا النحو أخذت أفكر بالفعل فى تلك الليلة المعتمدة فى هذه الحياة متناهية الغرابة!

فى غضون ذاك توقف جويدو عن التفكير فى الميزانية. ترك مكانه وبدا عليه صفاء النفس، كأنما استخلص نتيجة ما من تفكير لم أعرف عنه شيئاً، قال لى إنه لن يخبر والده بشىء، وإلاّ فسيقطع العجوز المسكين تلك الرحلة الطويلة الشاقة من شمس الصيفية حتى ضبابنا الشتوى. ثم أضاف لى أن الخسارة تبدو للوهلة الأولى جسيمة، فى حين لن تصبح فيما بعد كبيرة إن لم يتحملها كاملةً بمفرده. سيرجو آدا أن تتحمل نصفها، وفى المقابل سيمنحها جزءاً من أرباح العام التالى. وسيتكفل هو بالنصف الآخر من الخسارة.

لم أتفوه بشىء، وانتبهت أيضاً إلى أن هناك ما يمنعنى من إبداء النصيحة، وإلاّ فسأنتهى إلى القيام بما كنت لا أرغب فيه على الإطلاق، وهو أن أقيم نفسى حكماً بين زوجين. وفضلاً عن ذلك كانت تغمرنى حينئذ نيات جيدة، حيث رأيت أن آدا ستقوم بصفقة رابحة بمشاركتها فى مؤسسة تجارية نقوم بإدارتها.

اصطحبت جويدو إلى باب منزله وصافحته طويلاً؛ حتى أجدد فى هدوء نيتى فى منحه محبتى. ثم اجتهدت أن أقول له شيئاً لطيفاً، وتوصلت إلى هذه الجملة:

- فلينعم طفلاك بليلة طيبة ويدعاك تنام؛ لأنك تحتاج بالتأكيد إلى الراحة.

فى أثناء انصرافى عضضت شفتى أسفاً على أنى لم أجد شيئاً أفضل من هذا أقوله له. وما دمت كنت أعرف أن التوأمين كانا يحظيان

حيثُ بُدِئَ بمربيةٍ لكلٍ منهما وينامان على بعد نصف كيلو متر منه، وما كان
يتمكنان من إزعاجه في أثناء نومه! على أية حال لقد أدرك مغزى
الأمنية، حيث تقبلها وهو ممتن.

عندما وصلت إلى البيت، وجدت أوجوستا وقد آوت إلى حجرة النوم
مع الطفلين. كان ألفيو متعلقاً بصدرها، في حين كانت أنتونيا ترقد في
فراشها الصغير وهي تدير لنا عنقها ويغطيه خصلات شعرها المموج.
رأيت أن أبرر لها سبب تأخيرى، وبالتالي قصصت عليها أيضاً الوسيلة
التي فكر فيها جويدو للتخلص من خسائره. رأت أوجوستا أن اقترح
جويدو غير لائق:

– لو كنت في موضع آدا لرفضت – قالت في حدة على الرغم من
صوتها الخافت لكى لا تفزع الصغير.

دفعتنى نياتى الحسنة، فجادلتها:

– إذا، إن وقعت في المحنة ذاتها التي يمر بها جويدو أفلا
تساعديننى؟

ضحكت قائلة:

– الأمر يختلف تماماً! سنرى فيما بيننا نحن الاثنين ما يمكن أن
يحقق إفادة أكبر لهما! وأشارت إلى الرضيع الذى كانت تحمله على ذراعها
وإلى أنتونيا. ثم، بعد لحظة من التفكير، استمرت قائلة: – إذا نصحنا
آدا الآن أن تهب أموالها لبقاء ذلك العمل الذى لن تشارك أنت فيه عمّا
قريب، ألن نلتزم فيما بعد بتقديم تعويض لها إذا خسرت؟

كان تفكيراً ينم عن جهل، لكن بنزعتي الجديدة للإيثار صحت:
- ولمَ لا؟

- أما ترين أن لدينا اثنين من الأطفال لا بد أن تنتشغل بهما؟
وكم كنت أراهما! كان السؤال صيغة بلاغية خالية حقاً من المغزى.
- أليس لهما هما أيضاً طفلان؟ سألتها بنبرة ظافرة.

بدأت تضحك بصوت عالٍ، فأفزعت أليفو الذى ترك الرضاعة وبكى
فى الحال. انشغلت به، لكنها ظلت تضحك، وتقبلت ضحكها، وكأئننى
كسبته بخفة روحى، فى حين أنه فى الحقيقة، فى اللحظة التى وجهتُ
فيها ذلك السؤال، كنت أشعر بحب عظيم ينبض فى صدرى نحو آباء
جميع الأطفال وأطفال جميع الآباء والأمهات. ثم أتى الضحك، فلم يبق
من هذا الحب شىء.

ولكن هدأ أيضاً شعورى المؤلم بعدم استطاعتي أن أكون طيباً
بشكل جوهري. بدا لى أننى حللت المشكلة المؤلمة. فلم يكن هناك أخيار
ولا أشرار، كما أنه لا يوجد بعد أشياء أخرى كثيرة. فالطيبة هى الضوء
الذى ينير النفس البشرية الغامضة لحظات ومضات. ويلزم وجود
المشعل الملتهب لكى يضىء (كان هذا المشعل يوجد بداخل نفسى، وأجلاً
أو عاجلاً سيعود أيضاً دون شك) والإنسان الذى يفكر فى هذا الضوء
يتمكن من اختيار الاتجاه ليتحرك فيما بعد فى الظلمات؛ ومن ثم
نستطيع أن نظهر طيبين، فى غاية الطيبة، ودائماً أخياراً، وهذا هو المهم.

وإذا ما عاد الضوء، فلن يفاجئ أو يخطف الأبصار. وانفخت فيه لأطفئه أولاً، حيث كنت لا أحتاج إليه، ولتمكنت أيضاً من الاحتفاظ بالنية، أى الاتجاه الذى عزمت عليه.

إن قرارى أن أكون طيب القلب قرار هين وعملى، وكنت فى تلك اللحظة هادئاً وبارداً. غريب! إن الإسراف فى التفكير فى الطيبة جعلنى أبالغ فى اعتدادى بنفسى وبقدراتى. ما الذى كان يمكن أن أصنعه لجويدو؟ حقاً أنى فى مكتبه كنت أفوق آخرين بقدر ما كان أوليفى الوالد يسيطر على بمكتبى. لكن هذا لا يدل على كثير. ولكى أكون عملياً بالفعل: بماذا كان على أن أنصح جويدو فى اليوم التالى؟ هل أنصحته؟ وإن كانوا حتى على طاولة القمار لا يأخذون بالإحباء مطلقاً عندما يلعبون بأموال الآخرين! ينبغى لإنعاش مؤسسة تجارية أن توفر لها عملاً دائماً، وهذا يمكن الوصول إليه بالعمل طوال الوقت فى إطار نظام من النظم. لم أكن أنا من يستطيع أن يقوم بشيء مماثل، ولم أه عدلاً أن أعرض نفسى للسأم مدى الحياة من فرط الطيبة.

كنت مع ذلك أشعر بداخلى بإحساس نابع من رغبتى فى أن أكون طيباً، وكأنه التزام تعهدت به مع جويدو، ولم أستطع أن أغمض جفنى. تنهدت عدة مرات إلى أن ارتجفت مرة، من المؤكد أن ذلك كان فى اللحظة التى هبى لى فيها أنى سأرغم على الارتباط بمكتب جويدو، مثلما تقيد أوليفى بمكتبى.

بين اليقظة والنام همست أوجوستا:

- ما بك؟ أثمة شيء آخر تقوله لأوليفي؟

هاهى ذى الفكرة التى كنت أبحث عنها! كان على أن أنصح جويدو باتخاذ أوليفي الابن مديراً له! ذلك الشاب غاية فى الجدية والاجتهاد، على الرغم من أننى كنت أطيعه على مضض فى أعمالى؛ لأنه كان يبدو لى على استعداد لأن يحل محل أبيه فى إدارة شركتى حتى يبعدانى عنها بصفة نهائية، كان شاباً يعمل على نحو واضح ولصالح الجميع فى مكتب جويدو. وإذا ما كُلف بوظيفة بشركته، فسينجو جويدو. وسيفيد الشاب أوليفي بصورة أكبر فى ذلك المكتب وليس فى مكتبى.

حمستنى الفكرة، وأيقظت أوجوستا لأخبرها بها. تحمست هى أيضاً لها، حتى إنها أفاقت كلياً. ظننت أننى على هذا النحو أستطيع أن أنأى بسهولة عن التورط فى صفقات جويدو. خلدت إلى النوم وضميرى مطمئن: لقد عثرت على الوسيلة التى أنقذ بها جويدو دون أن أحكم على نفسه. كانت وسيلة مختلفة تماماً.

ليس هناك شيء مثير للضيق أكثر من الشعور بنبذ نصيحة استغرقت دراستها بصدق وجهد قدراً من ساعات النوم. ثم كان هناك جهد آخر قمت به، وهو أن أخلع عنى التوهم بمقدرتى على المساعدة فى أعمال جويدو. كان جهداً ضخماً. توصلت معه فى بادئ الأمر إلى طيبة نفس صادقة، ثم إلى موضوعية مطلقة، وتنبهت معها لعدم صلاحيتى!

رفض جويدو مشورتى رفضاً مباشراً فى ازدراء. لم يكن يرى الشاب أوليفى كفتاً، فضلاً عن هيئته التى تجعل منه شاباً مسناً، وكانت تسوءه أيضاً تلك النظارة اللامعة على وجهه الشاحب. كانت الذرائع حقاً دليلاً لتوهمنى بأنه لم يكن بينها سوى واحدة جوهريّة: هى الرغبة فى مضايقتى. أنهى حديثه بأنه قد يقبل مديراً لمكتبه ليس الابن، بل العجوز أوليفى. لكنى لم أكن أرى باستطاعتى أن أضمن له تعاون هذا الأخير، فضلاً عن عدم تأهّبى لتحمل إدارة أعمالى بين الحين والآخر. أخطأت فى جدالى معه، وقلت له إن أوليفى الأب ليس له قيمة كبيرة. أخبرته كم من الأموال كلّفتنى عناده فى عدم رغبته فى شراء ذلك الزبيب فى اللحظة المواتية.

- حسناً! - صاح جويدو - إذا كان العجوز رجلاً قليل القدر إلى هذا الحد، فما القيمة التى يمكن أن يبلغها الشاب وهو ليس إلا تلميذاً له؟

وهاهى ذى أخيراً مناقشة جيدة، وكم كانت مناقشة باعثة على سخطى؛ لأننى طرحته عليه بثرتى المتهورة.

توالت أيام قلائل، وأخبرتني أوجوستا أن جويدو اقترح على آدا أن تتحمل من أموالها نصف خسارة الميزانية. رفضت آدا الاقتراح وقالت لأوجوستا:

- يخوننى ويريد أيضاً أموالى!

لم تتجراً أوجوستا أن تنصحها بإعطائه المال، لكن أخذت تؤكد أنها بذلت كل وسعها لتغيير رأى آدا حول مسألة إخلاص زوجها . جعلتنا إجابتها نحكم بأنها تعلم من الأمور بهذا الصدد أكثر مما كنا نعتقد. وتناقشت أوجوستا معى على هذا النحو:

ينبغى القيام بأى توضحية من أجل الزوج، لكن هل هذه الحقيقة المسلمة يستحقها جويدو أيضاً؟

فى الأيام التالية جاء سلوك جويدو بالفعل غير مألوف. كان يأتى إلى المكتب من وقت لآخر، ولا يمكث به مطلقاً أكثر من نصف ساعة. كان يسرع بالانصراف كمن نسى منديله فى المنزل. علمت فيما بعد أنه كان يذهب ليحمل لآدا براهين جديدة بدت له حاسمة لحثها على تنفيذ رغبته. كان مظهره يدل حقيقة على إنسان بكى كثيراً أو صاح كثيراً، أو بالأحرى تعارك مع نفسه، ولم ينجح حتى فى حضورنا أن يسيطر على انفعاله الذى يخلق حلقه ويجلب الدمع إلى عينيه. سألته عما يشغله؛ أجابنى بابتسامة حزينة، لكنها ودود، ليظهر لى أنه لا يحقد على. ثم تمالك نفسه ليتمكن من الحديث معى، دون أن ينقل أكثر مما ينبغى. وفى النهاية ذكر بضع كلمات: أن آدا كانت تعذبه بغيرتها.

ومن ثم أخبرنى بمناقشاتهما عن شئونهما الحميمة، وكنت أعلم على الرغم من ذلك أن هناك مسألة «حساب الأرباح والخسائر» التى كانت تدور بينهما.

لم يبدُ ثمة أهمية لهذا الأمر. هذا ما قاله جويدو لى وقالته أدا لأوجوستا كذلك، ولم تكن تتحدث معها إلا عن غيرتها. فضلاً عن أن تلك المناقشات العنيفة، التي خلفت أثراً عميقة على وجه جويدو، كانت توهم بأنهما يقولان الحقيقة.

وقد اتضح فيما بعد أن الزوجين لم يتحدثا إلا في مسألة الأموال. فآدا لكبرياتها، وتحت وطأة آلامها العاطفية التي كانت توجهها، لم تنوّه قط عن الصفقات، أما جويدو، فربما لوعيه بذنبه، وعلى الرغم من أنه كان يشعر بما يثير ذلك في أدا من سورة غضب المرأة، أخذ يستمر في مناقشتها في الأعمال، كأن لم يكن هناك سوى ذلك. كان يلهث أكثر فأكثر سعياً وراء تلك الأموال. في حين أخذت هي، التي كانت لا تعنيها مسألة الصفقات على الإطلاق، تعارض اقتراح جويدو بحجة واحدة: الأموال لا بد أن تقتصر على الأطفال، وكلما كان يعثر على ذرائع أخرى، مثل راحة باله، أو الفائدة التي ستعود على الأطفال أنفسهم من أعماله، أو الضمانات القانونية التي يمكن تقديمها، كانت ترفض بشدة: "لا". كان هذا يثير يأس جويدو، ويثير - كما يحدث لدى الأطفال - رغبته أيضاً. في حين أن كليهما - عندما كانا يتحدثان للآخرين - كانا يظنان أنهما على صواب، وهما يؤكدان أن معاناتهما ترجع إلى الحب والغيرة.

كان نوعاً من سوء الفهم الذي منعنى من التدخل في اللحظة المناسبة لإيقاف مسألة المال المؤسفة. كان بإمكانى أن أثبت لجويدو أنها في حقيقة الأمر بلا أهمية. فأننا بطيء الفهم في المحاسبة بعض الشيء،

ولا أستوعب الأمور إلا بعد أن أنظمها في الدفاتر وأسجلها، لكن أعتقد أنني سرعان ما أدركت أن المبلغ الذي كان جويدو يلح في طلبه من آدا لن يغير الأوضاع كثيراً. بم كان يفيد حقاً السعى وراء دفع مبلغ من المال؟ فالخسارة على هذا النحو لن تبدو ضئيلة مطلقاً، ما لم توافق آدا على سكب أموالها في تلك الحسابات، الأمر الذي لم يطلبه جويدو. والقانون لن ينخدع عندما يجد أن هناك رغبة، بعد وقوع خسارة كبيرة، في مخاطرة أكبر قليلاً بإجتذاب رؤوس أموال جديدة في الشركة.

ذات صباح لم يظهر جويدو بالمكتب مما أدهشنا؛ لأتنا كنّا نعلم أنه لم يذهب للصيد مساء الليلة السابقة. وعلى مائدة الطعام أخبرتنى أوجوستا، وقد كانت متأثرة ومنفعلة، أن جويدو حاول الانتحار في الليلة السابقة. وهاهو ذا بعيد عن الخطر. لابد أن أعترف أن الخبر، الذي كان مفاجئاً لأوجوستا فيما يبدو، قد أثار غضبى.

لقد لجأ إلى تلك الوسيلة العنيفة ليحدّ من مقاومة زوجته! سرعان ما علمت كذلك أنه فعلها مع توخى تمام الحذر، حيث أراها قبل أن يتناول المورفين الزجاجة منزوعة السدادة في يده. وهكذا فور أن غفا، استدعت آدا الطبيب، وسرعان ما زال عنه الخطر. مرّت بأدا ليلة مفزعة؛ لأن الطبيب رأى ضرورة التحفظ حول نتيجة التسمم، ثم أطلال جويدو انفعال آدا؛ لأنه عندما استفاق، وربما لم يكن في وعيه التام، غمرها باللوم وقال بأنها عدوته، وهى التى تعذبه، وتمنعه من عمله السليم الذى يريد البدء فيه.

فى الحال وافقت له على القرض الذى كان يطلبه، لكن بعد ذلك، فى نهاية الأمر، وبهدف أن تحمى نفسها، تحدثت بوضوح، ووجهت له كل اللوم الذى كانت تحتفظ به منذ وقت بعيد. وعلى هذا النحو توصلنا إلى التفاهم بينهما، حيث وُفق جويدو - حسبما ظننت أوجوستا - فى إزالة الشكوك بداخل آدا حول مسألة إخلاصه. صار قوياً، وعندما تحدثت إليه عن كارمن، صاح:

- هل تغارين منها؟ حسناً، سأطردها اليوم إذا رغبت فى ذلك.

لم تجب آدا، وظننت هكذا أنها قبلت الاقتراح، وأنه تعهد به.

أخذتني الدهشة من أن جويدو استطاع أن يتصرف على هذا النحو ما بين النوم واليقظة، وبلغ بى الظن أنه لم يتناول حتى الجرعة القليلة من المورفين التى ذكرها. كنت أعتقد أن أحد تأثيرات تشويش العقل فى أثناء النعاس، يتمثل فى إذابة أشد ما بالنفس من صلابة، وحملها على أكثر الاعترافات بساطة. ألم أمر بهذه المغامرة منذ فترة ليست ببعيدة؟ هذا مما زاد من ازدرائى وسخطى على جويدو.

كانت أوجوستا تبكى، وهى تحكى الحالة التى وجدت عليها آدا. كلاً! آدا لم تعد جميلة وهى بعينها الشاخصتين قرعاً.

تحدثنا أنا وزوجتى طويلاً حول ما إذا كان على أن أقوم بزيارة لجويدو وآدا على الفور، أم أنه من الأفضل التظاهر بأننى لا أعلم شيئاً، وأنتظر حتى أراه ثانية بالمكتب. كانت تلك الزيارة بالنسبة لى مصدر

إزعاج لا يطاق. عندما أقابله، كيف كان بإمكانى ألا أبوح له بما يدور
بخلدى؟ قلت:

- إنه أسلوب لا يليق برجل! ليست لدى أية نية فى الانتحار، لكن لا
شك أننى إن قررت القيام بذلك فسأنجح فيه فوراً.

هذا ما كنت أشعر به تماماً، وكنت أرغب فى أن أخبر أوجوستا به.
لكن كنت أرى أنى أكرم على جويدو أكثر مما ينبغى، إذا ما قارنته
بنفسى:

- لا يلزم مطلقاً أن نكون علماء بالكيمياء لكى نستطيع القضاء
على جسدنا هذا، فهو أيضاً فى غاية الضعف. ألم يمر أسبوع على وجه
التقريب، فى مدينتنا، على تلك الخياطة التى تجرعت محلول الفوسفور
الذى أعدته خلسة فى حجرتها الصغيرة المتواضعة، ومن هذا السم
البدائى، وعلى الرغم من كل تلك العمليات لإنقاذها، واجهت الموت بوجهها
الذى كان لا يزال متقلصاً من الألم البدنى والمعنوى الذى أصاب نفسها
البسيطة البريئة؟

لم تقبل أوجوستا أن نفس الخياطة المنتحرة كانت على هذه الدرجة
من البراءة، لكنها، وبعد اعتراض عابر على ما قلت، عاودت المحاولة
فى حثى على القيام بتلك الزيارة. أخبرتنى ألا أخشى الحرج. فلقد
تحدثت مع جويدو الذى تعامل معها بهدوء شديد، كما لو أنه قام بعمل
مألوف للغاية.

غادرت المنزل دون أن أرضى أوجوستا بإظهار اقتناعى برأيها. وبعد تردد بسيط بدأت بالفعل الطريق لإسعاد زوجتى. وعلى الرغم من أن المسافة كانت قصيرة، فقد ساقنى إيقاع خطواتى إلى تخفيف حكمى على جويدو. تذكرت الاتجاه الذى أرشدنى إليه الضوء الذى أنار نفسى قبل بضعة أيام. كان جويدو بالنسبة لى صبيًا، فتى صغيراً وعدته يتسامحى. إن كان لم يوفق فى الانتحار من قبل، فسيصل هو أيضاً عاجلاً أو آجلاً إلى مرحلة النضج.

أدخلتنى الخادمة فى حجرة صغيرة غالباً ما كانت غرفة مكتب آدا. كان النهار غيوماً ومساحة الحجرة ضيقة، وبها نافذة واحدة مغطاة بستار سميك، مما جعلها مظلمة. كانت صور أبوى آدا وجويدو معلقة على الحائط. مكثت بها قليلاً حيث عادت الخادمة لتدعونى وتقودنى إلى جويدو وآدا فى حجرة النوم. كانت رحبة ومضيئة حتى فى ذلك اليوم، بفضل نافذتيها المتسعيتين ومفروشاتهما وأثاثها فاتح اللون. كان جويدو يرقد فى فراشه ورأسه معصوب، وإلى جواره تجلس آدا.

استقبلنى جويدو دون أى حرج، بل بامتنان كبير. كان يبدو كما لو أن النُّعاس يغالبه، لكنه استطاع أن يفيق ويستيقظ تماماً، ليلقى على التحية ثم يملأ على أوامره. ثم استرخى على الوسادة وأغمض عينيه. هل تذكر أنه لا بد أن يتظاهر بتأثير المورفين الشديد؟ على أية حال كان لا يثير السخط، بل الشفقة؛ فشعرت بالرافة تغمرنى.

لم أنظر مباشرة إلى آدا: كنت أخشى من ملامح باسيدوى. وعندما نظرت إليها، سرّتنى المفاجأة؛ لأننى كنت أتوقع الأسوأ. كانت عيناها متسعيتين بحق أكثر مما ينبغى، لكن الانتفاخات التى كانت قد حلت محل وجنتيها على وجهها، اختفت فوجدتها أكثر جمالاً. كانت ترتدى ثوباً فضفاضاً أحمر اللون، مقفلاً حتى الذقن، يتيه بداخله جسدها المسكين النحيف. كان بداخلها ثمة شىء من الطُّهر العظيم، وفى عينيها، شىء من الجدية الشديدة. لم أتمكن من استيضاح مشاعرى تماماً، لكننى شعرت حقاً أن بجوارى تجلس امرأة تشبه آدا التى أحببتها.

فى لحظة معينة اتسعت عينا جويدو، وأخرج من تحت الوسادة شيكاً، وفى الحال رأيت عليه توقيع آدا، سلّمه لى، ورجانى أن أصرفه، وأودع المبلغ فى حساب أفتحه باسم آدا.

- باسم آدا مالفتنى أم آدا سبيير؟ سألتُ آدا على سبيل المزاح.

رفعت كتفيها وقالت:

- أنتما الاثنان على علم بما هو أفضل.

- سأخبرك لاحقاً بما ينبغى أن تقوم به لإجراءات التسجيل الأخرى.

أضاف جويدو بإيجاز تسبب فى إهانتى.

أوشكت أن أقطع عليه النُّعاس الذى استسلم له على الفور؛ لأوضح

له أنه إن كان يرغب فى القيام بإجراءات التسجيل فليقم بها بنفسه.

فى غضون ذك أفضروا فنجاناً كبراً من القهوة قدمته آدا إله. أخرج ذراعله من تحت الأغطله، وحمل بلهله الفنجان على فمه. فى تلك اللحظة بءا، وأنفه فى الفنجان، طفلاً تماماً. أكد لى، فى أثناء انصرافى، أنه سىأتى إلى المكتب فى الوم التالى. وبعء أن حىت آءا انهشت كثيراً عندما لقت بى عند باب الخروج. كانت تلهث:

– تزىنو، أرجوك! تعال للضة. أضا أن أقول لك شىئاً.

تبعته إلى حرة الصالون الصغىرة حىث كنت قبل قلل، وكان يصل منه حىنئذ بكاء أء التوأمىن.

مكثنا واقفىن ىنظر أءنا إلى الآخر. كانت لا تزال مضطربة الأنفاس؛ ولهذا، بسبب هذا وحسب، فكرت للضة أنها سىءخلى فى تلك الحرة الصغىرة المعتمة لتسألنى الحب الذى قدمته لها من قبل.

فى الظلمة كانت عىناها الواسعتان مخىفتىن. كنت أوساع فى قلق شءىء ماذا كان على أن أقوم به. ألم ىكن من واجبى أن أأها بىن ذراعى، وبالتالى أوفر عله أن تسألنى شىئاً؟ كم من نىات تتبءل فى لحظة واحدة! من بىن الصعوباء البالغة فى الحىاة أن نحرُّ ما ترغب فىه امرأة. لن يفىء الاستماع إلى كلماتها؛ لأن نظرة واحدة قاءرة على أن تمحو حءىئاً كاملاً، ولن سىطىع ذك أىضاً أن ىوجهنا عندما نكون معها، بناء على رغبتها، فى حرة صغىرة ومعتمة.

لا يمكن تخمين ما تفكر به؛ لذا أخذت أفطن إلى ما يدور بداخلي.
ما رغبتى؟ هل كنت أريد أن أقبل هاتين العينين وذلك الجسد الذى
تحول إلى هيكل عظمى؟ لم أستطع إعطاء إجابة محددة، حيث رأيتها
قبل قليل فى عفتها الشديدة بذلك الثوب الناعم، مرغوبة مثل الفتاة التى
أحببتها من قبل.

فى تلك الأثناء صاحب البكاء أيضاً قلقها، وهكذا طال الوقت الذى
لم أدر فيه ماذا تريد وما أرغب فيه. وأخيراً، بصوت متقطع، وللمرة
الثانية أخبرتنى بحبها لجويدو، حتى إنه لم تعد على أية واجبات أو
حقوق نحوها. تلعثمت قائلة:

- قالت لى أوجوستا إنك ترغب فى ترك جويدو، والكف عن الاهتمام
بأعماله. رأيت أن أرجوك أن تستمر فى مساعدته، لا أعتقد أنه قادر على
الاعتماد على نفسه.

سألتنى أن أستمر فيما كنت أقوم به بالفعل، لم يكن كافياً، كان
بالفعل قليلاً، فحاولت أن أمنحها المزيد:

- كما تشائين، سأستمر فى مساندة جويدو؛ بل سأبذل قصارى
جهدى فى معاونته أكثر مما قمت به حتى الآن.

هاهى ذى مبالغة جديدة! أدركتها فى اللحظة ذاتها التى وقعت فيها،
لكننى لم أتمكن من التراجع عنها. كنت أريد أن أقول لآدا (أو ربما أكذب
عليها) إنها تضغط علىّ. لم ترغب فى حبنى، بل فى مؤازرتى، وقد تحدثت
أنا إليها بأسلوب تفهم منه أننى متأهب لكى أمنحها كليهما.

لكنني لم أشأ مغادرة تلك الحجرة دون أن أقول شيئاً آخر؛ ومن ثم ذكرت جملة، بدلاً من الحديث عن الحسابات، ألقيت بها بلا مبالاة في تلك اللحظة وحسب، حتى أقول أى شيء، في حين شعرت فيما بعد بأهميتها الكبيرة بالنسبة لى ولآدا وجويدو، لكنها كانت في المقام الأول مهمة لنفسى التى أقحمت بها أكثر من ذى قبل. كانت هذه الجملة باللغة الأهمية، حتى إننى تذكرتها لسنوات طويلة كأنما حرّكت شفتى، في عدم اكتراث، لأنطق بها في تلك الحجرة الصغيرة المظلمة في وجود الصور الأربع التى كانت لوالدى آدا وجويدو، ولهما في زفافهما أيضاً، وكانت معلقة على الحائط. قلت:

– آدا، انتهى بك الأمر إلى الزواج من رجل أغرب منى في الأطوار!

كم أن الكلمة قادرة على تخطى الزمن! إنها نفسها حدث يرتبط بالأحداث الأخرى! أصبحت حدثاً، حدثاً مفاجئاً؛ لأنها كانت موجّهة لآدا. لن أستطيع أبداً أن أستعيد في ذاكرتى، ويمثل ذلك الوضوح، تلك اللحظة التى اختارت آدا بينى وبين جويدو على ذلك الطريق المشمس؛ حيث تمكنت من لقائها، بعد أيام من الانتظار، لأسير إلى جوارها وأجتهد في استمالة ضحكها الذى كنت ببلاهة منى ألتقاه على أنه وعد! وكذلك تذكرت أننى في ذلك الوقت كنت أشعر بالنقص للخل الذى كان يعترى عضلات ساقى، في حين كان جويدو يتحرك برشاقة أكثر من آدا ذاتها، ولم يكن لديه ما يدل على أى عيب لو لم يؤخذ في الحسبان تلك العصا الغريبة التى كان يعتاد حملها.

قالت بصوت خفيض:

- حقاً!

ثم ابتسمت بمودة قائلة:

- لكننى سعيدة لأوجوستا؛ لأنك أظهرت كثيراً مما كنت أتصور.
واصلت وهى تتنهد: - أفضل كثيراً، مما يخفف بعض الشيء من ألى
من أن جويدو ليس على الصورة التى كنت أتوقعها.

ظلت صامتاً، ومازال الشك يساورنى. خيل إلى أنها قالت إنى
أصبحت الصورة التى كانت تتوقع أن يكون عليها جويدو. أهو حب إذا؟
واسترسلت:

- أنت أفضل رجل فى عائلتنا، أنت ثقتنا، وأملنا. أمسكت بيدي
مرة ثانية، وربما ضغطت أنا على كفها أكثر مما ينبغى. لكنها سحبتة
منى على الفور، مما أزال أى شك. وفى تلك الحجرة الصغيرة المعتمدة
أدركت من جديد كيف كان على أن أتصرف. وربما لتخفف من وطأة
حركتها وجّهت لى دعابة أخرى: - ولأننى عرفتك هكذا أتألم كثيراً لأننى
عذبتك. أحقاً شعرت بألم كبير؟

على الفور غمست عينى فى ظلمة الماضى لأعثر على ذلك الألم
وهمست:

- نعم!

تذكرت شيئاً فشيئاً آلة كمان جويديو، ثم كيف كانوا سيلقون بى خارج ذلك الصالون، لو لم أتشبث بأوجوستا، فضلاً عن صالون بيت مالفنتى، حيث كان يطرح الغرام حول المنضدة من طراز لويس الرابع عشر، فى حين يتم تبادل النظرات فى الجانب الآخر. وفجأة تذكرت كذلك كارلا، حيث كانت معها آدا أيضاً، سمعت عندئذ صوت كارلا واضحاً يقول لى إننى ملك زوجتى، أى آدا كما كانت تعتقد كارلا.

كررت، ودمعى يترقرق فى عيني:

- كثيراً! نعم! كثيراً!

تنهدت آدا بالفعل: - يؤسفنى جداً، جداً!

اجتهدت قائلة:

- لكنك الآن تحب أوجوستا!

قاطعتها شهقة للحظة، فارتجفت وأنا إذ لم أدر إن كانت توقفت لتسمع منى هل يؤكد هذا الحب أم أنكره، لم تعطينى لحسن الحظ الفرصة للكلام؛ لأنها استمرت قائلة:

- يوجد بيننا الآن حب أخوى حقيقى، ولا بد أن يكون. أنا فى حاجة إليك، ينبغى أن أكون من الآن فصاعداً أمماً، على أن أحمى ذلك الفتى المستلقى هناك، أراغب أنت فى معاونتى فى هذا الواجب الشاق؟

كادت تستند على، وهى فى انفعالها الشديد، كما فى الحلم. لكننى التزمت بكلامها، سألتنى عاطفة أخوية؛ ومن ثم تحول الالتزام بالحب

الذى خلته يربطنى بها إلى حق آخر من حقوقها، فوعدها على الفور بمساعدتها هى وجويدو والقيام بكل ما تريده، لو كنت أكثر صفاء للذهن لكان لزاماً على أن أحدث إليها عن عدم كفاءتى فى القيام بالمهمة التى كلفتنى بها، ولقضيت مع ذلك على مشاعر تلك اللحظة التى لا تنسى، على أية حال كنت متأثراً، حتى إننى لم أستطع الشعور بعدم كفاءتى، كان يبدو لى حينئذ أنه ليس هناك قصور لدى أحد على الإطلاق، وكذلك قصور جويدو ربما تبدد بعيداً ببعض الكلمات التى تعطيه الحماس اللازم.

رافقتنى أدا إلى راحة السلم، وظلّت هناك، تستند على الدرابزين، لترانى وأنا أهبط السلم. هذا ما كانت تفعله كارلا دائماً، لكنه شىء غريب أن تفعله أدا وهى تحب جويدو، شعرت بالامتنان لها على ذلك حتى إننى رفعت رأسى لأنظر إليها وأحييها، قبل أن أهبط الدرج الثانى. هذا ما يحدث فى الحب، لكنه يحدث أيضاً كما كان واضحاً، عندما يتعلق الأمر بحب أخوى.

وعلى هذا النحو انصرفت وأنا مسرور. اصطحبتنى حتى راحة السلم، وليس أبعد من ذلك. لم يعد هناك شكوك، وبقينا على هذا الحال: أحبيبتهما ثم أحبيت أوجوستا، لكن حبنى القديم أعطاها الحق فى أن أخلص لها. ومع ذلك فقد استمرت فى حب ذلك الفتى جويدو، ولكنها كانت تكن لى حبا أخوياً، ليس لأننى تزوجت من أختها وحسب، بل لتعوضنى عن الآلام التى جلبتها لى، وكانت بمثابة رباط خفى فيما بيننا.

كان هذا كله فى غاية العذوبة، وله مذاق نادر فى هذه الحياة. ألم يكن لهذه العذوبة الشديدة أن تهب لى الصحة الحقيقية؟ فى ذلك اليوم مشيت حقاً دون اضطراب أو ألم، شعرت بصدري رحباً وأحسست فى قلبى شعوراً جديداً بالأمان لم أألفه من قبل.

نسيت أنى خنت زوجتى وبأكثر الأساليب وقاحة أيضاً، وأنى لم أعقد العزم على ألا أعود لذلك والأمران سيان، وأحسست حقاً أننى كما كانت ترانى آدا، الرجل الأمثل فى العائلة.

ولما ضعفت نزعة البطولة القوية بداخلى، أردت أن أحييها، لكن آدا فى تلك الأثناء كانت قد رحلت لبولونيا، وعبثاً كانت كل مجهوداتى فى أن أخلص إلى دافع مما قالت له لى من قبل. نعم! كنت سأقوم بذلك القدر القليل الذى أستطيع من أجل جويدو، لكن قراراً كهذا لم يكن ليزيد من كمية الهواء فى رئتى ولا الدم فى عروقى. ظل فى قلبى شعور جديد بمودة كبيرة تجاه آدا أخذت تتجدد كل مرة تذكرنى فيها بكلمات حانية فى خطاباتها لأوجوستا. كنت أبادلها مودتها من صميم قلبى، وأتابع علاجها بأفضل الأمنيات. ليتها تمكنت من استعادة صحتها وجمالها كاملاً!

فى اليوم التالى جاء جويدو إلى المكتب، وعلى الفور أخذ يراجع عمليات التسجيل التى كان يودُّ القيام بها. اقترح قائلاً:

- نحول الآن حساب الأرباح والخسائر إلى مناصفة مع حساب

آدا.

كان هذا ما يريده بالتحديد، ولم يكن يفيد فى شىء. لو أننى ظلت المنفذ لإرادته دون تدخل كما كنت عليه قبل أيام قلائل، لقمّت بتنفيذ تلك التسجيلات ببساطة شديدة، ولما اهتممت بها مطلقاً. لكننى شعرت بواجبى فى إخباره بكل شىء؛ رأيت أن أحثه على العمل، وأن أعرفه أن المسألة ليست هينة لهذه الدرجة لمحو الخسارة التى تكبدها.

شرحت له، أنه حسب ما علمت، أعطت أداً ذلك المبلغ لكى يتم وضعه كرصيد دائن فى حسابها، وأن ذلك ما كان ليتم قط لو سويناه وأقحمنا بداخله نصف خسارة الميزانية. ثم إن نصف الخسارة الذى يريد أن ينقله هو فى حسابه يخصه، بل كان يخصه كاملاً، ولكن هذا لا يعنى محو هذه الخسارة، بل كشفها. فكرت بالأمر حتى يتيسر لى أن أفسر له كل شىء، وختمت قائلاً:

– ومع إمكانية حدوث – لا قدر الله! – الظروف التى توقعها أوليقي، فإن الخسارة ستتضح من دفاترنا، فور أن يراها خبير ممارس فى حسابات الميزانية.

كان ينظر إلىّ فى دهشة. كان يعلم فن الحسابات بحد كاف يجعله يدرك ما أقوله، ولكنه لم يستطع؛ لأن رغبته كانت تمنعه من تقبل الدليل الواضح. ثم أضفت؛ لأطلععه على كل شىء بوضوح:

– أترى أن ما تقوم به أدا من إيداع ليس له أى هدف؟

عندما أدرك فى النهاية شحبه وجهه بشدة، وأخذ يقضم أظافره بشكل عصبى. ظل مذهولاً، لكنه أراد أن يتمالك نفسه فى القيادة،

وبأسلوبه المضحك، قرّر أن تتم عمليات التسجيل تلك على الرغم من ذلك،
وأضاف:

- أنا مستعد لكى أعفيك من أية مسئولية، أن أقوم بكتابة الدفاتر
وأوقع عليها أيضاً!

فهمت! كان يرغب فى الاستمرار فى الحُلم فى مكان ليس به
موضع للأحلام: القيد المزدوج!

تذكرت ما عاهدت نفسى به عند مطلع شارع بيلقيدرى، ثم ما
عاهدت أدا عليه، فى حجرة الصالون الصغيرة المعتمدة بمنزلها، فقلت له
بدافع من المروءة:

- سأقوم فى الحال بعمليات التسجيل التى ترغب فيها: لست بحاجة
إلى توقيعك لحمايتى. أنا هنا لمعاونتك، وليس لعرقلتك!
صافحنى بمودة قائلاً:

- الحياة صعبة، وإنه لسلوان كبير أن يكون إلى جوارى صديق
مثلك. نظر أحدها فى عيني الآخر، كلٌ فى حالة تأثر. كانت عيناه تلمعان.
قلت ضاحكاً، حتى أفلت من الانفعال الذى كان يهددنى أيضاً:

- الحياة ليست صعبة، بل غريبة الأطوار لدرجة كبيرة.

فضحك أيضاً من قلبه.

ثم مكث إلى جوارى، ليرى كيف سأسوى حساب الأرباح والخسائر
ذاك. تم عمله فى بضع دقائق. مات ذلك الحساب، لكنه جرّ إلى العدم

أيضاً حساب آدا التى قمنا على الرغم من ذلك بقيد رصيدها الدائن فى كتيب، ذلك إن اختفى أى إثبات آخر جرّاء كوارث وضرورة امتلاك الدليل الواضح عليه لتسديد الفوائد لها. أما الشق الآخر من حساب الأرباح والخسائر فقد زاد من حساب جويدو المدين.

إن المحاسبين بطبيعتهم ما هم إلا نوع من الكائنات الحية المنفتحة على السخرية. أخذت أفكر وأنا أقوم بعمليات التسجيل تلك: «إن الحساب - المسمى بالأرباح والخسائر - قد مات قتيلاً، والآخر - حساب آدا - مات ميتة طبيعية؛ لأننا لم نوفّق فى أن نبقّيه على قيد الحياة، فى حين لم نتمكن من قتل حساب جويدو، الذى كان مقبرة حقيقية مفتوحة فى شركتنا، بوصفه حساب مدين مشكوكاً فيه».

أخذنا نتحدث فى ذلك المكتب عن الحسابات لوقت طويل. كان جويدو يفرغ جهده فى العثور على طريقه أخرى تستطيع أن تحميه بصورة أفضل مما قد يتعرض له من مكائد (هكذا كان يطلق عليها) من جانب الشئون القانونية. أعتقد أنه استشار أيضاً بعض المحاسبين، حيث أتى إلى المكتب ذات يوم ليعرض على أن نمحو الدفاتر القديمة، بعد عمل أخرى جديدة نسجل فيها عملية بيع مزيفة بأحد الأسماء أيا كان، يظهر أنه تم سداد ثمنها من المبلغ الذى أقرضته آدا. كان من المؤلم إصابته بخيبة أمل بعد أن أسرع إلى المكتب مفعماً بأمال عريضة! اقترح عملية تزيف نفرت منها بالفعل، وحتى ذلك الحين لم نفعل شيئاً آخر سوى تغيير بعض الأوضاع، وعرضنا بذلك للأذى من وافق عليها بشكل ضمنى.

وما هو ذا يرغب، على العكس، فى ابتكار عمليات حركة للبضائع. كنت أرى أنا أيضاً أنه على هذا النحو، وبهذه الصورة وحسب، يمكن محو أى أثر للخسارة التى تكبدناها ولكن بأى ثمن! كذلك كان من الضرورى اختلاق اسم المشتري، أو الحصول على موافقة من نريده أن يقوم بهذا الدور. لم يكن لدى ما أعارض به عملية إلغاء الدفاتر، وعلى الرغم من أننى قمت بتسجيلها بعناية شديدة، ولكنه كان يزعجنى أن أقوم بعمل دفاتر أخرى جديدة. أبدت اعتراضاتى التى انتهت بإقناع جويدو. فليس من السهل تزيف الإيصالات. ينبغى أيضاً معرفة تزيف الوثائق التى تثبت وجود البضاعة وملكيّتها.

تنازل عن خطته، لكن فى اليوم التالى وصل إلى المكتب بخطة أخرى تتضمن أيضاً إلغاء الدفاتر القديمة. ضقت ذرعاً من تلك المناقشات التى تعرقل أى عمل آخر، فاحتججت: - بما أنك تفكر ملياً فى هذا الأمر، فذلك يوحى بأنك ترغب فى التأهب بالفعل للإفلاس! وإلاّ فما الفائدة التى يمكن أن يجنيها إنقاص ضئيل فى رأسمالك؟ لا يملك أحد حتى الآن الحق فى الاطلاع على دفاترك. الآن علينا أن نعمل، ونعمل، وألا نبالى بالتفاهات.

اعترف لى بأن تلك الفكرة كانت تستحوذ عليه. وكيف كان يمكن أن يكون خلاف ذلك؟ بشيء من سوء الحظ كان يمكن أن يقع حتماً تحت طائلة تلك العقوبة الجنائية، وينتهى به الأمر فى السجن!

من دراستي للقانون، كنت أعرف أن أوليفي قد عرض بدقة متناهية واجبات التاجر الذي قام بميزانية مماثلة، لكنني نصحت جويدو باستشارة مُحامٍ صديق، لأخلصه وأخلص نفسي أيضاً من هذه الهواجس.

أجابني بأنه قد قام بذلك بالفعل، بل إنه لم يذهب خصيصاً إلى محامي لهذا الغرض؛ لأنه لم يرد أن يبوح بذلك السر إلى محامٍ على الإطلاق، بل جعل صديقاً له يعمل بالمحاماة يثرثر حينما كان معه في أثناء الصيد. وبالتالي علم أن أوليفي لم يخطئ ولم يبالغ... مع الأسف!

توقف عن البحث عن اختلاقات لتزييف الحسابات، بعد أن وجد أنه لا جدوى من ذلك، لكن ذلك لم يُعد له هدوءه. كان في كل مرة يأتي إلى المكتب يتجهّم وهو ينظر إلى دفاتره. ذات يوم اعترف لي أنه عندما كان يدخل حجرة مكتبنا، كان يرى نفسه وكأنه بمدخل السجن، وأراد لو يفر هارباً.

في يوم من الأيام سألتني:

– هل تعلم أوجوستا كل شيء عن ميزانيتنا؟

احمرّ وجهي؛ لأنني أحسست بلوم في السؤال، في حين كان واضحاً أنه إن كانت آدا على علم بالميزانية فربما تعلم بها أوجوستا أيضاً. لم أفكر سريعاً على هذا النحو، لكنني كنت أرى أنني أستحق اللوم الذي يريد توجيهه لي؛ لهذا هممت:

– لعلها علمت به من آدا أو ربما من ألبرتا التي أخبرتها آدا!

أخذت أمعن النظر فى القنوات التى يمكن أن تفضى إلى أوجوستا، ولم أرَ مع ذلك إنكار أنها علمت بكل شىء من المنبع الأول، أى منى أنا، بل وجدت أن صمتى لن تكون فائدة منه، خسارة! لو اعترفت على الفور بأنه لا توجد أسرار بينى وبين أوجوستا، لشعرت بأننى أكثر أمانة وصدقاً! إن حدثاً هيناً كهذا، أى إخفاء تصرف كان من الأفضل الاعتراف به وإعلان براعته، كاف لإحداث توتر فى أوفى صداقة.

أسجل هنا واقعة حدثت بعد مرور بضعة أيام، على الرغم من أنه لم تكن لها أهمية لا بالنسبة لجويدو ولا لقصتى. استوقفنى ذلك السمسار الثرثار الذى تعاملنا معه من قبل فى مسألة سلفات النحاس، فى الطريق، ونظر إلى من أسفل إلى أعلى، كأنما أجبرته على فعل ذلك قامته القصيرة، التى كان يبالغ فى تقصيرها وهو ينخفض على ساقيه، وقال بنبرة ساخرة:

– يقولون إنكم قمتم بصفقات أخرى رابحة كتجارة السلفات!

ثم، صافحنى بيده ما إن رآنى وقد أذهلتنى الدهشة، وأضاف:

– من جهتى أتمنى لكم أحسن الصفقات، أرجو ألا تشكّوا فى ذلك!

وتركنى. أعتقد أن ابنته التى كانت تدرس بالصف الدراسى نفسه بالمدرسة الثانوية مع الصغيرة أنا، قد أخبرته بتجارتنا، ام أطلع جويدو على مسألة إفشاء السر التافهة هذه، فواجبى الأساسى أن أحميه من مضايقات لا جدوى منها.

اندهشت أن جويدو لم يتخذ أى تصرف إزاء كارمن، فقد كنت أعرف أنه وعد زوجته صراحةً بأن يطردها. ظننت أن آدا قد تعود إلى منزلها بعد بضعة أشهر للمرة الأولى، لكنها توجهت للإقامة بالأجوماتجورى فى فيلا صغيرة، دون المرور بتريستى، وبعد فترة وجيزة حمل جويدو الطفلين إليها.

عندما عاد من سفره ذاك، ولا أدري إن كان قد تذكر هو نفسه الوعد أم أن آدا هى التى نبهته - سألنى إن كان من الممكن توظيف كارمن فى مكتبى، أى لدى أوليفى. كنت أعلم من قبل أنه لا توجد أماكن شاغرة فى ذلك المكتب، لكن لأن جويدو كان يتوسل إلى بحرارة، وافقت أن أذهب للتحدث مع مدير أعمالى فى هذا الشأن. ولحسن الحظ، كان أحد موظفى أوليفى قد ترك المكتب فى تلك الأيام نفسها، لكنه كان يحصل على راتب أقل من ذلك الذى كان جويدو يمنحه لها فى الشهور الأخيرة بسخاء كبير، وحسب ما أرى، كان يُنفق على هذا النحو على نسائه من حساب النفقات العامة. استعلم أوليفى العجوز منى عن قدرات كارمن، وعلى الرغم من أننى ذكرت له معلومات جيدة، عرض أن يأخذها فى ذلك الوقت بالراتب نفسه الذى كان يقبضه الموظف المفصول. أبلغت جويدو بهذا، فأخذ يحك رأسه فى حزن وحيرة.

- كيف يقدم لها راتباً أقل مما كانت تحصل عليه؟ ألا نستطيع حث أوليفى على منحها المرتب الذى كان يُصرف لها من قبل؟

كنت أعلم أن ذلك لم يكن ممكناً، فضلاً عن أن أوليقي لم يتعامل
بودّ مع موظفيه كما كنّا نفعل. ولو وجد أن كارمن تستحق كوروناً
أقل من المبلغ المسموح به لها، لخفضه منها بلا شفقة. وانتهى الأمر على
هذا النحو: لم يحصل أوليقي على رد حاسم، ولم يطلبه على الإطلاق،
واستمرت كارمن تحقق بعينيها الجميلتين في أنحاء مكتبنا.

كان هناك سر بيني وبين آدا، وقد ظل له أهمية خاصة لأنه بقي
سراً. كانت تكتب دوماً لأوجوستا، غير أنها لم تقص عليها قط أنها نالت
بعض الإيضاحات مني وأوصتني بجويدو. ولم أتحدث أنا أيضاً عن ذلك.
ذات يوم أرتنى أوجوستا رسالة من آدا تخصني. في البداية سألت عن
أخباري، ثم ناشدت طيبتى لأخبرها شيئاً عن سير أعمال جويدو. اضطربت
عندما وجدت أنها تلجأ إليّ، وهدأت لما أيقنت أنها تلجأ إليّ كالمعتاد لتستعلم
عن جويدو. ومن جديد لم يكن لديّ ما أجروّ على قوله.

كتبت لآدا بالاتفاق مع أوجوستا، ودون التحدث عن جويدو. جلست
إلى المنضدة بهدف أن أكتب لها بالفعل رسالة عن أعمال جويدو
وأخبرها بسعادتي الكبيرة بالأسلوب الذي يدير به تجارته في تلك الأثناء،
أى بمثابرة وفطنة.

كان هذا حقيقة، أو كنت على الأقل سعيداً به في ذلك اليوم؛ لأنه
وفق في ربح بعض المال من بيع بضاعة كان يودعها بالمدينة منذ عدة
شهور. وحقيق أنه كان يبدو دائماً المواظبة أيضاً، لكنه كان يذهب بانتظام
للصيد البرى والبحرى كل أسبوع. رغبت في أن أبالغ في مدحى، حيث
خلتُ أنى على هذا النحو أساعد في شفاء آدا.

أعدت قراءة الرسالة ولم ترضنى. كان ينقصها شيء ما. لقد لجأت
أداً إلى وبلا شك كانت تريد معرفة أخبارى كذلك؛ لذا لم يكن من اللياقة
ألا أخبرها بها. وشيئاً فشيئاً - أتذكر كأنما يحدث لى الآن - شعرت
بالحرج عند تلك المنضدة، كأننى ألفت نفسى ثانية مع آدا وجهاً لوجه،
فى تلك الحجرة الصغيرة المظلمة. أكان لزاماً على أن أصفح طويلاً تلك
اليد الناعمة التى مدتها لى؟

أخذت أكتب، لكننى اضطررت لأن أعيد كتابة الرسالة، حيث تركت
كلمات مורطة تفلت منى: كنت أتوق لرؤيتها من جديد، أملاً أن تسترد
صحتها وجمالها كاملين. إن هذا يعنى أن آخذها من خصرها تلك المرأة
التي قدمت لى يدها فقط. كان واجبى أن أصفح فقط تلك اليد الصغيرة،
مصافحة لطيفة، وأن أطيل المصافحة تعبيراً عن أننى كنت أقصد كل
شيء، كل ما كان ينبغى ألا يقال على الإطلاق.

لن أذكر الكلام جميعه الذى استعرضته لأجد به شيئاً يمكن أن
يحل محل تلك المصافحة الطويلة الرقيقة المعبرة لتلك اليد، لكننى تذكرت
تلك الجمل التى كتبتها وحسب. تحدثت طويلاً عن الشيخوخة التى تداهمنى.
لم أكن أستطيع أن أقضى لحظة هادئة دون أن يتقدم بى السن. فى كل
دورة من دورات دمي كان هناك شيء يضاف إلى عظمى وعروقى
ويعنى الشيب. كل صباح، عندما كنت أستيقظ، كانت الدنيا تبدو وكأنما
ازداد لونها الرمادى، ولم أكن أدرك ذلك؛ لأن كل شيء ظل فى اتساق؛
فى ذلك اليوم لم تكن هناك مسحة من لون اليوم السابق على الإطلاق،
وإلا لأدركتها، ولدفعنى الندم إلى اليأس.

أتذكر جيداً أنني أرسلت الخطاب وأنا في ارتياح تام. لم أخاطر قط بتلك الكلمات، بل خُيِّل لي أيضاً أنه من المؤكد لو أن تفكير أدا يماثل تفكيري، لأدركت مصافحة تلك اليد العاطفية. كان يكفي القليل من الفطنة لاكتشاف أن ذلك التمحيص الطويل عن الشيخوخة لم يكن يعنى سوى خشيتي، وقد وجدت نفسي في سياق عبر الزمن، ألا يلحق الحب بي أبداً. كان يبدو وكأنني أنادي بصوت عالٍ على الحب: «تعال، تعال!». وعلى العكس من ذلك فإنني غير واثق من أنني رغبت في ذلك الحب، وإن كان هناك شك ما، فينشأ فقط من يقيني بأنني كتبت هذا على وجه التقريب.

قمت بعمل نسخة من تلك الرسالة لأوجوستا، وحذفت منها مسألة الحديث عن الشيخوخة. لم تكن لتدركها، لكن الحذر لا يضر. وربما احمر وجهي لو شعرت بنظرتها لي وأنا أضغط على يد أختها! نعم! كنت ما أزال إنساناً يتأثر. واحمر وجهي أيضاً عندما تلقيت رسالة شكر موجزة من أدا لم تذكر بها شيئاً عن حديثي حول شيخوختي. خلت أنها تجاوزت معي أكثر مما لم أفعله أنا قط معها. إنها لم تسحب يدها الحانية عندما ضغطت عليها، تركتها ساكنة في يدي، وعدم المقاومة عند المرأة، هو وسيلة من وسائل الرضا.

مرت أيام قلائل بعد كتابة تلك الرسالة، واكتشفت أن جويدو يضارب بالأسهم في البورصة. أفشى لي السمسار نيليني ذلك السر.

ذلك الأخير كنت أعرفه من سنوات طويلة، حيث كنّا زملاء دراسة بالمدرسة الثانوية التي كان لزاماً عليه أن يتركها ليعمل على الفور بمكتب عم له. ثم تقابلنا بعد ذلك عدة مرات، وأذكر أن اختلاف توجهنا في الحياة قد أنشأ تفوقى في علاقتنا. أولاً كان هو من يبادرنى بالتحية، ويحاول أن يتقرب منى أحياناً. رأيت هذا طبيعياً، لكن ما عجزت عن تفسيره هو أنه تكبر علىّ، في فترة لا يمكننى تحديدها. لم يعد يلقي علىّ التحية، وكان يرد بالكاد تحيتى. انشغلت بعض الشئ بذلك؛ لأن جلدى شديد الحساسية ويتأثر بسهولة. ولكن ما العمل فى ذلك؟ ربما اكتشف أننى أعمل بمكتب جويدو، واعتقد أننى أحد المرعوسين؛ ولهذا استخف بى، أو بالاحتمال نفسه، ربما ملأه الغرور، عندما مات عمه وتركه سمساراً مستقلاً فى البورصة. ففى المجتمعات الصغيرة تكثر مثل هذه العلاقات، فى يوم من الأيام ينظر الناس بعضهم إلى بعض ببغض وازدراء، دون أن يكون هناك تصرف عدائى.

ولهذا أصابتنى الدهشة عندما رأيته يدخل المكتب، حيث كنت بمفردى، وسأل عن جويدو، رفع قبعته ومد يده ليصافحنى. ثم استرخى على الفور على أحد مقاعدنا الكبيرة فى حرية بالغة. نظرت إليه باهتمام كبير. لم أكن قد رأيته هكذا عن قرب منى منذ سنوات، ومع ذلك البُغض الذى كان يظهره لى استرعى اهتمامى الشديد فى تلك اللحظة.

كان يبلغ من العمر آنذاك أربعين عاماً على وجه التقريب، وكان دميماً حقاً؛ وهذا يرجع إلى ما لديه من صلعة شبه كاملة تعترضها

واحة من الشعر الأسود الكثُّ عند مؤخرة الرأس وأخرى عند الصدغين، ووجه أصفر وممتلئ أكثر مما ينبغي، رغباً عن الأنف الضخم الكائن به. كان قصير القامة ونحيفاً يشرب بقدر ما يستطيع، حتى إننى كنت أشعر بآلم خفيف فى عصب عنقى اللطيف عندما كنت أتحدث معه، وكان ذلك هو الشعور اللطيف الوحيد الذى أحسست به تجاهه. فى ذلك اليوم بدا كما لو أنه يتماسك من الضحك، ووجهه مشدود بتعبير بالسخرية أو بالازدراء لم يكن ليحركنى، بما أنه ألقى التحية على بأدب شديد. بل اكتشفت بعد ذلك أن تلك السخرية قد طبعتها على وجهه الطبيعة الأم غريبة الأطوار. فكاه الصغيران لا ينطبقان بدقة وقد بقيت بينهما، على إحدى جانبي الفم، فتحة صغيرة هى موطن سخريته تلك المقولبة. وربما لكى يتواءم مع قناع وجهه الذى لم يتمكن من التخلص منه إلا عندما يتثأب، كان يحب الاستهزاء من كل شخص. لم يكن قط شخصاً أحقق يطلق سهامه السامة، ولكنه كان يؤثر بها الغائبين.

أخذ يثرثر كثيراً، وكان واسع الخيال، خاصةً فيما يتعلق بأمور البورصة. كان يتحدث عن البورصة كما لو أنها شخص واحد يصفه بأنه يرتجف فى تهديداته، أو أنه نائم فى خمول ووجهه قادر على الضحك والبكاء معاً. كان يرى البورصة شخصاً يصعد درج الطرق الصاعدة وهو يرقص، أو يهبط مجازفاً بالسقوط إلى الهاوية، ثم يعود ليبدى إعجابه به عندما يكرم قيمة من القيم أو يخلق الأخرى بشدة، أو عندما يعلم الناس أيضاً الاعتدال والنشاط فى العمل. والعلة الوحيدة فى ذلك

هى أن من تمتع بعقل سليم استطاع التعامل معها . فهناك أموال كثيرة متناثرة على الأرض فى البورصة، لكن ليس من السهل الانحناء لالتقاطها .

تركته ينتظر بعد أن قدمت له سيجارة، وأعطيت اهتمامى بعد ذلك لبعض المراسلات. بعد قليل ضاق ذرعاً، وقال إنه لا يستطيع البقاء أكثر من ذلك. فضلاً عن أنه جاء فقط ليخبر جويدو عن أسهم، باسم غريب يدعى ريو تينتو، كان قد نصحه أن يشتريها فى اليوم السابق - نعم، قبل أربع وعشرين ساعة بالتحديد - قد قفز سعرها فى ذلك اليوم حوالى عشرة بالمائة. وأخذ يضحك من قلبه، قائلاً:

- بينما نتحدث الآن هنا، أى وأنا أنتظر هنا، ستقوم العمليات المالية بعد إغلاق البورصة بالباقي. إن أراد السيد سبيير شراء تلك الأسهم الآن فمن يدرى بأى سعر عليه أن يسدد قيمتها؟ كما توقعت أنا إلى أين تتوجه البورصة.

أخذ يتفاخر بنظرته الثاقبة التى ترجع إلى علاقة الوطيدة بالبورصة. توقف ليسألنى:

- من تعتقد يعلم بصورة أفضل: الجامعة أم البورصة؟

انخفض فكه السفلى أكثر قليلاً، فأتسع ثقب السخرية. البورصة بالتأكيد! أجبت عن اقتناع. كان ثمن هذا أنه صافحنى مصافحة ودية عند انصرافه.

إذاً كان جويدو يضارب في البورصة! لو كنت أكثر يقظة لاستطعت أن أستشف هذا من قبل، فعندما قدمت له حساباً دقيقاً لمبالغ مهمة ربحناها من صفقات أخيرة لنا، نظر إليه مبتسماً، لكن بشيء من الاستهانة. رأى أننا قد قمنا بجهد كبير لنربح تلك الأموال. علماً بأنه من خلال بضع عشرات من مثل تلك الصفقات كان يمكن تغطية الخسارة التي تكبدناها في العام السابق! ما الذي كان على أن أفعله أنا حينئذ، وقد سجلت ثنائى عليه على الورق قبل أيام قليلة؟

بعد قليل جاء جويدو إلى المكتب، وفي دقة أبلغته كلام نيلينى. أخذ يستمع بشغف حتى إنه لم ينتبه على الإطلاق إلى أنى علمت من هذا أنه يضارب، وانصرف مسرعاً.

فى المساء تحدثت مع أوجوستا فى هذا الأمر، فرأت أننا يجب أن ندع أدا وشائها، على أن نخطر السيدة مالفنتى بالمخاطر التى يتعرض لها جويدو. وطلبت منى أن أبذل أيضاً ما فى وسعى لمنعها من ارتكاب مثل تلك الأخطاء.

استغرقت وقتاً فى التفكير فيما أقوله له، خلصت فى النهاية إلى العمل بحسب نياتى الإيجابية الطيبة، مع الاحتفاظ بالوعد الذى عاهدت أدا عليه. كنت أعرف كيف أمسك بزمام جويدو وأحملة على طاعتى، كل مناً له حماقاته فى المضاربة بالبورصة، ولكن من يفوقنا فى ذلك جميعاً هو تاجر يجر وراءه ميزانية كتلك، هذا ما كنت أود أن أقوله له، وفى اليوم التالى بدأت بداية جيدة جداً:

- أنت إذن تضارب الآن فى البورصة؟ أتريد أن ينتهى مصيرك فى السجن؟ - هكذا سألته فى حزم. كنت مستعداً للغضب، وكان أيضاً فى نيتى أن أعلن له مغادرتى الأكيدة للمكتب، بما أنه يتصرف بأسلوب يعرض به الشركة للخطر.

استطاع جويدو أن يُبطل تهديدى فى الحال. كان يحتفظ بسرهِ حتى تلك اللحظة، لكن بعدها أخبرنى فى دقة بتفاصيل صفقاته تلك، وفى براءة الفتى الطيب. كان يعمل فى سندات خاصة بمناجم لبلد لا أعرف اسمها، حققت له ربحاً كاد يكفى لتغطية خسارة ميزانية شركتنا. وكان قد زال أى تخوف منى، واستطاع أن يحكى لى كل شىء. فإن خانه الحظ وخسر كل ما ربحه من قبل، لتوقف ببساطة عن المضاربة. فى حين لو استمر الحظ حليفه، سيسرع فى تصحيح وضع التسجيلات التى قمت بها، وكان لا يزال يشعر بتهديد منها.

رأيت أن الأمر لا يستدعى الغضب منه، بل تهنئته. وفيما يتعلق بمسألة الحسابات، قلت له إنه يمكنه أن يكون مطمئناً، فحيث تتوافر السيولة النقدية يسهل تصحيح وضع الحسابات الأكثر إزعاجاً. ومتى دخل حساب أدا فى دفاترنا كما يحق لها وانخفض على أقل تقدير ما أسميه أنا عمق هوة شركتنا السحيقة، وأعنى بذلك حساب جويدو، فستستقيم حساباتنا.

ثم اقترحت عليه بأن يقوم بهذه الإصلاحات مباشرة، وأن يضع عمليات المضاربة فى البورصة فى حساب الشركة. لم يوافق لحسن الحظ،

والأ لأصبحت محاسب المقامر، ولتحملت على عاتقى مسئولية ضخمة. فى حين جرت الأمور وكأن لى وجود فيها. رفض اقتراحى لأسباب رأيها جيدة. كان من سوء الطالع أن يسدد ديونه هكذا مباشرة، وهناك معتقد معروف جداً على كل موائد القمار: أن مال الغير يجلب الحظ. أنا لا أؤمن فى ذلك، ولكنى لا أستخف أبداً بأى حذر فى أثناء اللعب.

ولبعض الوقت لمت نفسى لأننى؛ تلقيت آراء جويدو دون أن أبدى أى اعتراض. لكن عندما وجدت السيدة مالفنتى تسلك الأسلوب نفسه حيث أخبرتنى كيف استطاع زوجها أن يربح أموالاً كثيرة فى البورصة، فضلاً عن أدا أيضاً، التى فهمت منها أنها تعتبر المضاربة نوعاً من أنواع التجارة، أدركت أنه لا يمكن أن يثار بداخلى أى لوم بهذا الشأن على وجه الإطلاق. ولم تكن معارضتى لتكفى لإيقاف جويدو عن هذا الهوى، وما كان لها أن تحقق أى تأثير ما لم يدعمها أفراد العائلة جميعهم.

وعلى هذا النحو سارت الأمور، حيث استمر جويدو فى المضاربة، ومعه العائلة بأسرها. وانضمت أيضاً إلى الزمرة، حتى إننى دخلت فى علاقة صداقة غريبة مع نيلينى. من المؤكد أننى لم أكن لأحتمله؛ حيث كنت أراه جاهلاً ومغروراً، لكن يبدو أننى مراعاة لجويدو، الذى كان يتلقى منه نصائح جيدة، تمكنت من أن أحسن إخفاء مشاعرى، حتى اعتقد فى النهاية أنه وجد فى شخصى صديقاً مخلصاً. لا أنكر أن معاملتى الكريمة له ربما كانت ترجع أيضاً إلى رغبتى فى تجنب استيائى من عداوته لى، تلك العداوة الشديدة التى كانت وراء تعبيره الساخر المرسوم على وجهه الدميم.

لكننى لم أتعامل معه قط بمعاملات أخرى، سوى أن أمد له يدي للمصافحة والتحية عندما يجيء أو يروح، فى حين كان هو لطيفاً جداً، ولم أكن أستطيع إلا أن أتقبل معاملاته المهذبة بامتنان، وهى فى الحقيقة من أعظم المجاملات التى يمكن التعامل بها فى هذا العالم. كان يوفر لى سجائر مهربية، ويتيح لى سداد ثمنها بسعر التكلفة، أى بسعر زهيد. لو كنت وجدته أكثر قبولاً لنفسى، لتمكن من حملى على المقامرة على طريقته؛ لم أفعل ذلك قط، حتى لا أراه كثيراً.

لكننى كنت أراه أكثر مما ينبغى! كان يقضى ساعات فى مكتبنا على الرغم من أنه لم يكن مغرمًا بكارمن، وكان من السهل إدراك ذلك. كان يأتى ليجلس معى على وجه الخصوص. يبدو أنه قرّر من قبل أن يلقننى دروساً فى السياسة التى كان متعمقاً فيها بسبب البورصة. أخذ يعرض على كيف أن الدول الكبرى تمد يدها للمصافحة يوماً وتتبادل الصفحات فى اليوم التالى. لا أدري إن كان قد تنبأ بالمستقبل؛ حيث إننى لم أستمع إليه لعدم ارتياحى له. واحتفظت بابتسامة حمقاء رسمتها على وجهى. ولا بد أن سوء الفهم كان راجعاً إلى تفسير خاطئ لابتسامتى، التى كانت تبدو له ابتسامة إعجاب. وما لى ذنب فى ذلك.

لا أعرف إلا الأشياء التى كان يكررها كل يوم. وتمكنت من ملاحظة أنه إيطالى له اتجاه غير واضح، حيث كان يرى أنه من الأفضل لتريستى أن تظل مدينة نمساوية. كان يعشق ألمانيا، وبوجه خاص قطاراتها التى كانت تصل بدقة متناهية. كان اشتراكيا بطريقته الخاصة، ويتمنى لو

يُحْرَم على الفرد امتلاك الشخص الواحد أكثر من مائة ألف كورونا. لم أضحك في يوم اعترف فيه، أثناء حديثه مع جويدو، أنه يمتلك مائة ألف كورونا بالضبط، لا أكثر. لم أضحك، ولم أسأله على الإطلاق هل لو ربح أموالاً أخرى سيعدل نظريته، كانت علاقتنا غريبة حقاً. لم يكن باستطاعتي أن أضحك معه أو عليه.

عندما كان يطلق حكماً من حكمه، كان يشرئب كثيراً وهو على مقعده الوثير وتتجه عيناه بالنظر تجاه السقف، في حين يظل الثقب في اتجاهي، ذلك الثقب الذي أطلقت عليه الثقب الفكّي. وكان يرى بذلك الثقب! أردت مرات أن أنتهز فرصة وضعه ذاك للتفكير في شيء آخر، لكنه كان يجذب انتباهي ويسألني في الحال:

– هل تنصت لي؟

بعد تلك المرة التي أفضى فيها جويدو إليّ بمكنون قلبه، لم يعد يحدثني عن صفقاته لوقت طويل. في البداية كان نيليني يخبرني بشيء عنها، ولكنه أصبح هو أيضاً أكثر تحفظاً. ومن أدا نفسها علمت أن جويدو كان لا يزال يربح.

عندما عادت، وجدتها مرة أخرى وقد فارقها من جمالها الكثير. أصابها الورم لا السمنة. وفي تلك المرة أبضاً كانت وجنتاها خارج موضعيهما وقد عادت للامتلاء وجعلتا وجهها شبه مربع. واستمرت عينتاها في تشويه شكل تجويفيهما، كانت دهشتي كبيرة عندما سمعت

جويدو وآخرين ذهبوا لزيارتها، يقولون إن كل يوم كان يحمل لها قوة وصحة جديدتين. لكن صحة المرأة هي جمالها في المقام الأول.

أدهشتني أدا بمفاجآت أخرى أيضاً. أَلقت علىّ بتحيةة ودود، لكنها لا تختلف عن تحيتها لأوجوستا. لم يعد هناك أسرار بيننا، ومن المؤكد أنها نسيت بكاءها عندما تذكرت أنها كانت سبباً لعذابي الكبير فيما قبل. هذا أفضل كثيراً! في النهاية إنها لم تعد تتذكر حقوقها علىّ. كنت زوج أختها الصالح، وكانت تحبني فقط لأنها وجدت علاقتي العاطفية مع زوجتي لم تتغير، والتي أثارت دائماً إعجاب أسرة مالفنتي.

ذات يوم قمت باكتشاف أدهشتني دهشة كبيرة. كانت أدا لا تزال تعتقد أنها جميلة! هناك على البحيرة كانوا يغازلونها، ومن الواضح أنها تستمتع بتأثيرها على الآخرين. ربما كانت هناك مبالغة في ذلك، حيث رأيت أنها تبالغ في ادّعاءها باضطرابها إلى ترك ذلك المنتجع لتبتعد عن ملاحقة أحد المفرمين بها. أقرُّ أنه ربما كان هناك شيء من الحقيقة، فمن المحتمل أنها بدت أقل قبحاً لمن لم يعرفها من قبل. نعم لم تكن لتبدو شديدة القبح، بهاتين العينين ولونها وشكل الوجه ذاك! كنّا نراها أكثر قبحاً؛ لأننا كنّا نلمس التشوهات الواضحة التي تسبب فيها المرض، ونحن نتذكر هيئتها التي كانت عليها.

ذات مساء دعوناها وجويدو إلى منزلنا. كان لقاء لطيفاً، لقاءً عائلياً حقاً. كان يبدو امتداداً لخطبتنا نحن الأربع. لكن لم يكن هناك أي ضوء ينعكس على شعر أدا.

وفى لحظة انصرافهما، لكى أساعدها فى ارتداء المعطف، مكثت بمفردى معها للحظة. وفى الحال شعرت بإحساس مختلف فى علاقتنا. كنّا وحدنا، وربما كان فى إمكاننا أن نقول ما لا نستطيع قوله فى حضور الآخرين. وبينما كنت أساعدها أخذت أفكر، وفى النهاية وجدت ما كنت أريد أن أقوله لها:

- إنك تعلمين أنه يضارب حالياً فى البورصة! - قلت لها بصوت جاد. فى بعض الأحيان يراودنى الشك أننى أردت بهذه الكلمات أن أستحضر لقاءنا الأخير، الذى لم أقرّ بأنه نُسى إلى هذه الدرجة.

- نعم - أجابت وهى تبتسم - وهذا أفضل كثيراً، لقد أصبح ماهراً كما يقولون لى.

ضحكت معها بصوت عالٍ. شعرت وقد رفعت عنى أية مسئولية. هممت وهى تنصرف:

- ألا تزال كارمن تلك تعمل فى مكتبكم؟

لم أتمكن من الرد؛ لأنها انصرفت بسرعة. لم يعد بيننا مجال لماضينا، فى حين كان هناك وجود لغيرتها، غيرة تنبض بالحياة مثلما كانت عليه فى لقائنا الأخير.

الآن وأنا أعيد التفكير، أرى أنه كان على أن أدرك أن جويدو قد بدأ يخسر فى البورصة، قبل أن يخبرونى بذلك صراحةً بوقت كبير. كانت قد تلاشت هيئة الفوز من وجهه التى كانت تنيره من قبل،

وأخذ يعرب مجدداً عن قلقه البالغ بالنسبة للميزانية التي أغلقت على هذا النحو.

– لم تتشغل – سألته بسلامة نيتي – ولديك في جيبك ما يلزم لتوثيق عمليات التسجيل تلك؟ من يملك أموالاً كثيرة لا يذهب إلى السجن، كان لا يملك حينئذ، كما علمت فيما بعد، شيئاً في جيبه.

صدقته تماماً أن الحظ كان حليفه، حتى إنني لم أنتبه للمؤشرات العديدة التي كان بوسعها أن تقنعني بخلاف ذلك.

ذات مساء، في شهر أغسطس، جرّني من جديد معه إلى الصيد. كان الصيد بالصنارة فرصة ضعيفة تحت الضوء الساطع للقمر شبه المكتمل. لكنه أصرّ وقال إننا سنشعر ببعض الراحة في البحر بعيداً عن الجو الحار. حقا لم نجد غيرها. فبعد ما قمنا بمحاولة واحدة لم نضع شيئاً من الطعام بالصنارة، وتركنا الصناتير متدلية من المركب الصغير الذي كان يدفعه لوتشانو في عرض البحر. من المؤكد أن أشعة القمر كانت تصل إلى أعماق البحر لتزيد من حدة نظر الحيوانات الكبيرة وتنبهها إلى المصيدة والحيوانات الصغيرة أيضاً القادرة على النيل من الطعام، لكن دون أن تصل إلى الشخص بفمها الصغير. لم يكن طعمنا سوى هدية نقدمها للأسماك الصغيرة.

استرخى جويدو عند مقدمة القارب، وأنا في مؤخرته، وبعد قليل

همس:

– يا له من شجن يبعث به كل هذا الضوء!

ربما قال ذلك لأن الضوء كان يمنعه من النوم، ووافقته لأرضيه ولكي لا أفسد بمناقشة حمقاء، ذلك السكون المهيّب الذي كنّا نتحرك فيه، في حين اعترض لوتشانو وقال إن ذلك الضوء يروق له كثيراً. أردت أن أسكته، حيث وجدت جويدو صامتاً، وقلت له إن الضوء بالتأكيد شيء محزن، إنه يرينا حقيقة الأشياء في هذا العالم. ثم إنه يعوق الصيد. ضحك لوتشانو وسكت.

مكثنا صامتين لوقت طويل. أخذت أتنّاب لمرات عديدة في وجه القمر. وشعرت بالندم على استسلامي للصعود إلى ذلك القارب، سألتني جويدو على حين غرة:

- بما أنك كيميائي، هل تدلني إن كان الفيرونال^(١) النقي له فعالية أكثر أم الفيرونال بالصوديوم؟

حقاً أني لم أكن على علم، على الإطلاق، بأنه يوجد فيرونال بالصوديوم. ولا يمكن أن نزعّم أبداً أن الكيميائي يحفظ كل شيء في ذاكرته. فأننا أعلم من الكيمياء القدر الذي يمكنني أن أعثر به فوراً على أية معلومات في كتبي، وأناقش أيضاً حتى في أشياء أجهلها، كما يتضح من هذا الموقف.

بالصوديوم؟ ولو أنه معروف لدى الجميع أن تركيبات الصوديوم هي الأسهل في امتصاصها. وبهذا الشأن الصوديوم تذكرت

(١) مخدر معروف.

- وأخذت أعيد على وجه التقريب - مقدار الإشادة التي كان يتحدث بها أحد أساتذتي عن ذلك العنصر، وذلك في المحاضرة الوحيدة التي حضرتها له. فالصوديوم هو العربة التي تركيبها العناصر الكيميائية لتتحرك بسرعة أكبر. وقد ذكر الأستاذ كيف أن كلورور الصوديوم يمر من مركب عضوي إلى آخر، ويتجمع بفعل الجاذبية وحدها في أعماق فجوة بالأرض، أي البحر. لا أدري إن كنت قد نقلت بدقة أفكار أستاذي، لكن في تلك اللحظة وأمام تلك الكمية الهائلة من كلورور الصوديوم، تحدثت عن الصوديوم باحترام لا حدود له. وبعد تردد، سألتني مرة أخرى:

- بمعنى أنه من يرغب في الانتحار هل عليه أن يتناول القيرونال بالصوديوم؟

- نعم - أجبت.

ثم ذكرت حالات يتظاهر فيها المرء بالانتحار، غير منتبه إلى أنني أذكر جويدو بحادثة مؤسفة في حياته، فأضفت قائلاً:

- ومن لا يرغب في الانتحار يتناول القيرونال النقي.

إن بحث جويدو حول مسألة القيرونال كان من شأنه أن يدفعني للتفكير في الأمر. لكنني لم أفهم شيئاً، حيث كنت مهتماً بعنصر الصوديوم. وفي الأيام التالية استطعت أن أحمل لجويدو دلائل أخرى على الخواص التي نسبتها للصوديوم: ومنها سرعة الملغمة أيضاً، وهي ليست إلا احتضاناً قوياً بين مادتين، احتضان يحل محل المركب أو المتماثل،

كان الصوديوم يضاف إلى الزئبق، فالصوديوم هو الوسيط بين الذهب والزئبق، لكن جويدو لم يعد يبالي بالفيرونال، وأعتقد الآن أن توقعاته بشأن البورصة في ذلك الوقت كانت قد تحسنت.

جاءت آدا إلى المكتب ثلاث مرات خلال أسبوع واحد، وبعد الزيارة الثانية وحسب، لاحظت لي فكرة أنها ترغب في التحدث معي.

في الزيارة الأولى التقت نيليني الذي كان يلقتني دروساً لمرة أخرى.

انتظرت ساعة كاملة حتى ينصرف، لكنها أخطأت في الثروة معه؛ ولهذا رأى من الواجب أن يبقى. بعد تبادل كلمات التعارف تنفست الصُعداء، فالفتحة الفكية لم يكن يوجهها نيليني إليّ، لم أشارك في حديثهما.

كان نيليني مرحباً أيضاً، وقد أدهش آدا حين حكى لها أنهم يكثرون من النميمة في الترچستيو، مثلما يحدث عادة في صالونات السيدات. فهو يرى أنه يمكن الحصول على المعلومات في البورصة فقط، أفضل من أي مكان آخر. ظنّت آدا أنه يتجنّى على السيدات، فقالت إنها لا تعلم مطلقاً ماذا تعني النميمة. وعندئذ تدخلت لأثبت أنّي، طوال تلك السنوات التي عرفت فيها، لم أسمعها قط تتفوه بكلمة تمت للنميمة بصلة. ابتسمت وأنا أقول ذلك، فلقد رأيت أنّي أثير بداخلها اللوم. لم تكن مغتابة؛ لأنها لا تبالي بشئون الآخرين. في بادئ الأمر كانت تنشغل بشئونها الخاصة، وهي بكامل صحتها، وعندما اجتاحتها المرض، لم يبق

بداخلها سوى مكان صغير شاغر، تحتلُّه غَيرتها. كانت أنانية حقة، لكنها تقبلت شهادتي لها بامتنان.

تظاهر نيليني بأنه لا يصدقها ولا يصدقنى. قال إنه يعرفنى منذ سنوات طويلة ويؤمن بسذاجتى الكبيرة. ضحكت لما قاله وضحكت أدا أيضاً، فى حين انزعجت كثيراً عندما أعلن - للمرة الأولى أمام الآخرين - أننى واحد من أفضل أصدقائه؛ ولذا فهو يعرفنى جيداً. لم أجرو على معارضته، لكننى شعرت بإهانة مشاعر الحياء فى من ذلك التصريح الوقح، كما لو أننى فتاة وجَّهوا إليها اللوم أمام الجميع لارتكابها فعلاً فاضحاً.

كنت ساذجاً، هكذا قال نيليني، بالدرجة التى تدفع أدا، بمكر النساء المألوف، لأن تغتابنى فى حضورى دون أن أدرك ذلك. ظننت أن أدا كانت تتسلى بتلك المجاملات ذات الطابع المريب، فى حين أيقنت فيما بعد أنها تركته يتحدث أمله أن ينتهى وينصرف. لكنَّها انتظرت طويلاً.

عندما عادت للمرة الثانية وجدتنى مع جويدو. قرأت حينئذ علامات نفاد الصبر على وجهها، وتوقعت أنها ترغب فى الحديث معى أنا بالذات. وإلى حين عودتها أخذت ألهو بأحلامى المعتادة. فى واقع الأمر لم تسألنى الحب، لكنها كثيراً لم تكن ترغب فى الانفراد بى. من الصعب على الرجال فهم ما ترغب فيه النساء؛ لأنهن يجهلنه هن أنفسهن فى بعض الأحيان.

بل إننى، لم أستشعر إحساساً جديداً من كلامها، وفور أن استطاعت الحديث معى اختلق صوتها من الانفعال، لكن ليس لأنها تحدثت معى. كانت تريد معرفة السبب فى عدم فصل كارمن من المكتب. أخبرتها بكل ما أعرفه، بما فى ذلك المحاولة التى قمنا بها حتى نوفر لها وظيفة لدى أوليقي.

وفى الحال سكنت إلى الهدوء؛ لأن كل ما قلته لها كان متسقاً تماماً مع ما أخبرها به جويدو. ثم علمت بعد ذلك أن نوبات الغيرة كانت تتوالى على آدا على فترات. تأتى دون سبب واضح، وتختفى بفضل كلمة تقتنع بها.

وجهت لى فضلاً عن ذلك سؤالين: إن كان حقاً يصعب كثيراً إيجاد مكان شاغر لموظفة، وإن كانت ظروف عائلة كارمن بالدرجة التى تجعلها تعتمد على راتبها.

شرحت لها أنه كان من الصعب بحق العثور فى المكاتب على عمل للسيدات فى ذلك الوقت. ولم أتمكن من الرد عليها بالنسبة للسؤال الثانى؛ لأننى لم أتعرف على أحد فى عائلة كارمن.

- جويدو، على العكس منك، يعرف الجميع فى ذلك المنزل، هممت آدا فى غضب، وبللت دموعها وجنتيها من جديد.

ثم صافحتنى لتتصرف وشكرتنى. قالت وهى تبتسم بين عبراتها، إنها كانت واثقة من الاعتماد علىّ. راقى لى ابتسامتها؛ لأنها لم توجهها

بالتأكيد إلى زوج الأخت، بل إلى من تربطه بها أواصر سرية. حاولت أن أثبت أنني جدير بتلك الابتسامة فهمست:

– ما أخشاه على جويدو ليست كارمن، بل المضاربة التي يقوم بها في البورصة!

رفعت كتفها قائلة:

– هذا لا يهم؛ تحدثت أيضاً في ذلك مع أمي، وقد كان أبي يضارب هو الآخر في البورصة، وربح فيها الكثير من تلك الأموال!

أخذتني الحيرة من إجابتها، وأصررت:

– نيليني هذا لا يروق لي، ليس صحيحاً على الإطلاق أنني صديقه!

نظرت إلى في دهشة:

– أراه رجلاً مهذباً، وجويدو أيضاً يحبه كثيراً. ثم أنني أعتقد أن جويدو أصبح الآن مهتماً جداً بأعماله.

كانت نيتي صادقة في ألا أتحدث معها بسوء عن جويدو فسكت. عندما ألفت نفسي وحدي لم أفكر في جويدو، بل فكرت في نفسي. ربما كان خيراً أن أجد في النهاية أختاً في أدا ولا شيء غير ذلك. كانت لا تعد بالحب ولا تهدد به. أخذت أتجول في المدينة في قلق واضطراب لأيام عديدة. لم أتمكن من فهم ما بداخلي. لماذا كنت أشعر كأنما تركتني كارلا في تلك اللحظة؟ لم يحدث لي شيء جديد. أعتقد بصراحة أنني كنت

دائماً بحاجة إلى المغامرة أو الأمور المعقدة التى تشابهها. إن علاقتى مع أدا لم تعد منذ زمن تتسم على الإطلاق بالتعقيد.

ذات يوم أخذ نيلينى يعظ أكثر من المعتاد من مقعده الكبير: يتقدم السحاب الكثيف من الأفق، وما هو إلا ارتفاع الأسعار فى سوق المال. تشبعت البورصة على حين غرة، ولا يمكنها ابتلاع المزيد!

- لتلقِ بأنفسنا فى الصوديوم! جاء اقتراحى.

لم تعجبه قط مقاطعتى، لكنه تجاهلها لكى لا يغضب. فالمال أصبح بختة نادراً فى هذا العالم، ومن ثم غالياً. اندهش عندما حدث هذا فى ذلك التوقيت، فى حين كان قد تنبأ بحدوثه بعد مرور شهر.

- سيكونون قد أرسلوا النقود جميعها إلى القمر! أضفت.

- إنها أمور جادة لا ينبغى الاستخفاف بها - أخذ نيلينى يؤكد وهو ينظر دائماً إلى السقف. الآن سنرى من لديه روح المناضل الحق، ومن على العكس يستسلم أمام أول ضربة.

وبما أننى لم أفهم السبب فى ندرة المال فى هذا العالم، لم أستشف كذلك أن نيلينى يضع جويدو بين المصارعين الذين يجب إثبات جدارتهم. اعتدت كثيراً حماية نفسى من نصائحه باللامبالاة، حتى إن تلك المرة أيضاً مضت بعيداً دون أن تنال منى، على الرغم من أننى استمعت إليه.

لكن توالى بضعة أيام، وبدأ نيلينى يعزف لحناً مختلفاً تماماً. لقد وقع حدث جديد، اكتشف أن جويدو قام ببعض التعاملات مع وكيل آخر. بدأ نيلينى يحتجُ بنبرة حادة، بأنه لم يخل قط بواجباته تجاه جويدو، حتى ولا فى واجب كتمانهِ للأسرار. كان يريد شهادتى فى هذا الأمر. ألم يخفِ عني أنا أيضاً صفقات جويدو، وهو من عدنى دائماً أفضل أصدقائه؟ لكنه تخلص حينئذ من أى تحفظ، واستطاع أن يصرخ فى أذنى بأن جويدو غارق فى الخسارة حتى نؤابة رأسه. كان يؤكد أنه من الممكن بالنسبة للصفقات التى كانت تتم عن طريقه، الصمود أمام التحسن الطفيف وانتظار فرص أفضل. لكنه كان أمراً جسيماً أن يخطئ جويدو فى حقه أمام أول محنة.

وما من مقارنة مع آدا! فلقد كانت غيرة نيلينى جامحة. كنت أريد معرفة بعض الأمور منه، فى حين كان يزداد غضباً؛ ويواصل الحديث عن الضرر الذى لحق به؛ ولهذا ظل متحفظاً، على الرغم مما كان يضمّره من نيات. وجدت جويدو بالمكتب فى وقت الظهيرة. كان مستلقياً على أريكتنا فى حالة غريبة ما بين اليأس والنعاس. فسألته: - هل خسارتك الآن جسيمة؟

لم يجبنى فى الحال. رفع ذراعه التى كان يخفى بها وجهه. الشاحب وقال:

- ألم تر قط رجلاً أكثر تعاسةً منى؟

وأرخی ذراعہ وغیر موضعہ واستلقى علی ظهرہ، اغمض عینہ،
وبدا کائما قد نسی وجودی معہ.

لم أستطع مواساته. كان يحزنتني حقاً أنه يرى نفسه أكثر الناس
تعاسةً في الدنيا. لم تكن مبالغة منه؛ كانت حقاً أكذوبة بمعنى الكلمة. لو
استطعت لكنت في نجدته، لكن كان يستحيل عليّ أن أخفف من آلامه.
فأنا أعتقد أيضاً أنه لا يستحق الشفقة من هو أكثر سذاجة وتعاسةً من
جويدو، وإلاّ فلن يكون هناك موضع في حياتنا إلاّ لذلك الشعور، بما
سوف يكون في ذلك من ملل عظيم. إن قانون الطبيعة لا يعطي الحق في
السعادة، بل بالأحرى يفرض الشقاء والألم. وعندما يكون هناك ما يتاح
للأكل، تُهرع الطفيليات إليه من كل مكان، وإن نقصت، فإنها تسرع في
التكاثر. وسرعان ما تكفي الفريسة بالكاد، وعقب ذلك مباشرةً تصبح
غير كافية؛ لأن الطبيعة لا تحسب حساباتها، بل تجري تجاربها. وعندما
لا يكفي الطعام، يجب أن يقل عدد المستهلكين من جراء الموت الذي
يسبقه الألم، وهكذا يستعيد التوازن استقراره، للحظة. لم الشكوى؟ ومع
ذلك يتذمر الجميع. إن أولئك الذين لم يحصلوا على شيء من الفريسة
يموتون ويصرخون من الظلم، ومن نال قسطاً منها يرى أنه كان له الحق
في الحصول على قسط أكبر. لم لا يموتون أو يعيشون صامتين؟ في
حين تكون الفرحة جميلة لمن استطاع أن يغتتم قسطاً ضخماً من الطعام،
وأن يظهر كذلك في وضوح النهار وسط التهليل. إن الصياح الوحيد
المسموح به هو صياح الظافرين.

أما عن جويدو! فإنه يفتقر إلى الصفات جميعها لكي يفوز بالثروة أو حتى يحتفظ بها وحسب. كان يعود من مائدة القمار وهو يبكي لخسارته. إذا لم يكن حتى يتصرف كما يليق بكرام الرجال، وكان يثير اشمئزازي. من أجل هذا، ولهذا وحسب، لم يجد جويدو تعاطفاً مني في اللحظة التي كان يشعر فيها بالحاجة إليه. حتى نياتي المتجددة لم تستطع قيادتي إلى هناك.

في تلك الأثناء أخذت أنفاس جويدو تزداد انتظاماً وصخباً. غلبه النوم! كم كان أقل رجولة في محنته! منعوا عنه الطعام، وربما أغمض عينيه ليحلم بأنه على الرغم من ذلك يحصل عليه، بدلاً من أن يفتحهما كما يجب ليرى أنه ينتزع منه قدراً صغيراً.

راودني الفضول لمعرفة إن كانت آدا على علم بالكارثة التي لحقت به أم لا. سألته بصوت عالٍ عن ذلك. انتفض، وكان بحاجة إلى وقفة ليعيش مصيبتته التي عاد يراها كاملة، وعلى حين غرة.

— لا! همس، ثم عاد وأغمض عينيه.

من المؤكد أن كل أولئك الذين لحقت بهم محنة قاسية يميلون إلى النُّعاس، فالنوم يعيد القوة. مكثت أنظر إليه في حيرة. لكن كيف كان يمكن مساعدته وهو نائم؟ لم تكن تلك اللحظة هي المناسبة للنوم. أمسكت بكتفه بشدة وهزته:

— جويدو!

كان مستغرقاً في النوم، نظر إلى وهو مضطرب وعيناه لا يزال
النَّعاس يغشاهما، ثم سألني:

– ماذا تريد؟ وفور ذلك مباشرةً كرر السؤال، وهو ثائر: – إذا،
ماذا تريد؟

كنت أرغب في مساعدته، وإلا لما كان لي حتى الحق في إيقافه.
انتابني الغضب أنا أيضاً، وصحت بأنه ليس وقت النوم، وينبغي الإسراع
بإيجاد وسيلة للخروج من المأزق. كان يجب إجراء الحسابات والمناقشة
مع أفراد عائلتنا جميعهم وأفراد عائلته بـبوينوس آيرس.

بدأ جويدو يعتدل، كان لا يزال مضطرباً بعض الشيء؛ لأنه أوقف
بتلك الطريقة. قال لي بمرارة:

– ليتك كنت أحسنت صنْعاً وتركتني أنام. من تراه يساعدني الآن؟
ألا تذكر أي حد كان على أن أصل في المرة السابقة لأحصل على
القليل الضروري لإنقاذي؟ يتعلق الأمر حالياً بمبالغ ضخمة! إلى من
تريد أن أتوجه؟

دون أية عاطفة، بل وفي ثورة اندفاعي بالالتزام بمساعدته وحرمان
عائلتي، صحت:

– ألسنتُ موجوداً هنا أنا أيضاً؟ ثم أوحى بُخلى إلى بأن أخفف منذ
البداية من تضحيتي:

– أما توجد أدا هنا؟ حماتنا؟ ألا يمكن أن نجتمع كلنا لإنقاذك؟
نهض واقترب مني، ونيته واضحة لمعانقتي.

لكنني لم أكن أرغب البتة في ذلك. فبعد أن عرضت عليه مساعدتي، أصبح لي الحق في أن أوبّخه، وتماديت في استخدام هذا الحق. وجهت اللوم إليه على ضعفه آنذاك، فضلاً عن اعتداده بنفسه الذي استمر حتى تلك اللحظة وجّره إلى الهلاك. أخذ يتصرف من تلقاء نفسه دون استشارة أحد. في كثير من الأحيان حاولت أن أطلع على اتصالاته حتى أوقفه وأنقذه، وكان يرفض أن يطلعني عليها، في حين كان يضع ثقته في نيليني وحده.

وفي تلك اللحظة ابتسم جويدو، ابتسم حقاً، جويدو التمس! أعلمني أنه لم يعد يعمل مع نيليني منذ خمسة عشر يوماً، بعد ما رسخ في ذهنه أن وجهه ذاك يجلب النحس.

كان ما يميزه هو ذلك النعاس وتلك الابتسامة: يتسبب في خسارة من حوله جميعهم ويبتسم. انتهجت سلوك القاضي الصارم؛ لأن انقاذ جويدو كان يتطلب تأديبه. أردت معرفة المبلغ الذي خسره، وغضبت عندما أخبرني أنه لا يعرفه بالضبط. وثرث مرة ثانية عندما ذكر لي رقماً صغيراً نسبياً، اتضح فيما بعد أنه يمثل المبلغ اللازم تسديده في الخامس عشر من الشهر، ولم يتبق لنا حينئذ سوى يومين وحسب حتى هذا الوعد. لكن كان جويدو يؤكد أنه هناك وقت حتى نهاية الشهر، وربما تتغير الأمور. وما كانت قلة المال في السوق لتستمر إلى الأبد.

صرخت:

– لو قلّ المال في هذا العالم، أتريد أن تتلقاه من القمر؟ أضفت أنه لا ينبغي أن نقامر ولا حتى ليوم واحد. ليس من المعقول أن نجازف حتى

نرى الخسارة تزداد وهي جسيمة بالفعل. وكذلك قلت يمكن تقسيم الخسارة إلى أربعة أجزاء سنتحملها أنا، وهو (أعني والده)، والسيدة مالفنتي، وآدا، وإنه من الضروري العودة إلى تجارتنا البعيدة عن المخاطر، وإنني لا أرغب على الإطلاق في رؤية نيليني أو أي سمسار آخر للأوراق المالية في مكتبنا.

رجاني في هدوء ودعة ألا أصبح كثيراً؛ لأنه ربما يسمعنا من حولنا. بذلت جهداً كبيراً لكي أهدأ، ونجحت في ذلك أيضاً في مقابل أنني استطعت أن أقول له كلاماً جارحاً بصوت خافت. جاءت خسارته نتيجة مباشرة لعمل إجرامي. لا بد أن يكون حيواناً غيباً من يوقع نفسه في مواقف حرجة كذلك، ورأيت من الضروري حقاً أن يتجرع الدرس كاملاً.

وهنا احتج جويدو في هدوء. من لم يضارب في البورصة؟ إن حمانا، الذي كان من التجار الراسخين، لم يخلُ يوم واحد في حياته من نشاطه في هذا المجال. فضلاً عن أنني كنت أقامر أنا أيضاً - كما كان يعلم جويدو. اعترضت؛ لأن هناك اختلافاً بين مضاربة وأخرى. لقد خاطر في البورصة بميراثه، وبى، وبإيراد شهر من الشهور. كان لها تأثيرها المحزن على محاولة جويدو الطفولية في التخلص من مسئوليته. أخذ يؤكد أن نيليني قد دفعه إلى المضاربة بأكثر مما كان يرغب فيه، خادعاً إياه بالتقدم نحو ثروة عظيمة.

ضحكت وسخرت منه، فلا ينبغي لوم نيليني، حيث كان يقوم بشئونه الخاصة. وفضلاً عن ذلك، وبعد أن ترك نيليني، ألم يندفع في

زيادة مبلغ المضاربة عن طريق سمسار آخر؟ أعساه كان سيتفاخر
بالعلاقة الجديدة لو أنه قام بواسطتها بالمضاربة على هبوط الأسعار دون
علم نيلينى. لم يكن ليكفى بلا شك لإصلاح الوضع تفسير الوكيل
والاستمرار فى السير فى الطريق ذاته أمام مطاردة النحس ذاته. فى
النهاية، أراد جويدو أن يدفعنى إلى أن أتركه وشأنه، وبغصة فى حلقه
اعترف بخطئه.

توقفت عن توبيخه. حقيق أنه كان يثير شفقتى حقاً، ووددت أن
أعانقه كذلك فى تلك اللحظة لو أنه رغب. قلت له إننى سأهتم فى الحال
بتوفير المال الذى سأمده به، ويمكننى أن أتكفل أيضاً بالحديث مع والدة
زوجتىنا، فى حين سيهتم هو بآدا.

زاد من شفقتى عندما أفضى إلى أنه سيتحدث عن طيب خاطر مع
والدة زوجتىنا بدلاً منى، لكن ما كان يؤله هو ضرورة الحديث مع آدا.

– إنك تعلم ما هى طبيعة النساء! إنهن لا يفهمن ما بالأعمال
التجارية، وإنما عندما تتم على ما يرام وحسب! إنه لم يكن ليتحدث إليها
على الإطلاق بل يرجو السيدة مالفنتى أن تخبرها بكل شىء.

خفف عنه هذا القرار على نحو كبير وخرجنا معاً. رأيتة يسير إلى
جوارى مطأطأ الرأس، وكنت أشعر بالندم على أننى عاملته بقسوة
شديدة. لكن كيف كان لى أن أفعل خلاف ذلك إن كنت أحبه؟ كذلك كان
يجب عليه أن يحاسب نفسه، إن كان لا يريد أن يلقي الخراب! أن يرى

كيف يجب أن تكون طبيعة، علاقته مع زوجته ما دام يخشى الحديث معها على هذا النحو!

غير أنه اكتشف حينئذ وسيلة لإثارة غيظي مرة أخرى، في أثناء سيرنا رأى أن يُتقن الخطة التي راقت له كثيراً. لم يكن يود ألا يتحدث مع زوجته وحسب، بل أن يجد الوسيلة لعدم رؤيتها تلك الليلة، حيث قرر الذهاب إلى الصيد على الفور. وبعد اتخاذه ذلك القرار، زالت عنه كل غيوم الكآبة. كما لو أن فكرة الذهاب إلى الهواء الطلق أصبحت كافية، بعيداً عن أى تفكير، لإعطائه مظهر من هو بالفعل هناك يستمتع استمتاعاً تاماً. هذا ما أثار سخطى! من المؤكد أنه يمكنه أن يعود بالأسلوب ذاته إلى البورصة ليستأنف المضاربة التي سيجازف فيها بثروة العائلة وثروتي أيضاً.

قال لى:

- أريد أن أمنح نفسي هذه المتعة الأخيرة، وأدعوك لتأتى معى شرط أن تلتزم بالأ تذكّر أحداث اليوم بكلمة واحدة.

حتى تلك اللحظة كان يتحدث وهو يبتسم. وأمام تعبير وجهى الجاد، أصبح هو أيضاً أكثر جدية. وأضاف:

- وأنت أيضاً ترى أننى بحاجة إلى الراحة بعد ضربة كهذه. ثم إنه سيسهل لى فيما بعد أن أستعيد موقعى فى الصراع.

غشى صوته انفعال لم أستطع أن أرتاب في مدى صدقه؛ ومن ثم تمكنت من كتم سخطى أو أن أعبر عنه بمجرد رفضى لدعوته، متعللاً له بأنه على أن أبقى بالمدينة لأوفر الأموال اللازمة. ما صدر منى كان لوماً بمعنى الكلمة! بقيت، أنا البريء، في مكانى، في حين يستبيح لنفسه، هو المذنب، أن يذهب للتسلية.

كنا قد وصلنا أمام باب منزل السيدة مالفنتى. ما عاد يجد مكاناً لتعبير البهجة التى كان يتوقعها من خلال التسلية لبضع ساعات، واحتفظ على وجهه، وقد بقى معى، بتعبير ألم تذكره منى. لكنه قبل أن يتركنى، وجد متنفساً فى إظهار استقلاله وحقده - كما كان يبدو لى. قال لى إنه يندهش بالفعل لاكتشافه بشخصى صديقاً على هذا النحو. كان متردداً فى قبول التضحية التى أردت أن أقدمها له وكان يعتمد (كان يعتمد حقاً) أن أعرف أنه لا يحسبنى ملتزماً تجاهه بأى حال من الأحوال، وإننى لذلك حر فى تقديمها أو عدم تقديمها.

أنا على يقين من أن وجهى احمر فى تلك اللحظة. ولكى أتخلص من حرجى قلت له:

- لماذا تظن أننى قد أرغب فى الانسحاب، وقد اقترحت منذ بضع دقائق أن أساعدك دون أن تسألنى شيئاً؟

نظر إلى وهو متردد بعض الشيء ثم أجاب:

- بما أنك ترغب فى ذلك، أقبل دون شك وأشكرك. لكننا سنبرم عقداً للشركة جديداً تماماً، حتى يحصل كل منا على ما يحق له. بل وإن

بدأ العمل وكنت لا تزال ترغب فى التمهّل، فلك أن تتقاضى راتبك. سوف تؤسس الشركة الجديدة على قاعدة مختلفة تمامًا؛ ومن ثم لن نخشى خسائر أخرى من جراء إخفاء خسارة العام الأول من ممارستنا للعمل. فأجبت:

– هذه الخسارة ليست لها أية أهمية، ولا عليك أن تنشغل بها مطلقًا. حاول الآن أن تأخذ والدّة زوجتك فى صفك. هذا ما يهم حاليًا وليس شيئًا آخر.

وعلى هذا النحو افترقنا. أعتقد أنّى ابتسمت من سذاجة جويدو وهو يفصح عن مشاعره الدفينة. لقد تكلم معى بذلك الخطاب المطول لمجرد أن يتمكن من قبول هديتى، دون أن يلتزم بإظهار العرفان بالجميل تجاهى. لم أكن أنتظر شيئًا. كانت تكفينى معرفتى أنه مدين لى بهذا الامتنان.

وعلى ذلك، أحسست أيضًا ببعض الراحة، بعد ما انصرف عنه، كأنما ذهبت بعدها مباشرة إلى الهواء الطلق. حقًا شعرت بالحرية التى فارقتنى عندما نويت تعليمه وإعادته إلى الطريق الصحيح. أصبح المعلم فى واقع الأمر أكثر تقيّدًا من التلميذ. كنت صادقًا فى قرارى بأن أوفّر له تلك الأموال. بالطبع لا أستطيع القول إن كنت أفعل ذلك حبًا فيه أم فى أدا، أو لعنى قررت ذلك لأتخلص من ذلك القدر الصغير من المسؤولية الذى ربما يخصنى لعملى فى مكتبه. أيا كان الدافع، عزمّت على التضحية

بجزء من ثروتى، وإلى يومنا أتذكر ذلك اليوم فى حياتى بشعور كبير بالرضا. إن ذلك المال كان سينقذ جويدو، ويضمن لى راحة كبيرة لضميرى.

أخذت أسير حتى حلول المساء فى هدوء وافر، وبالتالى ضاع الوقت المناسب للذهاب إلى البورصة حتى أتفقد أوليئى، حيث كان على أن ألجأ إليه ليوفر لى مبلغاً ضخماً كهذا. ثم رأيت أن المسألة ليست عاجلة جداً. فكانت لدى أموال كثيرة تحت تصرفى آنذاك تكفى للإسهام فى التسوية، التى كان من المفترض أن تُجرى فى الخامس عشر من ذلك الشهر. وبإمكانى أن أتدبر بعد ذلك ما يفى حتى نهاية الشهر.

فى تلك الليلة لم أشغل فكرى بجويدو. فيما بعد، أى عندما نام الأطفال، تاهبت لمرات عديدة أن أخبر أوجوستا بكارثة جويدو المالية، وبالخسارة التى سوف تنعكس على، لكننى بعد ذلك لم أرغب فى إثارة أعصابى بمناقشات، ورأيت أنه من الأفضل أن أتريث لإقناع أوجوستا فى الوقت الذى سيقدر فيه الجميع تسوية تلك الأعمال. فضلاً عن أنه من السخافة أن أزعج أنا نفسى، فى حين يلهو جويدو.

نمت جيداً، وفى الصباح ذهبت إلى المكتب وجيبى ليس مثقلاً بأموال كثيرة (كنت أضع به الظرف القديم الذى تركته لى كارلا، وقد احتفظت به بعناية شديدة حتى ذلك الحين من أجلها، أو ربما من تحتل مكانها، وشيئاً من أموال أخرى استطعت أن أسحبها من البنك). قضيت النهار فى قراءة الصحف، بين كارمن التى كانت تحيك ولوتشانو وهو يتمرس فى عمليات الضرب والجمع.

عندما عدت إلى المنزل في ساعة الغداء، وجدت أوجوستا حائرة وحزينة. كان يكسو وجهها ذلك الشحوب الشديد، الذي كان لا ينجم إلا عن آلام أسبابها لها. قالت لي في هدوء:

- علمت أنك قررت أن تضحي بجزء من ثروتك لإنقاذ جويدو. أعرف أنه لم يكن لي الحق في أن تخبرني بذلك...
كانت متشككة جداً في حقها ذاك، حتى إنها تحيرت. ثم عادت وأخذت تلومني على صمتي:

- حقيق أنني لست مثل آدا، فأنا لم أعارض رغباتك على الإطلاق.
احتجت إلى بعض الوقت، حتى أعرف ما حدث. تصادفت زيارة أوجوستا لآدا عندما كانت تتناقش مع والدتها بشأن جويدو. وما إن رأتها آدا حتى استرسلت في بكاء شديد، وأخبرتها بعرضي السخي الذي لا تريد قبوله على الإطلاق. بل وتوسلت إلى أوجوستا أن تدعوني للعدول عن اقتراحي.

لاحظت على الفور أن أوجوستا تعاني من علتها القديمة، وهي غيبتها من أختها، لكنني لم أبالٍ بذلك. كان موقف آدا الذي اتخذته يدهشني:

- هل بدت لك مستاءة؟

- سألتها وأمعنت النظر من المفاجأة.

- كلا! كلا! لم تشعر بإهانة!

- صاحت أوجوستا الصريحة - قبلتني وعانقتني... ربما لكى
أعانقك أنت.

وجدت فى ذلك أسلوباً للتعبير مضحكاً جداً. أخذت تنظر إلى،
وتتفحصنى بارتياح.

احتججت قائلاً:

- أظنن أن أدا تحبنى؟ ماذا يخطر ببالك؟

لكننى لم أتمكن من تهدئة أوجوستا، التى كانت غيرتها تزعجنى
بصورة مفرغة. حسناً، كان جويدو لا يلهو فى تلك الأثناء؛ فقد كان بلا شك
يقضى ربع الساعة مزعجاً ما بين حماته وزوجته، لكننى أنا أيضاً كنت
مستاءة جداً، وأرى أن معاناتى أكثر مما ينبغى وأنا برىء تماماً.

حاولت تهدئة أوجوستا وأنا أداعبها. فابتعدت بوجهها عن وجهى
لترانى جيداً، وبرقة وجهت لى لوماً خفيفاً أثر فى تأثيراً كبيراً،
فقالت لى:

- أعرف أنك تحبنى أيضاً.

من الواضح أنها لم تكن تبالى بحالة أدا النفسية، بل كانت تهمها
حالتى أنا النفسية، فلاحت لى فكرة لأثبت لها براعتى:

- إذا فأدا مغرمة بى؟ سألتها ضاحكاً. ثم ابتعدت عن أوجوستا
لكى ترانى جيداً، ونفخت خدى قليلاً، وحملت بعينى بصورة غير طبيعية

حتى أشبه آدا المريضة. نظرت أوجوستا إلى في دهشة، لكنها سرعان ما فطنت إلى قصدي. فانفجرت في ضحك سرعان ما خجلت منه.

- لا! قالت لي، أرجوك ألا تسخر منها.

ثم أقرت، وهي لا تزال تضحك، أنني استطعت إجادة محاكاة تلك الانتفاخات التي باتت تضيف على وجه آدا مظهراً يدعو إلى الدهشة الشديدة. كنت أحس بذلك، حيث خلت أنني أعانق آدا في أثناء محاكاتي لها. ولمرات عدة عندما كنت أنفرد بنفسى، كررت تلك المحاولة بدافع من الرغبة والاستياء معاً.

في وقت الظهيرة ذهبت إلى المكتب آملاً في أن أجد جويدو. انتظرت لبعض الوقت ثم قررت أن أتوجه إلى منزله. كان على كذا أن أعرف إن كان ضرورياً أن أطلب مالاً من أوليفي. كان يجب أن أقوم بواجبي على الرغم من استيائي لرؤية آدا مرة أخرى وهي مثقلة من العرفان بالجميل، من يدري ما المفاجآت التي قد تأتيني من تلك المرأة!

تقابلت مع السيدة مالفنتي مصادفةً على درج السلم في منزل جويدو، وكانت تصعد بصعوبة. حكّت لي طويلاً وعرضاً ما الذي تم إقراره بشأن جويدو حتى تلك اللحظة. ففي الليلة السابقة قد اختلفوا حول الاقتناع بضرورة إنقاذ ذلك الرجل الذي ابتلى بسوء حظ مفع. وكانت آدا قد علمت في الصباح فقط أنني التزمت بالتعاون في تغطية خسارة

جويدو، وقد رفضت بحسم قبول ذلك الأمر. والتمست لها السيدة
مالفتى العذر:

— ماذا تريد أن تفعل؟ إنها لا ترغب في تحمل تأنيب ضميرها؛
لأنها أفقرت أختها التي تؤثرها.

توقفت السيدة على راحة السلم لتلتقط أنفاسها ولتتحدث أيضاً،
وأخبرتني، وهي تضحك، أن المسألة ستنتهي دون إلحاق الضرر بأحد.
ذهبت هي وآدا وجويدو، قبل الغداء، لاستشارة محام، وهو صديق قديم
للعائلة، وأصبح حينئذ حارساً أيضاً على مصالح الصغيرة أنا. قال
المحامى إنه ليست هناك ضرورة للتسديد؛ لأنهم غير مضطرين لذلك
أمام القانون، اعترض جويدو بشدة وهو يتحدث عن الشرف والواجب،
لكن دون شك، وفور أن يقرر الجميع وبينهم آدا عدم التسديد، فسوف
يستسلم هو أيضاً للقرار.

— لكن سيتم إشهار إفلاس شركته في البورصة؟ قلت وأنا حائر.

— من المحتمل! أجابت السيدة مالفتى بتنهيد قبل أن تبدأ في صعود
الدرج الأخير من السلم.

كان جويدو يستريح في العادة بعد تناول الغداء؛ ولهذا استقبلتنا
آدا بمفردها في ذلك الصالون الصغير الذي كنت أعرفه جيداً. عندما
رأيتني ارتبكت للحظة، للحظة واحدة، لكنني التقطت حركتها وتحققت منها
واضحة وظاهرة، وكأنها كلام قيل لي. ثم جمعت قواها ومدت يدها إليّ

بحركة واثقة كحركة الرجال، كان من شأنها أن تمحو تعثر النساء الذى اعترأها فى البداية.

قالت لى:

- أظن أن أوجوستا أخبرتك بامتنانى لك، لا أستطيع أن أقول لك الآن ما أشعر به لأننى مضطربة. وأنا كذلك مريضة. نعم، ما زلت مريضة! قد أحتاج إلى الذهاب من جديد للمصحة ببولونيا!

أوقفتها شهقة عن الكلام:

- أطلب منك الآن معروفًا. أرجوك أن تبلغ جويدو أنك أنت أيضاً لست فى ظروف تسمح بإعطائه ذلك المبلغ من المال. وهكذا سيصبح يسيراً علينا أن ندفعه للقيام بما يتعين عليه.

فى بادئ الأمر فاجأتها شهقة وهى تتذكر مرضها، ثم تنهدت من جديد قبل أن تستأنف الحديث عن زوجها:

- إنه صبى صغير، وعلينا أن نعامله على هذا النحو. فإن علم أنك توافق على منحه هذا المال، فسيتشبت برأيه مرة أخرى فى التضحية أيضاً بالمتبقى وبلا جدوى. دون فائدة! لأننا علمنا الآن عن يقين تام أنه مسموح بإشهار الإفلاس فى البورصة، كما أبلغنا المحامى.

أبلغتنى برأى مرجع كبير دون أن تسأل عن وجهة نظرى. بوصفى أحد الرواد القدامى فى البورصة، ربما كان لرأى أهميته إلى جانب

وجهة نظر المحامى أيضاً، لكننى لم أتذكر رأى ذلك على الإطلاق، على الرغم من أنه كانت لى وجهة نظر. وأذكر أننى وضعت فى موقف حرج. لم أكن أستطيع التخلّى عن الالتزام الذى عاهدت جويدو عليه: كان فى مقابل هذا الالتزام، أنى سمحت لنفسى أن أصرخ فى أذنيه بكثير من الكلام الفظ، وحصلت بذلك على ما يشبه الفوائد على رأس المال، الذى لم يعد حينئذ يمكننى أن أرفض إعطائى له إياه فى ذلك الوقت.

- أدا! - قلت لها فى تردد - لا أعتقد أننى أستطيع أن أسحب التزامى هكذا بين ليلة وضحاها. أليس من الأفضل أن تقنعى جويدو بأن يفعل ما ترغبين فيه أنت؟

قالت السيدة مالفنتى، بعاطفتها الكبيرة التى كانت تظهرها لى دائماً، إنها تدرك جيداً موقفى الخاص، وإنه على الرغم من ذلك عندما لا يجد جويدو تحت تصرفه سوى ربع المبلغ الذى كان بحاجة إليه فقط، لابد أنه سيستسلم لرغبتهم جميعاً.

لكن دموع آدا لم تجف. قالت، وهى تبكى وتخفى وجهها بالمنديل:
- لقد أخطأت، أخطأت كثيراً فى القيام بذلك الاقتراح الرائع حقاً! سيتضح الآن مدى الضرر الذى صنعتة!

.كانت تبدو لى مترددة بين شعور كبير بالامتنان والسخط شديد. أضافت بعد ذلك أنها لا ترغب فى الحديث عن ذلك العرض مطلقاً، ورجتني ألا أمنحه ذلك المال؛ لأنها ستمنعنى من تقديمه أو ستمنع جويدو من قبوله.

شعرت بحرج شديد انتهى بى إلى الكذب، أخبرتها بأننى قد حصلت على المبلغ بالفعل، وأشارت إلى جيب صدر سترتى الذى كان يرقد به ذلك الظرف قليل الثقل. نظرت إلى آدا تلك المرة نظرة إعجاب حقيقى ربما أسعدنى، لو لم أكن أعرف أننى لست جديراً بها. على أية حال تلك كانت كذبة قلتها حقاً، ولا أستطيع أن أعطى لها تفسيراً آخر سوى محاولتى الغريبة فى الظهور أمام آدا بصورة أفضل مما كنت عليها، وأدت إلى عدم انتظارى لجويدو وانصرافى من ذلك المنزل، ألم يكن من المحتمل أن يحدث أيضاً، بخلاف ما كان يبدو فى الظاهر، أن يُطلب منى تسليم المبلغ الذى كنت أدعى أنه معى، وعندئذ ما هى الصورة التى كنت سأظهر عليها؟ قلت مسرعاً إن لدى أعمالاً عاجلة بالمكتب، وانصرفت مسرعاً.

رافقتنى آدا إلى الباب، وأكدت لى أنها ستدفع جويدو لزيارتى لتوجيه الشكر لى على عرضى السخى ولعدم قبوله. قالت ذلك التصريح بنبرة حاسمة مما جعلنى أنتفض. رأيت فى ذلك القرار الحاسم ما يصيبنى أنا أيضاً. كلا! فى تلك اللحظة لم تكن تحبنى. كان تصرفى الكريم أكبر مما ينبغى. كان يسحق بثقله الأشخاص المعنيين، ولم يكن هناك داعٍ للدهشة من معارضة المستفيدين به. حاولت وأنا فى طريقى إلى المكتب أن أتخلص من الضيق الذى تسبب فيه تصرف آدا، وأذكر نفسى أننى أقدم تلك التوضيح لجويدو، لا لأحد سواه. وما شأن آدا؟ عدت أعاهد نفسى أن أخبرها بهذا فى أول مناسبة.

ذهبت إلى المكتب لكي لا أشعر بالفعل بتأنيب الضمير؛ لأنني كذبت مرة أخرى. لم يكن هناك شيء ينتظرني به. ومنذ الصباح كان مطر خفيف يتساقط باستمرار، مما أُنْعَشَ الهواء كثيراً في ذلك الربيع الذي كان يتعثر. لو أردت لكنت بمنزلي بعد خطوتين، في حين كان عليّ أن أسير في طريق طويل حقاً لأصل إلى المكتب، مما كان يثقل عليّ. لكنني كنت أرى ضرورة وفائي بالوعد.

لحق بي جويدو بعد قليل. وصرف لوتشانو من المكتب ليبقى بمفرده معي. كانت على وجهه علامات الاضطراب تلك التي كانت تسانده في مشاجراته مع زوجته وكنت أعرفها جيداً. لا بد أنه بكى وصرخ.

سألني عن رأيي في خطط زوجته وحماتنا، وكان يعلم أنهما أخبرتاني بها. بدا عليّ التردد أمامه. لم أرغب في الإفصاح عن وجهة نظري، التي لم تكن تتفق ورأي السيدتين، وكنت أعلم أنني لو اتبعت رأيهما لتسببت في إثارة غضب وشجار جويدو. فضلاً عن أنه كان يسوعني كثيراً أن أظهر ترددي في تقديم المساعدة، ثم إننا قد اتفقنا في النهاية أنا وأدا على أن القرار لا بد أن يأتي من جويدو وليس مني. قلت له إنه من الضروري أن نجرى الحسابات، ونرى، ونستمع أيضاً إلى أناس آخرين. فلم أكن أنا رجل الأعمال الذي يستطيع أن يدلي بنصيحة في أمر كذلك بالغ الأهمية. وحتى أكسب بعض الوقت، سألته إن كان يرغب في أن أستشير أليفى.

كان هذا كافياً لدفعه إلى الصراخ:

– ذلك الأحمق! صاح. أرجوك أن تنحيه جانبا!

لم أكن مستعداً على الإطلاق للتحمس في الدفاع عن أوليقي، لكن هدوئي لم يكفِ لطمأنة جويدو. كنا في موقف اليوم السابق ذاته، لكنه هو الذي كان يصيح حينئذ وكان دوري أن أصمت. إنها مسألة استعداد. اجتاحني حرج شديد سيطر على وقيدي.

لكنه أراد أن أدلي برأيي على نحو جازم. تحدثت بصورة جيدة للغاية من إلهام أعتقد أنه إلهي، أحسنت كثيراً، كثيراً جداً في القول، حتى إنه لو كان لكلامي تأثير أيا كان، لتجنبنا الكارثة التي حدثت فيما بعد. أخبرته أنني لو خُيرت لفصلت بين المسألتين، أي ما بين المبلغ المطلوب في الخامس عشر وذلك الآخر في نهاية الشهر. مجمل القول أننا لم نكن بحاجة إلى تسديد مبلغ ضخم جداً، وفي الوقت نفسه كان ضرورياً دفع المرأتين إلى تحمل تلك الخسارة الخفيفة. ثم سيكون لدينا الوقت اللازم لنوفر المبلغ الآخر بحكمة.

قاطعني جويدو ليسألني:

– قالت آدا لي إنك أحضرت بالفعل المبلغ في جيبك. أهو معك هنا؟

احمرّ وجهي من الحرج. لكنني عثرت على الفور على كذبة أخرى

أنقذتني:

– بما أنهم لم يقبلن ببيتك هذا المال، فقد أودعته فى المصرف منذ قليل. لكننا نستطيع أن نسترده من جديد وقتما نشاء، حتى فى صباح الغد مباشرة.

عندئذ وجه لى اللوم؛ لأننى بدلت رأى. مادمت صرحت له بالفعل فى اليوم السابق بعدم رغبتى فى انتظار سداد المبلغ الثانى لتعيد تنظيم الأمور كلها! ولذا انفجر فى ثورة عارمة انتهت به إلى انطراحه منك القوى على الأريكة. تواعد بأن يطرد من المكتب نيلينى والوكلاء الآخرين الذين حملوه على المضاربة. أه! حتى وإن كان احتمال الإفلاس يتراعى له وهو يضارب فى البورصة، إلا أنه بات يرفض الإذعان لسيدتين لا يفقهن شيئاً فى أى شىء. تقدمت لمصافحته ولعانقته لو سمح بذلك. لم أرغب فى شىء سوى أن أراه يصل إلى هذا القرار. لا مضاربة بعد اليوم، بل القيام بالعمل اليومى! هكذا كان يجب أن يكون مستقبلنا واستقلاله. كان لا بد آنذاك من المرور بتلك الفترة العصبية القصيرة، ثم يصبح كل شىء فيما بعد سهلاً وبسيطاً. –

بعد قليل تركنى وهو خائر العزم، لكنه فى حالة أهدأ. وعلى الرغم من ضعفه كان يلح عليه هو الآخر قرار حاسم.

– سأعود إلى أدا! – همهم وهو يبتسم ابتسامة مريرة، ولكن فى ثقة. رافقته إلى الباب وكنت على استعداد لاصطحابه حتى منزله، لو لم تكن لديه العربة تنتظره عند الباب.

كانت النعمة تلاحق جويديو؛ بعدما تركنى بنصف ساعة رأيت أنه من الحكمة أن أتوجه بدورى إلى منزله للوقوف إلى جواره. ليس لأننى كنت أتوقع خطراً يداهمه، بل لأننى كنت حينئذ أوازنه تماماً، وربما استطعت أن أشارك فى إقناع آدا والسيدة مالفنتى لمساعدته. فالإفلاس فى البورصة كان أمراً يسوعنى، وعلى العموم كانت الخسارة، التى قسّمت علينا نحن الأربعة، جسيمة، لكنها لم تكن تمثل الهلاك لأحد منّا.

ثم تذكرت أن واجبى الأكبر لم يكن وقتئذ معاونة جويديو، بل إعداد المبلغ له فى اليوم التالى، وقد وعدته به. فى الحال ذهبت بحثاً عن أوليفى وتأهبت لصراع آخر. فكّرت فى نظام لتسديد المبلغ الضخم بموجب توقيعى على مدى بضع سنوات، ولكن بإيداع كل ما تبقى لى فى حسابى من ميراث والدتى منذ ذلك التاريخ وعلى مدى بضعة أشهر. كنت أمل ألا يصعب أوليفى المسألة، حيث لم أطلب منه قط حتى ذلك الحين أكثر مما يخصنى من فوائد وأرباح، وكان كذلك بإمكانى ألا أزعجه على الإطلاق بمثل تلك المطالب. من الواضح أنى ربما كنت أمل كذلك فى استرداد جزء على الأقل من ذلك المبلغ من جويديو.

فى تلك الليلة لم أستطع العثور على أوليفى. غادر المكتب لتوه فى اللحظة التى دخلت فيها. افترضوا أنه توجه إلى البورصة. لم أجده هناك أيضاً، وعندئذ ذهبت إلى منزله، حيث علمت أنه يحضر جلسة فى شركة اقتصادية يشغل فيها منصباً فخرياً. كان بإمكانى أن ألحق به هناك، لكن الظلام كان قد حلّ حينئذ، وكانت السماء تمطر مطراً غزيراً لا ينقطع حول الطرق إلى جداول مياه عديدة.

كان طوفاناً استمر طيلة الليل لم تنسَ ذكره لسنوات عديدة. أخذ المطر يهطل ويهطل فى إصرار، عمودياً على نحو ثابت، غزيراً على نحو متواصل. ومن الأماكن المرتفعة التى كانت تحف المدينة كان الطين يهبط ومعه نفايات حياتنا المدنية، ليسدّ القنوات الشحيحة التى كانت لدينا. وعندما قررت أن أعود إلى منزلى، بعد أن انتظرت دون جدوى فى مخبأ حتى يتوقف المطر، ورأيت فى وضوح أن الجو استقرّ على هطول المطر، وأنه من العبث الأمل فى حدوث تغيير به، أخذت أسير فى المياه حتى وإن كنت أتحرك على الأجزاء الأعلى من حجارة الطريق. أسرعت إلى البيت وأنا أسبّ وقد تبللت حتى عظامى. وكنت أسبّ أيضاً؛ لأننى أضعت وقتاً طويلاً حقاً للعثور على أوليفى. ربما كان وقتى ليس ثميناً بهذه الدرجة، لكن من المؤكد أننى أتألم بصورة مفرّعة عندما أكتشف أننى قمت بعمل لا جدوى منه. وفى أثناء ما كنت أجرى أخذت أفكر: «لنترك كل شىء للغد عندما يصبح الجو صافياً جميلاً وجافاً. فى الغد سأذهب إلى أوليفى، وغداً سأرى جويدو. لعلى أستيقظ فى ساعة مبكرة، لكن الجو سيكون صافياً وجافاً». كنت مقتنعاً تماماً بصحة قرارى، حتى إننى أخبرت أوجوستا بأن الجميع استقروا على تأجيل أى قرار لليوم التالى. غيرت ملابسى، وجففت ما كان من بلل، ووضعت قدمىّ المعذبتيّن فى خُف مريح دافئ. تناولت فى البداية طعام العشاء، ثم استسلمت لنُعاس عميق حتى الصباح، بينما كان المطر الثقيل يعصف بزجاج نوافذ حجرتى كالحبال الغليظة.

وهكذا علمنا فقط فيما بعد بالأحداث التي جرت في الليل.
علمنا أولاً أن المطر توقف بعد أن تسبب في غرق أماكن عديدة من
المدينة، ثم وفاة جويدو.

بعد مرور وقت طويل عرفت كيف حدث أمر كهذا. في الحادية
عشرة تقريباً من مساء ذلك اليوم، وبعد انصراف السيدة مالفنتي، أخبر
جويدو زوجته أنه تجرّع كمية كبيرة من الفيرونال. أراد أن يقنع زوجته
أنه يائس. عانقها، وقبلها، وطلب منها أن تسامحه على ما سببه لها من
معاناة. ثم، قبل أن يتحول كلامه إلى تلعثم، أكد لها أنها الحب الوحيد
في حياته. لم تصدق آنذاك تأكيده هذا ولا أنه قد تناول كمية كبيرة من
السم تؤدي إلى وفاته. لم تصدق حتى أنه فقد وعيه، لكنها ظنت أنه
يتظاهر بذلك لينتزع الأموال منها مرة أخرى.

بعد ذلك، بساعة تقريباً، ارتاعت بعض الشيء؛ حيث كان لا يزال
ينام في سبات عميق، فكتبت رسالة موجزة إلى طبيب كان يقطن بالقرب
من مسكنها. كتبت في تلك الورقة أن زوجها يحتاج إلى إسعاف فوري؛
لأنه تجرّع كمية كبيرة من الفيرونال.

حتى ذلك الحين لم يكن هناك أي انفعال في ذلك المنزل من شأنه
أن يجذب انتباه الخادمة، وهي سيدة عجوز تعمل منذ فترة وجيزة،
وينبئها بخطورة مهمتها.

وأكمل المطر ما تبقى من أحداث. وجدت الخادمة أن المياه قد بلغت
منتصف ساقها وفقدت الرسالة. أدركت ذلك فقط عندما وجدت نفسها

أمام الطبيب، لكنها استطاعت أن تخبره أن هناك أمراً عاجلاً، وحملته على أن يلحق بها .

كان الدكتور مالى رجلاً يناهز الخمسين من عمره، كان مفتقداً تماماً للعبقريّة، لكنه كان طبيباً متمرساً، يؤدي دائماً واجبه على أفضل ما يمكنه. لم يكن لديه زبائن خاصة به، في حين كان يعمل كثيراً لحساب شركة كثيرة الأفراد، غير وافرة في العطاء. كان قد عاد إلى منزله قبل قليل وتمكن بالكاد من تدفئة نفسه وتجفيف ملابسه بالقرب من النار. ولنا أن نتخيل حالته وهو يترك ركنه الدافئ في تلك اللحظة. عندما أخذت أتفحص جيداً أسباب وفاة صديقي المسكين، انشغلت كذلك بالتعرف على الدكتور مالى. لم أعلم عنه سوى هذا: عندما وطأ خارج المنزل وأحس بالمطر يبلله عبر المظلة، ندم لأنه درس الطب بدلاً من الزراعة، حيث تذكر أن الفلاح يظل بيته عندما تمطر السماء.

وما إن وصل إلى فراش جويديو، وجد أدا وقد هدأت تماماً. في اللحظة التي كان الطبيب إلى جوارها استعادت في وضوح بذاكرتها، كيف أن جويديو تلاعب بها قبل بضعة أشهر وهو يتظاهر بالانتحار. فلم تعد عليها أية مسؤولية تتحملها، بل وجب على الدكتور أن يستعلم عن كل شيء، وكذلك عن الدوافع الأساسية التي تحمل على تصديق التظاهر بالانتحار. اطلع الطبيب على هذه الأسباب جميعها، كما كان في الوقت ذاته يعير سمعه إلى عاصفة المطر الذي كان يكتسح الطريق. ولم يكن لديه الأجهزة اللازمة لعلاج حالة التسمم؛ لأنه لم يُخطر بها من قبل عند

استدعائه. أسف لهذا أسفاً شديداً، وتمتم بكلمات لم تفهما أدا. وكان الأسوأ من ذلك أنه لم يكن يستطيع إرسال أحد لإحضار الأشياء الضرورية لعمل غسيل للمعدة، بل كان عليه أن يذهب هو لإحضارها بنفسه ويعبر الطريق مرتين. اختبر نبض جويدو ووجده رائعاً. سأل أدا عما إذا كان جويدو قد اعتاد على نوم شديد العمق. أجابته أدا بنعم، لكن ليس إلى هذا الحد. قام الدكتور بفحص عيني جويدو؛ كان لهما رد فعل مباشر للضوء! انصرف وهو يوصي بإعطائه من حين لآخر بضع ملاعق صغيرة من القهوة السادة المركزة.

علمت كذلك أنه عندما خرج إلى الطريق، همهم بغضب:

– التظاهر بالانتحار في هذا الجو أمر غير مقبول!

عندما تعرفت عليه، لم أتجراً على توجيه اللوم له لإهماله، لكنه استشعره ودافع عن نفسه: أخبرني أنه ظل مندهشاً عندما علم بوفاة جويدو في الصباح، حتى إنه خطر بباله أن جويدو أفاق وتناول النوع الآخر من القيرونال. ثم أضاف أن غير العارفين بفن الطب لا يستطيعون أن يتخيلوا كيف يعتاد الطبيب الدفاع عن حياته في أثناء مزاويلته للمهنة أمام زبائن يحاولون اغتيالها ولا يهتمون إلا بحياتهم.

بعد مرور أكثر من ساعة تقريباً، ضاقت أدا ذرعاً وهي تدخل بالملعة الصغيرة بين أسنان جويدو، وترى أنه يرتشف منها بتناقص مستمر، ويسيل ما يتبقى على الوسادة. ففزعت مرة ثانية ورجت الخادمة أن تذهب إلى الدكتور باولي. في تلك المرة اعتنت الخادمة بالرسالة.

لكنها استغرقت أكثر من ساعة للوصول إلى مسكن الطبيب، من الطبيعى فى حالة سقوط الأمطار أن يشعر المرء بالحاجة إلى الوقوف من وقت لآخر تحت البواكى، فأمطار مثل تلك لا تبلل وحسب، بل تلمس البدن.

لم يكن الدكتور باولى بالمنزل. فقبل قليل استدعاه أحد المرضى، وانصرف قائلاً إنه يأمل فى العودة سريعاً، فى حين يبدو أنه فضل بعد ذلك الانتظار عند المريض حتى يتوقف المطر. أرادت خادمته، وهى امرأة طيبة جداً متقدمة فى السن، أن تجلس خادمة آدا بالقرب من المدفأة واهتمت بالاحتفاء بها. لم يترك الطبيب عنوان مريضه، وهكذا قضت المرأتان معاً ساعات عديدة إلى جوار النار. عاد الطبيب فقط عندما توقف هطول المطر. وعندما وصل عند آدا بعد ذلك، ومعه الأجهزة جميعها التى جربها فيما سبق على جويدو، كان الفجر يلوح. كان عليه واجب واحد عند ذلك الفراش؛ وهو أن يخفى عن آدا أن جويدو قد مات بالفعل، وأن يستدعى السيدة مالفنتى قبل أن تدرك آدا الأمر، حتى تشد من أزرها فى بداية أحزانها.

لهذا وصل إلينا الخبر فى وقت متأخر جداً وغير دقيق.

وما إن نهضت من الفراش حتى انتابتنى سورة غضب للمرة الأخيرة ضد جويدو المسكين؛ كان يعقدُ المواقف الحرجة كلها بتمثلياته! غادرت المنزل دون أوجوستا؛ لأنها لم تكن تستطيع أن تترك الطفل هكذا فجأة. استوقفتنى الشك، خارج البيت! ألم يكن بإمكانى انتظار المصارف حتى

تفتح وأوليقي حتى يعود إلى مكتبه، لأظهر أمام جويدو وقد تزودت بالمال الذي وعدته به؟ لم أصدق كثيراً خبر خطورة حالة جويدو على الرغم من أنهم أخطروني بها!

علمت بالحقيقة من الدكتور باولى الذى صادفته على درج السلم، فأصابنى اضطراب كدت أسقط من جرائه، لقد أصبح جويدو شخصاً بالغ الأهمية بالنسبة لى منذ أن عشت معه، كنت أراه فى حياته بمثابة ضوء من الأضواء ينير أيامى، وما إن مات حتى تبدل ذلك الضوء كأنما مرُّ بغتة عبر منشور ثلاثى، هذا ما كان يصيب عيني حقاً بالعشى، لقد أخطأ، لكننى سرعان ما وجدت أنه لم يتبق من أخطائه شىء، بعد ما وافته المنية، كنت أجده أحمق ذلك المهرج حيث، فى جبانة تغطيها كتابات التآيين المنقوشة سأل أين يُدفن المذنبون فى ذلك البلد، فالأموات ليسوا مذنبين على الإطلاق، أصبح جويدو الآن إنساناً نقياً! لقد نقاه الموت.

كان الطبيب متأثراً لأنه شاهد آلام آدا، أخبرنى بعض الشىء عن الليلة المفزعة التى مرت بها، تمكنا من إيهامها بأن الكمية التى تجرعها جويدو من السم كانت بدرجة لا تُمكن أى علاج من إسعافه، يا لها من كارثة لو علمت خلاف ذلك!

- أضاف الطبيب بأسى: لو وصلت قبل بضع ساعات، لأنقذته، لقد وجدت زجاجات السم الفارغة.

قمت بفحصها، كانت الجرعة شديدة، لكنها أشد بالقدر القليل من المرة السابقة، أرانى بعض الزجاجات فقرأت عليها هذه الكلمة المطبوعة:

قيرونال، إذاً فهو ليس القيرونال بالصوديوم. ما من أحد سوى كان يمكنه أنذاك التأكد من عدم رغبة جويدو في الموت، ولكنني لم أذكر ذلك قط لأحد.

تركني باولى بعد أن طلب مني ألا أحاول رؤية أدا في ذلك الحين. كان قد أعطاها بعض المهدئات القوية، ولم يكن يرتاب في أن تحدث تأثيرها سريعاً.

وبالممر كان بكاؤها الهادئ يأتي إلى سمعي من تلك الحجرة الصغيرة التي استقبلتني أدا بها مرتين. كانت كلمات متفرقة لم أفهمها، لكن الألم كان يغمرها. كانت تكرر كلمة هو مرات عديدة، فتخيلت ما كانت تعنيه. أخذت تسترجع علاقتها مع المتوفي المسكين، لا بد أنها لم تكن لتشبه مطلقاً تلك التي عاشتها معه وهو حي.

كان واضحاً لي أنها قد أخطأت مع زوجها وهو لا يزال على قيد الحياة. إنه مات بسبب جريمة اقترفوها جميعاً؛ لأنه ضارب في البورصة بموافقتهم جميعاً، وعندما حان وقت السداد تركوه حينئذ وحيداً. وسارع هو بدفع الثمن. وأنا الوحيد من بين أقاربه، على الرغم من أنني حقاً لم يكن لي شأن بهذا الأمر، قد شعرت بواجبي نحو إنقاذه.

كان جويدو يرقد مستلقياً، وتغطيه ملاءة في حجرة فراش الزوجية. لم تكن حالة التيبس المتقدمة التي كان عليها، تعبر وقتئذ عن قوة بل عن ذهول كبير من موت لم يكن يرغب فيه. كان هناك لوم يرتسم على وجهه الأسمر الجميل. من المؤكد أنه لم يكن موجهاً إليّ.

ذهبت إلى أوجوستا لأحثها على أن تأتي لمساعدة أدا. كنت منفعلًا إلى حد كبير، أما أوجوستا فقد بكت وعانقتني:

– كنت أخًا له – هممت – أوافقك الآن فقط على التضحية بجزء من ثروتنا لكي أنقى ذكراه.

اهتممت بأن أقدم الإكرام كله إلى صديقي المسكين. في تلك الأثناء ألصقت نشرة على باب المكتب تعلن إغلاقه لوفاة المالك. قمت بنفسى بكتابة إعلان الوفاة. وفي اليوم التالي فقط، بالاتفاق مع أدا، اتخذنا الاستعدادات لتشيع الجنازة. علمت حينئذ أن أدا قررت أن تتبع الجثمان حتى المدفن. يا للمسكينة! كنت أعلم أي ألم يسببه الندم فوق القبر، فأنا أيضًا عانيت منه كثيرًا عند موت والدى.

قضيت فترة الظهيرة منغلقة في المكتب برفقة نيليني. وبذلك توصلنا إلى عمل موازنة مبدئية لموقف جويدو. كان أمرًا مروّعًا! لم يهلك رأس مال الشركة وحسب، بل أصبح جويدو مدينًا بمثله، إن أراد أن يتكفل بكل شيء.

كنت بحاجة إلى العمل، العمل بالفعل لصالح صديقي المتوفى المسكين، لكنني لم أكن أستطيع فعل شيء سوى الأحلام. كانت فكرتي الأولى تتمثل في التضحية بحياتي كلها في ذلك المكتب والعمل لصالح أدا وأولادها. لكن هل كنت واثقًا من قدرتي على القيام بعمل جيد؟

أخذ نيليني، كعادته، يثرثر، في حين كنت أنظر أنا بعيدًا جدًا. كان هو أيضًا يشعر بحاجته إلى تغيير علاقته بجويدو تغييرًا جذريًا.

كان يتفهم آنذاك الأمور كلها! عندما ألحق جويدو المسكين الضرر به، كان قد أصابه المرض الذى لا بد أنه دفعه إلى الانتحار؛ ولهذا فإن كل شيء بات آنذاك فى طى النسيان. وأخذ يعظ ويقول عن نفسه إنه هكذا. لم يكن يستطيع أن يحتفظ بضعفينة لأحد. وإنه أحب جويدو دائماً وكان لا يزال يحبه.

انتهى الأمر إلى أن توافقت أحلام نيلينى مع أحلامى وطلعت عليها. لم يكن ممكناً العثور على ملاذ من كارثة مثل تلك مع سير التجارة البطيء، بل عن طريق البورصة نفسها. وأخبرنى بصديق له توصل فى اللحظة الأخيرة إلى إنقاذ نفسه بمضاعفة مبلغ المضاربة.

تحدثنا معاً لعدة ساعات، لكن اقترح نيلينى بمقابلة المضاربة التى بدأها جويدو، جاء فى النهاية ووافقت عليه على الفور قبل قليل من منتصف النهار. قبلته بفرحة كبيرة كأنما تمكنت من إعادة الحياة إلى صديقى بهذه الطريقة. وانتهيت إلى شراء كمية من أسهم أخرى باسم جويدو المسكين، وكانت تحمل اسماً غريباً: ريوتينتو، ساويث فرينش وهلم جرأً.

وعلى هذا النحو، بدأت خمسون ساعة من ذروة العمل الذى طالما انتظرته طوال حياتى. فى بادئ الأمر وحتى المساء أخذت أقطع المكتب ذهاباً وإياباً، وبخطوات واسعة، فى ترقب لمعرفة إن كانت أوامرى قد تم تنفيذها. كنت أخشى أن يكونوا قد علموا بالبورصة شيئاً عن انتحار جويدو،

وأن اسمه لم يعد صالحاً لمراهنات أخرى، ولأيام عديدة لم ينسب أحد موته ذاك إلى انتحار.

فيما بعد، عندما استطاع نيليني أن يخبرنى فى النهاية أنه قد تم تنفيذ أوامرى جميعها، بدأ بداخلى اضطراب حقيقى زاد منه علمى، فى اللحظة التى تسلمت فيها المظاريف المزدوجة، بأننى أفقد عن الجميع بعض كسور لا بأس بها فى الأسعار. أتذكر حالة الاضطراب تلك، كأنها عمل بالمعنى الحقيقى. لدى فى ذاكرتى ذلك الإحساس الغريب بأننى جلست بلا انقطاع، ولمدة خمسين ساعة، حول مائدة المضاربة أفند الأوراق واستحثها. فأننا لا أعرف أحداً استطاع أن يتحمل مشقة كهذه لساعات طويلة. وكنت أسجل وأراقب كل تغيير يحدث للسعر؛ ومن ثم فإنه (ولم لا أقول؟) كان يزداد ارتفاعه تارة وتارة أخرى ينضبط، كما كان يناسبنى أو بالأحرى كما كان يناسب صديقى المسكين.

حتى إن ليالى كنت أقضيها ساهراً.

لم أتحدث لأحد بشأن سداد منتصف الشهر فى وقته، حيث كنت أخشى أن يتدخل أحد من أفراد العائلة ويعوق عملية الإنقاذ التى شرعت فيها. قمت بتسديد كل شىء، فلم يلتفت أحد إلى تلك الالتزامات؛ لأنهم جميعاً كانوا ملتفين حول الجثمان الذى كان ينتظر دفنه. فضلاً عن أن المبلغ المستحق دفعه كان أقل مما كان قد حدد فى وقتها، وذلك لأن الحظ حالبنى سريعاً. كان حزنى شديداً لموت جويدو، رأيت أن ما يخفف منه هو الكفالة التى قمت بها بكل الوسائل، تارة بتوقيعى وتارة أخرى بتقديم

أموالى. كان يلازمى حتى تلك اللحظة حلم عمل الخير الذى حلمت به قبل وقت بعيد وأنا إلى جواره. عانيت كثيراً من ذلك الاضطراب، حتى إننى لم أضارب قط بعدئذ لحسابى فى البورصة.

ومن فرط ما كنت «ألمس الأوراق» (وكان هذا هو اهتمامى الأساسى) أفضى بى الأمر إلى عدم حضورى جنازة جويدو. جرت الأمور على هذا النحو. فى ذلك اليوم قفز بالفعل سعر السندات التى التزمنا بها إلى أعلى. أمضينا أنا ونيلىنى وقتنا فى حساب مقدار ما عوضناه من الخسارة. وعندئذ اتضح أن ثروة العجوز سببى قد نقصت إلى النصف فقط! غمرتني النتيجة الرائعة بشعور بالفخر. حدث حقاً ما توقعه نيلىنى من قبل بلهجة تثير الشك، لكنها اختفت حينئذ بالطبع، وأحس هو بنفسه كمتنبئ واثق من نفسه، وهو يكرر الكلام الذى سبق أن ذكره. أرى أنه قد تكهن بهذا وينقيضه أيضاً. ما كان ليفشل أبداً، لكننى لم أقل له ذلك، حيث كان يناسبنى أن يبقى بطموحاته فى العمل. وكان كذلك ممكناً أن تؤثر رغبته على الأسعار.

غادرنا المكتب فى الثالثة، وأسرعنا؛ لأننا تذكرنا فى تلك اللحظة أنه لا بد أن تشيع الجنازة فى الثالثة إلا رباعاً.

لمحت الموكب عن بعد، بالقرب من منحنيات كيوتسا، وهى لى كذلك أننى تعرفت على عربة صديق أرسلها بالجنازة لتستقلها أدا. قفزت ونيلىنى فى عربة استأجرناها، وأمرت الحوذى أن يتبع الجنازة. واستأنفنا أنا ونيلىنى تفنيد الأوراق فى تلك العربة. كنا بعيدين بتفكيرنا

عن المتوفى المسكين، حتى إننا أخذنا نتأفف من سير العربية البطيء. من يدرى ما الذى كان يتم فى البورصة فى تلك الأثناء دون مراقبة منّا؟ حدّق فى نيلينى بعينيه، فى لحظة معينة، وسألنى لما لا أضارب بشيء لحسابى فى البورصة.

- فى الوقت الراهن - أجبت، ولا أدري لماذا احمر وجهى -
لا أعمل إلاّ لحساب صديقى المسكين.
ثم أضفت، بعد تردد طفيف:

- فيما بعد سأنشغل بنفسى - كنت أرغب فى أن أتركه يأمل فى أن يقودنى إلى المضاربة، وأحاول فى الوقت ذاته أن أحتفظ به صديقاً مخلصاً لى. لكننى صفت بالفعل بين خلجات نفسى كلمات لم أجروء على ذكرها له: «إن ألقى بنفسى بين يديك!»، فأخذ يدلى بنصائحه.

- من يدرى إن استطعنا اغتنام فرصة أخرى مماثلة! نسى أنه علمنى أن هناك فرصة فى البورصة فى كل ساعة.

عندما وصلنا إلى المكان الذى تتوقف فيه العربات كالمعتاد، أطلّ نيلينى برأسه من النافذة وأطلق صرخة المفاجأة. كانت العربية تتبع تشييع جنازة تسير نحو المدافن اليونانية.

- هل كان السيد جويدو يونانياً؟ سأل فى دهشة.

واقع الأمر أن الجنازة تجاوزت المدافن الكاثوليكية واتجهت نحو مقابر أخرى، يهودية، يونانية، بروتستانتية أو صربية.

– ربما كان بروتستانتياً! – قلت هذا فى البداية، ثم تذكرت فى الحال أننى حضرت مراسم زواجه بالكنيسة الكاثوليكية.

– لا بد أن هناك خطأ! صحت وقد اعتقدت فى بادئ الأمر أنهم أرادوا دفنه فى غير مكانه.

وفجأة انفجر نيلينى فى الضحك؛ وكان ضحكه غير قابل للتحكم حتى ألقاه خائر العزم فى قلب العربة وفمه فاغر فى وجهه الصغير.

– لقد أخطأنا! صاح. وعندما توصل إلى إيقاف تدفق ضحكه الصاخب، غمرنى باللوم. كان على أن أرى أين نذهب؛ لأنه كان لا بد أن أعرف الساعة المحددة والأشخاص... إلخ. كانت تلك مراسم جنازة شخص آخر!

أصابنى الضجر فلم أضحك معه، وكان صعباً على حينئذ أن أتحمل لومه لى. لماذا لم ينظر جيداً هو الآخر؟ كبحت سخطى فقط لأن البورصة كانت تقلقنى أكثر من تشييع الجنازة. نزلنا من العربة لناخذ الوجهة الصحيحة، وباتجاه مدخل الكنيسة الكاثوليكية، وتبعتنا العربة. وانتبهت إلى أن الذين كانوا فى مؤخرة جنازة المتوفى الآخر أخذوا ينظرون إلينا، وقد أخذتهم الدهشة، ولم يتوصلوا إلى تفسير أننا تركنا ذلك المسكين فى اللحظة الحاسمة بعد أن منحناه كل ذلك الإكرام.

كان يتقدمنى نيلينى، وقد نفذ صبره. سأل حارس المدفن بعد لحظة من التعثر:

– هل وصلت جنازة السيد سبيير؟

لم تبدُ المفاجأة على الحارس من السؤال الذى رأته هزلياً.

أجاب بأنه لا يعرف. عرف فقط أنه دخلت جنازتان ذلك المكان فى نصف الساعة الأخيرة.

تشاورنا حائرين. كان واضحاً أنه لا يمكن معرفة إن كانت الجنازة بالداخل أم بالخارج. اتخذت عندئذ قراراً فردياً. لم يكن من اللائق أن أتدخل فى أثناء المراسم التى ربما تكون قد بدأت، وأسبب إزعاجاً. قررت إذاً ألا أدخل المقابر. لكنى من جهة أخرى، لم أستطع المجازفة بالتصادف بالجنازة فى أثناء عودتى؛ ولهذا صرفت النظر عن حضور الدفن وقررت العودة إلى المدينة متخذاً طريقاً ملتفّاً طويلاً فيما وراء سيرقولا. تركت العربى لنيلينى الذى لم يرغب فى التخلّى عن الحضور مراعاةً لأدا التى كان يعرفها.

صعدت الطريق الريفى الذى يؤدى إلى القرية بخطى سريعة، لكى أتفادى أى لقاء. ما عاد يسوءنى حينئذ على الإطلاق أنى أخطأت الجنازة، ولم أقم بالإكرام الأخير لجويدو المسكين. لم يكن فى وسعى أن أتأخر فى تلك الممارسات الدينية. كان هناك واجب آخر يداهمنى: كان على أن أنقذ شرف صديقى وأحمى ثروته لصالح أرملته وأبنائه. تخيلت أدا عندما أخبرها بأننى تمكنت من تعويض ثلاثة أرباع الخسارة (وأخذت أستعيد بذاكرتى الحساب كله الذى أجريناه مرات عديدة: لقد خسر جويدو ضعف ثروة والده. وبعد تدخلى، انخفضت الخسارة إلى نصف تلك الثروة؛ ولهذا كانت الحسبة صحيحة. لقد عوضت ثلاثة أرباع الخسارة)، ورأيت أنه من المؤكد أنها ستلتمس لى العذر عن عدم حضورى مراسم الدفن.

تحسنت أحوال الجو فى ذلك اليوم. كانت شمس ربيعية رائعة تسطع بالسماء وكان الهواء صافياً وشافياً، فوق الريف الذى بقى مبللاً. اتسعت رئتائى، فى حركتهما اتساعاً لم أعده منذ أيام كثيرة. كنت بصحة وقوة كاملتين، فالصحة لا تتجلى إلا عن طريق المقارنة. أخذت أقارن نفسى بالمسكين جويدو وأصعد، أصعد إلى أعلى وأنا أشعر بالانتصار فى الصراع ذاته الذى قهره هو. كل شىء من حولى كان صحة وقوة. وكذلك الريف أيضاً ذو العشب النضر. إن الببل الممتد والغزير، أى كارثة اليوم السابق، أخذت تعطى حينئذ آثارها الطيبة فقط، فالشمس الساطعة كانت الدفء التى تبحث عنه الأرض التى كانت لا تزال باردة كالثلج. ومن المؤكد أنه كلما حدث أن بعدنا عن الكوارث قل تقديرنا لتلك السماء الزرقاء، لو لم تعرف كيف تعتم فى حينها المناسب، تلك كانت مقدمات خبرتى وأنا لم أتذكرها؛ وقد استوقفتنى فقط الآن وأنا أكتب. فى تلك اللحظة كان يصدح وحسب فى نفسى شدو نشيد لصحتى والطبيعة جميعها؛ صحة دائمة.

أخذت خطواتى تزداد سرعة. كنت سعيداً بإحساسى بأنها أصبحت أكثر خفة. أخذت تسرع وهى تهبط تل سيرقولا حتى قاربت العدو. وعندما بلغت ممر سانتاندرىا، على السهل، أبطأت من جديد، لكن ظل لدى إحساس بسهولة كبيرة. كان الهواء يحملنى.

نسيت تماماً أننى عائد من مراسم دفن صديقى الحميم. كنت أتمتع بخطوة الظافر وأنفاسه. غير أن فرحتى بالفوز كانت تكريماً لصديقى المسكين الذى خضت المعركة لصالحه.

ذهبت إلى المكتب لمعرفة أسعار الإغلاق. كانت قليلة بعض الشيء، لكن هذا لم يفقدني الثقة. كان بودي «تفنييد الأوراق»، وما كنت لأفقد الأمل في وصولي للهدف.

وأخيراً كان لا بد من زهابي لمنزل آدا. أتت أوجوستا لتفتح لي الباب. سألتني على الفور:

– كيف استطعت أن تتخلف عن الجنازة، وأنت الرجل الوحيد في عائلتنا؟

وضعتُ المظلة والقُبعة، وقلت لها، وأنا متردد بعض الشيء، إنني أرغب في الحديث مباشرةً مع آدا أيضاً، حتى لا أضطر إلى تكرار ما أقوله. وفي الوقت نفسه كان بإمكانى تهدئتها بالأسباب الوجيهة التي منعتني من حضور مراسم الدفن. لم أكن واثقاً منها تماماً، وفجأة شعرت بألم في جانبي ربما من الإرهاق. لا بد أنها ملاحظة أوجوستا التي جعلتني أرتاب في احتمال التماس العذر لي عن غيابي، الذي سبب حتماً الاستنكار؛ ورأيت أمامي المشاركين في الجنازة الحزينة جميعهم، وقد تشاغلوا عن آلامهم وتساءلوا عن أين يمكن أن أكون.

لم تأت آدا، وعلمت فيما بعد أنهم حتى لم يخبروها بأنني في انتظارها. قابلتني السيدة مالفنتي التي استهلت الحديث معي بوجه حائق قاس لم أره من قبل. أخذت أقدام اعتذارى، لكنني كنت بعيداً تماماً عن الثقة التي كنت أنطلق بها من المدافن إلى المدينة. كنت أتلعثم، وحكيت لها كذلك

بعض الأكاذيب بالإضافة إلى الحقيقة، التي تتمثل في مبادرتي الشجاعة في البورصة لصالح جويدو، أى أنه كان على إرسال برقية لباريس، قبيل موعد الجنازة، لأعطى الأوامر. ولم أستطع الابتعاد عن المكتب قبل تسلم الرد. حقيق أنه كان ضروريا أن نبعث أنا ونيليني برقية لباريس، لكن ذلك كان قبل يومين، وقبل يومين تسلم الرد أيضا. على كل أدركت أن الحقيقة لم تكن كافية لألتمس العذر، وربما لأننى كذلك ما كنت أقوى على ذكرها كاملة وأحكى عن العملية بالغة الأهمية التي كنت أنتظرها منذ أيام، وهي رغبتى فى مواكبة الأسعار العالمية. وقد تقبلت السيدة مالفنتى اعتذارى عندما سمعت المبلغ الذى وصلت إليه خسارة جويدو آنذاك. وجهت إلى الشكر والدموع فى عينيها. وأصبحت أنا من جديد ليس الرجل الوحيد فى العائلة، بل والأفضل.

طلبت منى الحضور مع أوجوستا فى المساء للاطمئنان على آدا، التي ستخبرها فى تلك الأثناء بكل شىء. لم تكن آدا وقتئذ فى حالة تسمح باستقبال أحد. فانصرفت عن طيب خاطر مع زوجتى التي لم تشعر هى الأخرى بضرورة تحية آدا قبل أن تغادر ذلك المنزل. كانت آدا تنتقل من البكاء المفرط إلى الاكتئاب الشديد، مما منعها من أن تلتفت حتى لوجود من كان يتحدث إليها.

لاح لى الأمل فقلت:

— إذا ليست آدا التي أدركت غيابي؟

أقرت أوجوستا أنها كانت رغبتها هي في الصمت عن ذلك، حيث رأت تعبير آدا بالاستياء المفرط من غيابي هذا. لقد وجهت إليها بعض الاستفسارات، وعندما أخبرتها أوجوستا أنها لا تعرف شيئاً ولم تكن قد رأتني بعد، استسلمت من جديد إلى اليأس، وهي تصرخ أنه كان لا بد أن ينتهي جويدو على هذا النحو؛ لأن العائلة جميعها تبغضه.

بدا لي أنه كان على أوجوستا أن تدافع عني، وتذكر آدا بأنني كنت الشخص الوحيد المستعد لإنقاذ جويدو بالوسيلة التي كان ينبغي اتخاذها. لو أنصتوا إليّ، لما كان لجويدو أي دافع لمحاولة الانتحار أو التظاهر به.

وعلى الرغم من ذلك صمتت أوجوستا؛ أثر فيها شعور آدا بالإحباط، حتى إنها خشيت أن تزيد من ألمها إن بدأت في مناقشتها. فضلاً عن أنها كانت واثقة من المبررات التي ستبلغها السيدة مالفنتي لآدا حتى تقنعها بتقديرها الخاطيء بشأني. ويجب أن أقول إنه كانت لديّ أنا أيضاً هذه الثقة، بل وأعترف بأنني منذ تلك اللحظة كنت على يقين أن أرى مفاجأة آدا وتعبيرها الصارخ بالعرفان بالجميل. لقد كان هناك باسيدوي أيضاً، ليضخم لها كل شيء.

عدت إلى المكتب، حيث علمت أن هناك مؤشراً طفيفاً للصعود في البورصة مرة أخرى، طفيفاً للدرجة التي جعلتنا نأمل وقتئذ في العثور على تغييرات في أسعار صباح اليوم التالي عند عملية البدء.

بعد العشاء قمت بواجب الذهاب إلى آدا بمفردي؛ لأن توعكاً أصاب
الطفلة منع أوجوستا من مرافقتي. استقبلتني السيدة مالفنتي وقالت
إنها تتابع أعمالاً بالمطبخ، ولهذا كانت مضطرة لتتركني بمفردي مع آدا.
ثم أوضحت لي بأن آدا رحبتها أن تدعها معي بمفردها؛ لأنها ترغب في
إخباري بأمور لا ينبغي أن يعرفها أحد. وقبل أن تتركني في ذلك
الصالون الصغير، حيث التقيت فيه مع آدا مرتين من قبل، قالت لي
السيدة مالفنتي وهي تبتسم:

– أتعلم؟ إنها ليست مهياة بعد لتسامحك على عدم حضورك
جنازة جويدو، لكنها ... على وشك ذلك!

في تلك الحجرة الصغيرة كان قلبي لا يزال يخفق. لم يكن في تلك
المرة من الخوف أن أجد نفسي محبوباً ممن لا أحب. أدركت، منذ ثوان
معدودة وبسبب كلمات السيدة مالفنتي وحسب، أنني اقترفت خطأ جسيماً
بشأن ذكرى جويدو المسكين. حتى آدا نفسها لم تستطع أن تغفر لي
فوراً، على الرغم من أنها باتت تعلم أنني أقدم لها ثروة لأعتذر عن ذلك
التقصير. جلست وأخذت أتأمل صور والدي جويدو. كان تعبير وجه كادا
العجوز ينم عن الرضا، حيث بدا لي أن ذلك يرجع إلى صنيعي، في حين
كان وجه أمه قاسياً جداً، وكانت سيدة نحيفة ترتدي فستاناً أكمامه
فضفاضه وقبعة تعتدل فوق جبل من الشعر. نعم، حقاً! فكل منّا يتخذ
مظهراً آخر أمام آلة التصوير. حولت نظري إلى مكان آخر وأنا مستاء
من نفسي وأنا أتفحص تلك الوجوه. وكان لا يمكن لوالدته بالتأكيد أن
تتنبأ بعدم حضوري مراسم دفن ابنها!

لكن دهشتى كانت مؤلمة من الأسلوب الذى تحدثت به أدا إلى. لا شك أنها درست طويلاً ما كانت تريد إبلاغى به، ولم تأخذ حتى بعين الاعتبار مبرراتى واحتجاجاتى وتصحيحاتى، التى ما كانت لتحسب لها حساباً، وبالتالي لم تستعد لها. ومثل فرس مرتاعة أخذت تسرع فى طريقها، حتى النهاية.

عندما دخلت الحجرة كانت ترتدى مجرد ثوب منزل أسود اللون، وتسيطر الفوضى الشديدة على شعرها، الذى ربما فرقته أيضاً يد سعت جاهدة لأن تصنع به شيئاً، عندما لم تستطع أن تهنده بصورة أخرى. أقبلت إلى المنضدة التى كنت أجلس إليها وارتكزت عليها بيديها لتتنظر إلى جيداً. عاد وجهها الصغير إلى نحافته، وتخلص من تلك الصحة الغريبة التى أطلت عليه فى غير موضعها. لم تعد جميلة مثلما كانت حينما استمالها جويدو، لكن ما من أحد كان بإمكانه أن يتذكر مرضها وهو ينظر إليها. لقد اختفى! فى حين حل محله ألم عظيم شملها كلها. تفهمته جيداً ذلك الألم العميق، حتى إننى لم أستطع الكلام. وأخذت أفكر وأنا أنظر إليها: «أى كلمات أحدثها بها يمكن أن تكافئ ضمها بين ذراعى ضمة الأخ لأخته لأواسيها وأدفعها إلى البكاء والتفريج عن نفسها؟» وفضلاً عن ذلك، فعندما رأيتهما تهاجمنى أردت أن أرد عليها، ولكن بنبرة خافتة أكثر مما ينبغى فلم تسمعنى.

أخذت تتحدث، وتتحدث، وتتحدث، وإن أستطيع تكرار كلماتها جميعها. إن لم أخطئ فقد استهلت بتوجيه الشكر لى بلهجة جادة، بل بلا حرارة

لما قفنت به من أمور كثيرة من أجلها هي وأولادها. ثم لامتنى على الفور:

- هكذا فعلت بحيث يموت حقاً بسبب أمر لم يكن له وزن ولا قيمة! ثم خفضت صوتها، كأنها أرادت أن تحتفظ بما قالت له لي سراً، وكان صوتها أكثر حرارة، وكانت حرارة بدافع حبها لجويدو (أو هيئ لي؟) لي أيضاً:

- وأنا ألتمس لك العذر لعدم حضورك مراسم الدفن. لم يكن بإمكانك أن تفعل ذلك وأنا أعذرک. ولسامحك هو أيضاً لو كان لا يزال حياً. ماذا كان بوسعك أن تفعله في جنازته؟ أنت يا من لم تحبه! بطيبة قلبك، كان يمكنك أن تبكى من أجلى، من أجل دموعى، لا من أجله هو الذى... كنت تبغضه! يا تزينو، المسكين! يا أخى!

كان مروعاً أن تسمح لنفسها بأن تقول لي شيئاً كهذا، وتبدل الحقيقة على هذا النحو. اعترضت، لكنها لم تسمعنى. أعتقد أننى صرخت أو شعرت على الأقل بمجهود فى حلقى:

- لكن هذا خطأ، كذب، افتراء. كيف تظنين شيئاً كهذا؟

استمرت فى الحديث بصوت خافت:

- ولا حتى أنا استطعت أن أحبه. لم أخنه حتى ولا بفكرى، لكنى كنت أشعر بأننى لا أملك القوة لحمايته. كنت أنظر إلى علاقتك مع زوجتك وأحسدها. رأيتها أفضل من تلك التى كان يقيمها هو معى. إننى ممتنة

لك لعدم حضورك تشييع الجنازة وإلا، لما فهمت شيئاً ولا حتى اليوم،
فى حين أننى الآن أرى وأفهم كل شىء. وكذلك أدرك أننى لم أحبه:
وإلا فكيف كان لى أن أبغض حتى كمانه، وهو التعبير الكامل عن
روحه العالية؟

حدث حينئذ أننى سندت رأسى على ساعدى وخبأت بذلك وجهى،
كانت الاتهامات التى وجهتها إلى جائرة، بحيث كان يستحيل مناقشتها،
وكذلك كانت عدم منطقيتها تخفف منها نيرتها الودود، حتى إن رد فعلى
لم يكن يستطيع أن يكون حاداً كما كان ينبغى ليخرج ظافراً. ومن جهة
أخرى، فلقد كانت أوجوستا لى من قبل نموذجاً للصمت الموقر لى لا
أسبب إساءة أو أزيد من حدة ذلك الألم. لكن عندما فتحت عينى وجدت
أننى رأيت كلماتها فى الظلمة وقد خلقت عالماً جديداً، مثلها مثل الكلمات
غير الحقيقية جميعها. بدا لى أننى أدركت أنا أيضاً بغضى الدائم لجويدو
وأننى كنت إلى جواره، ملازماً له، فى انتظار تسديد الضربة له، ثم إنها
وضعت جويدو مع كمانه. لو لم أكن أعلم أنها تتخبط فى آلامها وندمها،
لاعتقدت أنها أخرجت ذلك الكمان من مكانه على أنه جزء من جويدو
لإقناع ذات نفسى بالاتهام بالكره.

ثم رأيت مرة أخرى جثة جويدو فى الظلام، ولا تزال الدهشة ترتسم
على وجهه من أنه يرقد هناك، وقد فارق الحياة. رفعت رأسى من الفزع.
كان أفضل لى أن أواجه اتهام أدا الذى كنت أعلم أنه ظالم من أن
أنظر فى العتمة.

لكنها كانت لا تزال تتحدث عني وعن جويدو:

- وأنت، أيها المسكين تزينو، واصلت العيش إلى جواره وكنت تبغضه، دون دراية منك. كنت تحسن إليه، حباً لي. لم يكن ذلك ممكناً! كان لا بد أن ينتهي على هذا النحو! ذات مرة اعتقدت أنا أيضاً أنني أستطيع استثمار الحب الذي كنت أعرف أنك تكنه لي في مضاعفة إحاطته بالحماية النافعة له. لم يكن يمكن أن يحتمي إلا بمن يحبه. وما من أحد كان يحبه من بيننا، أعني نحن الاثنين.

- ماذا كنت أستطيع القيام به أكثر من ذلك من أجله؟ سألتها وأنا أبكي مدراراً حتى أشهداها وأشهد نفسي على براءتي. تحل العبرات أحياناً محل الصراخ. لم أكن أرغب في الصياح وأتخوف كذلك من أن أتكلم. لكن كان لا بد أن أتغلب على زعمها فبكيت.

- إنقاذه، يا أخي العزيز! أنا أو أنت، كان علينا أن ننقذه. بينما كنت أعيش بجانبه لم أستطع نجدة لغياب الحب الحقيقي وظللت أنت بعيداً، غائباً، دائم الغياب إلى أن تم دفنه. ثم ظهرت بعدئذ واثقاً ومتسلحاً بالحب كله. لكنك لم تهتم به قبل ذلك، وعلى الرغم من هذا فقد كان معك حتى المساء. وكان بإمكانك، إن كنت قد انشغلت به، أن تتخيل أن شيئاً خطيراً وشيك الحدوث.

حبست الدموع كلامي، لكنني تمتمت ببعض عبارات، من شأنها أن تثبت أن جويدو قضى الليلة التي سبقت وفاته باللهو في الصيد في البركة؛ ولهذا لم يكن لأحد في هذا العالم أن يتوقع كيف كان ليقضى ليلته التالية.

- كان يحتاج إلى الصيد، كان فى حاجة للخروج إليه! لامتنى
بحدة وبصوت عالٍ، ثم انهارت فجأة، وسقطت فاقدة الوعي على الأرض،
كأنما كان الجهد الذى بذلته فى ذلك الصراخ يفوق الحد.

أتذكر أننى ترددت للحظة فى استدعاء السيدة مالفنتى. اعتقدت أن
إغماعها ذاك يكشف عن شىء مما ذكرته من أمور.

هرعت إليها السيدة مالفنتى ومعها ألبرت. سألتنى الأم وهى
تسند آدا:

- هل تحدثت معك عن تلك العمليات المشهودة فى البورصة؟
ثم أضافت: إنها المرة الثانية التى يغشى عليها هذا اليوم!

طلبت منى أن أبتعد للحظة، فذهبت إلى الممر أنتظر حتى أعرف إن
كان على أن أدخل أم أنصرف. كنت أستعد لتقديم إيضاحات أخرى لآدا.
إنها نسيت أن الأمور لو سارت مثلما اقترحت من قبل، لما وقعت بالطبع
تلك الكارثة. كان هذا كافياً لإقناعها بمدى خطئها فى حقى.

بعد قليل لحقت بى السيدة مالفنتى، وأخبرتني أن آدا استعادت
وعىها وتريد أن تلقى على التحية. كانت تستريح على الأريكة التى كنت
جالساً عليها قبل قليل. عندما رأتنى أخذت تبكى، وكانت تلك هى
العبرات الأولى التى لمحتها تجرى فى عينيها. مدت لى يدها الصغيرة
المتدانة بالعرق:

- تزينو العزيز، وداعاً! أرجوك، تذكر! تذكر دائماً! لا تنسه!

تدخلت السيدة مالفنتى لتسأل عما كان على أن أذكره، فقلت لها إن أدا كانت ترغب فى أن أبادر بتصفية موقف جويدو فى البورصة. احمررت من كذبتى، وكذلك خشيت إنكاراً من جانب أدا. وبدلاً من تكذيبى أخذت تصيح:

- نعم! نعم! يجب أن تتم تصفية كل شىء! لا أريد أن أسمع شيئاً أبداً عن تلك البورصة المروعة!

صارت من جديد أكثر شحوباً، ولكى تطمئنئها أكدت لها السيدة مالفنتى أنه سيتم على الفور تنفيذ كل ما ترغب فيه.

اصطحبتنى السيدة مالفنتى بعد ذلك إلى الباب ورحبتنى ألا أتعجل الأمور: أن أعمل أفضل ما أراه لمصالح جويدو. لكن أجبتها بأننى فقدت الثقة. فالمخاطرة جسيمة ولم أعد أجروء على إدارة مصالح الآخرين بهذا الأسلوب. لم أعد أثق فى المضاربة فى البورصة، أو كانت على الأقل تنقصنى الثقة فى أن «تفنىدى للأوراق» يمكن أن ينظم سير العمليات؛ لهذا كان لا بد أن أقوم بالتصفية فى الحال، وأن أكتفى بأن أكون سعيداً بأن الأمور جرت على هذا النحو.

لم أكرر كلام أدا لأوجوستا. لم إيلامها؟ لكن لأننى لم أخبر بها أحداً، ظلت تلك الكلمات تدق كالمطرقة فى أذنى، وصاحبتنى لسنوات طويلة. وما زلت أسمع رجع صداها بداخل نفسى. وإلى اليوم ما زلت لمرات عديدة أقوم بالتحقق منها. لا يمكننى القول إننى أحببت جويدو،

لكن هذا يرجع فقط إلى أنه كان إنساناً غريباً. إلا أنني ظللت إلى جواره مثل أخيه، وعاونته قدر ما استطعت. فأنا لا أستحق لوم آدا.

ما عدت ألتقي بها على انفراد. وما عادت تشعر بالحاجة لتخبرني بأشياء أخرى، ولا أنا تجرأت على طلب استفسار منها، ربما لكى لا أجدد أحزانها.

انتهت الأمور في البورصة كما توقعت. وعن والد جويدو، فبعد ما تم إخطاره في الرسالة الأولى بخسارة ثروته جميعها، فإنه بات يسعده بالتأكيد العثور على نصفها كاملاً. إنه عملي الجليل الذي لم أستطع التمتع به كما كنت أنتظر.

عاملتني آدا بوداً طوال الوقت حتى رحيلها إلى بوينوس أيرس، حيث ذهبت مع طفليها لتلحق بعائلة زوجها. كانت تحب أن تلتقي بي وبأوجوستا معاً. أردت أحياناً أن أخذ حديثها هذا كله على أنه كان يرجع بلا ريب إلى ثورة ألم مجنونة، وأنها ما عادت حتى تتذكرها. لكن فيما بعد، عندما تحدثت ثانية عن جويدو في حضورنا، كررت وأكدت بكلمتين كل ما قالته لي ذلك في اليوم:

– لم يحب أحد جويدو، ذلك المسكين!

قبلتني وهي تهم بركوب السفينة وتحمل على ذراعها أحد الطفلين وبه وعكة خفيفة. ثم قالت لي في لحظة لم يكن أحد يقف بجوارنا:

- تزينو، أخى، وداعاً، سأتذكر دائماً أننى لم أستطع أن أحبه بما يكفى. لا بد أن تعرف ذلك! أترك بلادى عن طيب خاطر، يهياً لى أننى أبتعد عن أسباب ندمى!

أخذتها على تعذيب نفسها بهذه الصورة، وأكدت لها أنها كانت زوجة طيبة، وكنت أعلم ذلك، وأستطيع أن أشهد به. ولا أدري إن كنت نجحت فى إقناعها. كفت هى عن الحديث، وقد تغلب عليها نحيبها. ثم شعرت، بعد مرور وقت طويل، أنها وهى تبتعد عني، أرادت بتلك الكلمات أن تجدد أيضاً لومها الذى وجهته لى. لكننى أعلم أنها تجننت على. ليس على بالطبع أن ألوم نفسى؛ لأننى لم أحب جويدو.

كان النهار غائماً وغير صافٍ. يبدو أن سحابة واحدة كانت تمتد، فتمنع عن السماء صفوها، وإن لم تهدد بشيء. كان المركب الضخم يحاول الخروج بدفع المجاديف من الميناء، وكانت أشرعته تتدلى ساكنة على صواريها. كان هناك رجالان فقط يجدفان، وبضربات عديدة توصلا بعناء إلى تحريك المركب الكبير؛ إذ ربما وجدنا فى عرض البحر ريحاً مواتية. كانت آدا تلقى بالتحية من على سطح المركب، وهى تلوح بمنديلها. ثم استدارت بكتفيها. من المؤكد أنها كانت تنظر ناحية سانتانا، حيث كان يرقد جويدو. كان عودها الصغير الأنيق يزداد كمالاً، كلما كانت تبتعد أكثر فأكثر. اغرورقت عيناي بالدمع. هاهى ذى تهجرنا، ولن أستطيع مطلقاً أن أثبت لها براءتى.

التحليل النفسى

٣ مايو ١٩١٥

لقد انتهيت من التحليل النفسى. أشعر أنى أسوأ مما قبل، بعد أن مارسته بمثابة على مدى ستة أشهر كاملة. لم أصرف الطبيب بعد، لكن قرارى لا رجوع فيه. وفى الوقت ذاته أرسلت بالأمس أبلغه أنى مشغول، وأن عليه أن ينتظرنى لبضعة أيام. لو كنت واثقاً تماماً من قدرتى على السخرية منه دون أن يثور غضبى، لأمكننى كذلك مقابله من جديد. لكنى أخشى أن يفضى بى الأمر إلى ضربه.

بعد اندلاع الحرب، نشعر بالملل عن نى قبل فى هذه المدينة، وكبدل للتحليل النفسى سأعود إلى أوراقى الهامة. لم أكتب كلمة واحدة منذ عام مضى، وأنا خاضع فيه، مثل غيره من الأعوام، لإرشادات الطبيب الذى أخذ يؤكد أنى لابد أن أستغرق فى التأمل بجواره فقط فى أثناء العلاج؛ لأن لحظات التأمل إن لم يراقبها هو ستزيد من الحواجز التى تعوق صراحتى، واسترسالى فى الكلام. فى حين أننى أجد نفسى الآن مختل التوازن ومريضاً أكثر من أى وقت مضى. وأرى فى أثناء كتابتى، أنى سأبرأ بسهولة كبيرة من الضرر الذى سببه لى هذا العلاج.

فأنا واثق على الأقل أن هذا هو الأسلوب الحقيقي لإسباغ أهمية جديدة لماضٍ لم يعد يؤلم ولإبعاد الحاضر الممل بأسرع ما يمكن.

استسلمت للطبيب بثقة شديدة، حتى إننى صدقته عن يقين تام، عندما أخبرنى بشفائى، فى حين لم أصدق ألامى التى كانت على الرغم من ذلك تهاجمنى. كنت أقول لها: «لست أنتِ بأية حال!» لكن ليس هناك شك الآن! إنها هى بالفعل! تحولت عظام ساقى إلى أشواك تهتز فتؤذى اللحم فى العضلات.

لكن قد لا يكون لذلك أهمية كبيرة عندى، وليس هذا هو السبب الذى من أجله تركت العلاج. فإن كانت ساعات الاستغراق لدى الطبيب قد استمرت فى إثارة اهتمامى بما تبعثه من مفاجآت وانفعالات، لما تركتها أو لانتظرت وأنا أتركها حتى نهاية الحرب التى تعوقنى عن مزاولة أى نشاط آخر. ولما كنت أعلم حينئذ كل شىء، أى أن الأمر لا يتعلق سوى بوهم أحقق، حيلة جيدة للتأثير على سيدات عجائز أصبن بالهستيريا. فكيف كان لى أن أتحمل رفقة ذلك الرجل المضحك، بعينه تلك التى ترغب فى التفحص، وبافتراضه ذاك الذى يسمح له بتجميع الظواهر كلها لهذا العالم حول نظريته العظيمة، تلك؟ قررت أن أنتفع بالوقت الذى يتبقى لى متاحاً للكتابة. وفى الوقت ذاته أكتب بصدق قصة علاجى. لقد تلاشت كل صراحة بينى وبين الطبيب والآن أتنفس الصُّعداء. لم يعد يفرض علىّ بذل أى جهد. ليس علىّ أن أجبر نفسى على إيمان بعينه أو أن أظهار به، لكى أخفى أفكارى الحقيقية بصورة أفضل،

كنت أعتقد ضرورة أن أظهر له تبعيتي العمياء، وكان يستغل ذلك لاختلاق ما هو جديد كل يوم. كان لابد أن ينتهي علاجي؛ لأن مرضي قد تم اكتشافه، لم يكن سوى المرض الذي قام بتشخيصه الراحل سوفوكل في عصره في أوديب المسكين: أحببت أمي، ولو أمكن لرغبت في قتل أبي.

ولم أغضب! أخذت أستمع في ذهول، إنه مرض ارتقى بي إلى طبقة النبلاء، جدير بالاعتبار ذلك المرض الذي يصل به أسلافنا إلى العصر المثولوجي! ولن أثور حتى في هذه اللحظة وأنا هنا وحيد والقلم في يدي، فأنا أضحك من قلبي. وأفضل دليل على أنني لم أصب بهذا المرض هو عدم شفائي منه، وهذا الدليل ربما يقنع الطبيب كذلك، فليطمئن لذلك: لم تستطع كلماته أن تشوش على ذكرى فترة شبابي. فأنا أغمض عيني وفي سرعة أرى حبي لوالدتي في نقائه، وطفولته وبراعته، وأرى احترامى ومودتي الكبيرة لوالدي.

ويولى الطبيب عظيم تصديقه لاعتراقاتي المشهودة التي لا يرغب في إعادتها لي حتى أراجعها. يا إلهي! إنه لم يدرس سوى الطب؛ ولهذا فهو يجهل أي شيء تعنى الكتابة باللغة الإيطالية بالنسبة لنا ونحن نتحدث بالعامية ولا نعرف الكتابة بها. نحن نكذب مع كل كلمة نقولها بإيطالية توسكانا^(١)! ليت يعلم كيف أننا نفضل أن نحكى من الأمور كل

(١) اللغة الإيطالية المتعارف عليها منذ عصر النهضة وحتى الآن، وكانت في الأصل لغة أهل إقليم توسكانا.

ما هو جاهز لدينا للتعبير عنه، وكيف نتجنب منها ما يلزمنا للجوء إلى المعجم! ومن ثم فنحن نتخير بالفعل الأحداث التي يجدر تدوينها من حياتنا. ومن المفهوم أنه لو حكينا حياتنا بلغتنا الدارجة، لاكتسبت مظهرًا مختلفًا تمامًا.

اعترف الطبيب لي بأنه لم يحدث له على الإطلاق، طوال خبرته كلها، أن شاهد تآثرًا شديدًا مثل تآثري وأنا أصطدم بالصور والأحاسيس المتداعية التي كان يعتقد أنه تمكن من العثور عليها بداخلي؛ ولهذا كان على استعداد كبير لأن يُقرّ بشفائي.

وأنا لم أظاهر بذاك التآثر، بل إنه كان أكثر أحاسيسي شدة في حياتي كلها. مندّي بالعرق عندما اختلقته، وبالدمع حينما استحوذ عليّ. لقد أولعت بالأمل في العودة لحياة يوم من البراءة والسذاجة. استولى علىّ هذا الأمل لشهور وشهور وشجعني. أليس الأمر يتعلق بالحصول ربما على ورود مايو في قلب الشتاء عن طريق الذاكرة النابضة؟ أخذ الطبيب ذاته يؤكد أن الذاكرة ستصبح كاشفة وكاملة، حتى إنها قد تضيف يومًا آخر في حياتي. وتستعيد الورد شذاها كاملاً وربما أشواكها أيضاً.

وهكذا أدركت تلك الصور من فرط ما جريت وراءها. أدرك الآن أنني اختلقتها. لكن الاختلاق إبداع، وليس كذبًا. كانت اختراعاتي مثل رؤى الحمى، تسير في الحجرة لكي تروها من الجهات جميعها ثم تمسّكم كذلك. كان لها ملمس، ولون، وتبجح الأشياء الحقيقية. ومن شدة رغبتى،

عكست هذه الصور التي لا توجد إلاً بذهنى، فى الفضاء الذى كنت أنظر إليه، وكان فضاءً أحس هواءه، ضوءه وكذلك زواياه الجارحة التي لم يفتقر إليها أى مكان مررت به.

عندما وصلت إلى الإغفاءة التي من شأنها تحرير الخيال، ولم أكن أرى فيها سوى مشاركة بين جهد كبير وخمول شديد، اعتقدت أن تلك الصور والأحاسيس استعادة حقيقية لأيام بعيدة. كان بإمكانى أن أرتاب فى الحال إنها لم تكن كذلك حيث كنت أتذكرها، فور أن تتلاشى، لكن دون أية إثارة أو انفعال. كنت أستعيدها مثلما يتذكر الحدث ويرويه من لم يشاهده. لو كان استرجاعاً حقيقياً لواصلت السخرية منها والبكاء عليها مثلما خبرتها من قبل، والطبيب كان يسجل. أخذ يقول: «توصلنا إلى هذا، وتوصلنا إلى ذاك». فى الحقيقة، لم نحصل على أكثر من علامات مكتوبة، هياكل عظمية لصور.

دفعنى على الاقتناع بأن الأمر يتعلق بتذكر طفولتى، حيث حملتني أول الصور إلى فترة حديثة نسبياً، كنت احتفظ منها أيضاً من قبل بذكرى باهتة، ويبدو أنها كانت تؤكد ما مضى عام فى حياتى كنت أذهب فيه إلى المدرسة ولم يكن أخى قد التحق بها بعد. ويبدو لى أن الوقت الذى استحضرتة يرتبط بذاك العام. رأيت نفسى أغانر قيللتى ذات صباح مشمس من أيام الربيع، وأمر بحديقتنا للتوجه إلى المدينة، وكانت تمسك بيدي كاتينا، خادمتنا العجوز. لم يظهر أخى فى المشهد الذى تخيلته، لكنه كان بطله. كنت أشعر به حراً وسعيداً بالمنزل، فى حين

أذهب أنا إلى المدرسة. كنت أسير إليها والنشيج في حلقى، وخطواتي كارهة والسخط الشديد بداخلي. لم أر سوى إحدى مرات ذهابي إلى المدرسة، لكن سخط نفسي كان يحدثني أنني كنت أذهب إليها كل يوم ويظل أخى بالبيت كل يوم. في حين أنني أعتقد في الحقيقة أن أخى وهو يصغرنى بعام واحد، ذهب هو أيضاً إلى المدرسة بعد فترة ليست بعيدة. لكنني اعتقدت حينئذ أن الحقيقة لا جدال فيها في الحلم: فأنا محكوم على بالذهاب إلى المدرسة على الدوام، في حين يسمح لأخى بأن يمكث بالبيت. كنت أحسب مدة العذاب وأنا أسير إلى جوار كاتينا: حتى الظهيرة. وهو بالمنزل! وكذلك تذكرت في تلك الأيام البعيدة أنه لابد أن أزعجتني التهديدات والتوبيخات العنيفة بالمدرسة وفكرت حينئذ أيضاً: لن يكون له نصيب منها. كانت رؤية ذات وضوح شديد. بدت لي كاتينا كبيرة، وقد عرفت أنها صغيرة الحجم. بالطبع فلقد كنت صغيراً جداً. وبدت لي عجوزاً جداً حينئذ كذلك، لكن كلنا يعلم أن صغار السن يرون الكبار عجائز. وفي الطريق الذي كان على أن أسير فيه للوصول إلى المدرسة، لمحت أيضاً الأعمدة غريبة الشكل التي كانت تحدد مسار المشاة في مدينتنا في ذلك الوقت. حقيق أنني ولدت منذ زمن بعيد بما يجاوز أن أرى، وأنا رجل ناضج، تلك الأعمدة وهي لا تزال في شوارع وسط مدينتنا. لكنها لم تعد موجودة في الطريق الذي سرت فيه مع كاتينا، فور أن خرجت من مرحلة طفولتي.

واستمرت الثقة بأصالة تلك الصور بداخلي، إلى أن اكتشفت ذاكرتي المتبلدة تفاصيل أخرى عن تلك الفترة، عندما أسعفها ذاك الحلم وحفزها.

والعنصر الهام: أن أخى كان يحقد علىّ هو أيضاً لذهابى إلى المدرسة. لقد تنبّهت لهذا وكنت واثقاً منه، لكن ذلك لم يكف لإلغاء حقيقة الحلم فى الحال، وفيما بعد نزع عن هذا الأخير كل وجه للحقيقة: لقد كانت هناك غيرة فى الواقع، لكنها اتخذت فى الحلم موضعاً آخر.

حملتني الرؤية الثانية هى أيضاً إلى عهد حديث، على الرغم من أنه يسبق كثيراً ما قبله: حجرة فى قيلولتي، لا أدري أيهن؛ لأنها أوسع من أى واحدة أخرى كانت على أرض الواقع. من الغريب أنّى كنت أرى نفسى قابلاً فى تلك الحجرة، وأنه سرعان ما أدركت أحد التفاصيل التى لم تكن تتأتى عن مجرد الرؤية: كانت الغرفة بعيدة عن المكان الذى كانت والدتى وكاتينا تقضيان به النهار حينئذ. وثانى التفاصيل: أنّى لم أذهب بعد إلى المدرسة.

كانت الحجرة بيضاء اللون بأكملها، بل إنى لم أر قط فى حياتى غرفة مثلها ناصعة البياض والشمس تضيئها بأكملها. هل كانت الشمس حينئذ تنفذ عبر الحوائط؟ من المؤكد أنها كانت قد ارتفعت بالسما، فى حين كنت ما أزال فى فراشى وبيدى فنجان ارتشفت منه القهوة باللبن كلها، واستمرت فى تحريك الملعقة الصغيرة لأخرج السكر منه. وفى لحظة معينة لم تعد الملعقة تصل إلى التقاط المزيد، وحاولت عندئذ أن أصل بلسانى إلى قاع الفنجان. لكننى لم أفلح؛ ولهذا انتهيت إلى أن أمسكت الفنجان فى يد والملعقة فى الأخرى، وجلست أشاهد أخى وهو مُستلقٍ فى فراشه إلى جوارى وكيف كان، فى بطئه، لا يزال يرتشف

القهوة وأنفه فى الفنجان. وعندما رفع فى النهاية وجهه، رأيتَه كاملاً
كأنما يتقلص تحت أشعة الشمس المتسلطة عليه تماماً، أما وجهى
(ويعلم الرب لماذا) فقد كان فى الظل. كان وجهه شاحباً يشوبه انبعاث
طفيف فى فكيه. سألتنى:

– أتعيرنى ملعقتك؟

لاحظت فقط حينئذ أن كاتينا نسيت أن تحضر له الملعقة.
فى الحال ودون أى تردد أجبت:

– نعم! لو أعطيتنى فى مقابل ذلك قليلاً من سكر فنجانك.

أمسكت الملعقة إلى أعلى حتى أبرز قيمتها. لكن صوت كاتينا دوى
على الفور فى الحجرة:

– يا للعار! أيها المرابى!

قذف بى الفزع والخجل إلى الحاضر. كنت أرغب فى مناقشة كاتينا،
لكنها هى وأخى، وأنا مثلما كنت حينئذٍ صغيراً، بريئاً ومرابياً،
اختفيتا ونحن نسقط فى الهوة السحيقة.

ندمت على شعورى الشديد بذلك الخجل، حتى إنه أفسد الحلم
الذى توصلت إليه بعناء كبير. كنت سأقوم بعمل طيب جداً لو قدمت على
العكس الملعقة فى هدوء ومجاناً، ولم أناقش تصرفى السيئ، الذى ربما
كان أول ما اقترفته من أخطاء. وكان من المحتمل أن تستدعى كاتينا
والدتى لتنزل بى العقاب وأراها أخيراً.

ولكن رأيتها بعد أيام قليلة أو اعتقدت أنني رأيتها. لعلنى أدركت على الفور أنه كان خيالاً؛ لأن صورة أمى كما استحضرتها، تشبه كثيراً صورتها فوق فراشى. لكن على أن أقر أنها كانت تتحرك عندما ظهرت لى كما يتحرك الإنسان الحى.

كانت شمساً ساطعة جداً، حتى تخطف بالابصار! كان يصلنى من تلك التى كنت أراها أيام شبابى القدر الكبير من تلك الشمس التى كان يصعب الارتياح فى أنها هى ذاتها. هناك حجرة الجلوس بمنزلنا بعد الظهيرة! عاد أبى إلى المنزل وجلس على أريكة إلى جوار أمى، وكانت تطبع حروفاً أولى بنوع من الحبر الثابت على فرش كثيرة، قامت بتوزيعها على المنضدة التى كانت تجلس إليها، أجد نفسى تحت المنضدة ألعب ببعض الكرات الصغيرة. وأقترب أكثر فأكثر من أمى، ربما أرغب فى أن تشاركنى فى ألعابى. فى لحظة معينة، ولكى أقف بينهما أتشبث بالمفرش الذى يتدلى من على المنضدة وعندئذ تحدث كارثة، تقع زجاجة الحبر فوق رأسى، تبلل وجهى وملابسى وتنورة أمى، وتحدث كذلك بقعة خفيفة على سروال أبى. يرفع والدى إحدى ساقيه ليركبنى بها...

لكنى عدت من رحلتى البعيدة فى الوقت المناسب، وأجد الآن نفسى فى مأمن هنا، رجلاً ناضجاً وعجوزاً. يجب الاعتراف بذلك! تأملت للحظة من العقاب الذى كان يحيق بى، وفور ذلك ألمنى عدم تمكنى من حضور عملية الحماية التى لا بد أنها كانت تصدر عن أمى تجاهى. لكن من يمكنه الإمساك بتلك الصور عندما تأخذ فى الهروب عبر ذلك الزمان

الذى لم يشبه المكان على الإطلاق؟ كانت هذه فكرتى، إلى أن آمنت بأصالة تلك الصور! الآن، مع الأسف (أوه! كم أتألم من ذلك!) لم أعد أصدقها، وأعلم أن الصور لم تكن هى التى تنطلق سريعة، بل عيناى هما اللتان تجلّى نظرهما، وعادتا تتأملان من جديد ذلك المكان الحقيقى الذى لا يوجد به موضع للخيالات.

سأحكى كذلك عن صور ليوم آخر، عزا الطبيب إليها من الأهمية ماجعله يصدر حكمه علىّ بالشفاء.

فى أثناء النعاس الذى استسلمت له جاعنى حلم له ثبات الكابوس. حلمت بنفسى أعود طفلاً من جديد لأرى وحسب كيف كان يحلم ذلك الطفل هو أيضاً، كان يرقد صامتاً تحت سيطرة سعادة تجتاح جسمه الصغير. كان يشعر بأنه بلغ أخيراً رغبته القديمة. وعلى الرغم من هذا كان يرقد وحيداً وبمفرده! لكنّه كان يرى ويسمع بالوضوح ذاك الذى يمكن أن نرى به ونسمع حتى الأشياء البعيدة فى الحلم. كان الطفل يرى (يعلم الرب بأية طريقة) وهو يرقد فى حجرة بقبيلتى، قفصاً فوق سرير الغرفة تقوم حوائطه على أسس متينة، وليس به أبواب ولا نوافذ، لكنه ممتلئ بما يسعد من نور، وهواؤه نقى وعطر. وكان الطفل يعرف أن بإمكانه هو وحده أن يصل إليه ودون الذهاب إليه أيضاً؛ لأن القفص ربما يأتى إليه. لم يكن فى ذلك القفص سوى قطعة أثاث واحدة، وهى مقعد وثير تجلس امرأة ملفوفة القوام، مليحة الأعطاف، ترتدى ثوباً أسود، شقراء ذات عينين واسعتين زرقاوين، يداها ناصعتا البياض وقدماهما صغيرتان

بداخل زوج من حذاء جميل لامع يشعّ منه مجرد بريق خفيف، تحت تنورتها. جدير بالذكر أن تلك السيدة كانت تبدو لى وكأنها شيء واحد بزيها الأسود وحذاءها اللامع. كانت هي كل شيء! وكان الطفل يحلم بالاستحواذ عليها، لكن بالأسلوب الأكثر غرابة: أى أنه كان واثقاً من استطاعته أكل أجزاء صغيرة منها عند قمتها وأساسها.

والآن وأنا أفكر فى ذلك، أندهش من أن الطبيب الذى قرأ بانتباه شديد، حسبما يقول، رأيته فيما كتبه بيدي، لم يتذكر الحلم الذى جاعنى قبل زهابى لألحق بكارلا. وعندما أعدت التأمل فيه بعد مرور بعض الوقت، رأيت أن هذا الحلم ليس إلا ذاك الحلم وقد تغير بعض الشيء، وأصبح أكثر طفولية.

إلا أن الطبيب سجل كل شيء بدقة، ثم سألنى بوجه شارد بعض الشيء:

– هل كانت والدتك شقراء وملفوفة القوام؟

أدهشنى السؤال، وأجبته أن جدتى كانت لها الهيئة نفسها أيضاً. لكننى شفيت كما كان يرى، شفيت بالفعل، فتحت فمى حتى أسعد معه بذلك، وتواعت مع ما كان عليه أن يتبعه، أى أنه لم تعد هناك دراسات، ولا أبحاث ولا تأملات، بل إعادة تأهيل حقيقية ومثابرة.

منذ ذلك الحين أصبحت تلك الجلسات تعذيباً فعلياً، واستمرت فيها فقط لأنه كان دائماً يصعب على كثير أن أتوقف عندما أتحرك،

أو أن أبدأ في الحركة بعد أن أكون متوقفاً عنها. في بعض الأحيان، كنت أجازف ببعض الاعتراضات عندما كان يقول لي كلاماً أضخم مما ينبغي. لم يكن حقيقياً على الإطلاق - مثلما كان يعتقد - أن كل كلمة من كلامي، وكل فكرة لدى كانت تصدر عن مجرم. كان يمعن حينئذ النظر. لقد برئت ولم أرغب في الانتباه لذلك! كان ذلك هو العمى الحقيقي: قد علمت برغبتى في أن أنتزع من أبى زوجته - والدتى! - أما وجب أن أشعر بالشفاء؟ كان عنادى غير مسبوق: ولكن الطبيب أقرّ بأنى سأبرأ بصورة أفضل كثيراً، إن إنتهت التربية الجديدة التى سأعتاد فى أعقابها على النظر إلى تلك الأمور (الرغبة فى قتل الأب وتقبيل الأم) على أنها أحاسيس بريئة للغاية، وليس هناك داع للمعاناة من تبكيت الضمير بسببها؛ لأنها كثيراً ماتحدث فى أفضل العائلات. فى واقع الأمر أى شىء كنت سأفقدته؟ ذات يوم أخبرنى أنى أصبحت وقتذاك مثل مريض فى دور النقاهة، ولم يعتد بعد على العيش دون ارتفاع فى الحرارة. حسناً: سأنتظر حتى أعتاد الأمر.

كان يشعر أنى مازلت لا أستسلم له تماماً، وبين الحين والآخر كان يعود كذلك إلى العلاج، فضلاً عن التربية الجديدة. أخذ يبحث عن الأحلام مرة أخرى، لكننا لم نعد نجد حلماً واحداً حقيقياً. انتهيت إلى تأليف أحدها، بعد أن أزعجنى الانتظار الطويل. لو استطعت التنبؤ بصعوبة مثل هذا التظاهر، لما فعلته. فليس من السهل أبداً التلعثم كأنما غمرنا حلم فى منتصفه، ويغطينا العرق أو يشحب لوننا، ألا نكشف أنفسنا،

وربما تتورد وجوهنا من الجهد ولا تحمر: تحدثت كأنما عدت إلى سيدة القفص وحملتها على أن تمد لى قدمها من خلال فتحة ظهرت فجأة فى حائط الغرفة الصغيرة، وكانت جديرة بأن ألعقها وأكلها.

كانت القدم «اليسرى، اليسرى!»، أخذت أهمس وقد أضفت فى الرؤية خاصية فريدة، تمكنها من مشابهة الأحلام السابقة على نحو أفضل. وهكذا أظهرت أيضاً أنى استوعبت تماماً المرض الذى كان الطبيب يلزمنى به. كان أوديب الطفل بهذه الصورة: كان يمص قدم والدته اليسرى ويترك اليمنى لوالده. وفى أثناء الجهد الذى بذلته فى التخيل الواقعى (وليس فى هذا من التناقض شىء) أوهمت نفسى كذلك باستشعار مذاق ذاك القدم. فكدت أتقيأ.

كنت أرغب أنا أيضاً، وليس الطبيب وحده، فى أن تأتينى مرة أخرى، سواء صادقة أو كاذبة، تلك الخيالات الغالية التى كانت لفترة شبابى، غير أنى لم أحتج إلى ابتكارها. حاولت أن أستحضرها بعيداً عن الطبيب، بما أنها لم تعد تعاودنى وأنا إلى جواره. كنت عرضة لأن أنساها وأنا وحدى، لكنى لم أكن أطمع مطلقاً إلى العلاج! كنت ما أزال أرغب فى ورود مايو فى شهر ديسمبر. وقد حصلت عليها من قبل؛ فلماذا لا أستطيع نيلها من جديد؟

فى وحدتى أيضاً كنت أشعر بالملل إلى حد كبير، لكن فيما بعد، أتت أشياء أخرى بدلاً من الأحلام حلت محلها لبعض الوقت. اعتقدت ببساطة أنى قمت باكتشاف علمى هام. هبى لى أنى مدعو لاستكمال

نظرية الألوان الفسيولوجية كلها ، فالسابقون لى ، مثل جوته وشوبنهاور ، لم يتخيلوا قط إلى أين يمكن الوصول بالتعامل بمهارة مع الألوان المتتامة.

ينبغى العلم بأننى كنت أقضى وقتى مستلقياً على الأريكة أمام نافذة مكتبى ، حيث كنت أشاهد من خلالها جزءاً من البحر ومن الأفق. ذات مساء لونه غروب فى سماء تخللتها السحب ، استغرقت وقتاً طويلاً وأنا أتأمل لوناً رائعاً على طرف سحابة ناصعة ، كان اللون الأخضر النقى الهادئ. وكانت السماء كذلك ملونة جداً ، كان هناك الأحمر الساقط على حواف السحاب ناحية الغرب ، لكنه كان لايزال باهتاً وقد طغت عليه أشعة الشمس البيضاء المباشرة. أغمضت عيني وقد غشيني الضوء ، بعد مدة من الوقت ، وكان واضحاً أن انتباهى ومشاعرى قد اتجها نحو اللون الأخضر ، حيث سقط لونه المتمم على شبكية عيني ، لون أحمر متلألئ لا علاقة له بالأحمر المضىء ، وإن كان باهتاً فى السماء. أخذت أتأمل ، وأداعب ذلك اللون الذى صنعته بنفسى. أخذتنى دهشة كبيرة فور أن فتحت عيني ، ورأيت اللون الأحمر المتوهج ذاك وهو يكتسح السماء كلها ، ويحجب أيضاً الأخضر الزمردى ، الذى لم أعد أجده ولفترة طويلة. إذاً لقد اكتشفت ، مع ذلك ، طريقة صبغ الطبيعة! بالطبع كررت التجربة لمرات عديدة. الطريف أنه كان هناك أيضاً نوع من الحركة فى عملية التلوين. فعندما كنت أعيد فتح عيني ، كانت السماء لا تقبل على الفور اللون الآتى من الشبكية ، فى حين كانت هناك أيضاً لحظة من التردد أرى فيها مرة

أخرى اللون الأخضر الزمردى الذى كان يخلف وراءه ذلك الأحمر الذى كان لابد أن يبدده. ينبثق هذا الأخير من الأعماق، على نحو مفاجئ، وتتسع بقعته كحريق هائل.

عندما تأكدت من سلامة ملاحظتى، أبلغت الطبيب بها أملاً فى أن ينعش بها جلساتنا الباعثة على الملل، فأسكتنى عندما أخبرنى أن شبكية عيني شديدة الحساسية بسبب النيكوتين. كاد يفلت من لسانى أن الخيالات التى عزوناها حينئذ إلى استعادة الذاكرة لأحداث فى مرحلة شبابى، ربما نشأت، على العكس هى الأخرى، من تأثير تلك المادة السامة نفسها. وعلى هذا النحو كدت أكشف له أنى لم أبرأ وإلا حاول هو أن يدفعنى إلى إعادة العلاج من البداية.

ومع ذلك فلم يكن ذلك الأحق دائم الاعتقاد بأنى مسمم لهذه الدرجة. ويدل على هذا أيضاً تلك التربية الجديدة التى حاول بها أن يعالجنى مما كان يطلق عليه مرض التدخين. ها هى ذى كلماته: إن التدخين لا يضرنى وإن أقنعت نفسى أنه لا يؤذنى سيصير الأمر كذلك. ثم كان يسترسل ويقول: الآن وقد عادت علاقتى مع والدى تخرج إلى النور، لأحكم عليها وأنا رجل ناضج، يمكننى أن أدرك أنى اتخذت تلك العادة السيئة لأنفس أبى، وأن أنسب التأثير السام إلى التبغ؛ وهذا يرجع إلى ما بداخلى من حس أخلاقى أراد معاقبتى على منافسته.

فى ذلك اليوم غادرت منزل الطبيب، وأخذت أدخن بشراهة. كانت هناك حاجة للقيام بتجربة، والتزمت بها عن طيب خاطر. واصلت التدخين

بلا انقطاع طوال اليوم، ثم تلتها ليلة قضيتها ساهراً. لقد انتعش الالتهاب الشعبي المزمّن من جديد، ولم يكن هناك شك فيه؛ لأنه كان سهلاً اكتشاف آثاره في إناء البصق.

وفي اليوم التالي أخبرت الطبيب أنني دخنت كثيراً، ولم أعد أبالي بذلك. نظر إلىّ وهو يبتسم، وهىء لى أن صدره انتفخ من اعتداده بنفسه. وفي هدوء استأنف التربية الجديدة! كان يسير قدماً في ثقة من أنه سيرى الزهور في كل أرض تطوّها قدمه.

أذكر القليل جداً من تلك التربية، تحملتها وعندما كنت أخرج من تلك الحجرة كنت أنتفض مثل الكلب الذي يخرج من الماء، ومثله أيضاً كان يبقى بى شيء من الرطوبة، ولكنى لم أكن أبتل.

بيد أنني في سخط أذكر زعم طبيبي المربى عن أن الدكتور كوبروسيش كان على حق في توجيه تلك الكلمات التي تسببت في شعورى الشديد بالاستياء إلىّ. ولكن هل كنت حينئذٍ أستحق كذلك الصفحة التي أراد والدى توجيهها لى وهو يموت؟ لا أدري إذا كان قال هذا أيضاً، في حين أنني أعلم عن يقين أنه كان يزعم أنني أبغضت أيضاً العجوز مالفنتى ذلك الذي أعطيته مكانة والدى. ففي هذا العالم يشعر الكثيرون أنهم لا يستطيعون العيش دون شيء من المودة؛ في حين أفقد أنا توازنى، كما كان يرى، عندما ينقصنى شيء من الكراهية. وزواجى هذه أو تلك من فتياته كان سواء؛ لأن الأمر كان يتعلق بوضع والدهما في مكان يمكن لبغضى أن يدركه فيه. ثم أسأت إلى البيت الذى صنعتة لنفسى بأفضل

ما فى وسعى . خنت زوجتى، ومن الواضح أنه لو كنت قد وفقت لأغويت أدا وألبرتا أيضاً. لا أعتقد بالطبع أنى أنكر هذا، بل كان الطبيب يضحكنى وهو يخبرنى به، وقد اتخذ هيئة كريستوفر كولومبو حينما اكتشف أمريكا. وعلى ذلك أظن أنه الوحيد فى هذا العالم الذى يتساعل وهو يسمع أنى راغب فى الذهاب إلى الفراش بصحبة امرأتين رائعتى الجمال: فلنر لماذا يرغب هذا فى الذهاب معهما إلى الفراش.

كان كذلك يصعب على كثير أن أتحمل ما سمح لنفسه بقوله بشأن علاقتى بجويدو. فلقد اطلع من حكايتى نفسها على الشعور بالنفور الذى صاحب بداية علاقتى به. ورأى أن هذا النفور لم يتوقف، وأن أدا لديها الحق فى رؤية آخر مظهر من مظاهره عندما لم أحضر تشييع جنازته. لم يتذكر الطبيب أنى كنت مستغرقاً حينئذ فى عمل الخير لإنقاذ ثروة أدا، ولم أكرث أنا كذلك بأن أذكره بهذا.

يبدو أنه قام أيضاً بتحريات بشأن جويدو، فهو يؤكد أنه، وقد اختارته أدا، لا يمكن أن يكون بالصورة التى وصفتها به. اكتشف أن مخزنًا كبيرًا للأخشاب تملكه شركة جويدوسبيير و"ك"، يقرب كثيرًا من المنزل الذى نجرى به عملية التحليل النفسى. فلماذا لم أتحدث أنا عنه؟

لو تحدثت فى هذا الأمر لظهرت صعوبة جديدة فى عملية العرض التى أجريها وهى فى حد ذاتها بالغة الصعوبة. وهذا الحذف ليس إلا دليلا على أن أى اعتراف من جانبى باللغة الإيطالية لا يمكن أن يكون

كاملاً أو صادقاً. فهناك تنوع ضخم فى أى مخزن للأخشاب من الأصناف التى نطلق عليها فى تريستى أسماءً أجنبية أخذناها من اللغة العامية، والكرواتية والألمانية وحتى الفرنسية فى بعض الأحيان (زابان على سبيل المثال لا تعادل على الإطلاق سابان^(١) الفرنسية). من كان سيمدنى بالمفردات اللغوية الصحيحة؟ هل كان على عجوز مثلى أن يقوم بدور تاجر أخشاب من توسكانا؟ فضلاً عن أن مخزن أخشاب شركة جويدو سبيير و"ك." لم يسفر إلا عن خسائر. ثم إنه لم يكن هناك داعٍ لأتحدث عنه، حيث ظل دائماً بلا نشاط فيما عدا تدخل اللصوص لسرقة تلك الأخشاب ذات الأسماء الأجنبية، كأنما خصص ذلك المخزن لصنع مناخذ تحضير الأرواح.

اقتрحت على الطبيب أن يحصل على ما يبحث من معلومات عن جويدو من زوجتى ومن كارمن أو بالأحرى من لوتشانو، وهو تاجر كبير يعرفه الجميع. وعلى ما أعلم فهو لم يتوجه إلى أحد منهم، ولا بد أن أصدق أنه أعرض عن ذلك خشية أن يرى البناية التى أسسها كلها على الاتهامات والشكوك تنهار من تلك المعلومات. من يدرى لمّ شعر بهذا البغض كله تجاهى؟ لا بد أن يكون هو أيضاً مصاباً بالهستيريا؛ حيث انتهى والدته بلا جدوى، ولم ينتقم ممن ليس له شأن بذلك على الإطلاق.

وفى النهاية شعرت بإرهاق شديد من ذاك الصراع الذى كان على أن أقوم به مع الطبيب الذى أدفع له المال. أعتقد أيضاً أن تلك الأحلام

(١) التنوب وهو شجر من الصنوبريات.

لم تفدنى، فضلاً عن أن حرية التدخين قدر ما أشاء أدت إلى القضاء على كلياً. ولاحت لى فكرة جيدة: ذهبت إلى الطبيب باولى.

لم أره منذ سنوات عديدة. وبدا عليه الشيب بعض الشيء، لكن قامته العسكرية فارهة الطول لم ينل العمر منها الكثير ولم تتحن. كان لا يزال ينظر إلى الأشياء بنظرة كانت تبدو كالمداعبة. اكتشفت فى تلك المرة لماذا كانت تبدو على هذا النحو. من الواضح أنه يروق له التأمل والنظر إلى الأشياء الجميلة والقبیحة بنظرة الإعجاب التى يلقیها أى شخص آخر للمداعبة.

صعدت عنده، وعزمت أن أسأله عن رأيه فى ضرورة استمرارى فى التحليل النفسى، لكنى لم أجد الشجاعة عندما ألفت نفسى أمام عينه تلك، الفاحصة الباردة. ربما أصبحت مثيراً للسخرية، إن حكيت عن استسلامى فى سنّى هذه لمثل ذلك الدجل. ساءنى أنى صمت؛ لأنه لو منعنى باولى من ممارسة التحليل النفسى، لأصبح موقفى أسهل جداً، ولكن لشدة ماكان يؤسفنى أن أراه يداعبنى طويلاً بعينه الواسعة تلك.

حكيت له عما عندى من أرق، والالتهاب الشعبى المزمن، وعن تورم فى خدّى كان يعذبنى فى تلك الفترة، وعن بعض الآلام التى كانت تلاحقنى فى ساقى، وأخيراً عن حالات نسيانى الغريبة.

قام باولى بتحليل البول أمامى. تلون الخليط باللون الأسود فظهر على الطبيب القلق. ها هو ذا أخيراً تحليل فعلى، ولم يعد هناك ذلك التحليل النفسى. تذكرت فى إعجاب وتأثر ماكان بالماضى البعيد من اهتمام

بالكيمياء وبالتحليل الحقيقي: هناك كنت أنا، وأنبوبة ومادة كاشفة! والآخر، أى الشيء الذى يتم تحليله، ينام إلى أن توقظه المادة الكاشفة فى إلحاح. ليست هناك مقاومة فى الأنبوب، أو إنها تستسلم لأقل ارتفاع فى درجة الحرارة ولا مكان للتظاهر على الإطلاق. لم يحدث شيء فى ذاك الأنبوب يذكر بتصرفى عندما اخترعت بعض التفاصيل الجديدة فى مرحلة طفولتى إرضاءً للطبيب "س" من شأنها أن تؤكد له تشخيص سوفوكل. فى حين، يوجد كل شيء حقيقى هنا. فالشيء الذى يتم تحليله يظل قيد التجربة فى انتظار المادة الكاشفة، وهو كما هو لم يتغير. وستنطق المادة الكاشفة دائماً بالكلمة ذاتها عندما تصل. أما فى التحليل النفسى فلا تتكرر الخيالات نفسها أبداً ولا الكلمات كذلك؛ لذا ربما ينبغى أن نطلق عليه اسماً آخر فلنسمه بالمغامرة النفسية. فالأمور تسير تماماً على هذا النحو: فعندما تبدأ عملية تحليل مماثلة كأنما نذهب إلى غابة، ولا ندرى ما إذا صادفنا قاطع طريق أو صديق، ولن ندرى بذلك حتى عندما تمضى المغامرة. وفى هذا يشابه التحليل النفسى عملية استحضار الأرواح.

لكن باولى لم ير أن المسألة تتعلق بالسكر. كان يريد رؤيتى فى اليوم التالى بعد أن يقوم بتحليل ذلك السائل من خلال عملية التركيز.

ومع ذلك، خرجت من عنده منتصراً، ومحملاً بمرض السكر. كنت على وشك الذهاب إلى الطبيب "س" لأسأله كيف سيقوم حينئذ بتحليل أسباب هذا المرض فى أعماق نفسى حتى يقضى عليها، لكنى كنت قد مللت من ذلك الشخص، ولم أرغب فى رؤيته ثانية حتى ولو للسخرية منه.

يجب أن أعترف بأننى رأيت فى مرض السكر عذوبة كبيرة. أخبرت أوجوستا به، وسرعان ما جرت الدموع فى عينيها:

- تحدثت كثيراً عن الأمراض طيلة حياتك، حتى انتهيت على الرغم من هذا إلى الإصابة بإحداها! هذا ما قالتها، ثم حاولت أن تخفف عني.

كنت أحب مرضى. تذكرت كوبلر المسكين، وتعاطفت معه عندما قال إنه يفضل المرض الحقيقي على المرض الوهمي. أصبحت بالفعل متفقاً معه. فالمرض الحقيقي بسيط جداً: كان يكفي أن ندعه يعمل. واقع الأمر، عندما قرأت فى كتاب من كتب الطب تعريف مرضى الحلو، اكتشفت فيه شيئاً مثل برنامج للحياة (وليس للموت!) فى مراحله المختلفة. وداعاً للقرارات: أخيراً تحررت منها. كل شيء سوف يمضى فى طريقه دون أى تدخل مني.

اكتشفت كذلك أن مرضى كان دائماً أو غالباً ذا حلاوة كبيرة. يأكل المريض ويشرب كثيراً، ولن تكون هناك معاناة شديدة إن انتبه إلى تجنب القروح. ثم يموت فى غيبوبة هادئة جداً.

بعد قليل طلبنى باولى على الهاتف. أخبرنى أنه ليس هناك أى أثر للسكر عندي. فذهبت عنده فى اليوم التالى. وصف لى نظاماً غذائياً لم أتبعه سوى بضعة أيام، إلى جانب خلطة كتبها لى فى بطاقة لا تُقرأ، وأفادتني لشهر كامل.

سألنى وهو يتسّم: - هل أخافك مرض السكر كثيراً؟

اعترضت، لكنى لم أخبره بشعورى الشديد بالوحدة، بعد أن هجرنى مرض السكر. وما كان ليصدقنى.

فى غضون ذلك وقع فى يدى الكتاب الذى كتبه الدكتور الشهير بيرد بشأن النوراستينيا. اتبعت نصيحته، وأخذت أبدل الأدوية كل ثمانية أيام طبقاً لوصفاته التى نسختها بخط واضح. ولبضعة أشهر بدا لى العلاج جيداً. ولا حتى كوبلر قد حصل فى حياته على مثل هذا النجاح الوافر بالأدوية الذى حصلت عليه أنا فى تلك الفترة. ثم مضت أيضاً عنى تلك الثقة، لكنى أخذت آنذاك أؤجل من يوم إلى آخر عودتى إلى التحليل النفسى.

تصادفت بعد ذلك مع الدكتور "س". سألنى إن كنت قد قررت ترك العلاج. ولكنه كان مهذباً جداً، أكثر بكثير مما كان عليه عندما كنت فى رعايته. من الواضح أنه كان يرغب فى استعادتى. قلت له إنه لدى بعض الأعمال العاجلة، وبعض المسائل العائلية التى تشغلنى وتؤرقنى، وإننى سأعود إليه فور أن أطمئن على ما يجرى. كنت أريد أن أرجوه أن يعيد إلى ما كتبه بيدي، لكنى لم أجرو؛ خشيت أن يبدو ذلك اعترافاً له بأننى لم أعد أبالى بالعلاج. احتفظت بهذه المحاولة إلى وقت آخر، عندما يدرك أنى لم أعد أهتم بالعلاج ويرضخ لذلك.

قبل أن يتركنى قال لى كلاماً يهدف إلى استمالتى:

- إن تعمقت في نفسك، ستجدها قد تغيرت. ستري أنك ستعود إلى على الفور لو انتبهت إلى كيف أننى تمكنت من أن أقربك من الشفاء في وقت وجيز نسبياً.

لكننى، فى الحقيقة، أعتقد أننى بمساعدته، ومن فرط ما تفحصت نفسى، ألقيت بداخلها بعض الأمراض الجديدة.

إننى عازم أن أبرأ من علاجه. أتجنب الأحلام والذكريات. لقد تغير حال رأسى المسكين بسببها، حتى كاد يفقد إحساسه بالثبات على العنق، ولدى من الشرود ما يفزع. أتحدث مع الناس، وبينما أقول شيئاً أحاول دون وعى أن أتذكر شيئاً آخر قلته قبل قليل أو فعلته ولم أعد أذكره، أو أتذكر كذلك فكرة أراها ذات أهمية بالغة، مثل تلك الأهمية التى عزاها والدى إلى الأفكار التى لاحت له قبل وفاته بقليل، ولم يتمكن هو أيضاً من تذكرها.

إن أردت ألا أنتهى فى مستشفى المجانين فلابتعد عن هذا العبث.

١٥ مايو ١٩١٥

قضينا يومين عطلة فى فيللتنا ببلدة لوتشينكو. كان ابنى ألفيو بحاجة إلى الشفاء من الأنفلونزا، ووجب أن يمكث مع أخته فى القىلا لبضعة أسابيع. وكان علينا أن نعود نحن إلى هنا فى أثناء عيد الخمسين.

أخيراً توصلت إلى العودة إلى عاداتي المحببة، وإلى الامتناع عن التدخين. أشعر الآن بتحسّن أفضل منذ أن استطعت إلغاء الحرية التي أراد أن يمنحني إياها ذاك الطبيب الأحمق. اليوم وقد وصلنا إلى منتصف الشهر أجد نفسي مندهشاً من الصعوبة التي يفرضها تقويمنا في اتخاذ قرار منظم ودقيق. لا يوجد شهر مماثل للآخر. ولإعطاء قرارى أهميته ينبغى الإقلاع عن التدخين مع ربطه بانتهاء شيء آخر، وليكن الشهر على سبيل المثال. ولكن لا توجد شهور أخرى، فيما عدا يوليو وأغسطس وديسمبر ويناير، تتوالى وتتشابه في عدد الأيام. إنها فوضى حقيقية في الوقت!

وحتى أفرغ إلى نفسي أمضيت وقت الظهيرة في اليوم الثانى وحيداً على شاطئ إيزونزو. وليس هناك استغراق في التأمل أفضل من الجلوس لمشاهدة المياه الجارية. نزل هناك بلا حركة، وتمنحنا المياه الجارية الراحة اللازمة؛ لأنها لا تظل على ما هي عليه في اللون أو في الشكل ولا حتى للحظة واحدة.

كان نهاراً عجيباً. من المؤكد أن ريحاً شديدة كانت تهب في السماء، حتى إن السحب تغيرت أشكالها بصورة مستمرة، لكن الهواء لم يتحرك على الأرض. وبين الحين والحين، ومن بين السحب المتحركة، كانت الشمس الساخنة تعثر على ثغرة تغمر بأشعتها من خلالها هذا الجزء أو ذاك من التل أو قمة الجبل، وتكشف بذلك عن لون شهر مايو الأخضر الهادئ وسط الظلال الممتدة على المنظر كله. كانت حرارة الجو معتدلة

وسرعة حركة السحب فى السماء، كانت تعبر كذلك عن شىء ربيعى. لم يكن هناك شك: كان الجو يتحسن!

كانت خلوة حقة مع نفسى، فى إحدى اللحظات النادرة التى منحتها لى الحياة الصحيحة، وكانت إيجابيتها عظيمة حقاً فى التوقف أخيراً عن ظنونى وشعورى بأننى ضحية. ووسط تلك الخضرة التى كشفت عنها أشعة الشمس الخاطفة على نحو ساحر استطعت أن أبتسم لحياتى ومرضى. وقد ظفرت المرأة فى تلك الخلوة بأهمية كبيرة، وربما بعض أجزاء من جسدها، كقدميها الصغيرتين، وخصرها، وفمها شغلوا فراغ أيامى. وفيها أحبت حياتى ومرضى، وتفهمتهما عندما كنت أستعيدهما بذاكرتى. كم كانت حياتى أجمل من حياة من اعتقدوا بأنهم أصحاب أولئك الذين كان يضربون أزواجهم، أو يضربونهن كل يوم فيما غدا بعض الأحيان. أما أنا، فعلى العكس منهم، كان الحب يلازمنى دائماً. وبينما كنت لا أفكر بزوجتى، كنت ما أزال أنشغل بها لكى ألتمس لنفسى العذر؛ لأننى أفكر أيضاً بغيرها. يهجر الآخرون نساءهم وهم فى خيبة أمل ويأس من الحياة. أما الحياة بالنسبة لى، فلم أفقد فيها رغبتى قط، وكان الوهم يتجدد مباشرة بصورة كاملة بعد كل خيبة أمل، وذلك فى أحلامى ليعيد لى وفى وضوح ملامح المرأة بأعطافها ونبرات صوتها.

تذكرت حينئذ ما بين الأكاذيب العديدة التى أوهمت بها ذلك المراقب العظيم ألا وهو الطبيب "س"، أن هناك أكذوبة أخرى وهى أننى لم أكن زوجتى قط بعد رحيل آدا. وأخذ هو يبنى أيضاً نظرياته على هذه الكذبة.

لكن هناك، عند شاطئ ذلك النهر، تذكرت بغتةً، وفي فزع، أنه حقيقى
أنى لم أسع لمصاحبة نساء أخريات منذ ذاك اليوم، ربما منذ أن تركت
العلاج. هل شفيت مثلاً يزعم الطبيب "س"؟ إن عجوزاً مثلى، لم تعد
النساء ينظرن إليه منذ وقت مضى. ومتى امتنعت عن النظر إليهن، فهذا
هى تنقطع كل صلة بيننا.

لو راودنى شك مماثل وأنا بتريستى، لاستطعت حلّه فى الحال.
فهنا الأمر أكثر تعقيداً.

منذ أيام قلائل كان بين يدي كتاب ذكريات دابونتى، ذلك المغامر
المعاصر لكازانوفا. من المؤكد أنه مرّ هو أيضاً بلوتشينكو، وحملت أنا
بأنى تقابلت مع سيدات روايته فى زينتهن ومساحيق أعطافهن التى
تخفيها تنورتهم الكثيفة المقواة. يا إلهى! كيف كن يستسلمن سريعاً على
هذا النحو على الرغم من أنهن يحتمين بهذا الكم من القماش؟

ظننت أن تذكر التنورة مثير بحد كاف، على الرغم من العلاج. لكن
رغبتي كانت مفتعلة بعض الشيء ولم تكن تكفى لتطمئنى على نفسى.

وبعد قليل مررت بالتجربة التى كنت أسعى وراءها وكانت كافية
لتهدئتي، غير أنها كلفتني كثيراً. ولكى أخوضها، عكّرت وأفسدت أنقى
علاقة كانت لى فى حياتى.

قابلت تيريزينا، الابنة الكبرى لأحد المزارعين بمزرعة تقع بالقرب
من فيللتى. أصبح الأب أرمل منذ عامين، ووجدت ذريته الكثيرة صورة

الأم فى تيريزينا، وهى فتاة قوية البنية تستيقظ فى الصباح لى تعمل، وتتوقف عن عملها لى ترقد، وتستجمع قواها حتى تتمكن من استئناف عملها. فى ذلك اليوم كانت تقود الحمار الصغير الذى كان يعتاد أخوها الأصغر التكفل به، وكانت تسير إلى جوار العربة المحملة بالعشب الغض، حيث إن الحيوان الصغير لم يكن ليحمل أيضاً وزن الفتاة فى الطريق المنحدر.

فى العام الماضى كانت لا تزال تبدو لى طفلة، ولم أشعر نحوها سوى بعاطفة باسممة، أبوية. وفى اليوم السابق كذلك، عندما عدت أراها للمرة الأولى كنت ما أزال أراها فتاة غير ناضجة، لا أستطيع أن أحب فيها سوى النشاط المذهل والأمومة التى تضيفها على إخوتها الصغار. هذا على الرغم من أنى وجدتها وقد كبرت، والوجه الصغير الأسمر وقد صار أكثر جدية، وكتفيتها نحيفين وعريضين فوق الصدر الآخذ فى الاستدارة فى اعتدال، وهو ينمو فى ذلك الجسد الصغير المنهك. لو لم يكن هناك ذلك العلاج اللعين وضرورة التحقق الفورى من الحالة التى يكمن فيها مريضى، لتمكنت من مغادرة لوتشينكو فى تلك المرة أيضاً، دون أن أتسبب فى إيذاء تلك البراءة إيذاءً كبيراً.

لم تكن ترتدى التنورة الداخلية. ولم يعرف وجهها المستدير الباسم المساحيق. كانت حافية القدمين عارية الساقين حتى نصفها أيضاً. لم يتمكن وجهها وقدماهما الصغيرتان وساقاهما من إثارتى. كان وجهها وأطرافها المكشوفة من لون واحد؛ كانت جميعها معرضة للهواء، ولم يكن

هناك من مانع من أن يلفحها جميعها، وربما لم تقلح في إثارتى بسبب هذا، لكننى ارتجفت عندما شعرت بتلك البرودة، أكانت تلك التنورة ضرورية حقاً بعد شفائى؟

بدأت بمداعبة الحمار الصغير الذى منحته الفتاة شيئاً من الراحة، ثم حاولت العودة إلى تيريزينا، ووضعت فى يدها ما لا يزيد على عشر كورونات، كان هذا هو الاعتداء الأول! ففى العام الماضى، ألقىت فى يدها ويد أخوتها الصغار مجرد نقود قليلة تعبيراً لهم عن حبنى الأبوى، فى حين أنه من المفهوم أن الحب الأبوى شىء آخر، انبهرت تيريزينا من العطية الكبيرة، ورفعت تنورتها الصغيرة بعناية لتضع الورقة الثمينة لا أدرى فى أى جيب خفى من الجيوب، وعلى هذا النحو لمحت جزءاً آخر من ساقها، لكنه أسمر اللون أيضاً وعفيف.

عدت إلى الحمار الصغير وقبلته على رأسه، فاثارت مودتى تعاطفه، مدّ خطمه وأطلق صيحة كبيرة تعبيراً عن حبه، كنت أنصت إليها فى احترام، كان كأنما يتعدى المسافات، ويعبر بالصيحة الأولى تلك التى أصدرها وكررها، ثم أخذ يهدأ إلى أن انتهى بىكاء يائس، لكنّه من شدة قربى منه أصاب الألم طبلّة أذنى.

أخذت تيريزينا تضحك، وشجعنى ضحكها، فعدت إليها وأمسكتها فى الحال من ساعدها، وأخذت أتلّمس بيدي، شيئاً فشيئاً، تجاه الكتف، وأنا أختبر أحاسيسى، حمداً للسماء أنى لم أبرأ بعد! لقد توقفت عن العلاج فى الوقت الملائم، لكن تيريزينا دفعت الحمار بضربة عصا لتتبعه وتتركنى.

قلت وأنا أضحك من قلبى حتى وإن لم تهتم بى تلك الفلاحة الصغيرة:

– هل لك زوج؟ يجب أن تتزوجى. خسارة أنك لم تتزوجى بعد!
أجابتنى، وهى لا تزال تبتعد عني:

– لو اتخذت لى زوجاً، سيكون بالتأكيد أكثر شباباً من سيادتكم!
لم تخمد سعادتى من هذا الرد. وددت لو ألقن تيريزينا درساً صغيراً، وحاولت أن أستعيد بذاكرتى كما حدث عند بوكاتشو^(١) أن «المعلم ألبرتو البولونى الذى بأسلوب مهذب أشعر المرأة التى كان مغرمًا بها بالخجل فى حين كانت هى ترغب فى أن تسبب له حرجاً». غير أن منطق المعلم ألبرتو لم يكن له الأثر المطلوب؛ لأن السيدة مالجريدا دى جيزوليرى أجابته: «إننى أقدر حبكم لى بصفتم رجالاً حكيمًا وقديرًا حقًا كما يجب؛ ولهذا، وبصرف النظر عن صدقى وصراحتى، فإنكم تعتبرونه حقًا لكم أية رغبة تخطر ببالكم».

حاولت بذل ما فى وسعى قائلًا:

– تيريزينا، متى ستهتمين بالعجائز؟ صحت حتى تدرك ما أقول وقد ابتعدت عني.

(١) الإشارة هنا إلى أحداث القصة العاشرة لليوم الأول فى الديكاميرون، وهو عمل أدبى شهير للأديب الإيطالى چوفانى بوكاتشو.

- عندما أصبح عجوزاً أيضاً، - صاحت وهى تقهقه دون أن تتوقف.

- لكن العجائز لن يهتموا بك حينئذ. استمعى إلى! أنا أعرفهم!

أخذت أصرخ، وأنا أشعر برضا نفسى يأتى مباشرة من غريزتى.

فى تلك الأثناء، انفرجت السُّحب فى بضع مواضع فى السماء،
وسمحت لأشعة الشمس بالمرور لتصل إلى تيريزينا التى كانت فى تلك
اللحظة تبعد عني مسافة أربعين متراً وترتفع عني بعشرات الأمتار أو
أكثر. كانت سمراء اللون، صغيرة، ولكن مضيئة!

لم تصبغنى الشمس بضياءها. فعندما تتقدم بنا السن نبقى فى
الظل، حتى ولو ظلت بنا روح نابضة.

٢٦ يناير ١٩١٥

أدركتني الحرب! وكنت ممن يستمع إلى قصصها، كأنما يتعلق
الأمر بحرب أزمان أخرى، ويدور الحديث عنها للتسلية، لكن الاهتمام بها
حماقة. ها أنا ذا أوجد فى وسطها مذهباً ومندھشاً فى الوقت ذاته
بأننى لم أدرك منذ البداية أنه كان لابد أن تحقيق بى عاجلاً أو آجلاً. لقد
عشت فى هدوء تام فى بناية كان طابقها الأرضى آخذاً فى الاحتراق،
ولم أتوقع أن البناء بكامله سيهوى فى النيران عاجلاً أو آجلاً.

أخذتني الحرب، عصفت بى كخرقة بالية، حرمتنى من عائلتى جميعها
دفعة واحدة ومن مدير أعمالى أيضاً. وبين ليلة وضحاها أصبحت رجلاً

جديداً، بل ولأكون أكثر دقة، فإن الأربع والعشرين ساعة فى يومى صارت جديدة بكاملها. ومنذ البارحة وأنا أشعر بالطمأنينة بعض الشيء، حيث حصلت، أخيراً، وبعد انتظار مدة شهر كامل، على أول أخبار عن عائلتى. كانت فى صحة وأمان بمدينة تورينو، فى الوقت الذى فقدت فيه أنا أى أمل فى رؤيتها ثانية.

ينبغى أن أقضى النهار كاملاً بمكتبى. ليس لدى شىء أقوم به هناك، لكن كان على آل أوليغى، بصفتهم مواطنين إيطاليين، أن يرحلوا، فى حين أخذ الموظفون القلائل الأكفاء لدى يتخبطون جميعهم هنا وهناك؛ ولهذا يجب على البقاء فى موضعى مراقباً. فى المساء أعود إلى منزلى محملاً بثقل مفاتيح الشركة الضخمة. اليوم وأنا أشعر بهدوء أكبر، حملت معى إلى المكتب هذا المخطوط لعله يساعدى على أن أمضى الوقت الطويل على نحو أفضل. حقيق أنه يمنحنى ربع ساعة من الساعات الرائعة، علمت خلالها أنه كانت هناك فى هذا العالم فترات هدوء تام وسكون تسمح بالاهتمام بالألعاب مثل هذه.

وآه لو دعانى أحدهم حقاً إلى أن أغوص فى حالة من نصف وعى تعيد لى إحياء ولو ساعة فقط من حياتى الماضية. سأضحك حينئذ فى وجهه. فكيف يمكن الابتعاد عن حاضر كهذا للبحث عن أشياء لا قيمة لها؟ يهيا لى الآن فقط أننى انفصلت نهائياً عن صحتى ومرضى. أسير فى شوارع مدينتنا البائسة، وأشعر أننى مميز؛ لأننى لا أذهب للحرب وأجد قوتى كل يوم. ومقارنةً بالجميع أشعر بسعادة بالغة - وخاصةً منذ

أن وصلتني أخبار عن أسرتي - حتى إتنى أخشى أن تثير حالتى
الجيدة هذه غضب الآلهة أنفسهم.

تقابلت أنا والحرب فى صورة عنيفة، أما الآن فما أنا ذا أراها
مضحكة بعض الشيء.

كنت قد عدت مع أوجوستا إلى لوتشينيكو لقضاء عيد الخمسين
بصحبة الأولاد. وفى الثالث والعشرين من شهر مايو استيقظت فى
ساعة مبكرة. كان على أن أتناول ملح كارلسباد وأقوم أيضاً بنزهة
قبل ميعاد القهوة. وفى أثناء هذا العلاج بلوتشينيكو أدركت أن القلب،
فى حالة الصيام، يقوى على القيام بإصلاحات أخرى بصورة أكثر
نشاطاً وهو يشع على الجسم كله صحة عظيمة. كانت نظريتى بحاجة
إلى التطوير فى اليوم ذاته، الذى أجبرت فيه على تحمل الجوع الذى
أفادنى كثيراً.

رفعت أوجوستا رأسها الأبيض من على الوسادة لتلقى على التحية،
وتذكرنى بوعدى لابنتى بأن أحضر لها الورود. كانت شجرة الورد
الوحيدة لدينا قد ذبلت؛ ولهذا كان علينا أن نشترىه. أصبحت ابنتى فتاة
جميلة وتشبه آدا. ومعها بين الحين والحين، كنت أنسى القيام بدور
المربى الفظ، لأتحول إلى ذلك الفارس الذى يحترم الأنوثة، حتى ولو كانت
فى ابنته. وسرعان ما أدركت هى قوتها، وغالت فى استخدامها لتبعث
المتعة فى نفسى وفى نفس أوجوستا كذلك. كانت ترغب فى بعض
الورود، وينبغى توفيرها لها.

قررت السير لساعة أو ساعتين. كانت الشمس رائعة، ولم أرتد السترة ولا القبعة، حيث عازمت على الاستمرار في السير بلا توقف لحين عودتي إلى المنزل. ولحسن الحظ تذكرت أنه على أن أدفع قيمة الورود؛ لذا لم أترك حافظة النقود أيضاً بالمنزل مع السترة.

في بادئ الأمر توجهت إلى الحقل المجاور، عند والد تيريزينا، لأرجوه أن يجمع الورود لأخذها عند عودتي. دخلت في الفناء الرحب الذي يحيط به سور مهدم بعض الشيء، ولم أجد هناك أحداً. صحت باسم تيريزينا، فخرج من المنزل أصغر الأطفال، وكان يبلغ من العمر آنذاك ما يقرب من ستة أعوام. وضعت بعض النقود في يده الصغيرة، وأخبرني أن أفراد العائلة ذهبوا جميعهم إلى الجانب الآخر من إيزونزو في ساعة مبكرة، لقضاء يوم عمل، في أحد حقولهم المزروعة بالبطاطس الذي تحتاج تربته إلى تقوية.

لم يعوقني ذلك. كنت أعرف ذاك الحقل وأعرف أنني أحتاج إلى ساعة زمن تقريباً للوصول إليه. سرّني أن أحدّد هدفاً لنزهتي تلك، حيث إنني قررت السير لمدة ساعتين. وهكذا لم يكن هناك خوف من قطع السير بسبب حالة كسل تهاجمني فجأة. توجهت ناحية السهل المرتفع قليلاً عن الطريق؛ ولهذا لم أرَ منه سوى حافته وبعض قمم الأشجار المزدهرة. كنت مسروراً حقاً؛ شعرت بخفة وزني كثيراً وأنا دون السترة والقبعة. أخذت أستنشق ذلك الهواء خالص النقاء وأسير وأنا أقوم

بتدريبات نيمير^(١) المفيدة للرئة، مثلما مارسستها كثيراً منذ فترة، وقد علمنى إياها صديق ألمانى، وهى شىء مفيد جداً لمن يعيش حياة يغلب عليها الجلوس.

وعندما صلت إلى الحقل ذاك، رأيت تيريزينا تعمل فى الجانب الذى يطل على الطريق تحديداً، دنوت منها، وعندئذ لمحت أخويها الصغيرين يعملان مع أبيهما بعيداً، وما كنت أستطيع تحديد عمرهما، الذى ربما يتراوح ما بين العاشرة والرابعة عشرة. قد يشعر الشيوخ بالإرهاك عندما يبذلون جهداً، ولكن الحماس الذى يصاحب ذلك المجهود، يشعرهم أنهم شباب أكثر من حالة الخمول. اقتربت من تيريزينا وأنا أضحك:

~ تيريزينا، لم يفت الوقت، لا تتأخرى.

لم تع ما قلته وأنا لم أفسر لها شيئاً، لم يكن ضرورياً. وبما أنها لم تكن لتتذكر شيئاً، كان من الممكن العودة معها إلى ما كان سابقاً. وكررت التجربة وحظيت منها بنتيجة جيدة تلك المرة أيضاً. فعندما وجهت إليها تلك الكلمات البسيطة داعبتها أيضاً بعين واحدة.

اتفقت سريعاً مع والد تيريزينا بشأن الورد. سمح لى بأن أنتقى منها ما أشاء، وما كنا لنختلف بعدها على الثمن. كان يرغب فى استئناف العمل بسرعة، فى حين كنت أستعد فى طريقى للعودة، لكنه ندم بعد ذلك وأسرع خلفى، سألنى بصوت خافت وقد لحق بى:

(١) نيمير طبيب ألمانى توفى عام ١٨٧١، وله مؤلف عن علاجات ذات طابع خاص.

- هل سمعتم بشيء؟ يقولون إن الحرب اندلعت.

فقلت له: - بالتأكيد! جميعنا نعرف هذا! منذ عام على وجه التقريب.

- لا أتحدث عن هذه الحرب، قال متلهفًا. - أتحدث عن تلك مع...- وأشار ناحية الحدود الإيطالية القريبة. - ألم تسمعوا بشيء عن هذا الأمر؟ - حمله في وهو يترقب الإجابة.

- هون على نفسك، أجبت في ثقة تامة، ما دمت لا أعلم شيئاً فهذا يعنى بالتأكيد أن شيئاً لن يحدث. أنا أت من تريستي وآخر كلام سمعته هناك يعنى أنه تم إخماد الحرب بصفة نهائية. وأطاحوا في روما بالحكومة التي تريد الحرب، ويرأس الحكومة حالياً جوليتي.

انفجرت أساريه في الحال، وقال:

- وهكذا فإن هذه البطاطس التي نقوم بتغطيتها والتي ستوفر لنا خيراً كثيراً ستكون لنا! هناك كثيرون من أولئك الثرثارين في هذا العالم! وجفف بكم قميصه العرق الذي كان يتصبب من جبينه.

وعندما رأيت في غاية الفرحة، حاولت أن أسعده أكثر فأكثر. فأنا أحب الأشخاص السعداء كثيراً! ولهذا تحدثت عن أشياء لا أريد في واقع الأمر ذكرها. أكدت له أنه على الرغم من اندلاع الحرب، فلن تحدث معارك هناك. وقبل كل شيء فهم هناك في البحر يتقاتلون، فضلاً عن أنه لم تخل أوروبا حينئذ من ساحات معارك لمن يرغب في الاشتراك فيها.

وهناك مناطق الفياندر ومقاطعات عديدة بفرنسا. ثم سمعتهم يقولون - لم أعد أدري ممن - إنه أصبحت هناك حاجة إلى البطاطس التي يجمعونها بعناية حتى في ساحات المعركة. تحدثت كثيراً، وأنا أواصل النظر إلى تيريزينا بجسمها الصغير الخفيف، وقد انحنت نحو الأرض لتتحسسها قبل أن تستخدم المعزقة.

عاد الفلاح إلى عمله بعد أن اطمأن تماماً. وبينما منحته شيئاً من طمأنينتي، لم يتبق لي إلا القليل منها. كنت واثقاً من أننا قريبون جداً من حدود لوتشينيكو. كنت سأحدث في ذلك مع أوجوستا. وربما أحسنًا صنيعة لو عدنا إلى تريستي أو ذهبنا إلى هنا أو هناك. من المؤكد أن جوليتي قد عاد إلى السلطة، لكن لم يكن أحد ليعرف ما إن استمر، بعد وصوله إليها، في رؤية الأمور حسبما كان يراها عندما كان هناك شخص آخر غيره يحكم.

ومما زاد من إثارة أعصابي أيضاً أن صادفتني كتيبة جنود يسيرون في الطريق تجاه لوتشينيكو. لم يكونوا جنوداً في مرحلة الشباب؛ زيهم العسكري وأسلحتهم في حالة سيئة للغاية. ويتدلى من جوانبهم ما كنا نطلق عليه في تريستي "الدورليندانا"، تلك الحربة الطويلة التي استخرجوها بكل تأكيد من المخازن القديمة في النمسا، في صيف عام ١٩١٥.

سرت وراءهم لبعض الوقت في حالة من القلق من ألا أصل سريعاً إلى منزلي. ثم أزعجتني ما كانت من رائحة عفنة ثقيلة تنبعث منهم،

فأبطأت خطواتى. كانت حماقة منى أن أشعر بالقلق وأن أسرع فى العودة. وكان من حماقة أيضاً أن أشارك الفلاح قلقه. فما أنا ذا أرى من بعيد قبيلتى، ولم يعد للكتيبة وجود على الطريق. أسرعت خطواتى للوصول أخيراً إلى احتساء القهوة بالحليب.

وهنا بدأت مغامرتى. عند منعطف الطريق أوقفنى حارس، وصاح: - عدْ إلى الخلف! قالها بالألمانية، واتخذ على الفور وضع التصويب. أردت أن أتحدث إليه بالألمانية بما أنه صاح بها، لكنه لم يكن يعرف سوى تلك العبارة الوحيدة، وأخذ يرددها بنبرة أكثر تهديداً.

كان على أن أعود إلى الوراء، وأخذت أتلفت خلفى خشية أن يطلق على النار، لكى يفهمنى ما يقوله بصورة أفضل، فانسحبت بسرعة سيطرت على، حتى عندما لم أعد أرى الجندى.

لكنى لم أكن تنازلت بعد عن عودتى سريعاً إلى قبيلتى. فكرت فى أنه إن عبرت التل على يمينى، فسأهرب بعيداً خلف الجندى المتوعد.

لم يكن الصعود صعباً على، خاصة أن الحشائش الطويلة كانت قد أحنأها أناس كثيرون، لابد وأنهم مروا بها من قبلى. من المؤكد أنهم أجبروهم هم أيضاً على ذلك ومنعوهم من المرور من الطريق. أخذت أستعيد ثقتى وأنا أسير، ورأيت أن أتوجه إلى رئيس القرية تووصولى إليها لأحتج على المعاملة التى خضعت لها. ولو كان يسمح بتعرض رواد القرية لتلك المعاملة، فسرعان ما ستخلو لوتشينيكو من الزائرين!

ولكنى عندما وصلت عند قمة التل، أخذتني المفاجأة غير السارة عندما وجدت كتيبة الجنود تلك ورائحتهم العطنة تحتل المكان. كان كثير منهم يستريحون فى ظل منزل فلاحين أعرفهم منذ وقت بعيد، وكان خالياً تماماً فى تلك الساعة؛ وكان ثلاثة منهم يقومون فيما يبدو بدور الحراسة، لكن ليس من ناحية الطريق المنحدر الذى أتيت منه. والتف آخرون على شكل نصف دائرة أمام ضابط كان يعطى لهم تعليمات يوضحها لهم على خريطة يمسكها بيده.

لم يكن معى حتى القبعة لأستخدمها فى تقديم التحية، انحنيت عدة مرات ودنوت من الضابط، بأجمل ابتسامة لدى، فعندما رآنى توقف عن الحديث مع جنوده وأخذ يحملق فى. وكذلك الأجلاف الخمسة الذين كانوا يحيطون به تركزوا علىّ بانتباههم. وتحت تلك النظرات جميعها وعلى الأرض غير الممهدة تلك كانت حركتى فى غاية الصعوبة.

صاح الضابط:

– ماذا يريد ذلك الأبله؟ (قالها بالألمانية)

اندهشت من إهانتى على هذا النحو، دون أية بادرة منى تستدعى ذلك، وأردت أن أظهر فى شجاعة منى تلك الإهانة ولكن مع ما يناسب الموقف، فعدلت اتجاه السير فى محاولة للوصول إلى الطريق المنحدر، الذى ربما كان سيقودنى إلى لوتشينيكو. أخذ الضابط يصيح حتى إنه، إن قمت بخطوة واحدة أخرى فسوف يرمينى بسلاحه. فعدت للتو إلى

سلوكى المهذب، ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا وأنا أكتب هذه المذكرات، ظلت دائماً مهذباً للغاية. كانت هناك قسوة فى إجبارى على التعامل مع شخص كهذا، وعلى الرغم من ذلك كان يتميز بالحديث بالألمانية بطلاقة. تلك الميزة التى، حسبما أتذكر مكنتنى بسهولة كبيرة من الحديث معه بلطف. الويل لو لم يكن ذلك الأحمق يفهم حتى ولا الألمانية. كانت حينئذ نهايتى.

إنه من المؤسف أنى لم أكن أتحدث تلك اللغة بدقة كافية، وإلا لسهل على أن أضحك ذاك السيد العابس. أخبرته بأن القهوة بالحليب تنتظرنى بلوتشينيكو، ولم يبعدنى عنها سوى كتيبته.

ضحك، أشهد حقاً أنه ضحك. أخذ يضحك وهو يسب، ولم يصبر حتى أنهى حديثى. قال إن القهوة بالحليب هناك فى لوتشينيكو آخرون ممن يشربونها، وعندما سمع أن زوجتى أيضاً تنتظرنى هناك فضلاً عن القهوة، صاح:

- وكذلك زوجتك ربما التهما آخرون.

كانت حالته المزاجية حينئذ أفضل منى. ويبدو أنه استاء مما وجهه لى من كلام يمكن أن يكون جارحاً، ذلك الكلام الذى رافقه الأجلاف الخمسة بضحكهم الصاخب؛ وارتسمت الجدية على وجهه، وطلب منى ألا أفكر فى العودة إلى لوتشينيكو لبعض الوقت، بل نصحنى باسم الصداقة ألا أعود لذاك الطلب ثانية؛ حيث كان ذاك كافياً لتعرضى للخطر!

- هل فهمت؟

فهمت، ولكنه لم يكن من السهل قط أن أتقبل التنازل عن القهوة بالحليب وأنا أبعد عنها مسافة نصف كيلو متر تقريباً؛ ولهذا فقط ترددت فى أن أنصرف؛ لأنه كان من الواضح أنه إن هبطت من ذلك التل، لما وصلت مطلقاً فى ذلك اليوم إلى فيلتي. فسألت الضابط بهدوء، لكى أكسب الوقت:

- ولكن لمن يجب أن أتوجه حتى أعود إلى لوتشينيكو لأخذ سترتى وقبعتى على الأقل؟

كان على أن أدرك أنني أخرت الضابط عن عمله مع خريطة ورجاله، لكننى لم أتوقع إثارة غضبه بهذه الشدة.

صاح بنبرة أصمت أذنى، أنه ذكر لى من قبل ألا ينبغى أن أطلب ذلك مرة أخرى، ثم صرخ فى بأن أذهب إلى حيث يحملنى الشيطان. لم أهتم كثيراً بفكرة أن يحملنى الشيطان لإرهاقى الشديد، لكننى كنت أزال متردداً. إلا أنه فى تلك الأثناء زادت ثورة الضابط من شدة صراخه، واستدعى بنبرة تهديد شديد أحد رجاله الخمسة الذين كانوا يلتفون حوله، وهو ينادى عليه بالسيد الأونباشى. وأعطى له الأمر بأن يقودنى أسفل التل، وأن يراقبنى حتى أختفى فى الطريق المؤدى إلى جوريتسيا، وأنه إن ترددت فى المثول للأمر يجهز على.

ومن ثم هبطت من قمة التل تلك عن طيب خاطر:

- شكراً جزيلاً، قلتها أيضاً دون أى قصد منى للسخرية.

كان الجندي سلافيًا يتحدث بإيطالية لا بأس بها. أراد أن يظهر صرامته أمام الضابط، ويدفعني للتقدم أمامه على المنحدر، صاح في: - إلى الأمام سر! لكن عندما ابتعدنا قليلاً أصبح لطيفاً ودوداً. سألني إن كانت لدى أخبار عن الحرب، وعما إذا كان تدخل إيطاليا الوشيك حقيقة. كان ينظر إليّ في قلق ويترقب الإجابة.

ومن ثم فحتى الذين يخوضون الحرب لا يعرفون هم أيضاً إن كانت تدور أم لا! أردت إسعاده بقدر المستطاع، وذكرت له الأخبار التي أوهمت بها كذلك والد تريزينا. ثم أثقل ذلك ضميري. ربما هلك الأشخاص جميعهم الذين طمأننتهم، في وسط الإعصار البشع الذي اندلع. من يدرى أى تعبير دهشة يمكن أن يعلو وجوههم الجامدة بعد الموت. كان شعوري بالتفاؤل جامحاً. ألم أحس بالحرب في حديث الضابط أو بالأحرى في نبرته؟

سرّ الأونباشي كثيراً، ولكي يكافئني، نصحنى هو أيضاً ألا أحاول الوصول إلى لوتشينيكو أبداً. وبعد ما عرفه من أخباري، أنبأني بأن التعليمات التي تعوقني عن العودة إلى منزلي سوف يتم إلغاؤها في اليوم التالي. لكنه نصحنى في الوقت ذاته أن أذهب إلى قيادة المنطقة بتريستي، حيث ربما أتمكن من الحصول على تصريح خاص منهم.

- أذهب حتى تريستي؟ سألته في فزع: إلى تريستي، دون سترة، دون قبعة ودون قهوة بالحليب؟

وحسب ما كان الجندى على علم به، حتى وقت أن كنا نتحدث، فقد كان هناك صف من سلاح المشاة يخلق المعبر إلى إيطاليا، ليخلق على هذا النحو حدوداً جديدة لا يمكن تجاوزها. وأخبرنى بابتسامة صاحب المنزلة الرفيعة أنه يرى أن أقصر طريق يؤدي إلى لوتشينيكو إنما هو الذى يؤدي إلى ما وراء تريستى.

ومن فرط ما سمعت ذلك، استسلمت للفكرة وتوجهت إلى جوريتسيا وأنا أفكر فى أن أستقل قطار الظهيرة للذهاب إلى تريستى. كنت منفِعلاً، لكن ينبغى القول بأننى كنت أشعر بأحسن حال. لم أدخن كثيراً، ولم أتناول الطعام على الإطلاق. أحسست بخفة فى بدنى افتقدتها منذ زمن بعيد. لم يضايقنى قط أن أستأنف السير. كانت ساقاى تؤلماننى بعض الشيء، لكننى أحسست بأننى قادر على الاحتمال حتى جوريتسيا، حيث انطلقت أنفاسى منتظمة عميقة. وفى الواقع لم يتعبنى السير، بعد أن أدفأت خطواتى النشيطة ساقى. وعدت إلى تفاؤلى، وأنا أشعر بتحسن صحتى وإيقاع حركة سيرى المرح، السريع. كانوا يصيحون بالتهديدات من هنا ومن هناك، لكنهم ما كانوا ليصلوا إلى حد الحرب. وعلى هذا النحو، عندما وصلت إلى جوريتسيا، ترددت فى جدوى حجز حجرة بالفندق لقضاء الليلة والعودة إلى لوتشينيكو فى اليوم التالى لتقديم شكواى لرئيس القرية.

أسرعت فى الوقت ذاته إلى مكتب البريد للاتصال بأوجوستا. لكن لم يجب أحد على من قُبلتلى.

اقترب منى الموظف بلحيته الخفيفة وجسمه الصغير وجمود مظهره الذى جعل منه شيئاً مضحكاً عنيداً - هذا ما أذكره عنه وحسب - وقال لى عندما سمعنى أسب فى ثورتى من التليفون الصامت:
- إنها المرة الرابعة التى لا تجيب فيها لوتشينيكو اليوم.

عندما التفت إليه، رأيت عينيه تلمع بشماتة شديدة (أخطأت فى ذلك! وهذا ما زلت أذكره) كانت تلك العين اللامعة تبحث فى عيني إن كنت حقاً مندهشاً وغاضباً. كان لا بد أن تمر عشر دقائق كاملة حتى أفهم. حينئذ لم تكن هناك شكوك. دخلت لوتشينيكو أو أوشكت أن تدخل خلال ثوان معدودة فى خط النار. وعندما استوعبت تلك النظرة المعبرة تماماً كنت فى طريقى إلى المقهى لأتناول فنجان القهوة الذى كنت بحاجة إليه منذ الصباح، فى انتظار الإفطار. غيرت اتجاهى على الفور وذهبت إلى المحطة. كنت أرغب فى أن أكون قريباً جداً من أسرتى، فاتجهت إلى تريستى، وأنا أتبع تعليمات صديقى الأونباشى.

وفى أثناء رحلتى القصيرة تلك اندلعت الحرب.

وعلى الرغم من أنه كان لدى بعض الوقت فى محطة جوريتسيا، فإننى لم أتناول فنجان القهوة الذى كنت ألث وراءه منذ ساعات طويلة، حيث كنت أفكر فى الوصول إلى تريستى بأسرع وقت. صعدت إلى العربة ووجهت تفكيرى إلى أسرتى، بعد أن بقيت وحيداً، وقد انفصلت عنها بطريقة فى غاية الغرابة. انطلق القطار على ما يرام إلى ما بعد مونفالكونى.

كان يبدو أن الحرب لم تمتد بعد إلى هناك، استعدت طمأنينة نفسي؛ ظناً أن الأمور ربما تسير في لوتشينيكو مثلما تسير هنا قبل حدودها. وفي تلك الساعة ستكون أوجوستا قد ارتحلت هي وأولادى داخل إيطاليا، جلبت لى تلك السكينة نوماً عميقاً، فضلاً عن الهدوء الكبير المذهل الذى حمله لى شعورى بالجوع.

من المحتمل أن ما أيقظنى هو شعورى بالجوع ذاته، توقف القطار فى وسط المنطقة التى نطلق عليها ساسونية تريستى، لم يظهر البحر على الرغم من أنه كان قريباً جداً، لأن ضباباً خفيفاً كان يعوق رؤيته من بعيد. يتمتع الكارسو بروعة الجمال فى شهر مايو، لكن لا يستطيع أن يشعر بها إلا من كان غير معتاد على فصول الربيع الزاخرة بالحياة وبالألوان فى أماكن أخرى، فالصخور البارزة هنا فى كل مكان محاطة بدرجة من الأخضر الهادئ الذى لا يستهان به؛ لأنه سرعان ما يفرض نفسه على المكان كله ويصبغه.

وقد ثارت ثورتى فى ظروف أخرى غضباً لعدم استطاعتي تناول الطعام وأنا جائع، إلا أنه فى ذلك اليوم فإن خطورة الحدث التاريخى الذى عشته، كانت تضغط على وتحملنى على الاستسلام، ولم يستطع السائق الذى قدمت له السجائر أن يحضر لى ولو قطعة من الخبز، لم أخبر أحداً عن تجاربى التى خضتها فى الصباح، كنت سوف أتحدث عنها مع أصدقاء حميمين فى تريستى، لم تأتِ إلى أية أصوات معارك من الحدود التى كنت أسترق السمع إليها، توقفنا فى ذاك المكان لنسمح

بمرور ثمانية أو تسعة قطارات تندفع نحو إيطاليا. انفتح الجرح المتقيح (حسبما أسرع النمساويون في إطلاق هذا الاسم على الجبهة الإيطالية) وأخذ يبحث عن مزيد من مادة تغذى تقيحه. وكان أولئك الرجال المساكين يذهبون إليه وهم يتضاحكون ويغنون. وكانت تخرج من تلك القطارات جميعها أصوات البهجة والنشوة ذاتها.

وكان الليل قد انسدل عندما وصلت إلى تريستي.

أخذت حرائق كثيرة تضىء الظلام بوميضها، وعندما رآنى أحد أصدقائى أتوجه إلى بيتى دون سترة صاح فى وجهى:

- أعساك اشتركت فى إحدى عمليات النهب؟

وأخيراً استطعت أن أتناول بعض الطعام واستلقيت فى الحال.

دفع بى إرهاب شديد إلى الفراش. أعتقد أنه نتج عن الآمال والشكوك التى كانت تعصف بذهنى. وظلت فى حالة جيدة جداً وفى أثناء الدقائق القليلة التى تسبق الحلم التى تمرست عليها بجلسات التحليل النفسى فى استبقاء الصور، أتذكر أنى أنهيت يومى بأخر فكرة طفولية متفائلة: لم يمت أحد بعد على الحدود، وعلى هذا النحو يمكن أن يعود السلام.

الآن وقد علمت أن أسرتى سليمة آمنة، لا أشعر باستياء من الحياة التى أعيشها. ليس لدى الكثير لأقوم به، ولكن هذا لا يعنى أنى فى حالة خمول. ليس هناك ما يباع أو يشتري. ستنشط التجارة من جديد عندما

يحل السلام. بعث لى أوليقي ببعض نصائحه من سويسرا. أه لو يعلم كيف أن نصائحه تتعارض مع هذا المناخ الذى تغير تماماً! وعلى أية حال، فأنا لا أقوم بعمل شئ فى الوقت الراهن.

٢٤ مارس ١٩١٦

منذ شهر يونيو من العام الماضى وأنا لا أمس هذا الكتاب عديم القيمة. وها هو ذا الطبيب "س." يرسل إلى من سويسرا ليرجوني أن أبعث إليه كل ما دونته فى تلك الفترة. إنه طلب غريب، لكنى لا أعارض أيضاً فى إرسال كتابى هذا إليه، وسيرى فيه وفى وضوح حكمى عليه وعلى علاجه، وبما أنه يستحوذ على اعترافى جميعها، فليأخذ أيضاً هذه الصفحات القليلة، ولا مانع عندى من إضافة أخريات لها، ربما أفادته. فليس لدى من الوقت الكثير؛ لأن تجارتي تشغل يومى بكامله، ولكنى أرغب أيضاً فى مصارحة السيد الدكتور "س." برأى فيه. فكرت فى الأمر ملياً وقد تراعت لى الآن الأفكار واضحة تماماً.

وفى الوقت ذاته سيعتقد أنه يتلقى اعترافات أخرى عن مرضى وضعفى، لكنه سيجد وصفاً لصحة قوية سليمة بالقدر الذى تسمح به سننى وقد تقدمت بما يكفى. لقد تعافيت! لا أرغب فى ممارسة التحليل النفسى وحسب، بل لست بحاجة إليه على الإطلاق. وصحتى لم أستعدها فقط من شعورى بالتميز وسط العديد من الشهداء. ليس شعورى بالشفاء نتيجة مقارنة بهم. إننى شفيت تماماً. كنت أعلم منذ زمن بعيد

أن صحتي ما هي إلا إيماني بها، وكانت حماقة جديرة بإنسان حالم متوهم أن أبحث في علاجها بدلاً من الاقتناع بها. لكنني أعاني من بعض الآلام، وإن كانت تفتقر إلى الأهمية وسط حالتى الصحية العظيمة. أستطيع وضع (لزقة) هنا أو هناك، لكن بقية ما بجسمي يجب أن يتحرك ويقاوم ولا يركن أبداً إلى الخمول، وكأئنا أصابته غزغرينة. ومن ثم، إن كان ألم أو حب، فالحياة فى مجملها لا يجب أن نعتبرها مرضاً عندما تؤلم.

أقر بأنى لكى أقتنع بشفائى تحتم على مصيرى أن يتغير ويبعث بالحرارة فى جسدى، ويدفعه للصراع لينتهى بالانتصار. إن تجارتى هي التى أبرأتنى، وأريد أن يعلم بهذا الطبيب "س".

وفى حالة من الدهشة والتراخى، جلست أتأمل العالم المضطرب، حتى بداية شهر أغسطس من العام الماضى. بدأت حينئذ فى أن أشتري. وأضع خطأ تحت هذا الفعل لما يحمله من معنى أعمق عما كان عليه قبل الحرب. فعلى لسان تاجر فى ذلك الحين، كان يعنى أنه مستعد لشراء سلعة من السلع. لكنني عندما استخدمته، أردت القول بأننى كنت أشتري أية بضاعة تُعرض على. ومثل الأشخاص الأقوياء جميعهم، كانت لدى فكرة واحدة عشت بها، وكانت هي مصدر حظى. كان أوليئى خارج تريسيتى، ولكن من المؤكد أنه لم يكن يسمح بمخاطرة مثل تلك، وربما تركها للآخرين. لكنها على العكس من ذلك لم تكن مخاطرة بالنسبة لى. كنت أعلم عن يقين تام بنتيجتها الحسنة. فى بادئ الأمر، وحسب العادة القديمة فى زمن الحرب، أخذت أحول كل ثروتى إلى ذهب، على الرغم من

أنه كانت هناك بعض الصعوبات فى عملية شراء أو بيع الذهب. كانت السيولة المتاحة فى ذلك الوقت، - إن صح القول - هى تجارة الذهب؛ لأنه كان أكثر حركة واحتكرت لنفسى البعض منه وأقوم بين الحين والحين بعمليات البيع أيضاً، لكن بنسبة أقل دائماً من عمليات الشراء. ولأننى بدأت عمليات الشراء فى اللحظة المواتية أثمرت عمليات البيع، حتى أمدتني بالأموال الكثيرة التى كنت بحاجة إليها فى عمليات الشراء.

أتذكر بفخر كبير أن أول عملية شراء قمت بها كانت بالفعل حماقة منى فى ظاهرها، وتهدف فقط إلى سرعة تحقيق فكرتى الجديدة: وهى شراء كمية قليلة من اللبان. كان البائع يدعى بإمكانية استخدام اللبان كمادة بديلة للراتينج، الذى بدأ حينئذ ينقص، ولكنى بما لى من خبرة كيميائية كنت أعلم عن يقين تام بأن اللبان لا يمكن مطلقاً أن يحل محل الراتينج؛ لأنه مختلف عنه تماماً. وحسبما كنت أرى فالعالم كان يتجه إلى درجة من البؤس تؤدي إلى قبوله اللبان بديلاً للراتينج. واشتريته بالفعل! وبعد أيام قلائل قمت ببيع كمية صغيرة منه وحصلت الثمن اللازم؛ لكى أستحوذ على المخزون كله. وفى اللحظة التى قبضت فيها الأموال تلك انشرح صدرى عند شعورى بقوتى وصحتى.

وعندما يتسلم الطبيب هذا الجزء الأخير من كتابى، لابد أن يعيده إلى بكامله، ولسوف أكتبه بوضوح حقيقى، وإلا كيف كان لى أن أفهم حياتى، إن لم أكن أعرف هذا الجزء الأخير منها؟ لعلى عشت سنوات عديدة لمجرد الإعداد لهذه الفكرة!

من المؤكد أنني لست ساذجاً، وألتمس العذر للطبيب أن يرى في الحياة ذاتها أعراضاً للمرض. فالحياة تشبه المرض إلى حد ما في سيرها، من خلال أزمات وانفراجات وما يجرى عليها من تحسن وتدهور يومي. وبخلاف الأمراض الأخرى فالحياة دائماً إلى زوال. لا تحتل علاجات. كما لو أننا أردنا سد الفتحات في أجسامنا، حين نحسبها جروحاً. ولسوف نموت من الاختناق ما إن ننتهي من العلاج.

إن الحياة التي نعيشها حالياً ملوثة من جذورها. فالإنسان قد وضع نفسه محل الأشجار والحيوانات، وتسبب في تلوث الهواء وإعاقة الفراغ المطلق. وقد يحدث ما هو أسوأ من ذلك. ربما يكتشف الكائن الحزين النشاط قوى أخرى ويسخرها لخدمته. وهناك في الجو تهديد من هذا النوع. وسيخلف ذلك تزايداً كبيراً... في عدد البشر. سيشغل كل إنسان متراً مربعاً. من سيحمينا من نقص الهواء والفراغ؟ إنني أختنق لمجرد التفكير في هذا!

ولكن ليس هذا، ليس هذا وحسب.

إن أي جهد لجلب الصحة عبث. وهذه الصحة لا تخص سوى الحيوان الذي لا يعرف إلا تطوراً واحداً، وهو نمو جسده. فمَنْذ أن أدرك طائر السنونو أنه ليست هناك إمكانية حياة أخرى له تخرج عن نطاق الهجرة، قوى عضلاته لتحرك جناحيه حتى أصبحت أهم عضو في تكوين جسمه. ويلين حيوان الخلد ويتطوع جسمه كله وفقاً لحاجته. وكبر حجم الحصان وتطورت حوافره. وهناك حيوانات لا نعلم شيئاً عن تطورها، لكنه حدث بالتأكيد.

أما الإنسان من وراء نظارته يخترع العبوات الناسفة خارج جسده، وإن كانت هناك صحة وأمانة فيمن يخترعها، فهما غالباً ما تنقصان فيمن يستخدمها. نشترى الأدوات، نبيعها ونسرقها، ويزداد دهاء الإنسان وضعفه أكثر وأكثر، بل إن من المعروف أن دهاء ينمو بمقدار ضعفه. بدت الأدوات التي ابتدعها في البداية امتداداً لذراعه وما كان لها من تأثير فعال إلا من خلال قوته. لكن الأداة لم تعد لها الآن أية صلة بهذا الطرف من جسمه، إن الأداة هي التي تخلق المرض عندما تدار الاكتاف للقانون الذي يحكم الأرض جميعها. واختفى قانون الأقوى وفقدنا الاصطفاء الصحي. ربما هناك الحاجة إلى حل آخر غير التحليل النفسي: وحسب القانون القائل بامتلاك أكبر عدد من الأدوات المدمرة، سوف تزدهر الأمراض، ويكثر عدد المرضى.

وربما عدنا إلى عالم الصحة عبر كارثة لم نسمع عنها قبلاً، ونتجت عن الأدوات المدمرة. وعندما تصبح الغازات السامة كافية، فسراً وفي حجرة من حجرات هذا العالم، سوف يخترع إنسان مثل الآخرين جميعهم، أدوات تفجيرية لا مثيل لها، وستعد المتفجرات الموجودة حالياً ألعاباً مسالمة مقارنة بها. وسيأتى إنسان آخر، وهو أيضاً مثل بقية الآخرين، لكنه يفوقهم مرضاً، ويسرق هذه العبوة المتفجرة ويتسلق مركز الأرض ليضعها في مكان يمكن لتأثيرها أن يبلغ منه قمته. ويحدث انفجار ضخم لن يسمعه أحد، وبعدما تعود الأرض إلى هيئة السديم، ستهيم في السموات خالية من الطفيليات والأمراض.

المؤلف فى سطور :

آرون هيكتور اشميتس (إيتالو زقيفو)

- ولد بمدينة تريستي عام ١٨٦١، وتوفي فى مستشفى بموتا دى ليفنزا عام ١٩٢٨.
- درس العلوم التجارية، وله معرفة متعمقة بالأدب الألمانى والإيطالى.
- كاتب إيطالى، ومؤلف للعديد من القصص القصيرة والروايات.
- نشر أول رواية له عام ١٨٩٢ تحت اسم إيتالو زقيفو.

من أهم أعماله :

- حياة عام ١٨٩٢.
- الشيخوخة عام ١٨٩٨.
- ضمير تزينو عام ١٩٢٣.
- تم تكريمه فى باريس عام ١٩٢٨ من بين العديد من مشاهير الكتاب الأوروبيين.

الترجمة فى سطور :

مروة عبد المنعم عبد الرؤوف محمد طنطاوى

- مدرس بقسم اللغة الإيطالية بكلية الألسن جامعة عين شمس.

- حصلت على ليسانس اللغة الإيطالية وآدابها من كلية الألسن بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف.

- حصلت على ماجستير فى الأدب الإيطالى عام ١٩٩٥ بتقدير امتياز.

- حصلت على دكتوراه فى الأدب الإيطالى عام ٢٠٠١ بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.

- حصلت على دبلومة التدريس من معهد دانتي أليجيرى فى رجو كالابريا عام ١٩٩١.

- هذا بخلاف المنح الدراسية والمهمات العلمية فى بيروچا وروما.

لها أبحاث منها:

- "مشروع بديل ما بين الجنون والمثالية" فى رواية "الماكينة العالمية" للكاتب باولو ثوليونى.
- "فكر فلسفى لراعٍ بسيط" فى "أنشودة ليلية لراعٍ هائم من آسيا" للشاعر چاكومو ليوياردى.
- "بين الواقع والخيال" دراسة نقدية لمجموعة قصص "ماركوڤالدو" للكاتب إيتالو كالفينو.

المراجعة فى سطور :

سوزان بديع إسكندر

- أستاذ الأدب الإيطالى بقسم اللغة الإيطالية - كلية الألسن -
جامعة عين شمس.

- قامت بنشر أبحاث فى الأدب الايطالى، اتخذت شكل مقالات
متتالية فى مجلة "الهلال" الأدبية الشهرية.

- ترجمت وراجعت العديد من الأعمال الأدبية الايطالية، منها:

- ترجمة أشعار لفرانشيسكو بتراركا وجوفانى باسكولى
وشيزارى بافيزى وأنطونيو بورتا.
- قصص لألبرتو مورافيا واينيو فلا يانو وميكيلى بريسكو.
- نصوص مسرحية للويجى بيرانديللو.

التصحيح اللغوى : نبيل سيد عبد الفتاح
الإشراف الفنى : حسن كامل

أيلزم أن أرى طفولتي؟ إن أكثر من خمسة عقود تفصلني عنها، وربما
تصل إليها عيناى اللتان تعانيان طول النظر إن كان الضوء الذى لا يزال
ينيرهما لا تمنعه عقبات من كل نوع، بل جبال حقيقية شاهقة: سنوات
عمرى وبضع ساعات.

ما العمل؟ من المحال حماية مهدك، وفى داخلك - أيها الطفل
الصغير - تأخذ تركيبة خفية فى التكون. وكل لحظة تمر تلقى فيه بمادة
رادة للفعل. هناك احتمالات عديدة للمرض بالنسبة لك لأنه يمكن أن
تكون كل لحظاتك نقية. ثم إنك - أيها الصغير - من الدم نفسه
لأشخاص أعرفهم. واللحظات التى تمر بها الآن يمكنها أن تكون
لحظات نقاء أيضاً.

رواية للكاتب الإيطالى إيتالو زقبيقو.